

















# النهضة الإسلامية

في  
القرن الرابع الهجري

أو

عصر النهضة في الإسلام

Die Renaissance des Islams

تأليف

الأستاذ آدم ميز

ADAM MEZ

أسناد اللغات الشرقية بجامعة « مارل » بسويسرا

نقله إلى العربية

محمد عبد الجباري أبو ريدة

تكله الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الثانية — مئة نسخة —

الطبعة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م







صورة صاحب السمو الخليفة المعصم مولاي الحسن بن المهدي العلوي حاكم دولة ملك  
المغرب الأقصى ، وناخب المهجبة العلمية ، ومؤسس المعهد العالي لطوار  
والتربية المغربية من آثار سموه من هذا الكتاب





# مُضِرٌ

هذا كتاب في الحصار الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، وهو العصر الذي بلغت فيه الحصار والعلوم والفنون الإسلامية ذروتها .

ألمه الأستاذ « متر » باللغة الألمانية ، وقد لفت نظري إليه فصولٌ كانت تُنشر في مجلة ( الثقافة الإسلامية ) Islamic Culture التي تصدر في حيدر أباد باللغة الإنجليزية ، وكان يقوم بترجمتها من الألمانية إلى الإنجليزية المرحوم حداثش ، فأعجبنى منها دقة البحث وحسن الاستقصاء ، والاعتماد على المصادر الكثيرة المتنوعة اعتماداً يدعو إلى الدهش ، ويستخرج العجب ، من الصبر على البحث ، والدأب في العثور على مادة الموضوع

وقد أحاط المؤلف سواحي الحصار الإسلامية من سكان ومال وإدارة وتجارة وعلم وفن وسياسة واجتماع ، وكشف سحره عن نواحٍ عامصة أحد يعالجها في صدر وأناة حتى حلها ، وكانت طريقة معالجته تكاد تقتصر على جمع المصنوعات الكثيرة المتعلقة بالموضوع من مصادر متعددة ، والاكتفاء بها ، من غير أن يدخل شخصيته وآراءه في المسائل إلا في القليل المأثر

وقد يؤخذ عليه أنه أحياناً يعسر عليه النص ، فيعجزه على غير وجهه ، وأحياناً يتردد النص ، وقد كان الإتيان به كاملاً يوضح رأيه أو يخالف وجهة نظره ، كما يؤخذ عليه أنه يستدل في بعض المسائل على رأي من واحد ، ولو عرّضت المصنوعات كلها لخرق الماحت منها رأي يخالف رأيه ، وأحياناً يراه ، بحكم عقيدته وشأته واعتماده على المصنوع فقط دون الروح والدوق الفنى والحو الإسلامى والوسط العربى ، يتردد في رأيه ، ويخطئ في نظره ولكن هذا كله لا يذهب بعظم قيمة الكتاب وفائدته للباحثين الإسلاميين ، فالكتاب يعلمنا طرق البحث العلمى ، ويقدم لنا درساً قيماً في صبر العلماء على معاناة البحث ، والاستناد إلى أكبر عدد من المصادر وعرضتها وأحد حير ما فيها ، ويكشف لنا عن نواحٍ من الحصار مجهولة



ولعل كثيراً من المآخذ التي عدناها يرجع إلى أن المؤلف قد عاجلته ميته والكتاب  
في مسوداته لم يديها ، ولم يصحها في شكلها الأخير

\*\*\*

رأيت الكتاب قد ترجم من الألمانية إلى الإنجليزية ثم ترجم إلى الإسبانية ، فقلت إن  
الأولى أن يُترجم إلى العربية ، فأهلها هم وارثو الحضارة الإسلامية ، وهم أولى أن يطلعوا على  
كل ما كتب فيها

فلما سمعت لي الفرصة لترجمته برعة بيت العرب في شر كتب قيمة في هذا الموضوع  
وأمثاله ، اتدنت له الأستاذ محمد عبد الهادي أماريدة ، كما اتدنته من قبل لترجمة كتاب  
الفلسفة الإسلامية للأستاذ دي بور ، فأبلى فيه بلاء حسناً

وعرفت أن كتاباً هذا يتطلب من مترجمه صبراً من حسن صبر المؤلف ، وكل  
صفحة منه تتضمن عدة مصادر ، واشترطت أن تنقل عبارات هذه المصادر بنص مؤلفها  
لا بمعناها ، وبعض هذه المصادر مخطوط بألمانيا وبعضها مخطوط بهولندا ، وبعضها مخطوط  
بفرنسا إلى غير ذلك ، فتقبل الأستاذ أماريدة القيام بهذا الجهد كله بنفس طيبة تحب العلم ،  
وحصر على الجهد ، وتستلذ العناء في سبيل علم ينشره أو حيز يقدمه ، وليس علم مقداره ما عانى  
في ذلك إلا الله ومن شاهدته أثناء ترجمته ونحته

وكان من حسن حظه وحظ الكتاب وحظ القراء أن أرسل إلى بعثة في فرنسا ،  
فأتاحت له هذه البعثة فرصة طيبة للاطلاع على المصادر في المكاتب الفرنسية ، ومكنت له  
من أن يسافر إلى برلين ، ويتصل بهولندا ليقوم بترجمة هذه المصادر كلها ، وله الشكر  
الحري على ما عانى ، وعلى ما قدم لقراء العربية من حيز ، ولست العرب الشكر على  
ما أتيق ، وعلى ما أتجه إليه من خدمة العلم

أحمد أمين

# كلمة المترجم

للطبعة الثانية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى سائر الأنبياء والمرسلين إلى يوم الدين وبعد  
فهذه هي الطبعة الثانية لكتاب «الحصارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» ،  
يسرني أن أقدمها للقراء والباحثين ، بعد أن لقي الكتاب من التقدير له والانتعاع به في  
مختلف ميادين السحت ما شجع على نشره من جديد

وإني لتعود بي الذاكرة ، عند مراجعتي للكتاب من جديد والإشراف به على  
طبعه ، إلى سنة ١٩٣٩ حين أعددت أصوله وبصوصه ورحمت هذا الجزء الأول ، والعالم  
يتأهب للحرب ، وخصوصا إلى عام ١٩٤٠ حيث أتممت ترجمة الجزء الثاني في باريس  
ومدريد ، والحرب قائمة تديق أوروبا والولايات وسبلل قلب العرب بها ، وتقلق روحه ،  
فلا يستطيع أن يتسلى عن ذلك إلا بالعمل وقد استطعت أن أرسل ترجمه الجزء الثاني ،  
رغم وقوف المواصلات البريدية ، مفرقة مع أحد زملائي الأفاضل في البعثة ، وهو الدكتور  
يحيى الحشاش ومع صاحب السعادة كامل السداري ناشا ، ورييرا المفوض في بروكسل  
آنذاك ، فلهما اليوم الشكر الذي لم أستطع أن املعه إليهما في تلك الأيام

وقد شاء القدر العجيب ، في أثناء الحرب وتقلباتها ومفاحاتها ، أن آيمّ دراستي ، بعد  
انقطاعها باريس ، في جامعة ناول سويسرة ، حيث كان مؤلف الكتاب استادا قبل  
عشرين عاما ، وأن أتلمذ على تلميذه وحليفه في منصبه ، وهو استاذي الكريم الفاضل  
العلامة المتواضع الأستاذ الدكتور رودلف تشودي (Rudolf Tschudi) وكان الكتاب  
أحيانا موضع حديثنا ، فاحب أن أنته القارئ إلى أن المؤلف كان يقصد من كتابه أن  
يسجل حصارة الإسلام في القرنين الثالث والرابع مع العناية الخاصة بالقرن الرابع ، ليكون

انه مُقاتلا ومُشاهدا لما كُتب عن حصاره عصر النهضة في أوروبا ، خصوصا ما كتبه  
 وب نوركهارت Jacob Burckhardt السويسري النازلي عن عصر النهضة في أوروبا  
 إيطاليا . ولعل هذا هو السبب في تسمية المؤلف لكتابه باسم Die Renaissance  
 des Islā ، أي « نهضة الإسلام » ، وهي عبارة مختصرة للدلالة على حصاره عصر  
 النهضة في الإسلام . وكما أن حصاره عصر النهضة في أوروبا كانت قائمة على إحياء الحضارة  
 نعمة في نواح كثيرة ومُقتربة بميلاد القوميات وتحرُّو الدولة الواحدة التي قام عليها ساء العصر  
 سيط في أوروبا إلى دول صغيرة ، فكذلك كانت حصاره الإسلام نوحه عام متصلة بإحياء  
 فات وحضارات متقدمة عليها ، وراد على ذلك في العصر الذي يتكلم عنه المؤلف ، وهو  
 رن الرابع الهجري ، انحلال دولة الخلافة الكرى إلى دول صغرى فلا عرابة أن يُؤحد  
 لف بهذا التشابه وأن يجعل له شأآ في وضعه اسم كتابه ، بل كأنه يؤكد ذلك بأن  
 يرى كثير من الأحياء وفي مواضع متفرقة<sup>(١)</sup> إلى أنه في القرن الثالث ، وخصوصا في  
 رن الرابع ، ظهرت بين المسلمين أفكار وطم ومذاهب وأساليب في الحياة وعادات كانت  
 بحودة قبل الإسلام عند أمم أخرى ، ثم عادت إلى الظهور من جديد ؛ ولعل هذا هو الدعامة  
 كبرى التي تسند إليها هذه التسمية التي لم يجد المؤلف ما يرصيه غيرها

وتم نقت أخرى أحب أن أنته على بعضها ، فمن ذلك ما لاحظته في مواضع كثيرة جدا  
 عداله هذا المؤلف في حكمه ، فهو لا يعرف التعصب ، ويدكر الأمثلة من الحضارة العربية  
 من غيرها ، بل يبين أن بعض ما نحده في تاريخ العرب أحيانا من قسوة سهر منها قد أحده  
 رب عن غيرهم كالنوريطيين وهو يؤكد ، في مواضع شتى ، خصائص الطبيعة العربية من  
 اها أحيانا مما يظهر في تاريخها من مساوى دحيلة عليها وهو منصف أيضا في تصويره للطم  
 إسلامية وفي مقارنته معاملة العرب لغيرهم معاملة غيرهم لهم وإن مقارناته المتنوعة واترابه  
 عدم مبالته في تقدير الوقائع الخريثة لمن الصفات التي يحب أن يرى الباحث نفسه عليها  
 هذا إلى أنى توحيا للدقه قد صححت الترجمة في مواضع متفرقة ، وذلك بفصل ما سري

(١) انظر مثلا أول الفصل الرابع عشر وأول الفصل الخامس عشر ، وخصوصا فصل التاسع عشر  
 من هذا كتابه ، مع ذلك

أثناء دراستي في جامعة مارل من اتقان اللغة التي كُتِبَ بها الكتاب ، كما أُنِي ردت تعليقات  
حديدة دون الإكثار منها

والمصوص التي في الكتاب هي كما في مصادرها ؛ فإن كان فيها شيء غير واضح ،  
خصوصاً فيما هو مأخوذ من مصادر مخطوطة ، فلا حيلة لي في ذلك ، لأن المصادر ليست  
كلها تحت يدي ، فالمصوص التي جمعتها لا تزال في أوروبا ، وأيضاً لأن الأصول الأولى  
التي كتبتها بيدي تلت بعد طبع الكتاب في عينتي ولكن هكذا كله لا شيء إلى جانب  
المصادر والمادة القيمة التي يصعبها الكتاب بين يدي الباحث

ويحتاج هذا الكتاب ، بطرالكثرة ما فيه من موضوعات في الفصل الواحد ولكثرة  
أسماء الأعلام ، إلى فهرس كبير ، أرحو إن شاء الله أن ألقه بالجرء الثاني الذي قد بدأنا  
طبعته الثانية

وأخيراً فإن قراءتي للكتاب من حديد بعد سبع سنين قد أتاحت لي اللذة التي دقتها  
مرة في ترجمته ، كما ذكرتني بطروف هذه الترجمة وما كان فيها من عناء  
وإني لأرحو أن ينال القاري ثمرة ما بُدِل من جهد ، وأن تكون هذه الثمرة له نافعة ،  
وما التوفيق إلا بالله

محمد عبد الرهاوي أنور ربرة  
مدرس بكلية الآداب بحامه مؤاد الأول

القاهرة في ٦ دي القعدة ١٣٦٦  
٢١ سبتمبر ١٩٤٧



# كلمة المترجم

للطبعة الأولى

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً يكافئ مريد نعمه وحريل إحسانه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد  
على آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين ، وبعد

فهذا كتاب يتناول الحصار الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، من حيث أصلها  
وتطورها ، احتاره أستاذنا الحليل أحمد أمين بك ، وشرقي بإسناد ترجمته إلى ، ليكون  
حراً من النشاط العلمي المحمود الذي يبعثه بيت العرب ولقد قبلت هذه المهمة متهيباً  
شعقاً ، بعد أن تلوث الترجمة مراراً ، ولقيت منها ما لقيت

غير أن الذي حثب إلى القيام بهذا العمل ، أنه ليس في كتب المستشرقين على كثرة  
بأليهم إلا كتب قليلة جداً تبحث في تاريخ الحصار الإسلامية<sup>(٢)</sup> على هذا النحو الذي  
سلكه مؤلف هذا الكتاب ، « آدم مير » المتوفى عام ١٩١٧ ميلادية كان هذا العالم أستاذاً  
لغات الشرقية بجامعة نازل (Basel) في سويسرة ، ويدل هذا الكتاب الذي أقدمه لقراء  
العربية على سعة اطلاع مؤلفه وعمقه في موضوع البحث ؛ فقد تناول الحصار الإسلامية  
في القرن الرابع الهجري من جميع نواحيها العقلية والمادية بعد أن راجع المصادر العربية وغير  
العربية مراحمه واسعة النطاق ، حتى لتعدّ مراجعته بالمئات ، وقد بلغ عدد المرات التي أشار  
إليها في الباب الواحد مثابياً أنصافاً في بعض الأحيان ، ومن حملة مصادره مخطوطات أرّنت  
على الأرخبين موحودة في مكاتب برلين وباريس وليدن وليسترخ وميونخ وفيينا واندن .  
وبعض هذه المخطوطات لم تنشر حتى الآن ، مع عظم قيمته ، كما أن المؤلف رجع إلى عدد

(١) . ل. الكتاب القديم الذي ألفه فون كريب (A. von Kremer) « دوان

Culturgeschichte des Orients unter den Chulifen, Wien, 1875 »

كثير جدا من المحلات العلمية الأوروبية التي سحث في شؤون الشرق  
غير أن الأهل أدركه ، وكتابه مكتوب بالآلة الكاتبة ، دون أن يتمكن من مراجعته  
مراجعة أخيرة تهيئته للطبع ومن غير أن يصع له مقدمة إلا أن قيمة هذا الكتاب كانت  
سبباً في إظهاره للباحثين ؛ فشره الأستاذ ريكيدورف (Reckendorf) عام ١٩٢٢ باسمه  
الذي اختاره المؤلف له ، وهو «عصر النهضة في الإسلام»<sup>(١)</sup> ، ثم ترجمه إلى اللغة الأسبانية  
سلفادور فيلا (Salvador Vila) ، وشره عام ١٩٣٦ ، وترجمه كذلك إلى اللغة الإنجليزية  
المرحوم صلاح الدين خداتخش الهندي الذي كان أستاذاً بجامعة كلكتا ، ومات قبل أن  
يتم الترجمة ، فأتمها الأستاذ مرحوليوت بجامعة أكسفورد ، ونشرت كاملة سنة ١٩٣٦

هذه الظروف في مجموعها جعلت الترجمة شاقة كل المشقة ، لأن المراجع تذكر بحيث  
لا يسهل الرجوع إليها ، وقد يذكر الكتاب أحياناً من غير ذكر مؤلفه ولا ذكر المكان  
الذي يرجع المبحث إليه للمقارنة ، أو قد يذكر المؤلف دون ذكر كتابه ، وفي كلا الحالتين  
كان يسدر أن يذكر رمان الطبع أو مكانه أو رقم الكتاب في المكتبة التي هو فيها ، إن كان  
مخطوطاً لذلك كان لا بد لي من البحث عن هذه المصادر في فهارس المكتبات الأوروبية  
للمطبوعات والمخطوطات ومراجعة ذلك وقد استطعت أن أحصل على المواضع التي أشار  
إليها المؤلف في المخطوطات ، وذلك بطلب تصويرها من مختلف مكاتب أوروبا ، كما راجعت  
بعضها بعني في باريس و برلين أثناء العام الماضي

كما استطعت بعد مراجعة الأصول العربية أن أصحح أخطاء كثيرة في المصوص أحياناً  
وفي المراجع في أغلب الأحيان ، كما أني ردت المراجع إيضاحاً يستهل الرجوع إليها ، و بقيت  
أشياء يسيرة جدا وصغت علامة استفهام إلى جانبها ليحاول معالجتها من شاء وكذلك  
وسعت بعض المصوص و بينت مبادئها ، لتكون مفهومة للقارئ العربي ومشعة لحاجته ،  
ودكرت أسماء الأعلام كاملة ، وعلقت تعليقات قليلة جدا يتطلبها المقام

على أني راجعت كل شيء تقريباً على الأصول التي ذكرها المؤلف مراجعة دقيقة طلباً  
للدقة والصبط ، وراعت فيما يتعلق بالمراجع العربية أن يكون الأسلوب متمشياً مع الأصل

العربي الذي أشار المؤلف ، لتكون بين يدي القاري 'حصارة القرن الرابع' لغة القرن الرابع  
ولغة رجاله ومؤاميه

وإذا كان القاري يرى في بعض الأحيان ما يشبه التعكك في العرص ، فراجع ذلك  
إلى أن الكتاب كتاب علمي يصط الوقائع وإحصائها والاستدماط منها

وقد ترجمت القسم الأول من هذا الكتاب وعرضته على الأستاذ أحمد أمين ،  
فتحصل قراءته من أوله إلى آخره قراءة دقيقة استعدت كثيراً من وقته الثمين ، وأبدى  
ملاحظات قيمة كان لها أكر الفصل في إخراج الكتاب على هذا النمط

ولا يفتني أن أعبر عن شكري العظيم للأستاذ پول كراوس المدرس بكلية الآداب  
لمعاونتي في فهم كثير من المقطع المعاصرة في الأصل الألماني

لقد كان أستاذنا الحليل أحمد أمين موقفاً كل التوفيق في اختيار هذا الكتاب للترجمة ،  
لكي يبشره بيت العرب في حملة الشررات القيمة التي يخدم بها الثقافة العربية وأرجو أن  
أكون قد وفقت أنا أيضاً في القيام بهذا العمل على الوجه الذي يحقق المنفع ، مع علمي بأن  
كل جهد فهو دون الكمال

وإني لأرجو أن أتمكن من ترجمة القسم الثاني وإكمله بالعهارس اللازمة للكتاب ،  
وإضافة ثلث المراجع خدمة للقاري

كما أرجو أن يسد هذا الكتاب فراغا كبيراً في تاريخ الحصار الإسلامية وأن يحرك  
همم المباحثين إلى العناية بتاريخ هذه الحصار و بدل ما تستحقه من جهود

والله ولي التوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير

محمد عبد الرهاري أنور

مارس في أول المحرم سنة ١٩٤٤  
٩ فبراير سنة ١٣٥٩

بكلية الآداب وعصره بعثه جامعة بغداد الأول مارس

## فهرس الكتاب

| الموضوع                                   | الصفحة |
|---|--------|
| تصدير . . . . .                           | ج      |
| كلمة المترجم للطبعة الثانية . . . . .     | ١      |
| كلمة المترجم للطبعة الأولى . . . . .      | ح      |
| الفصل الأول — المملكة الإسلامية . . . . . | ١      |
| » الثاني — الخلفاء . . . . .              | ١٢     |
| » الثالث — الأسراء . . . . .              | ٢٢     |
| » الرابع — اليهود والمصارى . . . . .      | ٤٤     |
| » الخامس — الشيعة . . . . .               | ٧٧     |
| » السادس — الإدارة . . . . .              | ٩٨     |
| » السابع — الوزارة والوزراء . . . . .     | ١١٣    |
| » الثامن — المسائل المالية . . . . .      | ١٤١    |
| » التاسع — رسوم دار الخلافة . . . . .     | ١٩٣    |
| » العاشر — الأشراف . . . . .              | ٢١١    |
| » الحادى عشر — الرقيق . . . . .           | ٢٢٣    |
| » الثانى عشر — العلماء . . . . .          | ٢٤١    |
| » الثالث عشر — علوم الدين . . . . .       | ٢٦٦    |
| » الرابع عشر — المذاهب الفقهية . . . . .  | ٢٩٣    |
| » الخامس عشر — القصاة . . . . .           | ٣٠٠    |
| » السادس عشر — علم اللغة . . . . .        | ٣٢٨    |
| » السابع عشر — الأدب . . . . .            | ٣٣٢    |





# الفصل الأول

## المملكة الإسلامية

في القرن الرابع الهجري ( العاشر الميلادي ) عادت المملكة الإسلامية إلى ما كانت عليه قبل الفتح العربي ، ونشأت فيها دولٌ صغيرة منفصل بعضها عن بعض ، كما كان الحال دائماً في تاريخ الشرق ، إذا استثنينا فترات قصيرة وقد تمّ هذا الانقسام حوالي سنة ٩٣٥ هـ - ٩٣٥ م

وشرع المؤرخون يسمّون الأحرار التي آلت إليها المملكة ، كأنهم يصقّون حسابها ، وهم يعتمدون في إحصائهم على مصدر واحد ، كما يدلّ على ذلك ترتيبهم لهذه الأحرار تعلّق كل رئيس على ناحيته ، وانفرد بها ، فصارت فارس والري وأصبهان والحل في أيدي بني نويه ، وكرمان في يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مصر في أيدي بني حمدان ، وأصبحت مصر والشام في يد محمد بن طُغُج الأحشيد ، والمغرب وإفريقية في يد الفاطميين ، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي ، وحراسان في يد نصر بن أحمد الساماني والأهوار وواسط والبصرة في يد البريديين ، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي ، وطبرستان وخراسان في يد الديلم ، ولم يبق في يد الخليفة إلا بغداد وأعمالها<sup>(١)</sup> وسنة ٩٣٢ هـ - ٩٤٤ م قتل أصحاب الأطراف ، وتعلّق كل واحد منهم على الصقع الذي هو فيه فعمل ملوك الطوائف بعد موت الإسكندر<sup>(٢)</sup>

على أن شجحا سيادة الخليفة بغداد ظلّ وهما مائلا في الأدهان ، والمسهودي نفسه يتكلم عن « عمل » أمير المؤمنين ، ويقل عن الفراري أنه « من فرانة وأقصى حراسان إلى طليحة بالمغرب ثلاثة آلاف وسعمائة فرسخ ، ومن باب الأنواب إلى حدّة ستمائة فرسخ ، ومن

---

(١) محارب الأمم لاس مسكويه ج ٥ ص ٥٥٣ - ٥٥٤ ، تاريخ ابن الأثير ، الطبعة الأوروبية ج ٨ ص ٢٤١ - ٢٤٢ ، تاريخ أبي الفدا تحت سنة ٣٢٤ هـ [ج ٢ ص ٣٩٨ من الطبعة الأوروبية] ، المسطوح في تاريخ الأمم لاس الحوري مخطوط رقم ٩٤٣٦ بالمشكاة الأهلية بربلن ص ١٥٨ ، الجزء الرابع من كتاب العمون والحداثق مخطوط بربلن أيضاً رقم ٩٤٩١ ص ١٥٤ ب - ١٥٥

(٢) مسروح الذهب للمسهودي ، الطبعة الأوروبية ج ١ ص ٦٣ ، ج ٢ ص ٧٣ والصفحات التالية

الماب إلى بغداد ثلاثمائة فرسخ ومن مكة إلى حدة اثنا وثلاثون ميلاً»<sup>(١)</sup> .  
على أن أصحاب الأطراف أو ملوك الطوائف كانوا يعترفون بالسيادة العليا للدولة ،  
ويقدمون للخليفة الدعاء في المساجد ، ويشتررون منه القاسم ، ويرسلون إليه الهدايا في كل  
عام ؛ فمن ذلك أنه لما تم لعصدة الدولة ابن تويته فتح كرمان في سنة ٣٥٢ هـ ، أُنْعِدَ إليه  
من الخصرة بغداد عهدُ الخليفة وحِلْعُهُ والعقدُ على أعمال كرمان كلها<sup>(٢)</sup> وكان مطهرُ  
سلطان الخليفة مصصته الخليل محسب ، وهو يشبه في ذلك قيصرًا من قياصرة الإمبراطورية  
الرومانية المقدسة في ألمانيا ، يحكم الأمة الألمانية وليس له عليها إلا سلطان قليل ولكن  
فكرة الدولة لم تَفْقِدْ ، رغم هذا ، ما كان له من القوة والسلطان ، حتى إن بني أمية في  
الأندلس لم يتخذوا لأنفسهم لقب الخليفة أو التسمية باسم « أمير المؤمنين » ، بل كانوا  
يسمون أنفسهم « بني الخلائف » ثم جاء العاطميون فكانوا أول من خرج على هذه  
القاعدة ، فلم يكتفوا بأن يكونوا أمراء دوى سلطة ديوية فقط ، بل أرادوا أن يكونوا الخلفاء  
الحقيقيين للشي [ عليه السلام ] ، فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان في سنة  
٢٩٧ هـ — ٩٠٩ م<sup>(٣)</sup> ثم أسرع تقيبة هذا اللقب إلى الهبوط حتى نجد حاكم سجلماسة ،  
حنوي حمال أطلس ، وكان حاكماً شديداً صغيراً ، يسمي نفسه بأمير المؤمنين في سنة ٣٤٢ هـ  
— ٩٥٣ م وهو اللقب الذي كان من قبل يبعث في النهس رهبة عظيمة<sup>(٤)</sup>  
ولما علم عبد الرحمن بالأندلس أن العلويين بإفريقية يلقبوا بأمير المؤمنين اتخذ لنفسه  
أيضاً لقب الخلافة ، وتسمى بأمير المؤمنين في سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م<sup>(٥)</sup>  
ولكن لم يكن من شأن هذا الانقسام وتعدد أمراء المؤمنين أن يؤدي إلى صيقي في  
معي الإسلام أو في الوطن الإسلامي ، بل صارت كل هذه الأقاليم تؤلف مملكة واحدة ،  
سميت مملكة الإسلام — وهو الاصطلاح الذي لم يستعمله السعودي — تمييزاً لها عن مملكة  
الكفر ، وقامت وحدة إسلامية لا تقيد بالحدود السياسية الحديثة وهذا عكس ما أشأ

(١) صروح الذهب ج ٤ ص ٣٧ — ٣٨ (٢) مسكويه ج ٦ ص ٣٢٣

(٣) كتاب العيون ص ١٧ ملاح عن ابن الحرار الموضح العربي الموفى عام ٣٩٥ هـ ٤ م

(٤) كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبد الله بن عبد العزيز الأكرى .

طبعة الجزائر عام ١٨٥٧ ص ١٥١

(٥) أبو الفدا تحت عام ٣٥٠ هـ ، فتح الطب للمقرئ ج ١ ص ٢١٢ ٢١٣

عن اتحاد الإمبراطورية الألمانية في القرن التاسع عشر<sup>(١)</sup>

يعتبر المقدسي أن مملكة الإسلام تمتد من كاشغر في أقصى المشرق إلى السوس الأقصى في المغرب ، وأنها تُقَطَّع في نحو عشرة أشهر<sup>(٢)</sup> أما عند ابن حوقل فحدود مملكة الإسلام هي شرقها أرض الهند و بحر فارس ، وغربها مملكة السودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسي ، وشمالها بلاد الروم وما يتصل بها من الأرمن والآلان والراين والخرر والتلغار والصقالية والترك والصين ، وحبوبها بحر فارس<sup>(٣)</sup>

وكان المسلم يستطيع أن يرتحل في داخل حدود هذه المملكة في ظل دينه وتحت رايته ، وفيها يحد الناس يعبدون الإله الواحد الذي يعنده ، ويصلون كما يصلّي ، وكذلك يحد شريعة واحدة وعُرفاً واحداً ، وعاداتٍ واحدة . وكان يوحد في هذه المملكة الإسلامية قانون عملي يصمّم للمسلم حقّ المواطن ، بحيث يكون آمناً على حريته الشخصية أن يمسّها أحدٌ ، وبحيث لا يستطيع أحد أن يسترقه على أي صورة من الصور<sup>(٤)</sup> وقد طوّف ناصر خسرو في هذه البلاد كلها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) دون أن يلاقى من المصايفات ما كان يلاقيه الألماني الذي كان ينتقل في ألمانيا في القرن الثامن عشر بعد المسيح [عليه السلام]

وكان الخليفة العاطمي على أشد ما يكون من المنافسة لبي العباس ، فكان يُحطَب له في اليمن والشام زيادة على إفريقية ومصر ، وكان لمذهب الفاطميين « دعاة منثون في كل صقع وناحية »<sup>(٥)</sup> ، وبدلنا هذه الحكاية الصغيرة على أن الخليفة العاطمي كان يُنسب له فعلٌ كل شيء . كان على صدر ررب للسلطان عصد الدولة صورةٌ لسبع من الفصة ، فسُرق ؛

(١) ربما يقصد المؤلف أن حركة الوحدة الألمانية في القرن التاسع عشر كان عرصها الوحدة . ولكنها انصرفت على بعض الألمان ، فلم تشمل النمسا وغيرها ، وبُترك أهل هذه البلاد كأنهم أحاب ، وكانوا يعاملون في ألمانيا معاملة الأحاب . وهذا خلاف ما سَأُ عن انقسام الدولة الإسلامية كإسباني على أن كلام المؤلف يطبق على الوحدة الألمانية في القرن التاسع عشر ، أما في عهد هبلر فقد اتجهت فكرة الوحدة الألمانية إلى إساء ما سمي ألمانيا الكبرى على أساس الجنس واللغة ، وقد صمت النمسا وغيرها ونفت ألقاب صغيرة كان صلبها من أسباب الحرب الماضية (المرحم)

(٢) المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طعة ليدن ١٨٧٢ ص ٦٤

(٣) المسالك والممالك ، طعة ليدن ١٨٧٢ ص ١ — ١١

(٤) لا نقول بعد هذا القول إلا بعض شرار الفرق كالفرامطة

كتاب المهرست لاسن الدم ، الطبعة الأوروبية ص ١٨٩



ومحب الناس كيف كان هذا مع هيبة عصف الدولة المرطمة ، وكونه شديد المعاقبة على أقل حياية ، ثم قامت الأرض في المحت من السارق ، فلم يوقف له على حذر ، فقبل عند ذلك إن صاحب مصر ، يعنى الخليفة الفاطمى ، دس من فعل هذا<sup>(١)</sup> وفى عام ٤٠١ هـ باع من حراة قرواش من الملقد ، أمير بنى عقيل ، أنه حطت للحاكم بأمر الله فى أسبانيا ، وأما ، ومى الموصل والأسار والمدائن والكوفة ، وذلك سمع العباسيين وبصرهم ، حتى أرسل الخليفة القادر إلى بهاء الدولة فسير إليه جيشا ، فمعت فرواس يعتذر ، ووطع الخطة للعائين ، وأعادها للقادر<sup>(٢)</sup> وكان الخليفة فى بغداد يحذ بعض العراء عما صاع من سلطانه حين يرى مثلا أن السلطان محموداً صاحب عربة ، وهو الأمير الذى أحد نحمه فى الصعود ، يُظهر له احتراماً عالياً ، ويوقه على انتصاره ، ويشكو إليه ما يحذ ؛ وفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) مثلاً أرسل الحاكم بأمر الله إلى السلطان محمود كتاباً يدعو فيه إلى طاعته ، فمعت محمود بالكتاب إلى الخليفة القادر بعد أن حرّقه وبق فى وسطه<sup>(٣)</sup>

وكان الراء على أئند ما يكون مما يتعان مكة والمدينة من دين الأراضى المقدسة ، لأن امتلاكهما أصبح له شأنٌ أكبر من دى قبل ، فلم يكن توحد من قبله ماسة للمحت فى علامة الخليفة الحقيقى ، أما الآن فقد ظهرت من تبايا الراء حول هذا المذهب باربه حايده ، هى أن أمير المؤمنين الحقيقى هو من دى ماسكاً للحرمين<sup>(٤)</sup> وهذه هى المطرقة الى يستند إليها اليوم فى إثبات حق العثمانيين فى الخلافة<sup>(٥)</sup>

وكان العلويون على الراء على الأراضى المقدسة هم الحسم الثبات الذى تأتى احدا فيعود باله يبه ، ولأن الحسمون هم يتمتعون دائما حول المدينة باله يبه عظام ، ولذلك استطاعوا أن يفتخوا مكة حوالى مئتين الف من اذاع الهجرى ، دون أن مائة من عليهم الطرفان الآخران ، وهما الاسيون والفاطيون ويرى فى أواخر هذا القرن فى البلاد المقدسة الحالة الى تراها اليوم بالمدينة هى مركز الحركة السياسى - وقد كانت العظمة السياسية

(١) المسطم ص ١١٨

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٦ ، اليوم الراهره لاس برى برى ، سرقة W. Popper

نكفور، ص ١٠٧

(٣) نفس المصدر ص ١١٤ (٤) مروح الذهب ج ١ ص ٣٦٢

(٥) والآن قد عبر هذا الموقف بعد إلغاء العثمانيين للخلافة مد عام ١٩٢٤ (المرحم)

قديمًا — ومنها يسير التيار السياسي إلى مكة ، وكذلك نجد الأشراف سادة للحرمين<sup>(١)</sup> وفي هذا العصر نجد مملكة الإسلام تعود من الناحية الجغرافية إلى حدودها الأولى ، وتفقد ممتلكاتها في العرب ، وكان البحر الأبيض المتوسط بعد عصر شرلمان قد أصبح بحرًا عربيًا ، واستطاع العباسيون منذ أوائل القرن الرابع أن يحافظوا على حدودهم العربية من اعتداء النوريطيين ، وكانت أبحار الانتصارات تُقرأ من أعلى المنابر بعدد . وفي عام ٢٩٣ هـ — ٩٠٤ م أخذ قرصان المسلمين مدينة سالونيق ، ثابته مدن الدولة النوريطية ، وهي مدينة كبيرة محصنة بأسوار وحصون وأبراج ، وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً<sup>(٢)</sup> غير أن رحى الروم بدأ سنة ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م باستيلائهم على مدينة ماطية<sup>(٣)</sup> وفي عام ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م وافت حيوش الروم إلى ديار بكر ، وبلغوا قرب نصيبين ، وطلبوا من أهل الرها أن يدفعوا إليهم المديلة الذي كان المسيح عليه السلام مسح به وجهه ، وصارت صورة وجهه فيه ، وذلك في مقابل إطلاق عدد من أسرى المسلمين ، وكوب الخليفة التي في ذلك فاستحضر الوحوش من أهل مملكته لأحد رأيهم ، وفام مدال عظيم بينهم ، وذكر البعض أن هذا المديلة مد الدهر الطويل في كنيسة الرها ، لم تاتمسه ملائكة من ملوك الروم ، وأن في دفعه إليهم خصاصة على الإسلام ، لأن المسلمين أسبق مديلة عيسى عليه السلام ، وفيه صيرة فقال على بن عيسى ، وهو الهاربر الميسر ، إذاك إن ملاح المسلمين من الأسر ، إراحهم من دار الكفر ، مع ما يتأسوه من الضرب والضرر أرحب وأحق ، وهيار جماعة ممن حصر على قوله ، وسلم المديلة إلى الروم ، فحملوه إلى القسطنطينية وحرقوا المطيريك وكادوا يمالقوا الله . ومضى أهل القسطنطينية إلى بلادهم ، وجمعهم بين بلادهم ، وجمعهم إلى الكنيسة العظمى أخيرًا ، وفيه إلى البلاط<sup>(٤)</sup>

(١) Snouck Huronje, Meccah, ١٩٠٥ ، وفيه بر الوصف الروم في الماءار بعدا كبرا (المرحم)

(٢) Journ. de la Société des Études Byzantines, LXXXI, ١٩١١, ٥٦٦

وكان هذا الراجح داله من من الأسرى

(٣) مسكوكات ج ٥ ص ٢٤٩

(٤) تاريخ سعد بن الله ، تاريخ يحيى بن سعد الاستاذي مخطوط رقم ٢٩١ المكتبة الأهلية بارس ص ١٨٥ — ب ، على أن المؤلف نشر أحيانا إلى نسخة مطبوعة أهلها إلى ذكرها بروكلمان في ملحق كتابه تاريخ العرب ج ١ ص ٢٢٨ من طبعه لندن ١٩٣٧ ، وقد وجدت الإشارة جعلتها كلها بحسب مخطوط بارس لصعوبة الحصول على النسخة المطبوعة (المرحم)

ويشكو السعودي من « ضعف الإسلام في هذا الوقت ودهانه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج ، وعدم الجهاد ، واقطاع السيل ، وفساد الطريق ، وانفراد كل رئيس وتعلمه على الصقع الذي هو فيه ، كفعل ملوك الطوائف بعد محيى الإسكندر ولم يرل الإسلام مستظهاً إلى هذا الوقت ، فتداعب دعايمه ، ووهى أشه ، وهى ستة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، فى خلافة أنى إسحاق إبراهيم المقي لله أمير المؤمنين ، والله المستعان على ما يحس فيه »<sup>(١)</sup>

أما الإمبراطورية البيزنطية فقد أسعدها الحظ فى هذا القرن ثلاثة قواد دوى كفاية بادرة ، يعاقبوا على عرشها ، وهم بقفور فوكاس (Nikephoros Phokas) ، وزيمسكيس (Zimiskes) ، وباسيليوس (Basilios) وقد مكث آحرم وأكفؤهم على رأسها حساً وحسين سنة . وفى سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م فتح بقفور حرية أقريطيش بعد حصار دام ثمانية أشهر<sup>(٢)</sup> ، وكانت هذه الحرية أكر عش للقرصان المسلمين . وبعد خمس سنين سقطت قرص فى يد الروم ، فلم تعد للمسلمين السيادة المطلقة التى كانت لهم فى البحر الأبيض المتوسط . وفى سنة ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م ورد بقفور حلب ، وفى سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م فتحت مدينة المصيصة<sup>(٣)</sup> ، وأخيراً وقعت طرسوس ، مع ما شجّل لأهاها من شجاعة ، وكانت أكر حص للإسلام فى وجه المعيرين عليه . وقد أحدها الروم بعد أن عظم بها الغلاء والوباء حتى بلغ الأمر بالناس إلى اكل الميتة . وفى عام ٣٥٧ هـ — ٩٦٨ م فتح بقفور حماة وحصها ، وأحد من حص رأس القديس يوحنا المعمدانى ، وكذلك فتح مدمه اللادقية . وفى الشتاء التالى سقطت مدمه أطلاكية بعد أن كان حائل للناس أسها لن نعلب<sup>(٤)</sup>

ولما أعار الروم فى سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م على الرثها وبواحبها ، وساروا فى ديار الحرية حتى ناعوا بصبين ودخلوا ديار بكر ، فعموا واستباحوا وقتلوا وسبوا وحرروا البلاد ، قصد بعداد من نحا من أهل تلك البلاد مستبشرين ، واجتمع معهم أهل بعداد فى الخوامع ،

(١) مروح الذهب ج ٢ ص ٧٣ والى بلها

(٢) محيى بن سعد ص ٩٢ ب (٣) نفس المصدر ص ٩٤ ب

(٤) نفس المصدر ص ٩٥ ب ، Michael Syrus, S 551



وأصابهم جميعاً غضبُ اليائسين ، فكسروا المأبروسموا الخطبَ ، وقصدوا دار الخليفة ، محاولوا الهجوم عليه ، واقتتلوا بعض شبايك دار الخلافة ، وحاطبوا الخليفة بالتعنيف ، ورامهم العلمان بالشباب من الرواشن<sup>(١)</sup> وقد اجتمع من استنصار العامة للعُزاة جمعٌ عظيم من العامة والأحلاف يبلغ رهائستين ألفاً ؛ فطلب عز الدولة مختار بن بويه من الخليفة المطيع لله أن يبعث له مالا يُحرّجه للعُزاة ، فامتنع الخليفة بحجة أن الأموال لا تُحى إليه ، فلا تلمه العقّة على العُزاة ، وهذد بالاعتزال ، وتردّت الرسائل بيه وبين مختيار ، حتى بلغ الأمر التهديد ، فبدل المطيع أربعمائة ألف درهم ، واحتاج في ذلك إلى بيع تيانه وأنقاص داره من ساج ورصاص ، وتنازع بين الحجاج أن الخليفة قد صودر « ثم تحرّبت العُزاة إلى سديين وسبعة ، ووثب بعضهم على بعض ، وأعرضوا عن ذكر الروم حاسماً ، ولما قص مختيار المال صرفه في مصالحه ، وبطل حدث العُزاة<sup>(٢)</sup> »

وفي عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م فتحت بعلبك وبيروت ، وأُخذت من بيروت صورة المسيح التي نسب إليها الخوارق ، ونقلت إلى الكيسة التي أسسها ريمسكيس في قصر البربر بالتسطينية أما أهل دمشق فقد اضطروا إلى أن يقتدوا أنفسهم بدفع ستين ألف دينار ، يحملوها للروم في كل عام<sup>(٣)</sup>

أما في حروب المملكة الإسلامية فقد حافظ المسلمون على الحدود التي كانت للرومان قديماً ، وصدّوا هجمات النوبة ويحدثنا السعودي وهو بمصر في عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م أن النوبة كانوا قد صولخوا مد ولاية عبد الله بن سعد على رؤوس من السني معلومة ، وأن هذا السني صار سنة حارية في كل سنة إلى عهده ، ويُدعى هذا السني بأرض مصر والنوبة بالتقط ، ويقصه نائب أمير مصر المقيم ببلاد أسوان<sup>(٤)</sup> وفي عام ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م سار

(١) يحيى بن سعيد ص ١ ب ١ — ١١ ١ ، والمسلم ص ٤ ١١ ، وابن الأثير ح ٨ ص ٤٥٤

— ٤٥٥ ، والحووم الراهرة لأن الحاس بن عري بردي ، طعة لادن ١٨٥٥ ح ٢ ص ٤٣٥

(٢) مسكويه ح ٦ ص ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ويحيى بن سعيد ص ١ ب ١ — ١١ ١ ، وابن الأثير

ح ٨ ص ٤٥٥ — ٤٥٦ ، وأبو الحاس في هس المصدر ح ٢ ص ٤٣٦

(٣) يحيى بن سعيد ص ١ ب ١ ، Jean Ebersolt, Le grand palais de Constantinople,

Paris, 1910, p 22

(٤) مروح الذهب ح ٣ ص ٣٩ — ٤



عسكر مصر وفتحوا مدينة أريزم ، وهي آخر حصون المونة مما يلي مصر<sup>(١)</sup> . وفي أقصى الجنوب العربي دخلت في الإسلام مدينة أودعشت ، وهي المدينة التجارية الكبرى في عرب الصحراء الإفريقية ، فصارت هذه المدينة أقصى نقطة للإمبراطورية الإسلامية من ناحية وسط إفريقيا<sup>(٢)</sup>

على أنه إذا كان سلطان الإسلام كان يحصر عن بلاد في العرب ، فقد كان يماثل ذلك تقدمه المستمر في الشرق في عام ٣١٣ هـ — ٩٢٥ م فتحت بلوستان ، وكانت حتى ذلك الحين على الوثنية<sup>(٣)</sup> وفي سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م أسلم من الأتراك نحو من مائتي ألف حركة<sup>(٤)</sup> وعلى حين أنه في أواخر القرن الثالث الهجري كانت أسيحاب<sup>(٥)</sup> آخر مدينة للمسلمين مما يلي الترك ، فإن دخول غزاحان في سلك أمراء المسلمين جعل حدود المملكة الإسلامية تمتد إلى حوض مهر التاريم . ويعتبر المقدسي أن مملكة الإسلام تنتهي حدودها إلى كاشغر<sup>(٦)</sup> وفي عام ٣٩٧ هـ — ١٠٠٦ م كان أهل بلاد خن مسلمين<sup>(٧)</sup> وفي ذلك الوقت سمر السلطان محمود بن سبكتكين ، صاحب عربة ، وأحضر بلادا واسعة من بلاد

(١) في س. عدد س ٩١ ب ، وكاتب الخط المهريري طبعه بولاق ١٢٧٠ هـ - ١٢٨١ م .  
(٢) وقد ذكر المهابي الذي كتب في عام ٣٧٠ هـ أن ملك كوكار أو دار ، كان اسمه بالإسلام وأكرمهم ، وأمر به (معهم اللذان أضاف ح ٤ س ٢٢٩ من اللذان أضافه ) ، وكان الكري وان س. عدد س ١٠٠ ب (أصل VII) (A. H. 1000, p. 15).  
(٣) مسكوه ح ٦ س ٢٤٩

(٤) م. كوا ح ٦ س ٢٤ ، وكاتب العيون ، ٢٦٩

(٥) كتاب اللذان المهريري طبعه لندن ، ١٨٩١ ، ص ٢٩٥ . وفي الأصل ،  
إنه لم يأت في نسخة صدرم إلى نعم على مساهمة سبعة عشر كياو ميرا ،  
ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، وقد وافق على هذا أيضا (في ١٠٠٠) (A. H. 1000, p. 15).  
و. جردار (A. H. 1000, p. 15) ،  
عمر محمد ، أن السبعين (المؤرخ عام ٥٦٢ هـ - ١١٦٧ م) ، وكان في الأصل ،  
عن أ. ج. ب. أرها مدع كرم ، (أصل كتاب مؤلف اللذان لاني الذي ذكره في ١٠٠٠) (٤٨)  
و. جردار في معجم اللذان (ح ١ س ٢٥٠) بأن أسسها جردار عام ٦١٠ ، ١٢١٩ م .  
ولكن الرجال تشاو تشو ح (Cincing) يحكي أنه في نوفمبر سنة ١٢٢١ م برز على ساحل  
(أصل) Bratscheider, Medieval Research 1, S 74

(٦) المقدسي س ٦٤

(٧) J. Marguerite Gervais, Bericht über die Bekämpfung der Uiggen, SBBA, (٧)

الهند لسلطان الإسلام ، وكانت علامة الثقة عند ملوك الهند أنهم يقطعون أصابعهم ، « وكان  
عند السلطان محمود من أصابع من هاديه الكثير »<sup>(١)</sup>

ولا يريد أن تعرض لها للبحث فيما إذا كان انقسام دولة بني العباس دليلا من دلائل  
التدهور ، إذا نظرنا في هذه المسألة بمطار هذا العصر الذي يعيش فيه والذي يحكم في مثل  
هذه الأحوال على أساس الكم وعلى أساس ما يسمونه بالوحدة ، على أننا نستطيع أن نقول  
أن الإمبراطوريات العالمية الكبرى ترتكر دائما إما على شخص رعيم عقرى ، وإما سوع  
خاص على وعود طائفة من أهل الخشونة والقوة الوحشية ؛ ووجود هذه الإمبراطوريات على  
كلتا الحالتين وعود غير طبيعي على أننا لا نجد في مصر على عهد الإخشيد وكافور والفاطمين  
ما يدل على تأخرها ، بل هي قد كانت مبيعة الخائب ، واهرة المدة ، عطيمة الخيرات ،  
وكذلك شهد الرجالون بمواقف السامانيين وعدلهم وشريف أعمالهم وما كان لملكهم  
من عطمة ومنعة<sup>(٢)</sup> أما بغداد فهي التي قد سكرت لها الأنعام ، وذلك منذ عام ٣١٥ هـ —  
٩٢٧ م حين أرقها العتارون ، وعاثوا فيها فسادا ، وأعملوا فيها الهب<sup>(٣)</sup> لأول مرة ، ثم  
صار أمرهم يتعاقم كلما ضعفت الحكومة ، وكانت أسوأ أيامها السنوات التي أفلت فيها الرمام  
من يد الحكومة فيما بين مقتل محكم ودحول بني بويه ، أي ما بين عامي ٣٢٩ هـ و ٣٣٠ هـ  
= ٩٤٠ م — ٩٤٥ م ، وكأما كان سقوط رأس القبة الحصراء التي في قصر المصور بمدينة  
السلام عام ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م إرهابا بأفول محم بن العباس ، وكانت تلك القبة « الح  
بغداد وعلم البلد » ، وكان لياقة سقوطها مطر عظيم ورعد و برق شديد<sup>(٤)</sup> وفي سنة ٣٣١ هـ  
— ٩٤٢ م استطاع ابن حمدي ، وهو ابن طهر بغداد على رأس جماعة من أنصاره ، أن يأتى ب  
أموال أهل بغداد ، وكان قد أعياى السلطان أسرته ، وحاج عليه ابن ميرراد ، وواقفه على  
أن يصحح في كل شهر خمسة عشر ألف دينار مما سرقة هو وأصحابه ، وكان ستة فمها  
ويأخذ البراءات ورورات الجهد مما يؤديه أولا فأولا

(١) المصطفي ص ١١٨١ — ب

(٢) ابن حوقل ص ٣٤١ والصفحات التالية

(٣) ابن الأثير ح ٨ ص ١٢٦

(٤) المصطفي ص ١٦٧ ، وكتاب العيون ص ١٩١ ب

وكان ابن شيرداد في ذلك الوقت كاتباً للقائد التركي المسمى تورون ، فكان أمرُ الحكومة في يديه ، ومضى على الناس في أيام ابن حمدي وقت تحارسوا فيه بالوفقات في الليل ، وامتنع عليهم اليوم حوفاً من كنسات هذا اللص وأصحابه<sup>(١)</sup> وحلت المبال من بعدد من أهلها ، وصاروا يطلبون من يسكن الدار نأخرة يُعطاهما ليحفظهما ، وأُعلقت عدة حمامات ، وتمطلت أسواق ومساحد<sup>(٢)</sup> ، وأُصيف إلى هذا ما كان بين السنيين والشيعة من راع دائم ، فكانوا يُلقون النار بعضهم على بعض دائماً وفي سنة ٣٦١ هـ - ٩٧١ م قامت بالكرخ فتنة ، فأرسل الوزير حاحيه لقتال العامة ، وكان شديد العصبية للسنة ، فاضطر إلى إلقاء النار في أماكن كثيرة ليقصى على الفتنة ، فاحترق الكرخ حريقاً عظيماً ، وكان عدة من احترق فيه سبعة عشر ألف إنسان ، وثلاثمائة دكان ، وثلاثة وثلاثين مسجداً ، ومن الأموال ما لا يُحصى وبدأ الناس ينتقلون من الجانب العربي إلى الجانب الشرقي ، ولا يزال هذا الجانب إلى اليوم أعمر وأكثر سكاناً<sup>(٣)</sup> وفي عام ٣٣٢ هـ - ٩٧٢ م تولى ابن شيرداد القيادة بعد موت تورون ، فأخذ في المصادرات ، وقسّط على العمال والكتاب والتجار وسائر الناس بعدد ما لا لأوراق الحد ، وكثرت الصرائب حتى تهارب الناس من بعدد وفسد الأمن ، وكثرت كنسات اللصوص ، حتى إهم دخلوا دار أحد القصاة ، فتساق حائطاً ليحومنه ، فوقع ومات<sup>(٤)</sup>

وفي هذا العصر يصف المقدسي بعدد فيقول إنها « كانت أحسن شيء للمسلمين ، وأحلّ بلد ، وموق ما وصفنا ، حتى ضعف أمر الخلافة ، فاحتلب ، وحفّ أهلها ، وأما المدسة شراب ، والجامع فيها يعمر في الخمت ، ثم يتحللها بعد ذلك الحراب وهي في كل يوم إلى ورا ، وأحشى أهلها تعود كسامراً ، مع كبرة الفساد والجهل والفسق وحوار السلطان<sup>(٥)</sup> » ويدكر الصابي عن جماعة من الناس أنهم في عام ٣٩٢ هـ - ١٠٠١ م

(١) كتاب العيون ص ٦ ٢ ب

(٢) المسظم ص ١٧٢

(٣) يحيى بن سعيد ص ١ ب - ١١ ١ ، وابن الأثير ح ٨ ص ٤٦٢

(٤) كتاب العيون ص ٢٢٩ ب - ٢٣

(٥) المقدسي ص ١٢

شاهدوا صينيّة الكرخ فيما بين طرق الخدّائين والبرّارين ، والفواحت والعصافر تمشى في  
أرضها انتصاف النهار ، وفي الوقت الذي جرت العادة بآردحام الناس فيه بهذا المكان ؛  
وذلك لأنّ البلد كان قد خرب ، وانتقل أهله عنه<sup>(١)</sup> ولأجل هذا لمحمد المقدسي يشيد بذكر  
مدينة المصطاط بمصر ، ويقول إنها « ناسح بغداد ، ومعجر الإسلام ، ومتجر الأمان ، وأحلّة  
من مدينة السلام »<sup>(٢)</sup> ولقد ظلت عاصمة مصر منذ ذلك الحين أكبر مدن الإسلام

---

(١) كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لأبي الحسن الهلال بن المحسّس بن إبراهيم الصائغ ، نشرة

أمدور سروت سنة ١٩٠٤ ، ص ٤٣٩

(٢) المقدسي ص ١٩٧



## الفصل الثاني

### الخليعة

لما ثقلت العلة على الخليعة المكتنى في عام ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م كان الوريث أبو أحمد العباس بن الحسن راكماً من داره يوماً ومعه ، كما حرت العادة ، أحد الكتب الأربعة الدين تتولون الدواوين ؛ فشاوره فيمن يرشح للخلافة بعد المكتنى ، وكان الوريث يميل إلى ابن المعتز ، فأحابه الكاتب ، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن العرات الذي صار وريثاً فيما بعد ، أنه يحب ألا يولى في هذا الأمر من عرف دار هذا وبيعة هذا وستان هذا ، ومن لى الناس ولقوه ، وعرف الأمور وحسبته التجارب ؛ فقال الوريث صدقَ والله يا أبا الحسن ، فمن تتلد ؟ فأشار ابن العرات بتقليد حمير بن المعتصد ( الخليعة المقتدر ) ، « فإنه صبي لا يدري أين هو ، وعامة سروره أن يُصرف من المكتنى » ، فالتفت من الوريث إلى ذلك ، وعمل على تقليد المقتدر ، وكان صبياً في الثالثة عشرة (١)

وبما أن المقتدر كان صبياً ، كان ابنه لا يملك له شيء ، فسمح أحد القضاة ، لأنه أطاع صبياً ، حينئذ ، قال هو صبي ، ولا دور المماثلة له (٢)

٢٠ الجماعة المتأخر من أهل الأندلس ، فإن أم المقتدر ، وهي أم ولد ، ولدت له ، وب  
على ربه الأمر هي وأولادها ، والذين كانوا في داره ، وكانوا في داره ، وكانوا في داره ،  
وبين أرباب بيت المال ، مما يال ، عزمها ، وعزمها ، عزمها ، عزمها ،  
عزمها ، كان يروى أنها ، كما في النصوص ، أنه كان ، ما عزمها ، عزمها ،  
شعر بشار ، وبين يدي إلى كتب أمه ، وكتب أحبار ، ادحا ، حدم ، من ، عزمها ،  
حدثنا ، وهي شعب أم المقتدر ، ما جدوا مع ما بين أيديهما من الكتب ، عزمها ، في ، دليل

(١) كتاب العيون ص ٥٩ ب ، وكتاب الرءاء ص ١١٤ — ١١٦

(٢) ص ٢٨ تاريخ الطبري لعرب بن سعد القرطبي ، طبعه دي عوى ، لندن ١٨٩٧ ص ٢٨

أبصر كان معهم ومصوا ، فوحم الراصي واعتاط ، فسكن منه أستاذة ، وأهمه أنهم أرادوا أن  
 يمتحنوا الكتب ؛ ولما مضت ساعتان أو نحو ذلك ردّوا الكتب بحالها ، فقال لهم الراصي  
 قولوا لمن أمركم بهذا قد رأيت هذه الكتب ، وإنا هي حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار  
 وكتب العلماء ، ومن كمله الله بالطر في مثلها ، ويضعها ، وليست من كتبكم التي سألتمون  
 فيها مثل عجائب البحر وحديث سيدنا والسنور والعار ، تخاف الصولي أن يؤدّي الخدم قوله ،  
 فيقال من كان عبده ؟ فيدكرونه ، ويلحقه من ذلك مكروه<sup>(١)</sup> ، فقام إلى الخدم ، فسألهم ألا  
 يعيدوا قوله ، فقالوا والله ما نخطئه ، فكيف يعيده<sup>(٢)</sup> ؟ وقد لست المقتدر على عرش الخلافة  
 رهاء خمسة وعشرين عاماً ، تحت حماحي أمه ، وقد حلع في أثناء هذه المدة مرتين ، وكان  
 يشور عليه بعض قواده ويريلونه عن سرير ملكه يوماً أو يومين ، ثم يعود إليه ، ولم يجرح  
 في حيتس ليقاتل إلا مرة واحدة ، وقد قُبل فيها ؛ وذلك أن قواده طلبوا منه أن يجرح معهم  
 لمحاربة مؤس ، فأبى ، وما رالوا به حتى حرج كارهاً ، وقد حَهِدَتْ به أمه ألا يجرح ،  
 وكشفت عن تديبها ، وبكت ، ولكن علب القضاة ، فخرج وعليه الردة السوية التي  
 يتوارثها الخلفاء ، ووافى أصحاب مؤس ، فصره ، رحل<sup>٣</sup> منهم من حلفه صرّة سقط منها إلى  
 الأرض ، فأصعبه ، ودبحه بالسيف ، وسُلّت تيباه والردة فيها حتى سراويله ، وترك  
 مكشوف العورة إلى أن مرّ به رحل من الأكرّة ، فستر عورته بحشيش ، وكان المقتدر رَنع  
 القامة ، إلى القصر أقرب ، ذرّى اللون ، صغير العينين ، أحور ، حسن الوجه والالحية  
 أصهبهما<sup>(٤)</sup> ، وكل ما يسكى عنه يدل على الهدوء وحب الخير وسلامة الصدر كان الوريير  
 أو الحسن على من عاصى نطّاق في كل شهر في حملة نفقات المطبخ لثم المسك نحو ثلاثمائة  
 دينار ، وكان يوما عبد الخليفة فدار بهما الحديث ، وعلم الوريير من سياق الكلام أن الخليفة  
 لا يأكل طعاماً فيه مسك ، ولا يطرح له من المسك إلا اليسير في الحشكباح ، ثم مهص  
 الوريير ومشى للحروح ، فأمر المقتدر بالله برده ، وقال له أظنك تنصرف الساعة ، وبقتح  
 بطرك باحتصار المتولّي للمطبخ ومواقفته على ما جرى بيها في أمر المسك ، وتُسَقِّطه ، فقال

(١) كتاب الاوراق للصولي ، مخطوط المكتبة الأهلية بباريس رقم ٤٨٣٦ ص ٨ — ٩

(٢) السيرة والإشراف للمسعودي طبعه دي عوى سنة ١٨٩٤ ، ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ، ومسكوه

ح ٥ ص ٣٧٩ ، وعرب ص ١٧٦ والصفحات البالية ، وكتاب العيون ص ١١٣

كذلك هو يا أمير المؤمنين ! فصحت الخليفة وقال أحب ألا فعل ذلك ، فلمل هذه الدباير تنصرف في أقوات وبعقات قوم ، ولا أريد قطعها عنهم<sup>(١)</sup> ؛ وكان المقتدر كثير الشراب<sup>(٢)</sup>

ثم انتحب أخوه القاهر خليفة بعده ؛ وكان القوم قد اتعطوا بحكم المقتدر ؛ فعتبوا القاهر ، وقالوا هو كهل ، ولا أم له ، فراحوا أن تستقيم أمورنا معه<sup>(٣)</sup> وكان القاهر أيضا مريوا ، حسن الجسم ، أبيض ، تعلوه حمرة ، أعين ، وافر اللحية ، ألتع<sup>(٤)</sup> وفي سنة ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م قامت ثورة قُصِدَ منها حلعُ المقتدر وتصيب أخوه القاهر مكانه فأخذت ، وحمل القاهر إلى أخيه فاستدناه ، وجعل يُهدّي من روعه ، ويلتمس له العذر ، ويُترّثه من إثم المؤامرة ، وهو يقول نسي نسي ، الله يا أمير المؤمنين ! يرحو أحاه أن يبقى على حياته<sup>(٥)</sup> وكان القاهر أهوج ، شديد الإقدام على سمك الدماء ، محبا للمال ، قبيح السياسة ، قليل الرعة في اصطناع الرجال ، غير معكر في عواقب الأمور ، وكان مولعا بالشراب ، لا يكاد يصحو من السكر ، وكان يسمع العناء ، ومع ذلك حرّم على الناس الخمر والقيان<sup>(٦)</sup> ؛ ولكنه وُقِّقَ إلى القضاء على مؤسس القائد رعم ما كان لمؤسس هدا من سلطان عظيم<sup>(٧)</sup> ، كما أنه وفر كثيرا من المال ، ولما طلب منه أن يشهد على نفسه بالخلع أي أن يحل العالين من بيعته ، فخلع ، وسملت عيابه ، ولم يستمل قبله أحد من الخلفاء وملوك الإسلام<sup>(٨)</sup> وسمل الأعين هدا عادة أحدها المسلمون عن البوريطيين ، ثم عاش القاهر بعد خلعه سبعة عشر عاما في دار الخلافة ، حتى نقله المستكفي منها ، وكان قد باع به العشر والفقر إلى أن كان مثلها نقط حنة ، وفي رحله قنقاب حشب<sup>(٩)</sup> وقد حرج في يوم جمعة إلى جامع المنصور

(١) كتاب الوراء ص ٣٥٢ — ٣٥٣

(٢) تاريخ الإسلام للدهلي ، اطر المقدمة الإخلافة التي كتبها أمدرور لكتاب الوراء

المقدم ، ص ١١

(٣) عريب ص ١٨١

(٤) الدية للسعودي ص ٣٨٨ ، وكتاب العون ص ١٤٢ ب

(٥) كتاب العون ص ١٢٤ ب

(٦) مسكويه ، ج ٥ ص ٢٤ ، الدية ص ٣٨٨ ، عرب ١٨٥

(٧) مسكويه ، ج ٤ ص ٤١٩ (٩) (٨) الدية ص ٣٨٨

(٩) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٣٢ — ٣٣٣



وعطى وجهه ، ووثف معرف الناس نفسه وسألم أن يتصدقوا عليه ، فقام إليه أحد الهاشميين فأعطاه ألف درهم وردّه إلى داره

ولما عُيِّنَ الراصى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ = ٩٣٣ — ٩٤٠ م) ابن أحمى القاهر حليفة كان له من العمر خمسة وعشرون سنة وكان أسمر ، أعين ، دون الأتقى ، مسنون الوجه ، حفيف العارصين واللحية ، دحداحا بحيفاً<sup>(١)</sup> وكان محال للشعر والإشاد ، ومن أحسن الناس علماً بالشعر ونقداً له ، كما يقده العلماء ، وكان من أطع ملوك بني العباس في الشعر ومن أكثرهم قولاً له ، وقد ترك لنا من ذلك ديواناً مكتوباً . وكان مولعاً بجمع اللؤلؤ حتى يقول الصولى وما رأيت اللؤلؤ عند ملك أكثر منه عند الراصى ، ولا عمل ملك منه ما عمل ، ولا بدل في أثمانه ما بدل ، حتى احتج له من آتته ما لم يحتج لملك قط<sup>(٢)</sup> وقد أولع بهدم القصور في دار الخلافة وساء غيرها أو تصييرها ساتين<sup>(٣)</sup> وكان الراصى سمحاً ، عظيم العطاء ، واسع النفس ، يفتق ما وجد ، ويحكى أنه دخل عليه جماعة من الخساء ، وهو يهدم شيئاً ويبنى شيئاً ، وكان حالساً على آخرة جمال الصباغ ، فأمرهم بالخلوس في حصرتة ، فأخذ كل واحد منهم آخرة مجلس عليها ، فلما قاموا أمر أن تورن آخرة كل واحد منهم وتُدفع إليه ورثها دراهم أو دنانير<sup>(٤)</sup> وكان ابن الأسارى يتردد إلى أولاد الراصى ، ونُحكي عنه أنه مضى يوماً إلى سوق المحاسين ، وحارية تُقرص حسنة كاملة الوصف ، فوقعت في قلبه ، ثم مضى إلى دار أمير المؤمنين الراصى ، فقال له أين كنت فعرفه ، فأمر بشراء الحارية له ، وجعلها إلى مبرله ، فلما جاء إليه وحدها هناك<sup>(٥)</sup> ولم يجد أصحاب الراصى فيه من العيب إلا أنه كان يؤثر لدته وشهوته على رأيه ، وأنه كان ، رغم مرضه ، لا يحتسى ، وكان إذا وصف له أطاؤه شيئاً لا يستعمله ، وإذا أكل الشيء الصار لم يُعلمهم<sup>(٦)</sup> ، ومات وهو في الثانية والثلاثين من العمر<sup>(٧)</sup> ، وفي آخر علقته أحد في قصاء ديوبه ، وتقدّم بعمل الغتسل والتابوت ،

(١) كتاب العيون ص ١٨٤ ب ، والنسبة للسعودى ص ٣٨٨

(٢) الأوراق للصولى ص ٢٧ (٣) المسطم ص ١٥١

(٤) نفس المصدر ص ١٥١ — ب فلا عن الصولى (٥) المسطم ص ٦٥ ب

(٦) الأوراق للصولى ص ٥٥ ، وكتاب العيون ص ١٨٢ ب ، فلا عن دكاء ، مولى الراصى ،

ودلك من طريق الفرغانى الذى كان دكاء يحكى له بعض الحكايات اطر ملاص ١٢١٥ — ٢١٥ ب

(٧) كتاب العيون ص ١٨٤



واحتار لنفسه ثياباً لثمنه ، وعرفها في سبط ، وكتب رقعة فيها هذه حمار الآخرة<sup>(١)</sup> ،  
ولسكن عهده لم يستلم من سبط الدماء ، فقد احتال على الدير اس مقلّة بعد تركه الوزارة ،  
حتى قدس عليه وسجنه وقصص على جماعة من أهله وأغار به ممن سعى في قايده الأمر لنفسه  
وباعه الناس عليه ، فمهم من قتله ، ومهم من صر به وسجنه ، فمات في سجنه ، ومهم من  
استتر طول مدته<sup>(٢)</sup>

ثم ارتقى عرش الخلافة بعده أخوه المتقى ، وهو في السادسة والعشرين من العمر ؛ وكان  
رُبعه دُرِّي اللون ، حسن الوجه ، أبيض ، أشهل ، مستدير العينين ، مقرون الحاجبين ،  
قصير الأنف ، في شعره شُقْرَةٌ وَجُودَةٌ<sup>(٣)</sup> ولم يشرب البید قط ، وكان يتعبد ويصوم ،  
ولم تتحد جلساء له ، وكان يقول : المصحف يديني ولا أريد جاساً غيره<sup>(٤)</sup> ؛ ولكنه كان  
رحلاً لم يفارقه المؤس ، فلم يزل فيه إلى أن مات ، فمن ذلك أنه لما أريد أن يُنذر له ،  
وهو صغير ، عمل له كل شيء حسن ، فكان فيما أُعِدَّ له عشر وصائف المديبات وكبران  
الماء ، وأمر بأن سَطِّمُوهُنَّ ويرَّيُوهُنَّ ، فأدخلوا قبل أن يُنذر له ليلة الحتام ، فسقط عليهن ،  
فما أفلتت مهن واحدة ، فكان هو يُحْتَسُّ وأولئك يُذْفَنُّ ؛ ويقال إنه مسد شأ ما حمل  
رسبه خادم لخصامته إلا مات ، فكان الخدم إذا عرِضت خدمته عليهم استمعوها ؛  
وقد ركب مع اس رائق يوماً في رحمة الحسر ، فاجتمع الناس يدعون له واردحوا للخطر إليه ،  
فانقطع الكرسي وسقطوا إلى دحلة ، وهي رائدة ، فهلك في ذلك اليوم عالم عظيم من الأولياء  
والنساء والصبيان<sup>(٥)</sup> وطل المؤس حليفاً له بعد ارقائه العرش ، وهو أول حامية ترك  
« مديته السلام » خوفاً وطاماً للمجاهد ، ولحق بالمدائين ، وطل « تعمل معهم في الحرية ، وهم  
هزموه مرة بعد أخرى ، وقد أشار عايبه الإحسد محمد بن طنج ، بعد أن كتب إليه  
يستقدمه ، أن يسير معه إلى مصر والشام ، ويكون بين يديه ، فلم يفعل<sup>(٦)</sup> وقد اطمأن إلى

(١) نفس المصدر ص ١١٨٣

(٢) نفس المصدر ص ١٦١ ب ، ١٨٤ ب — ١١٨٥ ، وكتاب الأوراق ص ١٤٨ — ١٤٩

(٣) كتاب العيون ص ١٢٢١ ، وكتاب السيرة ص ٣٩٧ ، والمخطوط ص ٦٦ ب

(٤) المخطوط ص ٦٦ ب

(٥) كتاب العيون ص ١٢٢٢ ب

(٦) ابن الأثير ح ٨ ص ٣٣ — ٣٤ ، ٣١٢ ، ٣١٣

مواثيق القائد التركي توزون ، وأمس حانه بعد أن استوثق منه مرة بعد أخرى ؛ ولكن  
توزون عذبه لأجل ستمائة ألف دينار أحدها من أحد طالبي عرش الخلافة ، فقبض عليه  
وحامه ، وأمر بإحصار الحاربية الشيرازية حُس ، فتولت سَمَلَه بيد علامها السدي ، وعاش  
المتقى بعد حمله أربعا وعشرين سنة ، ومات بداره<sup>(١)</sup>

ثم نخلعه المستكفي بعد أن تأمر عليه مع توزون ، وسمرت بينهما حُس الجارية  
الشيرازية ، فارتقى المستكفي عرش الخلافة بعار هذه المؤامرة ، وكانت أمه أم ولد رومية  
تسمى عُص<sup>(٢)</sup> ، وكان أبيض اللون ، صغير الم ، حسن الوجه والحسم ، بدياً ، أعين ،  
طويل الأنف ، وافر اللحية ، رَنَعَة ، إلى الطول أقرب ، وقد وحطه الشب<sup>(٣)</sup> ، وبادراً  
ما كانت تقر عيه ممصه ، وهو بين امرأة حشعة رفعت بدسائسها إلى منصب الخلافة ،  
وبين الترك الذين أصبحوا سادة بغداد وأخيراً جاء سونويه ، فكان أول ما طلبه أحمد  
ابن بويه من المستكفي أن يستكتب ابن شيراز ، وكان المستكفي قد حلف ألا يتصرف  
ابن شيراز في أيامه ودولته ، ولما ألح عليه ابن بويه أحابه إلى ما طلب على كُرّه منه ،  
قال دكاه مولى الراصي وكنت حاصراً ، فأحابه المستكفي على كُرّه منه ، ورأيت عييه  
وقد تعرعرنا بالدموع ، لعظم ما ورد عليه من سؤال ابن بويه<sup>(٤)</sup> ولما جاءوا إليه ليحلوه  
رعى أن يجمع نفسه ، ولكنه شرط عليهم أن يقطعوا شيثاً من أعصائه<sup>(٥)</sup> غير أن المطيع  
أحاه المتقى هو الذي حلف المستكفي ، فأمر أن يشمل انتقاماً لأحيه ، وطلب من يَسْمَلَه ،  
فلم يقدم على ذلك أحد إلا حادماً صقلى كان المستكفي قد استخدمه ، ثم وحّد عليه في  
بعض أوقانه قصره مائتي سوط وحسه ، فكان هذا الخادم حقيقاً عليه ، فقال للمطيع  
أنا أكمله ، وهام بهذه المهمة<sup>(٦)</sup>

أما الخلفاء المتأخرون فلم يكن لهم عمل بالفعل في إدارة الدولة ، فطال لذلك حكمهم ،

(١) كتاب العيون ص ٢٢ ب ، ونجى بن سعد ص ٨٥ ب — ١٨٦

(٢) كتاب العيون ص ٢٢٣ ب ، وكتاب النسخ ص ٣٩٨

(٣) كتاب العيون ص ٢٣٩ ب ، والنسخ للمسعودي ص ٣٩٩

(٤) كتاب العيون ص ٢٣٢ ب (٥) نفس المصدر ص ٢٣٨ ب

(٦) نفس المصدر ص ١٢٣٩ ب

فأما المطيع فإنه خلع نفسه غير متسكراً ، وترك ولاية الخلافة لاسنه الطائع ؛ وذلك أن المطيع كان قد ناله فالح قديماً ، وكان يستتره ؛ فظهر وتعددت عليه الحركة وثقل لسانه ، فترك ولاية الخلافة لاسه<sup>(١)</sup> : ثم خلع الطائع بعد ثمان عشرة سنة من حكمه ، وقبض عليه ، واعتقل عند الخليفة القادر مكرماً ، حتى مات بعد اتنتى عشرة سنة<sup>(٢)</sup> ، ولا يعرف كثيراً عن هؤلاء الخلفاء ، فأما المطيع فكانت أمه أم ولد صقلية ، وكانت أشهر منه ، ويعرف بالصمارة ، لأنها كانت تأخذ من ورق السوس وغيره الشيء اليسير ، وتجعله في فمها ، وبصم به صغيراً لم يسمع بمثله ، تحكى به كل طائر أو غيره<sup>(٣)</sup> .

وأما الطائع فكانت عليه ملامح الحس الشمالى ، فقد كان أبيض أشقر ، حسن الجسم شديد القوة ؛ ويحكى أنه كان في دار الخلافة أُلّ عظيم يقتل بقرنه الدواب ، ولا يتمكن أحد من مقاومته ، فاحتال الطائع حتى أمسك قرنه بيديه ، فلم يقدر أن يخاصهما منه ؛ واستدعى البحار ، فركب الميشار عليهما ، ولما بقيا على يسير قطعهما بيديه<sup>(٤)</sup> .

وكان القادر من أهل الستر والديانة وإدامة التهجّد بالليل وكثرة البرّ والصدقات ؛ وكان يأخذ ثلثي الطعام الذى يُهبأ لإفطاره ويقسمه بين حامعين كبيرين<sup>(٥)</sup> وكان يحسب لحيته الطويلة الكتّة ، ولباس رى العوام ، ويقصد الأماكن المعروفة بالبركة مثل قبر معروف الكرخى ، وتربة ابن سبار ، وكان يتحقّى ويعيّر ربه ، ويخرج ليتعرف أحوال رعيته ، وكان صحيح الاعتقاد ، ويحكى أنه صنف كتاباً في الأصول على مذهب أصحاب الحديث ، وكان هذا الكتاب يُقرأ كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي ، ويحضر الناس سماعه<sup>(٦)</sup> .

هذه صورة لبعض خلفاء بنى العباس أيام إدار دولتهم ، وهى تخالف صورة خلفاء العاطميين الذين أحد محمهم إداك في الارتفاع يدعى العاطميون أن الإمامة أو الأفضلية

(١) المسظم ص ١١٦

(٢) نفس المصدر ص ١١٣ — ب ، ١١٤٩

(٣) كتاب العيون ص ١٢٤١

(٤) كتاب المسظم ١١٦ (٥) نفس المصدر ص ١٣٢ ب

(٦) نفس المصدر ص ١١٣٢ ، وطبعات السكى ، طبعه القاهرة ، ح ٣ ص ٢



صفة خاصة ينتقل من الوالد إلى الولد ، فكفاهم ذلك من أول الأمر مؤونة التنازع على عرش الخلافة ؛ وبصاف إلى هذا هدوه السياسة الحارمة وطمأينتها في عهدهم ، فمن أمثلة ذلك أن والى الشام كتب مرة إلى المعز لدين الله (٣٤١ — ٣٦٥ هـ = ٩٥٢ — ٩٧٥ م) مباشرة وتخطى من دونه ، فمع الخلعة من ذلك ، وأعاد الكتاب إلى والى من غير أن تُفصّل أختامه وكان العرير (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ — ٩٩٦ م) أعظم هؤلاء العلماء ، وكان أسمر ، طويلًا ، أصهب الشعر ، أرق العينين كبيرهما ، عريض المسكين ، عارفاً بالحيل والحوهر<sup>(١)</sup> ، وكان صياداً حريثاً ماهراً ، وقد صرب أول متل للفروسية العربية بما تنطوى عليه من العمق وكبر القلب ، وهي التي أثرت فيما بعد تأثيراً كبيراً في العرب ، فقد حدث أن أحد القواد الأتراك حرح على طاعة حوهر عام ٣٦٥ هـ — ٩٧٥ م وهرم حوهرًا ، فالتحاً هذا إلى عسقلان ، فأدركه التركي وحاصره مدة طويلة حتى طلب الصلح ، فأحابه ، وعلق التركي سيقاً محرّداً على باب حصص عسقلان ، وحرح حوهر وأصحابه من تحت السيف ، ثم دخلوا إلى مصر ، فلم يرّص العرير بالصلح ، وسار بنفسه لمحاربة التركي ، فهرمه وأسره ، واستنقده من بين يدي أسريه ، بعد أن كاد يموت صرناولكاً ، وأمنه على نفسه ، ودفع إليه حاتمته ، واستنقى التركي ماء ، فأمر العرير بإحصار قدح شراب حلاب ، فلما أتى بالقدح توقّف التركي عن الشرب خوفاً من أن يكون في القدح سمٌ قاتل ، وتبيّن العرير ذلك ، فأخذ القدح وشرب منه ، ثم أعطاه ليشرب ، وأفرد له حيمة ، وتقدّم بأن يُحمل إليه جميع ما يحتاج إليه ، وحمله على دوائه ، وأمره بالركوب على مركبه ، وسأله عن أناس ممن يأسّ بهم ، فالتمس إحصار قوم من أصحابه ، فأتى إليه بهم من بين الأسارى ، ولما رجع العرير إلى مصر تقدم إلى وحوه دوائه وقواده وأمرائه بإكرام التركي وإحلاله<sup>(٢)</sup>

وأخيراً جاء الحاكم بأمر الله ، وهو الشخصية المادرة المتناقضة ، كان الحاكم رحلاً عربياً في أطواره ، فمن ذلك أنه أقام مسين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً ، ثمّ عنّ له أن يجلس في الظلمة ، فجلس فيها مدة<sup>(٣)</sup> وكان أحياناً يواصل الركوب ليلاً ونهاراً من غير فتور

(١) ان الأندح ٩ ص ٨١ (٢) يحيى بن سعيد ص ٤١١ — ب

(٣) ان معرى بردى ، طبعه كطهورسا ص ٦٢ — ٦٣



ولا سكون ؛ وكان يركب في سر من خاصته ليلاً ، فتقدم أسنحات الأعمال بمصر إلى التجار أن يوقدوا القناديل على حوايتهم ودورهم ، وأن يتاعوا بالليل ، فصارت الشوارع والأسواق في الليل عمرة النهار في العارة<sup>(١)</sup> وتقدم يقتل سائر ما في مصر من السكالك إلا كلاب الصيد ، لأنها كانت تسبح بالليل إذا عبر الشوارع<sup>(٢)</sup> ، ولما اعتل وصنف عن الركوب اجتمعت له محبة يجلس فيها ويستلقى عليها ، ويحملها أربعة من رجاله ، ثم يدور الليل والنهار<sup>(٣)</sup> ، وفي مثل هذه الأحوال كان يأخذ الرفاع والمطالم شرط ألا يُسكتب فيها إلا سطر واحد على وجه واحد ، ويأمر صاحبة الرقعة أن يأتي له من على يمينه ، وكان يأمرهم بالمصير إلى مكان يعينه لهم في اليوم التالي ، وكان يصع توقيعاه وعطاياه في كُتبه ، ويعطيها لهم يبدأ بيد وكان الحاكم ينفق ما استطاع ، ويحرق العطاء لرعيته ، « وأظهر من العدل ما لم يُسمع مثله ، ولعمري إن أهل مملكته لا يرالون في أيامه آميب على أموالهم غير مطمئين على موسمهم ، ولم تمتد يده قط إلى أحد مال أحد ، بل كان له حوذ عظيم وعطايا حريلة »<sup>(٤)</sup> أما رؤساء دولته فلم يكن أحد منهم آمبا على نفسه ؛ فكان يباحي أعر أصحابه ، ويب عليه وثوب المحبون ، فمن أمثلة ذلك أنه قرب عنماً الخادم الأسود ، ثم نqm عليه ، فقطع يده اليمنى ، ثم احتص به بعد ذلك أعظم احتصاص ، وأتمه « فائد القواد ، وأستاذ الأستاذين » ، وكثاه وقدمه على سائر أهل دولته ، وكثر ميله إليه وسعفه به ، وبعد مدة سكر له ، وقطع لسانه ، ثم أعقب ذلك بالزيادة في عطاياه والإيعام عليه<sup>(٥)</sup> ، وستكلم في غير هذا المقام عن مثل هذا التصرف الذي لا صابط له فيما يتعلق بمعاملاته لليهود والمصارى ، وعن رده ورعيته في الورع ، ذلك أنه في آخر الأمر رتب شعره حتى طال على أكتافه ، وامتنع من تقصيصه ، ومن تقليم أطافره ، وغير الثياب الصوف البيضاء بملابس سوداء ، واستبدل بالعمامة الرفاء عمامة سوداء ، وصار يلبس الكسوة الواحدة المدة الطويلة إلى أن تتلبد بما يبالها ويتداولها من العرق الدائم ، ويعلوها من العمار المتصل ، وواصل بدوير الصحارى والعيافى ، وقصد

(٢) نفس المصدر ص ١١٦

(١) نحي س سعيد ص ١١٥

(٣) نفس المصدر ص ١٢٧ — ب

(٤) نفس المصدر ص ١٢٣

(٥) نفس المصدر ص ١٢٤

حصل المقطم حيث كان يعمد نفسه<sup>(١)</sup> ؛ لذلك لم يجد العالم المسيحي يحيى بن سعيد ، يقول إن حاله صارت غير بعيدة من حال مختصر ملك نابل الذي صارت البراري مأوى له كالوحوش ، وراحت أطايره ، فأشبهت محاليل العقاب ، وطال شعره كالأسد خروا على إبادته هيكल الرب الأورشليمي ؛ ولذلك أصاب يحيى حين شخص مرض الحاكم بأنه صنف من سوء المراح اليأس المُرِص في دماغه أحدث له صرنا من صروب المايحوليا وفساد الفكر ، فاحتاج في مداواته منه إلى خلوسه في دهن السمسح وترطيبه به<sup>(٢)</sup>

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٢٧ ب — ١٢٨ ا

# الفصل الثالث

## الأمراء

هذا الاسم كان يُسمَّى ولاية السلاط - وكذلك أساء بيت الخلافة - إلا كافورا  
معصر، فإنه امتنع من التسمي بالامارة، ورأى تواضعاً أن يجرى على رسمه في الخطبة  
بالأستادية<sup>(١)</sup> أما لقب « أمير الأمراء » في بلاط الخلافة فلا شأن له في الأصل بولاية  
الحكم؛ فهو لا يعدو أن يكون لقباً لا كبر رجل بيده الأمر، كما أن « وزير الوزراء »  
لقب لا كبر الوزراء، وقد كان مؤسس القائد صاحب الجيش يحمل لقب أمير الأمراء، وإن  
لم يكن يشعر في نفسه بأنه يلي حكم ولاية ما

ولم يكن للأمراء الملكية الإسلامية علامة تميّزهم من الجهة الرسمية، فكان يدعى لهم  
في كل جهة مع الدعاء لحاكمها، وذلك بعد الدعاء للخليفة أما في العراق فقط حيث كان  
أمير المؤمنين هو الذي يدير أمورها بنفسه من غير وال فكان لا يُذكر أحد مع الخليفة في  
الخطبة، لأن ذلك كان يُسعر شيء من الانتقاص لمصب الخليفة، وقد حدث أن أسدت  
الحملة وراثية الجيش لمحمد بن ياقوت في عام ٣٢٣ هـ -- ٩٣٤ م فأدخل يده في تدبير كل  
شيء، وبطريقها يسيطر فيه الوزير، وطالب أصحاب الدواوين بحضور مجلسه، وألا يقلوا توقيعاً  
في سائر الأحوال إلا بعد أن يوقع فيه بخطه، واضطرّ الوزير إلى أن يحضر مجلسه، وصار  
كالمعتقل ملارماً لمزله لا يعمل شيئاً<sup>(٢)</sup>، ولكن لما دعا الأئمة له في الحجاب الشرقي والعري  
سعداد، بعد دعائهم للخليفة الراصي، وقرطوه أنكر الراصي ذلك، وأمر أن يقلد مكان الأئمة  
جميعاً أئمة من بني العباس<sup>(٣)</sup> غير أن الراصي اضطر في العام التالي أن يرصى بذكر ابن

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٩٥ كان لقب الأساد في المشرق لقباً للوزراء، فكان ابن العميد  
يلقب بذلك (مسكويه ج ٦ ص ٢١٩ - ٢٢٠)، وكان يلقب به غير ابن العميد (ابن عري بردي طبعة  
كليغوريا ص ٣٤)، واليوم يطلق هذا الاسم في القاهرة على الخوذي [ولكن الواقع أن لفظ الأساد  
اليوم يطلق على المدرس بوجه عام وعلى المثقف أيضاً، وإن كان العامة لا يرالون استعماله فيما يتعلق بالشيخ  
المري برى المشايخ] (الترجم)

(٣) الأوراق للصولي ص ٨٣

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٤٧٣ - ٤٧٤

رائق بعده في الخطبة ، ومعنى هذا أنه اعترف بأمر دونه في العراق<sup>(١)</sup>

وكان بنو حمدان ، من بين سائر أمراء البلاد أسوأ من يمثل حصال البدو ومن أمثلة طماعهم البدوية أنه لما التقى على بن عبد الله بن حمدان مع المتقي وابن رائق في الموصل برل المتقي دار ابن فهد الموصل ، وبرل ابن رائق في دار بالقرب منه ، أما على بن حمدان ، فإنه برل بدير الأعلى في حيمة أقامها وكان على هذا قد أس بن رائق ، وكان يدعو للشراب ، فسكان إذا عمل الشراب فيه وصف نفسه بالشهامة والرحولة واردة بن حمدان وقال لعلي وأي شيء تنوون أنتم ، وأي يوم كان لكم ، وهل أنتم إلا أعراب ؟<sup>(٢)</sup> وستشكلم في غير هذا المقام عن سوء سيرة الحمدانيين في الحكم وبهم أموال الرعية وأملاكهم ، وحورهم على الرراع وعداوتهم للعمارة وللأشجار ، وتحريرهم ، ونقصهم الدائم للعهد التي يقطعونها ؛ ومن أمثلة عذرهم أن الحسين بن حمدان ، وهو رأس أسرته ، قتل العباس بن الحسن الورير في عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٨ م ، وهو راك يومًا إلى نستانه ، وذلك أنه أعرضه وعلاه بالسيف ، فقتله<sup>(٣)</sup> ، وكذلك فعل ناصر الدولة أبو محمد بن حمدان بن رائق ، فقتله وهو صيف بعده في حيمته قتل عذر وحياة<sup>(٤)</sup> وكان الرراع وعدم رعاية حقوق الطاعة سائدين في بيت بني حمدان ، ولا سيما في فرعهم بالحريرة<sup>(٥)</sup> وكذلك كان الحال في فرعهم بالشام حيث قتل أبو المعالي بن سيف الدولة بن حمدان حاله أبا فراس ، فقد لحقه وقتله رغم استئمانه ، ثم

(١) كان لقب السلطان لا يطلق في ذلك الوقت إلا على الخليفة ، وكان يقال دار السلطان ببلاد أي دار الخليفة ، أما ما يقوله ابن خلدون ( كتاب العرطعة بولاق ح ٣ ص ٤٢ ) من أن مع الدولة ملك ببلاد واحد باسم السلطان فهو غير صحيح ويقول أبو المحاسن المؤلف المصري المتأخر ( النجوم الزاهرة ، لندن ح ٢ ص ٢٥٢ ) إن فرعون لقب ملك مصر قديما والسلطان لقبهم حديثاً ، وكذلك يرى الطاهري ( من علماء القرن التاسع الهجري ) أن الحاكم الوحيد الذي سمي السلطان ، نحو هو حاكم مصر وهذا معنى ما جرى عليه الأوروبيون في العصور الوسطى من استعمال كلمة سلطان دائماً فيما يتعلق بغير مصر وظهر أن الحكام المتأخرين ببلاد لم يكن لهم الدعوة بعد الخليفة في الصلاة ، حتى أكرم عصده الدولة بهذا السرف عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٩ م ، وهو ما احصى به « دون من مصى من الملوك على قديم الأيام وحدثها » ( مسكويه ح ٦ ص ٤٩٩ — ٥٠٠ )

(٢) كتاب العيون ص ١٩٣ ب — ١٩٤

(٣) نفس المصدر ص ١٦١ ب

(٤) مسكويه ح ٦ ص ٦ — ٦١ وكتاب العيون ص ١٩٨ ب

(٥) انظر مثلاً مسكويه ح ٦ ص ٢٢٤ لتري ما كان يقع بين ناصر الدولة وبين أولاده .



أخذ رأسه وترك حشته في البرية<sup>(١)</sup> ولم يظهر أحد من الجدايين شيء من العروسية والأعمال العظيمة إلا سيف الدولة على أنها بلا حفظ أنه كان في حربه مع الروم يقع دائماً في نفس العنق ، ولذلك يقول أبو العدا . « وكان سيف الدولة مُفَجَّحاً بنفسه ، يحب أن يستند ، ولا يشاور أحداً ، ثلاثاً يقال إنه أصاب رأي غيره »<sup>(٢)</sup> وكثيراً ما صلت القائدان التركيان ، تورون ومحكم ، على رأسه المهرائم

وكذلك يرجع أصل الريديين إلى الدولة الإسلامية الأولى ، فقد كانوا حكاماً للعراق زماناً طويلاً ، وكانوا في أول أمرهم كتاباً أصحاب دراريع<sup>(٣)</sup> أكثر مما كانوا قواداً ومع هذا فقد حاصوا عمار كثير من المواقع وقاتلوا قتال النوازل ؛ ولسكنهم من قصر النظر والخشع لم يبرلوا لشيء حمدان عن شيء . وقد بدأ عهد الفساد الحقيقي بعداد عام ٣٣٠ هـ - ٩٤١ م ، وهو العام الذي فتح فيه الريديي بعداد وقرّ فيه الخليفة إلى الموصل ، وذلك أن الريدي ظلم الناس ظلمة المعروف ، وافتتح الخراج في آزار وحط أصحاب الأراضي وحط أهل الدمة ووطّف على كل كرّ من الحطة سبعين درهماً ، وأحد حرّاً من مال التجار عصاً<sup>(٤)</sup> وقرّ آخر الريديين إلى القرامطة في جنوب حريز العرب ، ولكنه بعد ذلك كتب إلى مع الدولة يلتمس الأمان ليصير إلى حصرتة ، فأعطاه من التوثقة ما أحب ، فوافاه وقتل الأرض بين يديه ، وأكرمه مع الدولة ، وأقطعه الصياح ، ورسمه عمادته<sup>(٥)</sup>

ولو أنها فاربا بين هؤلاء الأمراء الذين يقتلون حكمهم بالهبة وبين القواد الذين جاءوا من الشمال وأقاموا ملكهم في داخل بلاد الإسلام ، لوحدنا أن هؤلاء الأخيرين أحسن سيرة في الحكم وأشبه بآباء لرعيّتهم . ومهم السامانيون الذين أرادوا أن يششوا بينهم وبين الفرس سناً ، وأن يُرحعوا أصلهم للملك بنى ساسان وقد ملعوا أوح عرتهم في أواخر القرن الثالث الهجري حيث كانت بلاد ما وراء النهر والحل وإيران كلها إلى كرمان تحت

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٣٤ ، واطر ما حكاه ابن حلكان قلا عن باب بن سنان ( الوفيات

طبعة مصر ١٢٩٩ هـ ج ١ ص ١٥٥ ) واطر Dvorak Abu Firas, Leiden 1895, S 114 ff

(٢) تاريخ أبي العدا ج ٢ ص ٤٦٨ تحت عام ٣٤٩ هـ

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٦٥

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٥٨ ، وكتاب العيون ص ١٩٣

(٥) مسكويه ج ٦ ص ١٥٤ ، وكتاب العيون ص ٢٤٧ .

سلطانهم ، بل كان في داخل حدود دولتهم الكبيرة ولايات تكاد تكون مستقلة ، مثل بلاد سحستان التي كان يحكمها سو الصغار ، وهؤلاء وإن كانوا يحيطون لصاحب بخارى فلم يكن له عليهم إلا حمل أموال وهدايا ، بل اضطروا السامانيون نظراً لسعة أرحاء دولتهم إلى إنشاء ما يشبه منصب « نائب الملك » ، فكانوا هم مثلاً يقيمون في بخارى على حين أن صاحب جيشهم كان يقيم في بيساور التي جعلها الطاهريون قصبة حراسان أما عن حكمهم فالمقدسى يمتدح سيرتهم في الحكم ، ويقول إياهم من أحسن الملوك سيرة وطرأ وإحلالاً للعلم وأهله ، فقد كان من رسومهم مثلاً أنهم لا يكلفون أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم ، ويدكر المقدسى أن في أمثال الناس « لو أن شجرة حرحت على آل سامان ليست » ، ويقول ألا ترى إلى عصد الدولة ومحتره وتمكثه ، وكما لدولته ، وقوة أمره قد فتحت له البلاد طوعاً ، وملك ما ملك ، فلما تعرض لآل سامان وطالب حراسان أهلكه الله ، وشنت جمعه ، وفرق حيوته ، ومكن أعداءه من ممالكه ، فتنازل عائد آل سامان (١)

ولعل هذا الإطار من جانب المقدسى كان لأسباب تحصية ، فالحقيقة أن الديلم أخذوا من السامانيين إيران كلها ، وإن كان ذلك لم يتم لهم إلا بعد نضال طويل ، حتى كان سكتكين قائد معر الدولة سعداد يضطر إلى الإسراع للرى في كل عام تقريباً لمعاونة أحي معر الدولة في بخارته للسامانيين ، ولم يمض أكثر من عشرين سنة على مبالغة المقدسى في مدح آل سامان حتى احتاج الترك دولتهم من الشمال والجنوب ، وقتل آخر ملوكهم هاربا على أن ملوك السامانيين كانوا دائماً يطهرون ولائهم للخليفة في بغداد وعلقهم به ، وكانوا دائماً يعشون إليه الهدايا ، بل محمد أحمد بن إسماعيل يرسل في سنة ٣٠١ هـ — ٩١٣ م إلى الخليفة سعداد شيخاً يستحمد إليه ما فعله من رد عارة الترك على المسلمين وقتله كثيراً منهم ، ويحطب إليه شرطة بغداد ، بعد أن حلا منصب صاحب الشرطة بوفاة من كان يشغله من بني طاهر (٢) ، وكذلك محمد نصر الساماني يرسل للخليفة عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م هدية كبيرة ، ومعهما رأس أحد ثوار الديلم ، فكان نصرأ قد رضى أن يصع نفسه في موضع وال من ولاية الخليفة (٣)

وكان المستقبل للشعوب التي تسكن حبال الألب الآسيوية في شمال فارس ، والتي

(٢) عرب ص ٤٣

(١) مقدسى ص ٣٣٧ — ٣٣٩

(٣) كتاب العون ص ١٩١ ب

كانت حتى ذلك الحين نشأة قواد مدحريين لوقت يطهرون فيه وقد استطاعوا أن يخفضوا حكمهم، لاداً أوسع كثيراً من البلاد التي أخصمها بطراؤهم السويصريون الذين يسكنون حال الإلب الأوربية حين بلعوا ذروة قوتهم ، وكان القائد مرداويج الديلمي أكثر من استرعى نظر المؤرخين من بين قواد الحمل الذين حكموا إيران الغربية بعد موت يوسف بن أنى الساح ولم يكن الإسلام عميقاً في قلب هذا القائد ، فقد فعل بأبناء المسلمين وساتهم فعل الكفار ، فأعمل فيهم السني ، حتى قيل أنه تملك من العلماء والحواري في قول المقل حسين ألقا ، وفي قول المكتر مائة ألف ، وأعمل السيف والبار في أهل همدان كأنهم كافرون<sup>(١)</sup> ، حتى إن أهل فارس شغبوا في سنة ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م أمام دار الخليفة ببغداد واعتصموا على فرص الحكومة للصرائب في حين أنها لا تقف إلى جانب المسلمين لتحميمهم وبعث مرداويج نقائد من قواده إلى مدينة الديور ، ودخلها بالسيف ، وقتل من أهلها آلافاً كثيرة ، « خرج إليه في مستورى أهل البلد وصوفيتها ورهادها رجل يقال له اس مشاد ، ويده مصحف قد شره ، فقال للقائد اتق الله ، وارفع السيف عن هؤلاء المسلمين ، فلا دس لهم ولا حياية يستحقون بها ما قد نزل بهم ، فأمر بأخذ المصحف من يده ، فصر به وجهه ، ثم أمر به فدبح<sup>(٢)</sup> »

كان مرداويج رجلاً متفائلاً عريض الآمال والمشروعات ، فقد رعم أنه يرث دولة العجم وسطل دولة العرب<sup>(٣)</sup> ، وسأل عن بيحان الفرس وهيئتها ، فمشت له ، فاختار صفة تاج كسرى ، فعمل له تاج من الذهب جمعت فيه أنواع الحواهر ، وضرب له سرير من الذهب قد رصع بالحواهر ، فجلس عليه ، وجعل عليه منحة عظيمة ، وجعل أمامه سريراً من العصاة عليه فرش منسوط ، ودون ذلك كراسى مذهبة ليرب أصحاب الأقدار مراتبهم في الإحلاس ، وكان يوى قصد بغداد وتشعيت الدولة ، وكتب إلى عامل له أن يعيد له إيوان كسرى مبرلاً ، ويعمره كهينته قبل الإسلام وقد طاف به بعض شياطين الدهاة فحرفوا له صورة ملك سيظهر ، وتخصى له كنور الأرض ، فمال إلى ذلك ، وأظهر أنه ذلك الملك الذى يملك الأرض

(١) مروج الذهب ج ٩ ص ٢٣ وما بعدها

(٢) نفس المصدر ج ٩ ص ٢٤ — ٢٥

(٣) الأوراق للصولي ص ٨١ ، ومسكويه ج ٥ ص ٤٨٨



فأراد أن يسير إلى مدينة السلام ويقص على الخليفة ويؤتي أصحابه مدن الإسلام بأسرها في شرق الأرض وعربها ، مما في يد ولد العباس وغيرهم ، واسترسل في مثل هذا الخيال<sup>(١)</sup> ؛ وكان حدوده يحشون سطوته وعدده وكرياءه . ولما حصرت ليلة الوقود في أصعها ( انظر فصل الأعياد ) تجمعت الأحطاب من الخيال والنواحي البعيدة ، وأعدت الشموع العظام ، وعمل بمجلسه الخاص تماثيل وأساطين كثيرة من الشمع ، وحشد على رؤوس الخيال واليعاقات ما لم تحجر العادة بمثله ، فلما خرج وطاف بذلك استحققه كله واستصره ، « قال وذلك لأجل سعة الصحراء ، ولأن النصر إذا امتد في فضاء واسع ثم انقلب عنه إلى هذه الأشياء المصنوعة استحققها وإن كانت عظيمة » ، واعتاط وسكت ودخل إلى حيمته واصططع والتف نكسائه ، وحول وجهه إلى خلاف الباب لئلا يكلمه أحد ، ولم يحسر القواد والأمراء على محاطته ، ثم أقعده الورير بعد كذا أن يظهر للناس ، فركب كارهاً متحاملاً بعد لحاح وإناء ، وطاف معصباً معتاطاً ، وانصرف إلى موضعه ، ولم حالته الأولى<sup>(٢)</sup>

وكان له أربعة آلاف من الممالك الأتراك<sup>(٣)</sup> إلى جانب حمسين ألفاً من الديلم ، وقد استخلص من هؤلاء الأتراك نفراً احتص بهم ، فوحد الديلم من ذلك<sup>(٤)</sup> ، ورعم أنه كان يؤثر العلماء الأتراك فقد انفق يوماً أن سعت دواشهم ، وارتفعت أصواتها وأصوات من يرحرها ، فابسه مرداويج مدعوراً على هذه الأصوات الهائلة المسكرة ، فأمر أن تحط السروح عن الدواب ، وتتحقل على ظهور العلماء الأتراك مع جميع آلتها ، وأن يقودوا الدواب بأنفسهم من أرسامها إلى الإصطبلات ، وكانت الصورة قبيحة ، وقد حقد عليه العلماء لذلك ثم انفقوا على الفتك به ، فبحموا عليه وهو في الحتام وقتلوه<sup>(٥)</sup> وقد استطاع أحوه وشمكير وادمه قابوس أن يحتفظا بإمارة صغيرة في أقصى الشمال من إيران ، ثم آل ميراثهم إلى بني نويه ، وهم قواد مرتقة من بلاد الخيل فارس

وكان سونونه بعيدين عن الثقافة العربية ، حتى إن مع الدولة لما جاء إلى بغداد

(١) مروج الذهب ج ٩ ص ٢٧ — ٢٩ ، مسكويه ج ٥ ص ٤٨٩ — ٤٩

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٣٧٩ — ٤٨٢

(٣) مروج الذهب ج ٩ ص ٢٦ ، ٢٨ (٤) الأوراق للصولي ص ٨ — ٨١

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٤٨٢ — ٤٨٥



أمراً ، وكان ركن الدولة يأمره بإبعاد الحيوش فيعمل<sup>(١)</sup> ولما أتقن معز الدولة بالتلف وصنى  
إليه ، وهو على سرير الموت ، طاعة ركن الدولة ، واستشارته في كل ما يعرض له من شئ ،  
وكذلك إن عمه عصد الدولة لأنه أسنّ منه وأقوم بالسياسة<sup>(٢)</sup>

ولما أراد عصد الدولة هذا أن يأخذ العراق من يد ابن عمه معز الدولة بعد ما أظهر من  
عدم الكفاية ، وسمع أبوه حال أولاد أخيه من القيص عليهم ، رمى نفسه عن سريره ،  
وأقل يتمرّع ويرند ، ويمتّع من الأكل والشرب أياماً ، ومرص من ذلك مرصاً لم يستقل  
منه باقي حياته ، وكان يقول إني أرى أخى معز الدولة متمثلاً إرأني حصن على أنامله ، ويقول  
« يا أخى هكذا صممت لي أن تحلبني في أهلي وولدي » ، وقد عصت والد عصد الدولة على  
أبيه ، وأمره أن يخرج من بغداد ويسلمها لأبيه ، فخرج منها طاعة لأبيه ، بعد أن كان  
قد أقام بها ، واتحد لنفسه بها داراً<sup>(٣)</sup>

أما عماد الدولة فلم يكن رجلاً يمثل حصال السيد الحاكم ، بل كان أشبهه بتاجر  
مخادع ؛ وكانت له مواهب الأكره الأذكاء العمليين ، فمن ذلك أنه تقلد من الخليفة الراص  
أعمال فارس على أن يحمل له في كل سنة مائة ألف ألف درهم ،  
فأرسل إليه الوزير ابن مقلة بالخيل واللواء ، ورسم للرسول ألا يسلم اللواء والخيل إلا بعد تسليم  
المال الذي استقر عليه الاتفاق ، فلما قرب الرسول من البلد تلقاه على بن بويه على عهد ،  
وسار معه وطالبه أن يسلم إليه اللواء والخيل ، فعرفه ما رسمه له الوزير ، فحاشه على بن بويه ،  
وأرهبه حتى سلم إليه الخيل ، فليسه ودخل بها شيراز وبن يديه اللواء ، وأقام الرسول مدة  
يطالب بالمال ، فلم يدفع على إليه شيئاً ، حتى اعتل الرسول ومات شيراز<sup>(٤)</sup>

وأما ركن الدولة فقد كان حليماً ، واسع الكرم ، حسن السياسة لرعاياه وحده ، رءوفاً  
بهم ، بعيد المهمة ، يتحرّج من الظلم ، ويمنع أصحابه منه ، وقد أتى المؤرخون على عدله  
وكرمه<sup>(٥)</sup>

ومن أمثلة ذلك أن إبراهيم السلار أهرم من بين يدي عدوّ له ، وورد حصرة ركن

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٨

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٦٦

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٤٤ — ٤٤٦

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٣

(٤) كتاب العمون ص ١١٤٧ — ب

الدولة « بدائته وسوطه » ؛ فأكرمه ركن الدولة ، وبالع في إعطائه ، وحمل له من كل صنف يكون عند الملوك ، وكان المؤرّح ابن مسكويه حاصراً بالرّى ، فركب للطر إلى الهدايا المحمولة إلى إبراهيم ، وكانت كثيرة لم يرَ ابن مسكويه مثلها <sup>(١)</sup> ، وقد اقترح الأستاذ ابن العميد ورير ركن الدولة ، بعد ما رأى سوء تدبير إبراهيم واشتغاله بالنساء واللعب والسكر الدائم ، و بعد أن شاهد طمع الناس فيه ، أن يدثر ركن الدولة الناحية لنفسه ، حتى لا يصيب سعيه في إرجاعها لصاحبها ، ويعوّض إبراهيم شيء آخر حتى يجلس آمناً فارغ البال ، واشتغل بما يؤثره من صحة المعدين والمساخر ، « فأبى عليه ركن الدولة وفكر في شيء يفكر فيه مثله من أصحاب الهمم الكبار وقال يتحدث الناس أنى افتتحت البلاد لرحل لحاً إلى ، ثم طمعت فيه ا » <sup>(٢)</sup> ولقد قاسى ابن العميد الكثير في خدمته ، وكان ابن العميد وريرا حديد التدبير علياً بصناعة الملك وإصلاح ما فسد من أموره ، ولكن ركن الدولة كان معلوماً على أمره لا يرى الطر في العواقب ، ولا يستمع إلى آراء ابن العميد مع حودتها ، حتى إن ابن مسكويه يذكر ضعف ركن الدولة وفساد الأحوال في حكومته ، ويدكر كفاية ابن العميد وحسن تدبيره ثم يقول « فما حيلة وريره ومدثره ا » ، « وكان ركن الدولة مع فصله على أقرانه من الديلم على طريقة الحمد المتعلّين ، يعم بما يتعجل له ، ولا يرى الطر في عواقب أمره وعواقب أمور رعيته » ، وكان يمسح لحده وعسكره على طريق مداراتهم ، وكان يوسّع عليهم في الإقطاعات ، وكاوا يتواعدون من الليل إلى مواضع عامصة يجتمعون فيها ، ورما حرحوا إلى الصحراء ، واجتمعوا على ظهور دوابهم ، « وثبوا أرحلهم على أعماقها تقدر ما يدثرون الرأى في وحه الحيلة ، فإذا تمّ لهم تدبير يومهم فهو عيدهم وشايطهم » وكان ركن الدولة يرى أن دولته مقرونة بدولة الأكراد ، فكان لذلك لا يمسهم من العث ولا يطلق يد حمة الأطراف في قصدهم ، « ويرصى أن يقال له قُطعت القافلة ، وسيقَب المواشي ، فيقول لأن هؤلاء أيضاً ، يعنى الأكراد ، يحتاجون إلى القوت » <sup>(٣)</sup>

وكان الأمير معر الدولة ، أمير العراق ، حديداً سريع المص بديء اللسان ، مُكتر

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨ — ٢٨١ ، و Amedroz Der Islam, III, 335

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ، و Amedroz Der Islam, III, 336

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٣٥٤ — ٣٥٧

سبب وراثته والمحتملين من حشده ؛ وكان يلحق المهلب من حشده وشتته ما لا صدر لأحد عليه ؛ بل كان يصرفه بالقرعة <sup>(١)</sup> ولكن مع الدولة كان خوّاراً في أسراصه ؛ فكان كلما اشتدت عليه العلة ، وأقن بالتلف ( كان مريضاً بامتاع البول ورملي في مثانته ) نكي ويدب على نفسه على عادة الديلم <sup>(٢)</sup> وكان أيضاً « سريع الدمة » ، وكاد يهرم في إحدى المواقع ، فسكى بين أيدي علمائه ، ثم سألهم أن يجتمعوا ، ويحملوا على العدو ، وهو في أولهم ، فإمّا أن يطهر وإمّا أن يكون أول من يقتل <sup>(٣)</sup> وكان لا يعرف للحليفة قدره ، فقد وثب عليه ، وهو تحت سلطانه ، وتنة الحمدي المرتق العليط القلب ؛ ولما مات وريره أبو محمد المهلب بعد أن ولي الوراثة له ثلاث عشرة سنة قص مع الدولة أمواله ودحاثره ، وأخذ المال من أهله وأصحابه وحواسنيه ، حتى من ملاحه ومن خدمه يوماً واحداً ، فاستعظم الناس ذلك واستنحوه <sup>(٤)</sup> وبني لنفسه داراً حديدة في شمال بغداد ، فكان حملة ما حرج عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ولم يتردد في أن يصادر بسبب ذلك جماعة من أصحابه <sup>(٥)</sup> وكان لا يأنه كثيراً لحقوق رعيته ، فاضطر إلى حبط الناس واستحراج الأموال من غير وحوها ، وأقطع قواده وحواصه وأتراكه صياع السلطان وغيرها ، وكان سامح الوراثة المقطعين ، وتقبل منهم الرشى ، واتسع الحرق حتى صار الرسم حاراً بأن يحرق الحمدي إقطاعاتهم ، ثم يردّوها ، ويعتاصوا عنها بما يختارون ، ويتوصلوا إلى حصول الفصل والعمور بالرخ . ورقّت أحوال الرعية ، فمن هارب حال ، إلى مظلوم صار ، إلى مستريح لتسليم صيغته إلى المقطع ليأمن شره وبوائقه ، وقلّ حفل الناطرين في الأعمال بعويلا على أحد ما صفا ، ورك ما كذّر ، والرجوع على السلطان بالمطالبة وهو مع الدولة تدير كل ناحية إلى بعض الوحوه من حواص الديلم ، فأتحدوها مسكناً وطعمة ، والتحف عليهم المتصرفون الخوة ، وبطلت العبارة ، وحررت البلاد ، واعتاص العمال عما يذهب من أموالهم

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ١٩٢ — ١٩٣ ، ١٩٤

(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٤١ ، ٢١

(٣) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١٧

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٠

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٨ ، ومسكويه ج ٦ ص ١٩٣ ، وهول ابن الجوزي ( المصنوع

ص ١٩٠ ) إن مع الدولة أبقى على الداء إلى أن مات مائة ألف ألف دينار



بالمصادرة والحيف على الرعية ، وانصرف عمال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان <sup>(١)</sup> ولكن مع الدولة كان يُعنى سدّ الشوق في سدود الأهمار ، حتى خرج نفسه مرة لسدّ شق نادوريا ، وحمل التراب في طرف قبائه ، فعمل جميع العسكر مثل فعله ، وكذلك خرج إلى الهروانات فسدّ ثقبها ، فعمّرت هذه الأحراء بعد حراسها ، وعمّ الرعاء ، حتى مالت العامة سعداد إلى أيام مع الدولة وأحسوه <sup>(٢)</sup>

أما اسمه مُختيار الملقب معرّ الدولة فقد وُهب قوة حسدية عظيمة ، وكان شجاعاً ، وبلغ من قوته أنه كان يمسك الثور العظيم من قربه فلا يتحرك <sup>(٣)</sup> ولكنه فيما عدا ذلك فشل فشلاً يُرثى له . « وكان يحب أن يقضى أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالبرد وتحريش الكلاب والديكة والفتاح ، فإذا وقعت أموره قص على وريره واستبدل به » <sup>(٤)</sup> ويقول بعض أصحابه إنه كان من ملذاته دفاتر عريضة يصن بها ، وحوار صواع لا يسمح من ، وحيل عرّات كان يستأثر بها ويحب أن يشتريها من النادية <sup>(٥)</sup> ، وقد افق مرة أن أُسِرَ له في موقعة بالأهوار علام تركي ، فُحسّ عليه حسواً ، وتسلى عن كل شيء حرج عن يده إلا عنه ، « وامتنع عن الطعام والشراب وانقطع إلى السحيب والشهيق والعويل وبصحر بالحيتس ، وترّم محصورهم ، وأطرح التدبير ثم إدا وصل إليه ورره وقواده وكتّانه وخواصّه في المهتم قطعهم عن ذلك بالشكوى عما حلّ به والنوح بما في نفسه ، وتقصّت أوقاته ومحالسه بهذا الخطب الحليل عنده فحسّ ميرانه عند الناس وسقط من عيوبهم » <sup>(٦)</sup>

وكان عصد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) ، دون سائر أعصاء أسرته ، هو الذي يمثل السيد الحاكم تمثيلاً حقيقياً ، وقد حصعت لسلطانه ، في آخر أمره ، البلاد الممتدة من بحر الحر إلى كرمان وعمار ، فلا بدع أن يُلقب شاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام <sup>(٧)</sup> ، بعد أن كان هذا اللقب يُشعر من قبل بالتحروء على مقام الألوهية ، وقد ظل

(١) مسكويه ج ٦ ص ١٣٥ — ١٣٨

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢١٨ — ٢١٩

(٣) ابن سري ردى طبعه كلفورنيا ص ١٩

(٤) نفس المصدر ج ٦ ص ٤١٩

(٥) مسكويه ج ٦ ص ٣٨٦ — ٣٨٩

(٦) المسظم ص ١١٩ ب

(٧) مسكويه ج ٦ ص ٤٥٩ — ٤٧



هذا اللقب لمن جاء بعده من ملوك بني نوية<sup>(١)</sup> ، فكان أيضاً إحياء لسوم الشرق القديمة  
كان عصد الدولة يحمل طابع أهل الشمال ، وكان أزرق العيين ، أشقر ، أصهب  
الشعر<sup>(٢)</sup> وكان الوزير بن نقة يسميه أنا نكر العددي تشبيهاً له رجل أشقر أرق أنمش  
يسمى أنا نكر كان يبيع العدد رسم السباير بغداد<sup>(٣)</sup> وكان عصد الدولة رجلاً قاسياً ،  
وقد بلغه عن الوزير بن نقة أمور ساءته ، وطلب من مختيار بن معر الدولة أن يسلمه إليه ،  
فسلمه إليه مسمولاً ، فطرحه عصد الدولة إلى الميعة ، وأضررت عليه ، فقتلته شرقلة ،  
وهذه العقوبة هي الأولى من نوعها في الإسلام<sup>(٤)</sup> وقد بلغ من هيئته وحوف عماله منه أن  
الوزير المطهر بن عبد الله خرج من مدينة السلام لطلب أحد الخارحين على عصد الدولة ،  
فالتأث على المطهر الأمر وحاف تعثر عصد الدولة عليه ، فقتل نفسه<sup>(٥)</sup> ، ولكن عصد الدولة  
كان أيضاً قاسياً على نفسه ، فيحكى أن حارية كانت له شعلت قلته بميله إليها عن تدبير  
الملكة ، فأمر بتعريقها<sup>(٦)</sup> وكان يعنى معرفة الأحبار وسرعة وصولها ، شأن كل من  
يريد أن يحكم دولة كبيرة حكماً صحيحاً ، فكان يسأل عن الأحبار الواردة ، فإن تأخرت عن  
وقتها قامت قيامته ، وسأل عن سبب التوقيف ؛ فإن كان من عسير عذر أرسل السلطان على  
أصحاب الأحبار ، وكانت الأحبار تصل من شيراز إلى بغداد في سبعة أيام ، أى أنها تقطع

(١) كتاب الوزراء ص ٣٨٨ ، وكتاب إرشاد الأرب إلى معرفة الأدب ( وهو معجم الاداء )  
لياقوت طبعة صرغليوب ج ٢ ص ١٢  
(٢) الإرشاد ج ٥ ص ٣٤٩  
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان طبعة أوربا ١٨٣٩ ، ترجمه ابن نفة رقم ٧٢ ، علا عن  
عنون السير للهمداني

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٤٧٧ و ٤٨١ .

(٥) من المصدر ص ٥١١ — ٥١٤ على أنه قد نسبت إلى عصد الدولة أشياء كثيرة من العلم  
لم يعملها حقيقة ، فعكى ابن جرير بردى ( طبعة كليفورنيا ص ١٥ — ١٦ ) أنه حطب الأميرة حملا بنت  
ناصر الدولة بن حمدان ، فامسعت عليه ، فاعطاط من ذلك ، وحين وقعت في يده استولى على أموالها ، ولم يدع  
لها شيئاً إلى أن احبها وافقرب . وفي رواية أحدث عهداً أنه ما زال يعسفها في المطالبة حتى سرّاها  
وهكها ، ثم أكرمها ، إما أن يصحح ما عليها من المال ، وإما أن تحلف إلى دار الفجاب ، فكسب منها  
ما يؤديه من المال المفروض عليها ، ولما صافى بها الأمر ، وأشرف على الفصحى انتهرت عمال الموكابين بها  
وعرقت نفسها في بحر الدخالة ( مطالع الدور للعزولي ، طبعة مصر ١٣١٣ هـ ج ٢ ص ٤٨ ) والجمعية  
أن حملا قرب مع أحيها أنى نعلب عدو عصد الدولة ، فلما مات اعطها عصد الدولة في بعض الحضر في داره  
مع حواريه ونسائه ( مسكويه ج ٦ ص ٧٥ )

(٦) المنظم ص ١١٢

كل يوم ما يريد على مائة وحسين كيلومتراً<sup>(١)</sup>

وقد أحكم نظام الحاسوبية ، « وكان يبحث عن أشرف الملوك ، وينقب عن سرائرهم ؛ وكانت أحبار الدنيا عنده ، حتى لو تكلم إنسان بمصر رقى إليه ذلك ، حتى إن رجلاً بمصر ذكره بكلمة ، فاحتال حتى جاء به ووثقه عليها ، ثم رده ، فكان الناس يحتررون في كلامهم وأفعالهم من سائهم وعلماهم »<sup>(٢)</sup> وقد طهر السل من اللصوص ، وبخا أثر العاشين الذين كانوا يقطعون الطريق ، ويحكي أنه دس على اللصوص في إحدى القوافل معاً يحمل حاوى شيتت بالسّم ، فأكلوا منها فهلكوا ، وكانت هذه مكيدة عجيبة<sup>(٣)</sup> وأعاد النظام إلى صحراء حريرة العرب وإلى صحراء كرمان ، وكانت أشهر بمحاوفاها ، حتى رفعت الحماية عن قوافل الحج ، ورال ما كان يجرى عليها من القنّاح وصروب العسف ، وأقام للحجاج السواقى في الطريق واحترلم الآثار ، واستفص الياسيع وأدار السور على مدينة الرسول<sup>(٤)</sup> ، وأمر بعمارة منازل بغداد وأسواقها ، وكانت محتلة قد أحرقت بعضها ، وحرب العص ، وانتدأ بالمساحد الجامعة ، وكانت في نهاية الحراب ، وهدم ما كان مستهدماً من بيابها ، وأعاد ساءها ، وأرم أرباب العقارات بالعمارة ، فمن قصرت يده عن ذلك اقتصر من بيت المال ، وأمر من كانت له دار على الشط من الأولياء والحاشية أن يجتهد في عمارتها وتحسينها وكان الناس قد استطاعوا هدم المنازل وبيع أنقاضها ، فأبطل هذه السة وأعاد عمارة بستان عرصة دار العباس بن الحسين وغيره ، فامتلات الحرات بالزهر والحصرة والعمارة ، « بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح الحيف والأقدار » ، وحلت إليها العروس من فارس وسائر البلاد ، وكانت الأنهار بغداد قد دُفست محاريها وعفت رسومها ، ونشأ حيل من الناس لا يعرفها ، فأمر بمحرم عمداتها ورواصعها ، وقد كانت على الأنهار قاطر قد تهدمت وأهل أمرها ، « فلم تكن تحلو من أن يختار عليها الهائم والنساء والأطفال والصعاء فيسقطون ، فُنيت كلها جديدة وقيمة ، وعملت عملاً محكماً ، وكذلك جرى أمر الحسر بغداد ، فإنه كان لا يختار عليه إلا المخاطر نفسه ، لاسيما الراكب لشدة صيقه وضعفه

(١) نفس المصدر (٢) نفس المصدر ص ١١٩ ب — ١١٢

(٣) كتاب الأد كياء لاس الحورى ص ٣٨ الباب الحادى عشر علا عن تاريخ الهمدانى

(٤) المسطم ص ١١٩ — ب .

وتراحم الناس عليه ؛ فاحتيرت له السمن الكبار المتقنة ، وعُرِّص حتى صار كالشوارع  
المسيحة ودُتس بالداراريات . . وأعيد كثير من قباطر أهواء الأشهار «<sup>(١)</sup> ؛ وحول من  
المادية قوما فأسكهم فارس وكرمان وخرمأ وخرمأ البرية<sup>(٢)</sup> ومع هذا فلم تكن العراق  
مركز الدولة ، بل كان مركز الدولة في فارس حيث كان يقيم قاضي القضاة أيضا ، ويستحلف  
له أربعة حلما على أربع سداد<sup>(٣)</sup> وكان عصد الدولة كثير العن من أهل سداد  
والاردراء لهم ، حتى قال ما وقعت عيني في هذا البلد على أحد يستحق اسم الفصل أو أن  
يسمى رجل غير مسلمين ، فلما أملت وحدثهما ليسا من أهل سداد ، وأصلهما من السدوق<sup>(٤)</sup> ،  
وعمل سوقا للدرارين ، ووقف عليه وقفا كثيرة<sup>(٥)</sup> وكان ينقل إلى بلاده ما لا يوجد بها  
من الأصناف ؛ فلما نقله إلى كرمان حب النيل<sup>(٦)</sup> ؛ وبني شيراز داراً عظيمة تشتمل على  
تلاثمائة وستين حجرة<sup>(٧)</sup> ، ووسّع الدار الكبيرة التي كانت للقائد سكتكين سداد ، والتي  
تركها بعد وفاته ، وأخرى إلى سبناه الماء في بحري عال يحترق الصحراء والأرناص ،  
واستخدم الفيلة في نفس هذه الدور ، ورُمى حيطاها وفي ذلك الأرض ، وكان أول من  
استعمل الفيول في القتال<sup>(٨)</sup> ، وكان عارما على القيام بمشروعات ماء غير ما تقدم فاب  
قبل ذلك<sup>(٩)</sup> وكانت عادته أن يباكر دخول الحمام ، فإذا حرج وصلى المجر دخل إليه  
حواضه ، فإذا ترحل النهار سأل عن الأحباء الماردة ، ثم تتعدى ، والماء ما ثم ، وهو  
يسأله عن منافع الأطعمة ومضارها ثم سام إلى الظهر ، فإذا انقضى صلى الظهر وحرج إلى  
مجلس المدماء والراحة وسماع العباء إلى أن يمضي من الليل صدر ثم ناوى إلى مرأشه<sup>(١٠)</sup>  
وكان قد تعلم على أحسن المعلمين ، وكان مفتخر بمعلميه<sup>(١١)</sup> ؛ وكان يرب العلم والعلماء ،  
ويجري الحرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والمحاكاة والشعراء والاسابيين

(١) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧ ٥١ (٢) المسظم ص ١١٩ ب

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢ ٥

(٤) ملحق أخبار القضاة طبعه (Guest) ، لندن ١٩١٢ ص ٥٢٤

(٥) المسظم ص ١١٩ ب (٦) نفس المصدر ، ومسكويه ص ٨ ٥

(٧) المقدسي ٤٤٩ (٨) مسكويه ص ٨ ٥

(٩) تاريخ سداد لاحتطاب السدادى طبعه سيمون (Salmon) ص ٥٦ وما إليها

(١٠) المسظم ص ١١٢

(١١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للمعطي طبعه ليدج سنة ١٣٢ هـ ٣ ١٩ م ص ٢٢٦



والأطباء والحُصَّاب والمهندسين<sup>(١)</sup> وستكلم عن مكتنته وترتيبها وإعدادها في غير هذا المكان (انظر الفصل الخاص بالعلماء) على أن عصد الدولة كان يتشاعل بالعلم ويتفرَّع للأدب في أيام دولته ، وقد وُحِدَ له في تذكرة إذا فرعا من حل إقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ، وإذا فرعا من كتاب أبقراط على السحوى تصدقت بمحسين ألف درهم ؛ وكان يحب الشعر ويعطى الشعراء ، ويؤثر محالسة الأدباء على مبادمة الأسراء<sup>(٢)</sup> ، وكان يقول الشعر ويشده ، ويحكم على معانيه بعد التقدير له<sup>(٣)</sup> وقد ذكر له الثعالى شعراً عربياً ينسب إليه ، وهو لا يعدو أن يكون كلاماً موروثاً رديئاً<sup>(٤)</sup> ولكن هذا كله لم يمنع عصد الدولة من إساءة معاملة الصائى ، مع أنه كان سيد الكتاب في ذلك العصر وقد أفرد عصد الدولة في داره لأهل الحصوص والحكام والفلاسفة موضعاً يقترب من مجلسه ، فكانوا يجتمعون فيه للمفاوضة آمين من السفهاء ورعاع العامة وأمر بإدراج الأوراق على قوائم المساحد والمؤدين والأئمة والقراء فيها ، وإقامة الخرايات لمن يأوى إليها من العرباء والصعفاء<sup>(٥)</sup> ونسبى مارستاناً كبيراً بعداد وقد وُحِدَ في تذكرة له وكل ابن يولد لنا كما يحب نتصدق بعشرة آلاف درهم ، فإن كان من ولاية ومجسسين ألف درهم ، وكل مات فمحسنة آلاف ، فإن كان منها فثلاثين ألفاً<sup>(٦)</sup> ، وتجاوزت صدقاته أهل الله إلى أهل الدمة ، فأذن للوزير نصر بن هارون في عمارة البيع والديرة ، وإطلاق الأموال لفقراء أهل الدمة<sup>(٧)</sup> غير أن عصد الدولة لم يكن أنانياً لرعيته ، بل ظل الحاكم الأخصى عنهم ، وهو كالراعى الذى يحسن العناية بعمه لينتفع منها ما كثر نصيب ، وفي آخر أيامه أحدث رسوماً حائرة ، وراد الرسوم القديمة ، وكان يتوصل إلى أحد المال بكل طريق<sup>(٨)</sup> وفي آخر عمره كان دخله في السنة ثلاثمائة ألف ألف وعشرين ألف درهم ، فأراد أن يبلغ به ثلاثمائة وستين

(١) المسظم ص ١١٢ ، وابن الأثير ح ٨ ص ٥١٨

(٢) نسبه الدهر في شعراء أهل العصر للثعالى طبعه دمشق ح ٢ ص ٢ ، والمسظم ص ١١٢

(٣) الإرساد ح ٨ ص ٢٨٦ وكتاب الأدكباء لابن الجوزى ص ٣٨

(٤) نسبه الدهر ح ٢ ص ٣ وما بعدها

(٥) مسكويه ح ٦ ص ٥٧ ، ٥١ — ٥١١

(٦) المسظم ص ١١٢ (٧) مسكويه ح ٦ ص ٥١١ ، وابن الأثير ح ٨ ص ٥١٨

(٨) ابن الأثير ح ٩ ص ١٦



ألف ألف ، ليكون دخله كل يوم ألف ألف درهم ، « وكان مع صدقاته وإيصاله ينظر في الديار ويناقش في القيراط »<sup>(١)</sup>

والحكم الأخير الذي انتهى إليه مسكويه في كلامه عن عهد الدولة أنه قال . « فلولا جلاله كانت في عهد الدولة يسيرة ، لا أستحسن ذكرها ، مع كثرة فوائده لبلغ من الدنيا مناه ورحوت له من الآخرة رضاه ، والله يعمه بما قدمه من العمل الصالح ، ونعم له ما وراء ذلك »<sup>(٢)</sup>

وتتجلى مواهب عهد الدولة السياسية في اختياره لولائه فقد ولى على الجبل وهمدان والديور وهابند وأسد آباد وغيرها بدر بن حسويه الكردي ( المتوفى عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م ) ، « وقد قامت هيئته بالشجاعة والعدل والسياسة وكثرة الصدقة .. وكانت حراياته وصدقائه متصلة على الفقهاء والأشراف والقضاة والشهود والأيتام والصعفاء ؛ وكان يصرف كل سنة ألف دينار إلى عشرين رجلاً يحسون عن والدته وعن عهد الدولة . وكان يتصدق كل جمعة عشرة آلاف درهم على الصعفاء والأرامل ، ويصرف كل سنة ثلاثة آلاف دينار إلى الأساكفة والحدائث بين همدان وعباد ليقوموا بالمقطعين من الحاج بالأحذية . وكان يصرف إلى سكرين الموتى كل شهر عشرين ألف درهم ، وعمر القضاة ، واستحدث في أعماله ثلاثة آلاف مسجد وحان للعرباء ، ولم يمر بماء حار إلا بنى عنده قرية ، وكان يمد كل سنة في الصدقات على أهل الحرمين وحفظ الطرق ومصلحتها مائة ألف دينار ، وكان ينفق على عمارة المصانع وتنقية الآبار وجمع العائفة في الطريق ، ويعمل على سكان المنازل رسوماً لقيامهم ، وعمل إلى الحرمين والكوفة وعباد ما يفرق على الأشراف والفقهاء والقراء والعقراء وأهل البيوتات »<sup>(٣)</sup>

وقد نَحَرَ ح على يدي عهد الدرله المائتد أمير الخيوش ( المتوفى عام ٥٠١ هـ ١٠١٠ م ) ، وهو الذي ولّاه سماء الدولة تدبير العراق لإعادة النظام إليها ، فقدم بعباد عام ٣٩٢ هـ . ١٠٠٢ م ، والعن فائمة ، فقتل وصلب وعرق ، حتى بلغ من هيئته أنه أعطى علاماته

(١) المسظم ص ١٢ ب

(٢) مسكويه ح ٦ ص ٥١١ ، وهذا المؤرخ كان ممن عرف عهد الدولة وخدمه نفسه

(٣) المسظم ص ١٦١ ب

صيدية قصة فيها دباير ؛ وأمره أن يأخذها على رأسه ويسير من أول بغداد إلى آخرها على أحداً يعترضه ، فعاد وقد انتصف الليل دون أن يعترضه أحد<sup>(١)</sup>

ولم يُخرج بيت بن نويه بعد عصد الدولة حيلًا يصلح للحكم ؛ واصمحت في أواخر الأمر مواردهم المالية ، واحتلت المملكة أيام حلال الدولة ، وقُطعت عنه المادة حتى أخرج ثيابه وآلاته وناعها في الأسواق ، وحلت داره من حاحب وفراش وبواب ، وصار أكثر الأبواب معلقاً ، وانقطع صرَبُ الطفل له في أكثر الأيام لا تقطع الطنّالين<sup>(٢)</sup>

وأما أمراء الترك فيمثلهم بحكم والإحشيد ، وكل مهما حدى ماهر وحاكم قدير ، وإن كان مطهرها الخارجى لم يكن شئ.

أما بحكم فيه حصال قائد الحسد المرتقة كلها ، فقد انتقل من خدمة ما كان الديلمي إلى خدمة مردوايح ، وبعد قتل مردوايح — ويقال أنه كانت لحكم يد في قتله — ذهب مع مئات قليلة من الترك والفرس إلى ابن رائق ، وظل علما مردوايح تحت إمرة بحكم<sup>(٣)</sup> ، ولم يكن عددهم عظيمًا ، فيقول مسكويه إياهم كانوا ثلاثمائة علام استأموا إليه<sup>(٤)</sup> ، ثم تقدم ابن رائق إلى بحكم أن يكاتب كل من الحل من الأتراك والديلم بالمصير إليه ، فكاتبهم وصار إليه عدة وافرة مهم<sup>(٥)</sup> ثم استقل بحكم بدوره السياسى الخاص ، فأزال اسم ابن رائق عن أعلامه ، وترك الانتساب إليه<sup>(٦)</sup> ، وحاربه حتى أحرجه من بغداد ، وصار هو أميراً على العراق ، وكان معه في ذلك الوقت سعمانة من الترك وخمسمائة من العجم<sup>(٧)</sup> وكان الخليفة الراضى يحب بحكم أكثر من حبه لابن رائق ، وقد حلع عليه حلع المادمة ، وجعله أمير الأمراء<sup>(٨)</sup> وبعد موت الراضى طمع بحكم في جماعة من بدمائه ، وطمأنه ينتفع مع عجمته بأدائهم ، فلما نظر لم يجد منهم من يفهمه ما ينتفع به إلا الطبيب سنان بن ثابت ، فوصله وأكرمه ، وطلب منه أن يداويه من عللة العصب والعيط ، وإذا عرف له عيباً ألا يحتشم

(١) المسطم ص ١٥٦ ب وابن عربى ردى طعة كليفورنيا ص ١١١

(٢) المسطم ص ١٨٤ ب

(٣) كتاب العيون ص ١١٤٨ — ب

(٤) مسكويه ح ٦ ص ٧٥ ، وفي كتاب العيون ص ١٥٥ ب أهم كاهم كانوا مائتين وسعين علاماً

(٥) مسكويه ح ٦ ص ٨٥ ، وكتاب العيون ص ١١٤٨ — ب

(٦) كتاب العيون ص ١١٦٣ (٧) كتاب العيون ص ١١٦٤

(٨) الأوراق للصولى ص ٥٣ — ٥٥ ، وكتاب العيون ص ١١٦٧

من ذكره له ، ثم يرشده إلى علاجه ليبرول عنه<sup>(١)</sup>

وكان محكم دا شجاعة نادرة ، فقد لقي عشرة آلاف من عسكر الريدى نأتم عدة وأكل سلاح ، ولم يكن معه إلا مائتان وتسعون من الأتراك ، فهرم عسكر الريدى ؛ وى إحدى المواقع طرح محكم نفسه مع جماعة من الأتراك فى ديارى ، وسبحوا وعبروا إلى الأرض التى عليها العدو ، وذلك أمام عينه ؛ وعبر الديلم فى الطيارات وبعضهم عبر سباحة ، وقابل العدو ، وهو بطن أنه منه فى أمان ، حتى هُرموا وانصرفوا بين يديه<sup>(٢)</sup> ، وخرج اس رائق من عداد ، ولم يتشفت محكم منه ، فلما كان مع الراصى فى سر من رأى ، وورد الخبر بخروج اس رائق إلى باب الأسار استأذن محكم الخليفة فى أن يعبر من سر من رأى إلى هيت مختاراً الصحراء ليأخذ على اس رائق الطريق فلا يعوته ، فلم يأذن له الراصى وقال : هذا لا يصح ، لأنه رحل قد أتمته ، وإذا فعلنا ذلك بعد الأمان كان قبيحاً<sup>(٣)</sup> وقد علمت محكم هذا سيف الدولة صاحب الانتصارات المشهورة على الروم كلما رل سيف الدولة لمخارته

ولما جاء محكم إلى عداد حمل معه كثيراً من صروب العلطة التى اقترمت ثعبانه الحديدة ، وعندما دخل واسط طالب أهلها بالمال واشتد فى تعذيبهم حتى كان يصع على من السجل منهم طستافيه حمر ، فنتبه البعض إلى أنه يفعل ما كان عمله سرداويح أهل الحداد ، ودكره بأنه فى عداد ودار الخلافة لا إلى وأصحابها ، ولا يحتفل بعداد هذه الأحياء<sup>(٤)</sup> وقد أنقص أهل عداد تحكيم لفتح سيره ، فلما لهر اس رائق سرثوا به ، وأطروا ما فى أنفسهم من عس محكم ؛ فكان العتارون والصبيان يهرأون سحيم ورحاله ، ويقولون تحكيم حلقه ا نصف سباله ، فإذا رأوا تركيا عليه قلنسوة صاحوا به فلبسوة طيرى اس أمير نا تحكيم<sup>(٥)</sup>

على أن محكم كان أميراً محمداً لمارة البلاد ، حتى إنه رأى قصور الأكاد فى الحرنة فى المدائن ، فعمر مواضع كثيرة فى تلك الساحية وأشأها ، وأخرى إليها الأنهار ، وعرس بها عروساً<sup>(٦)</sup> وكان يذهب أموانه فى الصحراء ويأخذ معه رجلاً ليعاونه ، فيطبق عليهم

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٦ والصفحات التالية

(٢) كتاب العيون ص ١١٥٥ — ب (٣) نفس المصدر ص ١١٧٦

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٥٧ ، وأطر أواخر الفصل الخامس للماله فيما نأى

(٥) كتاب العيون ص ١٧٥ ب (٦) نفس المصدر ص ١١٨



الصناديق ، ويحملهم على مال إلى حوف الصحراء ، وبعد أن يدفن المال يطبق عليهم الصناديق ويعود بهم فلا يدرون إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين جاءوا . وكان هو يتحد لنفسه علامات يهتدى بها<sup>(١)</sup> ، وأصل هذا التصرف راجع إلى ساطة محكم وتحتطه فيما يحمله من الأمور غير العسكرية

أما محمد بن طمع فأصله من أولاد ملوك فرعانة ، وكان حده قد جاء من التركستان في عهد الخليفة المعتصم ، وكان هذا الخليفة أول من جلب الكثير من الخوذة الأتراك واستخدمهم ، أما أبوه فقد ارتقى حتى صار والياً على دمشق ، ولكنه عُزل وسجن هو وأبوه محمد ، فداق هذا الأخير من الحياة حلوها ومرها ، وخدم ابن طمع قواداً كثيرين ، حتى إنه كان مرة نازيلاً لعامل الشام يخرج معه للصيد ويحمل له الخوارج ، وقد أتيت له فرصة لإظهار شجاعته عند حاكم مصر مما رفعه إلى منصب وإلى مصر ، ثم صار أميرها المستقل ، وامتد حكمه أخيراً على بلاد تساوى في المساحة أكثر رقة حكمها ملوك الفرعانة ، فكانت له مصر والشام واليمن ومكة والمدينة وغيرها<sup>(٢)</sup> ، فلا عجب إذاً أن يرى الخليفة المستكفي يكتب إلى الإخشيد ويعرض عليه إمارة بغداد بعد موت تورو ، ويصم له القيام بالأمر ، فلا يشط لذلك ، وكان الإخشيد أرق بطيباً<sup>(٣)</sup> ، وكان شديد القوة لا يقدر على أن يحرّ قوسه غيره ، ولكنه كان قد ثار به طرف من سوداء مرة ، فكان يعتاده فيحلط<sup>(٤)</sup> ، وقد حسن حال مصر على يديه ، وعنى بالنظام فيها ، وأمر بصرب الديار الإخشيدى على عيار كامل ، وصلحت النقود في عهده بعد فسادها<sup>(٥)</sup> وكان جيشه أعظم جيوش عصره ، فلما استدعاه المتقي في عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م ، واقترب من الرقة والرافقة أشرف أهلها على السواحل والأسوار وبنوا من عظم العسكر وحسن عدته ما لم يشاهدوا مثله<sup>(٦)</sup>

وقد التقت في الإخشيد حصلتان السداحة وحب التملك ، فكان اجتماعهما طريها ،

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٩ — ٤١ ، وانظر أيضاً الفصل الخاص بالماله فيما يأتي

(٢) انظر ترجمه محمد بن طمع في كتاب وفات الأعيان ج ٣ ص ٦٤ — ٥٥ ، وكتاب المغرِب

في حلي المغرب لابن سعيد طبعه ليدن ١٨٩٨ من ص ٤ إلى ص ٢

(٣) كتاب المغرب لابن سعيد ص ٣٩ (٤) نفس المصدر ص ١٦ — ١٧

(٥) كتاب العيون ص ٢٩ ب (٦) نفس المصدر ص ٢١٣ ب



وقد بدأ بمصادرة جميع العمال الأعياء ، أصدقاء كانوا أم أعداء ، وأخذ أموالهم في هدوء من جاسه و برود ، وكثير منهم كان يستحق هذا وقد اشتهرت عنه محنته للصبر ، فكان أكثر ما يهدى إليه ، وكان إذا جاءت الأوقات التي يهدى إليها فيها أخرج من حرائثه الصبر وباعه إلى التجار ، فيشتره الدين يهدوه إليه ، فيحصل له الثمن الوافر ، ثم يعود الصبر إليه <sup>(١)</sup> ؛ وتحكى عنه حكايات تدل على أنه كان لا يأبى أب يأخذ ما يعجبه إذا وحده عند أحد من أصحابه <sup>(٢)</sup>

ولكن كان الغالب على الإحشيد الحياء ورقة الوجه ، وكان إذا صادر أحدا لم يعدنه ولم يصبرنه ، ولم يصيِّق عليه ، ولم يرّه حتى تنتهى المصادرة ؛ وكان رسمه ألا يتعرض للحرّم <sup>(٣)</sup> ، وكان يحب الصالحين ويكرمهم ويركب إليهم ويطلب دعاءهم . يقول ابن سعيد <sup>(٤)</sup> . « وحدثني مسلم بن عبد الله الحسبي قال . وصفت للأخشيذ رجلا صالحا بالقراءة يعرف باب المسبب ، فركب معي إليه ، وسأله الدعاء ، ثم انصرف ؛ فقال لي تعال أريك أنا أيضا رجلا صالحا ، فقصيتُ معه إلى أنى سليمان بن يوسف ، فرأيت شيئا أديبا حالسا على حصير سامان مُطَّيَّن ، فقام فتلقى الإحشيد وأقعده على الحصير ، ثم قال له يا أنا سهل اقرأ على ! فإن الريح آدبى الساعة في الصحراء ، فأدخل يده تحت الحصير فأخرج منه مبدلا نقليما مطويا فمطاه على يده وقرأ عليه » ، وكان الإحشيد يحب قراءة القرآن ويكفى عند سماعها <sup>(٥)</sup>

وقد وقع له مرة أمر عجيب ، وذلك أن رجلا من أهل العراق صعد فوق سور مكة وصاح معاصر الناس ! أنا رجل عريب ، ورأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول لي سِرْ إلى مصر ، وأنتي محمد بن طمع ، وقل له عني يطلق محمد بن علي المادراي ، فقد أصرّ بولدي ثم سارت القافلة إلى مصر ، وسار الرجل ووصل إلى مصر وبلغ الإحشيد خبره ، فأحصره ، وقال إيش رأيت ؟ فحبره ، فقال كم أعتقت في مسرك إلى مصر ؟ قال مائة دينار ، فقال هذه مائة دينار من عدي ، وعُدْ إلى مكة ، وسم في الموضع الذي رأيت

(١) المغرب لاس سعيد ص ٣٥ — ٣٦

(٢) انظر الفصل الخاص بالأخلاق والعادات

(٣) المغرب لاس سعيد ص ١٥ ، ٣٧

(٤) المغرب ص ٣٤ — ٣٥ ، ص ٣٩

(٥) نفس المصدر ص ٣٧

فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رأيته فقل لرسول الله قد بلغت رسالتك إلى محمد بن طمع ، فقال بنى لي عنده كذا وكذا ، ودكر شيئاً كثيراً ، فإذا دفعه إلى أطلقته ، فقال له الرجل ليس في ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هزل ، وأما أخرج إلى المدينة ، وأتق من مالي وأسير إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأتق بين يديه يقطان غير ممام ، وأقول يا رسول الله ، أدّيت رسالتك إلى محمد بن طمع ، فقال لي كذا وكذا ، وقام الرجل ، فأمسكه ، وقال حصلنا في الحد ، إنما طمنا بك طمًا ، والآن فما تترخ حتى أطلقه ، فأرسل إليه الإحشيد من توسط في أمره وأطلقه<sup>(١)</sup>

وفي سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م ورد الخبر من دمياط إلى مصر بأن رجلاً أقطع اليد قديماً ، ممن قد أُحد مع قوم اتهموا بقطع الطريق ، عاب عن البلد زماناً ثم عاد ويده صحيحة وقد ادّعى أنها كانت مقطوعة وأنها كانت عند أهله ، وقال إنه كان في مسجد يتعبد فيه وأن يده عادت صحيحة ، فافتتن الناس به وكثر القول فيه ، فوجه الإحشيد من أحصره إلى داره ، وسأله عن قصته فقال رأيت في اليوم كأن سقف المسجد قد افتتح ورجل إلى مسه ثلاثة أنفس السى وحريل وعلى عليهم السلام ، فسألت السى ردّ يدي ، فرَدّها إلىّ ، وانتهت ، وقد عادت وورد من دمياط كتاب بأن جماعة من المستورين رأوه مقطوع اليد ، فأوصله الإحشيد إليه وأكبره ، واستعظم قدرة الله تعالى فيه ، ثم قيل إن هذا الرجل دلّس وكذب ، ورالت الفتنة والله أعلم<sup>(٢)</sup>

(١) المغرب لاس سعيد ص ٣٥

(٢) كتاب العيون ص ٢٩ ب — ١٢١

## الفصل الرابع

### اليهود والنصارى

إن أكره فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى وحوذ عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين ، وأولئك هم « أهل الدمة » الذين كان وحوذهم من أول الأمر حائلا بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية وقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أحزاء عربية ، واستند أهل الدمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما مسحوه من حقوق فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين ، وقد حرص اليهود والنصارى على أن تظل « دار الإسلام » دائما غير تامة التكوين ، حتى إن المسلمين ظلوا دائما يشعرون أنهم أحباب مستصرون لا أهل وطن ، وحتى إن الفكرة الإقطاعية لم تمت ، بل كانت وحوذ النصارى بين المسلمين سببا لظهور مبادئ التسامح التي يبادى بها المصلحون المحدثون وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما يسعى أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الأمر نوعا من التسامح الذي لم يكن معروفا في أوروبا في العصور الوسطى ، ومظهر هذا التسامح أشبه علم مقارنة الأديان ، أى دراسة الملل والنحل على اختلافها ، والإقبال على هذا العلم بشعب عظيم

وكان تعبير الدين لا يحور إلا إذا كان دحولا في الإسلام ، وكانت الطوائف الدينية منفصلة بعضها عن بعض تمام الانفصال ، وكان المسلم إذا ارتد عن الإسلام عوقب بالقتل ، كما أن قانون الدولة النوربطية كان يقضى بقتل المسيحي إذا هو عير دينه<sup>(١)</sup>

---

(١) ولا بد أن يكون قد سبق هذا التسامح محاولات إلى الارتداد عن الإسلام ، وقد حدث في أوائل عهد الفاطميين أنه « رفع إلى محمد بن العمان القاضي (٣٤٥ هـ - ٣٨٩ هـ) أن نصرانيا أسلم ، ثم ارد ، وقد حاور الثمانيين ، فأسست فأنى ، فأهوى أمره إلى العرير ، فسلمه لوالى القسطنطينية ، وأرسل إلى القاضي أن يرسل أربعة من اليهود لتسندوه ، فإن باب صمس له عنه مائة دينار ، وإن أصر فلنقل » فعرض عليه الإسلام فأنى ، فقبل ، ثم أمر بعره في الليل » (ملحق أخبار القضاة للكسندى طبعه Quest ، لندن ١٩١٢ ص ٥٩٣) ، وقد حدث في بلدة سروج بالعراق في القرن الثالث الهجرى أن رجلا من المشددين في الإسلام عذب نصارى اردوا بعد إسلامهم بصروف العذاب لعدمهم إلى الإسلام ، فأمر به =



ولم يكن ثمّ تراوح بين المسلمين وغير المسلمين ، وذلك لأن القانون المسيحي لم يكن يجبر للمرأة النصرانية أن تتروح بعير نصراني ، لثلاث تنقل هي وأولادها إلى غير المذهب ، ولا كان يحور للنصراني بحسب قانون الكنيسة أن يتروح بعير نصرانية إلا رجاء إدخالها هي وأولادها في النصرانية<sup>(١)</sup>

أما رواح المسيحي من مسلمة فكان مستحيلا على أنه كان في الدولة الإسلامية ما يضمن لكل ديانة من ديانات أهل الدمة كيانها الخاص ، فكان لا يحور للمسيحي أن يتهود ، ولا لليهودي أن يتنصر ، ولا يكون تمييز الدين إلا إذا كان ذلك دحولا في الإسلام ، ولم يكن النصراني يرث اليهودي ولا العكس ، كما لم يكن اليهودي أو النصراني يرث المسلم ولا المسلم غير المسلم يهوديا كان أو نصرانيا<sup>(٢)</sup> وقد أصدر الخليفة المقتدر في سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م كتابا في المواريث أمر فيه بأن «تُردّ تركة من مات من أهل الدمة ، ولم يخلف

== الفاصي فُصِّرَ وسُحِّ (Michael Syrus, S 535) ، وقول أبو العلاء المعري (الموفى عام ٤٤٩ هـ — ١٥٧ م)

قد أسلم الرجلُ النصرانيَ مَرَعًا      وليس ذلك من حب لإسلام  
أو شاء تتروح مثل الطي معلميَّة      للباطن نأسوار وعلاّم  
(الارومات طبعه عناية ص ٢٥)

ومن كبار رجال الدين المسيحيين من دخل الإسلام ، فصبّ عليه مؤرخو الكنيسة لعنتهم ، في أواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) اتهم رئيس الأساقفة النسطوري عدسة مرو باللواط إهاما عليا ، فاعسق الإسلام ، وكان محط من شأن المسيحيين لدى اللاط (Barhebraeus, Chron Eccles III, 171 ff) ، وحوالي عام ٣٦ هـ — ٩٧ م اعسق أسقف أدرسيان الإسلام بعد أن فُصِّص عليه برني بامرأة مسلمة (نفس المصدر ص ٢٤٧) ، وفي سنة ٧ هـ — ١٦ م هدد رئيس أساقفة مدسة بكرت بالخلع سلب اربكانه للربا ، فدخل الإسلام وسمى نأني مسلم ، ووروح كبيرا من النساء ، ونحكي المؤرخون المسيحيون مسرورين أنه لم يزل من الشرف عند الخلفاء ما كان ماله وهو رئيس لأساء دسه ، وأنه في آخر حياته كان يعيش من الكفف (Elias Nisibenus S 226, Barhebr Chron eccles III, 287 ff) ، وكذلك في الأندلس حُلِّع أحد الأساقفة الكبار ، وهو صموئيل أسقف مدسة البرا Elvira لسوء سيرته ، فاعسق الإسلام (Graf Baudissin, Eulogius Und alvar, 1872, S 162) ولقد عمل أبو العيلاء عمل فريد في ناله في القرن الثالث الهجري ، وذلك أنه أسأدن يوما على الورير صاعد بن مخلد ، فقال له الخاحب الورير مشغول ، فانظر ، فلما أظنّ إداه قال للخاحب ما صنع الورير ، قال بصل ، قال . صدق ، لكل حد لدة ، بغيره نأني حدث عهد بالإسلام (مرواح الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٢٢ — ١٢٣)

(١) Sachau Syrische Rechtsbucher, II, S 75, 170, 192

(٢) كتاب الخراج وصنع الكتاب لعدامه بن جعفر ، مخطوط رقم ٧ ٥٩ بالملكه الأهلية مارس ص ١٣ ب ، حب ورد في عهد لفاص بولاية الحكم ألا يورّب أهل ملين



وارثاً ، على أهل ملته » ، على حين أن تركة المسلم كانت تردّ إلى بيت المال<sup>(١)</sup>

وفي المصنف الثاني من القرن الرابع الهجري صدر منشور كتب للصائين عن أمير المؤمنين ، أمر فيه ، إلى حاب صياتهم وحراستهم والذب عن حريمهم ورفع الظلم عنهم ونحو ذلك ، بالتحلية بينهم وبين مواريتهم ، وترك مداحتهم ومشاركتهم فيها ، لأن أمير المؤمنين يرى في مواريت الصائين وغيرهم من المخالفين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول في الأثر الثالث عنه « لا يتوارث أهل ملتين »<sup>(٢)</sup>

وفي أثناء القرن الرابع الهجري اعترف للمحوس بأنهم أهل دمة ، إلى حاب اليهود والنصارى ، وكان لهم ، كاليهود والنصارى ، رئيس يمثلهم في قصر الخلافة وعند الحكومة ، ولكن كان بين هذه الطوائف الثلاث فروق ، فأما اليهود فإنهم استطاعوا أن يستبقوا مركزهم السياسي من خلال الاتحاد المكث الذي كان للامبراطورية السالدية رغم ما تعرضوا له من مخاطر وتقلبات ، وأما المحوس فهم قية لعدو ناسل مستقل لم يتمّ التعاطب عليه في مواطنة البعيدة المال ، أما النصارى فقد كانوا من قبل يحضعون لحكم الساسانيين على ما يشه حال أهل الدمة ، وكانت الظروف التي عاشوا فيها أقسى عليهم من غيرهم وأقل حظاً لمصالحهم من اليهود أو من شعوب الولايات التي أحدثت من الروم<sup>(٣)</sup> ، « وكانت الرياسة في المحوس واليهود وراثية ، وكان يلقب رؤسائهم بلقب الملك ، وكانوا يدفعون الصرائب لرؤسائهم ، خلافاً لما كان الحال عليه بالنسبة للنصارى »<sup>(٤)</sup> ، وقد قال بطريرك البعاقنة في مجلس له مع الخليفة إن رؤساء المحوس واليهود حكام ديبويون ، وإنه هو رئيس روجي ، ولا يستطيع إلا فرض

(١) كتاب الورداء ص ٢٤٨ ، [ ويظهر أن الحال كانت قبل عهد المندرس فيما يتعلق بالمسلمين أن تؤخذ تركة من لا وارث له إلى بيت المال ، وكذلك ما فصل عن السهام المفروضة في القرآن ، إن لم تكن للمتوفى عصبة تخور باقي ميراثه ، وكان لذلك عمال سمون عمال الموارث ، وقد اشتهروا حتى شكى منهم الناس والمفهوم من نص كتاب المندرس أنه أمر بصرف عمال الموارث في سائر النواحي ، وأمر بردها ما فصل من السهام المفروضة على أصحاب السهام من القرية ويجعل تركة من سوى ، ولا عصبة له ، لدوى رحمه ، إن لم يكن له وارث سواهم ، وهذا رأى عمر وعلى وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم على أن الكتاب لم يعرض لركة المسلم الذي يموت ولا يكون له وارث ولا رحم — المرحم ]

(٢) رسائل الصائين مخطوطة رقم ٧٦٦ بمكتبة لندن هولنده ص ١٢١١ — ب

(٣) Noldeke Tabariübersetzung, S 68 Anm

(٤) Michael Syrus, ed Chabot, S 519 ، وكان أهل الدمة في الموصل يدفع كل واحد منهم ديناراً ، وكان نصف ما يحصل من اليهود سطي لرئيسهم ونصفه الآخر للحكومة (R Petachjâ, S 275)

العقوبة الروحية ، كأن يحكم بإزالة القسس والأساقفة عن مناصبهم أو منع العلمانيين من حضور البيعة<sup>(١)</sup> وصار الخائليق السطوري ، رئيس المسيحيين الشرقيين ، بعد أن انتقل مركز الدولة الإسلامية إلى الشرق ، هو الرئيس الأكر للصراية ، وكانت تنتحه الكنيسة ويصادق الخليفة على انتحاه ، ويكتب له عهداً كما يكتب لكار العمال والمتصرفين ، وقد ورد في نسخة عهد الخائليق عام ٥٣٣ هـ — ١١٣٩ م<sup>(٢)</sup> ، « ولما أُهَيِّتْ حالك إلى أمير المؤمنين ، وأبك أمثل أهل ملتك طريقةً ، وأقرهم إلى الصلاح مدهماً وحصر جماعة من البصري الذين يُرَّحَع إليهم في استعلام سيرة أمثالك فاتفقوا باجتماع من آرائهم وأهوائهم على اختيارك لرياستهم ومراعاة شؤونهم وتدير وقوفهم والتسوية في عدل الوساطة بينهم ، قويهم وضعيفهم ، وسألوا أيضاً نصنك عليهم بالإذن الذي به تثبت قواعده وقرر الإذن الإمامي الأشرف لا رالت أوامره معصودة بالتوفيق بترتيبك حائليقاً لسطوري البصري عديبة السلام ومن تصمته ديار الإسلام ورعياء لهم ومن عداهم من الروم واليعاقمة والملكيّة في جميع البلاد وكل حاصر في هذه الطوائف وبادٍ واعرادك عن كافة أهل ملتك تنقص أهبة الخلفة المتعارفة في أماكن صلواتكم ومحامع عباداتكم غير مشارك في هذا لإسائ ولا مسح في التحلي به لمطرا أو أسقف أو شماس<sup>(٣)</sup> حظاً لهم رتنتك ووقوفاً بهم دون محلك ، وإن ولح أحد في باب المحادثة وأنى البرول على حكمك كانت العقوبة به حائقة حتى تعتدل قنائه وأمر بحملك على مقتضى الأمثلة الإمامية في حق من تقدمك من الخائفة والحياطة لك ولأهل ملتك في الأئس والأموال والحراسة للكافة بصلاح الأحوال واتساع العادة المستمرة في مواراة أمواتكم وحماية بيعكم ودياراتكم وأن

Dionys von Tellmachre, ed Chabot, 148, Barhebraeus, Chronicon ecclesia (١)

sticum, ed Abbeloo et Lamy 1,372

(٢) قلا عن مذكرة ابن حمدون التي نشرها أمدروز Amedroz JRAS, 1908, 467 ff

(٣) كانت علامه الخائليق ، كما يقول الحاحط ، برطلة وعصا (ولعل البرطلة آتية من الكلمة اليونانية hyperbole — انظر البيان والنس طبعه مصر ١٣١١ هـ ح ٢ ص ٧٦) على أنه يحكي عن أحد أصحاب الصاع المسلس في القرن الثالث الهجري أنه كان طوف على صاعه وعلى رأسه برطلة حوص ، انظر كتاب المحاسن والمساوي لليهي ، الطبعه الأوروسه (سرها) (Friedrich Schwally) عام ١٩١٩ — ١٩١٨

يُقْتَصَرُ في استيعاء الحرية على تناولها من العقلاء والواحد من رجالكم<sup>(١)</sup> ، دون النساء ومن لم يبلغ الحلم من أطفالكم ، ويكون استيعاؤها نوبة واحدة في كل سنة من غير عدول في قصصها عن قصة الشرع المستحسنة ، وفَسَّحَ (هكذا في النص) في أن تتوسط طوائف البصري في محاكماتها فتأخذ النصف من القوى للمستضعف »

وكذلك كان يُكتب لطريق اليعاقبة عهدٌ ، وكان لابد له أن يذهب إلى قصر الخلافة عند تنصيب كل خليفة جديد<sup>(٢)</sup> ولكن الخليفة معه حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م من أن يتحد بعدد مقرا له<sup>(٣)</sup> وكان للبصري الوبيين دون سائر البصري مركزاً خاصاً ممتاز في المملكة الإسلامية ، وكانوا يدفعون الضرائب لملكهم ، وكان للبرابرة عامل من قتلته في بلاد الإسلام ، وقد حدث أن واحداً منهم اعتنق الإسلام ، وكان ابن ملك النوبة سعداد رائراً ، فأمر باعتقاله وعُله بالقيود<sup>(٤)</sup>

ولا يتكلم المؤرخون المسلمون كثيراً عن رئيس اليهود ، ويقول مؤرخو اليهود إنه عالى في القرن الرابع أياماً شديدة<sup>(٥)</sup> ، وقد تكلم عنه بنيامين (Benjamin von Tudela) وشاحيا (Petachja von Regensburg) في القرن السادس الهجري وقد كان انقسام الإسلام إلى خلافة سعداد وأخرى بالقاهرة مما أثر في تنظيم المجتمع اليهودي ، ولذلك نجد سعداد رأس الحالات الذي لقبه المسلمون سيدنا ، ولكن كلمته كانت لا تسرى إلا شرق الفرات<sup>(٦)</sup> ، ومحمد في القاهرة رئيساً آخر يُلقب سرهستاريم (أى أمير الأمراء) ، وكان يعين أخصار

(١) إن محبين أمدور لا ضرورة له ، فإن الخالق لم تكن من الحرية بل الذي كان ، ص ١٠٠ عامل الجراح

(٢) Michael Syrus, S 519

(٣) Barhebraeus, Chron eccles III, 275, Ann 1

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨٤ ، و Michael Syrus, S 532

(٥) H Graetz, Geschichte der Juden, V, 4 Aufl S 276 ff وفيما يتعلق بالمراجع

العربية التي تكلمت عن رأس الخالوب اطر Goldziher Revue des etudes juives, VIII, 121 ff وقد نقل حولدهر عن مؤلف عربي مجهول والخالوب رئيسهم ، ويرغم عامتهم أنه لا برأس [حتى تكون طويل الباع] حتى يكون أنامل يده يلع ركبه ، اطر أيضاً معاصج العلوم لأنى عدالة الحواررى طلبة ليدن ١٨٩٥ ص ٣٥ اطر فصل « الأسراف »

(٦) Benjamin, S 61 وعند شاحا أن أمره نافذ في دمشق وعكا



اليهود في الشام ومصر ، أى في حدود مملكة الفاطميين<sup>(١)</sup> . ولا بد أن يكون الفاطميون قد تكلموا بإيجاد هذه الطائفة الخاصة من الأمراء ( ناحيد — أمير ) بالقاهرة وعسة مهم في معارضة كل ما هو عداوى ؛ فعندنا من القرن الثاني عشر الميلادى ، أى بعد سقوط دولة الفاطميين مباشرة ، كتاب لرئيس الطائفة اليهودية بمصر موجه إلى عداد يشكو فيه من إمام غير مقبول أرسل من عداد<sup>(٢)</sup> ؛ ويقدر رنى بنيامين ( وهو رحالة سافر عام ١١٦٥ م ) اليهود الدين في المملكة الإسلامية — بعد صرف الطرعن العرب — نحو ثلاثمائة ألف يهودى ، على حين أن رنى نتاحيا — وقد سافر بعد صاحبه بعشرين عاما — يقدر أن عدد اليهود في العراق وحدها يبلغ ستمائة ألف<sup>(٣)</sup> ولا تنطبق هذه الأرقام على الشام في القرن الرابع الهجرى لأن السياسة التى جرى عليها قواد الصليبيين إراء اليهود كادت تعنى الطائفة الإسرائيلية ، ويقدر بنيامين عدد سكان الحى الخاص باليهود في القدس بأربعة أنفس<sup>(٤)</sup> ، ولم يجد نتاحيا هناك إلا تسحفا واحداً ويقول نيلومارسيليوس جيورجيوس (Bailo Maisilius Georgius) في حريرجع ناريجه إلى أكتوبر ١٢٤٣ م إنه لم يكن في الحى الخاص بالسديين في صور إلا تسعة من تسان اليهود<sup>(٥)</sup> أما بنيامين فيقول إنه كان يسكن بدمشق ثلاثة آلاف يهودى تحت حكم المسلمين — وعد نتاحيا عشرة آلاف — وفي حلب خمسة آلاف يهودى أما على مهرى دحلة والفرات فكان اليهود مجتمعين بكثرة كما كانوا بألمانيا في ذلك الوقت على مهرى الرين والمورل وقد كانوا كثيرين على مهر دحلة سوع حاص ، يقول رنى نتاحيا<sup>(٦)</sup> « وثم يهود في جميع المدن والقرى التى بين بيسوى ودحلة » ، وكان في حرية ابن عمر أربعة آلاف ، وفي الموصل سعة آلاف ( وعد نتاحيا ستة آلاف ) ، وفي مدينة حرية بأقصى الشمال في العراق خمسة عشر ألفا ، وفي عكرى وواسط عشرة آلاف ، ولكن من العجيب أنه لم يكن يوحد عداد إلا ألف

(١) Benjamin, S 98

(٢) Mittel Samml Erz Rainer, V, 130

(٣) Petachjâ, S 289

(٤) ويُذكر أن عددهم مائتان ، وذلك في مخطوط واحد

(٥) Tafel und Thomas, Urkunden zur alteren Handels und Staatsgeschichte der

Republik Venedig, Wien, 1856, II, S 359

(٦) ص ٢٧٩



يهودى<sup>(١)</sup> ؛ وكانت المدن التي بها يهود كثيرون على العرات هي مدينتي الحلة ، وكان بها عشرة آلاف ، والكوفة ، وكان بها سبعة آلاف ، والبصرة وكان بها ألفان ، وفي أوائل القرن الرابع الهجري كان اليهود هم أكثر أهل مدينتي سورا وسهر ملك من بيت أجراء العراق الأخرى<sup>(٢)</sup> وكلما تقدمنا شرقاً زاد عدد اليهود ، فكان ميمدان ثلاثون ألفاً ، و ناصعبان خمسة عشر ألفاً ، و شيراز عشرة آلاف ، و بخرية ثمانون ألفاً ، و سمرقند ثلاثون ألفاً<sup>(٣)</sup> ويقول المقدمي في القرن الرابع ما يؤيد هذا فيذكر أن بحراسان يهوداً كثيرين وبصارى قليلين<sup>(٤)</sup> ، وأن بالحل يهوداً أكثر من البصارى<sup>(٥)</sup> ؛ وكان بالمشرق أيضاً المدينتان الوحيدتان اللتان أطلق عليهما اسم اليهودية إحداهما قرب أصفهان والأخرى شرقي مرو وكذلك وحد المقدسي إقليم حورستان « قليل البصارى غير كثير اليهود أو المحوس » (ص ٤١٤) ، وكذلك في فارس وحد « المحوس أكثر من اليهود ، و به بصرى قليل » (ص ٤٣٩)<sup>(٦)</sup> وكذلك الحال في جزيرة العرب ، فاليهود أكثر من البصارى (مقدسي ص ٩٥) ، وهم الغالب على مدينة قرح ، ثابطة مدن الحجار عمارة وتجارة (مقدسي ص ٨٣ — ٨٤) أما مصر فالأرقام التي ذكرها بنيامين أقل مما تقدم بكثير<sup>(٧)</sup> وكان بالقاهرة سبعة آلاف وبالإسكندرية ثلاثة آلاف ، ومدن الدلتا نحو ثلاثة آلاف ، وثم ستمائة في المدن التجارية بالصعيد

- 
- (١) Benjamin S 19 ، وكذلك Petachjâ, S 280 وقال إن بها اليوم أكبر من أرسن ألف يهودي ، لهم إحدى وعشرون سعة ، انظر كتاب Obermeyer, Modernes Judentum, Wien, 1907, S 23 ، وفي الطبعه الأخيرة لكتاب سامس أرسون ألفاً ، وهذا لا ينفق مع ما قبله باحماً ، ولا مع ما كان يحصل من الحرية (انظر ص ٩)
- (٢) أبحار الحكماء للعقلى الطبعه الأوروسه ص ١٩٤
- (٣) هذه الأرقام مرسنة لأن بنيامين لم يزر السرق ، ويقال إنه كان في مدينته حبر ، وهي مدينته صخرة بجزيرة العرب ، حمسون ألفاً من اليهود ، وهذا عجيب
- (٤) المقدسي ص ٣٢٣
- (٥) نفس المصدر ص ٣٩٤
- (٦) وهو أول أحد مؤلفي القرن الرابع عشر الميلادي إن مدينته أرموة بارس عمار بأن أساء اليهود فيها لا يعيشون أكبر من أرسن يوماً ، انظر Hamdallah Mustawfi von G Le Strange, 1903 S 65
- (٧) وهو ينفق مع المقدسي حب يقول (ص ٢٢) « ويهود قليل » وقال إن اليهود كانوا في العصور القديمة يؤمنون أكبر من ثمن السكان (Cuo, Wirtschaftsgeschichte der Juden, I, 27)

أما عدد البصري فلا يمكن تعيينه إلا تعييناً تقريبياً ناقصاً جداً ، وفي عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان عدد الدين دفعوا الحرية خمسمائة ألف إنسان<sup>(١)</sup> ، ومعنى هذا أن أهل الدمة بلغوا خمسمائة ألف منهم اليهود<sup>(٢)</sup> ، ويدل إحصاء سكان مصر في القرن الثاني الهجري على أنه كان بها خمسة ملايين من القبط يدفعون الحرية<sup>(٣)</sup> ، وهذا يدل على أنه كان بمصر رهاء خمسة عشر مليوناً من البصري الأقطاط<sup>(٤)</sup> ، وبلغ مقدار الحرية سعداد في أول القرن الثالث الهجري مائة ألف وثلاثين ألف درهم<sup>(٥)</sup> ، وفي أوائل القرن الرابع بلغت مائة وستين ألف درهم<sup>(٦)</sup> ، ويدل هذان الرقمان على أنه كان سعداد نحو من خمسة عشر ألفاً من أهل الدمة يدفعون الحرية ، ويجب أن يسقط منهم ألف يهودى ويستطيع أن يقول شيء من اليقين إنه كان سعداد ما بين أربعين وخمسين ألف بصراني ، والمدينتان الوحيدتان فيما بين الفرات ودجلة اللتان يقول ابن حوقل إن أكثر أهلها بصراني هما الرها وتكريت ، ويقول عن تكريت إنها مدينة قديمة الساء ، وتجمع سائر فرق البصري ، ومنها من البيع والأديرة القديمة التي تقارب عهد عيسى عليه السلام والحواريين ، لم تتغير أبنيتها وثاقهً وحلداً<sup>(٧)</sup>

أما المحوس فكانوا كثيرين بالعراق<sup>(٨)</sup> ، وأكثر ما كانوا في حبوب فارس وفي سنة ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م وقعت فتنة عظيمة بينهم وبين عامة شيراز المسلمين ، ومهت في هذه الفتنة دور المحوس ، وصُروا ، فسمع عصد الدولة الخرو وجمع كل من له أثر في ذلك ونال في تأديبهم ورحمهم<sup>(٩)</sup> ، ولكن شيراز كانت مدينة هادئة في العادة ، وقد عجب المقدسي من أنه لم يرَ فيها على محوسى عياراً يميّزه ومن أن الأسواق تربي في أعياد الكمار

(١) كتاب المسالك والممالك لاس خردادة ، طبعه لندن ص ١٤

(٢) ولكن يجب أن يراعى أن الحرية لم تكن تؤخذ من جميع أهل الدمة [المرحم]

(٣) Führer durch die Samml Rainer, S 172

(٤) بلغ سكان مصر بحسب إحصاء ١٩٧٠ اثني عشر مليوناً ، [والآن (١٩٤٧) يزدون على

ثمانية عشر مليوناً — المرحم]

(٥) ابن خردادة ص ١٢٠ ، وهو قول فدامه بن حنبل في كتاب الخراج (طبعه لندن ص ٢٥١)

إن حرية أهل الدمة بلغت مائتي ألف درهم عام ٢٤ هـ

(٦) Kremer Einnahembudget der Abbasiden DWA 36, S 313

(٨) المقدسي ص ١٢٦

(٧) ابن حوقل ص ١٥٦

(٩) ابن الأثير ح ٨ ص ٥٢٢

وفي عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م مات أحد كبار الصوفية ، فمشی في حمارته المسلحون واليهود والمصري وكانت تقع في القارة التي شرق فارس مدينة القريمين ، وأهلها محوس ، وكسهم من كرى حميرهم ، يصرون عليها إلى الآفاق<sup>(١)</sup>

أما الصائفة فكان آخر عهد اردهر أمرهم فيه أواخر القرن الثاني ، في عهد الخليفة الأمين ، في ذلك العصر « عاد شأن الوثنية بحرّان إلى الظهور ، وقيدت الثيران في جميع الشوارع مرسةً على الثياب والورود والرياحيب والأحراس على قرونها ، وسار خلفها الرجال بالمرامير<sup>(٢)</sup> » وفي حوالي عام ٣٢٠ هـ استغنى الخليفة القاهر أبا سعيد الأصبهري محتسب بعداد في الصائفين ، فأفتاه بقتلهم ، لأنه سين له أنهم يحالون اليهود والمصري ويعبدون الكواكب ، بعزم الخليفة على ذلك حتى جمعوا من بينهم مالا كثيراً فكف عنهم<sup>(٣)</sup> وقد صدر حوالي منتصف القرن الرابع الهجري منشور كُتب للصائفين المقيمين بحرّان والرقّة وديار مصر أمرّ فيه الخليفة بصيانتهم وحراستهم<sup>(٤)</sup> ، ولكمهم انقرصوا حوالي عام ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م ، حتى إن ابن حزم يقول إنهم في جميع الأرض لا يعلمون أربعين نساً<sup>(٥)</sup>

ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يعلّق دون أهل الدمة أيّ باب من أبواب الأعمال ، وكان قدمهم راسحاً في الصنائع التي تدبّر الأرباح الوفيرة ، فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب صياغ وأطباء<sup>(٦)</sup> ، بل إن أهل الدمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهادّة في الشام مثلاً يهوداً ، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى<sup>(٧)</sup> وكان رئيس النصاري بعداد هو طبيب الخليفة ، وكانت رؤساء اليهود جهادتهم عنده<sup>(٨)</sup> وكان أصغر دافعي

(١) كتاب الخراج وصحة الكتاب لعدامة بن جعفر طبعه ليدن ١٨٨٩ ص ٩ ٢

(٢) Michael Syrus S 497 (٣) طبقات السكي ح ٢ ص ١٩٣

(٤) رسائل الصافي مخطوط رقم ٧٦٦ بمكتبة ليدن ص ٢١١ — ب

(٥) كتاب الفصل لاس حرم ح ١ ص ١١٥ طبعه مصر عام ١٣١٧ هـ

(٦) كتاب الخراج لأبي يوسف القاسمي ، طبعه بولاق ص ٦٩

(٧) المقدسي ص ١٨٣

(٨) وفي عام ٢١ هـ — ٨٢٥ م ملا ، قام الطبيب حنبل ورمسلا بجائيل باخبار الجائلي

السطوري (Barhebraeus, Chion eccles, III 187) ، ويقول أبو نواس ( ديوانه طبعة القاهرة سنة



الصرائف هم اليهود الخياطون والصناعون والأساكفة وانحرارون ومن إليهم<sup>(١)</sup> وقد وجد  
نيامين (ص ٣٥) في القدس في القرن الثاني عشر الميلادي أن اليهود يحتكرون صناعة  
الصناعة ، وكذلك الاثنى عشر يهوديا الذين وخدم في بيت لحم ، فقد كانوا جميعاً صنّاعين  
(ص ٤٠) ، لأن اليهودي ولو كان واحداً في بلد فإنه يشتغل بهذه الصناعة (نيامين  
ص ٣٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٩)

أما حياة الدمى فإنها عند أي حبيبة وإن حصل تكافؤ حياة المسلم ، ودينه دية المسلم ،  
وهي مسألة مهمة جداً من حيث المبدأ أما عند مالك فدية اليهودي أو النصراني نصف دية  
المسلم ، وعند الشافعي ثلثها ، أما المحمدي فدينه حرء من خمسة عشر حرءاً من دية المسلم  
ومما كان يستحق التأديب ، لا الحد ، عند فقهاء المسلمين أن يُقال للمسلم يا يهودي أو يا نصراني  
أو ما حرى هذا الحرى<sup>(٢)</sup>

سألتُ أحمى أنا عسى وحيداً ، له عمل  
فعلت الراح معصى فعال كثرها قل  
فعلت له فعدّ رلى فعال ، وقوله فصل  
رأيت طنائح الإسا ن أربعة ، هي الأصل  
فأربعة لأربعة اكل طبيعة رطل

وهول ساعر بنسبوري في الفصل

لما رأيت الجسم ذا اعلال ودت الآلام في أوصالي  
دعوت سجعاً من بي الحوالي طريق عم حائل حال  
فعل سجعاً ليس للعالم ومرهقاً ليس من الصوالي

إلى آخر القصيدة ، انظر نبيه الدهر ح ٤ ص ٦ ٣

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٦٩ ، والمقدسي ص ١٧٣ ، وقد جاء في كتاب حكاية أبي  
القاسم العدادي تأليف محمد بن علي المطهر الأردني ، طبعة مترمهد لرح س ٢ ص ١٩ ٤٢ "كأنها نعل  
كسائي نصر من دكان ابن عذره اليهودي" وفي كتاب ذكر أبحار أصفهان لأبي نعيم (مخطوط  
رقم ٥٦٨ بمكتبة ليدن ص ١١١) ، [ولهذا الكتاب نسخة مطبوعة بسرهما الدكتور سعين ديدرخ  
Dr Sven Dederling بلندن سنة ١٩٣١] وسكنها اليهود مغلين على صاعهم القدرة كالحمامه  
والفصارة والفصاه

(٢) كتاب الخراج لحي بن آدم القيسي ، طبعه ليدن ١٨٩٥ ص ٥٥ حكى أن رجلاً من  
المسلمين قتل رجلاً من أهل الكتاب فرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أنا أحمى من وفي بدمته ،  
ثم أمر به فقتل ، وعن عبد الله بن مسعود قال من كان له عهد أو دمة فدته دية المسلم انظر أيضاً  
كتاب الخراج لعدامة مخطوط باريس رقم ٧ ٥٩ ص ٢٩ ب ، وانظر Sachau Muhammedanisches  
Recht, 1897, S 787 ، وفي بلاد المال مغرباً مثلاً كتاب دية العرقي الحر دية الروماني مغرباً

ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الدمة ، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحصر مواكهم وأعيادهم ويأمر بصياتهم<sup>(١)</sup> ؛ وفي حالة انقطاع المطر كانت الحكومة تأمر بعمل مواكب « يسير فيها البصاري ، وعلى رأسهم الأسقف ، واليهود ومعهم الناحون في الأتواق<sup>(٢)</sup> » ، وكذلك اردهرت الأديرة في هدوء ، فمن ذلك الدير المسمى دير قتي ، وهذا الدير كان « يقع على مسافة ستة عشر فرسحاً من بغداد ، مسجداً في الجانب الشرقي ، بين دحلة ميل ونصف ، وهو دير حسن بركة عامر ، وفيه مائة قلاية لرهائه والمتنقلين فيه ، لكل راهب قلاية ، وهم يتناعون هذه القلاية بينهم من ألف دينار إلى مائتي دينار إلى خمسين ديناراً<sup>(٣)</sup> ، وحول كل قلاية بستان فيه من جميع الثمار والمحل والريثون ، وتناع عتته من مائتي دينار إلى خمسين ديناراً ، وعليه سور عظيم يحيط به ، وفي وسطه ، هرّ حار ، وعيده الذي تحتج الناس إليه عيد الصليب<sup>(٤)</sup> »

وكان أكر الأديرة بمصر الدير المعروف بدير أنطاقيوس ، وبينه وبين النيل ثلاثة أيام في التربة ، وهو يقع شرقي إطميح من قلبي مصر ، وهو على جبل عال ، وله بمصر وقوفات وأملاك عدة ، وعليه حصن دائر ، وداحل الحصن بستان كبير ، وفيه بحيل مشر ، وأشجار تفاح وكثري ورمال وغير ذلك ، وأرضه مرروعة بالقول ، وله ثلاثة عيون ماء تحرى دائماً ويسقى بها البستان ، ومن حملة البستان فدان وسدس كرم عب ، وقيل إن عيدة بحيله ألف رأس محل ، وله حوسق كبير وقلال للرهان مظلة على البستان ، وله بإطميح أيضاً أملاك وساتين ، وليس مثله في سائر الديارات التي يسكنها رهان المصريين<sup>(٥)</sup>

(١) لم يكن يجوز للبصاري من حب المسلم أن يـ . ماوا في مواكهم رااب أو صلأ أو مشاءل ، أو يجرحوا سلاح ( كتاب الجراح لأبي يوسف طبعه نولاق سنة ١٣٠٢ هـ ص ٨٠ وما بعدها ) ، ولكن هذا لم يكن بعد عملياً راجع أيضاً الفصل الخاص بالأعياد

(٢) Dionys von Tellmachre, S 176

(٣) وحوالي عام ٣٠٣ هـ — ٩١٢ م كان الرجل مناع لأمه فلاه في الدير إذا أحب الرهنة ومال إليها ( الإرشاد لنافوب ح ٢ ص ٢٤ )

(٤) كتاب الديارات للساشي بخطوط روم ٨٣٢١ عكته برلين ص ١١٥ ب — ١١١٦ ، [وهذا المخطوط صورة سمسه بدارالكب المصريه] ، أطر أيضاً Streck, S 284 ، ومن أراد معرفة حاة الرهان في العراق حتى القرن الثالث الهجري فليطرب Budge Book of Governors I, S CXLII ff

(٥) تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمي ، طعة أكسفورد سنة ١٨٩٤ ص ١٥٤ ب — ب ، ولما كانت فواين الرهنة عصر تحم المعرفي طالها فإن أديرة مصر كانت تنشأ على نظام يحالف نظام أديرة الشام كل المحالمة

على أن الكنيسة الرسمية في الدولة الرومانية الشرقية قد دعت في معاداتها للمسيحيين  
الذين يحاولون ربحها في التفكير أعد مما ذهب إليه الإسلام بالنسبة لأهل الدمة ، فلما أعاد  
الإمبراطور ثيودور افتتاح بلاد الشام في القرن الرابع الهجري — العاشر الميلادي — كان مما وعد  
به أهل الشام وأمتهم به أن يحميهم من مصايقة كنيسة الدولة ، ولكنه رغم هذا الأمان ، لم  
يأل جهداً في مصايقة اليعقوبيين ، فاضطروهم مثلاً إلى الخروج من أنطاكية ، ولذلك نجد  
مؤرخي اليعقوبيين يصنعون البطارقة التي عيّنهم الدولة في أنطاكية بأنهم أصل من فرعون  
وأشد كبراً بالله من مختصر ، ولما أعيد فتح ملطية أحد بطريرك البعاقنة وسعة من كبر  
أساقفتهم إلى القسطنطينية وسُحوا هناك ، ووضع الملكانيون أيديهم على الكنيسة الكبرى  
ملطية<sup>(١)</sup> ، فأما البطريرك فإنه مات مقيماً على حدود بلعاريا ، وكذلك مات أحد أصحابه  
في السجن ، ورُحِم الثالث أمام قصر الإمبراطور ، ورجع ثلاثة عن المذهب اليعقوبي ،  
وأعيد تعييدهم ، ولكنهم لم يحدوا السكينة التي يرحوها ، وصاروا موضع السخرية كأنهم  
شياطين وأخيراً لم يستطع رؤساء الكنيسة السريانية أن يقيموا في مقر بطريقتهم بعد دخول  
المذهب الملكاني ، « وبعد أن أعيدت أنطاكية إلى المسيحية » ، كما يقول الملكانيون ،  
فاضطروا إلى الانتقال إلى آمد طلباً لتسامح أكثر في بلاد الكفار<sup>(٢)</sup> ولقد سمعت الكنيسة  
الرسمية نصارى أرمينية من استعمال الواقيس<sup>(٣)</sup> ، وكثيراً ما كان رجال الشرطة المسلمون  
يتدخلون بين الفرق البصريه لمعهم من المشاحرات ، حتى عين حاكم أنطاكية في القرن  
الثالث الهجري رجلاً يتقاضي ثلاثين ديناراً من البصري في الشهر ، وكان مقره قرب  
المدح ، وعمله أن يجمع المتخاصمين من قتل بعضهم بعضاً<sup>(٤)</sup> وفي سنة ٣٢٢ هـ مات أسقف  
تيس ، وكان يبه وبين البطريرك وخشّة ، فلما مات انقسم أهل مصر وأهل تيس حريين ،  
أحدهم مع البطريرك والآخر عليه ، « وقام لكل حرب من الحريين عرص في بصرة هواه ،  
حتى كان الأب لا يكلمه ولا المرأة تحاطب نعلها » ، وكان كل فريق يستعين بالسلطان

(١) Michael Syrus, S 556 ff

(٢) Barhebraeus Chron eccles , I, 432 ff ولعله قصد بالكفار هنا المسلمين

(٣) انظر Schlumberger Epopee Byzantine S 168 ، وهكذا فعلت الكنيسة الإنجليكانية

مع الكاثوليك حتى القرن التاسع عشر ، وكما لا تزال أساساً وصلته بعلان حتى اليوم مع الروتسبات

(٤) Michael Syrus, 536



على الآخر ، حتى خرج جماعة من المافرين عن البطريك ، وذهبوا إلى الإحشيد محمد بن طغح ، فوجه معهم من حتم الكنيسة الجامعة التي كان الأسقف مارلا بها وسمع الصلاة فيها وقصص على الأسقف والبطريك<sup>(١)</sup> وفي سنة ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م أراد الخليفة المأمون أن يصدر كتابا لأهل الدمة يصم لهم حرية الاعتقاد وحرية تدبير كنائسهم ، بحيث يكون لكل فريق منهم مهما كانت عقيدتهم ، ولو كانوا عشرة أنفس ، أن يختاروا بطريقهم ، ويُعترف له بذلك ، ولكن رؤساء الكنائس هاجوا وأحدثوا شعا ، فعزل المأمون عن إصدار الكتاب<sup>(٢)</sup>

أما فيما يتعلق ببناء الكنائس فلم تكن الدولة الساسانية من قبل تسير على حطة ناشئة في ذلك ، [ فكانت تسمح ببناءها أحيانا ] ، على حين أن القانون الروماني في العهد الأخير كان يحرم على اليهود أن يبشثوا كنائس جديدة لهم ، ولا يسمح لهم إلا بإصلاح ما تهدم منها<sup>(٣)</sup> أما في الإسلام فحد سياسة الدولة تجمع في أوقات متتالية بين تسامح الفرس وتعصب الرومان ، فكان يُسمح للصاري أحيانا ببناء كنائس جديدة ، وأحيانا كانوا يُمنعون حتى من إصلاح الكنائس القديمة<sup>(٤)</sup> ، فيما بين عامي ١٦٩ و ١٧١ هـ — ٧٨٥ — ٧٨٧ م هدم علي بن سليمان وإلى مصر من قبل الرشيد الكنائس المُجدثة بمصر ، وُبدل له خمسون ألف دينار ليرك الهدم ، فامتنع ، ثم جاء بعده وال آخر ، فأذن للصاري في ببناء الكنائس التي هدمها علي بن سليمان ، فُبُيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن هبة ، وقالوا هو من عمارة البلاد ، واحتجوا بأن عامة الكنائس التي بمصر لم تُبن إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين<sup>(٥)</sup> وفي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ثار المسلمون فهدموا كنيسة ساها الصاري في تيس ، فأعان السلطان الصاري حتى سوا الكنيسة<sup>(٦)</sup> وفي سنة ٣٢٦ هـ —

(١) يحيى بن سعد ص ٨٣ ب

(٢) Michael Syrus, 517

(٣) Sachau Von den rechtlichen Verhältnissen der Christen im Sasanidenreiche,

Mitteil des Sem für Orientalische Sprachen, X, 2, S 78 f

(٤) محمد الفارسي كثيرا من الآراء في هذه المسألة عند Gottheil, Dhimmis and Moslems in

Egypt, S 358 ff

(٥) كتاب تاريخ مصر وولاياتها للكدي طبعه ليدن سنة ١٩١٢ ص ١٣١

(٦) يحيى بن سعد ص ١٨١

٩٣٨ م أهدمت قطعة من كنيسة أنى شنودة بمصر ، فبدل البصارى للإحشيد مالا ليطلق عمارتها ، فقال حدوا فتوى الفقهاء ، فأما ابن الحداد فأفتى ألا تُعمر ، وأفتى بذلك أصحاب مالك ، وأفتى محمد بن علي بأن لهم أن يرموها ويعمروها ، واشتهر ذلك عنه ، فحملت الرعية إلى داره النار وأرادوا قتله ، فاستروا بدم على فتياه وشعت الرعية وأعلقت الدروب وأحاطت بالكنيسة ؛ فأرسل الإحشيد عسكرياً كبيراً ، فرحمت عليهم الرعية ورموهم بالحجارة ، فدعا الإحشيد بأنى مكر بن الحداد الفقيه ، وقال له إركب إلى الكنيسة ، فإن كانت تنقى فتركها على حالها ، وإن كانت مخوفة فاهدمها إلى لعنة الله فأخذ ابن الحداد معه مهندساً ، فدخلها وأحد بيده شمعة ، فطاف بها وعاد إلى أنى مكر ، وقال له تنقى هكذا خمس عشرة سنة ، ثم يسقط منها موضع ، ثم تقيم إلى تمام أربعين ويسقط جميعها ، فانصرف أنى مكر إلى الإحشيد وعمرته ، فتركها ، ولم يعمرها ، وكان أمرها كما قال المهندس ، فعمرت ستة ست وستين قبل تمام أربعين سنة ، ولو تركت لسقطت<sup>(١)</sup>

وكان أهل الدمة يُعاملون في مارستانات بغداد معاملة المسلمين ، ولكن حدث وباء في أوائل القرن الرابع ، فوقع الوريث علي بن عيسى إلى سنان بن تامت طيب الخليفة ، وهو الذي كان يتولى المعالجة وإعطاء الأدوية للمرضى خارج بغداد ، بأن يعالج المسلمين قبل أهل الدمة<sup>(٢)</sup>

وكان موتى المسلمين وأهل الدمة يدفعون كلٌّ على حدة ، ولكن يحكى أنه في عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م جاء إلى تكريت سَيْلٌ كبير ، فعرق منها أربعائة دار وعرق حلقاً كثيراً من الناس ، ودُفن المسلمون والبصارى مجتمعين لا يُعرف بعضهم من بعض<sup>(٣)</sup>

ولم يكن يوحد في المدن الإسلامية أحياء مختصة لليهود والبصارى بحيث لا يتعدوها ، وإن آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أحياء بغداد حتى كادت لا تحلو منها ناحية

(١) كتاب العرب لابن سعيد ص ٣٢ — ٣٣ ، وملحق أخبار الولاة والقضاة للكدي

ص ٥٥٤ — ٥٥٥ ، وراجع Tallquist, 32 f

(٢) أخبار الحكماء للقطبي ص ١٩٤ من الطبعة الأوروبية

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٤

ولما كان الشرع الإسلامى خاصاً بالمسلمين فقد حلت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم ، والذى علمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسيّة ، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضاً ، وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الرواح بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر الممارعات التى تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به على أنه كان يحور للدمى أن يلجأ للمحاكم الإسلامية ، ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا ، ولذلك ألف الخاتليق تيموتيوس (Timotheus) حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨٠٠ م كتاباً فى الأحكام القضاية المسيحية « لكى يقطع كل عذر يتعلل به البصارى الذين يلجأون إلى المحاكم غير البصرية بدعوى نقصان القوابل المسيحية »<sup>(١)</sup> ، وفى الفصلين الثانى عشر والثالث عشر من هذا الكتاب فرص تيموتيوس على من يذهب طائعاً إلى المحاكم الإسلامية أن يتوب ويتصدق ، ويقوم على المسح والرماد<sup>(٢)</sup> ثم جاء حليفته فقرّر أن البصارى إذا حرجوا إلى الأحكام البصرية فإنهم يؤدّون على قدر حرمهم ، ويُمنّعون من البيعة إلى حين<sup>(٣)</sup>

وفى عام ١٢٠ هـ — ٧٣٨ م ولى قضاء مصر خير بن نعيم ، فكان يقضى فى المسجد بين المسلمين ، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المارح ، فيقضى بين البصارى<sup>(٤)</sup> ثم حصص القضاة للبصارى يوماً يحضرون فيه إلى مارل القضاة ليحكموا بينهم ، حتى جاء القاضي محمد بن مسروق الذى ولى قضاء مصر عام ١٧٧ هـ ، فكان أول من أدخل البصارى فى المسجد ليحكم بينهم<sup>(٥)</sup> وعلى أى حال فإن بعض فقهاء الإسلام أجازوا تقليد الدمى القضاء بين أهل دينه ، وهذا ، وإن كان العرف به حارياً ، فهو تقليد رعامة ورئاسة وليس بتقليد حكم وقضاء ، وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له ، وإذا امتنعوا من التحاكم إليه لم يُجبروا على

(١) Sachau Syrische Rechtsbucher, II, 57

(٢) نفس المصدر ص ٦٧ ، ١٩١

(٣) نفس المصدر ص ١٦٩ ، ٢٤

(٤) كتاب الولاة والقضاة للسكندى ص ٣٥١

(٥) نفس المصدر ص ٣٩



ذلك ، فإذا رجعوا إلى قاضي الإسلام فإنه يقضى بينهم بحكم الإسلام ، لأنه يكون عليهم  
أقَدَ ولهم الرِّم<sup>(١)</sup>

ولا يحد فيما انتهى إليها من القوايين التي وصفتها المطارقة سوى عقوبات دينية  
ككسبة ؛ فمنها التوبيخ أمام الناس ، والقيام على المسح والرماد أمام البيعة ، ودفع كفارة  
مالية للبيعة ، والمنع من حضورها ومن التمتع برسوم الماركة الدينية عند الموت ومن الدفن  
على الطريقة النصرانية<sup>(٢)</sup> ، ومن أمثلة العقوبة أن النصراني الذي يصرب آحر يُمنع من  
البيعة ومن رسوم الماركة من القسيس شهرين ، ويقف كل يوم أحد على المسح والرماد ،  
وعليه أن يتصدق على الفقراء بحسب قدرته<sup>(٣)</sup>

أما في الأندلس فعندنا من مصدر حدير بالثقة أن النصراني كانوا يفصلون في  
حصوماتهم بأنفسهم ، وأهم لم يكونوا يلجأون للقاضي إلا في مسائل القتل ، وكانوا  
يقدمون المتهم إليه ويعرضون أدلتهم ، فإذا قال القاضي « حسن » ، قُتل المحرم<sup>(٤)</sup>  
ويقول ربي تاحيا إن رؤساء اليهود في الموصل كانوا هم الذين يعاقبون مرءوسيه ، حتى  
ولو كان أحد طر في الحصومة مسلماً ، وكان بالموصل سجن يسجن فيه اليهود<sup>(٥)</sup>

وأكر ما كان يُحرّم منه أهل الدمة ويؤثر في موسهم تأثيراً عميقاً أنه لم يكن يُسمح  
لهم بالتقدم للشهادة أمام القضاء ، كأنهم عبيد وذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا تُقبل  
شهادتهم على أهل دينهم ، وذهب البعض مذهباً آخر<sup>(٦)</sup> أما المحاكم النصرانية فإنها  
كانت تقبل شهادة المسلم على النصراني على كرهه منها لذلك بالطبع وكل ما كانت تطلبه

(١) كتاب الأحكام السلطانية لأبي الحسن الماوردي طبعه Bonn) ألمانيا ص ١٨ — ١٩ ،  
وهكذا جاء أيضاً في نسخة عهد لغاص نولاه القضاء ، كتبت بعد عام ٣١٦ هـ — ٩٢٨ م انظر قدامه  
ابن حنبل مخطوط باريس ص ١٣ ب

(٢) Sachau Syrische Rechtsbucher II, S VI

(٣) من المصدر ص ٦٨ والتي عليها

(٤) Graf Baudissin Eulogius und Alvar, S 13 Anm, 6

(٥) Petachja, 275

(٦) Sachau, muhammedanisches Recht, S 739 وكان القاضي محمد بن مسروق الذي

ولي القضاء عام ١٧٧ هـ قبل شهادة النصراني واليهود بعضهم على بعض ، وسأل عن عدالتهم في أهل  
دينهم ، وفي عهد لغاص نولاه القضاء أن يقبل شهادة بعض أهل الملل على بعض ، انظر الكندي ص ٣٥١ ،  
وقدامه مخطوط باريس ص ١٣ ب

هو أن يكون الشاهد تقياً يحاف الله غير مطعون في دمه ، وهذه هي الشروط التي كان القاصي المسلم يحتم توفرها في الشاهد<sup>(١)</sup>

وكان أهل الدمة ، يحكم ما كانوا يتمتعون به من تسامح المسلمين معهم ومن حمايتهم لهم ، يدفعون الحرية ، كل واحد منهم بحسب قدرته ، وكانوا ثلاث طبقات تدفع الديار منها اثنى عشر درهما ، والوسطى أربعة وعشرين ، والعليا ثمانية وأربعين درهما في السنة ، أو ديناراً أو دينارين أو ثلاثة في البلاد التي عُملَتْها الذهب ، وكانت هذه الحرية أشبه بصريفة للدفاع الوطني ، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح ، ولا يدفعها ذوو العاهات ، ولا المترهّنون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار<sup>(٢)</sup> ويحكى ابن حردادبه<sup>(٣)</sup> أن الروم كانوا يأخذون من اليهود والمحوس ديناراً في السنة ، وكذلك فرض النصارى على المسلمين الحرية لما فتحوا بلادهم<sup>(٤)</sup> على أن عالية دافعي الحرية كانوا يدفعون الحد الأدنى ، حتى أن بنيامين يقول « إن اليهود في كل بلاد الإسلام يدفعون ديناراً واحداً »<sup>(٥)</sup> وكذلك يقول تاحيا « إن اليهود في العراق لا يدفعون شيئاً للحليفة ، وإنما يدفع الواحد منهم في كل عام ديناراً واحداً لرأس الخالوت »<sup>(٦)</sup> ويحكى ثلوس مرسيلوس حورحيوس (Barlo Marsilius Georgius) في اكتور سنة ١٢٤٣ م ، وهو في مدسة صور ، أن « كل يهودي متى بلغ الخامسة عشرة يدفع في كل عام ديناراً وربطيا لعاملها ، وذلك في عيد القديسين »<sup>(٧)</sup>

(١) Sachau Syrische Rechtsbucher, II, 107

(٢) يذكر بنيامين (ص ٧٧) ومرسيلوس (اطر ما بلى) أنه كان مُعفى منها من قبل سنة عن خمس عشرة سنة وفي الدولة الفارسية كان لا يدفعها إلا من بلغ العشرين اطر Noldke, Tabar iübers , S 247

(٣) المسالك والممالك ص ١١١

(٤) ابن حوقل ص ١٢٧ ، ولما أخذ ناسل الإمبراطور مدسة حلب عام ٣٥٩ هـ — ٩٧ م تقرر الأمر بين الروم وبين أهل حلب على أمور منها أن يُدفع ديناراً عن كل رجل حالم — يحيى بن سعد ص ٩٨ ب

(٥) Benjamin, 77 ، وفارن ماحكاه الرحاله الصيني عن الحرية عند الفرس Tabar Noldke riubereetzung, 246, Anm 2

(٦) Petachjâ, 288, 275

(٧) Tafel und Thomas Urkunden , II, 359

وقد ظلت الحرية نوحه عام عند المقدار الذي فرّصته الشريعة وإما كانت تعبيراً عما يسيراً بحسب تعبير العملة وكانت الحكومة في مصر في أول القرن الثالث الهجري تكتفي بأحد نصف دينار، ولكن في سنة ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م اضطّر المطربك حورحيوس المصري أن يدفع ديناراً ونصف دينار، بعد أن كان يدفع ديناراً واحداً<sup>(١)</sup>، وكذلك يجرى بالمطربك ديونيسيوس، وكان بمصر رائراً، حوالي عام ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م عن مدينة تيس المشهورة بصناعة السيج، فيقول « ومع أن مدسة تيس عاصمة بالسكان كثيرة الكنائس، فإني لم أر من المؤمنين في بلد أكثر من مؤس أهلها، وقد سألتهم عن مصدر هذا المؤمنين فأجابوني إن مدينتنا مُحاطة بالماء فلا يستطيع رعا ولا تربية ماشية، والماء الذي شره يُحلب لنا من بعيد، وبشترى الحرية منه بأربعة دراهم، ولا شغل لنا سوى سيج الكتان، فساوينا بعرله ونحن ننسجه، ونُعطي على ذلك نصف درهم في اليوم من تحار الأقمشة، ومع أن أحرتنا لا تكتفي لإطعام كلابنا فإن على كل منا أن يدفع صريفة مقدارها خمسة دنانير، وفي ذلك نُصرب ونُسحق ونُلزم بإعطاء أسائنا وبناتنا رهائس، فيلرمون بالعمل كالعبيد سنتين لأحل كل دينار، ولو ولدت عندهم امرأة طفلاً فإبهم يأخذون قسماً بأن لا يطالب به، وقد يحدث أن تحمل صرائب حديدة قبل إطلاق هؤلاء النساء » فأجابهم المطربك أنه بحسب قانون العراق عليهم متى طُلت منهم الحرية أن يدفع العسى منهم ثمانية وأربعين درهماً والمتوسط أربعة وعشرين والمفقر اثني عشر درهماً<sup>(٢)</sup> وكانت الحرية تؤخذ مقسطة على ستة أحرار أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة<sup>(٣)</sup> أو اثنين<sup>(٤)</sup>، وقد فرصت في أول الأمر بالعراق في كل شهر<sup>(٥)</sup>، وذلك لأن عمال المسلمين كانوا يتقاصون منها مرتباتهم في كل

(١) Mittel aus der Sammlungen Rainer III/III, S 176 f

(٢) Michael Syrus, S 516، وقد صار يعرض على الحارير بالشام فيما بعد صرائب حاصه بالنسبه لثامري، فحدثنا بالو السدي وهو بصور أنه حتى ذلك الحين يجب على كل من أراد أن يدفع حريراً أو لشترى حريراً أن يدفع للسلطان أربعة دنانير، وقد ألقى السديون ذلك، اطر، Tafel und Thomas, Urkunden, II, 360

(٣) كما كان الحال في الإمبراطورية الفارسية (Nöldeke, Tabari S 342)، واطر ما فاه كراباك Karabacek في Sammel Rainer II/III, 176 f، وكذلك أنصاً ما حكاه ديونيسيوس Dionysius, ed Chabot, S 61

(٤) Mittel II/III, 163 (٥) كتاب الجراح لحنى بن آدم ص ٥٦



شهر ، وكذلك كان الحال في الأندلس في القرن الثالث الهجري<sup>(١)</sup> ولكن في عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ صدر أمرُ الخليفة الطائع بأن تُؤخذ الحرية من أهل الدمة في المحرم من كل سنة بحسب مبارهم ، وألا تؤخذ من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ديس عالية ولا ديس عاهة نادية ، ولا من فقير معدم ، ولا من راهب متنتل<sup>(٢)</sup> وكانت العادة حارية بإعطاء راءة لمن يدفع الحرية ، وفي العصور السيئة كانت تعلق على رقعة أهل الدمة علامة البراءة ، وتُختم أيديهم<sup>(٣)</sup>

وهذه العادة قديمة ترجع إلى عصر الآشوريين الذين كانوا يعلقون في رقاب العبيد قطعة من الفخار أسطوانية مكتوباً عليها اسم العبد واسم سيده<sup>(٤)</sup> وكان اليهود في عهد التلمود يعلمون عبيدهم بالختم على الرقعة أو الثوب<sup>(٥)</sup> وفي عام ٥٠٠ م كان حاكم مدينة الرها يعلق إلى رقعة الفقراء الذين بأحدون رطل حر كل يوم قطعة من الرصاص محتومة<sup>(٦)</sup> على أن الفقهاء القدماء ، مثل أنى يوسف ويحيى بن آدم لم يقولوا شيئاً في هذا الباب ، ويظهر أن هذا الأمر نادراً ما كان يقع ونقول ديوبيسيوس إنه كان من التحارب المؤلمة لحصر أهل الدمة ومعرفة عددهم « أن يُرسل مع عمال الصرائب حمامون يحتمون كل واحد باسم بلده واسم قريته ، فكانوا يطعمون على يده اليمى اسم السلد وعلى اليسرى اسم

(١) Leovigildus De habitu clericorum (Esp sigr XI) vectigal, quod omni

lunari mense pro Christi nomine solvere cogimur Eulogius Memoriale I, 247 quod lunatiter solvimus cum gravi moerore tributum

انظر Gril Baudissin, Eulogius und Alvar S 10

(٢) رسائل الصافي طبعه مدمه بعدا (بلسان) سنة ١٨٩٨ ص ١١٢ ، انظر أيضاً عهد الخائلى

الذى تقدمت صورته

(٣) مثلاً في أواخر العهد الأموى في مصر ومُسمت أئدى الرهان خلفه من حديد فيها اسم الراهب واسم دمه وبارمحه ، وحعل على كل صرائى وسم ، وصورة أسد على أيديهم ، انظر الخطط للمعمرى طبعه نولاق ح ٢ ص ٤٩٢ — ٤٩٣

(٤) مجلة المشرق المجلد الخامس ص ٦٥١

(٥) Krauss Talmudische Achacologie, II, S 89

(٦) Josua Stylites, ed Wright, S 42 ، وكذلك في مدمه اسراسبرج في القرن الرابع

عشر الميلادى كان يحمل فقراء البلد علامة طاهرة (Brucker, Strassburger Zunft und Polizeiverordnungen, S 6 f

وفي القرن التاسع كان النساء اللات في ديوان الروانى بالصين والآتى مدفع صرسة الماء يحملن حاتمًا من النحاس مطبوعاً بحام الملك ومعه في أعناقهن (Renard Relation

( des Voyages, S 69

العراق ، ويعلقون على رقصة كل رجل حلتين على إحداهما اسم البلد وعلى الأخرى اسم القسم ، وكانوا يقيدون اسم الشخص وأوصافه الحسية ومسكته وكان يشأ عن هذا اضطراب كبير ، لأنه كان يؤدي إلى القصد على كثير من العُرباء ، فيدكرون أسماء مساكنهم ، فتقيد ، ولا تكون لهم هذه المساكن في الحقيقة ولو أن هذا النظام اتسع إلى آخر ما يؤدي إليه لأحدث من الفساد أكثر من كل ما تقدمه من الأنظمة ، وإذا وحد العامل أن ما لديه من عمل لا يكفيه فإنه يذهب إلى أى جهة تصادفه ، ويقصد على العادين والرائحين ، وقد يطوف بالمكان الواحد أكثر من عشرين مرة ، ولا يهدأ له نال حتى يصل إلى تقيد جميع السكان بحيث لا يعلت منهم أحد ، وهكذا وقع ما قاله النبي داياى والرسول يوحنا « كل الناس طمعو طامع هذا الحيوان على أيديهم وصدورهم وطمهورهم<sup>(١)</sup> » ومن الواضح أن المطريرك ديوبيسيوس لا يتكلم هنا عن الحتم والعلامات باعتبارها شيئاً عادياً على أن شاعراً بصرياً من العصر العباسي الأول يقول

حتم الحث لها في عني موضع الحاتم من أهل الدم<sup>(٢)</sup>

وقد حكى الخاط المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م عن أحد الثقات الذين يُعتمدُ عليهم أن من تمام آلة الحمار أن يكون دمياً محتوم العنق<sup>(٣)</sup> ، وقد وُحِدَت حول مدينة همدان علامة من هذا النوع يرجع تاريخها إلى السنة الأولى من القرن الرابع<sup>(٤)</sup> وعدنا بصريح على أنه كانت تكتب لأهل الدمة في الربع الأول من القرن الرابع راءة محتومة عد أدائهم للحرية<sup>(٥)</sup> ولم يكن المترهون المسيحيون يُعفون من الحرية إلا إذا كانوا مساكين يُتصدق عليهم كفاي المساكين<sup>(٦)</sup> ، وهذا كان من حيث المبدأ العام والوجهة المطرية ، ذلك أنه في مصر عام ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م « أحد الرهائن والأساقفة بأداء الحرية ، فأحدث الحرية منهم ، ومن الصعفاء والمساكين ومن جميع الديارات بأسفل مصر والصعيد ، ومن

(١) Dionys v Tellmachre, ed Chabot, S 148 f

(٢) الأغاني ح ٣ ص ٢٦ ، وهذا البيت لشار بن برد

(٣) السان والدين للخاص ح ١ ص ٤١ اطر مايلي

(٤) Mitteil aus der Samml Rainer II/III, S 176

(٥) المروح للسعودي ح ٩ ص ١٤ — ١٥

(٦) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٧

رهان طور سباء ؛ وسافر قوم من الرهان إلى العراق واستعانوا بالقتدر ، فكتب لهم  
أَلَّا تُؤْخَذَ الحُرِّيَّةُ من الرهان ولا من الأساقفة . وأن يحرق أمرهم على ما كانوا عليه»<sup>(١)</sup>  
على أنه في عام ١٦٦٤ م كان يُعنى من الحرية بمصر « جميع الأوربيين والرهان المتنتلين  
من المسيحيين والبطريرك وجميع الأتراك ( أى المسلمين ) »<sup>(٢)</sup> ولم يكن أخذ الحرية أرحم  
من غيرها من الصرائف ، وإن كانت الشريعة الإسلامية قد أمرت بعدم القسوة في تحصيلها ،  
فقد نهى في الإسلام عن اتباع الأساليب القديمة القاسية ، من تعذيب ، أو تكليف أصحابها  
ملا يطيقون ، أو إقامتهم في الشمس وصت الریت على رؤوسهم وبحود ذلك ، وإنما أحرار الفقهاء  
حسن أهل الدمة حتى يؤدوها»<sup>(٣)</sup>

وقد وُحِدَتْ في بلاد الإسلام من أول الأمر تعليمات خاصة باللباس ، فقد أمر هارون  
الرشيد عام ١٩١ هـ — ٨٠٧ م بأن يُؤخذ أهل الدمة في مدسة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة  
المسلمين في لباسهم وركوبهم ، فأُخِذُوا بأن يجعلوا في أوساطهم الرنارات مثل الحيط ، وأن  
تكون قلابتهم مصرّبة ، وأن يحملوا شراك بعالم مثنّية ، وأن يتحدوا على سروجهم في  
موضع القرايس مثل الرمانة من حشب ، وتُمنع ساوهم من ركوب الرحائل ، ولا يركب يهودى  
ولا نصراني على سرح ، بل على أكاف<sup>(٤)</sup> وكان اليهود في القرن الثاني (الثامن الميلادي)  
يلبسون رباطيل طويلة تشبهها بعض الشعراء بالأميال الطوال أو بالمقاعيد على رؤوس  
القرود<sup>(٥)</sup> وكان المصارى في ذلك الوقت يلبسون الراس ، ولكن لما صارت القلاص  
الطوال عند المسلمين لباساً قديماً لابسها المصارى ونقيت خاصة بهم<sup>(٦)</sup> أما اللون فلم يصلح  
في التعليمات القديمة أن أحداً ألزم باتحاد لون معين ، ويظهر أن هذه المسألة تركت للعادات  
المحلّية ، ويصف الخاط ( المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م ) عادة العراقيين فيقول « من

(١) يحيى بن سعيد ص ١٨١

(٢) M Wanslebs Beschreibung von Aegypten, S 57

(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٧١

(٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٧١٣ ، كتاب الخراج ص ٧٥

(٥) الكندي ص ٤٢٤ ، وكان لباس الرأس عند اليهود يسمى عصر مُرطُنة ، وكانت هذه في

المشرق حرّاً من أهنة الخائفين وفي سنة ١٥٣ هـ ألزم المصور رعيته بلبس القلاص الطوال وشبهها  
أبو دلامة بلباس اليهود ( كتاب الأوائل لعلي دده مخطوط برلين ٩٣٧٢ ص ١٥٨ )

(٦) انظر المسطوف ، على هامش معيد العلوم طبعة مصر ١٣١ ص ٢



تمام آلة الخمار أب يكون دميًا ، ويكون اسمه آدين أو مار نادا أو أرداقادا أو ميثا أو شلوما ، ويكون أرقط الثياب محتوم العنق»<sup>(١)</sup> وقد حدث في عهد هارون الرشيد أن ولي القضاة محمد بن مسروق ، فتحامل على أهل مصر ، فأساءوا عليه الذكر والثناء ، ودعوا عليه في المسجد الجامع ، فوقف على باب المقصورة غير حائف ، وقال بأعلى صوته « أين أصحاب الأكسية العسلية ؟ أين سوا العاياء ؟ لم لا يتكلم متكلمهم بما شاء حتى يرى ويسمع ؟ فما تكلم أحد بكلمة »<sup>(٢)</sup> ، وقد صدر أمر المتوكل في عام ٢٣٥ هـ — ٨٤٩ م بأحد البصري وأهل الدمة بلبس هذه الطيالة العسلية ، ومن أراد لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين فَلْيَجْعَلْ عليها رِزْنٌ ، وكذلك أمروا بأن يجعلوا على ما طهر من لباس مماليتهم رقعتين ، لونهما يحالف لون الثوب الطاهر ، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره ، والأخرى خلف طهره ، وأن تكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونها عسلية ، وكذلك أمر بجمع مماليتهم من لبس المناطق وأمرهم بلبس الراير ، وأن يُجْعَلَ على أبواب دورهم صور شياطين من حشب تعريقاً بين مزارهم ومزار المسلمين<sup>(٣)</sup> ، وفي عام ٢٣٩ هـ — ٨٥٣ م أمر المتوكل أن يقتصر أهل الدمة في مراكبهم على النعال والحمر ، دون الخيل والبراديين<sup>(٤)</sup>

على أن هذه الأوامر المضحكة لم تشر إلا قليلاً ، وكان أهل الدمة يأبون الخضوع لها بشجاعة ، وفي سنة ٢٧٢ هـ — ٨٨٥ م ثار عامة بغداد على البصري لأهم حالقوا وركبوا الخيل ، وهدمت في هذا الشعب كنيسة كليل يشو<sup>(٥)</sup> (إكليل يسوع) ، وكذلك محمد الشاعر ابن المعتز يتسكو حوالى عام ٢٩٠ هـ من معالاة البصري في النعال والسروج ، ومن

(١) السان والدين ح ١ ص ٤١ (٢) السكدي ص ٣٩

(٣) تاريخ الطبري ح ٣ ص ١٢٨٩ وما بعدها اطر المعري (الخطط) ح ٢ ص ٤٩٤ حسب قول علي دراربعهم بدلا من علي دراربعهم (أنو المحاسن ح ٢ ص ١٧٤ — ١٧٥) وكان للصائفة أيضا لباس ذو لون خاص (نسمة الدهر ح ٢ ص ٤٥) وقد حدث لأول مرة في العرب عام ١٢١٥ م في مؤتمر لايران أن طُلب إجماع علامه خاصه لليهود ، ولعل هذا أتى من معرفه العريين بأطمة الشرق

(٤) تاريخ الطبري ح ٣ ص ١٤١٩ ، ومحكي سامين (ص ٢٤) أن اليهود كانوا يجمعون في القرن الثاني عشر الميلادي من ركوب الخيل بالفسطاطيه

(٥) Elias Nisibenus, S 188 ، ومحكي الطبري تهديم العامة للبيع في حوادث سنة ٢٧٢ هـ

تَحْكُمُهُمْ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَيَعْتَرِ هَذَا مِنْ عِلَامَاتِ طَهْوَرِ الْمَسِيحِ الدَّخَالِ<sup>(١)</sup> وَقَبْلَ أَوَّلِ الْقُرُونِ الرَّابِعِ مَآرِعَ سَبِينَ عَادَتِ الْقَوَائِمُ الْخَاصَّةُ بِاللِّبَاسِ إِلَى الطَّهْوَرِ ، وَشُدَّدَ فِي أَمْرِهَا ، ثُمَّ لَمْ نَسْمَعْ عَنْ مِثْلِهَا شَيْئًا فِي الْقُرُونِ الرَّابِعِ كُلِّهِ ؛ فَقَدْ نَامَتْ وَلَمْ تَطْهَرْ إِلَّا عِنْدَ مَا قَوِيَ أَمْرُ أَهْلِ السَّنَةِ فِي الْقُرُونِ الْخَامِسِ الْهَجْرِي (الْحَادِي عَشَرَ الْمِيلَادِي) حَيْثُ عَادَتِ بِشَكْلِ حَدِيٍّ . وَفِي عَامِ ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م صَدَرَ تَوْقِيعُ الْخَلِيفَةِ بِالرَّامِ أَهْلَ الدِّمَةِ مَلَايَسَ يُعْرَفُونَ بِهَا عِنْدَ الْمَشَاهِدَةِ ، وَاسْتَدْعَى لِدَلَاكَ حَاطِلِيْقَ الْبَصَارِيِّ ، وَرَأْسَ حَالَوَاتِ الْيَهُودِ فِي جَمْعِ حَاطِلٍ مِنَ الْأَشْرَافِ وَالْوَحُوهِ ، فَقَالُوا السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ<sup>(٢)</sup>

وَطَهَّرَ فِي هَذَا الْعَصْرِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مَنَعَ أَهْلَ الدِّمَةِ مِنْ بَعْلِيَةِ بِيُوتِهِمْ عَلَى أُنْبِيَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَإِنْ مَلَكَوْا بِيُوتًا عَالِيَةً أَقْرَبُوا عَلَيْهَا ، وَمُسَعَوْا مِنَ الْإِشْرَافِ مَعَهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الدِّمَةِ<sup>(٣)</sup> وَأَوَّلُ مَنْ ذَكَرَ هَذَا فِيمَا أَعْلَمَ هُوَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَآوَرِدِيُّ الْمَتَوَفَى عَامَ ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م وَقَدْ سَرَتْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْعَرَبِ ، فَجَدَّ النَّبَا إِبْرَاهِيمَ الْثَالِثَ يَشْكُو مِنْ أَنَّ الْيَهُودَ سَمَوْا فِي مَدِينَةِ سِدَسَ كَنِيسَةٍ لَمْ تَعْلَوْ عَلَى كَنِيسَةٍ مَسِيحِيَّةٍ مُخَاطِرَةً لَهَا<sup>(٤)</sup>

وَلَمْ يَكُنِ الْإِسْتِهْرَاءُ وَالْبَعْصَاءُ بَيْنَ الْأَدْيَانِ أَقْلَ مِنْهُ بَيْنَ الْأَحْسَاسِ ، وَمِنْ أَمْثَلَةِ ذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ وَصَفُوا نَافِسَهُمْ أَنَّتَ حَلَقَ اللَّهُ فِئَاءً<sup>(٥)</sup> ، وَكَذَلِكَ وَصَفَ الْبَصَارِيُّ شِدَّةَ الْسُّكْرِ وَحُصُوصًا عِدَاةَ عِيدِ الْفَصْحِ<sup>(٦)</sup> ، وَنَافِسَاتِهِمْ وَشِمَامَتِهِمْ صَعْمَاءَ الْفَصِيلَةِ وَكَذَلِكَ يُرْمَى الصَّائِئَةُ أَنَّ مِثْلَهُمْ مِنَ الْمَعَادَاةِ مَا لَا يَكُونُ بَيْنَ غَيْرِهِمْ ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ يَسْمَعُ فِي بَعْضٍ ، وَيَقْنَعُ عَلَيْهِ مَا وَحَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا<sup>(٧)</sup> وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَقَفُّونَ يَعْلَمُونَ حَقًّا أَنَّ الْمَسِيحِيَّةَ قَدْ حَثَّتْ عَلَى الْحِمَّةِ وَرَقَةِ الْقَلْبِ أَكْثَرَ مِمَّا حَثَّتْ عَلَى ذَلِكَ جَمِيعُ الدِّيَانَاتِ ، وَلَكِنْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْبَصَارِيَّ قَلَمًا يَعْمَلُونَ بِدَلَالَتِهِ ، يَقُولُ الْخَاطِطُ « وَكُلُّ حِصَاءٍ فِي الدِّيَا فَإِنَّمَا أَصْلُهُ مِنْ قَتْلِ

(١) دِيَوَانُ ابْنِ الْمُعْتَرِ طَبْعُهُ بِمِصْرَ ١٨٩١ ح ٢ ص ٩ ، فَارُونُ الْعُيُودِ الرَّاهِرَةِ طَبْعُهُ لِسَدَنَ ح ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ (٢) الْمُسْطَمُّ ص ١٩٢ ب

(٣) الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ لِلْمَآوَرِدِيِّ ص ٤٢٨ وَفِي الْمَآوَرِدِيِّ أَنَّ الْأَصْلَ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى مِنَ الْإِشْرَافِ عَلَى مَنَازِلِ الْبَاسِ

(٤) اَطْرُ Caro, I, 296

(٥) اَطْرُ مِثْلًا لِأَدَبِ الْكَاتِبِ لَا فِي مِثْلَةِ طَبْعِهِ بِمِصْرَ ١٣ هـ ص ٢٦

(٦) بَيْمَةُ الدَّهْرِ ح ٣ ص ٩٧ حَتَّى تَمَثَّلَ شَاعِرُ سُّكْرِ الْبَصَارِيِّ فِي هَذَا الْيَوْمِ

(٧) أَحْكَامُ الْحُكْمَاءِ لِلْقَطْطِيِّ ص ٣٩٨ مِنَ الطَّبْعَةِ الْأَوْرَسَةِ

الروم، ومن العجب أنهم نصارى، وهم يدعون من الرحمة والرأفة ورقة القلب والكند ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف، وحسبك بالحصاء مثلاً وحسبك بصنيع الخاصى قسوة»<sup>(١)</sup>، وكذلك تكلم البيرونى فى صدد كلامه عن العقوبات والكفارة عند اليهود عن فلسفة نبيلة بينهم فهو يقول: «مثال الحال فيهم على شبيه بحال الصراية فيها مثنية على الخير وكف الشر، من ترك القتل أصلاً، ورعى القميص حلف عاصب الرداء، وتمكين لاطم الحد من الحد الأخرى، والدعاء للعدو بالخير، والصلوات عليه، وهى لعمري سيرة فاضلة، ولكن أهل الدنيا لسوا بفلسفة كلهم، وإنما أكثرهم خيال ضلال، لا يقومهم غير السيف والسوط، ومد تنصر قسطنطينوس المطر لم يسترح كلاهما من الحركة، فعيرها لا يتم السياسة»<sup>(٢)</sup>

ومن الأمور التى نعت لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين فى الدولة الإسلامية، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين فى بلاد الإسلام<sup>(٣)</sup>، والشكوى من تحكيم أهل الدمة فى أئشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة<sup>(٤)</sup>، ويحكى عن عمر بن الخطاب أنه لما عرف أن لئى موسى الأشعرى كاتباً بصرايا صرب فحده، وقال ألا اتحدت رحلاً حيفاً، وكان عمر أيضاً يأنى أن يتحد الكتاب من النصارى أو اليهود<sup>(٥)</sup> وقد قلد ديوان حيش المسلمين لرحل نصرانى مرتين فى أثناء القرن الثالث، فوَّحه اللوم للورير لأنه «جعل أنصار الدين وحماة البيضة يقتلون يده ويمتلون أمره»<sup>(٦)</sup> وكان المتصرفون النصارى واليهود يقسمون اليميين، شأنهم شأن المسلمين، وقد جاءت فى كتاب ديوان الإشاء الذى ألف عام ٨٤٠ هـ — ١٤٣٦ م صيغة اليميين الذى كان يقسمه اليهود فى ذلك العهد، ودكر أيضاً أن أول من استحدثت هذه الأيمان لأهل اليهودية الفصل من الربيع ورير الرشيد، أحدثها له كاتب عنده، ومنها استنبطت هذه الألفاظ<sup>(٧)</sup>

- 
- (١) كتاب الحيوان طبعه مصر ١٩٧٠ ص ٥٦  
 (٢) كتاب تحقيق ما للهد من معوله طعة سحاو ص ٢٨  
 (٣) فيما نعلق بالشام اطر المقدسى ص ١٨٣، وفيما نعلق عصر اطر يحيى بن سعيد ص ١٢٢  
 (٤) عنون الأحبار لائن فيه طعة حوسن سنه ١٨٩٩ ص ٩٩  
 (٥) نفس المصدر المقدم ص ٦٢ (٦) كتاب الورراء ص ٩٥  
 (٧) كتاب ديوان الإشاء مخطوط نارس رقم ٤٤٣٩ ص ٣٣ — ٣٤، واطر



وكانت الحركات التي يُقصد بها مقاومة البصري موجهة أولاً إلى محاربة تسلط أهل  
 الدمة على المسلمين ، وسيطرة أهل الدمة شيء لا يَحتمله المسلم الحق وفي عام سنة ٢٣٥ هـ —  
 ٨٤٩ م أمر الخليفة المتوكل ألا يُستعان بأهل الدمة في الدواوين وأعمال السلطان التي تخرى  
 أحكامهم فيها على المسلمين<sup>(١)</sup> ، فمن ذلك أنه أمر بعزل البصري عن مقياس النيل<sup>(٢)</sup> ؛  
 ولكن هذا الخليفة نفسه بنى بعد ذلك عشرين<sup>(٣)</sup> ، قُصره المسمى بالخمعري ، وأخرى  
 إليه هراً ، وصيّر النفقة عليه إلى دُلَيْل بن يعقوب البصري<sup>(٤)</sup> ، وفي عام ٢٩٦ هـ --  
 ٩٠٩ م كان البصري قد علا أمرهم وعلووا على الكتاب ، فأمر المقتدر بما أمر به  
 المتوكل من رخصهم واطراحهم عن الخدمة<sup>(٥)</sup> ، وفي هذه السنة نفسها أمر المقتدر ألا  
 يُستخدم أحد من اليهود والبصري إلا في الطب والجهنمة<sup>(٦)</sup> ، ولكن أمر المقتدر كان  
 ضعيف الأثر إلى درجة مضحكة ، فقد كان وزيره أبو الحسن علي بن الفرات يدعو أربعة  
 من البصري إلى طعامه كل يوم ، وكانوا في حملة الكتاب التسعة الذين احتض بهم<sup>(٧)</sup>  
 وكان الكتاب المسيحيون منشزين في كل مكان حتى إن محمد بن عبد الله بن طاهر في  
 القرن الثالث اتحد له قهرماناً بصرايياً<sup>(٨)</sup> ولما أراد المقتدر أن يستورر الحسين بن القاسم  
 عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م راسله في أن يجتهد في إصلاح أعدائه ، فابتدأ بنى رائق ، فسكان  
 يمضى إلى كابهم البصري ويصن له الصناعات ، ثم فعل ذلك ناصطف بن يعقوب كاتب  
 مؤسس ، وقال له « إِنْ تَقَلَّدْتُ الْوَرَارَةَ فَأَنْتَ قَلْدَتِيهَا » ، وكذلك فعل غير هؤلاء من  
 كتاب البصري<sup>(٩)</sup> وكان الحسين بن القاسم يسعى دهره في طلب الورارة ، وكان يتقرب  
 إلى البصري الكتاب بأن يقول لهم « إِنْ أَهْلِي مَعَكُمْ ، وَأَحْدَادِي مِنْ كِبَارِكُمْ ، وَإِنْ صَلِيحاً  
 سَقَطَ مِنْ يَدِ عِيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ ، حَدَّثِي ، فِي أَيَّامِ الْمُعْتَصِدِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ النَّاسُ قَالَ هَذَا شَيْءٌ

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٣٨٩ — ١٣٩ (٢) الولاء للكدي ص ٣ ٢

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٤٣٨ (٤) عراب ص ٣

(٥) أبو المحاسن طبعه ليدن ج ٢ ص ١٧٤ — ١٧٥ ، وكان البصري في مصر مثلاً يستخدمون  
 كثيراً في أعمال الجهنمة ، كما تدل على ذلك أوراق الردى ، وفي عام ٣٤٩ هـ — ٩٦ م كان أحد

طبع البراءات بحقه الذي عليه الصلب ( اطر Karabacek, Mitteilungen II/III S 168 )

(٦) كتاب الوراء ص ٢٤

(٧) كتاب الدارات مخطوط برلين المقدم ص ١٥١ (٨) مسكويه ج ٥ ص ٣٥٢

تترك به عجاظاً ، فتحمله في ثيابها من حيث لا يعلم » تقرئاً إليهم بهذا وشبهه <sup>(١)</sup>

ولقد كان تقدير هذا الوزير صحيحاً ، في عهد المقتدر نفسه ، وهو الذي أراد أطراح النصارى عن المناصب العامة ، نقله هذا الرجل الذي كان يتقرب إلى البصري ويلمقهم منصب الوزارة وإلى جانب ما ذكرنا نجد أن رئيس المتأمرين على مؤسس المطهر كان معلقاً الأسود الحادم ، وكان الأمر كله ، كما يقول عريب ، لهذا الحادم ولكاسه البصري بشرى عبد الله ، وكان بشر هذا محبوا <sup>(٢)</sup> وفي عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م مات أصطخ بن يعقوب البصري صاحب بيت مال الخاصة <sup>(٣)</sup> وكذلك ابتدأ علي بن بويه بأن اتحد كاتباً بصرايا من أهل الري <sup>(٤)</sup> ولما خرج الوزير عمر الدولة إلى البصرة عام ٣٥٧ هـ — ٩٦٧ م استخلف أبا العلاء صاعد بن تابت البصري بالحصرة <sup>(٥)</sup> وكذلك كان للحليفة الطائع (٣٦٣ — ٣٨١ هـ = ٩٧٣ — ٩٩١ م كاتب بصري <sup>(٦)</sup> وفي النصف الثاني من القرن الرابع اتحد كل من عصد الدولة ( المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م ) في بغداد والحليفة العريز بالقاهرة وريراً بصرايا وقد استأذن نصر بن هارون وزير عصد الدولة سيده في عمارة البيع والديرة وفي إطلاق المال لفقراء البصري ، فأذن له <sup>(٧)</sup> وقد أفتى بعض فقهاء الإسلام الكبار بأنه يجوز أن يكون وزير السعيد لا وزير التفويض من أهل الدمة <sup>(٨)</sup> وقد ولي المأمون على مدينة بوره بمصر عاملاً مسيحياً ، فكان إذا جاء يوم الجمعة لبس السواد وتقلد بالسيف والمنطقة ، وركب ردونا وقدّاه أصحابه ، فإذا ولى باب المسجد وقف ، ودخل حليفته ، وكان مسلماً يصلي بالناس ويحطب للحليفة ، ثم يخرج إليه <sup>(٩)</sup> وكان لجارويه وزير بصري فاحتر يوماً راكماً فتعرض له نساء الخيال الصوفى وأرله عن دأته ، وقال له لا ترك

(١) عرب ص ١٦٤

(٢) عرب ص ١١١ — ١١٢

(٣) الأوراق للصوفى ص ٩٦

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٤٦٤ — ٤٦٥

(٥) مسكويه ج ٦ ص ٣١

(٦) ديوان ابن الحاج ح ١ ص ١٨

(٧) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٨

(٨) وزير السعيد لا ناشر الحكم ولا تملك العمال ولا تدثر الحش ، أما وزير الفويس فهو الذي يعرض السلطان إليه بدبر الملك برأيه ، وهو يشارك السلطان في حكمه ، وليس وزير السعيد إلا سفيراً بين السلطان والرعنة . أطرا كتاب العهد العريد لأبي سالم محمد بن طلحة المتوفى عام ٦٥٢ هـ ص ١٤٧ من طبعه مصر [ المترجم ]

(٩) يحيى بن سعد ص ٧٤ ب

الحيل ، فأمر حمارويه أن يُؤخذ منهُ ويُطرح بين يدي سجع ، فطُرح وبقى ليلته ، فلما جاء الصباح وحدوا سُبُكًا قاعدا مستقبلا للقبلة ، والسجع بين يديه <sup>(١)</sup> . وفي عام ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م تولى القاضي محمد بن النعمان ، فؤُحدا عليه مالٌ من أموال اليتامى وغيرهم ، فأرسل كاتب نصراني يسمى فهداً ، فاحتاط على القاضي وسرع في تعريم الشهود الذين كان القاضي أودع عندهم الأموال ، وألزم ابن القاضي ببيع ما حمله أبوه للوفاء بالودائع <sup>(٢)</sup> ومن العجيب أنه على الرغم من هذا الوضع الذي لم يكن طبيعياً لا لحد المؤرّخين ، حتى المسيحيين منهم ، يدكروا إلا قليلا من المشاعات بين المسلمين وأهل الدمة في القرن الرابع الهجري ، وسأقصّها كما ذكروها في سنة ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م تار المسلمون بدمشق وهدموا كنيسة كبيرة ، وأحدوا منها رهاء مائتي ألف دينار من صلبان ذهب وقصة وكؤوس وصوّان ومحوها ، وهبوا ديارات كثيرة ، وكذلك تاروا بالرملة ، فهدموا كنيستين للملكية وهدموا كنيسة قيسارية ، فرغ الصاري الأمر إلى المقتدر فوقع لهم نسيان هذه الكنائس <sup>(٣)</sup> وكذلك تار المسلمون بعسقلان ، فهدموا كنيسة كبيرة ، وهبوا ما فيها ، وأحرقوها ، وعاصد اليهود المسلمين في هدمها ، وكان اليهود يشعلون النار في الخطب ويحرقونه بالسكر إلى أعلى السقوف حتى يحرقوها ويحل رصاصها فتقع العمود ، وقد حرق أسقف عسقلان إلى مدينة السلام متوسّلا لردّها ، فلم يسبح له سعي <sup>(٤)</sup> وفي سنة ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م تار المسلمون في بيت المقدس وهبوا بعض الكنائس <sup>(٥)</sup> وفي سنة ٣٨١ هـ — ٩٩١ م استهزأ رحلان من المسلمين بمنحهم مسيحي لأنه لم يكن يحمل علامات الصاري فشكا ذلك إلى رئيسه ، فسحهما فشعثت بعد ذلك كنستان ، وقد هذأ الخاتليق هذه القصة بعد هدايا كثيرة <sup>(٦)</sup> ثم هاج المسلمون بعد ذلك ، لأهم وحدوا رأس حرير في أحد المساحد ، وطبوا أن الصاري هم الذين رموه <sup>(٧)</sup> وفي عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م تار العامة بالصاري في مدينة السلام لقتل أحد المسلمين ، وهبوا نبيّة وأحرقوها ، فسقطت على جماعة من

(١) أبو المحاسن طبعه لندن ج ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤

(٢) الفصاة للكندی ص ٥٩٥ ، ٥٩٧

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٨١ ، والخطط للمعري ج ١ ص ٤٩١

(٤) يحيى بن سعيد ص ١٨٤ — ب (٥) نفس المصدر ص ١٨٢

(٦) Barhebraeus Chron eccles III, 259 (٧) نفس المصدر



المسلمين رجالاً وصدياقاً وساء، وكان الأمر عظيماً<sup>(١)</sup> وفي عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م توفيت بنت أبي نوح الأهوازي الطبيب روضة أبي نصر بن إسرائيل كاتب المصاحح أبي الهيثم، فأحرقت حمارتها بهاراً، ومعها الطول والنوايح والرموز والرهان والصلبان والشموع، فقام رجل من الهاشميين فأسكر ذلك، ورَحِمَ الحارة، فوثب أحدُ العلماء بالهاشمي، فصر به بدوس على رأسه فشَحَّه فسال دمه، وهرب البصري بالحارة إلى بيعة باب الروم، فتبعهم المسلمون، وهبوا البيعة وأكثر دور البصري المحاورة لها، وثارت الفتنة بين علماء أبي الهيثم وبين العامة، ورُفِعَت المصاحف في الأسواق، وعُلِّقَت أبواب الخوامع، وقصد الناس إلى دار الخليفة على سبيل الاستنفار، فطلب الخليفةُ السكاتبَ من المصاحح، فامتنع فعاط الخليفةَ امتناعه، وتقدم بإصلاح الطيار للحروح عن البلد، وجمع الهاشميين إلى داره، واحتجعت العوامُ في يوم الجمعة، وقصدوا دار المصاحح فدفع علماء به رجلاً دُكر أنه علوي، فرادت الشاعة، وامتنع الناس من صلاة الجمعة، وطهرت العامة نقوم من البصري، فقتلهم وتردَّت الرسائلُ بين الخليفة وبين المصاحح إلى أن بدلَ السكاتبَ البصري إلى دار الخلافة، فكفَّ العامة عن ذلك، ثم أفرج عن السكاتب بعد قليل<sup>(٢)</sup> وهذه الحوادث قليلة جداً بالقياس إلى بلاد المشرق كلها على سعتها أما في مصر فكانت العلاقات بين المسلمين والبصري متوترة، فقد كان في مصر كنيسةٌ متحدةٌ أمام الإسلام، وكان بها شعبٌ له لعتة الخاصة وشخصيته أمام العرب، ولم يبدأ القط في ترك لعتهم القبطية إلا حوالي أواخر القرن الرابع<sup>(٣)</sup> وفي القرنين الأولين للهجرة لم تنقطع ثورات القبط، بل تشاعت حتى أُحْدِثَ آحراها عام ٢١٦ هـ — ٨٣١ م وفي ذلك الوقت كان كل أهل الطبقة الوسطى بمصر

(١) نفس المصدر ص ٢٦٢ وما يليها، كتاب الورراء ص ٤٤٣، والمستم لان الحوري ص ١٤٧ ب

(٢) المستم ص ١٥٩ ا

(٣) ولعل أحسن ما يشهد بهذا أن المقدسي، وقد كان عصره في أواخر القرن الرابع، يقول عن أهل مصر إن دمتهم يحدثون بالقبطه (ص ٣ ٢)، على حين أن أسقف أشمون بمصر يقول في كتابه سير البطارقة الذي ألفه بعد عام ٤٠٤ هـ — ١٠١١ م بقليل إنه استعان ببعض المسحفين الأكفاء على نقل ما وحده من أحوال البطارقة بإقليم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذي هو الآن معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم (كتاب سير البطارقة لساويرس ابن المقفع طبعة بروكس سنة ٤١٩ ص ٦) على أن الشعر القبطي الشعبي الذي عرفناه من القرن العاشر الميلادي هو شعر ديني حالي كما رأيت ذلك من ترجمته العالمين H Junker, A Erman لهذا الشعر

بصارى ، وكان بين العرب والقبط من قلة التعاطف ما كان بين اليونان والمصريين من قلة ، وذلك على الرغم من أن الأقباط قد أدخلوا منذ أول الأمر في الحديث أحاديث يوصى فيها النبي بالأقباط حياً ، ومن هذه الأحاديث ما يبيّن بكل جراءة الدور الذي يقوم به الكتاب البصري في الدولة الإسلامية ، في حديث ذكره . وهم ( القبط ) أعوانكم على عدوّكم وأعوانكم على دينكم ، قالوا كيف يكونون أعواناً على دنسنا يا رسول الله ، قال يَكْفُوْكُمْ أَعْمَالُ الدِّينَا ، وتفرّعون للعبادة » <sup>(١)</sup> ، ولقد قام الأقباط بهذا الدور حيز قيام حتى إن أكثر الفتن التي وقعت بين البصري والمسلمين بمصر نشأت عن تحر المتصرفين الأقباط ، ولما حانت انتصارات الروم على المسلمين حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى كان لها صداها في مصر ، فلما ورد الخبر بأن الروم دخلوا الشام عام ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م وقتلوا وحرّبوها ، هاج المسلمون على البصري ، ووقعت صيحة في الجامع العتيق بعد صلاة الجمعة فهاج الرعاع وهبوا كبيستين <sup>(٢)</sup> ولما عرا الإمبراطور بقمور حريرة أقرطيش في العام التالي ووصل حرّ ذلك إلى مصر تار المسلمون وقصدوا كنيسة ميخائيل التي للملكيّة بقصر الشمع فشعثوها وحرّبوها ، وظلت معلقة مدة طويلة وأبوابها مطمورة بالتراب <sup>(٣)</sup>

وقد أظهر حلفاء الفاطميين الأولون لأهل الدمة تسامحاً تعفّف له ، إذ لا يُنتظر ذلك من قوم مثلهم ، لهم مذهب خاص انحدروا به ، وحالفوا به جمهور المسلمين ، فقد كان للحلفاء الفاطميين أطباء من اليهود ، ولم يَحْتَخْ هؤلاء الأطباء إلى تغيير دينهم <sup>(٤)</sup> ، وعظّم نفوذهم حتى صار لا يُعمل شيء في بلاط المعز إلا بمعونة اليهود ، وعرف ذلك الوزيرُ الداهيةُ ابنُ كلّس الذي كان يهودياً ، فأسلم وصار يتخير إلى إخوانه في الدين من قتل <sup>(٥)</sup> وكانت البرعة العقلية في مذهب الإسماعيلية واعتقادهم بإمكان إقامة الدليل المطرى عليه مما مهّد للمناقشة

(١) الخطط للقريري ح ١ ص ٢٤ — ٢٥ ، وكاتب تاريخ الشرح أبي صالح الأرمي ص ٢٨ ب  
قلا عن كتاب فضائل مصر

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٩٢ (٣) من المصدر ص ٩٢ ب

(٤) Graetz Gesch der Juden V, 4 Aufl S 266

(٥) De Goeje Z D M G, 52, S 77 قلا عن ابن الحوري (مخطوط 679 Bodl Uri

العلنية بين المسلمين والنصارى لأول مرة في تاريخ الإسلام<sup>(١)</sup> وفي عهد العرير بالله راد بلاط الخليفة في إكرام النصارى ، وذلك أنه كان للعرير أصحاب مسيحيون مهم أرسنس حال السيدة امه العرير بالله ، وقد صُيِّر بطريركا على بيت المقدس ، وصُيِّر أخوه أرمانيوس مطرانا على القاهرة ومصر ، وكان لهما جميعاً محلٌّ لطيف عند العرير وتقدّم في مملكته<sup>(٢)</sup> فلا عجب بعد هذا أن يحد الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي يقول تعريصاً بهذه الحالة

تَصَرَّ ، فالتصَّرُ دين حق عليه رمايا هذا يدلُّ  
وَقُلْ ثلاثة عرُّوا وحلُّوا وعَطَّلُ ما سواهم فهو عطل  
فيعقوب الورير أت وهذا العرير ابن وروح القدس فصل

ولما شكنا الفصل إلى العرير أمر هذا الشاعر وطلب معاقته امتنع منه ، إلا أنه قال : أعف عنه ، فعفا عنه ، ثم دخل الورير على العرير وشكا إليه أيضاً ، فقص على الشاعر ثم أطلقه<sup>(٣)</sup> ثم إن هذا الخليفة نفسه استورر بعد ذلك عيسى بن سطورس النصارى ، واستتاب بالشام يهودياً اسمه ممشا ، فاعتز بهما النصارى واليهود ، وآدوا المسلمين ، فكتب أهل مصر رقعة وحملوها في يد صورة عملوها من الورق ، وأقعدوا الصورة في طريق العرير والرقعة بيدها ، وفيها بالدي أعز اليهود ممشا والنصارى عيسى بن سطورس ، وأدل المسلمين بك إلا كشفت طلامتي فلما رآها العرير علم ما أريد ، فقص على الرحلين وصادرها<sup>(٤)</sup> وفي عهد هذا الورير النصارى وقعت فتنة بين المسيحيين والمسلمين وذلك أنه لما حرق الإمبراطور ماسيليوس إلى الشام لفتحها في عام ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م مرر العرير في سائر حيوشه وأظهر الحرم على عرو بلاد الروم ، وأمر عيسى بن سطورس بإنشاء أسطول يسير معه ، فلما تم إعداداه وقعت فيه نار في اليوم الذي عزم فيه العرير على السير ، واتهم الرعية تحار الروم الواردين بالمصانع إلى مصر بإحراقه ، فثار العامة وقتلوا منهم مائة وستين رجلا ، ثم تحوّلوا عن الروم إلى هب كنائس النصارى ، وخرح في هذا الشعب أسقف السطوريين حراحت مات فيها وقد أعاد الورير النظام إلى نصابه واعتقل ثلاثة وستين من الهتاة ،

(١) Guyard, Grand Maître des Assassins, S 14

(٢) محي بن سعيد ص ٨ ١١ . (٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٢

(٤) نفس المصدر ص ٨١ - ٨٢ .



وأمر العرير بإطلاق ثلثهم وضرب ثلثهم وقتل ثلثهم ، وذلك بأن كتب رفاعاً على بعضها .  
تُضْرَب ، وعلى بعضها تُقْتَل ، وعلى بعضها تُطْلَق ، وأمر كل واحد من الهابة أن يأخذ  
رقعة منها بعد أن وُضعت تحت إزار ، فكان يُعمل به بحسب ما يجرح في يده<sup>(١)</sup> وفي عام  
٣٩٣ هـ — ١٠٠٣ م بدأت علامات العاصفة التي أثارها تعصب الخليفة الحاكم بأمر الله<sup>(٢)</sup>  
ولما رأى العامة أن العيان قد أرسل لهم ، بدأوا يهدمون الكنائس ، ونسب الخليفة مكانها  
مساحد ، منها الجامع الأزهر المشهور ، ثم أعاد الحاكم قوانين اللباس القديمة على أشد  
صورها ، فألزم البصري أن يعلقوا في أعناقهم صُلباناً من الخشب ، وُضعت مواكهم العامة ،  
وُحِطَ عليهم ضرب المواقيس ، وأمر ألا يظهر صليب ولا تقع عليه عين ، وُبرِعت الصُّلبان  
من الكنائس وطُمِست آثارها من طاهر البع والكنائس وأُتلفت الكنائس الكرى  
مثل كنيسة القبر بالقدس ودير القصير الكبير المني على سبع حبال المقطم ، وقد انتهك  
المسلمون حرمة المقبرة الكرى في هذا الدير ، ولكن الحاكم لم يُرِدْ ذلك ، وقد أمر بعبه  
بمجرد علمه به ورغم هذا كله استورر الحاكم منصور بن سعدون البصري ، واتخذ لنفسه  
أطباء بصرى طول هذه المدة وقد تقدم بإثبات أسماء سائر المسلمين المتعطلين والمتصرفين  
من الكتاب الذين يصلحون للخدمة في دواوينه ليستعيص بهم عن البصري « وكان  
سائر كتابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته بصرى إلا نراً يسيراً من الكتاب » ، ثم  
كثرت الشاعات السيئة في البصري ، فاجتمع سائر من عصر من الكتاب والعمال والأطباء  
وعيرهم من أساقفتهم وكهنتهم وتوجهوا إلى قصره في يوم الخميس تالي عشر ربيع الأول  
سنة ٤٠٣ هـ ( ١٠١٢ م ) ، وكشفوا عن رؤوسهم من باب القاهرة ، ومشوا حفاة ناكين  
مستعشين إليه يسألوه العفو والصفح ، ولم يرالوا في طريقهم يقتلون التراب إلى أن وصلوا إلى

(١) يحيى بن سعيد ص ١١٢ ب — ١١٣ ، ويحكى الفريرى (الخطط ح ٢ ص ١٩٥ — ١٩٦)  
هذا باحصار ، ولكنه يريد على ذلك أنه طيف عن أطلق ، وفي عنى كل واحد رأس رجل ممن قتل من  
الروم ولا محد مثلاً آخر لهذه العفوة في القرن الرابع

(٢) أوسع تاريخ للحاكم هو ما حكاه دى ساسى (De Sacy Expose de la religion des  
Druses, CCLXXVIII ff) ، ولكن دى ساسى لم يرجع إلى تاريخ يحيى بن سعد معاصر الحاكم ، وهو  
الذى أكمل تاريخ يحيى بن الطريق ، وهو مؤرخ بقعة معدلة ومن هذا الكتاب خاصة بسطيع معرفة  
الحوادث بحسب ترتيبها التاريخي لأول مرة ، أما ما كتبه المؤرخون المعاصرون الآخرون مثل الأسقف  
سيفروس (Severus) فهو أشبه بنقص الأهواء

قصره ، وهم على تلك الحال ، فأبعد إليهم أحد أصحابه ، وأحد منهم رقعة كانوا قد كتبوها يلتمسون فيها عفوه عنهم ، ثم عاد الرسول إليهم وردّ عليهم ردّا جميلاً ، ووعدهم بما اطمأنت له قلوبهم ، فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر أمروا بتعظيم الصلبان التي في رقابهم ، وأن يحملوا طولها ذراعاً ملكياً في عرص مثلها ، وأن يكون سُمكها إصبعاً ، وأمر اليهود أن يعلّقوا في أعناقهم أيضاً أكرّ حشب من حمسة أرطال إشارة إلى رأس العجل الذي عدوه سالماً ، وتهدد المصارى ، وكثر الإرحاف بهم ، فأسلم كثير من شيوع الكتاب والمتصرفين ، وتبعهم حلق من عوامّ المصارى ، وتلاحقوا فلم يبق منهم إلا مريسير ، ولم ترل الطرقات أياماً عدة لا يرى فيها مصراى على أن كثيراً ممن أسلموا إنما بظاهروا بالإسلام بظاهراً ، ومنهم محسن بن بدوس الذي قتل عام ٤١٥ هـ — ١٠٢٤ م وهو بلى بيت المال إداداك ، فقد قيل إنه لما قُتل وجد أعلف لأنه كان مصراياً ، وكان قد طاهر عند إسلامه أنه أحصر الخائن وحتنه ، ولم يكن من ذلك شيء <sup>(١)</sup> أما اليهود فإبهم تمسكوا بديهم ولم يُسلم منهم إلا مريسير ، وكذلك المصارى الذين في بقية البلاد ، فلم يُسلم منهم في بقية أعمال المملكة إلا قليل ، وهدمت ألوف كثيرة من الكنائس والأديرة واشتُخِرَ ح من المتوائين أمرها من المصارى في كل بلدة ما دُفع إلى الفعلة الذين قاموا بهدمها ، وأتى على جميع أديرة المملكة إلا الدير القديم المحاور للإسكندرية والدويرة القريبة منه ، لأن بعض قبائل العرب دافعوا عنها لمافع لهم فيها وأوعر بهدم دير طور سيناء ، وأقطعه الحاكم لرحل توجه إليه ، فكان من حكمة المترهبّ فيه أنه أحسن لقاء الرجل وسأله جميع آلات الدير ، وتلطّف في إفهامه أن هدمه يصعب عليه وعلى غيره لخصائته ووثاقه بنيانه ، وأنه يحتاج في هدمه إلى نفقات تفوق ما يحصل له منه ، فترك الرجل التعرّض له ولكن الحاكم لم يستمر على هذا الاصطهاد ، فلما وصلت إلى أبعه رائحة المذهب الدررى الذي كان قد طهر حديثاً ومال إليه وأراد أن يُقوّيه على رعم معارضة المتمسكين بأصول الإسلام الأولى لم يعد لديات أهل الدمة ما كان لها من أثر في نفسه ، ففي عام ٤١٠ هـ — ١٠١٩ م رُفع إليه عدة مرات أن المصارى يجتمعون في بيوتهم ويقدّسون ويصلون ويحصر معهم

(١) انظر حكاية المسّحي (المؤرخ عام ٤٢ هـ — ٢٩ م) الى ذكرها بكثر، C H Becker

جماعة من الدين أسلموا فيشار كونهم في أحد القرنين ، فلم يسكر ذلك وأعرض عن كلام الساعين .  
وفي هذا العام نفسه أعاد جميع الأوقاف المقنوعة التي كانت برسم دير طور سيناء ، كما أذن  
بعمارة دير القصير وأطلق ما كان رسمه من الأوقاف<sup>(١)</sup>

وفي عهد الخليفة الطاهر الذي جاء بعد الحاكم عاد كل شيء إلى ما كان عليه ، فعاد  
النصارى إلى التطاهر بأعيادهم وحروح الباعوث إلى كنائسهم التي في طاهر المدينة والقاهرة ،  
والخليفة بمصر يحضر لمشاهدة اجتماعاتهم ويتقدم بصيانتهم<sup>(٢)</sup> وحقنوا العيار الذي كان  
عليهم ، ولم يبق من ذكر عهد الخليفة المحبون إلا لباس ريتار أو عمامة سوداء ، وهي التي  
يلبسها المسيحيون منذ ذلك الحين<sup>(٣)</sup>

وقد ولى الوراثة بالقاهرة منذ عام ٤٣٦ هـ إلى ٤٣٩ هـ = ١٠٤٤ إلى ١٠٤٧ م أبو نصر  
صدقة بن يوسف العلاحى ، وكان يهوديا فأسلم ، وكان يدير الدولة معه أبو سعد التستري  
اليهودى ولذلك قال الشاعر المصرى الحسن بن حاقان

يهودُ هذا الرمان قد بلعوا      عاية آمالمهم وقد ملكوا  
العُرُ فيهم والمال عندهم      ومهم المستشار والملك  
يا أهل مصر إني نصحت لكم      تهودوا ، قد تهود العلك<sup>(٤)</sup>

(١) يحيى بن سعيد ص ١٢١ ب - ١٢٣ ، ص ١٣١ - ١٣٢ ب

(٢) أطر الفصل الخاص بالأعياد

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٣٣ ب ، كانت الأوامر الخاصة باللباس لا يرال مكرر بين حين وآخر ،  
فمن ذلك أن السلطان الناصر بن علاون في القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أمر أن يلبس  
النصارى العمامة الرق ، واليهودُ العمامة الصغر ، والسامرة العمامة الحمر (كتاب الأوائى لعلى دده ، مخطوط  
برلين المقدم المذكور ص ١٥٩) ، ولا يرال السامرة يلبسون العمامة الحمر إلى اليوم

(٤) حسن المحاصرة للسوطى ج ٢ ص ١١٧ .



# الفصل الخامس

## الشيعة

لما جاء القرن الرابع الهجرى كان حرب الخوارج قد فقد ما كان له من شأن ، بعد أن كان أقدم حرب يباوى الخلافة الرسمية ، وأصبح الخوارج مفرقين في وسط المملكة الإسلامية ، يؤلفون جماعات صغيرة لها مذهبها الخاص ، وكان لهم خروج وحروب بديار ربيعة وعمان وغيرها في أوائل القرن الرابع<sup>(١)</sup> ، ولم تكن لهم قوة وصولة إلا في الأطراف في بلاد سجستان وواحي هراة<sup>(٢)</sup> ، وكذلك في العرب ، حيث دخل فيهم البربر المقيمون على شاطئ مصيق حل طارق<sup>(٣)</sup> وقد واصل الشيعة المهديّة ، القرامطة والفاطيّون ، ما كان قد بدأه الخوارج من مكاشحة الخلافة ، وكان هذا علامة من العلامات التي تدرّ نهاية الأصول الإسلامية الأولى ، ذلك أنه من أكره ما عتار به الحركة الفكرية في القرن الرابع الهجرى ظهور مذهب الشيعة يحمل بين ثناياه الكثير من الأفكار الشرقية القديمة ، ويجعلها مكان بعض الأفكار الإسلامية

ولقد أنابت لنا مباحث قلها ورن بصورة أدنى إلى الصواب أن مذهب الشيعة ليس — كما كان يعتقد البعض — ردّ فعل من جانب الروح الأيرانية يحالف الإسلام<sup>(٤)</sup> ، وما يؤيد أبحاث قلها ورن التوريع الخرجي للشيعة في القرن الرابع ، وقد ألمع الخوارزمي في أواخر القرن الرابع إلى أن العراق هو الموطن الأول للتشيع<sup>(٥)</sup> وكانت الكوفة ، وبها

(١) مروح الذهب للمسعودي ج ٥ ص ٣٢ (٢) معدي ص ٣٢٣

(٣) Goldziher, ZDMG, 41, S 31 ff ، وكانوا إناصيه سكرية ، أما في المشرق فكانوا على

مذهب الصفرية المطرفين وبعول اس حرم (الفصل ح ٤ ص ١٩) إن فرق الخوارج كلها قد نادت ولم تن على عهده إلا الأناصيه والصفرية وفي أنامها هذه لم تن من الخوارج جماعة مهمة إلا عرب عمان ومن تأثيرهم في إفريقية السماله

(٤) راجع كتاب Julius Wellhausen, Die religios politischen Oppositions parteien im

alten Islam, Berlin, 1901, S 91

(٥) رسائل أنى نكر الخوارزمي طبعه القسطنطينيه عام ١٢٩٧ ص ٤٩

قبر عليّ ( رضى الله عنه ) أكرم مركز الشيعة حتى ذلك العهد ، وكان يقال . « من أراد الشهادة فليدخل دار المطيحي ( بالكوفة ) ولتقل . رحم الله عثمان بن عفان » <sup>(١)</sup> . وفي عصور القرن الرابع امتدّ مذهب الشيعة إلى البصرة ، وهي المأوى القديم للكوفة والتي كان يقال عنها في القرن الثالث أما البصرة وسواها فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من تبيعتا إلا القليل ، « وأما الكوفة وسواها فقد غلب عليها عليّ وتبيعته » <sup>(٢)</sup> ، وفي البصرة اضطّر أنوكر الصولي ( المتوفى عام ٣٣٠ هـ — ٩٤٢ م ) أن يستتر حتى مات لأنه روى حديثاً في عليّ ( رضى الله عنه ) ، فطلسته الخاصة والعامة لتقتله <sup>(٣)</sup> وفي القرن الخامس الهجري كان في البصرة ما لا يقل عن ثلاثة عشر مكاناً تتصل بذكرى عليّ <sup>(٤)</sup> ، وكان يقدسها الشيعة بل كان يوجد في المسجد الكبير في ذلك الوقت أثرٌ من آثار عليّ يُعرض للناس ، وهو قطعة من الخشب طولها ثلاثون دراعاً وعرضها خمسة أشرار وسمكها أربعة أصابع ، يقال إن عليها حاءٍ من الهدى <sup>(٥)</sup> وكانت الشام منذ أول الأمر تزيّنه غير صالحة لدعوة العلويين ؛ ويحكى أن أبا عبد الرحمن السائي ( ٢١٥ — ٣٠٣ هـ ) دخل دمشق ، وكان يتشيع ، فسئل عن معاوية وما روى من فضائله فقال أما يرضى معاوية أن يجرح رأساً رأساً حتى يفصل ؟ وفي رواية أنه قال ما أعرف له فضيلة إلا « لا أشع الله له قطناً » ، فما رآه يذبحه حتى أحرّوه من المسجد ، وداسوه ثم داسوه ، ثم حمل إلى الرملة ، فمات وهو منقول بسبب ذلك الدّوس <sup>(٦)</sup> وكان أهل طبرية ووصف نابلس وقَدَس وأكثر عمان شيعة <sup>(٧)</sup> ، ولا أدري كيف كان ذلك ورعم قيام الدولة الفاطمية فلاحظ أن حرب الشيعة لم يتقدم إلا قليلاً ، وإذا كان ناصر خسرو قد وجد أهل طرابلس في عام ٤٢٨ هـ — ١٠٣٧ م شيعة <sup>(٨)</sup> ، فقد جاء ذلك من أن بني عمار ، وهم إحدى الأسرات الصغيرة الكثيرة

(١) تاريخ بغداد مخطوط رقم ٢١٢٨ مكتبة دارس الأهلية ص ١٤ ب ، وهو المحدثي (ص ١٢٦)

إن أهل الكوفة شيعة إلا الكاسية فإنها سنة

(٢) نواب رسائل لأبي عثمان الخياط طبعه فان فلوس بليدن ٣ ١٩ ص ٩

(٣) المهرست لاس القديم ص ١٥

(٤) ناصر خسرو ص ٨٧ (٥) نفس المصدر

(٦) الوفيات لاس حلكان طبعه قسطنطين ١٨٣٥ ح ١ ص ٣٧ ، انظر أيضاً طبقات السكي

ح ٢ ص ٨٤

(٧) المقدسي ص ١٧٩ (٨) ناصر خسرو ص ٤٢

على الأطراف ، كانوا هناك على مذهب الشيعة ؛ ويظهر أنهم عملوا بمقتضى القاعدة السيئة التي تجعل للأُمير الحق في فرض المذهب الذي يريده <sup>(١)</sup> ، وهي قاعدة لم يُبادر بها أحدٌ في الإسلام فصلاً عن أن تُطَبَّق تطبيقاً شرعياً وكانت حرية العرب شيعة كلها عدا المدن الكبرى مثل إمكة وتهامة وصمَاء وقُرح ، وكان للشيعة علنةٌ في بعض المدن أيضاً مثل عمان وحر وصعدة <sup>(٢)</sup> وفي بلاد خورستان التي تلي العراق كان نصف الأهوار ، وهي القصبة ، على مذهب الشيعة <sup>(٣)</sup> ، أما في فارس فكان الشيعة كثيرين على السواحل التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالعراق وخصوصاً بالعرب المتشيعين <sup>(٤)</sup> ، أما في جميع المشرق فكانت العلنة لأهل السنة إلا أهل قُم فإيهم كانوا « شيعة عالية » قد تركوا الجماعات ، وعطّلوا الجامع إلى أن ألزمهم ركن الدولة عمارته ولرومه <sup>(٥)</sup> والسبب في تفرّد أهل قُم بذلك أن هذه المدينة قد احتلها من قبل أصحاب ابن الأَشتت ، وكان رئيسهم قد أدّب اسمه في الكوفة ، وكان علو أهل قُم موضع كثير من النواذر » ومن طريف ما يحكى أنه وُلّي عليهم وال ، وكان سبباً متشددًا ، فباعه عنهم أنهم لعصم الصحابة الكرام لا يوحد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر ، فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم بلعني أنكم تعصون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنكم لعصم إياهم لاتسمون أولادكم بأسمائهم ، وأنا أقسم بالله العظيم لن لم تحيثنوني رحل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ، ويتست عدى أنه اسمه ، لأفعلن بكم ولأصعب ، فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم ، واحتشدوا ، فلم يروا إلا رجلاً صعلوكاً حافياً عارياً أحول أقبح خلق الله مطراً ، اسمه أبو بكر ، لأن أباة كان عرباً استوطنها فسمّاه بذلك فخاءوا به ، فستهم وقال حثمنوني فأقبح خلق الله تنادروا على وأمر بصعبهم ، فقال له بعض طرفائهم

(١) *cujus regio, ejus religio* ، وهذا ما تم الاتفاق عليه بين الأمراء الألمان والإمبراطور في آخر القرن السادس عشر ، وهو أن يكون لكل أمر الحق في أن يفرض على أهل إمارته المذهب الذي يراه [ المترجم ]

(٢) مقدسي ص ٩٦ (٣) نفس المصدر ص ٤١٥

(٤) نفس المصدر ص ٤٣٩

(٥) المقدسي ص ٣٩٥ ، وقد تمثل أحد الشعراء بذكر ساء قُم الشيعة

فكأنها شيعية فميت وكأن سيدنا الوير إمامي

(ينسب للدهر ح ٤ ص ١٣٥) ، وكان للشيعة إلى جانب ذلك علنة في مدنة الرقة إحدى المدن الصغرى هو هسان (مقدسي ص ٣٢٣) ، وقد كان عند رجل حة وهما له أحد كبار الشيعة فاشتراها أهل قُم ثلاثين ألف درهم (الأغانى ح ١٨ ص ٤٣)



أيها الأمير اصنع ما شئت ، فإن هواء قم لا يحيى منه من اسمه أو نكر أحسن صورة من هذا ، فعليه الصبحك وعما عنهم <sup>(١)</sup>»

وكان في قم فرقة من العلّاء وهم العرابية ، ومذهبهم أن المال كله للست ، فلما ولي عليهم قاص حكم للست بالنصف هددوه بالقتل ، « وهم قوم من شرار الروافض يذهبون إلى هذه المقالة لأجل فاطمة رضى الله عنها » <sup>(٢)</sup> وفي عام ٢٠١ هـ - ٨١٦ م دفعت في قم السيدة فاطمة امّة الإمام الثامن ، الرضا ، لأب قم كانت في ذلك الوقت أحب مكان يدرس الفرس فيه موتاهم ، بعد مشهد أما أصهبان فقد كان في أهلها لله وعلوّ في معاوية على عهد المقدسى ، ويحكى المقدسى أنه وُصف له رجل بالهد و التقيد ، فقصده ليسأله ، فرآه يقول إن معاوية نبيٌّ مرسل ، فلما أنكر المقدسى عليه ذلك أصبح يشنع عليه ، ولولا أن القافلة أدركته لطشوا به <sup>(٣)</sup> وكانت أصهبان تحالف قم كل المحالفة ، وفي عام ٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م وقعت بها فتنة كبيرة نشأت عن اختلاف المذاهب ، وكان سبب ذلك أنه قيل عن رجل قمّي إنه سبّ بعض الصحابة ، فثار أهل أصهبان ، واجتمع خلق لا يحصون كثرة ، ووقع بينهم قتلى ، وهب أهل أصهبان أموال التجار من أهل قم <sup>(٤)</sup> وفي أواخر القرن الرابع الهجرى محمد الهمداني يقول إن حراب بيساور واصطراطها وما رل نأهلها من ملاء ، وكذلك ما رل نهستان حتى صارت مأ كالة العَصَص ونُجعة الأ كدار ، كل ذلك لعشوّ مقالة الشيعة فيهما ، ويحكى الهمداني عن صاحب له رجع من هراة ذكر أنه سمع في السوق صبياً يُنشد أن محمداً وعلياً علياً تيا (مها أبو نكر) وعدتا (مها عمر) <sup>(٥)</sup> ، وفي ذلك العصر لم يكن قد تمّ لمذهب الشيعة افتتاح البلاد التي يملكها اليوم ، ولكنه كان سائراً في أحسن طريق يوصله إلى ذلك ، بل كان الاصطهاد مما يساعد هذا المذهب على الانتشار

أما من حيث العقيدة والمذهب فإن الشيعة هم ورثة المعتزلة ، ولا بد أن تكون

(١) كتاب معجم البلدان لابن الرومي طبع له روح سنة ١٨٦٩ م ح ٤ ص ١٢٦

(٢) طبقات السكي ح ٢ ص ١٩٤

(٣) المقدسى ص ٣٩٩ (٤) ابن الأثير ح ٨ ص ٣٨٨

(٥) رسائل الهمداني ص ٤٢٤ - ٤٢٥ ، وابن حوقل ص ٢٦٨

قلة اعتداد المعتزلة بالأحبار الماثورة مما لاءم أعراس الشيعة ولم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهبٌ كلامي خاص بهم ، فمحد مثلاً أن عصد الدولة ، وهو من الأصراء المتشيعين ، يعمل على حسب مذهب المعتزلة<sup>(١)</sup> ولم يكن هناك مذهب شيعي إلا للفاطميين ، ويصرّح المقدس بأنهم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول<sup>(٢)</sup> وعلى العكس من هذا نجد الشيعة الريدية يرتقون بسد مذهب المعتزلة حتى ينتهي إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، ويقولون إن واصلًا أحد عن محمد بن علي بن أبي طالب ، وإن محمداً أحد عن أبيه<sup>(٣)</sup> « والريدية يوافقون المعتزلة في أصولهم كلها إلا في مسألة الإمامة »<sup>(٤)</sup> ويدل على العلاقة الوثيقة بين المعتزلة والشيعة أن الحليلة القادر جمع بينهما حينما هي في عام ٤٠٨ هـ -- ١٠١٧ م عن الكلام والمناظرة في الاعتزال والرفض (أي مذهب الشيعة) والمقالات الخالفة للإسلام<sup>(٥)</sup> ثم إن الطريقة التي سار عليها ابن ناويه القتي ، أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع الهجري ، في كتابه المسمى كتاب العلل تدكّرنا بطريقة علماء المعتزلة الذين كانوا يسخّشون عن علل كل شيء . وكان في مذهب الشيعة ، كما كان في مذهب المعتزلة ، مكان لكل ألوان الردقة ، فمحد ابن معاوية منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، يجمع حوله الربادقة ، وقتل أحد هؤلاء لأنه أسكر البعث ، وكان يقول إن الناس تفي كالساتات<sup>(٦)</sup> وفي عام ٣٤١ هـ -- ٩٥٢ م طهر الورير المهلي يقوم من التباسحية ، فيهم شاب يرعم أن روح علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) انتقلت إليه ، وفيهم امرأة ترعم أن روح فاطمة (رضي الله عنها) انتقلت إليها ، وفيهم آخر يرعم أنه حريل ، فصرّوا ، فالتحوا لأهل البيت ، فأمر معرّ الدولة بإطلاقهم لتشيع كان فيه<sup>(٧)</sup> ومثل هذه المقالات ، وخصوصاً القول بالرحمة والتاسح ، يوجد في مذاهب العوسطيين المسيحيين<sup>(٨)</sup>

(٢) من المصدر ٢٣٨

(١) مقدسي ٤٣٩

(٣) ذكر المعتزلة من كتاب المية والأمل لأحمد بن يحيى المرصّي طبعه أرثلند محمد آاد

١٣١٦ هـ ص ٥

(٥) المنظم ص ١٦٥ ب

(٤) حطط الفريري ح ٢ ص ٣٥٢

(٦) Wellhausen, Oppositionsparteien, S 99

(٧) أبو المحاسن ، طعة ليدن ح ٢ ص ٣٣٣

(٨) فليس من الضروري أن تردّ الآراء المتعلقة بظهور المسيح إلى اليهود بحوب حررة العرب ،

وهم الذين يصرون آناء هذه المقالة ( انظر مقالة (Friedländer, ZA, 23, S 24)

وكثيراً ما محد في العراق حوالي عام ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م من يقول إن اللاهوتية اجتمعت في علي (رعى الله عنه) ، كما اجتمعت في عيسى عليه السلام من قبل (أنظر الفصل الخاص بالدين) وكان أحد خطباء الشيعة بغداد في عام ٤٢٠ هـ -- ١٠٢٩ م يدعو في حطة الجمعة بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مُكَلِّمُ الجمعة ، وبحي الأموات ، الشرى الإلهي ، مُكَلِّمُ فتية أصحاب الكهف ، وغير ذلك من العلو<sup>(١)</sup> ، ومن هذا ما يحكى عن المسيح عليه السلام ؛ وقد طلت هذه الصفات عند المسلمين مما احتض به المسيح عليه السلام مدة طويلة ، وسرى كثير مما كان يقال للإشارة العواطف في يوم جمعة الآلام عند المسيحيين إلى يوم عاشوراء يقول القمى (المتوفى عام ٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م « إذا تَطَرَّتِ السماء حمراء ، كأنها دمٌ عبيطٌ ، ورأيت الشمس على الحيطان ، كأنها الملاحف المَصْفُورَة ، فاعلمى أن سيد الشهداء الحسين قد قتل »<sup>(٢)</sup> وكذلك ذهب الشيعة في السيدة فاطمة (رعى الله عنها) إلى ما يشبه صفات السيدة مريم عليها السلام ؛ فهي قد سُمِّيت التول مثل مريم ، ويَرَوِي الشيعة عن النبي عليه السلام أنه أحاب من سألته ما التول ؟ فقال التول التي لم تَرَ حُرَّةً قط ، أى لم تَحِصْ ، فإن الحيص مكروهة في سات الأنبياء<sup>(٣)</sup> وكذلك رعم الشيعة أن الحسين (رعى الله عنه) لم يُقْتَلْ ، وأنه شُئَّه للناس ، كعيسى بن مريم عليه السلام<sup>(٤)</sup> ، وربما تكون هناك علاقة بين لباس الشيعة وبين اللباس الأبيض الذى اتحدته الفرق العوسطية وكان الشيعة أيضاً في أول الأمر يلبسون البياض ، ويقول الشاعر ابن سكرة<sup>(٥)</sup>

إب عيد أهل قُمَ وقاتان والكرح

يتلاقى بياصهم قلوب من السرح

وقال بعض رؤساء الشيعة المخالفين لما عليه جمهورهم ، وقد لسن سواداً بيّص قلبك ،

(١) المظم ص ١٧٨ ب

(٢) كتاب العلل لاس ناويه القمى مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ١١ ، وكان القمى يقول

(٣) كتاب العلل ص ٧٧ ب

عند موت الحسين هضر السماء دما

(٥) نتيمة الدهر ج ٢ ص ٦ ٢

(٤) كتاب العلل ص ٩٩ ب



والنَّسْنُ ما شئت<sup>(١)</sup> وكانت أعلام القرامطة بيضاء ، وكذلك كانت ملابس حلفاء الفاطميين وخطبائهم<sup>(٢)</sup> أما اللون الأحمر الذي يتميز به العلويون اليوم فإن أول من أمر باتحاده سلطان مصر شعبان بن حسين ( المتوفى عام ٧٧٨ هـ — ١٣٧٦ م )<sup>(٣)</sup>

وربما يكون الشيء الوحيد الحديدي في مذهب الشيعة في هذا العصر أنهم يردون كل الأحبار والآثار إلى علي وأهل بيته وقد صادف هذا الصنيع أشد استنكار من علماء أهل السنة<sup>(٤)</sup> ، وفي سنة ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م روى رجل حديثاً وسده بالسبط والصادق حتى انتهى إلى علي بن أبي طالب ، ونقل ذلك إلى مجلس فيه ابن راهويه الفقيه ، وكان متهماً بالنصب ، فقال ما هذا الإسناد؟<sup>(٥)</sup> وكان وضع الأحبار من جانب الشيعة وحصومهم في هذا الباب من الأمور التي حروا عليها من قديم ، وكأولاً لا يحدون في ذلك حرجاً ويُذكر أن ابن إسحاق صاحب السيرة السوية كان يتشيع ويقدم علياً على عثمان ، وكان يدخل في كتابه أشعاراً للشيعة ويُروى أيضاً أن عوانة بن الحكم ( المتوفى عام ١٤٧ هـ — ٧٦٤ م ) كان يصنع أحباراً لى أمية ، وعامة أحبار المدائني مأخوذة عنه<sup>(٦)</sup> ، وإذا كان أحد الشعراء حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م يعرف أساطير الشيعة إلى قلة معرفتهم بالأحبار<sup>(٧)</sup> ، فإن المقدمي يحكي لنا أنه كان يوماً بجامع واسط ، وإذا رحل قد اجتمع عليه الناس ، فدنا منه ، فإذا هو يروي حديثاً سده عن النبي عليه السلام إن الله يُدْخِلُ معاوية يوم القيامة ، فيُخْلِسه

- 
- (١) كتاب العلل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ١٣٥
- (٢) تشير المؤلف هنا إلى صفحات من كتاب العلل ومن كتاب الأوائل والأواخر لعلي دده ( لهذا الكتاب ثلاث نسخ بمكة برلين ) ، ولم أجد في هذه الصفحات ما يعادل كلامه [ المترجم ] وقد دخل المأمون بغداد من حراسان عام ٢٤٠ هـ ، وكان لسانه هو وأصحابه وأعلامهم المحصرة ( كتاب تعداد اطيغور طبعه كلر Keller ص ٢ ) ، وكان يصب على أعلى النواهار مبلغ الرماح عليها شفاق الحرير المحصر ، ( مروج الذهب ج ٤ ص ٤٨ ) ، وربما كان هذا اللون شعار حراسان
- (٣) ابن الجوزي مخطوط برلين ص ١٣٥ ، ولكن لا يعادل لذلك في هذه الصفحة في مخطوط رقم ٩٤٣٦ بمكة برلين [ المترجم ]
- (٤) انظر مثلاً ناصرو حسرو ص ٤٨ ، وأنا المحاسن طعة لندن ج ٢ ص ٨
- (٥) كتاب الوزراء ص ١٧ — ١٧١
- (٦) الإرساد (معجم الأدباء) ج ٦ ص ٩٤ ، و Goldziher „Kultur der Gegenwart“ (٩)
- (٧) هو الشاعر الملقب بالخضر أرري حيث يقول  
من غاب الأحرار عنه ، ودسه دين الإمامة ، قال بالأوهام  
انظر مروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٤

إلى حسبه ، ويعلمه [٩] بيده ، ثم يحلوه على الناس كالعروس ، فقال له المقدسي : لماذا ؟ قال  
مخارته علياً ، فقال له المقدسي كدبت باصلاً<sup>(١)</sup> فقال حدوا هذا الرافضي ، فأقبل الناس  
عليه ، فعرفه بعض الكتبة ودفعهم عنه<sup>(٢)</sup> وكذلك حكى المقدسي أنه كاد يبطش به لأنه  
أنكر على رجل من غمّاد أصفهان قوله إن معاوية بنى مرسل<sup>(٣)</sup> على أن علياً لم يصح  
موضع الراح ، ومضى الوقت الذي تحد فيه حليفه عباسياً مثل المتوكل (٢٢٣ - ٢٤٧ هـ =  
٨٤٧ - ٨٦١ م) شديد العص لعلّ ولأهل بيته ، حتى كان من حملة بدمائه رجل شدّ  
على بطنه تحت ثيابه محدة ، ويكشف رأسه وهو أصلع ، ويرقص ، ويقول قد أقبل الأصلع  
الطيب أمير المؤمنين ، معي علياً رضى الله عنه ، والمتوكل يشرب ويضحك<sup>(٤)</sup> وكان أهل  
السنة في الحملة يدكرون علياً بالإحلال ، ولم يكونوا قط أعداء له<sup>(٥)</sup> فالهمداني ( المتوفى عام  
٣٩٨ هـ - ١٠٨ م ) مثلاً قد شتّع على الشيعة ، ورد على طعن الخوارزمي في عمر<sup>(٦)</sup> ، وقد  
ألف مرتبةً للحسين ، وتحدث عن مقتله وصنع بن أمية نساء السي<sup>(٧)</sup> ، وكان أشد ما يؤلم  
هوس أهل السنة ما أولع به الشيعة من ستّ الصحابة الأولين ، وفي سنة ٤٠٢ هـ - ١٠١١ م  
توفي بغداد أحد علماء أهل السنة الأكار ، وكان ديناً حسن الاعتقاد ، واختار يوماً  
بالكرح ، فسمع ستّ بعض الصحابة ، فجعل على نفسه ألا يمشي في الكرح ، وكان يسكن  
باب الشام ، فلم يعبر قطرة الصراة حتى مات<sup>(٨)</sup> ، وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب  
شيعةً لمدهه لم تذكر اسم عليّ ، بل يجعل ستّ العقوبة أنه شتم أبا بكر وعمر<sup>(٩)</sup> ، وفي عام  
٣٥١ هـ - ٩٦٢ م كتب عامة الشيعة بأمر من الدولة على المساحد ما هذه صورته لعن الله  
معاوية بن أبي سفيان ، ولعن من عصت فاطمة فدكاً ، ومن مع الحسن أن يذفن عند قبر

(١) المقدسي ص ١٢٦ ، وكان من أثر هذا الراح في أمر علي ومعاوية أن معاوية صار له شأن  
دبي ، ويحكي السعدي ( المروج ح ٥ ص ١٤ ) أن قبر معاوية بالسب الصغير بدمشق ، وهو يُزار إلى  
هذا الوقت « وهو سنة اثنين وبلاتس وبلاتمة » وعليه بنت مني نصح كل يوم اسن وخمس »

(٢) المقدسي ص ٣٩٩ ، والمسلم ص ٦ ب

(٣) أبو العدا تحت عام ٢٣٦ ( ح ٢ ص ١٨٨ )

(٤) W Sarasin Das Bild Alis bei den Historikern der Sunnah

(٥) الديوان مارس ص ٩ وما يليها

(٦) رسائل الهمداني طبعه سروب ١٨٩ ص ٥٨ وما يليها

(٧) المسلم ص ١٥٨ (٨) المسلم مثلاً ص ٢٩ ب

حَدَّه ، ومن بني أبادر فلما جاء الصباح محاه بعض الناس ؛ فأشار الوزير المهلبى على معر الدولة أن يكتب موضع المحو لعن الله الطالبين لآل رسول الله ، ولا يدكر أحداً إلا معاوية ، فعزل ذلك<sup>(١)</sup>

وقد لحا كثير من العلويين إلى مصر التي لم تكن تربطها عرش الخلافة بغداد رابطة الطاعة التامة وفي سنة ٢٣٦ هـ — ٨٥٠ م كان المتوكل قد حشد الطالبين في سر من رأى<sup>(٢)</sup> ، وورد كتابه إلى والى مصر بإحراج الأشراف العلويين وإعطاء الرجل منهم ثلاثين ديناراً والمرأة خمسة عشر ديناراً ، فقدموا العراق ، ثم أمروا بالخروج إلى المدينة<sup>(٣)</sup> ، ولكن كثيراً من العلويين استطاعوا أن يفلتوا من هذا الطام ، وسرعان ما تاروا ونايعوا واحداً منهم ، فورد كتاب المتصر إلى والى مصر ألا يُقتل علوى صبيحةً ، ولا يرك فرساً ، ولا يسافر من القسطنطينية إلى طرف من أطرافها ، وأن يُمنعوا من اتحاد العيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين أحد الطالبين وبين أحد من سائر الناس حصومة فليقتل قول خصم الطالبى فيه ، ولا يطالب ذلك الخصم بنبيّة<sup>(٤)</sup> فلا عجب إذن أن يرى مصر تشهد حوالى عام ١٥ هـ ثورة للعلويين بعد أخرى ، وفي القرن الرابع الهجرى بدأت فتن العرب تستولى على مصر ، فوحا ذلك بين أعراض العلويين السياسية وبين أعراض الشيعة

وقد بلغت الفتنة في يوم عاشوراء سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م مبلغاً شديداً في العاصمة ، فشب القتال بين الحمد السنيين من السودان والترك وبين الشيعة ، وكان الخوارج يسألون من يحدوه من حاله ؟ فإن لم يقل معاوية ، صر به<sup>(٥)</sup> وطاف أحد السودان المتهيجين بالطرقات ، وهو يصيح معاوية حال على ، فتابعه العامة ، وأصاحت هذه هي صيحة أهل السنة عصر حين يريدون قتال الشيعة وقد حافظت الحكومة على النظام بقدر استطاعتها ،

(١) أبو الفدا ح ٢ ص ٤٧٨ تحت عام ٣٥١ هـ

(٢) الأعاني ح ١٩ ص ١٤١

(٣) كتاب الولاية والقضاء للكندى طبعة Guest ، لندن ص ١٩٨

(٤) نفس المصدر ص ٣ - ٢

(٥) ظهر أن هذه العبارة أصبحت العلامة التي يعرف بها السنى ، ومن النواذر أن يظوه ( المولى

عام ٣٢٣ هـ ) حكى عن بعض الشيعة أنه قل له معاوية حالك ؟ فقال لا أدري ، أمى صراخه ، والأمر

إليه ( الإرشاد لياقوت ح ١ ص ٣١٣ )



وفى عام ٣٥٣ هـ - ٩٦٤ م صُرب أحد كبار الشيعة ، وحُسن حتى مات فى السجن . وقام على قدره قتال بين الحيد وبين أصحابه

ولما دخل جوهر مصر وصارت الحكومة شيعية كانت العامة عند أقل إشارة لهم يصيحون صيحة السعة على الشيعة من نحو معاوية حال على فى سنة ٣٦١ هـ - ٩٧٢ م قُص على محور عمياء تشد فى الطريق ، وحُست ، فرع جماعة من الرعية ، وبادوا بذكر الصحابة ، وصاحوا « معاوية حال المؤمنين وحال على » فبعث جوهر وادى فى الجامع العتيق « أقلوا القول ودعوا الفصول ، فإنا حسبا المحور صيانة لها ، فلا يطقن أحد إلا حلت به العقوبة الموحدة » ، ثم أطلقت المحور<sup>(١)</sup> بل يحكى أيضا أنه فى عام ٣٦٢ هـ ٩٧٣ م شعت جماعة من الصيارفة السدين وصاحوا معاوية حال على بن أبى طالب<sup>(٢)</sup> ، هذا مع أن الصيارفة أهدأ العناصر السياسية

على أن حكومة الفاطميين كانت تتوحى حاب الحكمة فى الحملة ، ولم تكن حكومة متعصبة ، ولكنها جعلت أحسن المناصب فى القضاء والإفتاء للشيعة وخدمهم وقد بلغ من تسامحها أنها لم تمنع العامة فى عام ٣٦٢ هـ - ٩٧٣ م من الاحتفال بعيد اتحداه أهل السنة ، بعد عيد العدير عند الشيعة ، مصاهاة للشيعة وسكاية لهم ، وهو اليوم الذى دخل فيه رسول الله عليه السلام العار هو وأبو بكر الصديق ، وبالمعنى فى هذا اليوم فى السرور وإظهار الربه وصب القباب وإيقاد البيران<sup>(٣)</sup>

وقد شد الخليفة الحاكم فى هذا أيضا ، فى عام ٣٩٣ هـ - ١٠٠٢ م أمر نائب دمشق من قبل الحاكم برحل معرى ، فصُرب وطيف به على حمار ، وبودى عليه هذا حراء من أحت أنا بكر وعمر ، ثم أمر به فصرت عقه<sup>(٤)</sup> وفى عام ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م بلغ تعصب الحاكم للمذهب أقصى حد ، وكان من الأتباء الكثيرة التى أمر بها أن يكتب على الخراع

(١) كتاب اعطاء الخفاء بأخبار الخلفاء للمصيرى طبعه القدس ٨ ١٩ ص ٨٧

(٢) الخطط للمصيرى ج ٢ ص ٣٢٩ ٣٤

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨٩ - ٣٩

(٤) أبو المحاسن طبعه كاهورنا ص ٩١ (عام ٣٩٣ هـ) ، وابن الاثير ج ٩ ص ١٢٦ وهوول  
ان الأثير إنه أخرج عن المدسه فقط ، ولم يقل

والمساحد والحيطان والدروب لعنُ ألى مكر وعثمان ومعاوية وغيرهم من الصحناء ، وكذلك سائر حلفاء بنى العباس ، وعظم ذلك على أهل السنة<sup>(١)</sup> وفى عام ٣٩٦ هـ — ١٠٠٥ م أمر بمع الناس فى يوم عاشوراء من الحروح للروح والسكاء على الحسين فى الشوارع ، لأب العامة كانوا يمدون أيديهم إلى أمتعة الناعة ، فرفعوا ذلك إلى الحاكم ، فأمر بمعهم من المرور فى الشوارع ، وأن يحتص النوح والشيد بالصحناء<sup>(٢)</sup> وفى عام ٣٩٩ هـ — ١٠٠٩ م عاد الحاكم إلى الأمر بالأيست أحد من السلف الدين كان أمر سبهم ، وهذه هى عادته من الأمر بالشئ ثم الأمر بتركه<sup>(٣)</sup>

على أن مذهب الشيعة لم يستطع أن يحدث إليه الناس ، فيحدثنا المقدسى أنه لم يجد الشيعة إلا فى أعلى القصبة ، وكذلك أهل صندا<sup>(٤)</sup> وكانت فى الغرب على الحدود بين الحرائر وتوس توحداً أيضاً مدينة معطة ، وجميع أهلها شيعة ؛ وكانت نسي الكوفة الصبرى<sup>(٥)</sup> على أنه بعد التدهور السياسى للفاطميين سرعان ما رجعت موحدة هذا التيار الشيعى ، حتى لم يبق له أثر

وكانت بغداد هى العاصمة بمعنى الكلمة الحقيقى ، وآية ذلك أن جميع الحركات الروحية فى مملكة الإسلام كانت تتلاطم أمواحها فى بغداد ، وكان بها جميع المذاهب أنصار ولكن أكثر حريين كانا بها فى القرن الرابع الهجرى هما الحريان المتشددان فى التمسك بمذهبهما ، وهما الحنابلة والشيعة<sup>(٦)</sup> ، وكان أنصار الشيعة يسكنون سوق حاص حول سوق الكرخ ، ولم يتعدوا الحسر الكبير ويحتلوا باب الطاق إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى<sup>(٧)</sup> ولم يستطيعوا التعدى إلى القسم العربى ، لأن الهاشميين كانوا يكونون عصبة قوية هناك ، ولاسيما حول باب البصرة ، وكانوا من أشد أعداء الشيعة<sup>(٨)</sup> على أن ياقوتا وحد أن أهل محلة

(١) يحيى بن سعد ص ١١٦ ، وفى هذه السنة نفسها وصلت فافلة الحج فأراد العامة حملهم على سب السلف ، فأبوا ، فحل بهم مكروه شديد (حطط المقربرى ح ٢ ص ٣٤٢)  
(٢) الحطط للمقربرى ح ٢ ص ٤٣٢ ، وملحق استيلاء أحرار الولاة والعصاة للسكندى ص ٦٠ .  
(٣) يحيى بن سعد ص ١١٩ (٤) المقدسى ص ٢٢  
(٥) العرب فى ذكر بلاد إفريقيا فى العرب للكرى طبعه الحرائر ١٨٥٧ ص ٧٥  
(٦) المقدسى ص ١٢٦ ويقول المقدسى (ص ٣٧) إن الحنابلة يسكنون الصب [ معنى تنصب على ، وهذا ما يجعل الشيعة يكرهونهم المترحم ]  
(٧) كتاب الورراء ص ٣٧١ (٨) ابن الأثير ح ٩ ص ١٤٦

باب البصرة بين كرخ بغداد والقتلة كلهم سنية حاملة ، وأن عن يسار الكرخ وفي  
 حو با سنية أما الكرخ فأهلها كلهم شيعة إمامية لا يوجد فيهم سني ألتنة<sup>(١)</sup> ؛ وإلى  
 جانب ما تقدم كان باب الشعير عرني شاطيء دجلة من أكر مرا كرا أهل السنة<sup>(٢)</sup>  
 ورغم ما قام به المتوكل من تشديد في اصطهاد الشيعة في القرن الثالث الهجري ، يلاحظ أن  
 قوتهم كانت عظيمة حتى إن الخليفة المعتضد عزم في عام ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م على لعب  
 معاوية على المار ، وأمر بإشياء كتاب في ذلك وصلت إليها صورته ، فخوفه الورير من  
 اضطراب العامة ، فقال المعتضد إن اضطربت العامة وضعت فيها السيف ، وقال له الورير  
 فما تصنع بالطالبيين الذين هم في كل ناحية يرحلون ويميل إليهم كثير من الناس لقرااتهم  
 من الرسل ، وفي هذا الكتاب إطلاؤهم ، وإذا سمع الناس كانوا إليهم أميل<sup>(٣)</sup> ؟ ويدكر  
 المؤرخون لأول مرة عام ٣١٣ هـ - ٩٢٥ م أن الشيعة البغداديين كانوا يجتمعون في مسجد  
 راتا ، فلم الخليفة بأن قوما مهم يجتمعون فيه لسب الصحابة ، فأمر بكسبه في يوم جمعة  
 وقت الصلاة ، فوحد فيه ثلاثون إسبانا يصلون ، فقص عليهم وقتشوا ، فوحد معهم حواتم  
 من طين أبيض عليها اسم الإمام ، كما كان يفعل دعاة الفاطميين مع من ينتسب إليهم وقد  
 استصدر الخليفة فتوى مهدم المسجد حتى سوي بالأرض ، وعي رسمه ، ووصل بالمقبرة التي  
 تليه<sup>(٤)</sup> وفي سنة ٣٢١ هـ - ٩٣٣ م هم علي بن يلدق ، وهو من القواد الترك ، مرة  
 أخرى بأن يلعب معاوية واسه يريد على المار ، فاضطربت العامة ، وكان الدهري رئيس  
 الحاملة يثير الفتى هو وأصحابه<sup>(٥)</sup> وفي عام ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م بوى في حابي بغداد بالآ  
 يجتمع من الحاملة نساء في موضع واحد ، وكان ذلك لكثرة تشرطهم على الناس وإيقاعهم  
 الفتى المتصلة ، وخرج توقيع الخليفة الراصى نكتات بين فيه أخطاء الحاملة وتوعدهم بالعقاب ،

(١) ناقوب معجم البلدان تحب كله كرخ بغداد ( ح ٤ ص ٢٥٥ )

(٢) كتاب الورراء ص ٤٨٣ (٣) تاريخ الطبرى ح ٣ ص ٢١٦٤ ٢٢٧٨

(٤) المسطم ص ٢٩ ب ١٦٧ وكان بغداد طاعة من المكديين يدعون اسم شيعة ويحملون السج  
 والألواح من الطين ، وورعمون اسمها من فر الحسن بن على رضى الله عنهما فسحقون بها الشيعة ولا يرال  
 أطبان الطين تناع إلى اليوم ، بشرها الشيعة لصعورها أمامهم عند الصلاة لكي سمع عليها حاهم كلما جدوا

(٥) تحب هذا مفصلا عن مسكويه ح ٥ ص ٤١٣ ، ومحصرأ عسدا ان الأيرج ٨ ص ٣ ٢ -

٤ ٢ ، وعند أنى المحاسن طبعه ليدن ح ٢ ص ٢٥٣ - ٢٥٤



وقد وصلت إليها صورة هذا الكتاب<sup>(١)</sup> ، فهو يتهمهم بالطعن على حيار الأمة ونسبة شيعة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكفر ، وإرصادهم بالمكارة في الطرقات والمحال وإسكار ريادة قبور الأئمة صلوات الله عليهم ، والتشجيع على رؤاها بالانتداع ، وأن الحمايلة مع إكبارهم لذاك ، يتلفقون ويحتممون لقصد رحل من العوام ليس لدى شرف ولا نسب ولا نسب رسول الله صلى الله عليه ، ويأمرون ريادة قبره والحشوع لدى ترثته ، وفي آخر الكتاب يقسم أمير المؤمنين بالله لئن لم يصرف الحمايلة عن مدموم مذهبهم ليوسعهم صراً وتشريداً وليستعملن السيف في رقابهم والبار في محالهم ومبارهم<sup>(٢)</sup>

ثم أن محكم أمر بإعادة بناء مسجد براتا في عام ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م وشوسيعه ليسكون مسجداً لأهل السنة ، وكتب في صدره اسم الراصي بالله ، ثم جاء المتقي بالله فأمر بصب مرفيه ، كان في مدينة المصور معظلاً محتوا في حراة المسجد عليه اسم هارون الرشيد ، ونصب هذا المرف في قلة المسجد ، وافتتح هذا المسجد للصلاة في عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م<sup>(٣)</sup> وكان الحمداسون أول أسرة شيعية تدخلت في أمور بغداد ، وكان هذا التدخل متيراً للمحب ، ذلك أن ابن حمدان على شدة تشيعه وميله إلى علي وأهل بيته سعى في البيعة لابن المعتز على إخراجهم عن علي وعُلوّه في النص<sup>(٤)</sup> ولكن الأحوال تغيرت لما استولى الديلم على بغداد ، وكاوا قد دخلوا في الإسلام حديثاً على يد أحد العلويين ، فلم يكد مع الدولة يدخل بغداد حتى قصص على الخليفة المستكفي وأمره عن عرثه على صورة مهيبه وكان من الأسباب الطاهرة في ذلك أن المستكفي كان قد قصص على الشافعي رئيس الشيعة<sup>(٥)</sup> وفي سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م قامت فتنة بين العامة ببغداد ، وعظمت الجمعة بمساحد أهل السنة

(١) مسكويه ج ٦ ص ٤٩٥ — ٤٩٧

(٢) وقد أصيب لهذا الكتاب فيما بعد صفة اعفاده كلامه ، وذكر أبو العلاء في تاريخه أنه قد جاء فيه توسع الحمايلة باعقاد التشبه . « وأسلم ترعمون أن صورة وحوهم الفسحة السبعة على مثال رب العالمين وهئكم على هئته وهكذا » — تاريخ أبي العلاء تحت عام ٣٢٣ هـ ج ٢ ص ٣٩٢ من الطبعة الأوروبية

(٣) المسظم لابن الحوري ص ٦٨ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٢٧٨ ، ومسكويه ج ٦ ص ٣٧ ، وهو يذكر الفراغ من المسجد والجمع فيه من غير زيادة في الدان

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣ (٥) مسكويه ج ٦ ص ١٢٣

لا مصال الفتن ، ولم تُتَمَّ الجمعة إلا في مسجد برآنا الشيعي <sup>(١)</sup> وفي عام ٣٥١ هـ كتب  
مع الدولة على المساجد كفن الصحابة ، فحاه الناس أثناء الليل <sup>(٢)</sup> وفي العام التالي أمر  
الناس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء ، وهو أكرم عييد للشيعة ، وأن يُطهروا الحرن فأغلقت  
الأسواق وعطل البيع والشراء ، ولم يدح القصابون ، ولا طيح الهراسون ، ولا ترك الناس  
أن يستقوا الماء ، وبصت القباب في الأسواق ، وعُلِّقت عليها المسوح ، وحرخت النساء  
مُشترات الشعور مسودات الوحوه ، قد تنقق ثيابهن يدزن في السلد ويتخن ويلططن  
وحوهن على الحسين ( رضى الله عنه ) وفي هذا اليوم كان يرار قبر الحسن بكر بلاه <sup>(٣)</sup>  
ويصف البيروني ما جرى عليه سوأمية من إظهار الفرح في يوم عاشوراء ، وما كان يطهره  
الشيعة من حرن ، ثم يقول « ولذلك كره فيه العامة تحديد الأواني والثياب » <sup>(٤)</sup> وفي اليوم  
الثامن عشر من دى الحجة في هذا العام حاه عيد العدير ( عدير حم ) ، فاحتفل به الشيعة  
سعداد ، وورعوا أنه اليوم الذي عهد فيه الرسول عليه السلام إلى علي بن أبي طالب  
واستحلته <sup>(٥)</sup> ، وفيه أطهروا السرور بأمر معر الدولة ، على خلاف صديقهم في يوم عاشوراء ،  
فصصوا القباب ، وعلقوا الثياب ، وأطهروا الريبة وفي ليلته أشعلت البيران بمجلس الشرطة ،  
وصرت الدباب والموقات ، وفي صبيحته محروا حملا ونكروا إلى مقار قریش <sup>(٦)</sup> أما  
سوأمية فكأوا قد اتحدوا يوم عاشوراء من قبل يوم سرور ، « فلبسوا فيه ما يتحدد وترىوا  
واكتحلوا وعيدوا وأقاموا الولائم والصبافات وطعموا الحلاوات والطيبات ، وجرى الرسم في  
العامة على ذلك أيام ملكهم ، وبقى فيهم بعد رواه عنهم » وقد حاول أهل الحديث أن

(١) المسطم لاس الطوري ص ١٨٩ ، وأبو المحاسن طعه ليدن ح ٢ ص ٣٥١ ، وابن الأثير ح

٨ ص ٣٩٧ (٢) اطر ما تقدم

(٣) المسطم ص ٩٣ ب ، وكاب الورداء ص ٣٧١ ، وابن الأثير ح ٨ ص ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٤ ، وأبو  
المحاسن ح ٢ ص ٣٦٤ ولا يحد قط ذكرأ لروايات ألفت لتحديد الشهداء كالتى رآها اليوم عادة على  
أنه من العاراب التى يشه أن تكون أصلها من قصة تمسلية قول السده سكبه بن الحسن رضى الله عنها  
« كنت أحسن من السماء وأعدت من الماء » ( رسائل الخوارزمي طعة القسطنطينه ١٢٩٧ ص ٣٧ ) ،  
[ وليس في هذا دليل مقبول المرحم ]

(٤) الآمار النافه للبيروني طعه أوروبا ص ٣٢٩

(٥) المسطم ص ٩٣ ب ، وابن الأثير ح ٨ ص ٧ ، ٤ ، وكاب الورداء ص ٣٧١ ، وقد أخطأ

أبو المحاسن ( ٢ ص ٤٢٧ ) بحمله ذلك عام ٣٦ هـ

(٦) كاب الورداء ص ٣٧١ ، والمسطم ص ٩٣ ب ، وابن الأثير ح ٨ ص ٧ ، ٤

يظهروا فصل يوم عاشوراء فدكروا ما روى عن النبي عليه السلام من الحصّ على فعل الخير فيه<sup>(١)</sup> وكانوا يرمون أن «الاكتحال فيه مانع من الرمد في تلك السنة»<sup>(٢)</sup> ؛ ولذلك يقول القمّي (المتوفى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م) مشدداً فيمن يفرح بيوم عاشوراء «من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قصي الله له حوائج الدنيا والآخرة ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحره وبكائه يحمل الله عز وجل يوم القيامة فرحه وسروره ومن سمي يوم عاشوراء يوم بركة وادّخر بمنزله شيئاً لم يُبارك له فيما أدّخر، وحُشر يوم القيامة مع يريده وعبيد الله من رياء وعمر من سعد لعنهم الله إلى أسفل درك من النار»<sup>(٣)</sup> ولما رالت الدولة العاطمية وجاء ملوك بني أيوب اتحدوا يوم عاشوراء ، بعد أن كان يوم حزن ، يوم سرور ، حزياً على عادة أهل الشام<sup>(٤)</sup> ثم إن أهل السنة أرادوا أن يعملوا لأنفسهم ما يكون بإزاء يوم عاشوراء ، فعملوا بعده ثمانية أيام يوماً يسوه إلى مقتل مُضَعب بن الربيع ، وراوا قبره في مسكن ، كما يُزار قبر الحسين مكرّلاً<sup>(٥)</sup> وكذلك عملوا بإزاء يوم العدير بعده ثمانية أيام يوماً ادعوا أنه اليوم الذي دخل فيه النبي عليه السلام وأبو بكر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) في العار ، وعملوا في هذا اليوم ما يعمل به الشيعة في يوم العدير وكان أول ما عمل أهل السنة ذلك في يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة عام ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م<sup>(٦)</sup> وفي هذه الأعياد لم يكن الأمر يخلو من تبع وقتن بين الفريقين ، حتى كان الحكام الأقوياء يجمعون من عملهما أحياناً<sup>(٧)</sup> وقد حدث مرة في فتنة بين أهل السنة والشيعة أن الشيعة صاحوا حاكماً يامصور ، إشارة إلى العدو المقيم بالقاهرة ، وقد بلغ الخليفة ذلك ، فأحفظه ، وأبعد الحراس الذين على نابه لمعاونة أهل السنة ، فهرموا الشيعة ، ثم اجتمع الأشراف إلى دار الخليفة ،

(١) الآثار الباقية للبرقي ص ٣٢٩ .

(٢) مخات المجلدات للقروبي ، طبعه أوروبا عام ١٨٤٩ ص ٦٨

(٣) كتاب العلل للقمي مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ٩٩ ب

(٤) المخطوط للمقرئ ح ١ ص ٤٩

(٥) كتاب الوراء ص ٣٧١ ، وكذلك عرف نافوس هذه الأماكن

(٦) المسظم ص ١١٤٣ — ١٤٤ ب ، وكتاب الوراء ص ٣٧١

(٧) فعل ذلك أبو الحسن المعلم عام ٣٨٢ هـ (المسظم ص ١١٣٤) وعميد الحيوش عامي ٣٩٢ هـ ،

٦ هـ (كتاب الوراء ص ٤٨٢ — ٤٨٣ ، والمسظم ص ١٤٧ ب ، وان الأثر ح ٩ ص ١٨٤ )



فسألوه العموم عما فعله السعفاء ، فعما عنهم <sup>(١)</sup> وفي عام ٤٢٠ هـ ١٠٢٩ م كان حطيب مسجداً  
برائاً ، وكان شيعياً ، يذكر مذاهب فاحشة من مذاهب الشيعة ويعلم في عليّ ؛ فأمر الخليفة  
بالقصر عليه ، وعين محله حطيباً آخر . فلما صعد المنبر دقّه بعقب سيفه على ما حرت به  
العادة ، والشيعة يسكرون هذا ، وقصر في الخطبة عما كان يفعله من تقدمه في ذكر علي  
ابن أبي طالب ، وقال اللهم اعمر للمسلمين ، ومن رعم أن عائياً مولاه ، فرماه العامة حينئذ  
بالأخر ، فوافاه كالطر ، وحلج كتفه ، وكسّر أنفه وأذنى وخذه ، وعرف الخليفة ذلك ،  
فعاطه وأحفظه ، وكتب في الشيعة كتاباً شديداً للورير ، وفي آخر الأمر اجتمع قوم من  
مشايخ أهل الكرخ ، وتوجهوا مع الشريف المرتضى إلى دار الخلافة ، فأحالوا ما جرى على  
سعفاء الأحداث ، وسألوا الصريح عن هذه الحاية ، وطلبوا إقامة حطيب عملت له سحة  
يعتمدها فيما يحطب ، وتحت ما يُحطّ الشيعة <sup>(٢)</sup> ومما كان له شأن في توارث الشيعة المباحة  
في القرن الرابع الهجري أن مشهدينهم الكيريين المقدسين عسدهم كانا بالعراق علي أن  
موضع قبر علي كان موضع شك ، وقد بين المسعودي ذلك في عام ٣٣٢ هـ - ٩٤٤ م ، حيث  
يقول إنه قد تُورِع في موضع القبر ، فذهب قوم إلى أنه دفن في مسجد الكوفة <sup>(٣)</sup> ؛  
وقال آخرون إنه دفن في القصر بالكوفة ، وذهب جماعة إلى أنه نُحِل إلى المدينة فدفن  
عند قبر فاطمة ، وقال قوم إنه نُحِل في تابوت على حمل وإن الحمل ناه ووقع في بلاد طي <sup>(٤)</sup> ،  
ثم يُقال إن أبا الهيثم عبد الله بن حمدان ( المتوفى عام ٣١٧ هـ - ٩٢٩ م شهر مكنا بمشهد  
علي ، كان يقال إنه قبر علي بن أبي طالب ، وذلك بأن جعل عليه حصاً مبيعاً ، وانتى  
على القبر قنة عطيمة مربعة الأركان لها باب من كل جانب ، وسترها بقاخر الستور ، وفرشها  
شمين الحصر السامانية <sup>(٥)</sup> ولما مرض الورير أبو محمد بن سهلان واستند عليه المرض بدر ،  
إن عُوى ، ساء سور علي مشهد أمير المؤمنين عليّ ، فعوى ، فأمر بناء سور عليه عام  
٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م <sup>(٦)</sup> وأول من دفن في هذا المشهد من العطاء ، فيما أعلم ، رحل من

(١) المسظم من ١٥٢ ب (٢) من المصدر من ١١٧٨ - ١١٧٩

(٣) أنظر أضا اس حوفل من ١٦٣

(٤) مروح الذهب ج ٤ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ج ٥ ص ٦٨

(٥) اس حوفل من ١٦٣ (٦) اس الأثير ج ٩ ص ١٥٤

أهل البصرة عام ٣٤٢ هـ — ٩٥٣ م<sup>(١)</sup> وأول من دفن فيه من الأمراء عصدُ الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) ، فُحِّل إليه بعد أن كان قد دُفِن بدار الملك سقداد<sup>(٢)</sup> وعصد الدولة هذا هو الذي أمر بإعادة بناء مشهد الحسين بن علي<sup>(٣)</sup> ، بعد أن كان الخليفة المتوكل قد أمر في عام ٢٣٦ هـ — ٨٥٠ م بهدم قبره وهدم ما حوله من المنازل وبأن يُحْرَتَ وَيُنْدَر وَيُسْتَقَى<sup>(٤)</sup> وكان يرغم البعض أن رأس الحسين ، «سيد الشهداء» ، يوحد في رباط صغير قريباً من مدينة مرو ، وذلك في القرن الرابع الهجري<sup>(٥)</sup> ويقول المقريري إن رأس الحسين نُحِّل من عسقلان إلى القاهرة ووصل إليها في عام ٥٤٨ هـ — ١١٥٣ م<sup>(٦)</sup> ويرى ابن تيمية أن هذا باطل باتفاق أهل العلم ، وأن أحداً من أهل العلم لم يقل إن رأس الحسين كان بعسقلان<sup>(٧)</sup> ، وفي عام ٣٩٩ هـ — ١٠٠٩ م توفي أبو العباس الكافي الوريثي ، وكان قد وصى قبل موته أن يُدفن في مشهد الحسين ، فكتب اسمه إلى العلويين أن يديعوه ترنة بمسماة ديار ، فقال الشريف إرداك هذا رحل التحا إلى حوار حدى ، ولا آحد لترنته ثمناً ، وأعطيت للرحل ترنة من غير أن يدفع شيئاً<sup>(٨)</sup> ولم يصل إليها وصف لداحل مشهد الحسين بكر بلاء قبل وصف ابن بطوطة له في القرن الثامن الهجري ، أما قبل ذلك فيذكر أن القصر كان يُعْطَى نقاش تاريخ ، وحوله شموع مُصاةة<sup>(٩)</sup> ثم إن عميد الدولة بن بويه بنى على قبر علي الرضا بطوس حصناً ومسجداً لم يكن يحراسان أحسن منه<sup>(١٠)</sup>

(١) نفس المصدر ج ٨ ص ٣٨ (٢) نفس المصدر ج ٩ ص ١٣

(٣) وكذلك تبنى قبر فاطمة بنت محمد (رسائل الهمداني ص ٤٢٥ ٤٢٦)

(٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٤٧ ، ولان سنام في المتوكل شعر فاله ، لما أمر بهدم المعبر

بالله إن كانت أمية قد أتت فل ان بنت بيها مطلوما

فلقد أناه بنو أييه عمله هذا لعمر ك قبره مهدوما

أسفوا على أن لم يكونوا شاركوا في قتله ، فديعوه ربما

( تاريخ أبي الفداء تحت عام ٣٣٣ هـ )

(٥) المقدسي ص ٤٦ ، ٣٣٣ (٦) الخطط للمري ج ١ ص ٢٧

(٧) نشرة شريتر (Schreiner ZDMG , 53, S 81)

(٨) الإرشاد لباقوت ج ١ ص ٦٨

(٩) ابن الأثير ج ٩ ص ٩٢ ، وابن تقي ردى طبعه كلفورنيا ص ١٢٣

(١٠) المقدسي ص ٣٣٣

## تعليقات (١)

من أراد كلاماً موحراً عن الشيعة فليرجع إلى كتاب Johannes Hauri Islam, p 89 ff ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب حولد تريهر Goldziher, Vorlesungen uber den Islam ، وهذا الكتاب مترجم إلى الإنجليزية بعنوان Muhammed and Islam وإلى الفرنسية بعنوان le Dogme et la loi de l'Islam وإلى العربية عصر حديثاً يقول حولد تريهر في صفحة ٢٢٢ من الترجمة الإنجليزية إن من الحقائق الأولية أن مسألة الخلافة قسمت المسلمين إلى فرقتين أهل السنة ، والشيعة ؛ وكان لأهل البيت فريقٌ يعترف سراً بحقوقهم ، حتى في عهد الخلفاء الثلاثة الأولين ، ولكن هذا الفريق لم يكن يجاهر بالحصام وبعد عصر هؤلاء الخلفاء صار يعارض كل من حكم من غير أبناء علي ، وكانت هذه المعارضة موحية أول الأمر إلى الأمويين ، ثم إلى من بعدهم ممن لم تتوفر فيهم الشروط التي يوحها الشيعة في الإمام ، وهم حين يسيرون وحوه القصد في هؤلاء الحكام يقرّون الحقوق الشرعية لأبناء النبي عليه السلام ممثلة في ذرية علي وفاطمة ، وكما أنهم اتهموا الخلفاء الثلاثة الأولين سراً بأنهم معتصمون ظالمون ، فكذلك عارضوا النظام السياسي في الدولة الإسلامية سراً وجرهاً في كل العصور

وقد أدت طبيعة هذه المعارضة إلى ظهورها في صورة تغلب عليها الصفة الدينية وعلى حين أن الشيعة يرفضون تنصيب الخليفة بالطرق العادية الإنسانية ، فإنهم يقولون إن الرئيس الشرعي الوحيد من الناحية الروحية والرمزية هو الإمام المعصوم الذي يعيّن نبيّاً ، ويكون من أبناء النبي عليه السلام

وفي صفحة ٢٣٠ تكلم حولد تريهر عن الفرق الأمامية بين الخليفة عند أهل السنة والإمام عند الشيعة

أوجب أهل السنة تنصيب خليفة مهمته تنفيذ أحكام الشريعة وفروضها ، وحماية

---

(١) هذه التعليقات الملحقة بالعصول هي ملخص لتعليقات المرحوم العلامة خدامش الهندى على الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب



حدود بلاد الإسلام والدفاع عنها ، والإشراف على تعسئة الحيوش ، وأخذ ما فرص على المسلمين في أموالهم ، وتقسيم عاظم الحرب بينهم بالعدل ، وغير ذلك من المهام ، وبالاحتصار فالخليفة هو ممثل السلطة القضائية والإدارية والحربية ، وهو محرد خليفة لمن تقدمه ، ويختاره المسلمون بالطرق العادية ( بالانتخاب أو تعيين سلعه له ) لسياستهم ، ولا يشترط فيه أن يكون أعلم المسلمين

أما الإمام عند الشيعة فهو رئيس المسلمين ومعلمهم ، بفصل ما وهبه الله من الصفات ، وبحكم وراثته للشي عليه السلام ، وهو يحكم ويعلم متلقيا ذلك عن الله على نحو ما كان موسى يسمع كلام الله من الشجرة ، فكأنه يتلقى عن الله رسالة مستمرة ، وهو يجمع إلى هذه المزية صفات خاصة من طور فوق طور الإنسان ويرغم الشيعة أن وراثته الإمامة تنقلت من آدم ، حتى انتهت إلى عبد المطلب حدّ النبي عليه السلام وحدّ عليّ رضي الله عنه ، ومن عبد المطلب انقسم النور قسمين ، أحدهما انتقل إلى عبد الله والد النبي ، والآخر إلى أخيه عبد المطلب والد علي ، ثم سار النور من علي إلى دريته وهذا النور الذي في روح الإمام يجعله إمام عصره ، ويجعل له قوى روحانية تحاور حدود القدرة الإنسانية ، وروح الإمام أبقى من أرواح سائر الناس ، لأنه مبرأ من نواحي الشر مُتَحَلٍّ بالصفات الإلهية وهذه هي صفات الإمام عند المعتدلين من الشيعة ، أما العلاة منهم فهم يرفعون الإمام إلى الأفق الإلهي

وفي ص ٢٥٤ وما بعدها ينسب حوالد تريهر على أخطاء شائعة فيما يتعلق الشيعة

١ - يذهب البعض إلى أن الفرق بين مذهب أهل السنة ومذهب الشيعة أن الأولين يعترفون بأن السنة أصل من أصول العقائد والأحكام الدينية بعد القرآن ، وأن الشيعة يرفضون السنة يقول حوالد تريهر إن هذا خطأ جوهري في فهم مذهب الشيعة ، ومشوّه اختلاف التسمية بين الفريقين ؛ فليس بين الشيعة من ينكر السنة ، بل هم يقرّون بالسنة التي حَمَلَهَا أَهْلُ الْبَيْتِ ، ويذهبون إلى أن حصوم الشيعة يعتمدون في أحد السنة على الصحابة العاصيين وثمّ أحاديث مشتركة بين الشيعة وأهل السنة لا تختلف إلا في السند ؛ والشيعة يقولون الأحاديث التي رواها أهل السنة ، والتي تؤيد الشيعة أو على الأقل لا تعارض

مذهبهم ؛ ومن أمثلة ذلك أن من الشيعة المتشددّين من يعتمدون على أحاديث البخاري ومسلم ، ويقرّون بها أيام الجمع ، ويستطيع معرفة شأن السنّة عندهم من أن كثيراً من قول عليّ في القرآن والسنّة يؤحد مما رواه الشيعة عن عليّ ؛ فاحترام السنّة من مستلزمات مذهب أهل السنّة والشيعة على السواء ، وبما يدل أيضاً على اعتداد الشيعة بالسنّة السوية أهم كتبوا الكثير في السنّة وما يتعلق بها ، وأهم وضعوا أحاديث كثيرة وأدعواها ، فالشيعة لا يعارضون أهل السنّة بصفاتهم مسكرين للسنّة ، بل بصفة أنهم أولياء أهل البيت أو الخاصة الذين يمتارون على العامة العارفين في محار المعنى والصلال

٢ — ومن الآراء الخاطئة القول بأن منشأ التشيع يرجع إلى مذاهب العرس وتأثيرها في الإسلام ، وهذا ناشئ عن خطأ تاريخي ، وقد روضه قلهاورن في بحث له ( هو Wellhausen, Die Religios-politischen Oppositionsparteien im Alten Islam وذلك أن حركة التشيع نشأت على تربة عربية حاضرة ، ولم تنتشر بين غير الساميين إلا بعد ظهور المختار هدا إلى أن أصول الطرية الإمامية بما تنصصه من البطر إلى الدولة بطرة دينية لادبوية ، ومن القول بالمهدى وبحوه يمكن أن رده إلى الأثر اليهودي والمسيحي ، بل إن مذهب إليه الشيعة العالية من تأليه عليّ كان أول من أتى به عند الله من سناً قبل تأثير المذاهب الآرية ، وكذلك التحسيم عند الشيعة ، يرجع بعضه إلى أصل عربي وقد ذهب إلى قول الشيعة أهل البطر العقلي بين العرب ، وكذلك العرس ، وقد ربح العرس معارضة الشيعة لأهل السنّة وأحدوا مذهب الشيعة ، ثم تأثر هذا المذهب فيما بعد بما هو موروث عند العرس من تأليه الملوك ولكن الأصول الأولى للتشيع لا ترجع إلى أثر أحسى ، بل هي عربية في صميمها

٣ — أن الشيعة هم أصحاب الفكر الحرّ ، خلافاً لأهل السنّة الحامدين ، وهو ما ذهب إليه أخيراً البارون كرادقو وهذا الرأي لا يقبله من له علم بمذهب الشيعة ، فمن المؤكد أن تقديس عليّ هو محور الاعتقادات الدينية عند الشيعة ، وكل ما عدا هذا فهو ثانوي المرتبة ، وأن الشيعة تفصيلهم الإمام المعصوم من غير اعتماد على قوة الرأي العام قد سدوا ما راء في مذهب أهل السنّة من عناصر التفكير الحر وعلى هذا فإن حصوع الشيعة لمذهب يتلقونه عن سلطة معصومة لا تقبل معارضة هو ما تتميز به الحياة الدينية عندهم

أما علاقة الشيعة بالمعتزلة فيقول حول تزيهر إن الصلة بينهم أمر لا سبيل إلى الشك فيه ، لما ذهب إليه أحد علماء الشيعة من أن القول بالإمام العائب حرء من قول أصحاب التوحيد والعدل ، وهم المعتزلة ومن الشيعة فرعُ الريدية ، وهم أكثر من غيرهم ميلاً إلى مذهب المعتزلة

وقد أثر مذهبُ المعتزلة في التشيع إلى عصرنا ، ومن الخطأ قولُ من قال إن مذهب المعتزلة لم يلعب دوراً كبيراً في الدين والأدب بعد انتصار الأتباعية ، وما ثبت بطلان هذا الرأي ما انتهى إليها من كتب كثيرة للشيعة يتحلى فيها تأثير المعتزلة ، فمن ذلك أن الشيعة يقسمون كتبهم إلى باب العدل والتوحيد ، بل يحد من كبار المعتزلة كالطائفة من قرّر من قبل أن الحجة في قول الإمام المعصوم ، وقول الشيعة بضرورة وجود إمام معصوم له اتصال بما احتص به المعتزلة من القول بوحوب هداية أساسها الحكمة والعدل الإلهيان ، فلا بد عند بعض المعتزلة من أن يحمل الله لكل عصر إماماً معصوماً

وقد نقل حول تزيهر في آخر الفصل الخاص بالرهة والتصوف من كتابه المتقدم ما ذكره العرالي في فيصل التفرقة من أن أساس الإيمان الاعتقاد بالأصول ، أما الخلاف في فروع العقائد والعبادات ، ولو كان فيه إنكار الخلافة التي يقول بها أهل السنة ، كما فعل الشيعة ، فلا يكفي لاعتبار صاحبه رديقاً وقد أوصى العرالي بإمسك اللسان عن تمرير أعراض أهل القلة



# الفصل السادس

## الإدارة

كانت دولة الخلفاء أشنةً باتحاد يتألف من ولايات كثيرة ، ومختلف وفاقة وتماسكا . ولم تكن علاقة السلطان المركزية بهذه الولايات تشرف عليها دواوين إقليمية ، وإنما كان لكل ولاية ديوان سعداد يدير شؤونها وكان كل من هذه الدواوين يتألف من قسمين : أولهما الأصل ، وهو يختص بوضع الضرائب وحملها إلى بيت المال<sup>(١)</sup> ، ومراقبة الضرائب وتقوية مواردها ، أى أن هذا القسم يختص بالإدارة ، وثانيهما الرمام<sup>(٢)</sup> أو ديوان المال ولما جاء الخليفة المعتصم ( ٢٧٩ - ٣٢٨٩ = ٨٩٢ - ٩٠٢ م ) ، وهو أقدر حكام القرن الثالث<sup>(٣)</sup> ، صم دواوين الولايات كلها ، وألف منها ديواناً سماه ديوان الدار<sup>(٤)</sup> ، له ثلاثة فروع : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السواد ( أى العراق ) وكذلك وضع هذا الخليفة أرمّة هذه الدواوين كلها فى يد رئيس واحد<sup>(٥)</sup> ، ثم جعل الأصول كلها فى يد رئيس واحد فى سنة ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م<sup>(٦)</sup> ، بحيث جاء القرن الرابع الهجرى ، وإدارة الدولة تنقسم إلى ما يشبه ورايتين إحداهما للداخلية ، وهى ديوان الأصول ، والأخرى للمالية وهى ديوان الأرمّة وكان كل ديوان كبير يتقسم أقساماً كثيرة تسمى دواوين أيضاً ، لأنه كان لكل ناحية ديوانها ولكن لما كان الوزير ، وهو رئيس السلطة المركزية ، هو الذى

---

(١) كتاب الخراج لعماد الدين جعفر ( الموفى عام ٣٣٧ هـ - ٩٤٨ م ) ، مخطوط رقم ٥٩٠٧ بمكتبة باريس ص ٩ ب - ١١ وكله أصل التى وردت فى كتاب الوزراء ( ص ١١ ) لها هذا المعنى

(٢) انظر فى هذا Amedroz, JRAS, 1913, S 829 ff ، وأيضاً مسكويه ج ٦ ص ٣٣٨ ، وكان يُعَيَّن على الرمام عادة رجلٌ من أصحاب المال وكذلك كانت الدواوين الصغيرة التى سولى إدارة صناع سواء الخلفاء تنقسم إلى الفرعين المتقدمين ، وكان يعلّق كل واحد منهما رئيسٌ

(٣) جاء فى كتاب الوزراء للصائى ( ص ١٨٩ ) أنه لم يجمع فى زمن من الأزمنة خليفةٌ ووزيرٌ وصاحبُ ديوان وأمرٌ حسن . لى المعتصم وأبى القاسم عبد الله بن سلمان وأبى العباس بن الفرات ويدر

(٤) كتاب الوزراء ص ١٣١ ، ويسمى أيضاً ديوان الدار الكبير ، نفس المصدر ص ٢٦٢

(٥) كتاب الوزراء ص ٧٧ . (٦) نفس المصدر ص ٢٧١ ، ١٢٤ .

يتولى إدارة ديوان السواد نفسه ، فإن كثيراً من دواوين الولايات سعداد كانت تقوم مقام دواوين للدولة ولم تصل الإدارة في الدولة الإسلامية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة ، وأستطيع أن أذكر منها

(١) ديوان الحيش ، وله مجلسان أحدهما مجلس التقرير ، والثاني مجلس المقابلة ويحرق في الأول أمر استحقاقات الرجال ، ومعرفة أوقات أعطياتهم ، وتقدير أرباحهم ، فأما الثاني فيحتص بالطر في السجلات ، وتصحيح الأسماء ، ومحو ذلك وينقسم كل من المجلسين إلى أقسام خاصة بالمساكر ، مثل العسكر المنسوب إلى الخاصة ، والعسكر المنسوب إلى الخدمة ، وما في النواحي من الدعوت<sup>(١)</sup>

(٢) ديوان النفقات في سداد ، وأكر مهماته حاجات دار الخلافة وكان أكثر أرض العراق مصباً ، فكان على المتصممين أن يقوموا بالوفاء بالنفقات وهذا الديوان ينقسم إلى المجالس الآتية

- (١) مجلس الحار ، ويحتص بأمر استحقاقات الخشم
- (ب) مجلس الأثرال ، وهو الذي يقوم بمحاسبة التجار الذين يقيمون الوطائف من الحر واللحم والحيوان ، والخلوى والهاككة ، وغير ذلك من سائر صروف الإقامات والأثرال
- (ج) مجلس الكراع ، ويحرق فيه أمر علوة الكراع وغيره ، مثل الخيل والشهاري والبرادين والعمال والحميز والإبل وغيره مما يعتلف من الطير والوحش ، ويحرق فيه أمر سياسة الكراع وعلاجه ، وأوراق القوام والرتاسة ومحو ذلك
- (د) مجلس النساء والمرمة ، وهو مجلس يكثر ويصغر على حسب الخلفاء في الإعراف في النساء أو الأكتفاء بيسيره ، ويحرق فيه محاسبة الدراع والمهندسين وبيعة الحص والآحر والنورة والأسفداح وأصحاب الساح والسحارين والمروقين والمدهنيين وسائر الصانع
- (هـ) مجلس الحوادث ، ويحرق فيه أمر النفقات الحادثة (أي غير العادية) في كل وجه من وجوهها

(و) مجلس الإنشاء والتحرير

---

(١) كتاب الخراج لقدمه بن جعفر مخطوط باريس رقم ٧ ٥٩ س ١٢ — ب

## ( ر ) مجلس السج (١)

(٣) ديوان بيت المال ، وهو في سداد يشرف على ما يرد على بيت المال من الأموال وما يخرج من ذلك من وحوه المقات والإطلاقات ويحب أن نمر به الكتب التي فيها تحمل مال ، قبل انتهائها إلى دواوينها ، أنتشت فيه ، وكذلك سائر الكتب الباقية إلى صاحب بيت المال من جميع الدواوين بالمطالبة بالأموال ويكون لصاحب هذا الديوان علامة على الكتب والصكاك والإطلاقات ، يتفقدها الورر وحلفاؤه وبراءعوسها ويطالون بها (٢) وفي عام ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م صدر أمر بمطالبة صاحب بيت المال سداد بتقدم الورر بمحلات في كل أسبوع للورر ، ليستطيع معرفة ما حل وما قيص وما بقي ؛ وكان الرسم إذا عملت الحتمة لم ترفع إلى الديوان عن الشهر الأول إلا في النصف من الثاني (٣)

(٤) ديوان المصادرين (٤) ، وكانت الوثائق التي يدفع بمقتضاها في هذا الديوان كتب على سحتين ، إحداها للديوان والأخرى للورر (٥)

(٥) ديوان الرسائل ، وكان يسمى في مصر على عهد الفاطميين ديوان الإنشاء (٦) ، وكان صاحب هذا الديوان بمصر في أوائل القرن الخامس الهجري يتقاضى في كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، عدا ما كان يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات ، فقد كان له على ذلك رسوم يستوفيها (٧)

(٦) ديوان البريد ، وبأني لصاحبه الكتب من جميع السواحي ، وهو المنفد لها إلى مواضعها ، وهو يتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار في جميع السواحي على الخليفة ، أو يعمل حوامع لها ، وله النظر في أمر المرتبين في السكك ، وسجير أوراقهم ، وتقليد أصحاب الخرائط في سائر الأمصار ، ولا عى له ، بعد أن يكون ثقة عند الخليفة ، عن معرفة الطرق

(١) فدامة نفس المصدر ص ١٨ — ٩ ب

(٢) نفس المصدر ص ٩ ب — ١١

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٢٥٦ — ٢٥٧

(٤) كتاب الورراء ص ٣ ، ٦ ، ٣ (٥) مسكويه ج ٥ ص ٢٦١

(٦) كانت لفظة الإنشاء في السرى من الألفاظ المستعملة في ديوان الرسائل ، وهو عمل نسخة عملها الكاتب ، فعرض على صاحب الديوان ليرد فيها أو يمس منها أو ينفذها على حالها ( انظر مداسح العلم للحوارمي طعة فان فلوٲ ص ٧٨ ، وكتاب الورراء ص ١٥١ )

(٧) الإرشاد لياقوب ج ١ ص ٢٤٢



والمسالك إلى جميع النواحي ، بحيث يجد عنده الخليفة من المعرفة ما يحتاج إليه عند إعاد جيش أو غيره<sup>(١)</sup> وكانت معرفة الأحبار وإبلاغها قد بلغت درجة عظيمة من الرقي في الدولة الإسلامية ، فقد حُكي أن الخليفة الموفق أراد أن يشعل قلب أحمد بن طولون ، فدرس من سرق ثقله من بيت خطبة له لا يدخله إلا ثقافته ، ثم بعثها إليه ، فقال له الرسول . من قدر على أحد هذه العمل من الموضع الذي تعرفه ، أليس هو نقادر على أحد روحك؟<sup>(٢)</sup> ، وكان صاحب البريد هو صاحب الأحبار الرسمي ، وكان له « عيون » يوافوه بكل حديد ، وهذا ميراث أحده العرب عن البيزنطيين ، ففي عهد قسطنطين الأكبر كان لصاحب البريد أعوانٌ يسمّون باسم Veredarin ( وهم نقلة الأحبار الذين يركبون الخيل ) ، وكانوا يمدّونه بالأحبار<sup>(٣)</sup> وكان بعض المتعلمين في ذلك الوقت يعيشون من نقل الأحبار ، كما هو الحال اليوم بالنسبة لمراسلي الصحف ومدوبيها<sup>(٤)</sup> وجاء في عهد بولاية بريد مايوحت على صاحب البريد « أن يعرف حال عمال الخراج والصياغ فيما يحرق عليه أمرهم ، ويتتبع ذلك تشعّماً شافياً ، ويستشفه استشفافاً طليعاً ، ويهيئه على حقه وصدقه وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاحتلال ، وما يحرق في أمور الرعية ، فيما يُعاملون به ، من الإصاف والخور والرق ، والعسف ، فيكتب به متروحا وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مداهم وطرائقهم وأن يعرف حال دار الصرب وما يُصرب فيها من العين والورق ، وما يلزمه الموردون من الكلف والمؤن ، ويكتب بذلك على حقه وصدقه وأن يوكل بمجلس عرص الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يحرق فيه ،

(١) كتاب الخراج لعدامة طبعه دي عوى ص ١٨٤ — ١٨٥ ، وقد كتب فدامة حوالى عام

٣١٥ هـ — ٩٢٧ م (٢) الخطط للمفيري ح ٢ ص ١٨

(٣) J Burckhardt Die Zeit Constantins des Grossen, 3 Auf S 70 وكان أحد

أصحاب البريد بمصر في القرن الأول من الحكم الإسلامي هوم رسمياً مبيع أحوال رجال الشرطة ( أنظر ( ZA XX, S 196

(٤) في القرن الثالث الهجرى قطع لسان ابن سام الساعر بأن وثّقت البريد محمد فسرير ( مروح

الذهب ح ٨ ص ٢٧١ ، والإرساد لنابو ح ٥ ص ٣٢٢ وما نلتها ، وكذلك كوفي أحد السعراء المحدثين بأن حُسر في أعمال البريد بلاد حراسان ( نبيمة الدهر ح ٤ ص ٦٢ ) ، وكان أبو محمد الوائى سحارى يرحو أن نقل أحد أعمال البريد ( يتيمه ح ٤ ص ١١٢ ) ، وكان صاحب بريد نسا بور يملك من الكسب ما لا يملكه أحد في هذه المدسة مع كثرة علمائها وبعدها من حلدون العربى أن صاحب البريد من أرباب صاعه السف ( المقدمة ح ١ ص ١٩٨ )

ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته ، وأن يكون ما يهبه من الأحبار شيئاً يثق بصحته .  
وأن يعرض المرتبئين لحمل الخرائط في عمله ، ويكتب بمددهم وأسمائهم ومبالغ أرقامهم ، وعدد  
السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها ، ويوعز إلى هؤلاء المرتبئين بتحصيل الخرائط المُنمّدة  
على أيديهم ، وإلى الموقعين بإتبات المواقيت وسطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات  
التي سيبلغه أن يرد السكّة فيها ، وأن يُفرد لكل ما يكتب فيه من أوصاف الأحبار كُتُباً  
بأعيانها ، فيفرد لأحبار القصاة وعمال المعاوين (١) والأحداث والخراج والصباغ وأوراق  
الأولياء وبحو ذلك كُتُباً ، ليحرق كل كتاب في موضعه » (١) ولم يكن صاحب البريد يُعنى  
فقط بالأحبار التي تتعلق بمهام سياسة الدولة ، بل كان عليه أن يبلغ كل ما عدا ذلك من  
طرائف الأحبار فقد حدث في عام ٨٣٠٠ هـ — ٩١٢ م أن ورد كتاب من صاحب البريد  
من بلدة الديور يدكر فيه أن الموكل بحمل التطواف رفع إليه يدكر أن بعة لرحل وصعت  
فلوة ويصف اجتماع الناس لذلك ومعهم لما عاسوا منه ، ويقول « فوجهت من أحصر  
لى البعة والفلوة ، فوحدت البعة كُتُباً حلوقية ، والفلوة سوّية الحلق ، تامّة الأعصاء ،  
مُنسّدة الدب ، سمحان الملك القدوس ، لا معقّب لحكمه ، وهو سريع الحساب » (٢)

(٧) ديوان التوقيع ، وإليه ينتهى رفاع من يسأل شيئاً عند الخليفة ، بعد أن تراها  
صاحب ديوان الدار ، ويقتصّ المسألة والرقعة ، ويشرح حالها ، وما عمله يكون حرق فيها ،  
وبعد أن يستطلع صاحب ديوان التوقيع رأى الخليفة فيها ، ويوقع عليها بخطه في ديوان التوقيع  
يرسل إلى صاحب ديوان الدار نسختها أو اقتصاص ما نصّمت ، ومن ديوان الدار يرسل  
إلى صاحب الديوان الذى تحرق فيه المسألة ( كالخراج أو الصباغ أو المال أو النفقات  
الح ) (٣) وكان الفصل في أمر الرقعة يكتب على الرقعة نفسها توقيعاً من الخليفة أو كاتبه  
وقد بلغت هذه التوقيعات أقصى ما يمكن أن يبلغه من الاحتصار ، والبلاغة ، واطهار دكا ،  
موقعها وقدرته على حسن الفصل وإصابة العرض وكان اللعاء يتنافسون في تحصيل توقيعات

(١) كتاب الخراج لعمادى بن جعفر مخطوط باريس ص ١٨ ب - ١٩ ب و رجع تاريخ هـ

العهد إلى عام ٣١٥ هـ

(٢) عرب ص ٣٩ — ٤ (٣) كتاب الخراج لعمادى ص ١٩ ب - ١٢

حضر من يحيى الدرمكي ، الذي كان يلى ديوان التوقيع للرشيد ، ليقعوا معها على أماليب الملاعة وفومها ، حتى قيل إنها كانت تناع كل توقيع بديار<sup>(١)</sup>

(٨) ديوان الخاتم ، وبه تمرُّ وتُنْتَسَبُ فيه الكتبُ التي يُحتاج إلى حتمها بخاتم أمير المؤمنين ، وذلك بعد أن يمرَّ الكتاب على دواوين عدة وبعد المقالة<sup>(٢)</sup>

(٩) ديوان العصف ، ومرة هذا الديوان من الخليفة مرة مجلس الاسكدار في ديوان الخراج من المتولَّى له ، لأن سبيل الكتب التي ترد من العمال في الواحي إلى أمير المؤمنين أن يكون ابتداءً منها وحروحها إلى الدواوين منه ، بعد قصّها وأحد حوامعها ليقراها الخليفة ويوقع فيها بما يراه . وكان هذا الرسم حارياً في أول الأمر ، لما كان الخلفاء هم الذين يتولَّون الطرق في الكتب بأنفسهم ، ثم آل ذلك إلى الورير ، فصار هو المتولَّى لعصف الكتب وإحراجها إلى الدواوين ، وانتقل عمل ديوان العصف إلى حصرة الورير ، وصار المتولَّى له كاتباً رسمه في دار الورير<sup>(٣)</sup>

وفي حوالي عام ٣٠ هـ — ٩١٢ م قُلِّدَ ديوان العصف وديوان الخاتم لرحل واحد ، وكان حارياً بهما أرمائة ديار وديار<sup>(٤)</sup>

(١٠) ديوان الجَهْمَدَة ، ويحرق فيه من الأموال مالُ الكسور والكفاية والوقاية ، وما يحرق يحرق ذلك من أنواع أصول الأموال ، ثم ما يريد شرارُ الجهادة من الفصول على هذه التواع سبب إعانات من عليه مالٌ من أهل الخراج ومن يحرق محرام في النقود والصروف ، وما يرتفعون به من التقديم والتأخير عن يتعدّر عليه الأداء في وقت المطالبة فإن عصم لما وجد ذلك في بعض الواحي راد في صمان الجهمدة تلك الناحية على من هو صامس لها ، ووقع التزايد في هذه الوحوه بالظلم والعدوان على الرعية وسائر من يُقام لهم الحار ، ويُطلق لهم النفقة ، حتى توافي مال الجهمدة إلى حملة وافرة أصلُ أكثرها عدوان<sup>(٥)</sup>

(١١) ديوان الرِّثِّ والصدقات<sup>(٦)</sup>

(١) كتاب العرج ١ ص ٦ ٢ من طعة بولاق (٢) قدامة ص ٢ ب

(٣) نفس المصدر ص ٢١ ب — ١٢٢ (٤) كتاب الوراء ص ١٧٨

(٥) قدامة ص ١٢٣ ب (٦) مسكويه ج ٥ ص ٢٥٧



وكان أصحاب الدواوين في أوائل القرن الرابع الهجري على ثلاث طبقات<sup>(١)</sup> وكان صاحب ديوان السواد يقص أعلى مرتبة بين أصحاب الدواوين ، وهو خمسمائة دينار في كل شهر وكان صاحب ديوان المشرق أو ديوان الخاصة مثلاً يقص مائة دينار في كل شهر<sup>(٢)</sup> وفي عهد الخليفة المعتصد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢ م) بلغت أوراق أصحاب الدواوين كلها من أكار الكتاب إلى الحرّان والسوّابين والأعوان ، وثمن الصحف والقراطيس والكاعد أربعة آلاف وسعمائة دينار في الشهر ، وذلك عندما كان يقصه الورراء ، وعدا أوراق كتاب دواوين الإعطاء وحلفائهم على مجلس التفرقة وأصحابهم وأعواسهم وحرّان بيت المال ، فإن هؤلاء يأخذون أوراقهم مما يقرّونه من أموال الساقطين وعُرم المحلّين بدوائهم<sup>(٣)</sup> فكانت المرتبات التي يتقاضاها هؤلاء تتوقف على مقدار يقطّعون وعمايتهم على أن الأوراق كانت تطلق في الأسبوع الأول من الشهر<sup>(٤)</sup> ؛ وفي أوائل القرن الرابع طهر رسم حديد ، ثم صار رسماً كثيراً ما لحا إليه الحكام ، وهو ألا يُعطى أصحاب الأوراق أعطياتهم عن السنة كاملة ، في عام ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م اقتصر في أوراق معظم العمال على عشرة أشهر في كل سنة ، وكان صغار أصحاب الأوراق أكثرهم عريضة للعن ، فمثلاً اقتصر في أوراق أصحاب التُّرد والمُتقيين على حارّ ثمانية أشهر<sup>(٥)</sup> وكان يُستعاض عما يعقده بعض أصحاب الدواوين بتقليده دواوين أخرى ، فمثلاً في حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م كان تتولى ديوان الأرمّة والتوقيع وبيت المال رجل واحد<sup>(٦)</sup>

وكان على رأس كل ولاية رحلان الأمير (وهو قائد الجيش) ، والعامل ، ويسمى هذا الأخير صاحب الخراج ، لأن أكثر واحساته حملُ خراج الولاية إلى حراة الدولة ، وهو الذى يتولى الإيفاق على الولاية بما يحصل لديه من الأموال ، لأن حراة الدولة العامة كانت لا تتولى إلا أمر مفاات دار الخلافة والدواوين وما يتعلق سعداد<sup>(٧)</sup> وكان الأمير يحاطب

(١) كتاب الورراء ص ١٥٦

(٢) نفس المصدر ص ٣١٤ (٣) كتاب الورراء ص ٢ — ٢١

(٤) نفس المصدر ص ٨١ (٥) نفس المصدر ص ٣١٤ ، ومسكوكه ج ٥ ص ٢٥٧

(٦) كتاب الورراء ص ٧٧

(٧) نفس المصدر ص ١١ والصفحات التالية

في المراسلة مما يحاط به العامل ، وكانت مشورات الوزير ترسل لكل مهما في وقت واحد<sup>(١)</sup> ولكن الأمير كان يمتار على صاحبه لأن له الصلاة بالناس ، وهذا يجعله رئيس المسلمين جميعاً في ولايته<sup>(٢)</sup> ، وإذا تصاهر الأمير والعامل استطاعا أن يعملا بالولاية ماشاءا ، كما حدث في عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م من أن العامل والأمير تصاهرا بفارس وكرمان على قطع تحل الأموال إلى الخليفة المقتدر سعداد مدة طويلة<sup>(٣)</sup> ولو أن رجلا واحداً قلّد المصين معاً لأصبح كالحاكم المستقل بولايته وطراً لما في اجتماع هذين المصين من المزية امتنع بحكم ، القائد التركي الطموح ، من السير إلى الأهوار لتولى أمورها عام ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م إلا أن يكون له الحرب والخراج ، فأُحيب إلى ذلك<sup>(٤)</sup> وقد كانت ولاية مصر على قسبين وال للحرب والصلاة ، وآخر للخراج وتدير الأموال ، حتى جاء ابن طولون فجمع بين الولايتين ، وكذلك فعل الأحشيد ، وكان كل مهما في الواقع حاكماً مستقلاً في مصر<sup>(٥)</sup>

ويشكو ديونيسيوس Dronysius von Tellmachre المتوفى عام ٢٢٩ هـ — ٨٤٣ م في آخر كتابه في التاريخ ، من كثرة عدد العمال ، لأهم هذه الكثرة يعتصون عيش الفقير بكل الوسائل<sup>(٦)</sup> ، في مدينة الرقة مثلاً ، وهي مدينة صغيرة على نهر الفرات كان يوحد (١) قاص ، (٢) وكاتب سلعة يعرف بالسدار ، يطالب بالخراج ووجوه المال ، (٣) وصاحب حد ، (٤) وصاحب يريد ينهي أحمار الولاية للخليفة ، (٥) ومتول للصياغ السلطانية (السواقي) ، (٦) وصاحب معونة<sup>(٧)</sup> وكان يوحد مثل هؤلاء الولاة في كل « عمل » من أعمال الدولة السامانية<sup>(٨)</sup> وكان أكثر هذا العدد الكبير من العمال يجرحون بجروح الوزير الذي عيّنهم ، وعند ذلك يطولون منعطين في شوارع سعداد ، يشيرون الفس حتى يعود حرهم إلى ولاية الحكم — كما كان الحال في أسبانيا وفي الولايات المتحدة منذ عهد غير بعيد —

(١) نفس المصدر ص ١٥٦

(٢) المغرب لاس سعد ص ١٥ (٣) ابن الأثير ح ٨ ص ١٦٥ — ١٦٦

(٤) نفس المصدر ص ٢٥٢ (٥) المغرب ص ١٥ (٦) Michael Syrus, S 538

(٧) نفس المصدر ص ٥٤١ ، وكلام ميخائيل غير واضح لأن منصب صاحب المعونة كان هم عادة

إلى صاحب الحد والحرب ، ويحد عند فدامة (مخطوط مارس ص ١٤ ب — ١١٦) نسخة عهد بولاية المعونة والحرب (٨) ابن حوقل ص ٧ ، ٣ ، ٩ ، ٣ وكذلك كانت العراق مقسمة إلى أربعة وعشرين

طسوحا وكل طسوح اما عشر رسافا ، والرساق امدا عشرة فره (كتاب الوزراء ص ٢٥٨)

وإلا شتموا فعكروا هذوء البلاد ويحكى أنه قدم مرة على صاحب أصعها شيخ من الكتاب يطلب التصرف ، ويحمل كتبنا من إخوان لصاحب أصعها سعداد يوصونه به ؛ فقرأ الحاكم أول كتاب ، ولم يقرأ باقي الكتب ، وصحر ، وبعيط ، وقال « قد والله علمنا لكم معاشر المتعطلين اكل يوم يصير إلينا منكم واحد يريد نصرفاً أو تراً ، ولو كانت حراث الأرض لى لكات قد عدت »<sup>(١)</sup>

وكان من دهاء عصد الدولة أنه كان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ، ويحاسبهم به إذا عملوا<sup>(٢)</sup>

وكان الأحشيد أول من رب الرواب<sup>(٣)</sup> ، وقد أقرّ العاطميون نظامه في حملته ، وكانوا يهونون ، فيما يلوح ، أن يقسموا حكم البلاد بين أوليائهم ، والدليل على ذلك أن حوضاً وإن كان قد ترك العمال في ماضيهم ، فإنه لم يدع عملاً إلا جعل فيه معرباً شريكاً من فيه<sup>(٤)</sup> ولكن لما طهر أن هؤلاء المعاربة أكثر إتماماً للدولة من غيرهم لم يتم ما كان مرماً من إحراج العمال القدماء ، وهم نصارى في الغالب أما الأتراك فليدنا من أحبار الإدارة العاطمية أن الوريث كان يتقاضى خمسة آلاف دينار في كل شهر ، وهو مثل مرتب صاحبه سعداد ، أما روايت أصحاب الدواوين فكانت أقل بكثير مما في سعداد ، فكان صاحب ديوان الإيلاء يأخذ مائة وعشرين ديناراً ، وصاحب بيت المال مائة دينار ، وأصحاب الدواوين الأخرى ما بين سبعين وتلاتين ديناراً في كل شهر وفي القرن الثالث الهجري عين أحد أصحاب ديوان الرسائل رجلاً أتاه يطلب الكتابة ، وكان يعطيه في كل شهر أربعين ديناراً ليقوم بالإحابة على الرسائل التي ترد إلى الديوان<sup>(٥)</sup>

وعلى حين أن لا يجد بين قواد الحش إلا أسماء قوم من الموالى فإن وطائف الدواوين كانت وفقاً على الأحرار ، « وكان الفرس هم شخنة دواوين الخلافة منهم الترامكة ،

(١) الفرج بعد الشدة للسوحي طبعه مصر ٤ ١٩ ح ٢ ص ٩ — ١

(٢) ابن الأثير ح ٩ ص ١٦

(٣) العرب لابن سعد ص ٣٩ ، والخطط للمعري ح ١ ص ٩٩

(٤) الإيعاط للمعري ص ٧٨ (٥) الإرساد للنفوس ح ٢ ص ٢٣٨



وآل دى الرياستين ، وإلى يومنا هذا مهم المادرائيون والعرياييون»<sup>(١)</sup> ولما كانت الصعة لعالة على عمال الدواوين هى الصعة الاقتصادية المالية ، فقد كان لابد للواحد منهم من أن تتوفر لديه بعضُ حصال التاجر ، وكان الفارسى أمهر تاجر فى المملكة الإسلامية . لا تزال الكفاية الإدارية موروثةً فى الفرس إلى يومنا هذا ، فيحدثنا الخير المساوى الذى نام تنظيم البريد فى فارس « أن كل فارسى يحس من نفسه الصلاحية لكل عمل ، وهو لا يتردد فى أن يدخل اليوم عملاً إدارياً مدنياً ، ويقوم به ، ثم يكون عدداً فى منصب حرمى»<sup>(٢)</sup> وهذه من حصال الفرس القديمة ، ويحكى أنه كان لمختيار من مع الدولة كاتب فارسى ، وكان مستولياً عليه ، ثم تحقق بالحدية ، وادعى الشجاعة ، وأطاره الناس من لك ما لم يكن عنده ، تَقَرُّباً إليه ، ثم عزم أخيراً على تقلد الخيش والتسمية بالاسفهلار ، ياكبه اضطر إلى الفرار من بغداد عام ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م<sup>(٣)</sup> وكان الاشتغال فى الدواوين يختلف عن عمل الفقهاء والعلماء كل الاختلاف ، وكان المستغل بإدارة الدواوين هو ممثل لتقافة الأدبية ، وكان لا يعالج العلوم الشرعية إلا بمقدار ما يتطلبه عمله وتقافته أما التمار لطاهرى بينهم فكان يتحلى فى أن الكاتب يلبس دراعة ، على حين أن العالم يلبس لطيلسان<sup>(٤)</sup> ويحكى أن الوزير العتى أراد أن يلزم أبا عبد الله بن أبى دهل ( المتوفى عام ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م ) تقلد ديوان الرسائل ، فقال له هذا قضاء القضاة نكور حراسان ، ولا يخرج عن حد العلم ، ولكن ابن أبى دهل نكى وهدد بترك البلد ، حتى أعفاه الوزير من ذلك<sup>(٥)</sup> على أن الخلفاء كانوا يأتون أن يستورروا العلماء وأصحاب الطيالس ، وقد أشير على الخليفة المقتدر أن يستور محمد بن يوسف القاضى فقال لعمرى إنه عالم ثقة ، إلا أبى لو فعلت ذلك ، لاقتصحت عند ملوك الإسلام والكفر ، لأبى أكون بين أمرين إما أن

(١) الإصطخرى ص ١٤٦ ، وذكر بعض المؤلفين أن الكتاب خمسة كتاب رسائل ، وكتاب جراح ، وكتاب قضاء ، وكتاب حد ، وكتاب سرطه ، ولكل منهم أشياء نسعى أن نعرفها أطر المحاسن والمساوى للبيهى ص ٤٤٨ ، وتجد الفصل فى جمهرة الإسلام للشرارى مخطوط رقم ٢٨٧ بمكة لندن ص ١٩٩ وما يليها

(٢) Aus Persien, 1882, S 184 ، ولم يذكر اسم مؤلف هذا الكتاب ، المرجح [

(٣) مسكويه ح ٦ ص ٣٢٦ — ٣٢٩

(٤) الإرساد لنافوب ح ١ ص ٢٣٤ ، والمعدسى ص ٤٤

(٥) طبقات السكى ح ٢ ص ١٦٦

تُتَصَوَّر مملكتي نأها حالية من كاتب يصلح للوزارة ، فيَضُرُّ الأمر في هوسهم ، أو أنى عدلت عن الوزراء إلى أصحاب الطيالس ، فأُتِيب إلى سوء الاختيار<sup>(١)</sup> وهذه الطائفة من الكتاب أكبر ما يدير الدولة الإسلامية عن أوروبا في أوائل العصور الوسطى ، حيث كان لا يتولى العمل بالدواوين إلا أهل الثقافة الدينية ، ولم تكن ذلك من الخير للإسلام ، لأن العمل في الدواوين مما ينقصه من تعمق وما يؤدي إليه من ركود عقلي كان يندر أن يشيء عقولا تأخذ بحط في الحركة العقلية ، وكان العمل في الدواوين ملجأ ملائماً للأدباء الذين لم يشأوا في الأوساط الدينية ، وهم المتعلمون الذين صاروا يعملهم في الدواوين محرودين من البواعث الداخلية والخارجية التي تدفع العقل إلى العمل ؛ ولا يزال « الأهدى » الراصي عن نفسه ، ثقافته السطحية وقلة دوافعه إلى التفكير ، عقبة في طريق التقدم حتى يومنا هذا ، وهو أخطر على التقدم من رجل الدين الصيِّق الأفق والمحدود النظر<sup>(٢)</sup>

وقد جاء في حديث يروى عن عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ما يصح القواعد الأساسية لما يسعى أن يكون عليه العامل فيحكى عن عمر أنه كان إذا استعمل رجلا اشترط عليه أن يرك ردوبا ، ولا يلبس ثوبا رقيقا ، ولا يأكل نقيّا<sup>(٣)</sup> ، ولا يعلق ناله دون حوائج الناس ولا يتحد حاحا<sup>(٤)</sup> . ولكن المال لعب في القرن الثالث الهجرى دوراً سيئاً في حياة عمال الدواوين ، وكان لكل شيء ثم يبدل وخصوصا لمناصب الدواوين<sup>(٥)</sup> وكان العامل متى تقلد المنصب حاول أن يسترد ما حسره مستعيباً على ذلك بالحياة ، فكان العمال مثلاً يعيئون أوراقا لقوم لا يحرصون إلى العمل ، وأوراقا بأسماء قوم لم تخلقوا ، وكانوا يقيدون رسم الفقهاء والكتّاب مرتبات بأسماء العلماء والوكلاء في الحاشية ، وكانوا يصرفون الورق والقراطيس ، ثم يبيعونه فيحصل لهم منه ما<sup>(٥)</sup>

وكان عامل مصر يقبض ثلاثة آلاف دينار في كل شهر ، وهو مبلغ كبير ، ولكن كان

(١) كتاب الوزراء ص ٣٢٢

(٢) ربما قصد المؤلف أن أهل الدين يحكم ما كانوا عليه من محب ومحب وحبدال ، أفدر على التفكير وبالتالي على الثورة والإصلاح الإداري ، وكان هذا الإصلاح ألزم ما يكون للإدارة الإسلامية (المرجح)

(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٦٦

(٤) كتاب الوزراء ص ٢٦٣

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٣٤٤

على العامل أن يسدد نفقات ديوانه ، وكان يعلم أن ورقه لا يكفي نظراً لكثرة الهدايا التي يبعث بها إلى الأمير والوزير والخليفة وقد شكت إحدى حظايا الخليفة مرة من مماطلة بعض أصحاب الدواوين في تسليم إقطاع وهم لها الخليفة ، فقال لها كان الصواب أن تسعى إليه بثياب وألطف ، فتسعى عن حظائي ، ففعلت ما نصحبها به ، وتم لها ما أرادت<sup>(١)</sup> ويصف ابن المعتز الولاة في بعض شعره ، حيث يقول

أما ترى بلداً أقت به أعلى مساكن أهله حص  
وولائه كبط رباقة ملأى البطون ، وأهله حص<sup>(٢)</sup>

وكان أهل التقى في ذلك الوقت يعتبرون عمال السلطان والفاسق فريقاً واحداً ، كما جمع العهد الحديد بين المدسين وآحدى الصرائب الحركية ويحكى أنه بلع من دين بعض أهل الورع أنه امتنع من نقش فص للأمير ، فراد في الأجرة حتى بلغت مائة دينار ، فأبى الرجل ، ثم جاء إليه بعد ذلك تاجر فأعطاه على نقش بعض الفصوص عشرة دراهم ، فأحدها ، وذلك احتشاداً منه في ألا يأخذ الحرام<sup>(٣)</sup> وقد كان يصرب المثل زهد حمير من مدشر ، وقد أصرت به الحاجة ، حتى كان يقل القليل من ركاة إحواله وقد أعجب أحد التجار بحس كلامه مرة ، وعرف مسكته ، فأرسل إليه خمسمائة دينار ، فردّها فقل له قد عذرك في ردّ مال السلطان للشبهة ، وهذا تاجر ماله من كسبه ، فلا وجه لردّك له<sup>(٤)</sup> وحكى أن بعض المتصرفين احتسب أنا على الخبائي للطعام ، فأحابه ، فأكرّ رجل ذلك عليه ، فقال له ألسنت تعلم أن طعامه الذي يقدمه إليما مما يشتريه ، وأن العالب أهم ستروبه لا عين المال ، أما تعلم أن ذلك ملكه ، وأنه مما يحل له تناوله<sup>(٥)</sup> « وكان أحمد بن حرب يوماً على طعام مع قوم وفدوا عليه من كبار بيساور ووحوها ، إذ دخل اسه في العرفة سكران عني ويلعب ، ولم يسلم على القوم . ولما رأى أحمد دهشتهم سألهم

(١) كتاب الوراق ص ١٨٢ — ١٨٤ (٢) ديوان ابن المعبر ح ٢ ص ١٤ لم تكن حوائج ابن المعتز نصي ، ولا معاملاته نصي عند الوراق ، لأنه لم تكن محبوا في فطر الخلافه ، وقد طل ثلاثين سنة كتاب الوراق في طاحانه طما وثراً ، فلا محبونه ، وكان يحاول الوصول إليهم فلا تأدون له (٣) ابن المرصى ذكر المعرله ص ٦١ (٤) ابن المرصى ص ٤٣ — ٤٤ (٥) نفس المصدر ص ٥٦ ، ٦



ما نكم ؟ فقالوا حجلنا من أن يدخل عليك ولدك على هذه الصورة ، فقال لهم أحد إنه معدور ، فقد أكلت أنا وروحتى ليلة من طعام بعثه إلينا حاراً لنا ، وفي هذه الليلة نجل بهذا العلام ، فمما ، ولم يصل ، فلما كان من اليوم التالى سألنا حاربا من أين هذا الطعام الذى بعث به إلينا ، فعلمنا أنه من طعام وليمة عرس في دار أحد عمال السلطان <sup>(١)</sup> وكان بعض الناس لا يسلم على عامل السلطان مما تحرى به العادة من قول السلام عليكم ، بل كان البعض يقول حاداً أو مستهزئاً تُب من عمل السلطان وقد تاب رجل مرة من عمل السلطان ، ثم طلب لتقليده عملاً حليلاً ، فكسر التوبة ، فسماه الناس المرتد <sup>(٢)</sup> و نادرا ما كان الرأى العام يعتبر قلة الأمانة في إدارة الدواوين شيئاً يحل بالشرف ويعجب المؤرخون حين يحدون أحد كبار العمال من أهل الأمانة ومما يحكى أنه توفى في عام ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م صاحب بيت مال العامة ، فأراد الوزير أن يقصص أمواله ، واشتد في المطالبة ، ولكنه لم يجد شيئاً ، لأن ذلك الرجل كان « صحيح الأمانة » <sup>(٣)</sup> وكثيراً ما كان يُترك العمال في مناصبهم أو يعادون إليها بعد تركها مع الشهة في أمانتهم ، وذلك بعد أن يدمعوا ما يقرّر عليهم على أن هذا لم يكن يقع دائماً

أما مصادرة العمال فإنما تعرف من مصدر حدير بالثقة أن الأحشيد ، صاحب مصر ، وكان رجلاً مالياً ماهراً ، هو أول من سكب عماله وكتّابه سراراً <sup>(٤)</sup> فهو مؤسس نظام مصادرة العمال وفرص الأموال عليهم وكان العامل إذا صودر وتقل عليه عبء المصادرة تبرّع له أصحابه ، وجمعوا مالاً للتحفيف عنه <sup>(٥)</sup> ، وقد صادر الحاكم بأمر الله أحد أصحاب الدواوين ، وقطع يديه عام ٤٠٤ هـ — ١٠١٣ م ، ثم أكمل بقية تصرفاته العريضة ، فقلده ديوان البعقات عام ٤٠٩ هـ — ١٠١٨ م ، بل قلده الوراثة عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م <sup>(٦)</sup> على أن السنة العاسدة التى حرى عليها حال الدواوين في دولة الخلفاء تحلى أثرها السيئ في ظهور مرض لحق بحرفة الاشتغال في الدواوين ، كما أن لكل حرفة مرضاً ، وذلك هو

(١) كشف المحجوب للجوهرى ( بالممارسة ) ص ٣٦٦ (٢) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٤

(٣) عرب ص ١٢٨ (٤) العرب لاس سعد ص ٣٩ .

(٥) كتاب الوراق ص ٦٣ — ٣٧ ، ٣٨ .

(٦) Becker, Beitrage zur Geschichte Aegyptens, I, 34 ، علا عن المسحى الموفى عام

التهافت الشديد على الألقاب ، والتكلف في أساليب المسكاتات وقد بدأ هذا في القرن الرابع ، ونقى إلى اليوم وفي المسكاتات الرسمية كانت تُوحى عناية كبيرة إلى العوانات وتعظيم شأن المحاطب وإلى الإسهاب في ذلك ، على حين كان يُحتم الخطاب ويوقع عليه في إيجاز على خلاف عادة الأوربيين وقد بدأ هذا منذ القرن الثالث الهجرى ، وذلك أن العادة كانت حارية في المكاتبة بين الناس بأن يُقال من فلان إلى فلان أو من أى فلان إلى أى فلان ، ولم يكن على شيء من العوانات دعاء ، حتى جاء الفصل من سهل في خلافة المأمون ، فكتب كتابا عوانه لأبى فلان أبقاه الله من أى فلان<sup>(١)</sup> ، ثم استعمل الناس بعد ذلك الدعاء على عوانات الكتب وقد انتهت إليها المحاطبات المختلفة التي كان الوريث يحاطب بها العمال على اختلاف درجاتهم في القرن الرابع الهجرى فكان يكتب إلى أمير الشام وأحاديها أعزك الله ومدّ في عمرك وأتم نعمته عليك وإحسانه إليك ، وإلى الدّراغ والمهندسين حفظك الله وعافاك ، وإلى أصحاب الرّد من يتقلد الأعمال الخليفة أكرمك الله ومدّ في عمرك ، وأتم نعمته عليك ، وإلى التجار والمتاعين للعلات إذا جمعت للواحد منهم أعمال عافانا الله وإياك من السوء<sup>(٢)</sup> وكان الوريث والكبراء في أول القرن الرابع يحاطبون سيدنا أو مولانا ، ويستعمل في ذلك صمير المحاطب المفرد وفي عام ٣٧٤ هـ — ٩٨٤ م كان ابن سعدان الوريث يحاطب الوريث ابن عماد بالصاحب الخليل والصاحب ابن عماد يحاطب ابن سعدان بالأستاذ مولاي ورثيسى<sup>(٣)</sup>

ويقول أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي<sup>(٤)</sup> (المتوفى عام ٣٨٣ هـ — ٩٩٣ م) في هذه الألقاب

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا من الكفى ومن الألقاب أنوا  
ولقنوا رحلا لو عاش أولهم ما كان يرصى به للحش نوا

(١) تاريخ سعد بن الطرب (المتوفى عام ٣١٨ هـ — ٩٣ م) ص ٧٣ ب من مخطوط باريس رقم ٢٩١ (٢) كتاب الوريث ص ١٥٣ والصفحات التالية (٣) النجوم الراهرة لاس معرى بردي ، طبعه كلفورنيا ص ٣٤ ، وكان عيسى بن سطورس وريث العرب بالله في مصر يحاطب سيدنا الأجل (محيى بن سعد ص ١١٢) (٤) نسخة الدهرج ٤ ص ١٤٥

قلّ الدراهم في كتيّ حاييتنا هذا فأعق في الأقوام ألقابا  
وفي عام ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م لُقّب فاضي القصاة الماوردي بلقب أقصى القصاة ؛ وجرى  
من بعض الفقهاء إكثار هذه التسمية ، وقالوا لا يجوز أن يستى به أحدٌ ، هذا بعد أن  
كتبوا خطوطهم بحوار تلقيب حلال الدولة ملك الملوك الأعظم ، فلم تمت إليهم الماوردي ،  
واستمر له هذا اللقب إلى أن مات ، ثم تلقّب به القصاة بعده <sup>(١)</sup>  
وقد حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يلغى الألقاب ، فبعد أن سحا في مسح الألقاب  
على اختلاف أنواعها ، أسقطها عام ٤٠٨ هـ - ١٠١٧ م ما عدا ألقاب سعة نهر ، هم أكر  
حملة الألقاب ، ولكنه أعاد الألقاب بعد قليل <sup>(٢)</sup> ، على عادته الحارّية من نقص وإرام  
ويقال إن أبا الحسن كاتب الخليفة القادر بالله ( ٣٨١ - ٤٢٢ هـ = ٩٩١ - ١٠٣١ م )  
هو مخترع لفظ « الحصرة » في المحاطة ، وفي هذه المسألة الصغيرة أيضا محدا حتى الآن سير  
على رسم القرن الرابع وهذا الكاتب هو مخترع عبارة الحصرة العالية الورارية ، وهو أول  
من أخرج عبارة الحصرة المقدسة السوية في الكلام عن الخليفة ، وأشرك بذلك عبارة . السدة  
السوية ، ثم كتب عن الخليفة بالعبارة العربية غير مستقيمة الدلالة وهي : « الخدمة » وتصرف  
في ذلك حتى قال قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسُئلت الخدمة ، حتى رأيت بخط أبي  
الحسن أبي الشوارب في ترجمة رقعة حادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان <sup>(٣)</sup> وقد  
لُقّب الخليفة القائم وريّره ( قتل عام ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م ) بألقاب هي رئيس الروساء ،  
وشرف الورراء ، وجمال الوري <sup>(٤)</sup> أما بين القصاة فقد بنى الرسم القديم حارنا ، فكان  
فاضي القصاة يوقع للقصاة بما يقول فيه « أنوفلان ، فلان بن فلان القاضي أيده الله يفعل  
كذا » ، وإلى قصاة النواحي « فلان بن فلان الحاكم » ، سير كنية ولا دعاء ولا ذكر قصاء <sup>(٥)</sup>  
وفي عهد المقتدر كانت تعلق الدواوين في دار الخلافة يومى الجمعة والثلاثاء ، وقد أمر  
المقتدر ( ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ - ٨٩٢ - ٩٠٢ م ) بذلك « لأن يوم الجمعة يوم صلاة ، وكان  
يحبّه ، لأن مؤدّه كان يصرفه فيه عن مكتبته ، ولأن الناس يحتاجون في وسط الأسبوع إلى  
الراحة والنظر في أمورهم ، والتشاعل بما يخصهم » <sup>(٦)</sup>

(١) الإرصاد لماقوت ج ٥ ص ٧ ٤ (٢) محي بن سعد ص ١١٢٩ - ب  
(٣) كتاب الورراء ص ١٤٨ والصفحات التالية (٤) تاريخ بغداد ٦٧ IRAS , 1912, S  
(٥) كتاب الورراء ص ١٥١ (٦) نفس المصدر ص ٢٢



## الفصل السابع

### الوزارة والوزراء

لما انتهى عهدُ الإدارة الإقطاعية ، وحاء عهدُ التنظيم البيروقراطي طهر منصبُ الوزير في عهد الخلفاء الأولين من بني العباس أما في عهد بني أمية فلم تكن الوزارة « مقسمة القواعد » ، ولا مقررة القوايين « ، وكان دواء الآراء من مستشاري الملك يقومون مقام الوزراء ، وكان الواحد منهم يسمى كاتباً أو مُشيراً<sup>(١)</sup>

وفي أول القرن الرابع الهجري انتقص اختصاصُ الوزير ، فأخذ الخليفةُ منه الصياغ العباسية التي كانت إقطاعاً يديره الوزراء ، ويحصلُ منه مائةٌ وسبعون ألف دينار ؛ وأخرى للوزير رزقٌ ثابت قدره خمسة آلاف دينار ، ثم صارت سبعة آلاف في كل شهر<sup>(٢)</sup> على أنه كان للوزير مكانٌ ممتاز بين سائر رجال الدواوين ، فكان يُعطى لكل ولد من أولاده خمسمائة دينار في كل شهر ، وهو مبلغ يساوي مرتب وزير<sup>(٣)</sup>

وأكثر تعيُّر يسترعى النظر في إدارة الدولة أساساً بحد الوزير قد صار مُقدِّماً على جميع القواد ، مع أنه ليس إلا رئيس الكتاب ، ومع أن الدولة قامت في الأصل على أساس حربي ، وكان هذا الوضع الحديدي إحياءً لنظام التدرُّج في المناصب إلى أن تنتهي رئيس أعلى ، وهو النظام القوي الذي كان موحوداً في تاريخ الشرق القديم على أنه لما عاد القائد مؤسس المطهر إلى بغداد في عام ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م ، ركب الوزير طيَّارَةً للسلام عليه ، ولتهنئته بمقدمه ، وهذا ما لم تخبر به عادة الوزير ، وما لم يفعل مثله وزيرٌ من قبل ؛ حتى إن الوزير لما حرج ليصرف حرج معه مؤنس إلى أن برل في طيَّاره ، وقيل يده<sup>(٤)</sup>

(١) كتاب الفجر في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمحمد بن علي بن طاطا المعروف بابن

القططي ، الطبعه الأوربيه ص ١٨

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ ، ومسكويه ج ٥ ص ٢٦٧ — ٢٦٨

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٣ أما في مصر على عهد الفاطميين ، فكان يعطى إحوه الوزير أيضاً

من مائتي دينار إلى ثلاثمائة — الحطط للمقرر ج ١ ص ١ ٤

(٤) كتاب الوزراء ص ٥ ، ومسكويه ج ٥ ص ٢١٤

وفي أول القرن الرابع كان رسم الورير في لباسه هو رسم سائر العمال ، فكان يلبس دَرَّاعَةً وقميصاً ومُتَطَّيَّةً وَحُفّاً<sup>(١)</sup> ؛ وكان السواد هو اللباس الرسمي<sup>(٢)</sup> أما في أيام الاحتمالات الرسمية فكان يرتدى ثياب الموكب ، وهي قباء ومسيب عسقة ، ومع هذا عمامة سوداء ، وهي الحرة الذي لا يبرعه الورير من لباسه الذي يلبسه عادة<sup>(٣)</sup>

وكان الخليفة يجمع على الورير هذه الثياب ، التي هي رسم الوراثة ، عند تقليده ، فيركب الورير من داره إلى دار الخلافة ، وبين يديه الحجاب والقواد والعلمان ، ثم يعود إلى داره ، وهم معه ويصف المؤرِّحون ذلك ، ولا يهتمون أن يدكروا بعض ما كان يقع من الأمور الباردة ، فيذكر مثلاً أن بعض الورراء أحده البول ، وهو في طريقه إلى منزله ، فرل وهو في جَلَع الخليفة إلى دار أحد عمال الدواوين ، فبال عنده وأمر له بزيادة في ررقه<sup>(٤)</sup> وإذا وصل الورير إلى داره حصر الناس على طقاتهم للسلام والتهنئة وكان الخليفة يرسل له مالا وثيابا وطيباً وطعاماً وأشرية وثلجاً<sup>(٥)</sup>

وكذلك انتهى إليها العمل اليومي لأحد الورراء حوالي عام ٣٠٠ هـ -- ٩١٢ م ، مع الإشارة إلى أن أحلافه ، وهو ورير ، كانت مثلها وهو صاحب ديوان ، « فكان من رسم

(١) كتاب الورراء ص ٣٢٥

(٢) انظر ما قاله الأصمعي شعرأ بدمه أأعند الله الريدي ، في تاريخ الأجرى ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤

(٣) كتاب الدواوين للساشي ص ١٦٦ ومسكويه ج ٦ ص ٢٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، والإرشاد لاقوت

ج ٥ ص ٣٥٦

وفي عام ٣١٩ هـ -- ٩٣١ م خرج الورير للصلاة وعليه شاشه وسيف عجمان ، فحجب الناس من ذلك (عريب ص ١٦٥) وقد انتهى إليها البرنامج اليومي للورير صاعد من محله حوالي عام ٢٧٥ هـ ٨٨٨ م كان يقوم في آخر الليل ، فلا يزال صلى إلى طلوع الفجر ، ثم يأذن للناس فجلسوا عليه ، ثم يركب إلى دار الخليفة الموفق ، فيقيم محضرته أربع ساعات ، ثم يصرف إلى منزله ، فسطر في حوائج الناس وأمور الحاضر والعائب إلى الظهر ، ثم بعدى وسام ، ثم يجلس بالعسي ، فسطر في الأعمال السلطانية إلى العشاء الآخرة ، لا يرح أو يحصل جميع الأموال ما تحمل منها ، وما أنفق ، وما بقي ثم يلقى في أمره صاعه وأسانيه ، ويقدم إلى وكلائه وحاصه عما يحاج إليه ، ثم يشاعل بعد ذلك مع بديم يساعل محدثه وناس به ، ثم نام (الشاشي ص ١١٨ ب) وكان ابن العميد ورير بني بويه بالري حوالي منتصف القرن الرابع يكثر إلى دار الإمارة ، وكان الرسم أن يحصرها بالمشاعل والشموع قبل الصباح (الإرشاد لاقوت ج ٥ ص ٣٥٧) وكان الورير نظام الملك في أواخر القرن الخامس ساكر دار السلطان ، ويعود من الديوان إذا أضحى النهار ، فخلو نفسه إلى وقت الظهر ، ثم صلى وجلس للناس ومحصر عنده الفقهاء والمحدثون (طقات السكي ح ٣ ص ١٤١)

(٥) كتاب الورراء ص ٣١

(٤) عريب ص ١٦٤

الورير ( اس الفرات ) أن يعدو إليه الكتف ، فيواقفهم على الأعمال ، ويسلم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه ، ويوصيه بما يريد وصاته به ، ثم يروحون إليه بما يعملونه من أعمالهم ، فيواقفهم عليها ، وعلى ما أخرجوه من الخروح وقصوه من الأمور ، ويقيمون إلى بعض من الليل ، وإذا حفت العمل ، وقد عُصت عليه في أثنائه الكتب باللفقات والتسييات والحسابات ، بهض من مجلسه ، وانصرف الجماعة بعد قيامه<sup>(١)</sup> « وفي مثل هذا المجلس كان الكتاب يحسبون أمام الورير ، كل في مكانه ، ومعه دواته ، وكان رئيس هؤلاء الكتاب يجلس متقدماً عليهم<sup>(٢)</sup>

وكان الورير يحتفظ بصورة من الوثائق المهمة ، ويضعها في حزمة سحلته ، وكانت هذه ، متى عُزل ، تنقل إلى دار من يخلعه في الوراثة ولما تقلد اس الفرات الوراثة بعد علي بن عيسى عام ٣٠٤ هـ — ٩١٦ م كادت هذه السجلات أن تلغ سقف الحراة التي كانت فيها<sup>(٣)</sup> ويُذكر أن بعض الرقاع الهامة السرية كانت تُحفظ في سقف حيران يكتب عليه بخط الورير ما يحتفظ به من المهمات وكان السقف يُحتم بمختم الورير<sup>(٤)</sup>

وكانت دار الورير حتى عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م هي الدار التي كانت قديماً لسليمان اس وهب على الشاطي\* الشرقى لهر دحلة ، والتي كانت تسمى دار الحرم ، وكان درعها يرنو على ثلثمائة ألف ذراع وقد أريد تحصيل مال من هذه الدار الواسعة التي كانت تقع في حى من أعلى أحياء بغداد ثمناً ، « ففُطِّعت وبيعت من جماعة من الناس بمال عظيم وصُرف ثمنها في مال الصلة لبيعة القاهرة بالله<sup>(٥)</sup> » ، وأعدت للورير دار أحد أساء الخلفاء<sup>(٦)</sup>

وكان يقف على باب دار الورير كثير من الرجال لحراستها ، وقد بلغ من كثرتهم أنه كان ربما أحد منهم ثلاثون رجلاً في وقت واحد ، وأُعدوا في أمرهم<sup>(٧)</sup> وكان في مجلس الورير علما مسلحون يسرون بين يدي الوحوه من الناس ، ويخرجون بين يدي الورير دائماً ، يخرجون سيوفهم ، والناس يشاهدوهم<sup>(٨)</sup>

(١) كتاب الوراء ص ٢٣٨ (٢) الإرساد لياقوت ح ١ ص ٣٤٢

(٣) كتاب الوراء ص ٨ ٢

(٤) كتاب الوراء ص ٥٩ ، ومسكويه ح ٥ ص ٢٣٣

(٥) مسكويه ح ٥ ص ٤١ ، وفي كتاب الوراء أن مساحتها ٣٤٦ و ١٧٣ دراعاً

(٦) مسكويه ح ٥ ص ٣٩١ (٧) كتاب الوراء ص ١٢١

(٨) نفس المصدر ص ١١٢



وكان رسم الو. برألا يذهب إلى دار الخلافة إلا في أيام الموكل ، وكان ذلك في يوم الاثنين والخميس في أوائل القرن الرابع<sup>(١)</sup> ، وقد جرى الرسم أن يسير الوزير إذا ركب إلى دار الخلافة واحداً من كتبه الأربعة الذين يتولون الديوان<sup>(٢)</sup> وكانت للوزير في دار الخلافة دار مفردة مجلس فيها ، والخواص والخواشي بين يديه ، حتى يستدعيه الخليفة ومدة عام ٣١٢ — ٩٢٤ م صار مجلس في دار الخاحب متقرناً إليه ومداراً له ، وكان هذا دليلاً على تناقص منزلته<sup>(٣)</sup>

وكان الوزير مجلس في مجلس الخليفة موالياً له وحيه ، وهي عادة المروءوس بالنسبة إلى رئيسه وإذا أراد الوزير أن يكتب شيئاً في حصة الخليفة ، فقد كان الرسم أن تُخَصَّرَ له دواة لطيفة سلسلة فيمسكها بيده اليسرى ، ويكتب بيده اليمنى ، وقد رأى الخليفة المقتدر مرة مشقة ذلك على وزيره علي بن عيسى ، وهو يكتب كتاباً هاماً مُخَصَّرَته ، فأمر بأن تقف بعض الخدم فيمسك الدواة إلى أن يفرغ من الكتابة ، وكان علي بن عيسى أول وزير أكرم بهذا ، ثم صار رسماً للوزراء بعده<sup>(٤)</sup> وكان للوزير في الأوقات التي يكون فيها بدار الخلافة نائب يقوم في الدار لمهم عساه يعرض<sup>(٥)</sup> ، وكان للوزير من بين خدم الخليفة قوم يعول عليهم في مراعاة أحواله<sup>(٦)</sup>

وكان الخليفة هو الذي يعين وزيره ، وكان في العادة قرّر وزير الخليفة السابق في منصب الوزارة ، وفي عام ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م أراد الخليفة أن يختار لنفسه وزيراً ، وطلب من أحد ثقاته قبول الوزارة ، فامتنع لكبريائه ، فأرسل إليه الخليفة أسماء رجال كثيرين ليشرح مهم من يراه أهلاً للوزارة ، فكتب تحت اسم كل واحد منهم بما رآه ، وأشار بتعيين رجل كان فاضلاً ، فطن الخليفة أن وزيره عشقه ولم يخلص في الصباح ، ولما سُئِلَ الخليفة في ذلك قال لعمرى إنه (القاصي) عالم ثقة ، إلا أنني لو فعلت ذلك لاقتضحت عند ملوك الإسلام والكفر ، لأنني أكون بين أمرين إما أن تتصوّر مملكتي بأنها حالية من كاتب يصلح

(١) من المصدر ص ٤٢٦ ، ٣٥٢

(٢) ابن الأثير ح ٨ ص ٦ — ٧ ، وكتاب العيون ص ٥٩ ب

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٦٨ (٤) كتاب الوزراء ص ٣٤٢

(٥) المعري لسان الطغرى ص ٢٩٢ ، والخطط للمعري ح ١ ص ١٥٦

(٦) كتاب الوزراء ص ٢٦٧ ، وفيما يتعلق بحصر الخطر ابن الأثير ح ٩ ص ٨٢ — ٨٣

للورارة ، فيصير الأمر في هوسهم ، أو أنى عدلت عن الوزراء إلى أصحاب الطيالس ،  
فأنسب إلى سوء الاختيار<sup>(١)</sup> على أنه حوالى هذا الوقت تقلد القاضي المروزي ( المتوفى  
عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م ) سجاري ودارة الأمير الساماني صاحب حراسان<sup>(٢)</sup>

وكان الرمان رمان أرستوقراطية ، حتى أدى الحال إلى تسوء حيل لكل طائفة من  
أصحاب المناصب ، فكان هناك وحوه الحصرة من أولاد الوزراء والكتاب والأمراء  
والأشراف ، وكان أولاد الوزراء هم الطبقة العليا بين أساء العمال<sup>(٣)</sup> وكانت المناصب  
أحيانا وراثية ، فقد ذكر أن الوزير ابن مقله حلقه ابنه ، وهو في الثامنة عشرة<sup>(٤)</sup> ، وكذلك  
تولى أبو الفتح بن العميد الوراثة بعد أبيه ، وله من العمر إحدى وعشرون سنة<sup>(٥)</sup> ، وقد  
ولى الوراثة من آل حاقان أربعة وزراء في سبعين عاما ، وكذلك تقلد أربعة من بني الفرات  
الوراثة في خمسين سنة ، وكان ابن العميد وزيراً لعماد الدولة رأس أسرة بني بويه ومؤسس  
ملكتهم ، وكان ابنه وحفيده وزيرين لكن الدولة أما سو وهب ، وأصلهم من بشاري  
العراق ، فقد توارت عشرة منهم أرقى مناصب الدولة ، وكان أربعة منهم وزراء<sup>(٦)</sup> وقد ولي  
الوراثة واحد من بني وهب عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م ، وكان في شبابه مندرأ مسرفاً ، وقد  
صتق عليه أصحاب المطالبات حتى أمر القاضي بالحجر عليه ، ووُضع تحت الوكالة ، ولذلك  
كان من صدق فراسة مؤسس القائد أنه حتى أن هذا الوزير سيكون سيئ التصرف في  
أمور الدولة ، كما كان سيئ التصرف في أمواله<sup>(٧)</sup> ومما يريد الأمر حطورة أن أهم عمل للوزير  
هو إدارة مالية البلاد ، فهو الذي يعمل الدخل والخرج ، ويعرض الضرائب أو يسقطها<sup>(٨)</sup>  
ويحصل الأموال من النواحي<sup>(٩)</sup>

وفي عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م شغب العلماء والرحالة على الوزير يطلبون الريادة ، فمضوا  
إلى داره وأحرقوا نابه ، ودبحوا في إصطبله دوانه<sup>(١٠)</sup> وجميع الوزراء الذين استعفوا أو عُزلوا

(١) كتاب الوزراء ص ٣٢٢

(٢) Flügel Die Klassen der hanefitischen Rechtsgelehrten, S 296

(٣) المنظم ص ١٦٦ (٤) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٢٧

(٥) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٥٦

(٦) Amedroz, JRAS, 1908, S 418 والبيه ج ٣ ص ٣٣

(٧) Amedroz, JRAS, S 431 (٨) ابن الأثير ج ٨ ص ٥١

(٩) حسن المصدر ص ٧٣ ، وكتاب الوزراء ص ٢٣٩ (١٠) عرب ٥٨

في القرن الرابع إنما فشلوا أمام الصعوبات المالية وفي عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م سمع الوريث أبو الفصّل السلمي وهو في داره ليلة حَلَّة الحَيْل ، وعلم أن عوَاء العسكر قد احتسبوا يؤثّمون ويلقون عليه الدب في تأخير أرواقهم ، فدعا بالخلاق ، فخلق له رأسه ، واعتسل ماء ساحن ، ولس الكس ، ولم يرل ليلته يصلي ، ثم دخل الحمد عليه وقتلوه ، وهو ساحد ، وكان هذا الوريث فقيهاً ماطرأً ومحدثاً حافظاً ، وكان يصوم الاثنين والخميس ، ولا يدع صلاة الليل ، وولي الوراثة للسلطان وهو على ذلك ، وكان يسأل الله الشهادة ، حتى وقع له ما وقع<sup>(١)</sup>

وكانت سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م أهم سنة في تاريخ الوريث ، ففي هذا الوقت دخل سويوه عداد ، وقام كاتب الأمير الذي علب على تدبير الأمور مقام الوريث ، وطل رسم الوراثة<sup>(٢)</sup> وقد تكلم هلال الصافي في كتابه تاريخ الوريث عن أهم وريث القرن الرابع الهجري ، وهو يقسمهم إلى وريث الدولة العباسية « وكتاب » الأيام الديلمية<sup>(٣)</sup>

ولذلك يحكى أن حوهرأ أيام فتحه لمصر توقف في محاطة أنى الفصّل حمير بن الفرات في كتابه بالوريث ، ولم يحاطه بذلك إلا بعد مراحمة ، وقال ما كان وريث حليفة<sup>(٤)</sup> أما عبد الفاطميين فكان اسم الوريث غير مقبول في أول الأمر ، وكان قاضي القضاة أحلّ أرباب الوظائف عدهم ، ولم يتحد حلفاؤهم وريث إلا في عهد الحليفة الفاطمي الثاني ، العريز بالله<sup>(٥)</sup> ، وهو الوريث ابن كلّس الذي كان يهودياً فأسلم (وتوفي عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) وقد حدثنا القلقشدي في العصور المتأخرة عن منصب قاضي القضاة فقال « وإذا كان ثمّ وريث لا يحاط بقاضي القضاة لأن ذلك من موت الوريث<sup>(٦)</sup> » ويقول المقريري إنه بعد موت ابن كلّس لم يستورر العريز بالله أحداً ، وإنما كان ثمّ رحل يلى الوساطة والسفارة ، واستقرّ ذلك في جماعة كثيرة بقيّة أيام العريز وسائر أيام الحاكم ، ثم ولي الوراثة

(١) المسطم ص ١٧٥

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢٥ ، والبيهقي للمسعودي ص ٣٩٩ ، ٤

(٣) كتاب الوريث ص ٣ (٤) الاطاط للمقريري ص ٧

(٥) حسن المحاصرة للسوطي ، ج ٢ ص ١٢٩ ، هلا عن ابن رولاق الموي سنة ٣٨٧ هـ — ٩٩٨ م

(٦) ترجمة قسطنطين لمصر صبح الأعشى AGGW, 1879, S 185 ، وصبح الأعشى طبعة دار

الكتب ج ٣ ص ٤٨٧



أحمد بن علي الحرحرائي في أيام الظاهر ، وما زال الوزراء من بعده واحداً بعد واحد<sup>(١)</sup> . ولم يكن جمهور الناس يعطن لهذا التمييز بين الوزير والوسيط أو السفير ؛ وكذلك محمد يحيى بن سعيد مثلاً حوالي عام ٤٠ هـ — ١٠١٠ م يستعمل في كلامه لفظ الوزراء من غير تفرقة بين الوزير والسفير أو الوسيط

ولم تكن مهمة الوزير إذا كان وزيراً لأحد أمراء الأطراف هي عيها مهمة وزير الخلافة ؛ وقد لُقِّب الوزير الفصل بن سهل ، وزير المأمون ، من بين وزراء الدولة الأولين بلقب دي الرياستين ، وربما كان ذلك لأنه كان حبيراً بشؤون السيف والقلم<sup>(٢)</sup> . ولكن الصعقة الحربية للوزير لم تكن نادرة في ذلك العهد ، ولم يَلِ الوزارة قائدٌ حبير إلا الحسن ابن محمد الذي تقلد وزارة المعتصد ، وحلَّ عام ٢٧٢ هـ — ٨٨٥ م<sup>(٣)</sup> أما عبد آل سامان وآل بُويه ، فقد كان الوزير يقوم بمهام الوزارة وقيادة الحيوش في المعارك<sup>(٤)</sup> ، بل محمد أديباً مُرثراً كالصاحب بن عباد يقود الحيوش في أيام وراثته<sup>(٥)</sup>

ومما يدل على سقوط هبة الوزراء ، ويدل أيضاً على فطاطة الطمع أن الأمير مع الدولة سعداد ، وكان أميراً حديداً سريع العصب ، صرب وزيره أبا محمد المهلبي ، وهو من المهالبة الذين كانوا حكاما من قديم على عهد بني أمية ، مائة وخمسين مفرعة ، ووكل به في داره ، ولكنه لم يعرله من وراثته ، وتساور معرَّة الدولة من حصره ، وقال هل محور أن أسسيم إلى هذا الرجل ، وقد لحقه مي هذا المكروه العظيم ؟ فقال له أحد من استشاره إن مرداويج

(١) الخطط للمصري ح ١ ص ٤٣٩ (٢) عرب ص ١٦٥ (٤)

(٣) أعفل صاحب الفجرى ( ص ٢٩٨ ) ، ذكر ابن محمد الذي تقلد الوزارة بن سليمان بن وهب وإسماعيل بن بلبل ( صروح الذهب ح ٨ ص ٣٩ ، وفهرس تاريخ الطبرى ) ، أما ما قوله صاحب الفجرى من أن ابن بلبل « مُجمع له السيف والقلم » ، وربما كان ذلك خالصاً من محمد الذي سقط اسمه ، وذلك لأنها لم تسمع شيئاً عن أعمال ابن بلبل الحربية ، هذا إلى أن الطبرى يصرح ( ح ٣ ص ٢١١ ) بأن الموقف « استكتب لإسماعيل بن بلبل وأقصره على السكناء دون غيرها »

(٤) فيما يتعلق بالسامانيين انظر مثلاً كتاب Mirchond, hist Samanid, ed Wilken, S 72, 84 وفيما يتعلق بالهملبي ووزيرى مع الدولة ، انظر مسكونه ح ٦ ص ٢١٤ ، وفيما يتعلق بوزراء ركن الدولة انظر بن الصدر ح ٦ ص ٢١١ ، ٣٤٣ وما بعدها ، ٤٢١ ، وفيما يخص بوزراء عهد الدولة انظر بن الصدر ح ٦ ص ٤٥١ — ٤٥٢ ، ٤٨٢ ، وفيما يتعلق بوزراء عهد الدولة انظر ابن الأثير ح ٩ ص ١٣٧ — ١٣٨

(٥) ابن الأثير ح ٩ ص ٣٩

قد صرب وريره أعظم من هذا الصرب ، حتى كان لا يطيق المشى ، ولا يقدر على الجلوس لما حلّ به ، ثم حلع عليه وردّه إلى أمره<sup>(١)</sup> ثم جاء بمختيار من معر الدولة ، وكان غير كفاء للملك ، فاستورر صاحب مطبحة<sup>(٢)</sup> في سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م ، وهو الوريث ابن نقيّة الذي كان « يقدّم الطعام إليه ، ويحمل العصاير بيده ، ويتشّح بماديل العمر ، ويدوق الألوان عند تقديمه إياها<sup>(٣)</sup> » ، ولكن ابن عمه ، وهو السلطان عصف الدولة ، قصص على أبي الفتح بن العميد وريث أبيه ، وكان ابن العميد قد أسرف في الاتصال بالعدو ، فسلم عييه وقطع أرمه<sup>(٤)</sup> وطلب من ابن عمه ، عر الدولة من معر الدولة ، أن يسلم له ابن نقيّة لأمر ساءته منه ، فسلم إليه مسجولاً ، فأمر عصف الدولة بأن يُشهر في العسكر على جل ، ثم طُرح إلى القبلة ، وأُصريت عليه ، فقتلته شرّ قتلة ، وصُلب على شاطئ دجلة<sup>(٥)</sup> وقد احتار أحد أصدقاء هذا الوريث المسكود ، الذي ارتكب كثيراً من صروب القسوة<sup>(٦)</sup> ، فرثاه بقصيدة طويلة حيدة منها

ولما صاق نطنُ الأرض عن أن يصمّ علاك من بعد الوفاة  
أصاروا الحوَّ قبرك واستعاصوا عن الأكفان ثوب السافيات<sup>(٧)</sup>

وقد أحدث عصف الدولة في منصب الوراثة شيئين لم يكونا قبله ، أولهما أنه اتحد وريثين معاً ، والثاني أن أحد هذين الوريثين ، وهو ابن منصور بن هارون ، كان نصرانياً ، وقد أبقى عصف الدولة نصرأ على بلاد فارس وطبه ، وأحد الوريثين الثاني ، وهو المُطهر بن عبد الله معه إلى بغداد وكان المُطهر هذا معروفاً بشراسة وحش في أخلاقه ، وكان سيئ العسكر ، فلما

(١) مسكويه ج ٦ ص ١٩ وما يليها ، وابن الأثير ج ٨ ص ٣٧٥

(٢) جاء في كتاب معاهد النصيب مخطوط رقم ٤٤١٦ بمكتبة مارس ص ١٣٣٧ « وكان الرئيس أبو الفصل والوريث أبو الفرح دخلا الديوان لقوة أصحاب الوريث المهلي عقب موته ، وأمرها أن تلوث ثياب الناس بالعط إن قربوا الباب ، وكان المهلي قد فعل مثل هذا »

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٣٦١ — ٣٦٢ ، ٣٩٦ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٦٢ ، وكان الناس يهرءون من ابن نقيّة ويقولون من العصابة إلى الوراثة — المسطم ص ٤١ ب

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٦ — ٤٩٧

(٥) مسكويه ج ٦ ص ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ويحيى بن سعد ص ٥١١ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٧٥

(٦) انظر مثلاً مسكويه ج ٦ ص ٤٥٢

(٧) ابن الأثير ج ٨ ص ٧٥ ، وأرى أنها السافيات وهو ما جاء أيضاً في نديم الأدب لأحمد سعيد العدادي ص ١٤٣ ، وعند ابن سري ردي (طبعة كلغورنيا ص ٢) السافيات

وحته عصد الدولة إلى البطيحة لاستئصال اللصوص منها ، والثالث عليه الأمر ، حتى  
الحفاص مبرلته عصد عصد الدولة وتعيّره له ، وأشفق من تدرع أعدائه بذلك للطعن عليه  
وإطهار معايه ، فاحتار الموت على ذلك ؛ وأحد مكيباً ، فقطع بها شرايين دراعيه جميعاً ،  
وسال دمه حتى مات<sup>(١)</sup> وكان الوريير الذي جاء بعده خليفة لصرى هارون الذي كان  
مقيماً بمارس يدتر أعمالها ، ولم يكن الورييران على وفاق ، بل كان كل واحد يدتر المكاييد  
لصاحبه<sup>(٢)</sup>

ولما جاء بهاء الدولة حرى على رسم أبيه فعين ، وهو شيراز ، ورييرى عام ٥٣٨٢ — ٩٩٢ م ،  
وحمل أحدهما مدتر الأمور العراق<sup>(٣)</sup> ولما مات الصاحب بن عباد سنة ٥٣٨٤ — ٩٩٤ م ،  
بعد أن دتر أمور الوراثة بمارس أحسن تدبير ، وقعت مساومة شائنة حول هذا المصب ،  
ودلك أن أحد الولاة أرسل يحطب الوراثة ويصم ثمانية آلاف ألف درهم ، فبدل الوريير  
الذى كان فى الوراثة ، إدادك ستة آلاف ألف درهم على إقراره فى الوراثة ، فأشرك السلطان  
بخر الدولة بينهما فى الوراثة ، وسامح كلا منهما بألئى ألف درهم من حملة ما بدل ، وجمع  
بينهما فى البطر ، ورتب أمرهما على أن يحلسا فى دشت واحد ، ويكون التوقيع لهذا يوماً  
والعلامة للآخر ، وكانا يتقارعان على من يجرح لقيادة الحيوش ، ثم سعت بينهما السعاة ،  
ودر أحدهما للآخر فقتله<sup>(٤)</sup>

وأخيراً صار للوريير البصراني بالمشرق بطير فى مصر ، فى سنة ٥٣٨٠ — ٩٩٠ م  
قلد الخليفة الفاطمى العزير بالله وراثته لعيسى بن سطورس<sup>(٥)</sup>  
على أن الوريير لم يبرءوا من الرعة فى الألقاب التى عظم أمرها حوالى عام ٤٠٠ هـ ،  
والتي تدل دلالة واضحة على تدهور المجتمع فى ذلك العصر وفى عام ٤١١ هـ — ١٠٢٠ م  
أكرم أمير بغداد وريره ، فأمر بأن تصرف الدنادب أمام داره فى أوقات الصلاة ، وهو  
ما كان يعرده السلطان وحده ، وكذلك لقبه بلقب وريير الوريير<sup>(٦)</sup> ، وصرعان ما استعمل

(١) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ — ٥١٤ ، ويحيى بن سعيد ص ١١٧ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٥

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٥١٥ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٦٦

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٧ . (٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٧١ وما يليها

(٥) يحيى بن سعيد ص ١١٢ ، وكان عيسى بن سطورس يحاطب بسدنا الأحل

(٦) المسظم ص ١١٦٨ — ب (٤)



الخليعة الحاكم (المتوفى عام ٤١١ هـ — ١٠٢٠ م) هذا اللقب الجديد الذى كان له أثر عظيم ، فلقب قطب الدولة على بن حمير بن فلاح وزير الورداء دا الرياستين الأمير المظهر قطب الدولة<sup>(١)</sup> أما الهلال الصابى المؤرخ (المتوفى عام ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م) ، فيعتبر أن محاطة الملوك المدثرين لورائهم بأمثال هذا اللقب هي من انقلاب الرسوم وتغير حقائق الأشياء<sup>(٢)</sup> وفى سنة ٤١٦ هـ — ١٠٢٥ م حلع حلال الدولة سعداد على وزيره ولقبه علم الدين سعاد الدولة ، أمين الملة ، شرف الملك ، فكان هذا الوزير أول من لقب بالألقاب الكثيرة<sup>(٣)</sup> وهذه الحالة تشبه ما عليه الشرق اليوم ، وإذا قارنا بين الوزير فى ذلك العصر بما صار يحمله من ألقاب ويبى سلطه من لم تكن لهم ألقاب لوحدنا أنه بالنسبة لهم لم يكن له شيء من القوة والسلطان

### الورداء فى القرن الرابع الهجرى

سنداً بالكلام عن على بن الفرات ، وهو الذى حلب أحاه العباس فى منصب الوراة عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م وكان على حين تقلد الوراة فى الخامسة والحسين من العمر وكان وزيراً واسع التروة حتى يقول الصولى « وما سمعنا بوزير جلس فى الوراة ، وهو يملك من العنبر والورق والصباغ والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات<sup>(٤)</sup> » وقد طهر فى منصبه عظمى العمامة التامة ، فكان يجرى على حمسة آلاف إسان ما بين مائة دينار فى الشهر إلى حمسة دراهم ، وكان يطلق للشعراء فى كل سنة من سى وراته عشرين ألف درهم رَشْماً لهم ، سوى ما يصلهم به متفرقاً ، وعند مديحهم إياه ، وكان فيمن يُدعى إلى طعامه كل يوم تسعة كُتّاب ، هم خاصة كُتّابه ، وكان معهم أربعة نصارى وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين ، وكان له فى داره مطبخان مطبخ الخاصة ، ولا يمكن أن يحصى ما كان يدخله من الحيوان لكثرتة ، ومطبخ العامة الذى يختص بما يقدم إلى الحجاب المقيمين بالدار ويُفرّق منه للرحالة والموابين وأصاغر الكتاب وعلماء الدواوين ، وكان يُقدّم إلى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من

(٢) كتاب الورداء ص ١٥

(٤) عرب ص ٣٧

(١) يحيى بن سعيد ص ١٢٨

(٣) المتظم ص ١٧٣

العم ، وثلاثون جديا ، ومائتا قطعة دحاحا سماناً ، وفراريج مصدرة ، ومائة قطعة درّاحا ، ومائتا قطعة فراحا ؛ وهناك حارون يحرون الحر ليلا ومهاراً ، وقوم يعملون الحلواء عملاً متصلاً ، ودار كبيرة للشراب ، وفيها ماديان يحمل فيه الماء المرّد ، ويسقى منه جميع من يريد الشرب من الرخالة والفرسان والأعوان والحرّان ، ومن يحرق محرّاهم من الأتباع والعلماء ، وكان بالدار مرملات فيها الماء الشديد البرد و رسم حراة الشراب حدم نطاف عليهم الثياب الدبقية السرية ، وفي يد كل واحد منهم قدح فيه سككحين أو خلّاب ومحوص وكور ماء ، ومسدل من مساديل الشراب لطيف ، فلا يتركون أحداً ممن يحصر الدار من القواد والخدم السلطانيين والكتاب والعمال إلا عرصوا ذلك عليه<sup>(١)</sup> وكانت داره مدينة بداتها ، حتى كان بها فوحان من الحياطين<sup>(٢)</sup> وكان في حاب الدار أذراح كثيرة لأصحاب الخوائج والمتطلّمين ، حتى لا يلزم أحد منهم مؤونة لما يتناعه من ذلك<sup>(٣)</sup> ، ولما خلّع على هذا الورير جلّع الورداء راد في ذلك اليوم ثمن الشمع قيراطاً في كل من ، وراة سعر القراطيس لكثرة استعماله لها ، ولأنه كان من رسمه ألا يجرّح أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة مسوية ودرج مصوري وقد سقى في داره في ذلك اليوم والليلة أربعون ألف رطل تلحاً<sup>(٤)</sup> ، وجرى رسمه مدة وراثة أن يُعطى كل من يجرّح من داره عدد اصفرار الشمس شمعة<sup>(٥)</sup> وفي عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م اتحد ابن الفرات مارستاناً بعداد ، وكان يعق عليه مائتي دينار من ماله في كل شهر<sup>(٦)</sup> وكان هذا الورير يحمل بين حبيبه نساء كثيرة ، فلقد قدّمت إليه حرائد بأسماء من يعاديه ، ويدتر في روال أمره ، فلم يفتح الصاديق التي كانت فيها ، وأحرقها وقال لمن كان حاصراً والله لو فتحناها وقرأت ما فيها لفست بيّات الناس كلّهم علينا ، واستشعروا الخوف منا ، ومع فعلنا ما فعلناه طويلاً الأمور بهذا ، فهدأت القلوب واطمأنت

(١) كتاب الورراء ص ١٤٢ ، ١ ، ٢ ، ٢٤ ، ١٩٤ — ١٩٥

(٢) كتاب الورراء ص ١٧٦ (٣) نفس المصدر ص ١٩٥

(٤) نفس المصدر ص ٦٣

(٥) نفس المصدر ص ١٤٢ ، وقد أساء مبرحم كتاب عمد المنسوب للثعالى فهم بعض هذه النصوص ،

اظر ZDMG VI, 50 ، واطر أيضاً كتاب ثمار القلوب في المصاف والمنسوب للثعالى طبعه القاهرة

١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨ م ص ١٦٩ [ المترجم ]

(٦) السطرم ص ٢٣ ب

المعوس<sup>(١)</sup> ولما فسد أمره عند المقتدر وبألب عليه الجميع أشار عليه بعض المشيرين أن يقسّط على نفسه وكتّابه وعماله ما يحمله للحليفة ، فبرضى عنه ، فقال « فأى شئ أقبح لى ، مع علوّ همتى ، وكثرة نعمتى ، من أن أنشئ أصحابا وعمّالا ، يلوّن بولائيتى ، ويُسكّون سكنتى ، ويتصرّفون تصرفى ، ويتعطّلون عطلتى ، ثم أربل معهم وأحوالهم بيدى وفى أيامى . القتل والله أهون من ذلك »<sup>(٢)</sup>

وخكى أن رجلا اتصلت عُطَلَّتُهُ ، وانقطت مادته ، فحمل نفسه على أن روّر كتابا من أنى المحسن من الفرات إلى عامل مصر للوصاية به والإحسان إليه ، فارتاب العامل بالخطاب وارتبط الرجل عنده على وعد ، وأبعد الكتاب إلى ابن الفرات ، ورأى ابن الفرات أن يستشير كتّابه ، فأشار بعضهم بالتأديب أو تقطع إبهامه أو تكشف قصته للعامل حتى يطرده ويحرّمه ، فقال ابن الفرات « ما أبعثكم من الخيرية ارجل توّسل بنا ، وتحمل المشقة إلى مصر فى تأميل الصلاح نحاسها ، واستمداد صرع الله ورقه بالانتساب إليها ، تكون أحسن أحواله عند أحكم محصرا تكديت طه وتحييت سعيه ، والله لا كان هدا أبدأ » ، ثم أحد القلم ووقع بمحطه على طهر الكتاب المرور بوصى به ، ويقول إن الكتاب كتابه<sup>(٣)</sup> ولما نُكِبَ الوريث على بن عيسى وتدلّل لاس الفرات حتى قتل يده وفام لاسه المحسن ، وكان ابن عشر سنين ، قال ابن الفرات بعد انصراف على رأيتم تطامس على بن عيسى للكنة واستعانتها عليها بالاستعطاف والتدلّل ، وهذه طريقة لا أحسبها ، لأن كدى فى الحسن كاد الإبل ، لا حرم أنها ترداد وتتصاعف<sup>(٤)</sup> وقد أكسسته الخدمة الطويلة حيرة شئون الوراثة وإدارة الدولة ، وقد استطاع أن يسيطر على حياة الدولة الاقتصادية المتشعبة سيطرة كاملة ، حتى استحق من وحوه كثيرة أن يقول على بن عيسى لما كُذِبَ عليه بموت ابن الفرات اليوم ماتت الكتانة<sup>(٥)</sup> ومن حكمه السياسية القاسية قوله أصل أمور السلطان محرقة ، فإذا تمّت واستحكمت صارت سياسة ، وقوله تمشيّة أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها

(١) كتاب الوزراء من ١١٩ ، وبخكى مل هذا عن المأمون ( الطبرى ج ٣ من ٢٤ )

(٢) كتاب الوزراء من ٩٧ — ٩٨

(٣) نفس المصدر من ١١٣ ، والمسلم من ١٢٨ — ب

(٤) الوزراء من ٦ ، ٣ ، ٧ ، ٥ نفس المصدر من ٢٨٣



عبد انصواب ، وكان يقول إذا كانت لك حاجة إلى الوريث ، فاستطعت أن تقصدها بحارس الديوان أو كاتب سرّه فافعل ولا تلج إليه فيها<sup>(١)</sup>

على أنه لم يتحرّج ولم يتهيت من مديده إلى حراسة الدولة ، بل أضاف هو وأخوه كثيراً من صياع السلطان إلى أملاكهما ، وعظم دخلهما ، وقد وحد أعداؤه من الطعن فيه أنه لما صودر وُحد في ودائع ما هو محتوم بحتم أي حراسان حارس المعتصد على بيت مال القلعة ، ووُحد عنده مال أكثره محمول من بيت مال الخاصة<sup>(٢)</sup> قال أبو علي بن مقلة كاتب ابن الفرات ، وقد جرى ذكر هذا الوريث « يا قوم اهل سمعتم عن سرق في عشر خطوات سعمائة ألف دينار ؟ قلنا كيف ذلك ؟ قال كنت بين يدي ابن الفرات في ورائته الأولى ، ونحن في دار الخلافة نقرّر أوراق الخيش ، وتقيم وحوه مال البيعة ورتب إطلاقه ، وذلك عقيب فتنة ابن المعتز ، فلما فرغ مما أراد حرح ورك طياره ، وبلغ مهر المعلى ، فقال إنا لله إنا لله اقفوا فوق الملاحون ، فقال لي وقع إلى أي حراسان صاحب بيت المال يحمل سعمائة ألف دينار تُضاف إلى مال البيعة ، وتُفرّق على الرجال ، فقلت في نفسي أليس قد وحبها وحوه المال كله ؟ ما هذه الريادة ووقعت بما رسمه ، وعلم فيه بخطه ، ودفعه إلى علام ، وقال لا ترح من بيت المال حتى تحمل هذا المال الساعة إلى داري ، ثم سار ، ( قال ) فحمل المال بأسره ، وسُلم إلى حاربه ، فعلت أنه آسى أن يأخذ شيئاً لنفسه في الوسط ، ثم ذكر أنه باب لا يتفق مثله سريعاً ، ويحتمل ما احتمله من هذا الاقتطاع الكثير ، فاستدرك من رأيه ما استدرك<sup>(٣)</sup> »

وكان الوريث على بن عيسى رميل ابن الفرات من قبل ومناقبه من بعد يحالاه مخالفة تامة وينسب على بن عيسى إلى أسرة قديمة من الكتاب<sup>(٤)</sup> ، قال معاصره الصولي ولا أعلم أنه ورر لى العباس ورير يشبه في رده وتعهده ، فقد كان يصوم بهاره ويقوم ليله<sup>(٥)</sup> وكان يخرج نصف ما يرتفع له في السنة في أبواب البرّ وسل الخير<sup>(٦)</sup> ، وكان متهاوما قليل المالاة حتى إنه لم يستطع أن يعير طبعه في كلامه عند مخاطبة الخليفة ، وذلك على عكس ابن

(١) كتاب الوريث ص ٦٤ ، ١١٩

(٢) نفس المصدر ص ١٣٣ — ١٣٤ ، ١٣٩

(٣) نفس المصدر ص ١١٧

(٤) المسطم ص ٧٦

(٥) كتاب الوريث ص ٣٢٢ — ٣٢٣

(٦) حسن المحاصرة للسيوطي ج ٢ ص ١٢٦

الفرات ، مما أحفظ الخليفة عليه<sup>(١)</sup> وقد طلب الأحمش العموي (المتوفى عام ٣١٥ هـ) من علي بن عيسى أن يحرق عليه ررقا ، ووسط في ذلك أنا علي بن مقلة ، فانهزه علي بن عيسى انتهاراً شديداً في مجلس حافل ، فشق ذلك علي ابن مقلة ، وفام من مجلسه « وقد اسودت الدنيا في عيبيه » ، ووقف الأحمش على البصورة فاعتم ، وقيل إنه قص على قلبه ثبات<sup>(٢)</sup> وكان علي بن عيسى متمسكا بالوقار ، ولا رؤى قط متدلاً ، ولا كان يفارق الحف في أكثر أوقاته إلا إذا أوى إلى فراشه أو قعد مع حرمة<sup>(٣)</sup> وكان يشتغل بالنظر في أمور الدولة ليله وسهارة<sup>(٤)</sup> وكان يحمل وراء كل باب مسورة ، ويسبل عليها ستراً طويلاً يعطيها ، فإذا جلس بعد عمله الكثير في أحريات النهار مجلساً حافلاً ألصق بها طهره لئلا يشاهد مستنداً تمسكاً بالوقار<sup>(٥)</sup> وقد رأينا فيما تقدم ما أصابه من الدلة والاستكابة بعد عرله من الورارة ، وكان لتدبته وورعه يلوم ابن الفران على تقليده ديوان جيش المسلمين لرحل نصرائي<sup>(٦)</sup> وقد تخرج من تقليد أسائه الأعمال مدة وراثته<sup>(٧)</sup> ، وحاول أن يتدارك العجز في «ت المال بالاعتصاد في الأمور الصغيرة ، فأقص أوراق العمال والحمد ، وأسقط ما كان يُقرى على القواد والفرسان في كل عيد ، وكان ذلك من شاة إلى عدة عرا ، وحاول أن يجمع من امتداد الأيدي إلى الأموال العامة ولكن ابن الفران سمع عليه بقوله : «أنا الحسن علي بن عيسى اتمعت نفسك فأحلق المملكة والنظر في علوة البط والخطيطة من أوراق الناس ، وما يحرق هذا المحرق من الصغار المستهجات ، لعمارة تدير واحد أصلح للسلطان وأعود عليه من تهويرك ما تقررت به إليه وكان يوفر من الأشياء الصغيرة ويحكي أنه قصي مرة ساعة يباظر في علوة البط حتى إن المتولى لسكيل العلوة سأل كاسه عن ررقه في الشهر ، ووجد أنه يتقاصى عن الساعة عشرين ديناراً ، فقال « قد نظر الورير في أكثر من ساعة لتووير ما لا يبلغ ما استحقه من الرق »

(١) نفس المصدر ص ٣٣٣ — ٣٣٤

(٢) الإرشاد لياقوب ح ٥ ص ٢٢٤ — ٢٢٥

(٣) كتاب الوراء ص ٣٢٥ (٤) حريب ص ١٣

(٥) الوراء ص ٩٥ ، ولكن حاله كان له مشرون من النصارى Bahebr Chron

Eccles III,241

(٦) كتاب الوراء ص ٢٦٦ (٧)

ولكن على بن عيسى مع تقواه هذه وتدقيقه في الأمور الصغيرة لم يصدق الخليفة حياً راسله ليقر بما عنده من أموال ، فكتب يدكر أنه لا يقدر على أكثر من ثلاثة آلاف دينار ، هذا وقد وُحِدَ له بعد ذلك عند رحل سبعة عشر ألف دينار ولما صيّقوا عليه استحباب أحياناً إلى دفع ثمانمائة ألف دينار ، يُعَجَّلُ منها الثلث في ثلاثين يوماً ، ويؤدي الباقي على رسم المصادرات<sup>(١)</sup> وكان على بن عيسى يوح أن عبد الله الريدي لأنه حلف للسلطان أن استعمال صيعته عشرة آلاف دينار ، وهو في الحقيقة ثلاثون ألفاً ، فقال الريدي إنه اقتدى على بن عيسى حيت حلف لاس الفرات أن ارتفاع صيعته عشرون ألفاً ، فوُحِدَ بعد ذلك حسين ألفاً ، فكأنه أقم على بن عيسى حراً<sup>(٢)</sup> فلم يكن هذا الوريث بقى اليد تماماً ، وقد فرط في تصميم الشام ومصر ، وترك مالا معجلاً إلى مال مؤجل لا يدرى ما يجري فيه ، وقد واجهه حصومه بذلك ، فلم يستطع أن يبرر هذا التصرف<sup>(٣)</sup> وقد ولي أبو علي محمد بن عبيد الله الخاقاني الوراثة مدة سنتين ، وذلك بين وراثة ابن الفرات وعلى بن عيسى وكان الخاقاني هذا ابن وريث ، وهو ينتمي إلى أسرة من الأشراف المتصلين بالخلافة ويدكر ما سجله التاريخ من أمره بكثير من الديمقراطيين الذين يفتحون صدورهم للعامة كان الخاقاني متعلقاً عامياً ، إلا أنه كان حنبلاً داهياً<sup>(٤)</sup> ، فقد كان يوقع بكل سؤال ، ويعيد بإبعاد كل محال ، وكان من عادته إذا سُئِلَ حاجة أن يدق صدره بيده ، ويقول نعم وكرامة ، حتى لُقِّبَ « دق صدره » ، وبلغ من لين العريكة وقلة البصيرة وعدم تصور عواقب الأمور ، وعدم الممع من شيء يحاطب فيه أن انسلطت العامة عليه فصلاً عن الخاصة<sup>(٥)</sup> وقد صُوِّرت شخصيته وأحيطت بحكايات مصحكة قيلت عن غيره ، وهي تدل على قلة الأدي أحياناً وعلى سوء السريرة أحياناً أخرى ، وكانت طريقته كثرة التولية والعزل ، فكان يعين في المنصب الواحد رجالاً كثيرين واحداً بعد واحد ، ولم يكن ذلك عن قلة تقدير للمسئولية ، بل ليأخذ من كل منهم رشوة<sup>(٦)</sup> ويحكى أنه

(١) كتاب الورداء ص ٢٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٣٥١

(٢) مسكويه ج ٥ ص ١٩٧ — ١٩٨

(٣) كتاب الورداء ص ٢٩ (٤) نفس المصدر ص ٢٨

(٥) نفس المصدر ص ٢٦٣ ، ٢٧٦

(٦) ذكر صاحب الفهرى (ص ٣١٣) ما قاله الشعراء المعاصرون هتاءً للخاباني



اجتمع في حان واحد بمدينة حيوان ( بالعراق ) سعة أنس ، وقد قلّد الخاقاني كل واحد منهم مائة الكوفة في عشرين يوما ، واجتمع بالموصل خمسة آخرون قد قلّدهم مصصا آخر ، وهناك تشاكوا ما بدلوه عن تقليدهم<sup>(١)</sup> وقد ذكر أن الخاقاني قلّد عمالة نادوريا في أحد عشر شهرا أحد عشر عاملا<sup>(٢)</sup>

وإذن فقد تقلّد مصص الوراثة في أوائل القرن الرابع ووراء ثلاثة يختلف أحدهم عن صاحبه كل الاختلاف ، ولا يجمع بينهم إلا حصة واحدة هي الحياة التي بها انتهوا حراة الدولة

أما حامد بن العباس<sup>(٣)</sup> الذي ولي الوراثة عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م فقد كان على خلاف غيره من الورراء ، لأنه لم يتخرج في الدواوين ، بل بدأ حياته بالاستتعال في أمور التجارة والمال وصحان الجراح ، حتى عظم شأنه ، ولما ولي الوراثة كان في الثمانين من العمر ، واحتفظ بما كان بيده من صمائمات ، ولم يكن يعرف شيئا من أمور الكتابة ، ولم يكن يصيبه من الوراثة إلا اللقب والحلعة ، وكان المدتر للأمور على بن عيسى الذي كان وريثا من قبل ، وقد قال ابن سقام الشاعر مستهزئا بحامد بن العباس<sup>(٤)</sup>

يا ابن الفرات مرّه قد صار أمرك آه

لما عرلت حصلا على وريز ندايه

وقد قيل فيهما « هذا وريز بلا سواد ، ودا سواد بلا وريز » ولما سأل حامد ابن العباس الخليفة المقتدر إطلاقا على بن عيسى والإذن له في استخلافه في الدواوين لقله حدة حامد بالوراثة ، قال المقتدر ما أحسب أن على بن عيسى يحيب إلى ذلك ، ويرى أن يكون تابعا بعد أن كان رئيسا ، فقال حامد محصرة الناس إنما مثل الكاتب كمثل الحياط ، يحيط ثوبا عشر دراهم ، ويحيط ثوبا قيمته ألف دينار ، فصحك الناس منه واستنقصوه<sup>(٥)</sup> ولما ناظر حامد بن العباس ابن الفرات بعد عرله أحش له في القول فقال له ابن الفرات

(١) الفهرى ص ٣١٣ — ٣١٤ ، وكتاب الورراء ص ٢٦٣ وقد ذكر صاحب الفهرى أن البولة كانت للكوفة ، وهي الناحية التي كانت تسمى عند الفرس مائة الكوفة

(٢) عريب ص ٣٩

(٣) يحد الفاري ترجمة محصرة له في المقدمة الإخبارية لكتاب الورراء ص ١٨ هامس رقم ١

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٢٥ (٥) كتاب العيون ص ١٠٤ ، ب

ليس ما أمت فيه نَبَذَرًا تقسمه ، وأكّاراً تشتمه وتحلق لحيته وتصربه ، وعاملاً تدح دانتته وتعلق رأسها في عنقه ، فإمّا هذه الدار دار حليفة<sup>(١)</sup> وقد أظهر من الأتية ما يطهره ذور المحجد الحديث لا المؤنل ، فكان له ألف وسعمائة حاجب وأربعمائة مملوك يحملون السلاح ، لكل واحد منهم ممالك ، وكان الملاحون في حراقتهم من الحصيان البيض ، وهم أعلى الحصيان ثمنًا<sup>(٢)</sup> وقد جرى بينه وبين مصلح الأسود كلامٌ مرة ، فقال له حامد : « لقد همت أن أشتري مائة حادم أسود وأسميهم مصلحا وأههم لعلاني »<sup>(٣)</sup> وكان طاهر المروءة كثير العطاء ؛ فيحكى أن أحد خدم المقتدر شكّا إليه فناء شعيره ، فكتب له مائة كُرٍّ من الشعير ، وكان يسبق على الطعام كل يوم مائتي دينار ، ولا يسمح بأن يخرج من الدار أحد من الخلّة والحاشية والعامة وغيرهم ، إذا حصر الطعام ، إلا أن يأكل ، حتى علمان بالناس ، وربما نُصب في داره في اليوم الواحد أربعون مائدة وقد أهدى إلى المقتدر ستاناً أُنق على مائه مائة ألف دينار ، ويحكى أنه ركب يوماً إلى ستان له ، فرأى في طريقه داراً محترقة وشيخاً يبكي ، وحوله صبيان وساء على مثل حاله ، فلما عرف أن داره قد احترقت وأنه افتقر تألم قلبه له ، وتمصّصت عليه الرهبة سبب ذلك ، ولم تسمح له نفسه بالتوجه إلى ستانه إلا بعد أن أمر أن تُبنى الدار كما كانت ، وتوضع فيها الفرش وكل ما كان فيها ، حتى إذا عاد العشيّة من الرهبة وجد الشيخ وعياله كما كانوا ، وقد بُنيت الدارُ على أحسن مما كانت ، وأُنق في ذلك مال كثير<sup>(٤)</sup> ولكن حامد بن العباس لم يتورّع من حرق الخبث في العراق وخورستان وأصفهان ، بعد أن كان قد ضمن هذه البلاد بمال يدفعه للحليفة ، حتى ارتفعت الأسعار ، وأدّى ذلك إلى اضطراب العامة وثورتهم عليه حتى فُسح الصمان<sup>(٥)</sup>

أما الورير ابن مقلة (ولد في بغداد عام ٢٧٢ هـ — ٨٨٥ م) فقد نشأ من بيت متواضع<sup>(٦)</sup> ،

(١) كتاب الوراء ص ٩٢ ، كتاب العيون ص ١٩٥

(٢) المسظم ص ١٢٥ ، ب (٣) ابن الأثير ح ٨ ص ١٠٢

(٤) المسظم ص ١١٩ ، ١٢٥ ، ب ، ١٢٦

(٥) نفس المصدر ص ١١٨

(٦) كان من حطه الشاعر وبين ابن مقلة صداقة فل الوراره ، فلما اسورر اسأدن عليه حطه ،

فلم يؤدّن له ، فعال

فل للورير أدام الله دوله اذكر مادمتي والخبر حشكار

إد لى بالاب بردون لوسكم ولا حمار ولا في الشط طيار

(المسظم ص ٦٤ ب)

(٩)

وتقلد الورارة ، وهو في الستين من العمر ، وكان ممن اشتغل بين يدي ابن العرات وارتفع بسببه<sup>(١)</sup> . وقد تعلم منه الشيء الكثير ، ومن ذلك أنه استطاع أن يجمع كثيراً من المال في سبعين قليلة ، وورر ثلاثة حلفاء في أوائل القرن الرابع ، وبني لنفسه داراً عظيمة في بقعة من أحسن بقاع مدينة السلام وكان يعتقد بالحوم ، فجمع المحبين ، حتى احتاروا له وقت الساية ، فوضع أساس الدار بين المغرب والعشاء وكان له بستان كبير أشاء ملا محل ، وعمل له شبكة اريسم ، وكانت تفرح فيه الطيور التي لا تفرح إلا في الشجر كالقمارى والداسى والهرار والنع واللال والطواويس ، وكان فيه من العرال والقر الدوية والنعام والإبل وحير الوحش وكان يحاول أن يحرب التراوح بين الحيوان ، ونُشِّر مرة بأن طائراً بحريا وقع على طائر برّي ، فأزوحا وناصا وأفقسا ، فأعطى من بشر بذلك مائة دينار<sup>(٢)</sup>

وكان ابن مقلة صاحب مؤامرات ، حريثاً في ذلك ، وبتهمه المؤرّحون بالإيقاع بين القاهرة ( ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م ) وحده ، وبأنه شجّد بياتهم ، وجمع كلمتهم على قصد القاهرة والفتك به<sup>(٣)</sup> . وقد سعى عبد المحكم وعبد الخليفة الراصى على ابن رائق الذى كان في ذلك الحين قابضاً على رمام الأمور سعداد ، وذلك لأن ابن رائق لما صار إليه تدبير الملكة قصص على صياح ابن مقلة<sup>(٤)</sup> ولكن الخليفة احتال حتى قصص عليه وسلمه لاس رائق ، وذلك على الرغم من أنه استشار المحبين في اختيار وقت للقاء الخليفة<sup>(٥)</sup> واستقر الأمر على معاقبته بقطع يده اليمنى<sup>(٦)</sup> ، ومن سكد الدنيا ، كما يقول الثعالى ، أن مثل هذه البدة العيسة تُقطع ، لأن حظ ابن مقلة كان من أحسن حظوظ الدنيا ، وهو أكرم مؤسس للكتابة العربية الحديثة التي طلت مستعملة طول القرن الرابع الهجرى<sup>(٧)</sup> على أن ابن مقلة بدلاً من أن

(١) كتاب العيون ص ١٧٣ ، والمسطم ص ١٦٤

(٢) المسطم ص ١٦٤ — ب

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٧ — ٤٤٨ (٤) كتاب العيون ص ١٥٧ ب

(٥) نفس المصدر ص ١٥٩ ب

(٦) نفس المصدر ص ١٦١ ب ، ١٦٢ ب ، وقد وصف الطبقات من شأن حال الذراع بعد

قطعها ، اطر مسكويه ج ٥ ص ٥٨١ — ٥٨٢

(٧) كان في حراسة كتب عهد الدولة بصرار مصحح بخط أى على من مقلة في ثلاثين جزءاً محلاً —

الإرشاد والياقوت ج ٥ ص ٤٤٦ ، واطر ثمار القلوب للعالى ص ١٦٧



يكتب بيده اليسرى كان يشد القلم على ساعده الأيمن ويكتب<sup>(١)</sup> ، غير أنه ، رغم ما حل به ، وأصل سعاياته ودسائسه غير راجع عن ذلك ، فقطع لسانه بعد ثلاث سنين ، ونقى في الحس مدة طويلة ، حتى مات وقد وصف المؤرخون حال هذا الرجل في آخر أيامه ، بعد القوة وحياة الأنفة ، فيقال إنه كان لا يحد من يخدمه ، حتى كان يستقي الماء بنفسه من البئر ، فيحدث حل الدلو بيده اليسرى ثم يمسكه بفيه<sup>(٢)</sup>

ومن ورراء القرن الرابع أبو العباس الحصبى ، وكان يواصل شرب السيد بالليل والنوم بالنهار في أيام وراثة كلها ، وكان ينته محموراً لا فصل فيه للعمل ، فيترك فص الكتب الواردة من عمال الحراح وقراءتها والتوقيع عليها وإحراجها ، إلى الدواوين وكانت تعمل له حوامع مختصرة لما يرد من الكتب المهمة ، فتعرض عليه إذا انته ، فرما قرأها ، ورنما لم يقرأها ، فيقرأها أبو الفرح إسرائيل المصراني ، ويوقع فيها بحسب ما يرى<sup>(٣)</sup> وكان الحصبى مشغولاً بالشراب واللعب ، ولا يحس شيئاً غير المصادرات<sup>(٤)</sup>

وقد تولى الوراثة حوالى منتصف القرن الرابع أبو محمد الحسن المهلبى ، فكان وريراً ذا كفاية عظيمة ، وأصله من آل المهلب من أى صفة<sup>(٥)</sup> ، فهو إحد من سادة الإسلام الأولين ، وكان وطن المهالبة بالبصرة ، حيث اتحدوا في القرن الثالث الهجرى دوراً عظيمة عُرفت بحسبها<sup>(٦)</sup> وكان أبو محمد المهلبى ، قبل الوراثة ، فى سدة عظيمة ، وسافر مرة ، وهو على تلك الحالة ، فلقى فى سفره عتاً شديداً ، واستهى اللحم فلم يقدر عليه ، وأشد فى ذلك الوقت شعراً تدرم فيه بالحياة وتمنى أن يحد أحداً يبيع له الموت فيشتريه ، وسمعه رفيق له ، فاشترى له لحماً بدرهم ، وأطعمه ، وتعارفا ثم تنقلت الأحوال بالمهلبى وتولى الوراثة ، وصاق الحال رفيقه الذى اشترى له اللحم ، وبلعة أنه تقلد الوراثة ، فقصده ، وأشده شعراً ذكره فيه بهذه به ؛ فهرت المهلبى أريحية الكرم ، وأمر له سعمائة درهم ، وقلده عملاً يرتفق مه<sup>(٧)</sup> وفى عام ٣٣٤ هـ

(١) كتاب العيون ص ١٦٢ ب — ١٦٣

(٢) نفس المصدر ص ١٦٣

(٣) مسكويه ح ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ وكان اسم إسرائيل من أسماء الصارى التى احتسوا بها

(٤) نفس المصدر ص ٢٤٧ (٥) نعمة الدهر ح ٢ ص ٨

(٦) كتاب المرواة للتعالي مخطوط براب رقم ٩ ص ٥٤ ب ١٢٩

(٧) ثمرة الأوراق للحموى ، على هامش محاصر الأدياء ح ص ٨٢

— ٩٤٦ م ، وهو العام التاريخي المشهور ، استولى المهلي على عداد إلى أن ورد لها معر الدولة<sup>(١)</sup> ومحمد المهلي قبل ذلك أي في عام ٣٢٦ هـ — ٩٣٨ م وكيلا لأبي ركريا السوسي ، وكان السوسي هذا من كبار رجال المال<sup>(٢)</sup> ، ثم استحلته الوريير أبو جعفر الصيمري على الأمور بمدينة السلام ، وأبانه بعد ذلك محصرة معر الدولة ، فحس موقعة عند معر الدولة ومال إليه وقرته ، فاستند ذلك على الصيمري ، فتطلب للمهلي الدوب ، وأطلق فيه لسانه بالوقية<sup>(٣)</sup> ولما مات الوريير في سنة ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م استكنه معر الدولة وآثره على جميع الكتاب<sup>(٤)</sup> . ولم يُحاطب بالورارة إلا في سنة ٣٤٥ هـ<sup>(٥)</sup> . وكان الأصفهاني صاحب الأعاني مقطعا إلى الوريير المهلي ، كثير المدح له ، وهو يصفه بأن له بطا كالدرة وثرأ رقيقا وقدرة على التعبير عن المعنى الكثير باللفظ القليل<sup>(٦)</sup> ، ولكن المهلي كان إلى جانب هذا قائدا محكا ، فمن ذلك أنه هرم صاحب عمان حيا عرا البصرة وعم منه وأسر<sup>(٧)</sup> ولقد مات عام ٣٥٢ هـ — ٩٦٣ م وهو خارج لفتح عمان ، وذلك بعد أن لث في الورارة أكثر من ثلاث عشرة سنة كان فيها يدير أمور أكر ديوان في الدولة<sup>(٨)</sup> ، وكان مخلصا في المحافظة على النظام ، ورد رسوم الضرائب إلى ما كانت عليه قبل ظلم الريدبيين<sup>(٩)</sup> ، وكان يؤدب العاشين ، فمن ذلك أنه قصص على حاجب قاضي القضاة وصره صرت التلف ، وكان يبلعه أن هذا الرجل عاهر «يتعرض لحرّم الناس ممن لهم حصومة أو حاجة عند قاضي القضاة»<sup>(١٠)</sup> ، ولكن المهلي كان يفعل في بعض الأحيان ما يثير سخطا ، ومن أمثلة ذلك أنه تعقب أحد العمال ، وأحد في التقير عن أمواله وفي إرهاب علمائه حتى طهر بالمال الكثير ، واستعمل الدهاء والمكر والبطش في بلوع ذلك ، وإن كان ليس في هذا ما يشين عند حلفاء ذلك العهد وأمرائه ، حتى إن مسكويه يذكر صبيح المهلي معجبا بكائه وصدق تحييه ورضاء معر الدولة عنه<sup>(١١)</sup> ، بل يحد أن المهلي نفسه لم يسلم من مثل هذا المصير ، فلما مات قصص

- |                             |                                |
|-----------------------------|--------------------------------|
| (١) مسكويه ح ٦ ص ١٢١        | (٢) نفس المصدر ح ٥ ص ٥٧٥       |
| (٣) الإرشاد لباقوت ح ٣ ص ١٨ | (٤) مسكويه ح ٦ ص ١٦٥           |
| (٥) نفس المصدر ص ٢١٤        | (٦) البيهقي ح ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩    |
| (٧) مسكويه ح ٦ ص ١٩         | (٨) نفس المصدر ح ٦ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ |
| (٩) نفس المصدر ص ١٦٩        | (١١) نفس المصدر ص ٢٤٧ — ٢٤٨    |
| (١) مسكويه ح ٦ ص ٢٤٣ — ٢٤٤  |                                |

معرو الدولة على عياله وولده ومن دخل إليه يوماً واحداً ، حتى الملاحين والمكاريين الذين كانوا يخدمون حاشيته ، وصادروهم جميعاً ، وفعل بهم ما لا يفعل إلا عدو مكاشف ، حتى استطع الناس ذلك واستقبحوه<sup>(١)</sup> ، وكان المهلى يحد من سيده أميراً قاسياً ، فكان يلحقه منه أذى كثير ، حتى لقد صر به بالمقارع مرة مائة وحسين مفرقة<sup>(٢)</sup> ولم يكن على وفاق مع سكتكين القائد التركي الذى كان أكرتقات معرو الدولة<sup>(٣)</sup> ، ولكن المهلى كان له على معرو الدولة سلطان فى الأمور الهامة ، فلما أراد الأمير أن يترك بغداد لم يرل المهلى به حتى صرفه عن رأيه ، فانتى قصره العظيم ببغداد ونفى بها<sup>(٤)</sup> وكان بدماء المهلى أعيان الفصل وسادة دوى العقل<sup>(٥)</sup> ، من أهل الأدب والعلوم ، وكانوا يجتمعون على كثير من الشراب والطرب وقد تكلم مسكويه فى حديث له قصير عن صفات المهلى وسجائه وآثاره ، وإن لم يكن مسكويه من المتحمسين للمهلى<sup>(٦)</sup> ، وقد حدث مرة أنه صاع دواة ومرفقاً ، وحلاها حلية ثقيلة ، وكان بعض الكتاب فى ديوانه يتدأكرون سر حسن الدواة ، وذلك على مسمع منه وعفلة منهم ، فقال أحدهم ما كان أحوشى إليها ، لأبيعها وأشفع شمسها ، فقال له آخر وأى شىء يعمل الورير ؟ فأحابه يدخل فى حرأمه ، فلم يكن من المهلى إلا أن أهدى الدواة ، ومعها عطايا أخرى للرحل الذى تمهاها<sup>(٧)</sup> ويحدثنا القاصى أبو على التوحى ، معترفاً بفصل الورير المهلى ، فيقول إنه استدعاه لصداقة كانت بينه وبين أبيه وقلده عملاً ، وكان أبو على يلازم الورير ، فدخل عليه يوماً قاصى القصة أبو السائب ، وكان أبو السائب يبعص أنا على ريادة عداوة كانت لأبيه ، وأراد الورير أن يلقى فى نفس القاصى رهبة أنى على ، حتى يرهبه ويكرمه ، وعلم من خلق القاصى أنه لا يحىء إلا بالرهبة ، فأحد الورير يكلم الفتى ، ويوهم قاصى القصة أنه يسارته فى أمر من أمور الدولة ، وأفهم أنا على عرصه من هذه المسارّة ، وأنها شديدة على نفس القاصى ، وقال له أن يمضى إليه فى العدايرى ما يعامله به ، فلما جاء إلى القاصى كاد يحمله على رأسه<sup>(٨)</sup>

(١) نفس المصدر ص ٢٥٨

(٢) انظر ما تقدم عند الكلام عن معرو الدولة فى الفصل الخاص بالأمرء

(٣) مسكويه ح ٦ ص ٢٤١ — ٢٤٢ (٤) نفس المصدر ص ٢٤١ — ٢٤٢

(٥) رسالة فى الصداقة للوحيدى ، طبعه المطبعة ص ٣٣

(٦) مسكويه ح ٦ ص ١٦٦ (٧) المسظم ص ٩١ ب

(٨) الإرشاد لابن ح ٦ ص ٢٥٣ — ٢٥٤



وكان أشهر الورراء أواخر القرن الرابع ابن عباد الملقب بالصاحب<sup>(١)</sup> الذي ولد عام ٣٢٦ هـ وتوفي عام ٣٨٥ هـ = ٩٣٨ — ٩٩٥ م ، وزير بني نويه بالرقي وكان في بدء أمره معلماً في قرية ، ثم ترقى به الحال ، بعد أن كان من صغار الكتاب ، إلى أن بلغ منصب الوزير المدتر لأموال الملك ، وكان الأمير الشاب الذي استورره والذي أنشأ له ابن عباد مملكته لا يحالعه في أمر من الأمور ، بل حاكمه في كل شيء ، وكان يحله نكل صروت الإحلال<sup>(٢)</sup> ، ولما مات الصاحب عمل له ما يعمل للملوك ، فحصر حمارته محدومه فخر الدولة وجميع أعيان المملكة ، وقد عثروا لناسهم ، فلما خرج نعشه صاح الناس صيحة واحدة ، وقتلوا الأرض لنعشه ، ومشى فخر الدولة أمامه ، وقعد للعرء أياماً<sup>(٣)</sup>

وكان ابن عتاد من الأدباء ومن المعنيين بأهل الأدب ، وقد شتهه ما دحوه بهارون الرشيد ، وذلك لأنه أشبه الرشيد بأن جمع حوله أحسن أهل اللس ، وكانت له مراسلات مع رؤساء الأدباء بالشام وعداد أمثال الرصى والصانى وابن الحجاج وابن سكرة وابن سائه<sup>(٤)</sup> ، وكان فهرس كتبه عشرة مجلدات ، وملك من كتب العلم خاصة ما يحمل على أرمائة حمل ، وذلك رغم أنه لم يكن حديراً بالعلوم الإلهية ، وأنه كان شديد التعصب على أهل الحكمة والباطرين في أحرانها كالمهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمطق والعدد<sup>(٥)</sup> وتذكر له رسالة حسنة في الطب<sup>(٦)</sup> ، ولم يكن الصاحب يقدر على عطايا الأدباء عن سعة ، كما يحكى عن تقدمه من إحزال العطاء لهم ، فقد « كان لا يريد على مائة درهم وثوب إلى جسمائة ، وما يبلع إلى الألف نادر ، وما يوفى على الألف بديع »<sup>(٧)</sup>

وكان الصاحب يعجبه الحر خاصة ، وكان يكثر من إهدائه ، فطر أبو القاسم الرعمرائى

(١) كان ابن عتاد أول من لفت بالصاحب من الورراء ، ثم سمي بهذا الاسم عميد الحوش حوالى عام ٤ هـ (ديوان الشريف الرصى طبعة بيروت ٧ ١٣ هـ ص ٣٢١) ، وبعد ذلك لفت هـ « كل من ولى الوراثة حتى حرافس زمانا ، جملة اللحم وأحده المكوس » (ابن عربى بردى طبعه كلفورما ص ٥٦)

(٢) الإرشاد لنافوت ح ٢ ص ٢٧٣ والصفحات التالية

(٣) ابن عربى بردى طبعة كلفورما ص ٥٧ (٤) بسمه الدهر ح ٣ ص ٣٢

(٥) الإرشاد لنافوت ح ٢ ص ٢٧٦ ، ٣١٥

(٦) البسمه ح ٣ ص ٤٢ وما بعدها

(٧) الإرشاد ح ٢ ص ٤ ، ح ٦ ص ٢٧٦ طلب الشاعر المعربى منه جسمائة دينار فقال له

أنعصا واحلها دراهم

الشاعر يوماً إلى من في دار الصاحب من الخدم والحاشية ، فوجد عليهم الحرور العاحرة الملوثة ، فكتب قصيدة يطلب فيها كسوة من الحرّ قال فيها

وحاشية الدار يمشون في صروب من الحرّ إلا أنا

« فقال الصاحب قرأت في أحبار معن س رائدة أن رحلاً قال له احملي أيها الأمير! فأمر له ساقه وفرس وعلّة وحمار وحارية ، ثم قال لو علمت أن الله تعالى خلق مركوباً غير هذا لمثلتك عليه ، وقد أمرنا لك من الحرّ بحُنة وقيص ودرّاعة وسراويل وعمامة ومسديل ومطرف ورداء وحورب ، ولو علمنا لباساً آخر يتّخذ من الحرّ لأعطيناكه »<sup>(١)</sup>

غير أنه كان من عدم توفيق الصاحب أنه أعصب التوحيدى ، فأثار على نفسه الدم من أقذع الألسنة في عصره ، على أنه قد وصلت إليها رسالة من أنى حيان كتبها للصاحب ومدحه بها في أول اتصاله به<sup>(٢)</sup> ، ثم انتهت العلاقات بينهما بأن كتب أبو حيان رسالته في دمّ الصاحب ، وكان فيها من الإقذاع في الثلب ما جعلها تعتر حالة للحس والشؤم على من يقتنيها ، ومع هذا فإنها من أروع آيات النثر العربي ، ومن أحسن ما كتبت في تصوير شخصيات الناس في القرن الرابع الهجرى

فمن ذلك أن أما حيان يقول وكان أبو الفصل من العميد إذا رآه قال أحسب أن عبيده رُكّتا من رثق ، وعقّه عمل بلوّب ، وصدّق ، فإنه كان طريف التثني والتلوي ، شديد التفكك والتفتل ، كثير التعوّج والتموّج ، في شكل المرأة المومسة والعاحرة الماحنة<sup>(٣)</sup> وعن أنى حيان أنه وصف الصاحب بأنه لا يرجع إلى التأله والرحمة والرقّة والرأفة والرحمة ، والناس كلهم يحكمون عنه لحرايته وسلاطته واقتداره وبطشه ، شديد العقاب ، ضعيف الثواب معلوب بحرارة الرأس ، سريع العصب ، قريب الطيرة ، حسود حقود ، وحسده وقّف على أهل المصل ، وحقده سار إلى أهل الكفاية وقد قتل حقّاً ، وأهلك ناساً ، وبى أمة ، بحوةً وسعياً ، وتحثراً ورهوا ، ومع هذا يحدّعه الصنى ويحلبه العى ، لأن المدخل

(١) ينسبه الدهر ح ٣ ص ٣٣ — ٣٤ ، والإرشادات لبافوت ح ٢ ص ٣٢

(٢) تحد الرسالة في الإرساد ح ٢ ص ٢٩٨ والصفحات التالية ، والمؤلف قد فاب عليه أن هذه

الرسالة من ابن العميد لاس عاد (المرحم)

(٣) الإرشاد لبافوت ح ٢ ص ٢٨٨ — ٢٨٩

عليه واسع ، والمأتى إليه سهل ، وذلك بأن يقال له . «مولاي يتقدم بأن أعار شيئا من كلامه  
ورسائله مطومة ومشورة ، فما خُتت الأرض إليه من فرعاة ومصر وتقليس إلا لاستعيد من  
كلامه ، وأفصح به وأتلم به البلاعة ، لكأنا رسائل مولانا سُور قرآن ، وقرءه آيات  
فرقان ، واحتجاجة من أتائها برهان ، فسحاح من جمع العالم في واحد ، وأرر جميع قدرته  
في شخص ! » ، فيلين عند ذلك ويدوب ، ويلهى عن كل مهم ، ويسى كل فريضة عليه ،  
ويتقدم إلى الحارث بأن يخرج إليه رسائله مع الورق والورق ، ويسهل الإذن عليه ، والوصول  
إليه والتمكس من مجلسه ثم يعمل في أوقات كالعيد والفصل شعراً ، ويدفعه إلى أنى  
عيسى بن المهجر ، ويقول له قد ملكت هذه القصيدة ، امدحى بها في حملة الشعراء ، وكن  
الثالث من المشدين ، فيعمل ذلك أبو عيسى ، وهو عدادى محكك ، قد شاح على الحدائع  
وتحكك ؛ ويشد ، فيقول صاحب عند سماعه شعره في نفسه ووصفه بلسانه ، ومدحه  
من تحيره

أَعِذْ يا أبا عيسى فإبك والله مُجيد ، ره يا أبا عيسى ! قد صفا دهنك ، ورادت قريحتك  
وتفتحت قوافيك ، ليس هذا من الطرار الأول ، حين أشدتنا في العيد الماصى ، محالس  
تخرج الناس ، وتهب لهم الدكاء ، وتريدهم العطة ، وتحول الكودن عتيقا والمحمر حواداً ،  
ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا نحائرة سدية وعطية هيثة ، ويعايط به الجماعة من الشعراء وغيرهم ،  
لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرص مصراعاً ولا يرن متاً ، ولا يدوق عروصاً والذى  
علطه في نفسه ، وحمله على الإعجاب بفصله والاستنداد برأيه أنه لم يُحَنَّ قط شحطئة ، ولا  
قول بتسوئة ، لأنه شأ على أن يقال أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ، والله درّه مارأيا  
مثله ! من ابن عند كان مصافاً إليه ؟ ومن ابن ثوانة بقيسه عليه ؟ ومن ابراهيم بن العباس  
الصولى ؟ ومن صريح العوانى ؟ من أشجع السلمى ، إذا سلك طريقهم ؟ قد استدرك  
مولانا على الخليل في العروص ، وعلى أنى عمرو بن العلاء في اللة ، وعلى أنى يوسف في القصاء ،  
وعلى الإسكافى في المواربة ، وعلى ابن بونحت في الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد في  
القراءات ؛ وعلى ابن حرير في التفسير ، وعلى أرسطاليس في المطق ، وعلى الكدى في  
الحدق ، وعلى ابن سيرين في العارة ، وعلى أنى العيلاء في البديهة ، وعلى ابن كعب في



البردوس [؟] ، وعلى عيسى بن كعب في الرواية ، وعلى الواقدي في الحفظ ، وعلى السحار في المدل ، وعلى ابن ثوانة في التقية ، فتراه عند هذا الهدر وأتساهه يتلوى ويتسم ، ويطير فرحا به ويقسم ، ويقول ولا كدى ، ثمرة السبق لهم ، وقصرا أن يلحقهم أو ينفقوا أثرهم ، وهو في ذلك يتشاحى ويتحايل ، وبلوى صدقه ويتلغ ريقه ، ويرد كالأحد ، ويأخذ كالمتمتع ، ويعصب في عرص الرصى ، ويرصى في لبوس العصب ، ويتهاك ويتالك ، ويتفانت ويتمايل ، ويمحكي المومسات ، ويمرح في أصحاب السباحات ، وهو ، مع هذا ، يطن أنه حاف على نقاد الأخلاق ، وجهادة الأحوال ، وقد أفسده أيضا ثقة صاحبه به ، وتعويله عليه ، وقلة سماعه من الناصح فيه ، دلالة ورقا وعمما ، واندراء على الناس ، واندراء للصغار والكبار ، وحسبها للصادر والوارد ، وفي الجملة آفاته كثيرة ودونه حجة ، ولكن العى رب عفور

دريى للعى أسعى بابى رأيت الناس شرهم الفقير  
وأعدهم وأهوبهم عليهم وإن أمسى له حسب وحير  
ويقصيه السدى وتردريه حليلته ويهره الصعير  
ولقى ذا العى ، وله حلال يكاد فؤاد صاحبه يطير  
قليل دسه ، والدب حم ولكن العى رب عفور

قال فكيف تتم له الأمور مع هذه الصفات ؟ قلت والله لو أن محمورا بلهاء أو أمة ورهاء أقيمت مقامه لكانت الأمور ، على هذا السياق ، لأنه قد أُمس أن يقال لم فعلت ؟ ولم لم تفعل ؟ وهذا باب لا يتفق لأحد ممن حدم الملوك إلا بخد سعيد ولقد بصح صاحبه الهروى في أموال تاوية وأمور من الطر عارية ، فقدف بالرقعة إليه حتى عرف ما فيها ، ثم قتل الراجع حنقا ، هذا وهو يدين بالوعيد ، وقال لى الثقة من أصحابه ربما شرع في أمر يحكم فيه بالخطأ ، فيقلبه حذو صوانا ، حتى كأنه عن وحى ، وأسرار الله في حلقه عند الارتفاع والامحطاط حمية ، ولو حرت الأمور على موضع الرأى وقضية العقل لكان معلما في مصطبة على شارع أو في دار لئان ، فإبه يمحرج الإنسان بتقيقه وتشادقه ، واستحقاره واستكباره ، وإعادته وإبدائه ، وهذه أشكال تعجب الصبيان ولا تنفرهم عن المعلمين ، ويكون مرحهم به سدا للملارمة والحرص على التعلم والحفظ والرواية والدراسة قال (أنوحيان) وكان

ان عماد يقول للإسنان إذا قدم عليه من أهل العلم يا أحمى تكلم واستأنس واستسط ولا  
تُرْعَ ولا يروحك هذا الحشم والخدم فإن سلطان العلم فوق سلطان الولاية .  
فقل ماشئت فلست تجد عدما إلا الإصاف ؛ حتى إذا استوى ماعد ذلك الإسنان  
هذه الرحارف والخيال ، وسار الرجل معه في حدوده على مذهب الثقة ، فحاجه وصايقه ، ووضع  
يده على الكتلة الفاصلة والأمر القاطع ، تمر له ، وتغير عليه ، ثم قال يا علام حدد بيد  
هذا الكلب إلى الحس ، وصغه فيه بعد أن تصب على كاهله وطهره وحننيه جسمانة سوط  
وعصا ، فإبه معاند صد ، وليس الخير كالعيان ، من لم يحصر ذلك المجلس لم ير مطراً  
رفيعاً ورحلاً رقيقاً وهل عد ان عماد إلا أصحاب الخدل يشعون ويحمقون ويتصايحون ،  
وهو فيما بينهم يصيح<sup>(١)</sup> كان ان عماد لا يسكت عما لا يعرف ، قال لكاتبه في بعض  
الأيام بعد أن ونحه وأطال « نادر إلى عمل حساب تفصيل باب بين فيه أمر داري وما  
دخل عليه أمر دخلي وخرجي ؛ فتورد الكاتب أياما وحرر الحساب على قاعدته وأصله والرسم  
الذي هو معروف بين أهله ، وجهه إليه ، فأحده من يده وأمر عيه فيه من غير ثنت أو  
خص أو مسألة ، فحذف به إليه ، وقال أهدا حساب ؟ أهدا كتاب ؟ أهدا تحرير ؟ أهدا  
تقرير ؟ أهدا تفصيل ؟ أهدا تحصيل ؟ والله لولا أني ربيتك في داري ، وشعلت تحريكك  
ليلي ومهاري ، ولك حرمة الصبي ورعاية الآباء لأطعمتك هذا الطومار ، وأحرقتك بالنقط  
والقار ، وأدبت بك كل كتاب وحاسب ، وحملتك مثلة لكل شاهد وعائب ، أمثلي يومه  
عليه ، ويطمع فيما لديه ، وأنا خلقت للحسنة والكتانة ؟ والله ما أنا ليلة إلا وأحصل في  
نهي ارتفاع العراق ، ودخل الآفاق ، أعرك مني أني أحررت رسك ، وأحفيت قبيحك ،  
وأبديت حسك ؟ غير هذا الذي رفعت ، وأعرف قل وبعد ماصعت ، واعلم أنك من  
الآخرة قد رحمت ، فرد في صلاتك وصدقك ، ولا تعول على قحتك وصلاة حذقتك » ،  
يقول الكاتب « فوالله ما هالي كلامه ولا أحاك في هديانه ، لأنني كنت أعلم جهله في  
الحسنة ونقصه في هذا الباب ، فدهت وأفسدت وأحرت وقدمت ، وكارت وتعمدت ، ثم  
رددته إليه ، فطر فيه ، وصحك في وجهي ، وقال أحسست ، بارك الله عليك ! هكذا أردت

وهذا سببه طلست ، لو تعافلتُ عنك في أول الأمر لما تيقظت في الثاني ، وهذا كما ترى ،  
أعجبت منه كيف شئت <sup>(١)</sup>

أما ابن العميد (المتوفى عام ٥٣٦٠ هـ — ٩٧١ م) فقد صورته لنا ابن مسكويه في تاريخه ،  
وكان حاربا لدار كتبه مدة طويلة ، وبقى في نفسه لاس العميد صورة وأثر قويان ، حتى إن  
التوحيدي يهرأ ناس مسكويه ويعيبه بأنه يفسد قوله بكثرة ذكره قال المهلبى ، قال ابن  
العميد ، فعل ابن العميد <sup>(٢)</sup> وقد ابتدأ مسكويه بمدح بطله بالقدرة على الحفظ ، وكان  
لهذه المزية في ذلك العصر قيمة أكرمها لها اليوم ، يقول المؤرخ « وحدثني غير مرة أنه  
كان في حداته يحاطر رفقاءه والأدباء الذين يعاشرهم على حفظ ألف بيت في يوم واحد ،  
وكان رحمه الله أثقل ورنا وأكرم قدراً من أن يتردد وكذلك شعره الذى حد فيه وهزل ،  
فإنه في أعلى درجات الشعر فأما المطلق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما حسر أحدٌ  
في زمانه أن يدعيها بحصرته ، إلا أن يكون مستعيداً أو قاصداً قصد التعلم دون المداكرة  
ثم كان يختص بعرايب من العلوم العامصة التى لا يدعيها أحدٌ كعلوم الحيل التى يحتاج فيها  
إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات العربية وحرر الثقل ومعرفة مركز الأثقال  
وإحراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل ، وعمل آلات عربية لفتح القلاع  
والحيل على الحصون ، وحيل في الحروب مثل ذلك ، واتحاد أسلحة عجبة سهام تعد أمداً  
بعيداً وتؤثر آثاراً عظيمة ، ومرايا محرقة على مسافة بعيدة حداً ، ولطف كفى لم يُسمع بمثله  
ومعرفة بدقائق علم التصاوير وقد رأيت يتناول التفاحة أو ما يحرقى محراها ، فيعت بها ساعة ،  
ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه قد حطها بظفره ، لو تعد لها غيره بالآلات المعدة وفي الأيام  
الكثيرة ما تأتى له مثلها ، فأما اصطلاحه بأمور الملك فقد دلت عليه رسائله ، ولا سيما رسالته  
التي يحرق فيها باضطراب أمر فارس وسوء سياسة من تقدمه لها ، وما يجب أن تتلافى به ، حتى  
تعود إلى أحسن أحوالها ، « فإن هذه رسالة تتعلم منها صناعة الورارة » ولما حصل  
فارس علم عصدة الدولة وحوه التدابير السديدة وصناعة الملك التى هي « صناعة الصاعات » ،  
ولقبه ذلك تلقياً ، فصادف متعلماً لقناً ، حتى قال عصدة الدولة مراراً إن أنا الفصل من

(١) الإرشاد لما وب ح ٢ ص ٢٧٦ — ٣٨١ ، ٢٨٨ — ٢٨٩ — ٢٩

(٢) رسالة في الصداقة للتوحيدي طبعه المصططبية ص ٣٢



العميد كان أستاذنا ؛ وكان لا يذكره في حياته إلا الأستاذ الرئيس  
 وكان ابن العميد يقود الحيوش ويحصر المراكب ، وكان أسداً في الشجاعة لا يُسقط  
 ساره ، ولا يُدخل في عماره ، وكان يركب العتاريات ، ولا يستقل ظهور الدواب لإفراط  
 علة القرس وغيرها عليه . وكان قليل الكلام ررا الحديث إلا إذا سُئل ووجد من يفهم عنه ،  
 وكان لحسن عشرته وطهارة أخلاقه إذا دخل إليه أدب أو عالم متفرد من سكنت له ،  
 وأصغى إليه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحساناً من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به  
 ما يورده عليه ؛ حتى إذا طاوله ، وأتت الشهور والسنوات على محاصرته ، وافق له أن يسأله عن  
 شيء تدقق حيثئذ بحرقه ، وحاس حاطره ، ونهت من كان عند نفسه أنه نارع في ذلك  
 الص ، « وما أكثر من جعل عنده من المعصين بأنفسهم ! » ، وكان مركزه في غاية  
 الصعوبة ، وهو بين أمير لم تكن له بين حده هبة إلا بالمدارة والمسامحة في أشياء كثيرة  
 وإطلاق الأيدي بالعت ، ولم يكن يستحب إلى عمارة السلاط « حوفاً من إحراج درهم  
 واحد من الخزانة ، ويقع بارتفاع ما يحصل للوقت » ، وبين حده الديلم الذين كانوا يطالسون  
 بالمحالات ، ويثقلون مؤونتهم على الرعية ، وتواعدون بالليل إلى مواضع عامصة يجتمعون  
 فيها ، ورنما حرحوا إلى الصحراء بقدر ما يدرون الرأي في وجه الحيلة وتريب ما يريدون ،  
 ولكن ابن العميد استطاع على الرغم من هذا أن يعيد النظام حتى استقام الأمر ، وقامت  
 الهيئة في صدور الحمد والرعية . ويحكى ابن مسكويه أنه كان يكنى ابن العميد أن يرفع الطرف  
 إلى أحدهم على طريق الإنكار ، فترعد الأعضاء وتضطرب ، وتسترحى المفاصل ، وأنه شاهد  
 ذلك في مواقف كثيرة . وقد استطاع أن يعرف طبائع الديلم وما فيهم من حسد وحشع ،  
 وأنه لا يملكهم أحد إلا بترك الرينة ، وبدل ما لا يطرهم ولا يجرهم إلى التحاسد ، وترك  
 التكر عليهم ، وبالظهور في مرتبة أوسطهم حالاً . ولما رأى ابن العميد أن انه يجب أن  
 يسي في خواص الديلم ، ويستميل قلوبهم بالحلح والهدايا ، ويدعوهم إلى اللعب والصيد ،  
 ويستضيفهم في الصحراء ، ساه عن ذلك ووعظه ألا يسير معهم هذه السيرة ، ولكن انصح  
 لم يفع ، فتحرع ابن العميد عيطه ، وراد ذلك في مرضه ، حتى مات في همدان ، وهو يقول  
 في مجلس حلواته ما يهلك آل العميد ، ولا يمحوا آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي ، يعنى انه ،  
 وكان يقول في مرضه ما قتلى إلا خرع العيط الى تحرعتها منه <sup>(١)</sup>

# الفصل الثامن

## المسائل المالية

مهما بدا التشريع الإسلامي في أمر الضرائب واضحاً بسيطاً في كتب الفقه ، مدد عهد أبي يوسف القاضي إلى أيام الماوردي ، وفيما تُجمع من كتب الحديث ، فإنه في الواقع متشعب مع عرارة وصعوبة ولو أراد الباحث أن يعرف العروق بين النظم المالية عند المسلمين وعند غيرهم لما استطاع أن يكتب دراسة هذه النظم في البلاد التي كانت تابعة للدولة الرومانية الموريطانية وللدولة الفارسية ، وذلك لأنه كانت هناك نظم أخرى في الضرائب يختلف بعضها عن بعض في الشام ومصر وشمال أفريقيا قبل ظهور الإسلام ، كما كانت ثم فروق بين النظم المالية في العراق وحراسان وحبوب فارس

ولم تكن في الدولة الإسلامية كلها ضرائب ثابتة ومفدة على نحو واحد إلا الضرائب الإسلامية الخالصة وهي ضريبة رؤوس أهل الدمة من اليهود والنصارى ، والزكاة المفروضة على المسلمين وكانت هذه تحسب على أساس الشهور ، تناسها شأن أحوار الأرحاء والمستعلات والأرض المقطعة وسائر ما يجري على المشاهرات وكانت هذه الضرائب الشهرية تجري بحسب السنة الهلالية ، وكان التقويم الهلالي يعمل به في الواقع في المدن الكبيرة التي يقل اعتمادها على الزراعة ، أما في الأرض الزراعية فلم يكن بدٌّ من أن يتمشى نظام الضرائب مع حال الزارع وأوقات العرس والحصاد ، أي أنه لم يكن بدٌّ من السير طبقاً للسنة الشمسية<sup>(١)</sup> وكانت هذه السنة الشمسية هي القطبية والشامية في البلاد التي كانت تحت حكم الروم ، أما في المشرق وكانت هي السنة الفارسية ، وفي فارس كان يُفتتح الخراج في إبان البيرو<sup>(٢)</sup> ، وإنما أثر العرس ذلك من قديم الزمان ، لأنه وقت الانقلاب الصيفي الذي هو وقت إدراك

---

(١) المخطط للقريري ج ١ ص ٢٧٣ حيث نقل المقرري عن كتاب أبحار أمير المؤمنين المعصود بالله

لأبي الحسن عند الله من أبي طاهر .

(٢) وفي أقصى المشرق أعنى في الأفعان وما وراء النهر كان الخراج يدفع على دفعين ( انظر اس

حول ص ٨ ، ٣ ، ٣٤١ )

العلات ، فكان أصوب لافتتاح الخراج فيه من غيره<sup>(١)</sup> ثم جاء ملوك العرب فاقتدوا بملوك الفرس في المطالبة بالخراج إبان البيروور ولكن الفرس كانوا يكسبون السنين في كل أربع سنين بيوم ، فأبطل الإسلام ذلك ، وشأ عن عدم الكس أن الخراج كان يُفتح قبل صبح الروع وبما كان المتوكل يطوف يوماً في مُتصيّده إداراً رأى ررعا أحصر لم يدرك هد ، ولم يستحصد ، وكان المتوكل قد استؤذن في فتح الخراج ، فقال من أين يعطى الناس الخراج ؟ فقبل له إن الأمر جارٍ على ما أسسه ملوك الفرس من المطالبة بالخراج في أثناء البيروور ، فوقع عزم المتوكل على تأخير البيروور سبعة عشر يوماً من حريران ، تدارُ كما لما فات من عدم الكس ، وبعثت الكتب بذلك إلى الآفاق ، ثم قُتل المتوكل ، ولم يتم له ما دبر ، فلما قام المعتصد احتدى ما فعله المتوكل في تأخير البيروور ، غير أنه نظر من جهة غير التي نظر إليها المتوكل ، فأحر البيروور إلى الحادي عشر من حريران ، ثم وضع البيروور على شهور الروم لتُكس شهوره إذا كست الروم شهورها ، لا على سنين الفرس من الكس شهر في كل مائة وعشرين سنة ولما كان لا يمكن ترك السنة الهلالية لأسباب دينية فقد سارت السنتان الهلالية والخرافية مع اختلافهما في الطول حساً لحب ، وحدث اضطراب كبير بسبب تفاصل السنين ، حتى صارت الحماية الخرافية في السنة التي تنتهي إليها تنسب في التسمية إلى ما قبلها ، ولما لم يكن من الحائر كس سنة الهلال شهر ثالث عشر ، « لأهمهم لو فعلوا ذلك لترحرت الأشهر الحرم عن مواقعها ، وانحرفت المناسك عن حقائقها ، ونقصت الحماية عن سبي الأهلّة نقسط ما استرقه الكس منها ، فانتظروا بذلك الفصل أن تتم سنة أوجب الحساب المقرّب أن تكون كل اثنتين وتلاتين سنة شمسية ثلاثاً وتلاتين سنة هلالية ، فنقلوا المتقدمة إلى التأخرة قليلاً ليتحاور الشمسية وقد رأى أمير المؤمنين نقل سنة حسين وثلاثمائة الخرافية إلى إحدى وحسين وثلاثمائة الهلالية ، جمعاً بينهما ، ولروماً لتلك السنة فيهما » وهذا جزء من الكتاب الذي أنشأه أبو إسحاق الصائفي في هذا الصدد<sup>(٢)</sup>

ومما احتض به نظام المسلمين الإداري فيما يتعلق بالمال أن دواوين الخراج في الولايات

(١) الآثار النافذة للبيروني ص ٢١٦ — ٢١٧ من الطبعة الأوروبية

(٢) الحطط للمعري ح ١ ص ٢٧٥ — ٢٧٧ ، والآثار النافذة للبيروني ص ٣١ — ٣٣ ،

وتاريخ الطبري ح ٣ ص ٢١٤٣ ، ورسائل الصائفي طبعه لسان ص ٢١٣ — ٢١٥



كانت تقوم مقام خزائن للدولة ، فكانت تُستوفى من مال الخراج المفقاة الراتة وأعطياتُ  
الحمد ، ثم يُحمل ما يتبقى إلى بيت المال العام بمدينة السلام<sup>(١)</sup> ؛ ولذلك فإن حراسة عداد  
كانت لا تُعنى إلا بدار الخلافة وحاجاتها وشؤون الدواوين وبالجزء الشرقى من عداد ، لأنه  
كان بحسب رسم خاص تابعاً لدار الخلافة ، أما الخاب العربى ، وهو عداد الحقيقية ، فكان  
جزءاً من عمالة بادوريا<sup>(٢)</sup>

وقد بين لنا الحواررى أسماء الدفاتر والمواضع المستعملة فى الدواوين بحراسان فى القرن  
الرايع المجرى<sup>(٣)</sup> ، فيها

قانون الخراج ، وهو أصله الذى يرجع إليه ، وتُنهى الحياية عليه<sup>(٤)</sup>  
الأوراق ، ويُقل إليه ما على إسان إسان ، ويُتت فيه ما يؤديه دفعةً بعد أخرى ،  
إلى أن يستوفى ما عليه

الروربامح ، ومعناه كتاب اليوم ، لأنه يُكتب فيه ما يجرى كل يوم من استخراج  
أومقة أو غير ذلك

الختمة ، وهى كتاب يرفعه الجهد فى كل شهر بالإستخراج والحمل والمفقاة والحاصل ،  
كأنه يحتم الشهره

الختمة الجامعة ، تُعمل كل سنة كذلك

(١) مسكويه ح ٥ ص ١٩٣ — ١٩٤ ، وكتاب الفرج بعد الشدة للسوحى ح ١ ص ٥١ ، وان  
حوقل ص ١٢٨ ، ومفاسح العلوم للحواررى ص ٥٤ وكذلك كان ولاية النواحي فى الدولة النوربطية  
يسقطون المفقاة من حملة دحل ولاناتهم وكانت العادة فى أيام الأمويين أن الخلفاء « إذا جاءتهم حاجات  
الأمصار والآفاق بأنهم مع كل حيايه عشرة رجال من وحوه الناس وأحاديها ، فلا بدحل بيت المال من  
الحياة دسار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أحد بحه ، وأنه  
فصل عن أعطيات أهل البلد من المقاملة والبرية ، بعد أن أحد كل دى حق حه » انظر كتاب أبحار مجموعة  
فى فتح الأندلس وذكر أمرائها طبعه بحريط ١٨٦٧ ص ٢٢ — ٢٣ وانظر أيضاً ما حكى عن ان  
أنى الفياس فى كتاب سيموت Simonet, Historia de Los mosarabes de Espania, Madrid, 1897—1903, S 158

(٢) كتاب الورراء ص ١١ والصفحات النالة

(٣) مفاسح العلوم ص ٥٤ — ٥٦

(٤) كتاب لعله Kanon فى العصر النالى لعصر الإمبراطور ديوفلسيان هى الاصطلاح العام للصرائ

العاده انظر Wilken, Griech Ostraka, S 378

التأريخ ، لمطة فارسية ، معها النظام ، لأنه كسواد يعمل للعقد لعدة أبواب يُحتاج  
لعلم حلها

العريضة ، وهى شبيهة بالتأريخ ، إلا أنها تعمل لأبواب يحتاج إلى أن يُعلم فصل ما بينها ، فيقص الأقل من الأكثر من بابين ، ويوضع ما يفصل في باب ثالث ، هو الذى تعمل العريضة لأحله ، « مثل أن تعمل عريضة للأصل والاستخراج ، في أكثر الأحوال ينقص الاستخراج عن الأصل ، فيوضع في السطر الأول من سطور العريضة ثلاثة أبواب ، أحدها للأصل ، والثانى للاستخراج ، والثالث لفصل ما بينهما »

البراءة ، حجة يدها الجهد أو الخارن للمؤدى عما يؤديه إليه

الموافقة والجماعة ، حساب جامع يرفعه العامل عند فرائعه من العمل ، ولا يسمى موافقة ما لم يُرفع باتفاق بين الرافع والمرفوع إليه ، فإن ائرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته سمي محاسنة

وعندما كذلك أبواب ميريابة الدولة لسنة ٣٠٦ هـ - ٩١٨ م ، وهي تقوم على ميريابة عام ٣٠٣ هـ ، فكانت تقسم الميريابة العامة ، على نحو ما كانت تقسم الدفاتر في دواوين الخراج ، إلى باب الاستخراج أو الدخل وباب النفقات ، وكذلك تقسم باب النفقات إلى النفقات الراتبة والحادثة ، وكانت الميريابة تنتهي بحرك كما هو الحال عندما وكانت مقادير خراج العراق وهورستان وفارس وإيران تذكر عينا ، على حين أنه حتى عام ٢٦٠ هـ - ٨٧٣ م كان يُذكر النوع إلى جانب القيمة بالذهب ، وهذا يدل على تقدم في النظام المالي في شرق المملكة الإسلامية أما فيما يتعلق بالشام والعراق فكان الخراج يحسب بالعين والنوع<sup>(١)</sup> (الكر من الشعير أو الحنطة) وكانت سيطرة العملة ، وهي السيطرة التي من شأنها القضاء على سائر القيم الأخرى المتدحرجة ، وحل قيمة الأشياء متوقفة على قيمتها النقدية ، سدا في روال كثير من الصرائب الرسمية الشكلية التي تفرص لمجرد تقرير الحق في الصريبة ، وهذه الصرائب هي التي جعلت دفاتر الصرائب في العصور الوسطى الأوروبية كثيرة الأبواب ،

(١) Kremer, Einnahmebudget der Abbasiden, S. 309 ff., 23

ط دی عوی ص ۲۳۹، و کتاب الورداء ص ۱۸۸ — ۱۸۹

وہ ہمارے ہی اور وہ کسی سے نہیں

ولا يحد من أمثلة هذه الصرائب إلا ما ذكر عن مدينة اسديجاب على أقصى حدود المملكة الإسلامية شرقاً من أن حراحها أرسنة دوايق ومكسنة تُبعث إلى السلطان كل عام مع الهدايا<sup>(١)</sup>

وقد حرت العادة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م أن تُرسل مع الحراح أو الهدية أشياء طريفة عربية عن المؤلف ، فى عام ٢٩٩ هـ — ٩١١ م أرسل مع مال مصر تيس له صرع يحلب اللب ، وفى سنة ٣٠١ هـ — ٩١٣ م وصلت هدايا صاحب عُمان إلى السلطان ، وفيها نبعة بيضاء وعزال أسود وفى سنة ٣٠٥ هـ وردت من عمان أيضاً هدايا حليلة ، فيها طائر أسود يتكلم بالفارسية والهدية أفصح من السعاء ، وفيها طباء سود<sup>(٢)</sup>

وكان الإقطاع فى المملكة الإسلامية كلها صربا هاما من صروب تملك الأرض ، والإقطاع فى المشرق والمغرب على السواء ميراث قديم ويقول أبو يوسف فأما القطائع من أرض العراق ، فكل ما كان لكسرى وصرارته وأهل بيته مما لم يكن فى يد أحد<sup>(٣)</sup> ، أما فى المغرب فكان الإقطاع نظاما رومانيا ، وكانت أرض الحكومة والأرض التى لا يملكها أحد تنتقل بحسب نظام الإقطاع إلى أفراد الشعب<sup>(٤)</sup> أما الحراح الذى يجب أن يدفعه صاحب الأرض المقطعة فكان يُحدّد باتفاق خاص بين الحكومة ، وهو عند الفقهاء العُشر<sup>(٥)</sup> ولم يكن أصحاب الإقطاعات أحسن حالا من غيرهم من أصحاب الصياع العاديين ،

(١) المقدسى ص ٣٤ ، وثؤيد نافوب (معجم اللدان ح ١ ص ٢٤٩ من الطبعة الأورمة) هذا الكلام حسب قول ابنه لم يكن محراسا ولا غا وراء الهر بلدة لاحراح عليها إلا اسديجاب ، لأنها كانت ثعرا عطيا ، فكانت تعنى من الحراح لصرف أهلها حراحها فى ثمن السلاح والمعونة على المقام بملك الأرض

(٢) المسظم لاس الحورى ص ١٦ ، ١٩ ، ١٥ ب

(٣) كتاب الحراح ص ٣٢ ، وكان ثم إلى حارب القطيعة ما سمي الطُغمة ، وهى الأرض التى تدفع إلى رجل ليعمرها ويؤدى عشرها ، ويكون له مدة حياته ، فإذا مات ارتفعت من ورثته ، والقطعة سعى لعنه من بعده — انظر مفاتيح العلوم للحواررى ص ٦

(٤) Becker, ZA 1905, S 301 ff

(٥) كتاب الحراح لقدمه مخطوط باريس رقم ٧ ٥٩ ص ٩ ب — ١٩١ وأرصد العشر سه أصرب

١ — الأرضون التى أسلم عليها أهلها ، وهى فى أيديهم مثل اليمن والمدنه والطائف

٢ — ما سجنه المسلمون من الأرض المواث التى لا ملك لأحد فيها

٣ — ما تُقطعه الأئمة بعض المسلمين



وقد حكى التوحي في القرن الرابع الهجري أن الرشيد اعتل ، فداواه طبيبه ، فأمر بإقطاعه ما قيمته ألف ألف درهم ، فقال له : ما لي حاجة إلى الإقطاع ؛ ولكن تهب لي ما أشتري الصباغ به ، فأحاب الخليفة طلبه وأمر بمعاوته حتى انتاع صباغا علتها ألف ألف درهم ، مؤثراً أن يكون جميع ما يمتلكه صباغاً لا إقطاع فيها<sup>(١)</sup> وكان يقع في كثير من الأحيان خلاف بين الملاك والعمال في بعض الأراضي ، فيذكر صاحب الأرض أنها قطيعة ، على حين أن عامل الخراج يذهب إلى أنها أرض خراج عادية<sup>(٢)</sup> وكانت الأرض المقطعة تعود دائماً إلى الحكومة ، وذلك سبب مصادرة أصحابها أو نظراً لخراجها ، وكثيراً ما يكون هذا الخراب سبب الصرائف الباهظة . وفي القرن الثالث الهجري علب سو الصغار على فارس ، فحسلا قوم من أرباب الخراج عنها لسوء المعاملة ، فقررت الحكومة خراجها على من بقي ، وُسِّمى ذلك بالتكملة ، لأنه كمل بها قانون فارس القديم ، ولم تزل هذه التكملة تستوفى حتى أعيد افتتاح فارس عام ٢٩٨ هـ ، فتظلم أهل فارس ، وورد قوم من أحلادهم إلى بغداد لرفع طلامتهم ، فجمع المقتدر مجلساً من القضاة والعقهاء والكتاب والعمال والقواد ، فأفتى العقهاء سلطان التكملة ، وصدر كتاب الخليفة بذلك عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م<sup>(٣)</sup> والظاهر أن أمر التكملة كان شاداً في ذلك العهد في المشرق ، أما في مصر فقد كانت القاعدة أن تصمى المدينة الأفراد الذين يحلون عن الأرض ، وفي العراق كان لا بد من هذا الصمان فيما يتعلق بالحرية الواحدة على أهل الدمة<sup>(٤)</sup> ، ولم يُنَلَّع نظام صمان المدينة هذا في فرسا إلا قبل الثورة الفرسية قليل ، وفي روسيا إلا منذ عام ١٩٠٦ م

وكانت الحكومة تملك أراضي أخرى تسميها الصباغ السلطانية ، وكانت هذه الصباغ

---

٤ — ما يحصل ملكاً للمسلمين مما قسمه الإمام من أرض العوة بين من أوحف عليها من المسلمين  
٥ — ما صار في يد المسلمين من الصفايا إلى أصفاهما عمر بن الخطاب من أرض السواد ، وهي ما كان لكسرى وآله وخاصته

٦ — ما حلا عنه العدو من أرضهم فحصل في يده من قطعه وأقام به من المسلمين مثل العور . وكان إلى جانب ديوان الخراج ديوان آخر قائم بذاته يسمى ديوان الصباغ . انظر Kremer S 293 ، ولا نجد ذلك بين أسماء الدواوين في حراسان

(١) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢ — ١ ٣ — (٢) كتاب الورراء ص ٢٢

(٣) كتاب الورراء ص ٣٤ — ٣٤٢ ، وكتاب العيون ص ١٨٢

(٤) انظر الكلام عن الحرية في الفصل الخامس باليهود والصاري

ترداد في أيام الرضاء بانتباع أراضٍ جديدة<sup>(١)</sup> أما في أوقات الشدة فكان يُباع بعضها وقد حدث في سنة ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م أن باع الوريير على التحار صياغا سلطانية لبي سداد ما كان قد استسلمه من ماله<sup>(٢)</sup> وكانت هذه الصياغ تتعرض دائماً للخطر إذا صنعت الحكومة ، فعند ذلك يقطع كبار الملاك الأقوياء والورراء بعضها ، ويصيفون ذلك إلى أملاكهم<sup>(٣)</sup>

وكان يحدث أن يرعب صغار أرباب الصياغ في الإفلات من عبء الخراج العادي ، فاعتادوا أن يلحثوا صياغهم إلى الكراء الأقوياء ، فكانت تحرى أسمائهم ، ويُخفف عن أهلها الخراج ، فيدفعون العشر فقط ، كما هو الحال في الإقطاعات ، ولكنها تبقى في أيدي أهلها يتابعونها ويتوارثونها ، وإن كانت بأسماء من ألحواها إليهم وهذه التلحثة نظام قديم ، وقد أوحدها في مصر على عهد الرومان النوربطين كبار أصحاب الصياغ ، ويحكى أنها كانت موحودة في عهد الأمويين<sup>(٤)</sup> ، ثم صارت اصطلاحاً قائماً بذاته بين مواضع الكتاب في دواوين الخراج بحراسان<sup>(٥)</sup> ، وأصبح لها قسم خاص بها في القرن الرابع الهجري ، وكانت شائعة في فارس سوع خاص لتقل الخراج فيها<sup>(٦)</sup> وفي عام ٤١٥ م اعتبر المُلحَثون في مصر بحكم القاون موالى تابعين للأقوياء الذين احتسوا بهم<sup>(٧)</sup> ، ولكنهم لم يصيروا إلى هذه الحالة قط في فارس

ومن وحوه الأموال التي ترد إلى بيت المال أحماش المعادن والركار ، والمال المدفون من دفائن الحاهلية ، ونُحس سَيب البحر مما يقذف به ويستخرج منه ، مثل العدر والحلية ، ومنها أثمان الأتاق من العبيد ، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة ، إذا لم يأت لذلك طالب يستحقه ، ومنها ما يؤخذ من مواريث من يموت ولا يحلِّف وارثاً له<sup>(٨)</sup> وكان

(١) قدامة طبعه دي عوى ص ٢٤١ (٢) مسكويه ح ٥ ص ٥٠٥

(٣) كتاب الورراء ص ١٣٤ ، وكتاب الفرح بعد الشدة للسوحي ح ١ ص ٥

(٤) كتاب الخراج لقدامه طبعه دي عوى ص ٢٤١

(٥) معابيح العلوم للحوارري ص ٦٢ (٦) الاضطحري ص ١٥٨

(٧) Matthias Gelzer, Studien zur byzantinischen Verwaltung Aegyptens, S 72 ff

(٨) كتاب الخراج لقدامه مخطوط فارس ص ١٩١ - ب

واطر أيضاً Schmidt, Die Occupatio im islamischen Recht, Der Islam, 1, 300 ff

لا يؤخذ لبيت المال إلا من ميراث المسلمين ، فمثلا كتب الخطيب البغدادي (٣٩٢-٤٦٣) إلى الخليفة إني إذا مت كان مالي لبيت المال ( وكان مقدار ذلك مائتي دينار )<sup>(١)</sup> ، وفي عام ٣١١ هـ - ٩٢٣ م أصدر الخليفة المقتدر كتابا في أمر الموارث نص فيه على أن تُردّ تركة من يوت من أهل الدمة ، ولا يحلف وارثا ، على أهل ملته لا على بيت المال ، وذلك عملا بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أن المسلم لا يرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث المسلم ، وأنه لا تتوارث أهل ملتين<sup>(٢)</sup> وقد تحادل كثير من الفقهاء في مسألة كبرى من المسائل التي تُبحث حديثا ، وهي مسألة رد التركة إلى بيت المال بدلا من ردها إلى الأبعاد من دوى الأرحام ، وقد راد شأن هذه المسألة عند المسلمين ، لأن كثيرا من الفقهاء ذهبوا إلى أن بعض الأثارب الأديين لا يحور أن يحوروا أكثر من الأسهم المقترصة لهم في القرآن ، أما ما يفصل عن ذلك فهو نصيب بيت المال<sup>(٣)</sup> وفي القرن الثالث الهجري أشي ديوان حاس يسمى ديوان الموارث ، وذلك في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ = ٨٦٩ - ٨٩٢ م) وكان هذا الديوان محالا واسعا لعلم الناس والإيعات في موارثهم وأحد ما لم تخبر به السمة<sup>(٤)</sup> يقول ابن المعتز قرب أواخر القرن الثالث يشكو ما يحري على أصحاب الموارث<sup>(٥)</sup>

وويل من مات أبوه موسرا      أليس هسدا محكما مشهرا  
وطال في دار البلاء سجنه      وقيل من يدرى بألك اسه

- (١) الإرشاد لياقوت ح ١ ص ٢٥٢ (٢) كتاب الوراء ص ٢٤٨  
(٣) يذهب الشافعية إلى جعل ما يفصل عن السهام المروسة إلى بيت المال لا إلى دوى الأرحام الأبعاد ، إن لم يوجد للمووف عصة تحور باقي ميراثه (انظر Sachau Muhammedansches Recht S 211,247) ، وفي عام ٢٨٣ هـ - ٨٩٦ م أصدر الخليفة المعتمد رد الفاصل من سهام الموارث على دوى الأرحام وإطال ديوان الموارث ، وصرف عماله ( تاريخ الطبري ح ٣ ص ٢١٥١ ) ، ونقول أبو الفدا ( ح ٢ ص ٢٧٨ ) تحت عام ٢٨٣ هـ ) ما يؤيد ذلك فعلا عن القاضي شهاب الدين في تاريخه ( توفى القاضي عام ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م ) ، ثم حدا المكشي حدو المعصد وحدد هسدا الأمر في عام ٣ هـ - ٩١٢ م وفي عام ٣١١ هـ - ٩٢٣ م أصدر الخليفة المفسر أمره بأن يرد ما يفصل عن السهام المقترصة إلى دوى الرحم الدين لا فرض لهم في القرآن ، إذا لم يكن للمووف من يحور ميراثه من دوى السهام ، وفي عام ٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م أمر الدولة برفع الموارث الحسرة ، وفي عام ٣٥٦ هـ - ٩٦٧ م رد الموارث الحسرية إلى دوى الأرحام - انظر المظم لابن الحوري ص ٩٨ ، ب ، ١١  
(٤) انظر كتاب الوراء ص ٢٤٦ - ٢٤٩ ، عرب ص ١١٧ - ١١٨  
(٥) ديوان ابن المعتز ح ١ ص ١٣١



فقال حيراني ومن يعرفني      فتعوا سـالـه حتى في  
 وأسرفوا في لكه ودفعه      واطلقت أـكـثـهم في صعه  
 ولم يرل في أصيق الخوس      حتى رمى لهم بالكيس  
 وقد استطاع الخليفة الراصي أن يكبح شهوة الأمراء للاستيلاء على مواريث الناس ،  
 فقد حدث أن رحلامات وحلف مالا عظيما ، فوخته اس رائق من حمل من داره وحوايته  
 مالا ومتاعا ، فلما عرف الراصي ذلك أنكره ، وأبعد إلى اس رائق عما أقلقه ، فأمر رد جميع  
 ما أخذ من المال إلى موضعه<sup>(١)</sup> على أن سيف الدولة المعروف بشجاعته والمشهور بشعرائه  
 وسوء حكمه كان بأحد المواريث أحدا رسميا ، ففي عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م عين أبا حسين  
 على س عبد الملك الرقي قاصيا على حلب ، فكان هذا القاصي يصادر التركات ويقول التركة  
 لسيف الدولة ، وليس لأبي الحسين إلا أحد الجمالة<sup>(٢)</sup> وقد تكلم المقدسي عن ركن الدولة  
 وأهل بيته من الأمراء ، فعدد بعض مساوئهم ، ولكنه أكد من فضائلهم سوع خاص أنهم  
 « لهم سياسة عجيبة ورسوم ردية ، غير أنهم لا يتعرضون للتركات<sup>(٣)</sup> »  
 وكان كثير من الحكام يحاولون أن يعتبروا التركة من غير وارت ، ليستولوا عليها ، ولكن  
 لم يوحده في الإسلام قانون طبق على المسلمين يشبه مثلا القانون الذي كان في إنجلترا في القرن  
 الثالث عشر الميلادي<sup>(٤)</sup> وكان من محاسن أعمال عميد الحيوش حاكم بغداد المتوفى عام  
 ٤٠١ هـ — ١٠١ م أنه حمل إليه مرة مالا كثيرا قد حلفه بعض التجار المصريين ، وقيل  
 له ليس للميت وارت ، فقال لا يدخل حراة السلطان ما ليس لها ، يترك إلى أن يصح  
 حره ، فلما كان بعد مدة جاء أح للميت بكتاب من مصر بأنه مستحق للتركة ، فقصد باب  
 عميد الحيوش وأوصل إليه الكتاب ، فقضى حاجته ، ولما وصل التاجر إلى مصر أظهر الدعاء  
 له ، فصاح الناس بالدعاء له والثناء عليه ، وبلغ عميد الحيوش الخبر فسر به<sup>(٥)</sup> ولكن  
 الأمر لم يكن يحري هذا المحري بالنسبة لغير المسلمين ، ففي القرن الثاني عشر الميلادي اعتل

(١) الأوراق للصولي مخطوط باريس ص ١٤٧ — ١٤٨

(٢) Wüstenfeld, Die Statthalter von Aegypten, IV, S 35

(٣) المقدسي ص ٤

(٤) Caro, Soziale und Wirtschaftsgeschichte der Juden, 1,317

(٥) اس الأثير ح ٩ ص ١٥٨

رني نتاحيا ، وهو بالموصل ، وقال الأطباء إنها علة الموت ، « ولما كان الرسم هناك في ذلك الوقت أن تستولى الحكومة على نصف ما يحمله كل يهودى عريب يموت هناك ، وكان الرني نتاحيا حسن الناس ، فقد قيل إنه عبي ، وجاء عمال الحكومة لقص تركته ، كأنه قد مات » وكثيراً ما كان يؤخذ جزء من مال الأعياء في حياتهم ، وقد نشأ هذا الرسم من أن بعض العمال كانوا يستولون على الأموال بعير حق ، ثم يضطرون إلى إرجاعها ، وهذا شبيه بما فعله نابليون الأول حين أرم قواده من دوى اليسار العظيم أن يدفعوا للحرابة مبالغ كبيرة . على أن جميع التجار الذين كانت تُنتز أموالهم كانت لهم معاملات مع الدولة أصابوا منها مالا وفيراً ، وأعلى الأقل طُن بهم ذلك يقول ابن المعتز في وصفه لخور الحكومة في عهد المعتمد<sup>(١)</sup>

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| وتأخري دى جوهر ومال       | كان من الله بحسن حال        |
| قيل له عندك للسلطان       | ودائع عالية الأثمان         |
| فقال لا والله ما عدى له   | صغيرة من دا ولا حليسه       |
| وإما أُرِحت في التجارة    | ولم أكن في المال ذا حسارة   |
| فدحوه بدحان التيس         | وأوقدوه شقال اللس           |
| حتى إذا مل الحياة وصحر    | وقال ليت المال جمعاً في سقر |
| أعظاهمو ما طلبوا ، فأطلقا | يستعمل المشى ويمشى العنقا   |

وبرى من التثت الذى يحوى أسماء المصادرين أنهم كانوا عمالاً من عمال الدولة أوحهابدة كانوا يعاملونها<sup>(٢)</sup> وليس فيما انتهى إليها من حكايات تتعلق بالمصادرات مثل واحد لأحد الحكومة أموال العمال الخاصة ظلماً وحقوراً من غير طريقة قانونية ، فيحكى لما ابن مسكويه « أن الوزير أبا علي بن مقلة كان يعادى أبا الخطاب بن أبي العباس بن الفرات ، ولم يكن يجد إلى القص عليه طريقاً ديوايا ، لأنه كان ترك التصرف عشرين سنة ، ولم مرله ، وقع بدحل صيعته<sup>(٣)</sup> » على أن نظام المصادرة قد نقل في أطوار ، فكان في أوائل القرن

(١) ديوان ابن العبرح ١ ص ١٣١ — ١٣٢

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٢٣ — ٢٢٧

(٣) مسكويه ح ٥ ص ٣٩٨ ، والمصادرة اصطلاح ، والصدر هو الرجوع بعد الاملاء بالماء ، ويقال له الورد وهو عند العربى مثل الرجح ، اطر فهرس الطبرى ملا ، وكلمة صدر هي المال الذى يؤخذ من المصادر ( هذا ما نقوله المؤلف ) ، وهو يذكر أمثلة منها ما عرّض في كلام مسكويه وهو قد أمر =

الرايع صرناً من صروب العقاب ، وبعد ذلك صار كل من كانت له صلة بالحكومة مشتتاً في نقاوة يده ، فكان يصادر بين حين وآخر

وكان الأحشيد صاحب مصر وأدري الحكام بأمور المال بين عامي ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) و ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، يقوم بالمصادرات الكثيرة في هدوء من حاسبه و برود ، فكان يقص على عماله وخاصته وتقائه ، ويصادرهم على المبالغ الكبيرة هم وأهلهم ومن يكون في دورهم يوم المصادرة وكان أحب إليه أن يأخذ علمائهم سلاحهم ودوائهم وثيابهم فيجعلهم بين يديه<sup>(١)</sup> ؛ وكان إذا أفلت أحد من المصادرة حياً لم يسلم من أخذ أمواله بعد وفاته وكانت طريقة الأحشيد أنه «إداتوى قائد من قواده أو كاتب تعرض ورثته ، وأحد منهم وصادره ، وكذلك كان يفعل مع التحار المياسير<sup>(٢)</sup>» في عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م توفي عثمان بن سليمان البرار أحل تاجر كان عصر ، فأخذ الأحشيد من ميراثه نحو مائة ألف دينار<sup>(٣)</sup> ، ولما مات الوزير أبو محمد المهملی (عام ٣٥٢ هـ — ٩٦٣ م) ، بعد أن لست في الوراثة ثلاث عشرة سنة ، قصص مع الدولة تركته وصادر عياله ومن دخل إليه يوماً حتى الملاحين والمكارين الذين كانوا يخدمون حاشيته ، وقد استقبح الناس ذلك من مع الدولة واستقطعوه<sup>(٤)</sup> وكذلك لما مات الصباح بن عباد بعد أن كان وزير خزانة الدولة ، المتحكم في تدبير الملك له ، حتى كان لا يعصى له أمراً ، أرسل هذا الأمير من أحاط على دار الصباح وحرائه ، ووُجد له كيس فيه رقاع أقوام مائة ألف وحسين ألف دينار مودعة عندهم ، وطولوا بذلك ، ونقل ما كان في الدار والحرائ إلى دار خزانة الدولة<sup>(٥)</sup> وكان أهل المال يستعملون جميع الوسائل لإفساد خطة المصادرين وخذاعهم ، فمن ذلك أنهم كانوا يودعون أموالهم عند ناس كثيرين<sup>(٦)</sup> ، ويلحون أسماءهم ويكنون عن ألقابهم<sup>(٧)</sup>

== صرب عقه إن لم يؤدّ صدراً من المال ، وصح منها إلى يوم هربه صدر كثير (مسكوه ح ٥ ص ١ ٤ ، ٥٧٢) ، وفي كتاب الوزراء (ص ٣١) ولم يرل الكلوداني يدر الأمور حتى مشى كثيراً واسحرح صدرا كبيرا وفي رسائل الهمداني (ص ٣٣٢) وقد كان الشح كسب خطأ عن فلان صدر من الحطة إلى بعض وكلائه (وهذا غير موحود في كسب اللغة) ، ومن هذا صادره على قدر من المال

(١) العرب لاس سعيد ص ١٦ — ١٧

(٢) نفس المصدر ص ١٧

(٣) نفس المصدر ص ٣٦

(٤) مسكوه ح ٦ ص ٢٥٨

(٥) الإرشاد لياقوت ح ١ ص ٧

(٦) المتظم ص ١٩٣ ب

(٧) كتاب الوزراء ص ١٧٤



ولما اعتقل ابن العميد عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م وأيقن أن القوم قاتلوه وأنه لا يسحو منهم ، وإن بدل ماله ، أخرج من حبيه رقعة فيها ثبت ما لا يحصى من ودائمه وكسور أبيه ودحائره ، فألقاها في كاون نار بين يديه ، وقال للموكل به اصنع ما أنت صانع ، فوالله لا يصل من أموالى المستورة إلى صاحبك دينار واحد ، فما زال يعرضه على العذاب إلى أن تلف من غير أن يحرم شيئاً<sup>(١)</sup> ولما صبح عبد الحليفة المتقى قتل بحكم ركب المتقى إلى داره ، وحرر أماً كن فيها ، فحصل له من مال بحكم ما يريد على ألهى ألف عيماً وورقا ، ثم أمر بعسل التراب ، فأخرج منه ستة وثلاثون ألف درهم<sup>(٢)</sup> ولكن بحكم كان قد دفن أمواله في الصحراء ، ولم يقتصر على ما دونه في البيوت ، فكان الناس يتحدثون بأنه يقتل من يعاونه في ذلك ، لئلا يدل عليه في وقت آخر ، وبلغ بحكم ما يقوله الناس ، فأسكر ذلك ، وحكى لسان من ثابت ما كان يفعله إذا أراد دفن مال في الصحراء كان يُحصر إلى داره سعلا عليها صاديقة فارعة ، فيجعل المال في بعضها ، ويدخل من يريد أن يكون معه من المساعدين في العصى الآخر ، ويطبق عليهم ، ثم يأخذ مقود قطار العال نفسه ، ويسير إلى حيث يريد ، ثم يفتح عن الرحال ، فيجثرون ، ويدفن المال ، وبعد ذلك يرد الرحال إلى الصاديقة ويطبقها عليهم ، ويعود ، فلا يدري الرحال إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين أتوا ، وكان هو يجعل لنفسه علامات يهتدى بها ، ويهده الطريقة استعنى عن القتل ، وأقسم لثابت أنه لم يقتل أحداً من أهل دفن المال ، وأن ذلك من تشيع الناس<sup>(٣)</sup>

وفي عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م ، توفى أبو على حارن معر الدولة ، وكان رجلاً كثير التمويه متعاقراً ، يظهر الفقر والاقتصاد ، حتى كان معر الدولة يعتقد أنه نائس لا يملك شيئاً ، فاستأذن الوزير المهلى معر الدولة في البحث عن أمواله ، واستعمل طريقة رجال الشرطة ، فقصص على علمائه ، وكان يحلو بعضهم ويرهه ويرعه ، حتى استطاع أن يعرف أن أبا على الحارن طرد علاماً له مريباً خشياً من حجرة موسومة به ، وحلّس في هذه الحجرة للحلوة أياماً ؛ فعبر الوزير المهلى دار أبي على والتمس حجرة المريب ، فحفر فيها ، فظهر مال ، وكان في حجرة المدفون آلة تشبيهة بالميران من خشب الساج ، لأشياء فيها ، فعجب منها ، ثم قلبها ، فوجد عليها كتابة

(٢) السطرم ص ٦٨ ب

(١) الإرشاد ح ٥ ص ٣٥

(٣) مسكويه ح ٦ ص ٣٩ — ٤١

مخط ردىء ، فإذا هي أسماء قوم ورموز لا يفهم منها شيء ، فلم يشك الورير أنها أسماء قوم مودعين وأن الرموز مبلغ ما عندهم من المال ، ولم يرل يستعمل الدهاء والتحمين في فك الرموز ومعرفة العاملين حتى صح له ذلك ، ومطش عن اهتدى إليه حتى حصل مهم على المال<sup>(١)</sup> وكان أحد الأعياء إذا مات حرّ موته السكة لأهله ولكل من يتصل به من الكتاب والجهادة والأصدقاء ، فكانوا يهرنون ويستترون ويمتنعون من تسليم الوصية للحكومة ، حتى لا تهتدى إلى مكان التركة ووجوهها ، وقد حدث مثل هذا عند وفاة أحد العلويين إلى أن تقرر أمر التركة أحياناً على حسين ألف دينار تحمل إلى الخزانة صلحاً على التركة<sup>(٢)</sup>

والرسوم الجمركية غير حائرة في التريعة الإسلامية ، إذا دققنا الطر في أحكامها ورعم هذا فإن مرصد المكوس كانت منتشرة في كل مكان وقد حاول الفقهاء أن يحلوا هذه المسألة بأن اعتبروا الصرائب الجمركية داخلة ضمن الركاة ، وهذا بالنسبة للمسلمين على الأقل ، ومن هذا نشأت فكرة أن التاجر يستطيع أن يطوف عاماً كاملاً أيما شاء من حدود البلاد معى من المكوس متى دفع المكس مرة واحدة ، وهو العشر ، وأنه لا بد له أيضاً أن يدفع صريفة ما معه من عين المال على معدل ربع العشر<sup>(٣)</sup> وكانت التعريفة الجمركية في الواقع

(١) مسكونه ح ٦ ص ٢٤٤ — ٢٤٩

(٢) كتاب الورراء ص ٣٧٧ — ٣٧٨

(٣) ترجمه فستفاد لمخبر صبح الأعشى ص ١٦٢ ، وصبح الأعشى ح ٣ ص ٤٦١ ، ٤٦٣ يجب على غير المسلمين من التجار من حيث الحكم الطرى أن يدفعوا عن بضائعهم عند الحدود من الصرائب ما يدفعه المسلمون في تلك البلاد ، وهو العشر عادة ، ويطى التاجر بذلك راءة تعفه من المرور دون أن يدفع شيئاً مدة عام ، اطرسرح السرحسى (الموفى عام ٤٩٥ هـ — ١١٢ م) على الشيبانى ، مخطوط لندن ، كما ذكر ذلك دى عوى (De Goeje Internationale Handelsverkeer in de Middeleeuwen, Verslagen Mededeelingen der K Akad v Wetenschappen, 1909, S 265 على أن العلماء ليسوا متفقين في أمر المكوس ، فبعضهم يقضى بدفع نصف العشر إلا التجر مؤخذ عنه العشر ( كتاب الخراج لحيى بن آدم ص ١٥١ ) ، ويذهب البعض الآخر إلى وجوب دفع العشر عموماً ( كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧٦ — ٨ ) ، والمفنى به عند الشافعية أن للامام أن يريد عن العشر أو يقص عنه إلى نصفه للتحاجة إلى زياده الاسيراد وأن رفع المكس رأساً إذا رأى في ذلك مصلحة ، وعلى أى حال فإن الصريفة كانت شحصة وإذا عاد التاجر الذى دفعها في أثناء السنة ومعه بضائع لا يلزم بدفع شيء إلا إذا كان قد وقع الراسى معه على ذلك ( محصر صبح الأعشى للعلفشدى ترجمه فستفاد ص ١٦٤ ، وصبح الأعشى نفسه ح ٣ ص ٤٦٣ من طبعه القاهرة ( دار الكتب ) ، وليس عندنا معرفة دقيقة تستطيع استخلاصها مما ذكر من أن التاجر أنا دلف الذى سافر إلى الصين عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م دفع العشر عن بضائعه في الصين —

مختلفة ، فكان يؤخذ في حُدّة عن كل حمل من الحطة نصف دينار وكيل من فرد الزائلة ، وعلى سبط تياب الشطوى ثلاثة دباير ، وعلى سبط الديقى ديناران ، وعن حمل الصوف ديناران وكان يؤخذ بالقلم ( السويس ) عن كل حمل درهم ؛ وكانت تعرض رسوم في المواين العربية الأخرى ولكن المكوس كانت أقل مما تقدم ، وكانت الصرائب تؤخذ بالإسكندرية على المراكب الآتية من العرب وبالعرما على مراكب الشام<sup>(١)</sup> وكان لصغار ملوك العرب على اختلافهم مراصد برّية تدفع إليها الصرائب على تفاوت في القيمة ؛ فكان بعضهم يأخذ نصف دينار عن كل حمل ، وأكثرهم كان لا يأخذ عن الحمل إلا درهما<sup>(٢)</sup> . أما العراق فكانت كثيرة المراصد في البر والبحر والنهر ، وكانت البصرة مشهورة بتفتيش صعب وشوكات مسكرة وفي عهد المقدسى كان على باب البصرة عند حدود مملكة الخليفة من حدود بلاد القرامطة ديوان للقرامطة وديوان آخر للديلم ، حتى لقد كان يؤخذ على العسة الواحدة أربعة دراهم ( أى صعب ثمنها ) وكان الديوان لا يُفتح إلا ساعة من النهار<sup>(٣)</sup> وكان يؤخذ من كل حمل دخل اليهودية ، وهى القسم التحارى في أصهبان ، ثلاثون درهما<sup>(٤)</sup> وكان الحراح في طوران يؤخذ عن الحمل ستة دراهم إذا دخل وكذلك إذا خرج ، ومن الرقيق اثنا عشر إذا دخل حسب ، وإن كان من نحو الهد فمئرون من الحمل ، وإن كان من قبل السد فعلى حسب القيم<sup>(٥)</sup>

وكانت تؤخذ في المملكة الإسلامية صرائب على الصادرات ، كما كان الحال في كل العصور القديمة وقد نص الفقهاء على أنه ينبغي أن يكون للإمام مسالخ على المواضع التي تنعد إلى بلاد أهل الشرك ، فيفتشون من يمرّ بهم من التحار ، فمن كان معه سلاح أخذ منه

---

== ( يافوت في معجم البلدان تحت كلمة ص ) ، ومن أن مراكب الروم والأسان والمعاره كانت يلزم بأن تدفع العشر للسلطان في طرابلس ( ناصر خسرو ص ١١٢ ) ، لأن كلمة عسر يمكن أن يؤخذ بمعنى الصربة ومعنى أحد الصربة على أن المعاهدات الحاربه الى أبرمت مع البربر سنة ١١٥٤ هـ ، ١١٧٣ م نص على أن تكون الصربة هي العسر انظر Schaub, Handelsgechichte der roman Völker, S 149 ff

(١) المقدسى ص ٢١٣ والصفحات الداله ، وكانت الصرائب في عدن تفعله ، وقد فُذّر أنه يصل إلى حراة السلطان ثلث أموال الحار وظهر أن هذا كان يخص بعضاً كما في بعض النسخ ( انظر ص ١٥ في الهامش )

(٣) نفس المصدر ص ١٣٣ — ١٣٤

(٢) مقدسى ص ١٥٠

(٥) نفس المصدر ص ٤٨٥

(٤) نفس المصدر ص ٤



ورُدَّ ، ومن كان معه رقيق رُدَّ ، ومن كان معه كتب قرئت كتبه ، فإن كان فيها خبر من أحرار المسلمين قد كتب به أحد الذي أصيب معه الكتاب ونُعث به إلى الإمام ليرى فيه رأيه<sup>(١)</sup> وفيما وراء الهر كان لا يعبر الرقيق بهر حيحون إلا بحوار من السلطان ، ويأخذ مع الحوار من سبعين إلى مائة درهم ، وكذلك على الحواري بلا حوار إذا كانوا أتراكا ، ويؤخذ على المرأة عشرون إلى ثلاثين درهما ، وعلى الحمل درهما ، وعلى قماش الراك درهم<sup>(٢)</sup> . أما في بلاد طوران فكان يؤخذ الحراح من كل ما حرح إلا الرقيق ، فكان لا يؤخذ عنه إلا إذا دخل<sup>(٣)</sup> وفي حبوب حريرة العرب كان لا يؤخذ بمدية عتر إلا عما يجرح<sup>(٤)</sup> وكان يعطى للمصدِّرين حوائر بكرمان ، وذلك لكثرة التمر ، حتى إن الجمالين كانوا يحملون التمر ماصفة إلى حراسان ، ويقصدها كل سنة نحو مائة ألف حمل ، ويعطى السلطان كل حمل ديناراً<sup>(٥)</sup> وقد وصف الرحالون صعوبة التفتيش في عدن شوع خاص<sup>(٦)</sup> وشكا ابن حير الرحالة الأندلسي في القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) مما عومل به في الإسكندرية ، قال « من أول ما شاهدنا فيها يومَ رولنا أن طلع أمساء إلى المركب من قِبل السلطان بها لتقييد جميع ما حُلِب فيه ، فاستحصر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً ، وكنت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسُئِل كل واحد منهم عما لديه من سِلَع أو ناص ليؤدى زكاة ذلك كله ، دون أن يُسَحت عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يَحُلْ ، وكان أكثرهم مشحَّصين لأداء الفريضة ، لم يستصحوا سوى راد لطريقهم<sup>(٧)</sup> ، فألرموا أداء زكاة ذلك دون أن يُسأل هل حال عليه حول أم لا ، واستُئِرل أحمد بن حسان ما يُسأل عن أساء العرب و سِلَع المركب ، فطيف به مرقباً على السلطان أولاً ، ثم على القاصي ، ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان ، وفي كلٍ يُستفهم ثم يقيَّد قوله فيحُلِّي سبيله ، وأمر المسلمون بترييل أسماهم ، وما فصل من أرودتهم وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ، وحمل جميع ما أرلوه إلى الديوان فاستدعوا واحداً بعد واحد ، وأحصر ما لكل واحد من الأساب ، والديوان قد عص بالرحام ، فوقع التفتيش لجميع

(١) كتاب الحراح لأبي يوسف ص ١١٧ (٢) المقدسي ص ٣٤  
(٣) نفس المصدر ص ٤٨٥ (٤) نفس المصدر ص ٤  
(٥) نفس المصدر ص ٤٦٩ (٦) نفس المصدر ص ١٥ ، في الهامش  
(٧) بعض الفقهاء بإعفاء الراد من الضرائب — رجه سندفد المحصر صبح الأعشى ص ١٦٢

الأسباب ، ما دقّ منها وما حلّ ، واحتلّظ بعضهم بعض ، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلّفوه بعد ذلك هل عدهم غير ما وحدوا لهم أم لا ، وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الرحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من الدل والحرى عظيم ، سأل الله أن يعظم الآخر بذلك<sup>(١)</sup> »

ولما كان من الأمور المقرّرة أن الدولة الإسلامية ملك للمسلمين ، فقد قصي مند أول عهد الإسلام بالفصل بين بيت المال العام وبين حراة الخليفة ، وهي المسماة بيت مال الخاصة . ولكن لما كان الذي يتولى الإيفاق من هابين الخراطين رحلا واحداً لا يقدم حسناً لأحد ، فقد كان مدى انصافهما مسألة تتعلق بصيره<sup>(٢)</sup> ولذلك ترددت حكايات مؤثرة فيما بعد تبين مقدار عناية كل من أبى بكر وعمر بالفصل بين مال المسلمين وما لهم الخاص وكار هناك توارى بين بيتي المال ، فكان إذا بعد ما في بيت المال العام يجب على بيت مال الخاصة أن يمد يد المعونة حتى لا تغلس الدولة<sup>(٣)</sup> ، وعندما دليل من رقعة للوزير على بن عيسى ، على أن الخليفة المعتصد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠١ م) ، وكذلك الخليفة المكتنى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ = ٩٠١ — ٩٠٧ م) ، على ما عرف به من المطر في القليل الدسير ، كانا يبقان من بيت مال الخاصة الجملة بعد الجملة<sup>(٤)</sup> ولم يكن اللجوء إلى بيت مال الخاصة في عهد المعتصد قد صار رسماً جارياً ، ومما يحكى أن أحد الوزراء استحلّف اسمه على الورارة لما حرح من بغداد ، فصاقت الأموال على الولد ، واستدتت المطالبة بالاستحقاقات ، ودعته الضرورة إلى طلب قرص من الخليفة ، فكتب الوزير لاسه موضحاً معناه ، وأعلمه أنه قد أخطأ وأساء ، وحنى على نفسه ، وعلى أبيه حباية لا يمكن تلافيها ، وأنه كان يجب أن يستسلم المال من التحار ، ويلتزم من ماله ومال أبيه قدر الرخ فيه ، ولا يفعل ما فعله<sup>(٥)</sup> وفي عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ = ٩٠٧ — ٩٣٢ م) استُترفت بيت مال الخاصة ، وذلك لأن المال أحد منه برعم إعادته متى تحسّن الحال ، وفي عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م عرض الوزير على المقتدر ما

(١) رحلة أبى الحسن محمد بن أحمد بن حيدر الأندلسى ، طبعه لندن سنة ١٨٥٢ من ٣٥ — ٣٦

(٢) كان للوزير ، وهو رئيس بيت المال العام ، سبىء من الإشراف على بيت مال الخاصة أيضاً ، ٥٧

كان يوقع في آخر رفاع الصرف بعد توقيع كبار رؤساء الحاشية ( كتاب الوزراء ص ١٤ )

(٣) وفي عصرنا هذا كثيراً ما رأنا السلطان عبد الحميد يمد بيت المال من ثروته

(٤) كتاب الوزراء ص ٢٨٤ (٥) كتاب الوزراء ص ١٨٧ — ١٨٨

كان من العجر وهو ستمائة ألف دينار ، وقال له ليس لي معول إلا على ما يطلقه أمير المؤمنين لأشقاه ، فعظم ذلك على المقتدر ، وكتب أحد المتطلعين للورارة إليه رقعة يضمن فيها القيام بجميع السقات من غير أن يطلب منه شيئاً ، وأن يستخرج سوى ذلك ألف ألف دينار تذهب إلى بيت مال الخاصة ، فقلده الخليفة الورارة ، ولكنه عرل في العام التالي ، ووحد أنه احتال بأن أضاف إلى ما يقدر حصوله من الواحي أموال نواح قد حرحت عن يد السلطان تعلب من تعلب عليها ، وأسقط من السقات زيادات الحد والخاصية ، ولم يسقط من الأموال التي يُقدَّرُ حصولها من الواحي ارتفاع مانع من الصياح وإنما أراد هذا كله أن يجعل تقدير السقات مقارناً لارتفاع الأموال من الواحي ليسكن بذلك قلب المقتدر ، وكانت الحسة التي قدمها مموهة<sup>(١)</sup> وفي عام ٥٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م طلب الوزير من الخليفة خمسمائة ألف دينار ليعرقها في الحد ، فامتنع عليه ، ثم أعدها إليه بعد التهديد<sup>(٢)</sup>

وكان يحكم على الخليفة بحكم أنه الرئيس الروحي للمسلمين أن يقوم سقات موسم الحج ، وسقات العروات الصائفة ، وفداء أسرى المسلمين ، والقيام سقات الرسل الواردين ، وذلك من بيت مال الخاصة<sup>(٣)</sup> أما العطايا وكل ما يتعلق سقات دار الخلافة ، فكان يؤخذ من بيت المال العام<sup>(٤)</sup> وعدنا بيان يرجع إلى أول القرن الرابع مشتمل على وحوه الأموال التي تُحمل إلى بيت مال الخاصة<sup>(٥)</sup>

(١) الأموال المحلفة التي يتركها الآباء لأسائهم في بيت المال ويقال إن الرشيد حلف أكر مقدار من المال ، وهو ثمانية وأربعون ألف ألف دينار ، وكان المعتصد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) يستفصل في كل سنة من سبي حلافته ، بعد السقات ، مما كان يحصله بيت مال الخاصة ألف ألف دينار ، حتى اجتمع في بيت المال تسعة آلاف ألف دينار ، وكان يريد أن يتمها عشرة آلاف ألف دينار ، ثم يسكبها ويجعلها نقرة واحدة ، وبدر عند بلوغ ذلك أن يترك عن أهل

(١) مسكويه ج ٥ ص ٣٥١ — ٣٥٢ ، وان الأثير ج ٨ ص ١٧٦

(٢) ان الأثير ج ٨ ص ٢٧٩

(٣) كتاب الوراء ص ٢٢ ، ولذلك محد الوزير ان الغراب طلب من المصدر أن يعطيه من بيت مال

الخاص ما صرفه في سقات عيد البحر ، فيمنعه الخليفة ويلزمه الصام به من جهة ، كتاب الوراء ص ٢٨

(٤) كتاب الوراء ، ص ١ والصفحات التالية

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٣٨١ — ٣٨٥ وهو بيان الأموال التي ألقها المصدر



الملاذ ثلث الحراح في تلك السنة وأراد أن يطرح الشبكة على باب العامة ليلع أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار، وهو مستغن عنها، فاحترمته المية قبل بلوع الأمية<sup>(١)</sup> ثم جاء المكتنى بعد المعتصد (٥٢٨٩—٥٢٩٥)، فأبلغ المدّخر إلى أربعة عشر ألف ألف دينار<sup>(٢)</sup>

(٢) مال الحراح والصياع العامة الذي يرتفع من أعمال فارس وكرمان (بعد إسقاط البعقات)، وبلغ مقدار ذلك في كل سنة مدة عام ٥٢٩٩ إلى ٥٣٢٠ (٩١١—٩٣٢م) ثلاثة وعشرين ألف ألف درهم، منها أربعة آلاف ألف درهم كانت تحمل إلى بيت مال العامة، والباقي، وهو تسعة عشر ألف ألف درهم، إلى بيت مال الخاصة ويحب أن يسقط من ذلك البعقات الحادثة التي تطلبها هذه البلاد، في عام ٥٣٠٣ = ٩١٥م أسبق الخليفة لفتحها ما يريد على سبعة آلاف ألف درهم<sup>(٣)</sup>

(٣) أموال مصر والشام، وكانت حرية أهل الدمة مثلاً تحمل إلى بيت مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين، لا إلى بيت مال العامة<sup>(٤)</sup>، وهذا ما يحب للخليفة بطرياً

(٤) المال الذي يؤخذ من المصادرة لأموال الورراء المعزولين والكتاب والعمال وما يحصل من ارتفاع صيغاتهم، والمال الذي يؤخذ من التركات<sup>(٥)</sup>

(١) كتاب الورراء من ١٨٩، وكان بيت مال الخاصة الذي جاء المعتصد فلة قد صب في أنفائها الرصاص، وكانت الأكياس التي توضع فيها المال تحتم بحاتم حارون بيت المال، وكان بعض الملوك في القرن الرابع يحملون المال في الصناديق إلا الأحشيد صاحب مصر فإنه لعد بطره كان يقول لا تحملوا المال في الصناديق فإن الصناديق مطلوبة، بل اجعلوها في حرائر السلطان، فسكات توضع في أعدل الحواش التي لا تسد إليها أحد (المعرب لاس سعد ص ٤٤)

(٢) انظر عدا مسكويه كتاب الورراء من ٢٩ وما بعدها، (ونحكي الصاني في كتاب الورراء من ١٣٩ عر هذا) انظر Elias Nisibenus (الذي ولد عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م) ص ٢ هـ عن محمد بن يحيى

(٣) هذا المبلغ يعرف من مقارنه النصوص ومن أن مال السعة والمج بلغ بضعه عشر ألف ألف دينار (مسكويه)، على حين أن مال السعة وحده بلغ في الدفعة الواحدة ثلاثة آلاف ألف دينار (كتاب الورراء من ٢٩٢)

(٤) المظم لاس الحورى ص ١٩٦ ب

(٥) كان الخليفة يرب مال الخدم ومال من لا ولد له من موالى أسره الخلافة ولما كان هؤلاء في الغالب سادة دوى مناصب تدر الرق الكبر فإن مالا كثيراً كان يحرق إلى حرايه الخليفة، وفي عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م توفي القائد المس نأس الموققى، وكان داعلمان وسلاح، فكان يرل عند سورداده من حيار الفرسان والعلماء والخدم ألف مقاتل، وقد حلف، فيما حلف، صياعاً على ثلاثين ألف دينار (عرب =

(٥) ما كان يحمل إلى بيت مال الخاصة من أموال الصياع والخراج بالسواد والأهوار والمشرق والمغرب

(٦) ما كان يستفصله الخلفاء ، فكان كل من الخليفتين الأخيرين في القرن الثالث الهجري (وهما المعتضد والمكتفي) يستفصل في السنة ألف ألف دينار ، وكان سليل المقتدر أن يستفصل مثلها فيكون مبلغه في خمس وعشرين سنة خمسة وعشرين ألف ألف دينار أعنى نحواً من نصف ما حله الرشيد<sup>(١)</sup> ولكن المقتدر أتلف كل هذه الأموال الطائلة حتى لم يبق في بيت مال الخاصة بعد ما أُتفق في محاربة القرمطي عام ٥٣١٥ = ٩٢٧م إلا خمسة ألف دينار<sup>(٢)</sup>

ولم يكن في سائر دواوين الإسلام ديوان أصعب عملاً وأكثر أنواعاً من ديوان فارس ، لاختلاف روعها وتقارب الأحرحة على أوصاف روعها واختلاف أبواب أموالها وتشعب الأعمال على المتقلدين لها<sup>(٣)</sup> وقد سع في دواوينها الكثير من العمال أما صرائها فيقول المقدسي ولا تسأل عن ثقل الصرائ وكثرتها ، ويقول قرأت في كتاب بحرارة عصف الدولة أهل فارس أجمع الناس بطاعة السلطان ، وأصدرهم على الظلم ، وأتقلهم حراحا ، وأدلمهم نفوسا ، وهم لم يعرفوا عدلاقط<sup>(٤)</sup> وكانت فارس في عام ٥٣٠٣ = ٩١٥م تدفع صرائ تفوق غيرها بكثير<sup>(٥)</sup> ، فليس عريبا أن نجد البلخي يخصص لفارس أطول مقالة من مقالاته السياسية<sup>(٦)</sup> وربما كان تنظيم هذه البلاد الحلية متنوعا منذ عهد الساسانيين ، فكان فيها قلاع صحرية بعيدة المال ، وعانات ، وأشراف يملكون أرضاً واسعة ، فكان هذا من

(= ص ١١٥ — ١١٦) ، وفي عام ٥٣٢ هـ — ٩١٤ م ماتت ندعة المعية حارثة عربة ، (هكذا تسمى في الأغاني ح ١٨ ص ١٧٥ — ١٧٩ ، وفي كتاب عداد لطفور طعة Keller ص ٨ ٣ ، وليس عربة كما يريد دي عوي في كتاب عربة بن سعد ص ٥٤) التي لم تكن بين حوارى المأمون امرأة « أصرب منها ، ولا أحسن صفة ، ولا أحسن وحباً ، ولا أحب روحاً ، ولا أحسن حظاً ، ولا أسرع حواناً » ، وقد حلف مالا كثيراً وحوهراً وصياغاً وعقارات ، فأمر المقتدر بقص ذلك كله (عربة ص ٥٤)

(١) هنا خطأ في كلام المؤلف أصلحه بالرجوع إلى الأصول العربية (المرحم)

(٢) انظر مسكويه ج ٥ ص ١ ٣ ، ٣٨١ — ٣٨٥

(٣) الاصطخرى ص ١٤٦ (٤) المقدسي ص ٤٥١ ، ٤٤٨

(٥) Kremer Einnahmebudget, S 308

(٦) الاصطخرى ص ١٥٦ وما بعدها ، وان حول ص ٢١٦ وما بعدها

دواعى تكوين نظام إقطاعى كامل منذ ذلك الحين ، حتى أن المقدسى يقول إن أكثر الصياع -ها- تقطعه<sup>(١)</sup> ومع هذا كان النظام المالى من النموحيث  كركة الدين كانوا يردعون الصياع السلطانية بالمقاسمة أو المقاطعة كان عليهم صرائب يؤدونها دراهم<sup>(٢)</sup> وكان يعرض الحراج على أساس ما إذا كانت الأرض تسقى أو لا تسقى ، وإذا كانت تسقى فهو على أساس ما إذا كانت تسقى بآلة أم بغير آلة ، فإن كانت لا تسقى بالآلات دُفع عنها مقدار هو المعيار ، ويؤخذ ثلثا ذلك عما يسقى بآلة ويصفه عما لا يسقى قط<sup>(٣)</sup> وأما حراج الشجر والعروس المثمرة ، ومنها الكرم ، فقد كان الخليفة قد أسقط عنه الحراج ، ولكن أصحاب حراج الررع شكوا إلى الخليفة المتتدر تقل الحراج عليهم بسبب ما أرموه من التكلفة ، فحُرم أهل الشجر مما كانوا يتمتعون به من الإعفاء وفرُست عليهم الصرائب ، فكان يُدفع عن الحريب الكبير من الكرم ألف وأربعمائة وخمسة وعشرون درهماً<sup>(٤)</sup> ، وعلى كل بحلة ربع درهم<sup>(٥)</sup> وكانت الطواحين احتكارا للسلطان ، وكذلك أجرة الدور التى يعمل فيها ماء الورد<sup>(٦)</sup> وفى مدن فارس كانت أراضي الأسوان وشوارعها ملكا للحكومة تأخذ عنها أحرأ ، أما الدور فكانت ملكا لأصحابها وكان فقهاء المسلمين يعتبرون كل ما راد عن الصرائب الشرعية ( وهى عشر الأرض والركاة وحرية أهل الدمه ) صرائب غير قانونية ولذلك أبطل الوريثات على س عيسى المكس بمكة وحماية الجمور بديار ربيعة<sup>(٧)</sup> ولهذا السبب أيضاً بحد الخليفة الحاكم بأمر الله فى مصر حينما أراد أن يرجع إلى أصول الإسلام الأولى يسقط جميع الرسوم والمكوس التى حرت العادة بها ، وسرعان ما أعيدت فى عهد خلفه إلى ما كانت عليه<sup>(٨)</sup> وكما أن فارس كانت هى البلاد المعروفة بحراجها ، فقد كانت مصر أرض المكوس ، ويدل بيان وحوه المال فى عهد الفاطميين على أن كل شيء كانت تفرص عليه المكوس ، ولم يسلم من ذلك إلا الهواء<sup>(٩)</sup> ، وكان لا بد أن تُدفع فى حملة مبلغ الصرائب حرة من اتى عشر منها « وصيعة »

(١) المقدسى ص ٤٢١

(٢) الاضطهرى ص ٥٨

(٣) الاضطهرى ص ١٥٧ - ١٥٨

(٤) نفس المصدر ص ١٥٧ ، وكتاب الورداء ص ٣٤١ - ٣٤٢

(٥) مقدسى ص ٤٥٢ - ٤٥٣ (٦) الاضطهرى ص ١٥٨

(٧) كتاب العيون ص ١٨٢ ، وهذه ما نسبها ابن حوقل ( ص ١٤٢ ) صرائب الحر

(٨) نجي بن سعد ص ١١٢٣ ، ١٢٣ ب

(٩) اطر الخطط للمقريرى مثلاً ص ١٣ وما يلها



وعُشْر «للمصرف» وحرء من مائة للزراعة<sup>(١)</sup> والمؤرخون الإسلاميون الذين يعتبرون أن الإدارة الإسلامية الأولى هي التي تتمشى مع الشريعة يصنعون ابن المدر الذي ولي حراج مصر بعد ستة حسين ومائتين بأنه من «شياطين الكتاب» ، لأنه أول من أحدث مالا سوى مال الحراج بمصر<sup>(٢)</sup> ولكن هذه المكوس لم تكن حديثة بل كانت موحودة على عهد البطالسة والرومان والبيزنطيين ، « وكان الإنسان لا يتألك أن يسأل نفسه هل بقي بمصر اليوم شيء مما يمكن أن تعرض عليه المكوس بدون مكوس<sup>(٣)</sup> ؟ »

ويظهر أن الإسلام في العهد الأول لم يقص على الكثير من الوسائل الاقتصادية القديمة التي حرت العادة باللحوء إليها لامتنصاص ثروة الناس<sup>(٤)</sup> وقد ذكر المقدسي أن الضرائب بمصر ثقيلة ومخاصة في تدبير وهي مدينة بمصر تحيط بها المياه مشهورة بمسوحاتها<sup>(٥)</sup> وقد بلغ من شدة وطأة الضرائب بها وكثرة الرسوم أن أهلها شكوا إلى الطريق وهو ماز بمصر حوالي عام ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م أن الواحد منهم يلزم بدفع خمسة دنانير في كل عام ، وهو مبلغ لا يقدر على دفعه ، وتستعمل القسوة في تحصيله منهم<sup>(٦)</sup> ، وقد بقي النظام القديم قائما متعاصيله وظلت الإسكندرية محافظة على مكائنها الخاصة التي كانت لها في عهد البطالسة<sup>(٧)</sup> حتى أوائل القرن الرابع الهجري ، حيث بحث في إحصاء أموال الدولة أفرادا باب خاص عموانه مصر والإسكندرية<sup>(٨)</sup> ، فقد حافظت الإسكندرية على مكائنها باعتبارها قسما

(١) Hofmeier, Islam, IV, S 100 ff

(٢) الخطط للمعري ح ١ ص ٢ قال أبو الحسن بن المدر إنه كان ينقل الديوانين بالعراق يريد ديوان المشرق وديوان المغرب ، فلا ست لثة من الليالي وعمله عمل أو بقية منه ، ثم عمل بمصر فكان رعا باب وقد بقي عليه شيء من العمل فتمه إذا أصبح ( ابن حوقل ص ٨٨ ) ، وكذلك يجرى يحيى بن سعيد أن عيسى بن سطورس الذي نقل الوزارة بمصر قرب أواخر القرن الرابع الهجري أحدث رسوما ومكوسا حائرة ، ويحيى بن سعيد مواطن معاصر لعيسى ، وهو صراني مثله ( يحيى بن سعيد ص ١١٣ ب )

(٣) اطر Wilken, Griech Ostraka, 410

(٤) اطر أوراى الردى ( الى سرها بكر Becker ٩ ) ، وكان المهدي ١٥٨ — ١٦٩ هـ أول من فرض حانة على الأسوان وحمل عليها أجرة وذلك في عداد ( تاريخ العقونى ح ٢ ص ٤٨١ ) ، طبعه ليدن ( ١٨٨٣ ) وفي مصر ( الولاء للكدي ص ١٢٥ )

(٥) المقدسي ص ٢١٣ (٦) اطر الفصل الخاص باليهود والصاري

(٧) Wilken, Griech Ostraka, S 433

(٨) Kremer, Einnahmebudget, S 309

مستقلاً بحمايته ، كما كان الحال على عهد البطالسة ، بل محمد القلقشندى ، بعد القرن الرابع  
كثير ، يقول إن الإسكندرية تؤدي حراجها إلى حراة السلطان رأساً<sup>(١)</sup> . هذا إلى أن  
حق الملكية المطلقة عند الفراعنة ، وهو الذى ورثه البطالسة والرومان والنوريطيون ، كان له  
شأن كبير فى تشريع العرب المتعلق بالصرائب<sup>(٢)</sup>

وكذلك بقى بمصر نظام الاحتكار فى الاقتصاد على قوته ويحكى لنا المقدسى الذى  
زار مصر فى أوائل عهد الفاطميين « أما الصرائب فتقيلة بمخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل  
اليل ، وأما تياب الشطوية فلا يمكن القطى أن يسح شيئاً منها إلا بعد ما يحتم عليها تحتم  
السلطان ، ولا تُباع إلا على يد سماسة عُقدت عليهم ، وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى  
حريته ، ثم تُحمل إلى من يطوبها ، ثم إلى من يشدها بالقشر ، ثم إلى من يشدها فى  
السط ، وإلى من يحرمها ، وكل واحد منهم له رسم يأخذه ، ثم على باب الفرصة يؤخذ أيضاً  
شيء ، وكل واحد يكتب على السط علامته ، ثم تفش المراكب عند إقلاعها ويوحد تنيس  
على رق الریت ديار ، ومثل هذا وأشابهه ، ثم على شط اليل بالسباط صرائب ثقال  
رأيت بساحل تنيس صرائبها حالساً ، قيل قنالة هذا الموضع فى كل يوم ألف ديار ، ومثله  
عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الإسكندرية «<sup>(٣)</sup> أما فى المسرق فلم تفرص  
الصرائب على البضائع إلا فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وقد فرص عصد  
الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ) فى آخر أيام دولته رسوماً على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة  
وراد على ما تقدم ومنع من عمل الثلج والقر وجعلها مسجراً للخاص<sup>(٤)</sup> ولذلك قال الشاعر  
أى كل أسواق العراق إناوة وفى كل مانع أمرؤ مكس درهم<sup>(٥)</sup>

ولما عزم صمصام الدولة من عصد الدولة بعداد فى عام ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م أن يصع  
على الثياب الأريسم والقطن المبيعة صرية مقدارها عسر الثمن « اجتماع الناس فى جامع  
المصور ، وعزموا على قطع الصلاة ، وكاد البلد يفتن ، فأعصوا من ذلك »<sup>(٦)</sup> وفى عام ٣٨٩ هـ

(١) ترجمه محضر مسج الأعشى ص ١٥٨ (٢) المقدسى ص ٢١٢ — ٢١٣

(٣) المقدسى ص ٢١٣ (٤) ابن الأثير ح ٩ ص ١٢٥

(٥) اطر مادة مكس فى الصحاح للجوهري

(٦) المتظم ص ١٢٣ ب ، وابن الأثير ح ٩ ص ١٦ ، ٣٣ قلا عن الناحى للصان المعاصر

لذلك العهد .

— ٩٩٨ م أريد مرة أخرى وضع العشر على ما يُعمل من الثياب الأريسميات والقطيبات بمدينة السلام ، فثار الناس وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة وسعوا الحطبة والصلاة ، وأحرقوا دار المحولى ، فلم يبق فيها حدار قائم ، واحترق ما كان فيها من حسانات الدواوين ، وقبض على جماعة من العامة اتهموا بما جرى وعوقبوا ، واستقرَّ الأمر على أحد العشر من قيم الثياب الأريسميات خاصة ، ووصعت الختوم على كل ما يقطع من الماسح ويباع ويحمل<sup>(١)</sup>

ولم يقتصر أمر الصرائب على أدوات الترف ، بل تعداها إلى الضروريات ، فُرضت صرية على الملح وفي سنة ٤٢٥ هـ — ١٠٣٣ م حاطب الديورى الراهد الملك في إرالة صرائب الملح ، وأعلمه ما يصيب الناس من الأذى بذلك ، فأجاب الملك طلبه ، وكتب برفع هذه الصرائب منشوراً قُرئ في الخوامع ، وكتب على أبوابها لمن من يتعرض لإعادة هذه الحماية ، وكان ارتفاعها إلى دينار في كل سنة<sup>(٢)</sup> على أن المصريين لم يشوروا أبداً سبب شيء من هذه الصرائب

أما في الشام فكانت صرائب المصانع هيّبة ، ولكن كان في بيت المقدس صرائب تقال على الرخصة ، فلم يكن يحوز لأحد أن يبيع شيئاً مما يرتفع به الناس إلا بها ، وثُمَّ رحال على أبوابها وآخرون على ما يُباع فيها<sup>(٣)</sup> وكان من الصرائب التي احتص بها هذا الإقليم صرائب الحماية على من يكون عنده مركب متلا ، وكان الذي يأتي من ذلك يعادل ما يأتي من حراج الأرض<sup>(٤)</sup> وكانت الصرائب في البلاد التي تُنتل بها تختلف باختلاف الحكام ، يقول ابن حوقل في كلامه عن الشام «فأما حراجاتها وأعشارها ومراقق سلاطينها ، فكان ذلك على أوقات مختلفة نقواين متباينة وحيايات ناقصة ورائدة ، وذلك أنها مدسة ثلاثين (٣٣٠ هـ) بين قوم يتناول أحدهم على الآخر ، وأكثرهم عرصه ما احتله في يومه وحصله

(١) كتاب الورراء ص ٣٦٧ — ٣٦٨

(٢) المسطم لاس الحورى ص ١٨٨ (٣) المقدسى ص ١٦٧

(٤) نفس المصدر ص ١٨٩ ، وليس عندما يفسر معنى الحماية بيد مؤلفي ذلك العهد ، وانظر إلى حاب ما ذكره دورى في ملحق القاموس ( ح ١ ص ٣٣ ) ، فهرس المكسة الحرفاء ، وكتاب الخطط للميرى ( ح ١ ص ٨٩ ) حيث يسلم الميرى عن حماية المراكب ويقول إنها كانت تؤخذ بمصر من كل من ركب البحر حتى السوال والمكديين



لوقته ، لا يربح في عمارة ولا يلتفت إليها برؤية ولا إشارة <sup>(١)</sup> وقد رأى هذا المؤلف نفسه ارتفاع الشام وما في صميمها من الأعمال والأحباد ، ووقف على ذلك من جماعة على بن عيسى ومحمد بن سليمان لسنة ٢٩٦ هـ وسنة ٣٠٦ هـ ، فكان ، بعد أوراق العمال ، تسعة وثلاثين ألف ألف درهم <sup>(٢)</sup>

وكان بيت المال في كل من هذين القطرين وهما الشام ومصر يقوم بالمسجد الجامع ، وهو شبه قبة مرتفعة محمولة على أساطين ، وليت المال باب حديد وأقفال ، والصعود إليه على قطرة من الخشب ، وإذا صُلِّيت العشاء الآخرة أخرج الناس كلهم من المسجد ، حتى لا يبقى فيه أحد ، ثم أُعلقت أبوابه ، وذلك لوحود بيت المال فيه <sup>(٣)</sup> ويستطيع أن يسأل : هل هذا من الرسوم المصرية أو الشامية قديماً ؟ وهل كانت حراة الكيسة تُحفظ على هذه الصورة ؟ ثم هل كانت الكيسة في العصر القديم والعصر البورطى حراة للدولة لامعداً فقط ؟ <sup>(٤)</sup> ملاحظ أنه حتى القرن الرابع الهجري كان تصميم الأراضي لمستعبلها بمصر يجرى في المسجد الجامع كل أربع سنين ، فكان يبادى على البلاد صفقات صفقات في جامع عمرو أمام متولى حراج مصر وكتّانه ، وهذه عادة من عادات المصريين قديماً <sup>(٥)</sup>

وقد ظلت العراق معظم القرن الرابع ( حتى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م ) تحت حكم بني حمدان ، وكانوا أمراء شبه مستقلين ، وهؤلاء الأمراء ، الذين لم يظهر من بينهم بالأعمال العظيمة والفروسية إلا سيف الدولة صاحب حلب ، حاروا على الرعية حوراً عطياً ، وهو ما يفعله أهل النادية الذين لا يعلمون ولا يحسبون لشيء بعهداً وكانوا أسوأ جميع حكام القرن الرابع والترك والفرس الذين حكموا في هذا القرن هم جميعاً كالآباء لرعيتهن ، إذا قورنوا

(١) انظر حوقل ص ١٢٨

(٢) نفس المصدر ، وكله جماعة ها هي اصطلاح دنواني معناه الحساب الجامع ( اطر مفاسح العلوم للحوارمى ص ٥٤ )

(٣) كتاب الأعلام القسمة لابن رسته طبعه لندن ١٨٩١ ص ١١٦ ، والمقدسى ص ١٨٢ ، ويحكى الأصبهاني ( ص ١٨٤ ) أن بيت مال أهل بردعة ، بلاد القوفار كان بالمسجد الجامع ، ويلاحظ أنه على رسم السام ، ويصفه بأنه مخصص السطح ، وعليه باب حديد ، وهو على سبعة أساطين

(٤) فارن Wilken, Griech Ostraka, S 149

(٥) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٨٢

بالحمدانيين وبما نشأ عن طبيعتهم البدوية أنهم كانوا لا يبالون بالشجر ، وفي سنة ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م أعلقت مدينة حلب أبوابها في وجه عسكر سيف الدولة ، فاقتلوا كل الأشجار المحيطة بالمدينة ، وكانت هذه الأشجار كما يقول الشاعر الصوري المعاصر لذلك العهد أكبر ما اردان به الإقليم<sup>(١)</sup> وقد اعتصب الحمدانيون أكثر أرض العراق ، واستروا منها القليل منهم من أعشار ثمنها<sup>(٢)</sup> ، حتى صارت الموصل وأكثر أعمالها ملكاً لناصر الدولة ، وكان يصابق أصحاب الأرض حتى يلحقهم إلى البيع بأوكس الأثمان ، وطالت حياته وامتدت أيامه حتى استولى على الناحية ملكاً ومُلكاً<sup>(٣)</sup> ، وقد اكتسح الحمدانيون أشجار الفاكهة والساتين ، وجعلوا مكانها العلات والحبوب مثل القطن والأرز والسمسم ، وحلوا كثير من أهل هذه البلاد ، وكان ممن حلوا سوحب ، وهم سوعم بن حمدان ، فقد حرقوا بداريهم ومواسيهم في اثني عشر ألف فارس إلى بلد الروم ، حيث أرسلوا على كراثم الصباغ ، ثم عادوا إلى بلاد الإسلام على بصيرة بفسادها وعلم بطرقها ، وقلوبهم تصطرم حقداً وتغور كيداً ، فشتوا عليها العارة سلماً ومهناً ، وصارت لهم بذلك عادة وصادرت الحكومة أرض من حلوا عن البلاد وسُلم بعضها إلى من بقى ، ولم يمكن هؤلاء ترك البلاد ، « وآثروا فطرة الإسلام ، ومحبة المنشأ حيث قصوا أيام الشباب على مقاسمة النصف من علاتها على أي نوع كانت ، وعلى أن يقدر الأمير الدخل ويقومه عيماً إن شاء أوروبا » وفي سنة ٣٥٨ هـ — ٩٦٨ م بلغ حاصل بصيين من الحبوب خمسة آلاف درهم ، عدا صرية الجاحم ، فإنها بلغت خمسة آلاف دينار وبلغت صرائب الحر خمسة آلاف دينار ، وبلغ ارتفاع ما يؤخذ عن العم والنقر والدواب والنقول خمسة آلاف دينار ، ورفع من الطواحين والصباغ المقنوعة والمشتراة وعلات العقار المسقف من الحمامات والدكاكين سبعة عشر ألف دينار ، هذا على أن حل البلاد قد حرب ، وناسه قد هلكوا ، ونادت الأشجار والساتين ، فلما زال حكم الحمدانيين عُرست الأشجار وكثرت الكروم والمواكه<sup>(٤)</sup> فلا عجب بعد هذا أن يجد ابن حوقل حوالي عام ٣٧ هـ — ٩٨٠ م يقول

(١) Wüstenfeld, Die Statthalter von Aegypten IV, S 36

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٨٥ — ٤٨٦

(٢) ابن حوقل ص ١٤٣ وما يليها

(٤) ابن حوقل ص ١٤٢ — ١٤٣

إن بنى حمدان هم أعنى ملوك الإسلام في عهده إلى جانب عبد الرحمن الثالث خليفة الأندلس<sup>(١)</sup> وفي عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م فتح عاصم الدولة بعض قلاع بنى حمدان ، فكان قيمة ما في القلعة عشرين ألف ألف درهم<sup>(٢)</sup> ومع هذا كانت تقوم بسب دفع الحرية مبارعات مستمرة بين الحمدانيين من جهة ، وبين بغداد وبورطة من جهة أخرى<sup>(٣)</sup>

أما إقليم حراسان الذي حصص في أثناء القرن الرابع لأسراء كثيرين في مقدمتهم السامانيون والموهيبيون ، فقد كانت الصرائب فيه على ما كانت عليه في القرنين الثالث والرابع ، وقد لاحظ ابن حوقل مثل هذا في هراة<sup>(٤)</sup> ، وهو يُحسب الثناء على السامانيين ، وعلى حسن إدارتهم المالية ووسطهم للأعمال في شمال المملكة الإسلامية وفي شرقها ؛ يقول ابن حوقل « وليس بأرض المشرق ملك أوسع حاشاً ، ولا أوفر عِدَّة ، ولا أكمل عُدَّة ، ولا أطعم أسناناً ، ولا أكثر أعْطِيَّة ، ولا أدرّ طعاماً ، ولا أدوم حُسْنِ بياتِ مهم ، مع قلة حباياتهم ، وبرور أحرختهم ، وقلة الأموال في حراثتهم ، وذلك أن حباية حراسان وما وراء النهر لأنى صالح منصور بن نوح في وقتنا هذا ، لكل حراح يُقَصص وصمان يحل في كل ستة أشهر ، عشرون ألف ألف درهم وعليه أربعة أطعام في كل سنة دائرة غير مقطوعة ولا ممسوعة ، وكل طعم منها في رأس تسعين يوماً ، يخرج منه إلى علمائه وقواده ولسائر المتصرفين خمسة آلاف ألف درهم ، فتستوفي الأربعة أطعام الحراح الواحد لسان خدمته من الرجال عند آخر السنة ، وتستوعب أعطيتهم نصف حباياته المذكورة ، وهي عشرون ألف ألف درهم عن نفس طيبة ومسرة ظاهرة ، وعظمة نقيام المعدلة فيهم تامة ولهذا الحال أعمالهم مشحونة بالقصاة والحماة والكفاة والولاة ، مبرلين على أرراق تتساوى ، وأحوال في المراتب تتداني ، وذلك أن ررق القصاصي وصاحب البريد والعامل على حباية

(١) Dozy, II S 57

(٢) مسكويه ح ٦ ص ٤٩٥ — ٤٩٦ ، وقد كان مسكويه مكلفاً بإحصاء ما في هذه القلعة

(٣) يحيى بن سعيد ص ٦٤ ب — ١٦٥ ، وانظر مثلاً Flias Nisibenus, S, 51٦ على ع

ثابت بن سنان

(٤) ابن حوقل ص ٨ ٣



الأموال من السادة ووالى الصلاة والمعونة راتبهم بقدر كل ناحية وحسب كل كورة ،  
وليس يقص معصم عن معص<sup>(١)</sup> »

وقد ارتفعت الحياة في فارس في عهد عصف الدولة ، أعظم حكام القرن الرابع ، من  
١,٨٨٧,٥٠٠ إلى ٢,١٥٠,٠٠٠ ، وذلك في عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م أى أن زيادة  
الدخل كانت تقرب من السدس<sup>(٢)</sup> وقد كان في استطاعة عصف الدولة أن يعق عن سعة  
لأن دخله في السنة كان ثلثمائة وخمسة وعشرين ألف ألف درهم ، ولكنه « كان يطر في  
الديار ويباقش في القيراط » ، كما يقول ابن الحورى<sup>(٣)</sup>

أما مصر فقد حافظت في الحملة على المستوى العالى الذى كانت فيه ، فقد استطاع أحمد  
ابن طولون بما كان له من قوة عظيمة أن يستخرج خمسة آلاف ألف دينار في القرن الثالث  
أما في حلال القرن الرابع بما كان فيه من اضطراب فقد اشتهل ارتفاعها على ثلاثة آلاف  
ألف ومائتين وبيف وسعين ألفاً من الدناير ، وفي أواخر القرن بلغ الخراج على يد الوزير  
ابن كلثوم أربعة آلاف ألف<sup>(٤)</sup> ولم يحدث في القرن الرابع تدهور مالى عام ، وكان الدخل  
يتوقف ، كما هو الحال دائماً ، على الرجل القاص على ناصية الحكم في عام ٣٥٥ هـ —  
٩٦٥ م أشار ابن العميد على ركن الدولة أن يدّر ناحية أدر بيحان لنفسه ويرفع له منها  
خمسين ألف ألف درهم ، وكانت بلاد أدر بيحان عية ، ولكن كان عليها إبراهيم السلار ،  
وكان حاكماً صعباً سيّئ التدبير مهملًا لأموارها مشتغلاً باللعب ، فلم يكن يرتفع منها أكثر  
من ألف ألف درهم « وذلك بسبب إقطاعات الديلم والأكراد ، وبعد ما يستولى عليه قوم  
متعزّرون لا يُتمكّن من استيعاء الحقوق عليهم ، وبعد ما يصيب بالإهمال وترك العمارة<sup>(٥)</sup> »  
ولا نجد مثالا للاضطراب الحقيقي الكبير في دفع الضرائب إلا في العراق ، وكان ذلك منذ

(١) نفس المصدر ص ٣٤١ — ٣٤٢ (٢) ابن اللحي JRAS, 1912, S 889

(٣) المسطم ص ١٢ ، ونقال إن عصف الدولة كان يريد أن يرفع دخله إلى ثلثمائة وسعين ألف  
ألف درهم ليكون دخله كل يوم ألف ألف درهم ، وفي روايه أنه كان يرفع له كل عام امان وثلثون  
ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ، وهذا يدل على أن الدناير في ذلك العهد كان تساوى عشرة دراهم

(٤) تاريخ أنى صالح الأرمى ص ١٢٣

(٥) مسكويه ح ٦ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ ، و Amedroz, Islam, III, 336

النصف الثاني للقرن الثالث الهجري وقد قدر ابنُ حرداذية ارتفاع العراق لسنة ٢٤٠ هـ — ٨٥٤ م ثمانية وسبعين ألف ألف درهم ، وفي عام ٢٨٠ هـ — ٨٩٣ م صُنَّ جُزء كبير من العراق بألبي ألف وخمسمائة ألف وعشرين ألف دينار ، وهو نصف ما كان أو أقل<sup>(١)</sup> وقد بلغ حراج العراق في ميرانية عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م ١,٥٤٧,٧٣٤ ديناراً ، وهو أقل من الثلث<sup>(٢)</sup> وراد الدخل بعض الريادة في أثناء القرن الرابع ، في سنة ٣٥٨ هـ — ٩٦٨ م عُقد صمان العراق باثنين وأربعين ألف ألف درهم<sup>(٣)</sup> وعرض عصد الدولة بعد ذلك مثل هذا المبلغ<sup>(٤)</sup> وكان الفرق بين حال العراق قديماً وبين ما آلت إليه فيما بعد عظيماً جداً ، فقد كان حراجها قديماً مصرب المثل في الكثرة ، حتى كان العصف يقول والله لو أعطيتني حراج العراق ما فعلت كيت وكيت<sup>(٥)</sup> ثم آل الحال في آخر القرن الرابع إلى أن يقول عصد الدولة عرصى من العراق الاسم ومن أرجاها (القسم الساحلي من فارس) الدخل<sup>(٦)</sup> وكان أكرأساب هذا التدهور أن البلاد استحالَت إلى مستنقعات ، ونظراً لأنها كانت تُروى بالطرق العمية فقد كانت تحتاج إلى عناية وبظام أكثر مما وُجِّه لها وقد اضطُر الرِّعاع إلى الحلاء ، وكان أهل الموصل مثلاً عراً حاءوا في القرن الرابع إلى شمال العراق ليردعوا تلك الأراضي الميصبانية التي كانت حتى ذلك الحين حرداء لا سات فيها<sup>(٧)</sup> وبعد هذا الفساد كان اعتماد الحراة سعداد على حراج العراق يعرضها للإفلاس ، ثم أُصيبت حكومة العراق بأول صائقة مالية حينما مع الصغار حملَ أموال فارس إليها ، وقد أدت هذه الصائقة حوالى عام ٢٧٠ هـ إلى فكرة الاقتراض ، وأول ماظهر ذلك في صورة قرص غير مصموم الرد ، وذلك أن الخليفة الموفق احتاج إلى مال يُخرج به الحدَّ لحاربة الصغار ، والتمس من وزيره صاعداً من محلد أن يحتال في ذلك ، فقال الوزير والله ما لي حيلة إلا من حطرت البعقات ومع المرتقين ، فقال الموفق أين يقع ذلك مما احتاج ، والذي أريد « أن تأخذ من التحار

(١) كتاب الورداء ص ١ ولا معنى مع هذا ما جاء في ص ١٨٨ من هذا الكتاب من أن ارتفاع العراق للعصف بلغ الارتفاع في عهد عمر بن الخطاب ، والأرقام هنا غير صحيحة

(٢) Kremer, Einnahmebudget, S 312

(٣) ابن حوقل ص ١٦٩ ، ١٧٨ (٤) مسكويه ج ٦ ص ٤٤

(٥) الأغانى ج ٤ ص ٧٩ (٦) المقدسى ص ٤٢١

(٧) ابن حوقل ص ١٤٣ — ١٤٤

قرصاً ، ووطّف عليهم وعليك وعلى الكتاب والعمال مالاّ ستعين به على إخراج راشد (قائد الحملة) ، فإذا اتسعا رددها عليهم » ، فاستوحش صاعد من ذلك ، وأراد إعمال الخيلة في التساعد عنه<sup>(١)</sup> وفي ٣٠٠ هـ احتاج الورير إلى شيء من مال الأهوار ، ولم يكن أصحابه متأهبين لذلك ، فأرسل في إحصار يوسف بن فيحاس الجهد اليهودي ، وكان جهد الأهوار ، وطلب منه تقديم مال<sup>(٢)</sup> وفي سنة ٣١٩ هـ — ٩٣١ م تواطأ متصّماً أعمال الخراج والصباغ بعارض وكرمان وتعاقدا على قطع حمل المال إلى السلطان ، واشتدت الصائقة بالورير فباع من الصباغ السلطانية نحو خمسمائة ألف دينار — وكان ذلك لأول مرة<sup>(٣)</sup> ، واستسلف من مال ستة عشر وثلاثمائة شطره قبل افتتاحها بشهور ، فلم يبق من مال هذه السنة إلا أقله ، واضطر فوق هذا إلى أن يقتصر مائتي ألف دينار بريح درهم في كل دينار<sup>(٤)</sup> وفي سنة ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م لم تُدفع للتجار أموالهم ، فطالبوا الورير بها ، فدفعته الصرورة إلى أن سَنَّت لهم على عمال السواد بعض ما لهم ، ثم باع عليهم بالباقي صياغاً سلطانية<sup>(٥)</sup> وفي سنة ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م احتاج الورير إلى مال لدفع استحقاقات الجند ، فطالب مياسير التجار بأموال يعجّلونها ، ويكتب لهم بها سفاتح ، وأمر من كان يرل سور المدينة أن ينتقل عنه لتناع المارل التي كانت هناك ملكاً للحكومة<sup>(٦)</sup>

وفي هذه الأحوال عاد الأمر في تحصيل الخراج إلى ما كان حارياً قبل الإسلام من وسائل رديئة ، وكانت القروض التي احتاجت إليها الدولة مبدأ تصمين الخراج في المشرق ، وأول ما أحد طريقة القروض في عهد الخليفة المعتصد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠١ م) حدث أبو القاسم عبيد الله بن سلمان ورير المعتصد أحد أصحابه فقال له قد وردنا على دينا حراب مُستعلقة ، وبيوت مالٍ فارعة ، وانتداء عَقْد خليعة حديد الأمر ، وبينا وبين

(١) كتاب الدياراب للشاشي ١١٨ ب — ١١٩ ا

(٢) كتاب الورراء ص ١٧٨

(٣) وفي مثل هذه الأحوال كان أصحاب الأراضي المحاورة يعمون ويشترون الصباغ بأقل من ثمنها

كثير ( ابن حمدون في JRAS, 1908, S 434 )

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٤ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٧٦

(٥) مسكويه ج ٢ ص ٥٥

(٦) الأوراق للصولي مخطوط مارس ص ١٣ — ١٤



افتتاح الخراج مدة ، ولا بد لي في كل يوم من سبعة آلاف دينار لبعثات الحصرة على غاية الاقتصاد والتحرية ، فإن كنت تعرف وجهاً تعينني به فأرشدني إليه ، فأشار صاحب الوريث بإطلاق ابني الفرات ، وكانا عاملين لها دهاء وحيرة بالأعمال والأموال ، فأطلقتهما من سجنهما ، فحاطبا أحد الأعياء في أن يصيب حراً من أرض العراق على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار ، فأعطى حظه بذلك ، وعرف الوريث الأمر فاستطير هو والخليعة سروراً لهذا الحل الحديد بما انطوى عليه من مهارة<sup>(١)</sup> ومجد في ثلث حراج سنة ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م أن حراسان والأهوار وواسط كانت صمماً إلا الصياع<sup>(٢)</sup> ، وفي سنة ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م صمّ الخليعة حراج مصر ثلاثة آلاف ألف دينار<sup>(٣)</sup> وفي سنة ٣٠٨ هـ صمّ الوريث حامد ابن العباس حراج العراق وخورستان وأصفهان للمقتدر ، فارتفعت الأسعار بعداد ، لأن الوريث جمع الخبث في تلك البلاد ومنع من حملها إلى بعداد ، فثار العامة على الوريث ، وسوّوه ، وفتحوا السجون ، وكسوا دار صاحب الشرطة وانتهوا بمص دوانه ، ومنعوا صلاة الجمعة ، وهدموا المآثر ، وأحرقوا الحسور ، فأمر السلطان بمحاربة العوام ، فأخذوا ، فصرّب بعضهم ، وفرّ الباقيون ، وطلب حامد بن العباس من الخليعة فسخ صمائه ، واستأذنه في الشحوص إلى واسط ليعيد عماله بما فيها من الأطعمة إلى بعداد ، وفسخ صمائم حامد ، وسأل الخليعة أن يعميه من الوراثة فلم يُجِبْ<sup>(٤)</sup> ولم يكن الذي يتولى صمائم الخراج ، في العراق على الأقل ، رجلاً من عامة الناس ، بل كان عاملاً على حراج البلاد التي يصممها<sup>(٥)</sup> وكان له أن يولى في هذا الإقليم عمال الخراج ويعزلهم<sup>(٦)</sup> وكان للحكومة إلى جانب الصامس

(١) كتاب الوريث ص ١ — ١١

(٢) Kremer, Einnahmebudget وكذلك صمّت فارس بعد اسردادها من بني الصفّار ، ولكن الصامس أحرّ المال ، فحلّ صمائه وعهد على آخر ( كتاب الوريث ص ٣٤ )

(٣) كان الأحشد في القرن الثالث الهجري يحمل إلى الخليعة ألفي ألف دينار ( خطط المقريري ح ١ ص ٩٩ ) ، وإلى جانب مبلغ الصمائم كان لابد للصامس أن يبعث الهدايا الكثيرة للخليعة ، والسيدة الوالدة والحالة والمهرمانه والحاجب والمائد وكسائهم في كل سنة ( كتاب الوريث ص ٣٢١ )

(٤) عرب ص ٨٥ ، ٨٦ ، والمسلم إلابس الخوري ص ١١٨ والهمداني مخطوط مارس

١٨٦ ب (٤) .

(٦) الهمداني مخطوط مارس ص ١٨٦ (٤)

(٥) عرب ص ٥٥

رجلٌ يشرف عليه ليرى إن كان يتحصّل له زيادة على صمائه<sup>(١)</sup> ، وأن يراعى سوع خاص أن الصامس يؤدى ما يُبغى على كرى الأهبار وحراسة الريدات والدور ، وعلى المعاوين الذين يحفظون الأمن<sup>(٢)</sup> أما الصمات الصغيرة مثل صمان الصدقات فيحكى عن الورير أى الحسن بن العرات أنه قال لكاتب سألته أن يصممه الصدقات فارس « إنما يرعى في عقد الصمان على تاجر ملىّ أو عامل وفى أو تان<sup>(٣)</sup> عى ، فأما أصحاب الحروب فعقد الصمان عليهم ومطالبتهم بالخروج من أموالها يستدعى مهم العصيان وحلع طاعة السلطان »<sup>(٤)</sup>

وكان أمراء الأطراف في معظم الأحوال يطهر أمرهم بأن يكونوا صامسين للبلاد التي يحكمونها ، ولم يطهروا في صورة أصحاب الإقطاعات كما كان الحال في الإمبراطورية الحمرانية المقدسة ، وكانوا ينوصلون إلى الملك بأن يتدنّوا باحتلال المدن والأقاليم عصفاً ، ثم يقاتلون عليها عسكر الخليفة ، حتى يُعترف لهم بالإمارة في مقابل مال يصممون أدائه ، وكانت أمثال هذه الصمات التي تؤخذ كرها توتى الحكومة صفقة سيئة بالنسبة للصمات الأخرى في سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م صم ابن أبى الساج أرمينية وأدر بيحان قل أن تؤولا إلى الساميين بمائة وعشرين ألف دينار ، وهو ما يقرب من عشر الدخل الذى كانت تدفعه هذه البلاد بمدة مائة سنة<sup>(٥)</sup> وفى سنة ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م فتح عماد الدولة بن تويّه إقليم فارس ، وطلبها صمماً من الخليفة ، على أن يدفع إليه ألف ألف درهم ، على حين أنها كانت تؤتى من مال الخراج والصباغ وحده بمدة عام ٢٩٩ هـ — ٩١١ م إلى ما بعد ذلك بعشرين عاماً ثمانية عشر ألف ألف درهم<sup>(٦)</sup> وكذلك كان صمان عمان في أوائل القرن الرابع ثمانين ألف دينار ، وكان حراجها تحت الإدارة المباشرة قل ذلك بمائة عام ثلاثمائة ألف دينار<sup>(٧)</sup>

وكان استعمال الوسائل القاسية في تحصيل الخراج من الوسائل المعروفة قديماً ، وورما كان ضرورياً ، فمثلاً كان أهل نادور ياحول بعدد معروفين بالخلد ، وكان عليهم نقايا أموال ،

(٢) كتاب الورراء ص ٣٤

(١) ابن الأثير ح ٨ ص ٨١ — ٨٢

(٣) نفس المصدر ص ٧١

(٤) ابن الأثير ح ٨ ص ٧٦ — ٧٧ ، Kremer, Einnahmebudget, S 299

(٥) مسكويه ح ٥ ص ٣٨١ ، وحراجها في مراه عام ٣٦ هـ — ٩١٨ م قدر بألف ألف

وحسمائه ألف دينار ، وهو ما يقابل الثمانية عشر ألف ألف درهم

(٦) كريمر نفس المصدر ص ٨ ٣ والمقدسى ص ١٠

فتولّى عليهم ابن أبى السلاسل ، وفى قلبه أحقاد ورعية فى التشيى منهم ، وإخراج ما عليهم من النقايا ، فامتسعوا وصدروا على الخدس والقيد ، فأملى رقعة إلى الوريير على بن عيسى يعريه فيها بهم كل إعراء ، ويقول هؤلاء قوم يُدِلّون بالخلد ، وعليهم أموال قد أُلْطُوا بها ، وصدروا على الخدس والقيد ، ومتى لم تُطْلَق اليدُ فى تقويمهم واستخراج المال منهم تأسى بهم أهلُ السواد وتطلّ الاربعاء ، فردّ عليه الوريير بقوله الخراج ، عافاك الله ، دَيْنٌ لا يحب فيه غير الملاممة فلا تتعدّ ذلك إلى غيره<sup>(١)</sup> وهذا القرار الذى قرره الوريير يطابق المدأ الذى عُملَ به فى زمن الرشيد ، وهو الملع من صرب الناس فى الخراج أو إقامتهم فى الشمس أو تقييدهم<sup>(٢)</sup> وكان أصحاب الخراج فى عهد هذا الخليفة نفسه يطالّون بصوف من العذاب حتى عام ١٨٤ هـ حين أمر الرشيد برفع العذاب عنهم ، فارتفع من تلك السنة<sup>(٣)</sup> وفى عام ١٨٧ هـ — ٨٠٣ م وُلّي على خراج مصر عاملٌ بعد أن ضمن حماية الخراج عن آخره « بلا سوط ولا عصا »<sup>(٤)</sup> على أن ديوبيسيوس يصف حُياة الخراج فى العراق حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م بأنهم « قوم من العراق والبصرة والعاقولا ، وهم عُتاة ليس فى قلوبهم رحمة ولا إيمان ، شرّ من الأفاعى ، يصرون الناس ويحسبونهم ، ويعلقون الرجل الدين من دراع واحد حتى يكاد يموت »<sup>(٥)</sup> وفى أواخر القرن الثالث وصف الأمير عبد الله بن المعتز<sup>(٦)</sup> الإدارة فى عهد الوريير ابن بلبل ، وكان ابن المعتز يحمل له كراهية شديدة ، ووصف كيف كانت تحبى أموال الخراج من غير رحمة

فكم وكم من رجل نبيل      دى هبة ومرك حليل  
رأيته يعتلّ بالأعوان      إلى الخنوس وإلى الديوان  
حتى أقيم فى حجيم الهاجرة      ورأسه كمثل قدر فائره  
وحملوا فى يده ~~ع~~الا      من قب يقطع الأوصالا

(١) كتاب الورداء ص ٣٤٦ (٢) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٦٢

(٣) تاريخ العقوى ح ٢ ص ١ ٥ من الطبعه الأوربه

(٤) الولاة للكدى ص ١٤ — ١٤١

(٥) Dionysius von Tellmachre, ed Chabot, S 152

(٦) الديوان ح ١ ص ١٣٦ — ١٣٧



وعلقوه في عرى الحدار كأنه رّادة في الدار  
وصفقوا ققاء صفق الطبل نصاً نعين شامت وحل  
إذا استعانت من سفير الشمس أحانه مستخرج رفس  
وصت سحانّ عليه الريتا وصار معدرة كيتا  
حتى إذا طال عليه الجهد ولم يكن مما أراد ندّ  
قال ائذوا لي أسأل التحارا قرصاً وإلا نعتهم عقارا  
وأخلوني حسة أياها وطوقوني مكو إعاما  
فصايقوا وحملوها أرمعه ولم يؤمل في الكلام مفعه  
وحاءه المعيون الفحره وأقرصوه واحداً بعشره  
وكننوا صكا ببيع الصبعة وحلفوه بين البيعة  
ثم تأدى ما عليه وحرث ولم يكن يطمع في قرب العرح  
وحاءه الأعوان يسألونه كأنهم كانوا يدلّونه  
وإن تلكاً أهدوا عمامته وحششوا أهدعه وهامته  
فالآن رال كل داك أجمع وأصبح الحور عدل يجمع

وكان التعذيب أشدّ مما تقدم إذا كان استرداداً لأموال الدولة ، وأحص ما كان يستعمل في ذلك القيود الحديدية الثقيلة في الأرحل ، والصرب المتلف ، والتعليق من اليد الواحدة<sup>(١)</sup> ، وقد عذب الخليفة القاهر أمّ المقتدر أخيه وسلعه على عرش الخلافة ، فصرمها ، وعلقها رحلها لتخرج مالها ، وتحمل أوقافها ، وتوكل في بيعها ، فامتعت ، ووكت في بيع أملاكها دون أوقافها ، ولكن القاهر أرحمها على ما أراد ، وكتب إقراراً منها بذلك ، وأحصر القصاة للشهادة على توكيلها ، واستمرت الشهادة أب يروها رأى العين وقد

(١) وكان الحاكم بأمر نأ « بحر » المطالب أو « سحب » على وجهه ، ومن هذا اسقت الكلمة الإسبانية حروشا Garrucha ومعناها حل الحر ، وهو الذي كان أكر أداءه للعدب في أسايا أمام محاكم المش كما قال العلامة لي (Lea) وكذلك الكلمة الإسبانية Garrota

وكان الدين يوكل إليهم المطالبة فوماً يسمون المسحبين ، وكانوا يحارون من العلاط الفطاط ، لا يعرفون الرحل حتى يدفع ما عليه ، ولهم عليه معه يأحدوها ، ورعا كانوا ثلاثة لكل منهم دساران في اليوم ( كتاب الوزراء ص ٢٣٣ )

تحدث القاصيان اللذان رأياها هذه القصة فقالا . « ولما رأياها رأيا عجوزاً رقيقة الحال  
سمراء اللون إلى البياض والصفرة ، عليها أثر صرب شديد ، فما انتفعنا بأمرها ذلك اليوم ،  
فكرنا في تقلب الرمان ، وتصرف الحدثان <sup>(١)</sup> » ثم عُدَّتْ آخرون بأن عُرِيت في أطايرهم  
أطراف القصب <sup>(٢)</sup> ، أو بالصرب على رؤوسهم بالدبايس <sup>(٣)</sup> ، وقد وصف شاهد عيان كيف  
حىء مأخذ المصادرين من محبسه « يرسف في قيوده ، وعليه حنة دسة وشعره طويل .  
وحمل يشكو ما أصابه من المكاره ، وفرائضه تُرعد <sup>(٤)</sup> » وربما أمس المطالبون في  
التعذيب فألدسوا فريستهم حنة صوف مدهونة باللفظ أو بماء الأكارع <sup>(٥)</sup> وفي سنة ١٣٢٥ هـ  
— ٩٣٦ م دخل محكم التركي وأصحابه العراق ، فاعتقل الناس ، واشتدَّ في مطالبتهم بالمال  
وعُدَّتْهم ، فكان يصع على بطونهم أطسات الحجر ، حتى قال له رجل أراد أن يسر ما في  
نفسه من طلب العراق أيها الأمير أنت مطالب بملك ، ومرشَّح بمسك لخدمة الخلافة ،  
ألا تعلم أن هذا إذا سُمع به أوحش منك ؟ وقد حَمَلَتْ بمسك في أمرنا على مثل ما كان  
يعمله مرداويج بأهل الحبل ، وهذه بغداد ودار الخلافة لا الرى وأصهار ، ولا تحتل هذه  
الأحلاق ، فلما سمع محكم ذلك انحَلَّ وفكَّ القيود وأزال المطالبة <sup>(٦)</sup> وكانت هذه المطالبات  
القاسية تعتبر عند الجميع أعمالاً تدل على قلة الإيمان ، كما يؤخذ من حكاية ترجع إلى القرن  
الرابع « حدث أبو الحسن علي بن الحسين بن عبد الأعلى قال كنت محصورة أي الحسن  
بن العرات في وراثته الأولى ( ٢٩٦ — ٢٩٩ هـ = ٩٠٨ — ٩١١ م ) ، وهو حالس  
يعمل ، إدر فع رأسه ، وترك العمل من يده ، وقال أريد رجلاً لا يؤمن بالله ولا باليوم  
الآخر يطيعني حقَّ الطاعة ، فأعده في مهم لي ، فإذا بلغ فيه ما أرسمه له أحسنت إليه إحساناً  
يظهر عليه وأعيتة ؟ فأمسك من حصر ، ووتب رجل يكى بأبي منصور ، أح لاس أي  
شبيب صاحب ابن العرات ، فقال أنا أيها الوريث ، قال وتعمل ؟ قال أعمل وأريد ،

(١) عرب ص ١٨٣ — ١٨٤ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٨١ — ١٨٢ ، المسظم لاس الحورى  
ص ٤٦ ب ، والمقدمة الإبحرية لكتاب الوراق ص ٤٥ .

(٢) ذكر المعتزلة لأحمد بن يحيى المرصى ص ٥٢ .

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٢٣ (٤) كتاب الوراق ص ٨ — ٩

(٥) نفس المصدر ص ٢٩٨ — ٢٩٩ (٦) مسكويه ج ٥ ص ٥٧

قال كم تر ترقى ؟ قال أرتقى مائة وعشرين ديناراً قال وقّعوا له بالصعب ، وقال  
سَلْ حوائجك ، فسأله أشياء أحابه إليها ، فلما فرغ من ذلك قال حد توقيعى وامص إلى  
ديوان الحراج وأوصله إلى كاتى الجماعة ، وطالهما بإخراج ماعلى محمد بن جعفر بن الحجاج ،  
وطالنه بأداء المال ، وأتلفه إلى أن تستخرج جميعه ، ولا تسمع له حجة ولا تمهله التته  
فخرج واحد من رَحالة الباب ثلاثين رحلا ، فقلت ( الحاكى ) لأحرص وأمصين إلى  
الديوان حتى أطر مايؤول إليه الحال ، فخرجت وصرت إلى الديوان فدخل أبو منصور  
هدا إلى الصقر بن محمد وعبيد الله بن محمد الكلودانى ، وهما صاحبا المجلس شركة ، فلم يجد  
الكلودانى ووجد الصقر بن محمد ، فأوصل إليه التوقيع ، وقال له أخرج ماعلى ابن الحجاج ،  
فقال عليه من باب واحد ألف ألف درهم ، فطالنه بذلك إلى أن فرغ من العمل  
سائر ما يلزمه وكان محمد بن جعفر من عمال أنى الحسن على بن عيسى ، قال فأحضر ابن  
الحجاج ، وشتمه ، وافترى عليه ، وابن الحجاج يستعطه ، ويخصه له ، ثم أمرت بحريده ، وإيقاع  
المكروه به ، فأوقع ، وهو فى ذلك كله يقول يكبى ، الله ، ثم أمر أبو منصور بضرب دقل ،  
فُصِب ، وحُمل فى رأسه نكرة فيها حل وتدت فيه يدُ ابن الحجاج ، وورُفع إلى أعلى  
الدقل ، وهو يستعيت ويقول يكبى ، الله ، فما زال معلقاً ، وأبو منصور يقول له المال  
المال ، وهو يسأله حطّه وإطاره إلى أن يوافق الكتاب على ما أخرج عليه ، وهو لا يسمع  
منه ، وقد قعد تحت الدقل واحتلط ، وعصب من غير عصب ، اعتماداً لأن يلع ابن الفرات  
فعله ، فلما صحر قال لمن يمسك الحمال أرسلوا ابن الفاعلة (وعنده أنهم يتوقفون ولا يفعلون) ،  
فأرسلوه لما رأوه عليه من الحدة والعصب ، وواى ابن الحجاج إلى الأرض ، وكان بديبا سمييا ،  
فوقع على عنق أنى منصور فدقها ، وحرّ على وجهه ، وسقط ابن الحجاج معشياً عليه ، فحُمل  
أبو منصور إلى منزله فى محمل ثبات فى الطريق ، ورُدَّ ابن الحجاج إلى محبسه ، وقد تحلّص  
من التلف ، وعجب من حصر مما رأى وكتب صاحب الخبر بالصورة إلى ابن الفرات ، فورد  
عليه منها أعظمُ مورد ، ونكرت عرفان روحة ابن الحجاج إلى موسى بن حلف حتى أوصلها  
إلى ابن الفرات ، فقررت أمره على مائة ألف دينار سلّمت سعضها حمدة وقراها من طسوج  
كوئى ، ونُحِمَّ الباقي ، وأُطلق ابن الحجاج ، وكان الناس يعصون من قول ابن الفرات أريد



رحلا لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطعمي»<sup>(١)</sup> ، ولم تُنَسَط على الناس أوصاف العذاب والمكاره حتى كانوا يموتون تحتها أقبح موت إلا في عهد الأمير مختيار سغداد ، وكان حكم هذا الأمير أسوأ حكم في القرن الرابع<sup>(٢)</sup>

ولعل مما تمحه النفس أن ترى كمار العمال يشترى من السلطان رجلا مسكودين ، وأن كلا منهم ينافس الآخر في تقديم أكر صما ، إذا سلّم إليه ويرهب الأموال ، آملا أن يقدر بعد ذلك على استجراح مبلغ يريد على صمائه بوسائل التعذيب<sup>(٣)</sup> ولكن هذه الوسيلة لا اعتصاب الأموال قويت أيضا في عهد مختيار خاصة ، ولم تكن شائعة في عهد جميع الحكام

---

(١) كتاب الورداء ص ١٢١ — ١٢٢ (٢) مسكويه ج ٦ ص ٤٥٤  
(٣) كتاب الورداء ص ٩٤ ، ٩٥ صص أبو المرح الورير أما الفصل تسعة آلاف أتم درهم ،  
ثم صممه أبو الفصل فيما بعد مثل هذا المبلغ اطر مسكويه ج ٦ ص ٣٣٤ ، ٣٤٢ ، ٩ ، ٤ ، ٤٥٣

## الفصل التاسع

### رسوم دار الخلافة

كان اللون الذي اتخذه الخلفاء في القرن الرابع الهجري شعاراً لهم السواد والبياض ، فلما ركب الخليفة المقتدر في عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م لقتال مؤسس ، وهي الركبة التي قُتل فيها وأشفق من عاقبتها إشعاعاً كبيراً ، حرج من داره في أكمل لباس وموكب ، فكان عليه حفتان ديباح وصى وعمامة سوداء ، وعلى كتفيه وصدرة وطهره الردةُ السوية ، وهو متقلد بدي الفقار سيف الرسول ، وحمائله آدم أحمر ، وفي يده اليمنى الخاتم والقصيب ، وسار بين يديه وليُّ عهده اسه أو أحمد عبد الواحد ، وعليه حفتان ديباح وعمامة بيضاء<sup>(١)</sup> وكانت عادة خلفاء العباسيين في القرن الثالث والرابع أن يلبسوا قلنسوة محدّدة وقباء ، وكلاهما أسود<sup>(٢)</sup> ، وكان هذا هو لباس وحوه رعيتهم أيضاً وكان السواد هو كذلك لون الحُرقة التي كانت تحصر فيها الصدقة كل يوم عند صلاة الصبح لتفريقها على المحتاجين<sup>(٣)</sup>

---

(١) عرب ص ١٧٦ — ١٧٧ ، والسظم لاس الحورى ص ٤٣ ب ، وقد جاء في شعر الشريف الرضى ما يدل على أن القصيب والردّة شعار الخلفاء ، وأن الردّة هي ردة التي عليه السلام . انظر الديوان ص ٣١٣ ، ٥٤٣ من طبعه بيروت ٧ ١٣ هـ . وقد اتحد الأحشد صاحب مصر الحفان القصي لباساً له ، كما فعل الخلفاء ، وأمر ألا يلبسه أحد سواه ( المتعرب لاس سعيد ص ٣ )

(٢) صروح الذهب للمسعودي ح ٨ ص ١٦٩ ، ٣٧٧ وقد أراد سلاطين الممالك أن يعلدوا الخلفاء في لباسهم القدم بقليداً كاملاً ، وكان لباسهم بألف من ١ — عمامة حرر لها عده مدلاة من الكهن

٢ — حته حرير سوداء واسعة الكهن ، لا هس عليها

٣ — سيف عربي كان يحمل على طريقة الدولة حمائل معلق بها على الكف الأيمن ، وهو مدلى على الحجاب الأسر ، وقال إنه سيف عمر بن الخطاب ( انظر Quatremere, Mameloucs, I, 133 )

(٣) كانت هذه الحُرقة تحوى مائتي درهم كل يوم ، وكان ما فيها يفرّق على من في قصر الرصافة من الحرم المحاحات ( كتاب الورداء ص ١٩ ) ، ويحرمنا أبو المحاسن أن ركاة ابن طولون كانت ألف دينار في كل يوم ، وكبر من الأرقام التي يدكرها أبو المحاسن عن الطولونيين مجرد أرقام حالية . على أن المقريري ( الخطط ح ١ ص ٣١٦ ) هول إن صدقات ابن طولون كانت ألبى دينار في كل شهر سوى ما يطرأ من بدر أو صدقة شكر (الترجم)

وكذلك كان عَلم الخلافة أسود ، عليه بالسكتانة البيضاء محمد رسول الله<sup>(١)</sup> أما حلفاء  
الفاطميين بمصر فكان لباسهم البياض ، وهو شعار العلويين ، وكانت ألويتهم بيضاء ، وعليها  
أحياناً أهلة من ذهب ، في كلٍ منها صورةُ سبع من الديباج الأحمر ، وقد شتبهها أحد الشعراء  
شقائق النعمان<sup>(٢)</sup> وكانت طريقة تتويج الخليفة أن يُقَدَّ لواءه عليه على الرسم المعروف في  
ذلك ، وأن يتسلم حاتم الخلافة ممن يكون ذلك معه<sup>(٣)</sup> وهذا تتويجٌ على الطريقة العربية  
السيطة أما أمراء الأطراف فقد كان التتويج بالنسبة لهم تتويجاً حقيقياً تحرى رسومه على  
الطريقة الوثنية ، فكان يوضع على رأس الأمير تاجٌ مرصع بالجوهر ، ويلبس طوقاً  
وسوارين من الذهب المطوم بالجواهر عادة<sup>(٤)</sup> وكان لباس الحاشية الرسمي في القرن الثالث  
المحري أحمر اللون في العادة ، فيحكي أن المتوكل شرب يوماً في أحد قصوره ، وأمر بصرب  
دراهم ، وصُنع منها الأحمر والأصفر ، ثم أمر الحاشية أن يُعَدَّ كل واحد منهم قباء حديداً  
وقلنسوة على خلاف لون الآخر وقلنسوته ، ثم أمر ستر الدراهم كما ينثر الورد ، وحوله الدماء  
والخدم وقوف<sup>(٥)</sup> أما في القرن الرابع فكان العلماء عند ساعات الاستقبال بعضهم بسواد  
وبعضهم بلباس<sup>(٦)</sup>

(١) مسكويه ج ٥ ص ٢٩٤ ، وكان ولي العهد العباسي في أواخر القرن الرابع ، وكذلك أمراء  
الأطراف ، يسير بين يديهم علمان لواء أسود وراية سوداء ، انظر تاريخ أبي المحاسن طبعه ليدن ج ٢  
ص ٣٥ ، وعرب ص ١٧٧ ، وابن الجوزي في المسطوع ص ٤٣ ، ب ١١٢ ، ب ١٢٥  
(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٦ — ٤٦١ ، وكتاب الداراب للشاسي ، ص ١٢٩  
(٣) مسكويه ج ٥ ص ٤٥٤

(٤) لنس سيف الدولة أمير حلب ماحاً مرصعاً بالجواهر لما استقبل رسول ملك الروم في  
سنة ٣٥٣ هـ — ٩٦٤ م (يحيى بن سعد ص ٩٤ ب) وكان طوق الذهب من علامة المخاريس عند  
المصريين القدماء (ZDMG 41, S 211) ، وصار حوالي عام ٣ هـ — ٩١٢ م يُخلع عبد المسلمين  
على القواد المصريين (عرب ص ٣٥) ، وقد سُورَ القائد الذي هزم الفرامطة سوارين من الذهب  
(عرب ص ٣) ويظهر أن أول أمير خلع عليه الطوق والسواران هو الأحشيد أمير مصر ، وقد أُنشد  
الراصي هذه الخلع مع وريره الفصل بن جعفر في عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م ، وقد ريت لذلك الأسواق  
والشوارع بأنواع الفرش والصور والنسط وأبواب الجامع ، وركب الأحشيد إلى الجامع العتيق ، وعلنه  
خلع الراصي ، ومعه الوزير (المعرب لابن سعيد ص ١٧ — ١٨) ، أما حاروبه ، سلف الأحشيد ،  
فلم يرسل له الخلع إلا السيف والناح والوشاح من غير طوق (كتاب الولاة للكندي ص ٢٤٠) ،  
وقد ظل الطوق والسوار مما يتحلّى به القواد في عصر الفاطميين وذلك كله رعم ما نصي به فعهاء الإسلام  
من تحريم لباس الذهب والتحلّى به

(٦) كتاب العيون ص ٢٣٥ ب

(٥) كتاب الداراب ص ٦٨ ب



وكان يُحمل على رأس حلفاء العباسيين والفاطميين شَمْسُة الخلافة ( وتسمى في مصر مطلة ) ، وقل ماسمع عن الشَّمْسُة بعدد ، في عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م أمر الخليفة أن تُحمل بين يدي أحد الكبراء شَمْسُة الخلافة ، فكان هذا تكريماً لم يسمح به من كان قبله من الحلفاء<sup>(١)</sup> وكانت المطلة في القاهرة علامة أُنْتَهت الخلافة ، وكان لوها يشابه لون ثياب الخليفة<sup>(٢)</sup> وكان من علامات سيادة الخليفة بعدد أن يُصرَب على باب داره بالطول والذنادب والأنواق في أوقات الصلوات الخمس ، وكان لا يُوقَف ذلك إلا أيام العراء بدار الخلافة<sup>(٣)</sup> وقد حاول الخليفة أن يحافظ على هذه المزية ويحول دون اتحاد الأمراء لها ولكن ذلك لم يَدُم ، في عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م أمر الخليفة بأن تُصرَب الذنادب على باب عَصَد الدولة في أوقات الصلوات الثلاث العداة والمغرب والعشاء ، وفي عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م أذن الخليفة بعد إنباء لخلال الدولة بأن يصرَب الطل أمام داره في الصلوات الخمس ، وفي سنة ٤٣٦ هـ — ١٠٤٤ م صرَب الطل أمام دار الأمير حمساً ، كما هو الحال بالنسبة للخليفة تماماً<sup>(٤)</sup>

وظل لقب الخليفة بسيطاً كسِاطة لباسه ، وهو اللقب المشهور « أمير المؤمنين<sup>(٥)</sup> » ، على أنه مد أيام الخليفة العباسي الثاني صار الخليفة يُسمى باسم فيه نسبة إلى الله ، وكان اتحاد هذا اللقب أول عمل يقوم به بعد البيعة له<sup>(٦)</sup> ولا يعرف المثال الأول الذي كان أساساً لذلك وفي سنة ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م طلب الخليفة الراصي من صديقه الصولي — الأديب

(١) كتاب العيون ص ٢٢٦ ب

(٢) الخطط للمصري ح ٢ ص ٢٨ نقلا عن المسّعي ( الموفى عام ٤٢ هـ — ٢٩ ١ م ) ، وأبو المحاسن طبعة ليدن ح ٢ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ ، وترجمة مُستنقذ لمُحصر صبح الأعشى للعقشدي ص ١٧٣ ومن نقايا العادات البربرية التي استنقها الفاطميون أنهم كانوا من تحرّجهم يسرون بالحوش ومعهم نواصت آرائهم ( أبو المحاسن طبعة كلفورنيا ص ١٠ )

(٣) المسّطرم لاس الحوري ص ١٧٦ ب ، ٢ ١ ب

(٤) المسّطرم ص ١١٤ ، ١٧٥ ب ، ١٩٧ ب ، وابن الأثير ح ٩ ص ٢١٥

(٥) على أنه إذا كان الخليفة المستكني قد لب نفسه في عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م بلب لإمام الحق وصرَب ذلك على السكة فإعما كان ذلك ردّاً على مراغم جميع أئمة الفاطميين وأئمة الشيعة ( انظر المسّطرم ص ٧٣ ب ، وأبو المحاسن ح ٢ ص ٨ ٣ طعة ليدن )

(٦) وكان ملوك السامانيين يسمون بعد موتهم بأسماء غير التي سمون بها في حياتهم ( المقدسي ٣٣٧ ) .

ولاعب الشطرنج المشهور — أن يوحه إليه بالأسماء التي تمتع بها الخلفاء وتكون أوصافاً لهم ويحكي لما الصولى نفسه<sup>(١)</sup> أنه بعث إليه رقعة فيها ثلاثون اسماً ليختار منها ما يريد ، وأشار عليه أن يختار منها المرتضى بالله وقد وثق من اختياره له حتى إنه ابتدأ من وقته يعمل أبياتاً صادية قافيتها المرتضى ، على أن يشده إياها ، فلما فرغ منها جاءه رسول الخليفة رقعة فيها إن إبراهيم بن المهدي لما يبيع أيام المقتدر بالخلافة أراد أن يكون له ولي عهد ، فأحصروا المصور بن المهدي وسموه المرتضى ، وما أحب أن أتسمى باسم قد وقع لعيرى ، ولم يتم له أمره ، وقد احترت الراصى بالله وقد حفظ لما الصولى فى تاريخه القصيدة الأولى التى ألفها ، ولم يُقدّر لها أن تُنشد وقد أمره الخليفة أن يعملها قصيدة أخرى على قافية الراصى ، فعملها<sup>(٢)</sup>

وكان كتاب الخليفة القادر (٣٨١ — ٥٤٢٢ = ٩٩١ — ١٠٣١ م) أول من أخرج فى ذكر الخليفة وصفه بالحصرة المقدسة السوية ، احتراعاً جعله قرنة ، فصار سنة ، ومضى فى ذلك حتى حرق العرف والعادة ، فكتب عن الخليفة بالخدمة ، « وتصرف فى ذلك حتى قال قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسئلت الخدمة ، حتى رأيت بخط أبى الحسن ابن أبى الشوارب القاصى فى رحمة رقعة خادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان<sup>(٣)</sup> » وكان الأمراء و كبار أصحاب المناصب والعمال يتهاكون جميعاً على الألقاب تهالكاً شديداً ، وكانوا جميعاً يُلقَّبون بألقاب منسوبة إلى الدولة مثل ولى الدولة ، وعماد الدولة ، ومُعِين الدولة وعمر الدولة ، وبحود ذلك<sup>(٤)</sup> يقول البيرونى (المتوفى عام ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م) « وسو العباس لما لقنوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة ، وسووا فيها بين الموالى والمعادى ، وسوهم إلى الدولة بأسرهم صاغت دولتهم<sup>(٥)</sup> » وفى المصنف الثانى من القرن الرابع احتيج إلى

(١) الأوراق مخطوط مارس ص ٢ — ٥ ، ص ١٥ — ٢١

(٢) هذه المصنفة موحودة فى كتاب الأوراق ص ١٥ — ٢١

(٣) كتاب الورراء لـهلال الصان (المتوفى عام ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م) ص ١٥٢

(٤) إن أقدم هذه الألقاب — التى لا تراء بسعمل إلى اليوم مـلا لها للورر بـارس — هو لقب ولى الدولة الذى لقب به الورر أبو العاسم (المتوفى سنة ٢٩١ هـ — ٩٣ م) ، وفى عهد الحاكم بأمر الله فى مصر لقب أحد العمال بأمن الدولة ، اطر الأمار الباقية للبيرونى ص ١٣٢ والصفحات التالية ، ومحيى ابن سعيد ص ١١١٣ — ١١١٤

(٥) الأمار الباقية للبيرونى ص ١٣٢

التعريق بين أصحاب الألقاب فُتِيَ لبعضهم التلقب ، فكان عصف الدولة ( المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م ) يُدعى بتاح الملة ، وأخيراً تُلَّت التلقب ، فلقَّب بهاء الدولة صياء الملة وعبث الأمة ثم داعت ألقاب الدولة في كل مكان عند الفاطميين ، وعند السامانيين في تلقب قواد الحيوش دون تلقب أنفسهم ، لأنهم لم يرعوا فيها ، واكتفوا بالتكسية ، وعند معراجان التركي ، فإنه لما حرق في سنة ٣٨٢ هـ — ٩٩٢ م لقب نفسه بشهاب الدولة ، ثم ظهرت ألقاب كادبة فيها معارضة لروح الإسلام وتحرؤ على مقام الألوهية وكان السويهيون أول من سمو ووراءهم بأسماء مما يسعى أن يطلق على الله مثل الأوحده ، وكافى الكفاة ، وأوحده الكفاة ، وحاور بهر هذا الحد ، فسموا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء ، ولذلك يقول البيروني بعد ذكره ما تقدم « فأذاقهم الله الحرى في الحياة الدنيا ، وأطهر لهم ولغيرهم محرهم <sup>(١)</sup> » وأخيراً يُقال إن الخليفة القادر بالله ( ٣٨١ — ٤٢٢ هـ = ٩٩١ — ١٠٣٠ م ) لقب محمود بن مسكتكين صاحب عربة بأكر لقب ظل له شأن عند الأحيال التالية وهو لقب السلطان ، وكان محمود أول من لقب به <sup>(٢)</sup> ولكن أمير بغداد طلب في سنة ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م أن يُلقَّب بالسلطان المعظم مالك الأمم ، فقال القاصي الماوردي ، رسول الخليفة إلى الأمير ، إن هذا لا يمكن ، لأن السلطان المعظم هو الخليفة ، وكذلك مالك الأمم ، فعدل الأمير إلى لقب مالك الدولة ، فأحاره الماوردي <sup>(٣)</sup> وفي سنة ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م ريد في ألقاب حلال الدولة شاهنشاه الأعظم ملك الملوك ، وهو اللقب الوتني القديم ، فمعر العامة من ذلك ، ورموا الخطباء الذين ذكروه في المساحد بالآحر ، ووقعت فتنة ، ومع أن الفقهاء أفتوا بأن هذه الأسماء إنما يُغتتر فيها القصد والنية ، وأن ملك الملوك معناه ملك ملوك الأرض ، وليس فيه ما يوحي الكبر ولا المماتة بين المخلوق والخالق ، وأن هذا اللقب حائر ، كما حار أن يُقال كافى الكفاة ، وقاصى القصاة ، فإن كثيرين من أهل الحد والتدقيق لم يرصوا به ، ودكروا أن القاصي الماوردي مع من

(١) الآثار النافية للبدوى ص ١٣٤

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٩٢ ، وكتاب الأوائل لعلي دده مخطوط رقم ٩٣٧٢ بمكة برلين ص ١٥٥

تقلا عن تاريخ الخلفاء للسوطي

(٣) المسظم لاس الحورى ص ١٨٤ ب



حواره ، حتى أدى ذلك إلى أن انقطع عن خدمة حلال الدولة بعد أن كان مختصاً به<sup>(١)</sup>  
ولم يرص هلال الصائى عن تلقيب القادر بالله اسمه وولى عهده بالغالب بالله فى عام ٣٩١ هـ  
— ١٠٠١ م ، وهو يذكر بعد حكايته لهذا تلك العارة المعروفة التى كانت مكتوبة على  
قصر الحمراء لا غالب إلا الله وحده لاشريك له<sup>(٢)</sup>

ولم تكن ثمة قيمة حقيقية إلا للألقاب التى يمنحها الخليفة ، وكان يُدفع له من أهلها  
الشيء الكثير ، وكان ذلك أكبر أبواب دخله فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وبعد أن  
لقب أمير بغداد بمالك الدولة فى سنة ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م بعث للخليفة الطافا كثيرة ،  
وقد أرسلها قبل التلقيب ، وإن كان قد أحب أن يلقب أولاً ثم يرسلها وكانت هذه  
المهدايا ألبى دينار ، وتلاتين ألف درهم ، وعشرة أثواب حر ، ومائة ثوب ديباح مرتفعة ،  
ومائة أخرى دوسها ، وعشرين مئاً عوداً ، وعشرة أمماء كافوراً ، وألف مثقال عسراً ،  
وألف مثقال مسكا ، وثلاثمائة محر صيبى ، وأرسل أيضاً هدايا أخرى لبعض رجال  
الحاشية<sup>(٣)</sup>

وفى هذا العصر أيضاً ارتقت صور الأدب فى حصرة الخلفاء حتى صارت على رسم نقي  
فى جوهره مستمراً طول العصور كان الخليفة المأمون حوالى سنة ٢٠٠ هـ يحاطب كما يحاطب  
أى رجل آخر بلعظ أنت<sup>(٤)</sup> وكذلك كان يحاطب الخليفة المقتدر عادة حوالى عام ٣٠٠ هـ<sup>(٥)</sup> ،  
وإن كانت تستعمل إداك طريقة الخطاب بصير العائب إلى حاب ذلك ، فكان يقال  
أمير المؤمنين أمر نكيت وكيت وفى أواخر القرن الثالث لم يكن من السائع أن يحاطب  
أى رجل مثقف تمثل هذه الساطة ، وفى أوائل القرن الرابع لقي الخليفة المتقى الأحشيد

(١) المسطم ص ١٩٢ ب — ١٩٣ ، وطعاب السكى ح ٣ ص ٥ ٣ ، وكان الماوردى من  
حواس حلال الدولة ، فلما أفتى باللع اعطع عنه ، فطله حلال الدولة يوما ، فصى إليه على وحل وحواف ،  
فقال له الأمير أنا أتحقق أنك لو حانت أحداً لحاسى ، لما بينى ونسك ، وما حملك على ذلك إلا الدس ،  
فمرتك ذلك مى ، ورا د محلك عندى

(٢) كتاب الورراء ص ٤٢ ، ويذهب الصولى ( الأوراف ص ٣ ) إلى أن الألقاب مكروهة  
مضى عنها فى كتاب الله وعلى لسان رسوله عليه السلام ، قال الله عز وجل ولا تباروا بالألقاب

(٣) المسطم ص ١٨٤ ب من مخطوط رافى

(٤) كتاب بغداد لطيفور ص ٩٤ ومواضع كثيرة

(٥) اطر مثلاً عرب ص ١٧٦ ، وكتاب الورراء ص ٢٢٩

صاحب مصر بالرقّة ، وقد حمل الأحشيد الهدايا ، وأظهر الخدمة والأدب ، وحاطب ورير المتقى الأحشيد باسمه ، فأمره الخليفة بأن يكسّيه تأكيداً لقدره واحتراماً له<sup>(١)</sup> وفي القرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلادى ) كان الخليفة المعتصم لشدة هيئته إذا حاطب صديقه الطبيب ثابث بن سنان فى الملاء سماء ، وإذا كان فى الحلوات كئاه<sup>(٢)</sup> وكان المأمون يمد يده مسلماً على الطريق ديوبيسيوس ، وهكذا كان يفعل بكل من يريد إكرامه<sup>(٣)</sup> ولما فارق مؤسس القائد الخليفة فى أوائل القرن الرابع الهجرى قتل يده<sup>(٤)</sup> ؛ وكان من حاص التكريم فى ذلك العهد أن يقبل الإنسان رجل من هو فوقه<sup>(٥)</sup> وكف من يساويه<sup>(٦)</sup> وكذلك سلم الحواري من قبل على تليماكوس (Telemachos) بأن قتل كتفه وأعلى رأسه<sup>(٧)</sup> وقد دعا الخليفة الراضى الأمير محكم مرة ، فقبل هذا القائد فحد الراضى ويده<sup>(٨)</sup>

وكان الأولون من مسلمى العرب يرون فى تقبيل الأرض أمام المخلوقين احتراء على حقوق الله ، ولما قدم على المقتدر بالله رسل ملك الروم أعمامهم من تقبيل السباط لثلاث طال المسلمين مثل هذا فى بورطة<sup>(٩)</sup> وفى حكاية ترجع إلى أوائل القرن الرابع أن رجلاً صالحاً كتب كتاباً لعلام من علماء ناروك يستعطف فيه سيده ، بعد أن طرده ، فاستدعى ناروك ذلك الرجل ، فحصر مرتاعاً ، وأهوى ليقبل الأرض ، فقال له ناروك ، وكان صاحب الشرطة « مه ، عافاك الله ، لا تفعل ، هذه من سن الختارين ، ما تريد بحس هذا<sup>(١٠)</sup> » على أنه حوالى عام ٣٣٠ هـ لما لقي الأحشيد الخليفة المتقى فى الرقة ترحل عن بعد ومتى كالعلام سيعه ومطقتة وحصته بين يدي الخليفة على سبيل الخدمة ، وقتل الأرض مراراً ، وتقدم

- 
- (١) العرب لاسي سعد ص ٤  
(٢) عون الأناء فى طبقات الأطباء لاسي أنى أصدعه ح ١ ص ٢١٦  
(٣) Michael Syrus, S 517 (٤) الهمدانى مخطوط نارسى ص ١ ٢ ١ (?)  
(٥) كتاب الورراء ص ٣٥٨ (٦) نفس المصدر ص ٣٥٧ ، ٤٢٣  
(٧) Odyssee, XVII, 35 ، وكذلك فعل لاودسوس رعاة الخارر والعر (XXI, 224)  
(٨) الأوراق للصولى ص ٥٤  
(٩) تاريخ بغداد للطبيب العدادى طبعة سلمون ص ٥٦ ، ويحكى مسكويه (ح ٥ ص ١٢٤) ذلك بأوصاف يفعل فلما دخل (الرسولان) قلا الأرض  
(١٠) الفرج بعد الشدة ح ١ ص ٥٤

فقبل يده ، ثم صاح به محمد بن حاقان إركب يا محمد ، ثم صاح إركب يا أما نكر ، فقبل  
 إن المتقى قال لاس حاقان كنه ، فكناه للوقت ، ثم كان الأحشيد يقف بين يديه على  
 سبيله ، وإذا ركب حجه ، وحمل مقرعته على كتفه لأنه لم يخدم خليفة قط غيره ، واقتحر  
 بذلك ، وقد أعجب الخليفة من فعله ، وقال له « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة ، فاستحلف  
 لك أوبو حور ، وقيل إنه كتبه أنا القاسم ، فقتل الأرض مراراً ، وأهدى إليه الأحشيد  
 هدية أخرى على ما فعله باسمه أوبو حور وتكنيته له <sup>(١)</sup> » ، وفي عام ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م تم في  
 دار الخلافة تنويع عصد الدولة على أتم صورة . جلس الخليفة الطائع على سرير الخلافة في  
 صدر صحن السلام ، وحوله من خدمه الخواص نحو مائة بالمناطق والسيوف ، وبين يديه  
 مصحف عثمان ، وعلى كتفيه الردة ، وبيده القصيب ، وهو متقلد سيف ، ووقف  
 الأشراف من الحاسين ، ودخل الأتراك والديلم ، ولم يكن مع أحد منهم حديد ، فلما وصل  
 عصد الدولة أدن له الخليفة ، فدخل ، فلما وقع عليه طرف الخليفة قتل الأرض بين يديه ،  
 فارتاع أحد القواد لما شاهد ، وقال بالعارسية ما هذا أيها الملك ، أهو الله عز وجل ؟  
 فالتفت عصد الدولة إلى من يعظمه أن هذا خليفة الله في الأرض : ثم استمر عصد الدولة  
 يمشي ، ويقبل الأرض تسع مرات ، والتفت الطائع إلى حادته ، وقال له استدبه ، فصعد  
 عصد الدولة وقيل الأرض دفتين ، فقال له الطائع أذن إلى أذن إلى ، فدنا ، وأكـ  
 يقبل رحله وثني الطائع يمينه عليه وكان بين يديه سرير ، ومما يلي الجانب الأيمن  
 الكرسي ، فقال له إجلس ، مرتين ، فلم يفعل ، فقال له أقسمت لتجلسن ، فقتل  
 الكرسي وجلس ، وبعد ملاطفة قال له الخليفة قد رأيت أن أفوض إليك ما وكل الله  
 تعالى إلى من أمور الرعية في شرق الأرض وعربها وتديرها في جميع جهاتها سوى خاصتي  
 وأسائي وما وراء ناني ، فتول ذلك مستحيراً بالله تعالى ، فقال له عصد الدولة يعينني الله  
 عز وجل على طاعة مولانا وخدمته ، ثم أمر الخليفة بأن تُفأص عليه الخلع ، ويُتَوَّح ،  
 فهض عصد الدولة إلى الرواق ، فألّس الخلع وحرّح ، وأمره الخليفة بالجلوس ، ثم عُقدت  
 له الألوية ، وقُرئ كتابه ، ثم بصحه الخليفة بما أراد ، وقلّده سيفاً ، وحرّح ، وبعد



ثلاثة أيام نعت الخليفة إليه هدية فيها علالة قصب وصيدية ذهب وحرر دادي بلور « فيه شراب ناقص كانه قد شرب بعضه ، وعلى فم الحرر دادي حرقه حرير مشدودة محتومة<sup>(١)</sup> »

وكان إحلال الخليفة في مصر العاطية أعظم مما تقدم ، في سنة ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م قرئ سجل أحد القصص في الجامع الأزهر ، « وهو قائم على قدميه ، فكلم مر ذكر المعر أو أحد من أهله أو ما بالسجود<sup>(٢)</sup> » ولما أسد القصة أيضاً في عام ٣٩٨ هـ — ١٠٠٨ م إلى مالك بن سعيد الفارقي قرئ سجله بالقصر ، وهو قائم على رجليه ، وكان القاضي كلما مر ذكر الحاكم في السجل قتل الأرض<sup>(٣)</sup> ، وقد أمر الناس في الحرمين في إحدى السنين أن يقوموا عدد ذكر هذا الخليفة ، وكان إذا ذكر في الأسواق ومواضع الاجتماع بمصر قام الناس وسجدوا<sup>(٤)</sup> ولكن هذا الخليفة في آخر أمره أظفر الزهد فمع الناس من تقيل التراب بين يديه ومن نوس اليد والارتقاء بالسجود له ، ومع من محاطته بمولانا ، ولكن هذه الرسوم عادت في زمن حله إلى ما كانت عليه من قبل<sup>(٥)</sup> ولما احتصر الحاكم وصي أنا محمد الحسن بن عمار أحد شيوخ كتامة ، ثم حمل له الوساطة ، وحل عليه ، وكان الناس يذهبون إلى قصره ، فمنهم من يومي تقيل الأرض ، ولا يقتل بده سوى أناس بأعيانهم ، وشرف بعض الناس بتقيل ركابه ، وكان أحل الناس من يقبل ركبته<sup>(٦)</sup>

وقد صرب أحد رجال الحاشية في بحاري حوالى هذا العصر أحسن مثل الأدب وحسن الإصغاء للملك والإقبال عليه ، فلما كان عنده يجادته في بعض مهماته لسعته عقرب في إحدى رجليه عدة لسعات ، فلم يتحرك ، ولم يظهر عليه أثر ذلك ، فلما عاد إلى منزله رجع حمة ، وأحرق العقرب منها<sup>(٧)</sup> وطر الأحشيد إلى كافور يوما ، وقد حىء بفيل ودرافة ، فمال جميع العبيد والخدم بأبصارهم للفرحة ، فلم تترج عيه من عين الأحشيد خوف أن يحتاج

(١) المسطم لاس الحوري ص ١١٥ ب — ١١٦ .

(٢) ملحق أخبار الولاة والقضاء للكندى ص ٥٨٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٤ ٦ فلاح المسحى (٤) المسطم ص ١٥ ب

(٥) يحيى بن سعد ص ١٢٢ ب — ١٢٣ ، ١٣٢ ب — ١٣٣

(٦) المخطط للمعري ج ٢ ص ٣٦

(٧) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٦ ، ويحكى من هذا عن الخواجه وعبد الملك بن مروان ، انظر

محاصرات الأدياء طبعه بولاق ج ١ ص ١١٧

إليه ويدعوه ، فيكون مشتعلًا عنه<sup>(١)</sup>

وقد تكلم السعودي في عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م عن هذا الأدب في حصرة الملوك ،  
فقص عينا أن أما نكر الهدلى حصر مجلس السباح ، وكان السباح مقلدا عليه بحادثه بحديث  
لأن شروان في بعض حروبه ، فعصفت الريح فأدبرت ترانا وقطعا من الآخر من أعلى السطح  
إلى المجلس ، فارتاع من حصر لوقعها ، والهدلى شاحص نحو السباح ، لم يتغير من شدة ميل  
دهمه واشتعال فكره بمحادثة الأمير ، حتى لم يصح فيه لحادث محال<sup>(٢)</sup> ويحدثنا أيضا عن  
أحد شمراء شرويه بن أروير أنه كان يساير الملك ، ويستمع حديثه مُصعباً إليه بحوارحه  
كلها ، حتى ترك النظر إلى موطئ حافر دابته ، فرأت إحدى قوائمها قامت بالرحل إلى الهر ،  
ووقع في الماء ، فسُرَّ الملك بذلك ، لأنه لم يكن يطبه بهذا المقدار من الإقبال عليه ، « فحشا  
فاه حوهراً ودُرّاً ، واستنطه ، حتى غلب على أكثر أمره<sup>(٣)</sup> »

وكان الأمراء في محاطباتهم الرسمية وفيما بينهم يتكلمون عن الخليفة ، أمير المؤمنين ،  
بكل احترام ، ويعتبرون في كلامهم عنه بمولانا ، ويصع الواحد منهم نفسه من الخليفة موضع  
« المولى<sup>(٤)</sup> » ، وكان أحدهم إذا كتب لآخر افتتح كتابه بالكلام عن الخليفة من نحو  
« كتابي ومولانا أمير المؤمنين سالم موفور والله على ذلك محمود مشكور<sup>(٥)</sup> » ، وكان كل شيء  
يُنسب إلى أمره<sup>(٦)</sup>

وفي سنة ٣٧٨ هـ أهدى الصاحب بن عناد إلى خزانة الدولة في أول الحرم دياراً ورثه  
ألف مثقال ، وكان على أحد جانبيه أبيات من الشعر ، وعلى الجانب الآخر سورة الإخلاص

(١) العرب لابن سعيد ص ٤٧

(٢) يحكي سىء نشه هذا عن أنى القاسم الكعبي في حصرة أمير حراسان ، محاصرات الأدياء  
ج ١ ص ١١٢

(٣) صروح الذهب ج ٦ ص ١٢٢ — ١٢٥

(٤) ولم تكن الواحد منهم تسمى نفسه عبداً ، كما فعل تكن صاحب مصر ، حتى عام ٣ هـ —  
كتاب العيون ص ١٢٥ ب (٤)

(٥) اطر ملا رسائل الصافي مخطوط رقم ٧٦٦ بمكة لندن ص ٧٢ ب ، ٩ ب ، ١١٢٩

(٦) اطر مثلاً نفس المصدر ص ١٢٥ ا « وأمهسا ذلك إلى مولانا أمير المؤمنين ، وخرج إلينا  
أمره لارال عالماً وسلطانه ساماً » ، وص ١٢٣ ا « ولم يرل أكرمكم الله مولانا أمير المؤمنين  
بطلع أचारكم ويرى فيكم ما يراه في كاهه المسلمين من حماية حريمكم وصانه جمعكم ومحارسا أعمره  
الله ذلك من منه وهب بنا إلى الدب عن دناركم »

ولقبُ الخليفة الطائع لله ولقبُ فخر الدولة واسمُ حرحان ، لأنه صرب فيها ؛ هذا مع أن الإهداء كان بالرى ، في مكان طهران الحالية ، مع بعدها عن دار الخلافة<sup>(١)</sup>

ولكن أمير المؤمنين كان عند التقائه بالأمراء يرى صعبه المترايد ونقصان منزلته ، ومن ذلك أن يحكم القائد التركي كان من عادته في داره وحشمه ألا يشرب الماء إذا جاءوه به إلا بعد أن يدوقه بين يديه من جاء به ، وعلم الخليفة الراصي بذلك ، فاستعمل معه ما يعمل له في منزله ، فكان إذا تحمل شيء ، ووضع بين يدي الراصي أولاً ، فأكل منه ، ثم يوضع بين يدي محكم ، وحرى ذلك في كل ما يوضع بين يديه ، وكان محكم يستعني الراصي من هذا فلا يعنيه<sup>(٢)</sup>

وقد تعرض ملاط الخلافة لأكر ما أنقص هيئته في عهد المستكني (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ = ٩٤٤ — ٩٤٦ م) لأنه وقع في سلطان امرأة فارسية مستندة تسمى حُس ، « والتفت إلى حُس مرَّ من كانوا معها على الأصول القبيحة » وكانت تتولى عرص العلماء والخطاب في قصر الخليفة في مجلس يقال له الخوداب ، لم يكن يصل إليه أحد إلا ويرى أو صاحب ، فاحترقت الهيبة بهذه المرأة ، ودهست الرسوم التي كانت للخلافة ، وصارت الدار طريقاً لكل من لم يرَها ، وكان كل من وصل إلى المستكني أحلسه بين يديه « ، وأرادت هذه المرأة أن تأمن توروں وتصلح قلبه ، فحملت الخليفة يدعوه ويكرمه بما لم يسمح به أحد من الخلفاء قلبه ، فكان يأكل معه على مائدة واحدة ، ويقدم له دابة في الرواق التسميني ، وهو موضع لم يرك منه خليفة قط ، وأمر أن تحمل بين يديه شمسة الخلافة وأن يسير الخدم معه إلى داره<sup>(٣)</sup> ، وكان من سوء حظ الخلفاء أن الديلم ملكوا بعداد كانوا شبيعة ، فإرداد أمر الخلافة إداراً ، ودهست حرمة الخلفاء ، ولم يبق لهم من الأمر شيء ، لأن الديلم « كانوا يتشيعون ويُعالون في التشيع ويعتقدون أن العباسيين قد عصوا الخلافة ، وأحدوها من مستحقِّيها ، فلم يكن عندهم باعث ديني على الطاعة<sup>(٤)</sup> » وقد كان ثوار دار الخلافة حتى ذلك الوقت هم الدين يحلعون الخلفاء ويقتلوهم ، أما الآن ، بعد قدوم الديلم ، فقد صار

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٤١

(٢) الأوراق للصولي ص ٥٤

(٣) كتاب العيون ص ١٢٢٤ — ٢٢٦ ب

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٣٩



الخليفة يُعامل أمام الناس جميعاً معاملة سيئة ، لا تُراعى له فيها حرمةٌ ولا يعرف له فيها قدر في سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م ذهب الأمير مع الدولة إلى دار الخليفة ، وذهب إليها سائر الناس على رسمهم ، فلما جلس المستكفي على سريرته ، ووقف الناس على مراتبهم ، دخل الأمير مع الدولة ، فقتل الأرض على رسمه ، ثم قتل يد المستكفي ووقف بين يديه يحدثه ، ثم جلس على كرسي ، فتقدم بهسان من الديلم ومداً أيديهما إلى المستكفي ، وعلا صوتهما بالعارسية ، فطن أمهما يريدان تقبيل يده فمذا إليهما ، فخدناه بها وطرحاه إلى الأرض ، ووصعا عمامته في عنقه ، وحرّاه ، فهض حيثئذ مع الدولة ، واصطرب الناس وارتفعت الرعقات ، وافتتحت دار السلطان ، وصُرت الأتواق ، وساق الديلميان المستكفي بالله ماشياً إلى دار مع الدولة حيث سُملت عيابه<sup>(١)</sup>

وفي ٣٦٤ هـ دخل عصد الدولة بغداد ، فكان من حسن سياسته أنه سعى حتى ردّ الخليفة بعد أن أحده الأتراك معهم كارهاً ، وحرّح للقائه في الماء ، ومعه حشدٌ عظيم من أهل بغداد ، وسار معه حتى أرله بدار الخلافة<sup>(٢)</sup> ، ولكن عصد الدولة طلب من الخليفة فيما بعد ، لما رجع إلى بغداد عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م ، أن يجرّح للقائه إلى حسر الهروان ، « ولم تكن العادة حارية بحروح الخلفاء لتلقى أحد من الأمراء<sup>(٣)</sup> »

وكانت حاشية دار الخلافة وبعقاتهم في عهد الخليفة المعتصم ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ —

٨٩٢ — ٩٠١ م كما يلي

١ — أمراء بيت الخلافة

٢ — أصحاب المونة من الرّحالة ، وأوراقهم في كل يوم ألف دينار ، منها سبعمائة دينار

للبيضان ، وهم النّوّاون ، وتلثمائة للسودان ، وأكثرهم بماليك الخلفاء<sup>(٤)</sup> ومن رسمهم أن يبنوا في مصافّ باب الحاضرة وحوالي القصر ولهم وطيعه حُر يُجَيِّرون بها لقلة أوراقهم<sup>(٥)</sup>

(١) يحيى بن سعيد ص ٨٦ ب ، ومسكوكه ج ٦ ص ١٢٣ — ١٢٤

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٧٧ (٣) النظم ص ١١٧ ب — ب

(٤) وفي مصدر آخر لا نطبق ما فيه على حقيقة الواقع علماً أن عدد هؤلاء العلماء السود حسر

الخدم أربعة آلاف ( تاريخ بغداد طبعه Salmon ص ٥١ )

(٥) انظر في هذه الأوصاف كلها كتاب الوزراء من ص ١١ إلى ص ٢١

٣ — العلماء المُتَقَنُّون ، وهم في الغالب مماليك الخلفاء ، ومهمهم يُختار الحجاب ، وعدتهم خمسة وعشرون ، وحلفاء الحجاب ، وكانوا نحو خمسمائة<sup>(١)</sup> ولما قُتل المقتدر كان معه رجل من حلفاء الحجاب طرح نفسه عليه فدُحِ أَيْضاً<sup>(٢)</sup> وفي سنة ٥٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م أُشِيَّ لأول مرة منصبُ حاحب الحجاب<sup>(٣)</sup>

٤ — المختارون ، وهم حرس مستخلصون للموكب وملازمة الدار والدحول أوقات جلوس الخليفة ، والمقام من أول النهار إلى آخره وكان حشد كل قائد سعداد بما فيهم بماليكه المسلحون يؤلَّفون وحدة قائمة بذاتها ، فاختار الخليفة من كل قيادة من عُرف بالشهامة والشجاعة ، وُسِّمُوا بأسماء قوادهم ، فقليل اليأسية (ودلك نسبة ليأس) ، والمعلحية والمسرورية وهكذا على أنه كان للمعتصد مماليك يقيمون في القصر والحُجْرَتِ تحت مراعاة الخدم والأستاديين وسمَّاهم الححرية ، وهم يُختارون من بين الفرسان الذين يحسسون الركوب والرمي ويسون أَيْضاً عسكر الخاصة وكان لمارويه بمصر قوم معروفون بالشجاعة وتشددة اليأس انخدمهم حرساً له ، وسمَّاهم المختارة ، فكانوا يقاتلون أمام حده ، وإدارك مشوا حلقة<sup>(٤)</sup>

٥ — أوصاف أخرى من المرسومين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والقراء وأصحاب الأحبار والمؤدِّين والمُحَمِّين والسخاميين والعراقيين والأبصار والحرس وأصحاب الأعلام والموقيين والمُحَرِّقِينَ والمُصَحِّكِينَ والطَّالِبِينَ والسَّاقِيِينَ والطَّاحِينَ والخبارين وحرية السروح وعمال الاصطبلات الخمسة — حامسها للإبل — وأصحاب الصيد والملاحين في الطيارات ، وخدمَة المشاعل والأطباء

٦ — الحُرَم ، وأوراقهم في اليوم مائة دينار ، وليس عندها معرفة دقيقة بعددهن . وقد ذكر الخوارزمي مارعمه العص من أن المتوكل كان له اثنا عشر ألف سرية<sup>(٥)</sup> ، ويقول المسعودي إنه كان له أربعة آلاف سرية ، وفي أحد المخطوطات أربعمئة<sup>(٦)</sup> ، وكان

(١) مسكويه ج ٥ ص ٥٤١ ، وباريخ سداد طعة سلمون ص ٤٩ ، ٥١

(٢) أبو المحاسن طبعه ليدن ج ٢ ص ٢٩٥

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٣٧٩

(٤) رسائل الخوارزمي ص ١٣٧

(٥) نفس المصدر ص ٦٥

(٦) المروح للمسعودي ج ٧ ص ٢٧٦

على رأس ساء القصر حوالى عام ٣٠٠ هـ قهرمانتان ، إحداهما للخليعة والأخرى للسيدة والدته ، وكان يسلم للأولى كدائر المعتقلين ليُحتَسُوا عندها مكرّمين حسناً هيباً ، مثلاً وُكِّلَ بالن الفرات حوالى ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م عند ريدان القهرمانة <sup>(١)</sup> ، كما سلّم إليها الأمير الحسين بن حمدان ، والوزير على بن عيسى سنة ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م <sup>(٢)</sup>

وكان اتحاد الخليعة ساء من غير مسألة بأصلهم ، وإن كان معظمهم من حوارى الترك والروم ، سبباً في إتحاد كثير من الاضطراب في البلاط وفي المناصب الإدارية العليا ، فكانت كل سيدة تحاكي من يتصل بها من الأقارب والأولياء ، وترفعهم ما استطاعت ، ومن أمثلة ذلك أن الخليعة المهدي كتبت إلى عامل حرش في إشخاص العطريف بن عطاء أحي الخيران أم موسى وهارون ابنه ، وكان العطريف علامة لرحل من أهل حرش ، فأعتقه ، وكان يؤاخر نفسه سطر كروم ، فحماه العامل وكساه ، وحمله إلى المهدي ، فرفع منزلته ، ثم ولّاه على اليمن <sup>(٣)</sup> وكان للمقتدر حال رومى يسمى عريب ، وكان له نفوذ كبير وكان يُحَاطَبُ بالإمرة <sup>(٤)</sup> وفي سنة ٣٠١ هـ استطاعت أم موسى الهاشمية قهرمانة السيدة أم الخليعة أن تسعى في إفساد نقابة بني هاشم الطالبيين والعاسيين لأحبابها ، فصحّ الهاشميون حتى ردّوا النقابة إلى ابن القيب السابق <sup>(٥)</sup> وقد أمنت التحرّة أن كثيراً من المارعات مصدرها أم الخليعة ، وقد داق المتصلون بالخليعة وبال ذلك ، حتى إن الخليعة كان يُنتحب أحيانا لأنه لا أمّ له رجاء أن تستقيم الأمور معه <sup>(٦)</sup>

وكان في دار المقتدر حوالى عام ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م أحد عشر ألفاً من الخدم الحصيان <sup>(٧)</sup> ، وفي رواية أخرى أنه كان بها سبعة آلاف خادم وسعمائة حاجب <sup>(٨)</sup> ، وفي

(١) عرب من ٩ ، كتاب الوزراء من ٥ ١

(٢) كتاب العيون من ١٨٥ ، ١٨٦

(٣) تاريخ العقوي ح ٢ من ٤٨١ من الطبعة الأوروبية

(٤) عرب من ٤٩ (٥) نفس المصدر من ٤٧

(٦) نفس المصدر من ١٨١ ، وكتاب العيون من ١٣١ ب بالترجم العربي (٩) ، وقد توفيت والدته

القاهر بقاء (كتاب العيون من ١٦٦)

(٧) تاريخ بغداد طبعه سامون من ٤٩ ، بقلا عن القامى السوحى (الموتى عام ٤٤٧ هـ -

٥٥ م) ، وأبو المحاسن ح ٢ من ٢٤٨

(٨) تاريخ بغداد من ٥١



مصدر قديم موثوق به أن حدم المتوكل وحاشيته كانوا سماعاً (١)

وقد جرى أناطرة الدولة الرومانية في العصر المتأخر على عادة العرس القدماء ، فجمعوا حولهم جماعة يدعوهم إلى الطعام والشراب ، وسموهم «أصدقاء الإمبراطور» ، وكذلك فعل الخليفة المأمون لما ورد إلى بغداد ، فإنه أمر بأن تُثبت له أسماء من يصلح لمبادمته من أهل الأدب (٢) وقد آثر أن يكونوا من العلماء والقواد ومن حالس الخلفاء وكذلك حاول القائد محكم أن يتنع سدماء الخليفة الراصي ، فلم يجد من يبعه إلا الطيب سنان بن ثابت (٣) وكان للخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ = ٨٦٩ — ٨٩٢ م) مع بدمائه محالسات ومدكرات قد دوت في أنواع من الأدب ، فيها مدح القديم وذكر فضائله ودمّ التفرّد بشرب البید وما قيل في ذلك (٤) ، وكان للدماء أوراق (٥)

وقد وصف لنا الصولي أول جلسة للخليفة الراصي (٣٢٢ — ٣٢٦ هـ = ٩٣٦ — ٩٤٠ م) مع أصحابه كانوا يجلسون على رسم وترتيب مخصوص ، وكانوا في أول جلسة أربعة عن يمينه وخمسة عن يساره ، فكان على يمينه قريباً إليه إسحاق بن المعتمد أحد الأمراء ، ويليهِ الصولي ، الأديب ولعب الشطرنج المشهور ، ثم أحمد بن محمد العروصي الذي كان مرسوماً بتأديب أبي إسحاق المتقي أمير المؤمنين ، ثم يليه محمد بن عبد الله بن حمدون ، أحد أسماء الأشراف المتصلين بالباط ، وكان على يساره ثلاثة من آل المهمل وهم من أدباء الحاشية ، واثنا من بني البريدى العمال المشهورين ، وكانا يعلّمان الخليفة الخط وقد افتتح المجلس بإشاد قصائد بمناسة تقليد الخلافة ، ثم تكلم الخليفة ، فشكا ثقل العبء الذي ألقاه عليه هذا المنصب بسبب قلة الأموال وتغير الأحوال وكلّ الحذر وحرب الدنيا ، وذكر أنه يستصحبه من العم والأسف والاهتمام أكثر مما يؤمل من السرور ، ورحا الله أن يعيله بمحمل بيته وكان مما قاله والله لقد حاءني هذا الأمر ، ولا شرعت فيه ، ولا حشنته ، ولا علم إليه

(١) كتاب الدنارات للشاشي ص ٦٨ ب

(٢) نفس المصدر ص ٢١ ب (٣) مسكويه ح ٦ ص ٢٦

(٤) مروح الذهب ح ٨ ص ٢ ١ ، ويحكى لنا الشاشي ( ص ١٨ ) أن المأمون أراد يوماً أن يتسلى مع بدمائه ، فأمر بإحصار اللحوم وآلة الطبخ وطلب من الدماء أن تطبخ كل واحد منهم فدرأ ، وطبخ هو أيضاً فدرأ

(٥) الفهرست لاس القديم ص ٦١

ذلك مى فى سر ولا علانية ، ثم تحدث عن إعانتِ القاهرة له وحوفه من قتله إياه فى ليله ومهاره ، إلى أن قال . أليس ناس المعتصد وأح للمقتدر وعمّ لسا ؟ هذا والله عار وعيب لا يُرَال ، فقال له الصولى قد أزال الله عن سيدنا كل عيب ، وله فى رسول الله أسوة حسنة ، هذا عمه أوله أزل الله فيه سورة من القرآن يعرفها كل إنسان ، فما لحقه عاره يقول الصولى « فكما بين يديه فى ذلك اليوم ثلاث ساعات من الليل شرب ، وكان هو لا يشرب ، قد ترك اليد حمة » ، وكان لكل من الفريقين اللذين على يمينه وعلى يساره فى أول جلسة نوبة خاصة به ، ويظهر أن بعض أعضاء النوبة كانوا يحصرون النوبة الأخرى أحيانا<sup>(١)</sup> ويقول الصولى إن مما امتار به الراصى فى محالس مداماته أنه كان يأمر بأن توضع بين أيدى الدماء الصوانى عليها حماسيات المطوح ، والمعاسل ، وكيران الماء ، ليشرّب كل واحد منهم ما يريد « ولم يكن يفعل ذلك الخلفاء إلا خصوصاً بالواحد بعد الواحد<sup>(٢)</sup> ، وبالجماعة فى وقت من الدهر » وكان يأمر أن توضع بين أيديهم الفواكه الرطبة والياسة ، فيألوها كما يألوون فى بيوتهم ، بل يحكى الصولى أن الدماء كانوا يتسارون فى الشرب بين يديه ، فيُسَرّ بذلك ، ويثيب عليه ، ويقول من رادى شره فإنا فعل ذلك سروراً سا وشاطاً لجلسا ، وكان إذا شرب أحد المتسارين كأساً قل صاحبه رفعها ليراها الراصى ، وقد فعل اثنان منهما ذلك مراراً إلى أن صحر الراصى فقال كآها قوارير بول تدفع بين يدي طيب<sup>(٣)</sup>

وكان لكل سلطان من السلاطين أمانة لدمائه ، إذا أراد مهوصهم ، فكان أردشير إذا تخطى قام سُماره ، وكان يردحرد يقول شَتْ شُدْ (ومعناها تقدم الليل) ، وكان سابور يقول حسبك يا إنسان ! وكان عمر يقول فامت الصلاة ، وعند الملك إذا شئتُم ، والرشيد سبحانه الله ، وكان الواقى يمس عارضيه<sup>(٤)</sup>

(١) الأوراق للصولى ص ١١ — ٢٦ ، ١٤٣

(٢) فلا كان لكل نديم من دماء الواقى ( ٢٢٧ هـ — ٢٣٣ هـ = ٨٤١ — ٨٤٧ م )

نوبة لا يحصر إلا فيها — الأغاني ح ٣ ص ١٨٤

(٣) الأوراق للصولى ص ٧١ ، ٢٢

(٤) محاصرات الأدياء ح ١ ص ١٢١

وكانت بركات دار الخلافة عظيمة جداً ، فكانت بركات المطابخ والمحار عشرة آلاف دينار في الشهر وكان يطلق في كل شهر في حملة بركات المطبخ ثمن المسك وحده ثلثمائة دينار ، مع أن الخليفة لم يكن يأكل طعاماً فيه مسك ، ولا يطرح له إلا اليسير في الحشكباح ، وكان يُصرف للسقاين مائة وعشرون ديناراً في الشهر ، ومائتا دينار لثمن الشمع والريث وثلاثون ديناراً للأدوية ، وثلاثة آلاف دينار لبركات حرائر الكسوة والجِلَع والطيب وحوائح الوصوء والحمام وبارات حرائر السلاح وما يُرم من الحواش والدروع ويتحد من الشباب والأعلام وبارات حراة السروج والفرش<sup>(١)</sup>

وكانت بركات دار الحرم التي ساها حمارويه عظيمة جداً ، وكان يفصل عن حاجات من فيها الشيء الكثير للخدم والطباخين واشتهر بيعهم لذلك ، « وكان شيئاً موحوداً في كل وقت لكثرة واتساعه ، بحيث أن الرجل إذا طرقة صيفٌ حرج من فوره إلى باب دار الحرم ، فيجد ما يشتريه لينتحم به لصيفه مما لا يقدر على عمل مثله<sup>(٢)</sup> »

ولما قعد القاهر في الخلافة أطهر من الحد والاحتصار والقناعة ماهاه به الناس ، فلما عُرضت عليه صوف الألوان والحلواء والفاكهة التي كانت توضع بين أيدي الخلفاء في كل يوم استكثرها ، وكانت تُتباع ثلاثين ديناراً ، فأمر بأن يُقتصر من ذلك على دينار واحد ومن الطعام على اتى عشر لواناً وكان يقدم لغيره في كل يوم ثلاثون لواناً من حلواء فاقتصر على ما يكفيه<sup>(٣)</sup>

وفي ذلك العصر كانت أيام العسر قد أقلت ، ففي عام ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م أنقص عدد الخباب من خمسمائة إلى ستين<sup>(٤)</sup> ، وفي سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م استولى معر الدولة على كل الأمور المالية من يد الخليفة ، وأقام له لبقته كل يوم ألبي درهم<sup>(٥)</sup> ، وهو أقل من نصف ما كان يحتاج إليه<sup>(٦)</sup> وبعد ذلك ستين قطع عن الخليفة الألبي درهم وعوَصه عنها

(١) كتاب الوزراء ص ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٥٢

(٢) الحطط للمصري ح ١ ص ٣١٧ — ٣١٨ (٣) عرب ص ١٨٣

(٤) مسكويه ح ٥ ص ٥٤١ (٥) مسكويه ح ٦ ص ١٢٥

(٦) كانت بركات الحصرة في أيام المصديسعة آلاف دينار في كل يوم (كتاب الوزراء ص ١٠) ،

وفي سنة ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م قُدر لسائر بركات دار الخلافة مائه وخمسون ألف درهم في السنة (كتاب العيون ص ١٢٣) .



صياغاً من صياغ البصرة وغيرها زيادة على قدر صياغ الخليفة سحومائى ألف دينار في السنة؛ ثم نقص ارتفاعها على ممر السنين إلى أن صار خمسين ألف دينار في السنة<sup>(١)</sup>

ثم حترت العادة منذ عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م أن تهب دار الخليفة بعد موته أو حله حتى لا يبقى فيها شيء<sup>(٢)</sup> وفي سنة ٣٨١ هـ — ٩٩١ م لما حُلِع الطائع حوّل ما كان في دار الخلافة من المال والثياب والأواني والمصاع والعروش والآلات والرحام والحشب والساح والتماتيل والأبواب والشبابيك والرصاص حتى حلت دار الخلافة<sup>(٣)</sup> وكان العامة من الرومان يطلقون لأنفسهم العنان لمثل هذا الصنيع عند موت البانا

وبلاحظ هنا تشابهاً يستلقت النظر بين الخليفة والباناء ، وذلك أن الخليفة في هذا العصر صار رئيساً روحياً فقط ليس له سلطة سياسية ، وصار الرئيس الروحي لجميع المسلمين ، وكان تقلص سلطانه عن العراق ، حتى لم تنق له إلا بغداد يمارعه عليها المارعون ، مما أسرع في جعل منصب الخليفة روحياً دينياً في سنة ٤٢٣ هـ — ١٠٣٢ م رل السلطان حلال الدولة من داره على سكر ، والمحدث في سميرية ، ومعه ثلاثة نفر من حاشيته ، وصعد إلى سستان دار الخلافة ، وحلس مع بعض معيانيته تحت شجرة ، واستدعى نبداً فشر به ، وأمر الراسر أن يرمر ، وعرف الخليفة ذلك فشق عليه وأرمحه ، فأرسل للسلطان قاصياً وحاحاً فقالا له

إن البند والرمر مما لا يجوز في هذا الموضع على مقرنة من الخليفة ، فلم يقل كلامهما ، ولم يتمتع ، فتعيط الخليفة ، وأرسل له كلاماً عليطاً ، وأفهمه أن هذه السيرة تشين الخلافة ، وهدد بمفارقة البلد ، فحصر الورير واعتذر<sup>(٤)</sup> ، على أن الدور الذي كان للخليفة في هذه العصور الأخيرة كان سيظاً ، لا يشه منصب رئيس الكيسة ، إذا قورن بإمبراطور بورطة الذي كان يُحتفى في ميدان الألعاب بوصف أنه داود الثاني أو الرسول بولس الثاني ، وكان يُحتفى به كما يُحتفى بكنار القسس ، وكان يمضى يومه بين الكنائس والمداح وصور القديسين ،

كما يدل على ذلك كتاب De Caerimoniis

(١) المتظم من ٧٨ ب

(٢) يحيى بن سعيد من ٨٦ ب — ١٨٧ ، ومسكويه ج ٦ ص ١٢٤ ولما مات الراسي أرسل محكم الفائذ إلى دار الخلافة ، وأحد فرشاً وآلات كان يستعملها ( اس الأثير ج ٨ ص ٢٧٦ ) ، ولما حُلِع الورير في عام ٢٩٩ هـ — ٩١١ م هبت داره وأحترت ( كتاب الورراء ص ٢٩ والمتظم من ١٤ ) (٣) المتظم من ١٣ ب وان الأثير ج ٩ ص ٥٥ ، ٥٦

(٤) المتظم من ١١٨٥ ب

## الفصل العاشر

### الآشراف

كان العرب يقولون الشرف نَسَبٌ ، يقصدون أنه في الدم ، وأول ما يجب أن يتوفر  
للسيد أن يكون حواداً شجاعاً ، ومن حصاله أن يكون عاقلاً متعافلاً  
كما قال المرردق

كَأَنَّ فِيهِ إِذَا حَاوَلْتَهُ تَكَلُّمًا عَنْ مَالِهِ ، وَهُوَ وَاقٍ الْعَقْلَ وَالْوَرَعَ  
وَمَا قَالَ الشَّاعِرُ

ليس العيُّ سَيِّدٌ فِي قَوْمِهِ لَكِنْ سَيِّدٌ قَوْمُهُ الْمُتَعَانِي<sup>(١)</sup>  
ولا بد أن يكون عظيم الرأس ، ومن لم يكن عظيم الهامة فليس سيد<sup>(٢)</sup> — كالكاتب  
من صفته أن يكون صغير الهامة<sup>(٣)</sup> — ومن صفاته أن يكون كثَّ شعر الناصية ، أشمَّ عريبي  
الأنف ، واسع الأُتْدَاق<sup>(٤)</sup> ، غير مستدير الوجه ، عريض الصدر والمكبين ، مديد الساعد  
طويل الأُتَامِل<sup>(٥)</sup> وَيُكْرَهُ فِي السَّيِّدِ التَّصَنُّعُ فِي اللِّبَاسِ وَالْمَشْيَةِ ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ « عِمَامَةُ  
السَّيِّدِ مَلَوْنَةٌ [ أَوْ مَلَوِيَّةٌ ] أَيْ يَدِيرُهَا عَلَى رَأْسِهِ كَيْفَمَا اتَّفَقَ<sup>(٦)</sup> » وَيَحْكِي عَنِ الْفَصْلِ س  
يُحْيِي أَحَدَ رِحَالِ الْخَاشِيَةِ فِي الْعَصْرِ الْعَامِيِّ أَنَّهُ قَالَ « النَّاسُ أَرْبَعُ طَبَقَاتٍ ١ — مُلُوكٌ

(١) عنون الأحبار لاس قنده طعة بروكلمان ص ٢٧١ (٢) من المصدر ص ٢٧ .

(٣) صحح الأعشى للعلفشدى طعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤ هـ — ١٩٢٢ م

ح ١ ص ٦٧

(٤) وهذه أيضاً صفة كرام الخيل

(٥) ومن صفات رأس الخالوت ( رئيس اليهود ) أن تكون طويل الناح ملع أُمَامُكُهُ رَكْتِيَه ( محلة  
الأحباب اليهودية مجلد ٥٩ ( ١٩١ ) ص ١٢١ وما يليها ، ومفاتيح العلوم للحوارري ص ٣٥ ) ،  
ومن صفات المهدي عند السوسيين يافرية أن ملع أُمَامُكُهُ الْأَرْضُ ، ( اطر M Hartmann ,  
Af R 1, S 266

(٦) أنباء بحاء الأبناء ، مخطوط برلين رقم ٧ ٩٥ ص ١٤ ب ومخطوط رقم ٣٢ ٦ ص ١٥ ب ،  
وهذا الكتاب لاس طهر المكي الموي عام ٥٦٥ هـ — ١١٧ م

قدّمهم الاستحقاق ، ٢ — وورراء فصلتهم الفضة والرأى ، ٣ — وعناية أمهمهم اليسار  
٤ — وأوساط الحقهم بهم التأث ؛ والناس بعدهم رند حواء ، وسيل عشاء ، لكع  
ولكاع ، وريضة اتعاع ، هم أحدهم طعمه وبومه<sup>(١)</sup>

وكان الشرف والسيادة نتيجة للمال والسيطرة السياسية ، وهما شيئان في غاية الدناءة  
وقد أهمل المسلمون مسألة الدم وخصوصاً دم الأم إهمالاً شديداً ، ودهست قلة الاكثراث  
بذلك إلى حد أن جميع الخلفاء في القريب الثالث والرابع للهجرة كانوا أساء حوار  
من الترك أو الروم ، وكاد رحل أسود في أوائل القرن الثالث الهجرى أن يرتقى إلى  
عرش الخلافة<sup>(٢)</sup>

على أن الإسلام أوجد نوعاً من شرف الدم لا يزال باقياً إلى عصرنا هذا ، وذلك في  
قراءة النى أو بنى هاشم أو أهل بيت رسول الله أو « أهل البيت » باحتصار ؛ وكانوا  
يأحدون ، باعتبارهم قراءة النى ، رأساً من الحكومة ، وكذلك حرمت عليهم الصدقة هم  
ومواليهم<sup>(٣)</sup> وكان لهم قضاء مستقل بهم يتولاه نقيهم الذى يعينه الخليفة<sup>(٤)</sup> وكان لهم  
نقيب لا في عداد فقط ، بل في جميع المدن الكبرى مثل واسط والكوفة والبصرة  
والأهوار<sup>(٥)</sup> وفي سنة ٣٥١ هـ — ٩٦١ م كانت نقابة الطالبين بمصر للشاعر أبى القاسم  
أحمد بن محمد بن إسماعيل طباطبا<sup>(٦)</sup> وكان نقيب العلويين في عهد الفاطميين أيضاً من  
كنار رجال دار الخلافة<sup>(٧)</sup> ، وقد انتهى إليها كتاب تقليد أبى أحمد الحسين بن موسى  
نقابة الطالبين سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م ، ورى من هذا الكتاب أن النقيب هو الذى  
يحكم أيضاً في النزاع بين الطالبين وبين سائر رعية الخليفة<sup>(٨)</sup>

(١) محصر كتاب البلدان لأبى بكر أحمد بن محمد الهمدان المعروف بابى الفقيه ، طبعة ليدن  
عام ١٣٠٢ هـ ص ١

(٢) هو إبراهيم بن المهدي ، وأمه أم ولد سوداء ، وكان شديد السواد برأى اللون طويلاً بدياً ،  
حتى كان يبر بذلك ( مطالع الدور للعروى ح ١ ص ١٣ )

(٣) رسائل الخاط طبعه فان فلوتى ص ٧

(٤) الأحكام السلطانية للماوردي ، طبعه بمصر ص ١٦٥

(٥) المسطم لاس الحورى ص ١١٥ ب

(٦) العرب لاس سعيد ص ٤٩

(٧) Becker, Beitrage, 1 S 33 نقلا عن المسطحى

(٨) رسائل الصان طبعه بعدا ( لسان ) ١٨٩٨ ص ١٥٣



وكان العرغان المتعاديان من أهل البيت ، وهما العباسيون الذين وصلوا إلى الرياسة ، والطالبيون الذين لم يبلعوها ، يخصصون جميعاً لقب واحد حتى القرن الرابع<sup>(١)</sup> وفي آخر هذا القرن صار لكل فريق منهم لقب خاص ، والسبب الأقوى في ذلك أن العباسيين بدأ أمرهم في الضعف وبدأ الآخرون في القوة ، فلم يستطيعوا أن يحتملوا إشراف أحد على أمرهم ، وقد مهدت ظروف ذلك العصر الطريق لما عليه الأشراف اليوم

وكان كل من العلويين والعباسيين يحاطب بالشريف<sup>(٢)</sup> ، ولم يكن للعلويين شارةٌ يتميزون بها كما تدل على ذلك الحكاية التي أوردها عريب بن سعيد القرطبي في كتابه صلة تاريخ الطبري<sup>(٣)</sup> ، أما اللون الأحمر فلم يحمل شارة لهم إلا أحياناً في القرن الثامن الهجري<sup>(٤)</sup>

وكان يُعطى لكل واحد من بني هاشم تعداد ديار في كل شهر في عهد المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ — ٨٧٠ — ٨٩٢ م) ، أما الذين حرقوا من تعداد فقد تركوها حاوي الوفاص ثم اقتصر الخليفة المعتضد على ربع ديار وكان عدد بني هاشم بالحصرة أربعة آلاف نفس ، وحملة الحارثي لهم ألف ديار في الشهر<sup>(٥)</sup> ، وفي سنة ٢٠٩ هـ — ٨٢٤ م أحصى عدد العباسيين ، فكانوا ثلاثة وتلاتين ألفاً<sup>(٦)</sup> ، على حين أن الحاحط حوالى ذلك الوقت يقول « إن آل أبي طالب أخصوا منذ أعوام وحصلوا ، فكانوا قريباً من ألفين وثلاثمائة<sup>(٧)</sup> »

وكان يجري لمشايخ الهاشميين راتب خاص يدكر في الميراثية مع أوراق الخطباء في المساحد الجامعة ، وحملة ذلك ستمائة ديار في الشهر<sup>(٨)</sup> وكان لأولاد الخلفاء حارٍ خاص ،

(١) عرب ص ٤٧

(٢) فيما تعلق بالعلويين انظر كتاب الفرح بعد الشدة للسوحي ح ٢ ص ٤٣ ، والإرشاد لياقوب ح ١ ص ٢٥٦ وفيما تعلق بالهاشميين انظر المظم لآل الحوري ص ٩٢ ب

(٣) عرب ص ٤٩ (٤) انظر الفصل الخاص بالشيعة

(٥) كتاب الورداء ص ٢٠

(٦) الطبري ح ٣ ص ٩٦٩ (٧) وكتاب العيون ص ٣٥١ (٨) ، ولعله يشير إلى الجزء المطبوع

(٧) كتاب الفصول للحاحط مخطوط رقم ٣١٣٨ بالمجمع البريطاني ص ٧ ١٢

(٨) كتاب الورداء ص ٢

وإن كان قليلاً ، فكان المعتصد ( ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢ م ) يحرق على أولاد المتوكل وأولادهم رجالاً وساء ألف دينار في الشهر ، وكان يعطى أولاد الوائق والمهتدي والمستعين ومن في قصر أم حبيب حمائة دينار في الشهر ، وأخرى على ولد الناصر عبد الواحد وإخوته حمائة دينار أيضاً<sup>(١)</sup> . ولذلك لم يحلّ العلويون من بعض المخاطرين الساحطين ، وكانت محاري مركز هذه الجماعة الذي إليه يأوون ، لأنه كانت محاري أكر حكومة غير شيعية بعد بغداد وفي حوالي سنة ٣٨٠ هـ التقى محاري بعض أولاد الخلفاء مثل أبي طالب المأموني وأبي محمد الوائقي ، وابن المهدي وابن المستكفي<sup>(٢)</sup> . وكان أبو محمد الوائقي يشهد بصين عمداً للحكام والقضاة ، وإليه مع الشهادة الخطاة في المسجد الجامع ؛ ثم أسد على القاضي أمره ، فأخرج من بغداد ، فقصده حراسان راحياً أن يقلد قصاء أوديون يريد ، فلم يبل ما أراد ، فذهب معاصاً يتوغل في بلاد الترك ، حتى ألقى عصاه محصرة لعرا حاقان ، وافتعل مع رجل آخر كتاباً عن الخلافة بتقليده العهد بعده ، حتى اضطرت الخلافة أن يكتب تكديده إلى حراسان وسائر الأطراف ، ولم يرل الوائقي يرين لعرا حاقان إرالة الدولة السامانية والاستيلاء على المملكة ، وبني التدبير على أن تكون له الخلافة ، ويتقلد التركي أعمال حراسان وما وراء النهر من يده ، فألم التركي في حيوشه محاري واستولى عليها ، ولكنه مات قبل تحقيق مهابة التدبير ، وعاد الوائقي إلى بغداد سرّاً بعد فشل تدبيره ، ولكن الخلافة فطن إليه واضطره إلى الخروج ، فعاد بلاد الترك ، وتقلت به الأحوال ، حتى قص عليه يمين الدولة محمود بن سكتكين ، وحسنه في إحدى القلاع موسعاً عليه ، حتى مات<sup>(٣)</sup> أما المأموني فكان أيضاً يسمو مهمته إلى الخلافة ويُمَيّ نفسه قصد بغداد في حيوش تنصم إليه من حراسان لفتحها ، فاقطعته المية دون لوع الأمية ، ولم يكن بلغ الأربعين وكانت وفاته سنة ٣٨٣ هـ — ٩٩٣ م<sup>(٤)</sup> ثم حاول محمد بن الخلافة المستكفي الذي حُلّع سنة

(١) نفس المصدر ص ٢

(٢) نيسية الدهرح ٤ ص ٨٤ — ٨٧ ، ١١٢

(٣) كتاب الوزراء ص ٤٢١ وما يليها ، ونيسية الدهرح ٤ ص ١١٢ — ١١٣ ، وابن الأثير

ج ٩ ص ١١٧ — ١١٨

(٤) البيهية ج ٤ ص ٩٤ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٧١ .

٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م أن يستولى على الدولة ، مستعياً بما جاء في الأحبار من ظهور المهدي فظهرت دعوته بين الخاص والعام ، وادعى أنصاره أنه « يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويجهاد أعداء المسلمين ، ويحدد ما عمن رسوم الدين » ، فتطلعت إليه نفوس العامة ، وحمل دعاته يأحدون له البيعة على الرجل بعد الرجل فمن كان من أهل السنة قالوا له إنه عاصي ، ومن كان من أهل التشيع قالوا له إنه علوي ، ودخل جماعة من وحوه الكتاب وأماثل الناس في هذا الأمر ، ودخل فيه خلق كثير من الديلم والترك والعرب وكان فيهم مسكتكين القائد العجمي ، وكان يتشيع ، فقال له الدعاة إن الرجل علوي ، ووعدوه بأن يقد إمره الأمراء ، فاستجاب للدعوة ، ثم طهر لسكتكين أن الرجل عاصي لا علوي ، فتغيرت بيته وتصوره بصورة المحتال ، ثم انتهى أمره بأن قص عليه مختار وعلى أخيه ، وأسلمهما للحليفة المطيع لله ، فأمر بحدع أب صاحب الدعوة ، وقطع أدب أخيه وحسبهما ، ثم هربا وحي أمرهما<sup>(١)</sup>

وكان الهاشميون ، إلى جانب ما يجري لهم من راتب خاص ، يقدّمون في تولي مناصب مشرفة يصيبون منها المال بلا مبالاة ولا مراعاة ضمير فكانت تسد إليهم إمامة كثير من المساجد<sup>(٢)</sup> ، فمثلاً كان أحد الهاشميين ( تولى عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م ) إماماً جامع المنصور بعداد ، وهو أكبر جامع في الدولة الإسلامية<sup>(٣)</sup> ، وكان إمام جامع عمرو وعمر في مثل هذا الوقت هاشمياً أيضاً<sup>(٤)</sup> ، وكذلك تولى منصب قاضي القضاة في عامي ٣٦٣ هـ — ٩٧٤ م و ٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م رحلان من بني هاشم<sup>(٥)</sup> وفي أواخر القرن الرابع كان أبو محمد الواثق من ولد الواثق بالله أمير المؤمنين يتولى الخطبة في المسجد الجامع بصيبين<sup>(٦)</sup> ، كما كان الذي يحج بالناس في كل عام رحلا من بني هاشم ، وهذه مهمة يصيب من يقوم بها شيئاً كثيراً ، وكانت لا تخرج من يد الهاشميين ولما احتاج المأمون أن يستعين بالعلويين

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣١٥ — ٣١٧

(٢) كتاب الخراج لعدامة بن جعفر مخطوط باريس ص ١١٤ — ب

(٣) المسطوع ص ٩ ب (٤) ملحق السكندى ص ٧٥

(٥) المسطوع ص ١١٥ — ب ، ١٤٩ ب

(٦) كتاب الوراء ص ٤٢١



على أخيه الأمين تولى الحج بالناس رجالاً من الطالبين منذ عام ٢٠٣ هـ ، وكانت هذه أول مرة يحج فيه الطالبون بالناس ، ولكن إمارة الحج عادت إلى الهاشميين بعد ذلك ثلاث سنين ، و بقيت لهم حتى آخر أيام المسمودي عام ٣٣٦ هـ — ٩٤٧ م<sup>(١)</sup> ، ثم آلت إلى العلويين ، وكانوا يدينون من بينهم من يقوم بالحج<sup>(٢)</sup>

وكانت أول ما تُعطى المبرات إلى أقارب النبي ، فكان أحمد بن أبي يعقوب بن يوسف ابن إبراهيم المعروف بالنس الداية (توفي عام ٣٤٠ هـ) يُجرى بمصر في عهد ابن طولون الخرايات على الأشراف الطالبين ، ومنهم من كان يبال مائتي دينار في كل سنة<sup>(٣)</sup> وكان الوريث على ابن عيسى في أوائل القرن الرابع يفتق كل سنة أربعين ألف درهم في صلات الطالبين والعاسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفي مصالح الحرمين<sup>(٤)</sup> وفي سنة ٣٣٤ هـ وصل الخليفة المطيع لله العاسيين والعلويين في يوم نيف وثلاثين ألف درهم<sup>(٥)</sup> ، وكان أبو العلاء المعري يصل بعض العلويين ، وبعث إليه مرة شيء من الفقة ، وأرسل له يعتذر لقاته ويرجوه بقوله<sup>(٦)</sup> ومن الأمثال المعروفة أن العلوي يأخذ ولا يعطي<sup>(٧)</sup> ،

وإذا نظرنا إلى قلة حاربي بني هاشم ، وهور مع دينار في الشهر ، علما أنهم لا بد أن يكونوا جميعاً علويين وعاسيين في فاقة شديدة ، ومحمد أحد الهاشميين يشتغل عيياً يجمع الأحبار ، وفي عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م وقع علاء ومخاعة ، فقتل كثير من النساء الهاشميات ، لأنهن كن يفتنن الأبطال ويأكلن لحمهم<sup>(٨)</sup> وكان عبد الصاحب بن عباد ، وريث فخر الدولة شمال فارس ، علوي شامي يتحدث عما شاهد من الأعاجيب<sup>(٩)</sup> وقد تحدث ابن الجراح (توفي عام ٣٩١ هـ — ١٠٠١ م) في بعض شعره عن معية هاشمية سيئة السيرة<sup>(١٠)</sup> ومما يحكى عن كافور الأحمدي

(١) صروح الذهب ج ٩ ص ٦٩ وما يليها

(٢) المسطم ص ١٢٩ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ٥٤ ، على أن إمارة الحج عصر طلت في أيدي

الهاشميين اطر ملحق الكندي ص ٥٧٥ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٥٩ (٤) كتاب الوراء ص ٣٢٢ — ٣٢٣

(٥) المسطم ص ١٧٤ (٦) رسائل أبي العلاء طعة مرحليوب ص ٣٥

(٧) كتاب الفرج بعد الشدة للسوحي

(٨) يحيى بن سعد ص ١٨٧ والمسطم ص ٧٤ ب

(٩) محاسن الأدباء ج ٢ ص ٢٩٥ (١٠) ديوان ابن الجراح ١ ص ١٤١

صاحب مصر أنه وقعت له امرأة في طريقه وصاحت به ارحمني يرحمك الله ، فدفعها أحد رجاله دفعا عيبا ، فسقطت ، فاعتاط كافور وأمر بقطع يده ، فقامت تشفع له ، فتعجب من مكرمتها ، وقال اسألوها عن أصلها ، فما تكون إلا من بيت عظيم ، فسُئلت ، فأدأها علوية ، فعظم الأمر على كافور وقال قد أعفينا الشيطان عن ساء الأشراف ، وأحسن إليها وتفقده سائر ساء الأشراف وأدرّ عليهم الإحسان والحرايات<sup>(١)</sup> وفي سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م وقعت في بغداد فتنة عظيمة أصلها أن رجل عباسيا عريدا على رجل علوي ، وهما على بيد ، فقتل العلوي وبهر أهله واستعانوا لأحله ، ودخلت العامة ، وعظم الأمر ، وكان « أعمام النبي » من أكبر مشعلي بيران الفتنة بين عامة بغداد<sup>(٢)</sup>

وفي عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م وتب جماعة من الهاشميين على الوزير علي بن عيسى بسبب تأخر أرراقهم وشتموه وحرقوا دراعته ، وأرحلوه ، فخلصه القواد منهم ، واتصل ذلك بالمقتدر فأمر فيهم بأمور عظام وأن يهوا إلى البصرة مقيدين ، فحملوا في سفينة مظقة بعد أن ضرب عصمهم ، وأمر الخليفة أن يحبسوا في محبس البصرة ، فحملهم سلك الطولوني أمير البصرة مقيدين على حمير إلى دار في حاب الحبس ، وكلهم بحميل ووعدهم حيرا ، وورق فيهم أموالا إلا أنه أسر بذلك ثم بعد كتاب بإطلاقهم ، فأحسن إليهم الأمير وصنع لهم طعاما ووصلهم ، وأكرت لهم سُميريات ، فكان مقامهم في البصرة عشرة أيام<sup>(٣)</sup> وكان كلما قوى أمر الشيعة ببغداد وأطهروا الاحتفال بأعيادهم ، قابل العباسيون السيئون ذلك بهوص من حامهم وفعلاوا مثل ما يفعله الشيعة ، وأكر من كان يفعل ذلك السيئون في باب البصرة<sup>(٤)</sup>

وحوالى عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م وقعت فتنة عظيمة ببغداد — كما تقدم — بسبب نزاع بين علوي وعباسي ، فقصر الوزير المهلبى الحارم على كثير من مشيرى الفتنة من العباسيين وحملهم في روارق مظقة مسخرة وأبعدهم للحبس في بعض مدن العراق ، فكانوا هناك حيث مات كثير منهم ، ثم أطلق الماقون بعد موت المهلبى<sup>(٥)</sup>

وقد أراد القائد عميد الحيوش في سنة ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م أن يصع حدا لهذه العداوة

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٣١

(٤) ابن الأثير ح ٩ ص ١١

(١) العرب لابن سعيد ص ٤٨

(٣) عرب ص ٧٥ — ٧٦

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٣١ — ٣٣٢

القديمة بين أهل السنة والشيعة سعداد ، وهي العداوة التي كان المهيّجون المتطرفون من العلويين والعاسيين يدعون الناس فيها للقتال والشغب ، وكان عميد الحيوش قد أرسل لإجماع الفتنة القائمة ، فطلب الثوار من العلويين والعاسيين ، فكانوا إذا وقعوا أمر أن يُقرن العلوي بالعاسي ويعرقا بهاراً بمشهد من الناس ، حتى هدأت بذلك الفتن المستمرة ، وتحددت الاستقامة المدسية ، وحاف العائب والحاصر<sup>(١)</sup>

ثم جاء الوقت الذي يترقبه العلويون بعد طول انتظار وبعاد صبر ، فأخذ يحممهم في الصعود في كل مكان ، على حين بدأ أمر العاسيين في الصعف ، فيقول المقدسي في كلامه عن إقليم حراسان مثلاً وأولاد على رضى الله عنه فيه على عاية الرفعة ، ولا ترى به هاشمياً إلا عريباً<sup>(٢)</sup> ، وهما محمد القرب الرابع المحرى أقد أوحده الطروف والموقف الذي راء الآن ، فالعلويون هم الذين يمثلون أهل بيت الرسول وقد عمل الجميع من قرامطة وفاطميين على خدمة قضية العلويين ، فأنشأوا دوله علوية في حبال فارس ، وفتحوا مكة بعد منتصف القرن الرابع ، وجعلوها عاصمة البلاد المقدسة ، واستطاعوا بدهاء أن يستعلاوا المأسة الشديدة القائمة بين القاهرة وسعداد لمصلحة هذا المركز الحديد<sup>(٣)</sup>

وكان الملوك الحدد في العرب والشرق وهم الحمدانيون والموهيون على مذهب الشيعة ، وكان اريداد التكرم للى مما أسع على أسائه تكريماً كبيراً ، ويحكى أن كافورا الأحشيدى كان يوماً في موكب ، فسقط منه سوطه ، فساوله إياه أحدُ الشرفاء ، فقل يده شكراً وقال له « بعيت إلى الله نفسى ، فما بعد أن ناولى ولدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى عاية يُتَشَرَّفُ لها » ، فمات عن قريب<sup>(٤)</sup> وكان الأحشيد يحلف أناه طعحا على طرية ، وكان أهلها شيعة ، وكان بها أبو الطيب العلوى وَحَّةُ البلد شرفاً وملكاً وقوة ، فكتب الأحشيد لأبيه يذكر أنه ليس له أمر ولا بهى مع أى الطيب<sup>(٥)</sup>

وكان الأحشيد ريثاً من كل تحير فأحصر عبد الله بن طباطبا والحسين بن طاهر بن يحيى إلى مجلسه ، « وكانا لا يفارقاه ، هذا حسى وهذا حسين ، وبينهما عداوة الرياسة

(٢) المقدسي ص ٣٢٣

(١) نفس المصدر ص ٤٦٤ ، والمطعم ص ١٤٧ ب

(٣) العرب لان سعيد ص ٦ (٤)

(٥) نفس المصدر ص ٦

(٤) نفس المصدر ص ٤٧



والاحتصاص<sup>(١)</sup> . والحسين بن طاهر هو الذى أرسله الأحشيد إلى سيف الدولة ليعاوضه من أجل السلام وتحديد الحدود بينهما<sup>(٢)</sup> ، وهو الذى سمر أيضاً بين الأحشيد وبين ابن رائق فى الصلح ، حينما جاء ابن رائق مهاجماً لمصر فى عام ٣٢٧ هـ — ٩٣٩ م<sup>(٣)</sup> وكان الحبح قد تعطل منذ عام ٣١٧ هـ حتى عام ٣٢٧ هـ لاعتراض القرامطة ، فكاتبهم أحد العلويين ، وكاوا يحشونه لشجاعته وكرمه ، حتى انتهى الأمر بتسهيل سبيل الحبح<sup>(٤)</sup> . وكذلك كان العلويون هم الذين يتوسطون عادة فيما يقوم من حصومات فى بيوت الشيعة من بني حمدان وبني ثؤينة ، وإذا عرفنا ما كان يعود على العلويين من هذا التوسط ، استطعنا أن نستنتج مقدار ما لحقهم من الحسارة حينما اضطرتهم حكومة بغداد أن يحددوا موقفهم بإزاء العاطميين ، وأن يندوهم ولا يعتروهم من أساء على الحقيقيين وفى سنة ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م صدر كتاب من الأمير بها الدولة بأن يضاف إلى الرضى الموسوى النظر فى أمور جميع الطائمين بجميع البلاد ، وجعله نقيب القماء ، ولم يلبث ذلك أحد من أهل البيت<sup>(٥)</sup> ، وحُلِّع على الرضى السواد ، فكان أول طالى لس السواد على رضى العباسيين<sup>(٦)</sup> ، وكان فى هذا إقرار من جانب ابن عم العباسيين الذى كان أقوى منهم من قبل بأنه قد هُرم

أما أساء الخلفاء الثلاثة الراشدين فلم يلعبوا دوراً هاماً ، ولما استند الملاء على أهل مصر من ولاية العمري القضاء عليهم حرج جماعة إلى هرون الرشيد ، وشكوا إليه ما يفعله العمري فيهم ، فقال أنطروا فى الديوان كم لى من وال من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكُشف الديوان ، فلم يوجد غيره فقال انصرفوا فوالله لا عمرته أندأ<sup>(٧)</sup> ، ثم حلَّعه على القضاء هاشم بن أبى نكر الكرى من قبل الأميين عام ١٩٤ هـ ، وقد دخل مصر مُقْبِلاً ، فررع ررعا ، فانكسر عليه حراحه ، وطول به وتشدَّد عليه فى ذلك ، وكان أحد الكتاب حاصراً ، فعرفه وعرف الحال ، فقال « سبحان الله ! ابن صاحب نبيكم والذى قام فى مقامه

(٢) نفس المصدر ص ٤٢

(٤) المتظم ص ١٦

(١) نفس المصدر ص ١٨

(٣) نفس المصدر ص ٢٥

(٥) ديوان الرضى ص ٢١ ، والمتظم ص ١٥٨ ب

(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧ ، والمتظم ص ١٥٨ ب

(٧) المعصاة والولاية للكندى ص ٤١ ، وفى سنة ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م مات الخطائى من ولد

ريد بن الخطاب أحمى عمر بن الخطاب ، وكان من العلماء ( انظر الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٨١ )

بعده يُطالب بمثل هذه المطالبة ١ ما كان عليه فهو على ٢ ، وهو له على ٣ في كل سنة ٤ (١)  
أما اليوم فمجد أساء أنى نكر وعمر إلى حاب أساء الذى عليه السلام هم الدين يتألف منهم  
الأشراف بمصر ٥ ، ومجد السكرين منهم سوع خاص ٦ ، ويسمون الصديقيين ٧ ، يتولون مد  
أوائل القرب التاسع عشر ماصب روحية تعود عليهم بالخير الوير ٨ (٢) ومجد حوالى  
عام ٤٠٠ هـ ، أنا العطاريف عملاق بن عيذاق العثمانى يقيم سيساور ٩ ، وينتسب إلى عثمان بن  
عثمان ١٠ ، وكان كثير الشعر قليل الملح ١١ ، ومن ثقل حتى حب وقبح حتى ملح ١٢ ، يتعاطى  
العواش ١٣ ، ويقول الشعر ١٤ ، « فإذا قيل له كيف أصبحت أمها الشريف ؟ قال أصبحت  
حوالا فى السكك حلالا للكمك ١٥ ، على رأسه طائر كم معكم سرمداً ١٦ ، وعلى حنبه ولن  
تلهوا بدن أندا ١٧ (٣) »

هذه هى أهم السلالات الشريفة التى نشأت عن الدين ١٨ (٤) أما سلائل الأشراف  
الدين كانوا قبل الإسلام فقد احتفظوا بأنفسهم متمسكين أشد التمسك بما كان لهم ١٩ ، وذلك  
فى الأحرار الإقطاعية من جمال فارس وعاناتها وقلاعها ٢٠ ، يقول ابن حوقل « وفارس سنة  
حميلة وعادة فيما بينهم كالفصيلة ٢١ ، من تفصيل أهل البيوتات القديمة وإكرام أهل النعم الأولية ٢٢ ،  
وفى بيوت يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين على قديم أيامهم إلى أيامنا ٢٣ (٥) » ، والغالب  
على ملوكهم وخدمهم والمحالطين للسلطان من عمال الدواوين وغيرهم « استعمال المروءة فى  
أحوالهم ٢٤ وتحسين الموائد بالمطاعم وكثرة الطعام وإحصار الخوى والعواكه قبل الموائد ٢٥ ،  
والراحة عما يقبح به الحديث من الأحلاق الدنية ٢٦ ، وترك المحاضرة بالعواش ٢٧ ، والمبالغة فى  
تحسين دورهم ولباسهم وموائدهم ٢٨ ، والمبالغة فيما بينهم فى ذلك ٢٩ ، والآداب الطاهرة فيهم والعلم  
الشائع فى جميعهم ٣٠ (٦) »

(١) الفصاة للسكدي ص ٤١٦

(٢) M. Hartmann, MSOS 1909, II, S, 81

(٣) نبيمة الدهر ح ٤ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ . على أنه طهر بصراحة من شعر هذا الرجل الذى  
كان يلف بالشريف أنه كان مولى لرجل من موالى عثمان بن عثمان ( المترجم )

(٤) ومن الأشراف الذين أوجدتهم سلائل الأشراف الذين ناصروا الذى عليه السلام ٣١ ، وكان لهم  
نقيب سعداد وكانت تفرق عليهم المرات ٣٢ اطر السطم ص ١١٢ ، وكتاب الفرح بعد الشدة ح ٢ ص ٢٧ ،  
وكتاب الورداء ص ٣٢٢ — ٣٢٣

(٥) ابن حوقل ص ٢٧

(٦) نفس المصدر ص ٢٠٥ — ٢٠٦

أما سادة العهد الأموي فلم يستطع الاحتفاظ بمركزهم منهم إلا المهالبة ، سو المهلب بن  
أبي صخرة ، وكان مقرّهم بالبصرة حيث كانت لهم دور حسنة <sup>(١)</sup> وقد كان لأحدهم شأن  
في ثورة الروح الكبيرة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري <sup>(٢)</sup> ، ولعله كان يتوقع  
في ذلك العهد نهاية دولة بني العباس وتولي آخر من المهالبة ووزارة عصد الدولة حوالي  
منتصف القرن الرابع وقد أراد آل بني الشوارب القصاة أن يقيموا بينهم وبين الأمويين  
وبالتالي ملوك قرطبة والملتان <sup>(٣)</sup> بسا <sup>(٤)</sup> وكان للتبويين أو أساء الدولة الذين حاربوا لأهل  
الدولة العباسية وحاءوا معها من حراسان إلى بغداد — وكانوا من الأشراف المحاربين  
الأحرار — شأن قوي في القرن الثالث الهجري ، وكانوا يفتخرون بالصبر تحت طلال  
السيوف وبأنهم فرسان شجعان ، ومن قولهم « ولدا في أفسية ملوكنا وتحت أحسنة  
حلقاتنا ، فأحدنا نأداهم واحتديبا على مثالهم » <sup>(٥)</sup> ، ولكن حلّ محلهم في القرن الرابع فرسان  
من المماليك المعتقين أو غير المعتقين أصلهم من الترك والفرس ، بل يحد أيضاً أن آخر سلاسل  
الطاهريين ، الذين كان بينهم في القرن الثالث ثاني بيت في المملكة الإسلامية بعد بيت  
الخلافة ، يعالون في بلاط بخاري خدمة السامانيين ، وقد فقدوا ما كان لهم من مجد قديم ،  
ولكنهم لم يحرموا من الملكة الشعرية ، فكان منهم شاعر كان يخدم آل سامان حبراً  
ويهبوهم سرّاً ويطوى على بعض شديد لهم <sup>(٦)</sup> وكان هؤلاء السادة جميعاً يسمون في جميع  
بلاد الشمال حتى بلاد الترك بالكلمة الرومانية البورطية المطارقة <sup>(٧)</sup>

ويحدثنا ابن رسته في أواخر القرن الرابع أحاديث طريقة عن البيوت الكدرى في  
عصره فأما الأشاعنة فقد كان حد الأشعث بن معدى كرب عِلْجا من أهل فارس إسكافاً ،  
وكانت وردة بنت معدى كرب عمة الأشعث عند رحل من اليهود ، ولم تحلف ولداً ، فأني  
الأشعثُ عمر بن الخطاب يطلب ميراثها ، فقال له عمر لا ميراث لأهل ملتين ، وأما آل

(١) كتاب المرواة للثعالبي مخطوط برلين ص ١٢٩ ب

(٢) كتاب العيون ص ٦ ب — ١٧ (٣) المسعودي ح ١ ص ٣٧٧

(٤) تمجد في كتاب العيون (ص ١٧١) سعراً في ذلك

(٥) رسائل الخاطوط طبعه فان فلوتس ص ١٥ — ١٦

(٦) يذمه الدهر ح ٤ ص ٧ وما بعدها وص ١١ — ١٢

(٧) عند شاعر تركساني في البيضة ح ٤ ص ٨١ ، وهو الشاعر أبو الحسن المسم



المهلب بن أبي صبرة فقد كان أبو صبرة وارسيا محوسيا حائكا ، وأما آل خالد بن صفوان  
الأهتمين فإن الأهم ابن علفة كانت امرأة أكار أحدها قيس بن عاصم بن سنان وجماعة  
من بني منقر أعاروا على الخيرة ، وآل الحهم بن ندر بن حهم بن مسعود كان خدم مسعود  
عمداً لحبيب بن شهاب ، هرب منه ولحق محراسا وادعى أنه من بني سامة بن لؤي القرشي ،  
وكان آل أبي ذلف قوما من العتاديين من أهل الخيرة ، وكانوا جهادة بها ، فخرج حدث لهم  
يقال له إدريس فأثرى ، وانتاع داراً بالبصرة ، ثم خرج إلى الحبل ، فأبودلف من ولده ؛  
والربيع الحاحب ، وهو رأس أسرة من كبار العمال ، كان ابن ربي من حارية سوء كانت  
عند مولى لثمان بن عمار<sup>(١)</sup>

---

(١) الأعلام النبسة طعة لندن ١٨٩١ ص ٢٥ — ٢٦ .

## الفصل الحادي عشر

### الرقيق

كان اتخاذ الرقيق منتشرًا عند اليهود والنصارى والمسلمين على أن صمير الكنيسة كان يسحط على الرق بين حين وآخر، وكان رجالها يقولون إن المسيح لافرق عنده بين حرّ وعبد<sup>(١)</sup> وقد حاولت الكنيسة، على الأقل، أن تحارب تجارة الرقيق، ففرصت على من يشتعل بها عقوبة الحرمان<sup>(٢)</sup> وقد استلقت نظر المسلمين أن اليهود والنصارى لا يجوز لهم أن يتمتعوا بأمائهم<sup>(٣)</sup>، وذلك لأن القانون المسيحي في الشرق كان يعتبر اقتراب الرجل من أمته رتبًا عقابًا المبع من البيعة، ويحق للروحة في هذه الحالة أن تباع الحارية وتقضيها عن البيت، وإذا حملت الحارية من سيدها المسيحي طفلًا فإنه ينشأ رقيقًا « يحمل عار والده الراي<sup>(٤)</sup> »

ويحكى أن الخليفة المصور، بعد أن استدعى الطبيب حورحيس من حبريل ليعالجه من مرضه وشفى على يديه، أرسل إليه ثلاثًا من الحوارى الروميات الحسنات مع ثلاثة آلاف دينار، فأخذ المال وردَّ الحوارى، فأله المصور عن ذلك فقال « هؤلاء لا يكونون معى في بيت واحد، لأننا نحن معشر النصارى لا نزوج بأكثر من امرأة واحدة، وما دامت المرأة في الحياة لا تأخذ غيرها »، فحس موقعه من الخليفة<sup>(٥)</sup>

---

(١) انظر مثلاً Sachau, Syr Rechtsb 2, S 161 ، وكذلك محمد المفكر الإثوني ررعة يعقوب (حوالي سنة ١٦ م) في تقديمه للإسلام والعصاوية عن الإسلام، لأنه بإفراجه تجارة الرقيق ألقى المساواة والاحوة بين الإنسان، وهم جميعاً يسبون الله أنا لهم (انظر Philosophi abessin, ed Littmann S II من الترجمة)

(٢) Syr Rechtsb 2, S 109, 147, 165 ، على أنه يوحد بين فقهاء المسلمين حديث يروى عن

النبي وهو سر الناس من باع الناس (كتاب العلل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٧ من ٦ ٢ ب) (٣) كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسى وهو منسب لأنى ريد اللحي ح ٤ من ٣٩ من طبعة كليمان هوار مارس

(٤) Syr Rechtsb 2, S 161 f

(٥) Elias Nisibenus S 179 (حوالي عام ٤٠ هـ) في مجموعته، Corp Scrip or Chr

طقات الأطباء لان أنى أصيعة ح ١ من ١٢٥

أما في الإسلام فإن الطفل الذي يولد للمسلم من أمته يكون حُرّاً<sup>(١)</sup> ، ولا يجوز للرجل أن يبيع الأمة أم الولد ، ثم هي تصح حرة بعد موت زوجها ، ولا يجوز في الشرع الإسلامي أن يشترك رجلان في أمة في وقت واحد ، وقد حدث مرة أن رجلين اشتريا أمة فوطئاهما ، فأمر الخليفة عقابهما<sup>(٢)</sup>

وعلى حين أن القوانين في الدولة الرومانية الموريطانية كانت تحرم على غير النصارى أن يتحد رقيقاً من النصارى<sup>(٣)</sup> ، وأن الكنيسة المسيحية كانت في بلاد الإسلام — كما تقدم — تعاقب بالحرمان من بيع الرقيق النصارى لغير النصارى ، فإن الشريعة الإسلامية لم تحرم على اليهود والنصارى اتحاد رقيق من المسلمين<sup>(٤)</sup>

وفي القرن الرابع الهجري كانت مصر وحبوب جزيرة العرب وشمال إفريقيا أكثر أسواق الرقيق الأسود ، وكانت قوافل هذه البلاد تحلب الذهب والعبيد من الحبوب ، وكان الثمن الحاربي للعبد حوالي منتصف القرن الثاني الهجري مائتي درهم<sup>(٥)</sup> وقد اشترى كافر صاحب مصر ، وكان عبداً حبشياً ، في سنة ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م ثمانية عشر ديناراً ، كما يقال<sup>(٦)</sup> ، وهذا الثمن قليل بالنسبة لكافر لأنه كان حصياً وكان يدفع في ثمن الرمحى الحيد بمائة ما بين خمسة وعشرين وثلاثين ديناراً<sup>(٧)</sup> ولما اشترى الوزير صاحب بن عباد عبداً نوياً بأربعمائة دينار استكثر الناس هذا الثمن<sup>(٨)</sup> وقد سيمت حارية « حميلة حلواء » حوالي عام ٣٠٠ هـ بمائة وخمسين ديناراً<sup>(٩)</sup> ويقول الشريف الإدريسي<sup>(١٠)</sup> إن في ساء النوبة حمالاً فائقاً ، وإياه لا أحسن للجماع منهن لطيب متعتهن وعباسة حسنهن ، وإن الحارية منهن

(١) الولد الأول على الأقل ، واحلف الفقهاء فيما بعده ، انظر رأى الخليفة عد، d' Ohsson, VI, 11—12 S ، ورأى الشافعية عد 174 S . Sachau, Muham Recht.

(٢) السكندى ص ٣٣٨ (٣) Cod Just, C 1, tit 9, 10

(٤) Sachau, Muham Recht, S 173

(٥) الأعاني ح ٣ ص ٥٥

(٦) F Wustenfeld, Statthalter von Aegypten IV, S 47

(٧) عجائب الهند ص ٥٢ ، وكان يدفع مثل هذا المبلغ في نورطة في ذلك العهد للعبد العادي انظر

Vogt, Basile, S 383

(٨) ابن الوردي ص ٤٦ (٩) مطالع الدور للعرولى ح ١ ص ١٩٦

(١٠) طبعة دورى ، لندن ١٨٦٤ ص ١٣



ليبلغ ثمنها ثلثمائة دينار وقد حُلب كثيرات من الرمح إلى بلاد العراق ، وهن معروفات بكثرة السل وقد عُلِّل الحاحط عدم علّة أولاد الرمح في العراق تكون الرمحى والرمحية قليلا ما يلدان من العراث ، وأن الرمحية لا تكاد تنشط لغير الرمحى ، وهى من الرمحى أسرع لقاحاً منها من الأبيص ؛ فكأن الحاحط يرى أن الرمحيات يصيبهن العقم في البلاد الشمالية<sup>(١)</sup> وكان يُستعمل عيد البيوت السود نواحين كما هو الحال اليوم<sup>(٢)</sup>

وإد كان المجتمع يعنى بالشعر الحيد وبالموسيقى الحميلة أكثر مما يعنى بغيرها من ألوان الفن عظمت فيه قيمة العلماء والحوارى الموهوبين المتعلمين وكان في عهد الرشيد سعداد معني مشهور قد يتفق عنده وحوود ثمانين حارية لإخوانه يودعونهم عنده لتعليمهم فن العناء<sup>(٣)</sup> وكانت تُسترى الحارية من هؤلاء بألف دينار إلى ألفين<sup>(٤)</sup> وقد يحدث أن يكون بيت الدحاس مكاناً يكثر عشائه الشعراء<sup>(٥)</sup> وكان معظم القيان اللأني يحترق العناء سعداد في سنة ٣٠٦ هـ حوارى ، وقليل منهن أحرار<sup>(٦)</sup> وكان للمشهورات من حذاق المعينات أثمان كبيرة ، كما تقدرهن بحسب اليوم ، فحوالى عام ٣٢٥ هـ اشترى ابن رائق أمير العراق حارية مولدة كانت لاسه ابن حمدون القديم ، وكانت سمراء موصوفة بحسن العناء ، فاشتراها ابن رائق من موالها ثلاثة عشر ألف دينار ، وأعطى من دله عليها ألف دينار<sup>(٧)</sup> ، ويحكى الصولى<sup>(٨)</sup> أن ابن رائق اشتراها بأربعة عشر ألف دينار ، فاستعظم الناس ذلك

وكان ثمن العيد البيص يريد على ما تقدم لأهم أرستوقراطيو العيد ، فكانت تؤخذ الحارية الحساء من غير صاعه على حاملها بألف دينار وأكثر<sup>(٩)</sup> وكانت لأنى بكر الحوارمى حارية ، فطلت عشرة آلاف درهم فلم يَحْذُها<sup>(١٠)</sup> وقد ارتفعت أثمان الخدم البيص

(١) رسائل الحاحط طبعه فان فلوتس ص ٧٧ — ٧٨

(٢) انظر ما حكاه رحالة صيني في القرن الثالث عشر الميلادي عند Fr Hirth, Die Lander des

Islam nach Chinesischen Quellen S 55

(٣) الأغاني ح ٥ ص ٦

(٤) انظر Michael Syrus S 514 ، وهو يخلط إبراهيم المهدي بإبراهيم الموصلى

(٥) الأغاني ح ٢ ص ٤٣

(٦) أبو القاسم طبعه متر ص ٧٨ وما بعدها (٧) المسظم ص ١٨٨

(٨) الأوراق للصولى ص ١٤٢ من مخطوط باريس

(٩) الاصطخرى ص ٤٥ (١) النيمة ح ٤ ص ١٥١

ارتفاعاً خاصاً حينما حرمت الثعور العربية ، وانقطع عيد الأندلس في القرن الرابع ، وكاد يصب المصدر الوحيد الباقي للرقيق ، وهو بورطة وأرمينية<sup>(١)</sup> ومما زاد في ذلك أن أهل المملكة الإسلامية من المسلمين وأهل الدمة لم يكن يحور أن يُسترقوا بوجه من الوحوه القابوية ، ولم يكن الإحرام سبباً يكفي لحرامهم من حريتهم ، كما هو الحال عند غير المسلمين وكذلك كان يحرم على الآباء المسلمين أن يبيعوا أولادهم ، كما كان الحال عند اليهود مثلاً ، فإبهم كانوا ، إذا احتاحوا ، باعوا أولادهم الصغار غير البالغين<sup>(٢)</sup> وقد حدثت فتنة في مصر في القرن الثالث الهجري ، فقُصص على بعض البصريين المصريين ، وبيعوا في دمشق كما يباع الرقيق ، فأثار هذا العمل أكبر السخط ، لأنه فعل يخالف الشريعة<sup>(٣)</sup> على أنه كان يوحد بين المسلمين وبعض من شرار الفرق يعتبرون أنفسهم المسلمين ، ويعتبرون جميع من حالهم أهلاً للحرمان من الحقوق الشرعية ، ومن هذه الفرق الصالة فرقة القرامطة الذين عظم شأنهم في القرن الرابع ، فقد أحلوا استرقاق من يقع في أيديهم من الأسرى ، وكان ذلك أمراً شائعاً في أيامهم ، فسرعان ما صار الكثيرون من الآمين المسلمين من أهل الشام وحريرة العرب والعراق أرفاء في أيديهم ، وقد اعترض القرامطة قافلة الحاج عام ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م ، فأسروا من الرجال ألعين ، ومن النساء نحو خمسمائة وساروا بهم إلى نحر ، وكان الأرهري اللعوى الأديب المتوفى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م من حملة الأسرى ، ووقع في سبهم قوم من العرب الذين نشأوا بالبادية يتنعمون مساقط العيث ، ويتكلمون مطاعهم السدوية ، ولا يكاد يكون في مطقهم لحن ، وقد بقي في أسرهم دهرأ طويلاً واستفاد من محاطباتهم ومحاوره بعضهم بعضاً ألقاطاً حمة ، ووادر كثيرة أورد أ كثرها في كتابه<sup>(٤)</sup>

أما في سائر المملكة الإسلامية فقد اقتصر المسلمون في العبيد البيض على الترك وعلى

(١) المقدسي ص ٢٤٢

(٢) Krauss, Talmudische Archaologie, وكتاب البدء والتاريخ ح ٤ ص ٣٩ ، على أن

بيع الصرا كسه المسلمين بأنهم — وهو العمل الذي لا يزال جارياً إلى اليوم — يخالف الشريعة الإسلامية وهو محظور بحكم الشرع

(٣) انظر الفصل الخامس باليهود والبصريين

(٤) المسطوع ص ٢٧ ب — ١٢٨ ، والأرهري هو الذي حكى ذلك عن نفسه ، انظر الإرشاد

الصقالبة ، وهم الجنس الذي لا يعد معيه ، والذي اشتق منه الاسم الذي أطلق على الرقيق في أوروبا . وكان الصقالبة يقدّمون على الترك ، حتى قال الخوارزمي « ويستخدم التركي عند عيبة الصقلي<sup>(١)</sup> » وأكبر ما كان يجلب من بلغار ، وهي قصة البلغار الذين يقطعون حول نهر الفلحا ، رقيق كانوا يؤخذون من هناك إلى إقليم جيحون<sup>(٢)</sup> وكانت سمرقند أكبر سوق لهم ، وهي مشهورة بأن حير رقيق ما وراء النهر ما كان من تربيتها . وكان في أهل سمرقند حال<sup>(٣)</sup> ، وكان لهم حسنُ تعهد لأنفسهم مما رادوا به على أكثر أهل حراسان<sup>(٤)</sup> ، وكانت بلادهم لذلك مشهورة بأنها مركز للتربية والتهذيب ، وكان أهلها يتعهدون ذلك صاعداً لهم يعيشون فيها كما هو الحال اليوم في حيف ولوران

أما الطريق الثاني الذي كان يأتي منه رقيق الصقالبة ، فقد كان يحترق الماييا إلى الأندلس وإلى الموانئ البحرية بإيطاليا وفرنسا<sup>(٥)</sup> . وكان أغلب تجار الرقيق في أوروبا من اليهود ، وكان الرقيق يُجلب كله تقريباً من الشرق الأوروبي ، كما هو الحال اليوم في تجارة النساء<sup>(٦)</sup> . ومن الخلل أن استقرار حالات يهودية في مدن مقاطعة سكسويا الشرقية مثل مدينة محديسورج ومرريسورج كان راجعاً إلى تجارة الرقيق<sup>(٧)</sup> . وكان اليهود في أثناء نقلهم للرقيق يدفعون صرائب ثقيلة ، وذلك في الماييا على الأقل ، فكان قانون الجمارك في مدينة كولستر مثلاً يقضي بأن يُدفع عن كل رأس من الرقيق أربعة دناير<sup>(٨)</sup> . وكان أسقف

(٢) المقدسي ص ٣٢٥

(١) الديمة ج ٤ ص ١١٦

(٣) ان حول ص ٣٦٨

(٤) ان تحريم الدوح في مدنة السدية عام ٩٦٠ م نقل الصيد على المراكب كان خاصاً بالصيد المسيحيين وحدهم ( انظر Schaube, Handelsgeschichte der rom Volker, S 23 ) وكانت المعاهدة التي عهدت بين السدية ومن الإمبراطور أوتوالد أكبر عام ٩٦٧ م تحظر على المسحين الذين في أرض الإمبراطور وحدهم أن يدعوا أو يشتروا العبد ( نفس المصدر ص ٥ ) وكانت تجارة الرقيق في مدنة حوه ، بعد ذلك زمن طويل ، تجارة طاهرة ( نفس المصدر ص ٤ )

(٥) ذكر الأسقف أحوارد ، أسقف مدنة لون ( Agobard of Lyon ) في كتابه Insolentia Judaeorum أملة على أن بعض اليهود كانوا يسرقون أسماء البطاركة الفريسيين أو يحصلون عليهم سراً من البطاركة أنفسهم وينعونهم للمسلمين في أسايا ( Opera ed Baluzius, Bd 1, S 65 f ) وقد افست هذا من كتاب Graf Baudissin, Eulogius und Alvar, Leipzig, 1872, S 77

(٦) Caro, Wirtschaftsgeschichte der Juden, I, S 191

(٧) نفس المصدر ص ١٩٢



مدينة حور Chur معرض على الرأس ديارين يُدفعان في حرك مدينة فالنشتات (١)  
Wallenstadt

والطريق الثالث لتجارة الرقيق يسير من بلاد الرقيق في العرب — وكانت هذه البلاد  
سبب حروبها مع الألمان كثيرة الإنتاج لهذه المصاغة الإنسانية — ويتجه نحو الشرق  
رأساً ماراً بمدينة راع و بولوبيا وروسيا وهذا هو الطريق الذي اتبعه الرقي تاحيا في القرن  
السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) ، وكانت مدينة راع هي أول هذا الطريق لأنها  
كانت مركزاً لتجارة الرقيق في القرن العاشر الميلادي وقد اصطر القديس أدالبرت  
Adalbert بمدينة راع سنة ٩٨٩ م لاعتزال منصبه الأسقي ، لأنه لم يستطع أن يعتق جميع  
المسيحيين الذين اشتراهم تاجر رقيق يهودي (٢)

وكان ثم في المدن سوق للرقيق يُوكل الإشراف عليه لعامل خاص به وقد انتهى  
إليها وصف لسوق الرقيق التي سبت في مدينة سامراً في القرن الثالث الهجري ، فهي سوق  
في مربعة ، فيها طرق متشعبة ، وفيها الحمر والعرف والحوايت للرقيق ، وكان بيع الرقيق  
الحيد في السوق العام بمثابة عقوبة تحط من قدره (٣) ، والأولى أن يُباع في منزل خاص  
أو بواسطة تاجر كبير ، وكان تاجر الرقيق موضع تشييع ، مثله مثل تاجر الخيل في أيامنا ،  
وكان محمد بن الأشعث صاحب شرطة مصر يصعد المنبر ويشتم أحد القواد فيقول  
« الميخاس الكذاب » (٤) يقول ابن عبدون في رسالة له في الرقيق « فكم من سمراء  
كمدة بيعت بصفراء مدهمة ، وممسوح العجر ثقييل الروادف ، ويطين بمحدول الحشا ،  
وأبحر الهم بطيب الكهة ، وكم من مرة جعلوا العين الررقاء كحلاء ، وحمروا الحدود المصفرة ،  
وسموا الوحوه المقعقة ، وكبروا العقاح الهريفة ، وأعدموا الحدود شعر اللحا ، وأكسوا  
الشعور الشقر حالك السواد ، وحقّدوا الشعور السطة ، وبيّصوا الوحوه المسمرّة ، ودملحوا  
السيقان المعركة ، ورطّلوا الشعور المرّطة ، وأدهوا آثار الوشم والحدري والشمس والحكة »  
ولذلك يجب على الإنسان أن يكون على حذر من شراء الرقيق في المواسم ، ففي مثل هذه

(١) Schaube, Handelsgesch der rom Volker, S 93

(٢) Caro, 1, 191, f

(٣) حراوية يعقوب ص ٢٥٩

(٤) الولاة للسكندى ص ٩ — ١١

الأسواق تتم للحاسين الخيل ، حتى يبيعوا المريض بالصحيح والعلام بالحارية ، « سمعنا  
بعض الحاسين يقول ربع درهم حياً يريد ثمن الحارية مائة درهم قصة »

ومن عادة الحاسين أن يطولوا الشعور بأن يصلوا في طرفها من حسنها ، وأن يربلوا  
روائح الأنف بالسعوط بدهن السفسح واليافور وبخوها ، وأن يخلوا الأسنان بالسواك بالأشنان  
والسكر وسحق الصبى أو الفهم أو الملح المدقوق ، وكانوا يربلون الشعث في أصول الأطفار  
بعسلها بالحل والعسل والمرتك أو دهن الورد واللور المر ومن وصايا الحاسين للحوارى أن  
يتبرحن للمشترى تارة ويحتفين منه أخرى ، فإن هذا مال لك للقلوب ، وأن يدارين المشايخ  
والناصري الطباع ويستملهم ، ويتحنن الشباب ، ويمتنع عليهم ليتمكن من قلوبهم  
وكان الحواري يخصص حواصن بالرامك ، وأطرافهن إن كانت الحارية بيضاء بالحصاب  
الأحمر ، وإن كانت صفراء بالأسود ، « ويجرون الصاعقة بحرى الطبيعة في كشف الصد  
بالصد »

هذه البصوص من رسالة لاس بطلان الطبيب البصري المشهور الذى عاش في النصف  
الأول من القرن الخامس الهجرى<sup>(١)</sup> ويحد في هذه الرسالة إلى جانب الناحية النظرية  
كثيراً من المحارب القديمة النافعة في شراء الرقيق « فالهديات لمن حسن القوام ، وسمة  
الألوان ، وخط وافر من الجمال ، مع صبرة وصفاء بشرة وطيب نكهة ولبين نعمة ، لكن  
الشيحوخة تسرع إليهن وهن يصلحن للولد ، ورحالهم لحط النفوس والأموال ، وعمل  
الصنائع الدقيقة غير أن البرلات تسرع إليهم والقندهاريات في معنى الهديات ، وهن  
فصيلة على كل النساء ، فإن الثيب مهن تعود كالسكر والسدييات يفردون بدقة الحضور  
وطول الشعور ، والمدنيات سمر الألوان معتدلات القوام ، قد اجتمع فيهن حلاوة القول ونعمة  
الحسم ، وملاحة دل وحسن شكل وشر ، لا عيرة فيهن على الرجال ، قنوعات بالقليل ،  
لا يعصن ولا يصحن ، ويصلحن للقيان والمسكيات حشاث مؤثثات لبيات الأرماع  
ألوانهن البياض المشرب سمرة ، قدودهن حسنة ، وأحسامهن ملتفة ، وثعورهن نقية نادرة

(١) رسالة جامعة لمؤلفها في شرى الرقيق وتقليب العبد تأليف الشيخ أنى الحسن المختار بن  
الحسن بن عدون العدادى المتطبب من مخطوط رقم ٩٧٩ ، مكتبة برلين

وشعورهن حدة ، وعبوتهن مراص فاترة ، والطائفيات سمر مدهيات محدولات ، أحف  
 خلق الله أرواحا ، وأحسهم فكاهة ومراحا ؛ لسر نأهات أولاد ، يكسلن في الحل  
 ويهلكن عد الولادة والبريات مطوعات على الطاعة شيطات للخدمة ويصلحن  
 للتوليد ، لأنهن أحدث شيء على ولد ، ويقول أبو عثمان وهو من سماسة هذا الشأن إذا  
 اجتمع للبرية مع حودة الخس أن تُخلَب ، وهي بنت تسع حجج ، ثم كانت بالمدينة  
 ثلاث حجج ، ومكة ثلاث حجج ، ثم جاءت إلى العراق اسنة خمس عشرة ، فتأدت  
 بالعراق ، حَمَت إلى حودة الخس شكل المدييات وحث المكيات وآداب العراقيات ،  
 واستحقت أن تُحى في الحفون وتوضع على العيون والريحيات مساويهن كثيرة ، وكلما  
 راد سواهن قسحت صورهن وتحدت أسامهن ، وقل الانتفاع بهن ، وحيث المصرية  
 مهن ، والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب ، وليس في حلقهن المم ، والرقص  
 والإيقاع فطرة لهن<sup>(١)</sup> وطبع فيهن ، ولعمومة ألعاطهن عُدل من إلى الرمر والرقص ،  
 ويقال لو وقع الرحي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع وهم أتى الناس شعوراً  
 لكثرة الريق ، وكثرة الريق لفساد المصوم ، وفيهن حَلَد على الكد ، والرحي إذا شمع  
 فُصَّ العذاب عليه صنفاً فإنه لا يتألم ، وليس فيهن متعة لصامهن وحشونة أحسامهن ،  
 أما الخشيات فالغالب عليهن نعمة الأحسام وإيها وضعها ، يتعاهدن السل والدق ،  
 لا يصلحن للعناء ولا للرقص ، دقاق لا يوافقهن غير اللاد التي نشأ فيها ، وفيهن حيرية  
 وسلاسة انقياد ، يصلحن للآثان على النفوس ؛ يحصن قوة النفوس وضعف الأحسام ،  
 كما يحصن النوبة قوة الأحسام وضعف النفوس ، قصار الأعمار لسوء الهضم والمحاويات  
 مدهيات الألوان ، حسبات الوحوه ، ملن الأحسام ، ناعمات النشرة ، حوارى متعة ، إن  
 خلست الواحدة صغيرة وسلمت من أن يُسَكَل بها — لأنهن يُقَوَّرن ويُمسح بالموسى أعلى  
 فروجهن حتى يسدو العظم فيصرن شهرة من الشهر والشحاعة والسرقة في رجال النجاة  
 ( بلادهم بين الخشنة والنوبة ) طمع وعريرة ، ولهذا لا يؤمنون على مال ، ولا يصلحون أن

(١) « الرحي دائم الرقص ، وكما أن الألماني يشعر رعة شديدة للعناء لا يستطيع اللعب عليها من  
 قطع شوطاً من عمله النومي ، فكذلك الرحي يرفض متى استطاع » (K Weule, Negerleben in Ostafrika, S 84)



يكونوا حُرًّا أنا والنوبيات من حملة أحساس السودان ، دوات ترف ولطف ، وأبداهن ياسسة مع لين بشرة ، وهواء مصر يوافقهن ، لأن ماء النيل شرهن في بلادهن ، وإذا انتقلن عن غير مصر تسلطت عليهن العللُ الدموية والأمراض الحادة والتركيكات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ، وعيوبهن مع صغرها دات حلاوة<sup>(١)</sup> ، وقدودهن ما بين الرنع والقصير ، والطول فيهن قليل ، وهن كور الأولاد ومعادن السسل ، قل ما يتفق في أولادهن وحش ولا ردى التركيب والروميات بيض شقر ، سباط الشعور ، ررق العيون عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناجحة ووفاء وأمانة ، يصلحن للحرر لصطهن وقلة سماحتهن ، ولا يحلو أن يكن يألن صنائع دقيقة أما الأرميات فالملاحة للأرمن لولا ما حصوا به من وحشة الأرحل مع صحة بنية وتمدة أشر ، والعفة فيهن قليلة أو معقودة ، والسرقة فيهن فاشية وقل ما يوحد فيهن محل ، وفيهن عِلَظٌ طمع ولعط ، وليست النطافة في لعتن ، وهن عبيد كد وخدمة ، متى تركت العد ساعة يعيرن تل لم يذعه حاطره إلى خير ، لا يصلحون إلا على العصا والمحافة ، والواحد مهم إذا رأته كسلان فليس ذلك عن عجز قوة ، بل دواب والعصا ، وكى مع صرته واقتياده لما تريده على حذر ، فإن هذا الحسن غير مأمون عند الرضا فصلا عن العصب وسائهم لا يصلحن لمتعة ، وحملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان كما أن الريح أشر السودان وما أشبه بعضهم ببعض في قوة الأحساد وكثرة الفساد وعلط الأكداد<sup>(٢)</sup>

وقد حرت العادة مد العصر الأول للإسلام بالآ يسمى العيد عيداً ، بل يسمى العد فتى والأمة فتاة ، وقد نسب هذا — كما نسب كثير غيره — إلى أمر النبى عليه السلام وكان من التقوى وشرف النفس ألا يصرب الرجل عنده ، ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « شر الناس من أكل وحده ومع رفده وصرب عنده » وهذا شعور

(١) قال أحد شعراء القرن الرابع في علام تركى

قد أكثر الناس في الصواب وقد قالوا جميعاً في الأعيان الحل  
وعين مولاي مثل موعده صبيحة عن صراود الكحل

(بيمه الدهر ح ٤ ص ٨٢)

(٢) الرسالة المقدمة ص ١٣٦ ب — ١١٣٧ ، ١١٤٥ — ١٥١ ب

نبيل عتر عنه الليث السمرقندي (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م) روايته هذا الحديث<sup>(١)</sup>  
وفي القرن الرابع الهجري اتحد البعض من قوله تعالى «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» نقداً يوحى به  
لمن يصر بعبده ، وكذلك قال الشاعر

إِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ فَصْلًا      إِذَا ذُكِرْتَ وَمَحْدَا  
فَكُنْ لِعَبْدِكَ حِلًّا      وَكُنْ لِحِلِّكَ عَسْدَا<sup>(٢)</sup>

ولذلك جاء في وصف رجل من أشرف اليمين وذكر حميل حصاله (حوالي عام ٥٠٠ هـ  
— ١١٠٦ م) أنه لم يكن يصر بملوكاً أبداً<sup>(٣)</sup> وقد حدث في أول عهد الأمويين أن  
امرأة من حمير كانت تمصر حذعت أمة لها ، فقضى عبد الرحمن بن حنيفة فاصى مصر  
بعقها ، وقضى بولائها للمسلمين يعقلون عنها ويرثونها<sup>(٤)</sup>

وكان قانون الكنيسة المسيحية في الشرق يهدد بقوة الحرمان من يكره حارثته على  
المعاش ، وذلك بأن يدفعها إليه مباشرة أو بأن يتمتع عن إعالتها<sup>(٥)</sup> وكانت دور العبايا في  
بلاد الإسلام قوامها الحوارى المملوكات ؛ وتدل على هذا حكايات كثيرة ، ولكن كتب  
الفقه لم تعرض لهذه المسألة ، لأن الفقهاء يعتبرون الربا محرماً حتماً ، أما رجال الكنيسة  
فقد احتفظوا في هذه المسألة بشيء من الصراحة القديمة على أنه قد جاء في القرآن الحصر  
على ترويح الأيامي والإماء ، قال تعالى « وَأَسْكِنُوا الْيَتَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ  
وَأِمَائِكُمْ »<sup>(٦)</sup>

وكان في الإسلام مبدأ في مصلحة الرقيق ؛ وذلك أن الواحد منهم كان يستطيع أن  
يشترى حريته بدفع قدر من المال ، وقد كان للعبد أو الخارية الحق في أن يشتغل مستقلاً  
بالعمل الذي يريده ، فيحدثنا السعوى مثلاً عن عبد حيّاط كان عليه لمولاه صريفة

(١) ستان العارفين على هامش سيرة العارفين للسمرقندي طبعه عمادى ص ٢٢٢

(٢) كتب هديين اليمين رجل لصدوق له حصره يصر عبداً له فبعضه فلم يسمع ، وهو يدكره بحق  
الصدوق في عودية الطاعة وأخوة العبد في حق الإيمان رسالة في الصداقة للوحيدى ص ١٦٨ — ١٦٩

(٣) السكت العصرية لمبارة النبي طعة دربرع ١٨٩٧ ص ٩

(٤) القصة للسكدي ص ٣١٧ ، ٣١٨

(٦) سورة البورآية ٣٣

(٥) Sachau MSOS, X, 2, S 93

قدرها درهماً يدفعها له كل يوم ويتصرف بعدها في حوائجها بما ينقي<sup>(١)</sup>. وكذلك كان من العادات المحمودّة أن يوصي الإنسان قبل مماته بعتق بعض العبيد الذين يملكهم وفي القرن الثالث الهجري أوصى الخليفة المعتصم عند موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه<sup>(٢)</sup> وقد أحد هذا الخليفة أحد حصون أرمينية عبوة بعد معركة دموية فأمر ألا يُفترق بين أعضائه العائلات<sup>(٣)</sup> التي وقعت في الأسر

وقد تمتع بعض الخواري وطهرن بمطهر النعمة ، فيحكى عن حارية لأحد كبار العمال الأعياء بمصر أنها كانت تجلس في الشباك ، وحولها الخواري قائمات بالمدتات<sup>(٤)</sup> ويحكى أن ابن سمعون الواعظ ذكر الخلاء وهو على كرسيه في ليلة النصف من رمضان ، وكان بين الحاضرين حارية لتاجر مشهور بكثرة المال ، فلما أمسى أتاه علام ومعه خمسة حشكناكة في داخل كل منها دينار ، فحمل الدناير نفسه إلى التاجر ، فقال له التاجر إن الدناير وصعت محصرته و برصاه<sup>(٥)</sup>

وكان بعض العلماء يملكون قلوب سادتهم ، وذلك لميل الشرق إلى من يجمع بين الجمال والفضيلة ، وعندما قصيدة للشاعر سعيد بن هاشم الخالدي في وصف علام له<sup>(٦)</sup>

ما هو عهدٌ لكه ولد      حوَّليه المهيمنُ الصمدُ  
شدةً أرى بحس خدمته      فهو يدي والذراعُ والقصدُ  
صغيرٌ سنٍ كبيرٌ مفعلة      تمارح الصعفُ فيه والجلدُ  
في سن بدر الدحي وطلعت      مثله يُصططى ويُعتمدُ  
ممشق الطرف كحله كحل      معرل الحيد حليته الحيدُ  
وورد حذيه والشقائق والنجاح      والخللار متصد  
رياض حس رواهر أبدأ      فهو ماء العيم مطرد

(٢) Michael Syrus, S 543

(١) مهراج الذهب ج ٦ ص ٣٤٤ .

(٤) العرب لابن سعيد ص ١٥ .

(٣) Michael Syrus, S 537

(٥) المسطلم ص ١٤٢ ب

(٦) معاهد التنصص لعد الرحيم العامي مخطوط برلين رقم ٢٢٢٤ ص ١٥ ب



وعص نارب إذا بدا وإذا شدا فقري نارة عرد  
 مبارك الوحه قد حطيت به نالي رحي وعيشتي رعد  
 أنسى ولهوى وكل ما رتي محتج لي فيه ومعد  
 مسامري إن دحي الطلام في مه حديث كانه الشهد  
 طريف مرح مليح نادرة حوهر حسن شراره يقد  
 حارن ما في داري وحاطه فليس شيء لدى يعتقد  
 ومفق مشفق إذا أنا أسرفت وبذرت فهو مقتصد  
 ويعرف الشعر مثل معرفتي وهو على أن يريد مجتهد  
 وصيرني القريض ورأى دناير المعاني الرقاق مستعد  
 يصون كتي فكلها حس يطوي ثياني فكلها حدد  
 وأنصر الناس بالطيح فكل المسك القلايا العسر الثرد  
 وهو يدير المدام إن حلوت به عروس يم نقاهها الرد  
 تمنح كأمي يد أنامها نحل من ليها وتعتقد  
 وواحد بي من الحسة والرأ فة أصعاف ما به أحد  
 إذا انتسمت فهو متبحر وإن تمررت فهو مرتعد  
 دا بعض أوصافه وقد بقيت له صفات لم يحورها أحد

وقد صار هذا العبد لتوفر جميع الحصال الحسة فيه مثالا مدكوراً بين الأدباء<sup>(١)</sup>  
 وقد ذكر الشاعر كشاحم المتوفى عام ٣٣٠ هـ - ٩٤١ م علامه شراً بما يؤثر في القارى<sup>(٢)</sup>

أي حراك عال منك السكوب وباركيس أطفأتها الموب  
 ياشرب اب تود فكل امرئ مثل ماصرت إليه رهين  
 من لدواة ككت تعنى بها عناية تعجر عهسا القيون  
 أم من لكتب ككت في طيها أسرع مما تمتلي في الحفون

(١) عمده المنسوب للثعالى ZDMG, VI S 54 ، وما يرى أنه كان سمي رشاشا

(٢) ديوان كشاحم ص ١٨١ وما بعدها

يطوى الطوامير بلا كلفة      واللقى فى الإلصاق لا يستبين  
طاهى قدور طيّبت كفه      مذاقها فالعث فيها سمين  
يا ناصحى إدا ليس لى ناصح      ويا أميى إدا يحوب الأمين

وقد أرسل أبو العلاء رسالة لصديق له فأهدى السلام فيه لعلامة مقل وقال « هو  
وإن اسودّت برده آثرُ عدما من أبيص لا تصدُق مودته<sup>(١)</sup> »

وكان أرقى العيد مكانة هم حملة السلاح مهم ، وذلك لأن مهم من كانوا قواداً كباراً  
مثل مؤسس وحوهر ، بل مهم من كان حاكماً مثل كافور بمصر وسكتكين فى بلاد الأفعان  
ومند عهد العباسيين الأولين محد عدداً تركيا يتولى إمارة مصر ، وهو يحيى بن داود الحرسي  
الذى ولى الإمارة من سنة ١٦٢ — ١٦٤ هـ وكان أبو جعفر المصور إداد كره قال  
« هو رحل يحافى ولا يحاف الله<sup>(٢)</sup> » ، هذا إدا صرفنا النظر عن بعض العلماء الذين كان  
لهم سلطان عظيم على ساداتهم ، لأن هؤلاء كانوا يقتسومهم للاستهتار بهم

وكانت أفكار ذلك العهد شبيهة بما كان فى فرنسا حيث محد الأرقاء المعتقين قد ملعوا  
أكبر مكان من الرفعة ، وأطاعهم الأحرار ، وكان الكثيرون ممن تولوا القيادة فى  
الحيوش وحُكم الولايات وحراسة الملك عبيداً من قتل<sup>(٣)</sup> ، ولكن لم يسبح المعتقون فى  
أن يتفوقوا على الأحرار فى الشرق مدة طويلة إلا نادراً ، وذلك محلاف ما محده فى أوروبا  
بالسنة لم كانوا فى مركز الموالى ، ويرجع ذلك إلى أن نقاء نظام الرق فى الشرق حال دون  
روال التمايز بين الأحرار والعبيد

ولكن الرأى العام كان محجماً بحقوق الأرقاء فى الحملة ، ومن الأمثال السائرة أن العد  
إدا حاع نام وإدا شمع رنى ، ويقول المتنى<sup>(٤)</sup>

فلا ترخّ الخير عند امرئ      مرّت يد الحاس فى رأسه

وكذلك يقول هوميروس « أنظر ، إن ريوس ، مدتر هذا العالم ، يسلب الرجل

(١) رسائل أنى العلاء طبعه مرحلوب من ٤١

(٢) الكندى من ١٢٣

(٣) Chr Meyer, Kulturgeschichtliche Studien, S 91

(٤) الديوان طعة مصر ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٣ م من ٣٧٩

الذى طلعت عليه شمسُ العبودية نصفَ رحولته<sup>(١)</sup>»

وعلى الرغم من كل الظروف الملائمة والصعوبات القابلية والمكانة الحسنة التي يتمتع بها رقيق البيوت في الشرق اليوم ، فلا يسعى أن يصور مركز الرقيق عند المسلمين في العصور الوسطى تصويراً يريده بهاء ، وكانت سائر ولايات الإسلام في القرن الرابع عاصمةً بالعبيد الأتاق ، وكان من أول ما يؤمر به ولاية السواحى في كتب توليتهم أن يقصوا على العبيد الآقيى ويحسومهم ويسلموهم لمواليهم إن استطاعوا<sup>(٢)</sup> وكان لماروك صاحب الشرطة سعداد علام ، فطرده ، فلم يجد حجة يلجأ إليها ، فذهب لرجل صالح يكتب كُتُبَ العطف ليكتب له ما يستعيد به عطف سيده . وكان ماروك قد أرسل في طلب العلام ، واستحضره فقص العلام عليه الأمر ، فلم يصدقه ، حتى استدعى الرجل الصالح وسأله ، فكان كلامه مطابقاً لكلام العلام ، « قال فلما قلت له ( لماروك ) إن العلام قال أنا عبد مملوك ، وما أعددت لنفسى من أقصده لهذا الحال ، ولا أعرف حجة ألجأ إليها ، وقد طردنى مولاي ، فكيت أنا لما تداخلنى من رحمتى للفتى ومحتى للديار الذى أعطانيه ، قال فدمعت عين ماروك ، ثم تحلّد واستوفى الحديث<sup>(٣)</sup> »

وكان معظم العبيد الاتاق ممن يشتعلون بالزراعة وكذلك كان جيش الثورة الوحيدة الخطرة التى قام بها العبيد في القرن الثالث الهجرى مؤلفاً من الروح الدين يكسحون السباح ، حتى يصلوا إلى التربة ويعمروها ، وكانت « كسوح الروح معروفه بالبصرة كالحمال ، وكان في أمهار البصرة منهم عشرات ألوف يعدّون بهذه الخدمة<sup>(٤)</sup> »

(١) Odyss , XVII, 322

(٢) رسائل الصانى ص ١٦ والصفحات التالية مثلاً

(٣) كتاب الفرج بعد الشدة ح ١ ص ٥٣ — ٥٤

(٤) كتاب العيون ص ١٧



## تعليقات<sup>(١)</sup>

### ١ — أحد الرقيق

« إن أكبر العوارق ، وهو الفرق بين الحر والعبد ، يظهر إذا أبقى المحارب الوحشى على حياة عدوه بعد أن يهرمه ثم يأخذه إلى بلاده ليقوم بأشق الأعمال ويحرق الأرض »  
والرق سدان حوهران الفقر والحرب ، والحرب أقواهما ، وكذلك كان الرق عند المسلمين نتيجة للحروب في العالم حاء في القرآن الكريم

« فإذا لقيتم الدين كعروا فصرت الرقاب ، حتى إذا أنحستموهم فشدوا الوثاق ، فإما مئاً بعدو وإما فداء ، حتى تصع الحرب أوزارها » (سورة محمد آية ٤)  
والتعير المألوف في القرآن للدلالة على الساء المملوكات هو ماملكت أيمانكم ، وسرى أنه ليس في الإسلام شيء يتعلق بشراء العبيد

والعبد عند فقهاء الإسلام ١ — شخص أحد أسيراً في الحرب ، أو أُجِّل عوة من بلاد الأعداء ، شرط أن يكون عبد أحده كافراً ٢ — الولد الذي يولد من أمة مملوكة ويكون أبوه عبداً أو غير مالك للأمة ، أو يكون مالكا لها ولكنه لا يعترف بأنه أب للولد ٣ — الشخص الذي يُؤخذ شراء

والحرب والرق متصلان اتصالاً وثيقاً في العهد القديم ، فجد في التوراة ( عدد إصحاح ٣١ آية ٢ ) أن الرب يكلم موسى قائلاً انتقم نعمة لى إسرائيل من المديانيين ، وفي الآية السابعة وما بعدها فتحدوا على مديان ، كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر وسمى  
سو إسرائيل ساء مديان وأطعاهم

أما فيما يختص بالأحاب ، فقد أبيض لى إسرائيل أن يستعدوهم ( لاويين إصحاح ٢٥ آية ٤٤ وما بعدها ) « وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك من الشعوب الذين حولكم ، منهم تقتنون عبيداً وإماء ، وأيضاً من أساء المستوطنين الناريين عنكم ، منهم

(١) هذا يلخص تعليق العلامة الهدي المرحوم حداخش على الترجمة الإبحرية لهذا الفصل

تقتنون ، ومن عشائهم الذين عندكم الدين يلدوهم في أرضكم فيسكنون ملكاً لكم ،  
وتستملكوهم لأبائكم من عندكم ميراث ملك ، تستعدوهم إلى الدهر ، وأما إخوانكم  
من إسرائيل فلا يتسلط إسان على أخيه «صف»

وكما أن أساء الإماء المملوكة عند المسلمين يؤلفون طائفة من الرقيق مثلهم مثل من  
يشتري بالمال ، وكذلك محمد في العهد القديم هدير الاصطلاحين «الذي يولد في البيت» ،  
و «الذي يشتري بالمال» ، وهذا يدل على أن العبيد عند اليهود ، كما هو الحال عند المسلمين ،  
يتكاثرون بالنسل ويطلق هذا بالطبع على جميع من يتحرر بالرقيق ولما كان العبيد ملكاً  
لأصحابهم ، فأساؤهم ملك لهم أيضاً

ومن وحوه النطاق الأخرى بين الإسلام والعهد القديم ، جعل الرق مقصوراً على  
الأحابس عن الدين ، وفي التوراة (لاويين إصحاح ٢٥ آية ٣٩ وما بعدها) وإذا اقتصر  
أحوك ، وبيع لك ، فلا تستعده استعاده عند ، كأجير يريل يكون عندك إلى سنة اليوبيل  
يخدم عندك ، ثم يخرج من عندك هو وسوه معه ويعود إلى عشيرته وإلى ملك آتائه ، لأنهم  
عبيد الذين أخرجتهم من أرض مصر ، لا يباعون ببيع العبيد ، لا يتسلط عليه نصف بل  
احش إلهك «

وكذلك الحال عند المسلمين ، فلا يجوز لهم أن يسترخوا المؤمنين ، لأن المسلم واليهودي  
يعتبر أحاه في الدين أحاه له

ولكن الأمر عند الماليتين كان على خلاف ذلك ، فلم يكونوا يبالون أن يكون الرقيق  
مهم أو من غيرهم ، فكان الرجل يبيع ابنه الحقيقي أو المتبني إذا أحرم في حق أبيه  
وكذلك كان الروح في حل من أن يتخلص من روحته المشاكسة بأن يبيعها وكان العدو  
المأسور عندهم يعامل معاملة العبد

## ٢ — معاملة الرقيق

أوصى القرآن بالعدل والرحمة في معاملة الأراامل واليتامى ، وهو يوصي بمثل هذا في معاملة  
الرقيق ، وذلك لأن الحر والعبد كليهما عباد الله ، فهما متساويان ، جاء في القرآن

« والله فصل بعصكم على الرق، فما الدين فصلوا رادى ررقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء، أسمعته الله يتحدثون » (سورة النحل آية ٧١)، وحاء أيضاً .  
« واعدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وندوى القرى واليتامى والمساكين والجار دى القرى والجار الحنّ والصاحب بالحب واس السبيل وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » (سورة النساء آية ٣٦)

وقد قال النبى عليه السلام فى الحديث العبد إخوانكم، فأطعموهم مما تأكلون وقال .  
إخوانكم حولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل،  
وليلسه مما يلبس، ولا تكلموهم ما يعلمهم، فإن كلفتموهم فأعيتوهم<sup>(١)</sup>

وإذا كان النبى عليه السلام لم يلع الرق، فإنه قد أمر بما يصمن للأرقاء حسن المعاملة؛  
وإذا كان المسلمون يحالفون عن أمره، فالنبى رىء من ذلك، ولو أن المسلمين أطاعوا  
ما أمرهم به نبىهم فى معاملتهم لما ملكت أيمانهم، لكان حال الرقيق عند المسلمين أحسن  
منه عند غيرهم

على أن لو طرأ إلى معاملة الرقيق فى حملتها بحسب الشرع الإسلامى لوحدناها عادة،  
فقد كانت عقوبة الأمة الراية أقل من عقوبة الحرة، لأنها تُعترأقل دساً نسب ما ينقصها  
من حرية وقد أوصى الشرع بالعناية بالعبد، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون

وكان الرقيق تنتل ملكيته مثل سائر الممتلكات، فكان يستطيع المسلم أن يبيع  
ما ملكت يمينه، إلا إذا كانت حارية قد ولدت منه، وكان يسدر أن يسكر أئوة ولده،  
حتى يحور له بيعها

### ٣ — تحرير العبد

إن الشرع الإسلامى لم يكتف بتشديد الوصية فى حسن معاملة الرقيق، بل مكّن العبد  
من استعادة حريتهم، إذا كانوا بحس سيرتهم أهلاً لذلك، وقد حت الإسلام فى عتق  
الرقيق، حاء فى القرآن « والدين يتعون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم

(١) وذكر صاحب التعليق ما قاله النبى فى حجه الوداع بشأن العبد



فيهم حيراً ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » ( سورة البور آية ٣٣ )  
وتختلف طريقة هذا التحرير في بلاد الإسلام ، فكان من الناس من يعتق ، كرمًا  
منه ، عتقًا كاملاً ، ومنهم من كان يطلقه على أن يدفع له مقداراً من المال فيما بعد ، ويكون  
هذا بعقد مكتوب ، أو بكلام شفاهي يشهد عليه رحلان ، أو بأن يعطى الرجلُ لمملوكه وثيقة  
شرائه من ماله قبله ، وقد تُمنح للعبد حريته إذا أدى شروطاً متفقاً عليها أو بموت مالكه  
عالمًا ويحور أن يوصى الرجل ثلث ماله لمن ملكت يمينه ، ولا يريد عن الثلث ، وإلا أحد  
الورثة الريادة ، وقد جعل القرآن عتق رقاب الرقيق كفارة لدنوب كثيرة ، وقرنة من  
أحسن القرب

وإذا كان العهد القديم قد تعرض لتحرير العبيد اليهود الذين صاروا أرفاء سلب الدين  
فإن الإسلام قد تعرض لتحرير الرقيق حملة اطر

Robert Social Laws of the Kur'an p 53, 60

Doughty Arabia Deserta, I, 554

Lane Modern Egyptians, 168

Snouck Hurgronje Mekka II, 18 ff

## الفصل الثاني عشر

### العلماء

في القرن الثالث الهجري صار الأدباء الذين نشأوا حول الخلفاء وفي قصورهم وتعلموا الأدب على تقاليد العروسية، أدباء من طراز حديد، يلمّون بكل شيء، ويشهون في عصرنا الصحيين غير المتخصصين الذين يتكلمون في جميع الأمور ولهذا نجد العلماء يفرّقون بين أنفسهم وبين الأدباء، حتى قال ابن قتيبة « من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتنسج في العلوم<sup>(١)</sup> »

وقد حرّحت من بين فنون الآداب القديمة مجموعة من العلوم الديبوية، ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ماله مهج علمي وأسلوب علمي سوى الفلسفة وعلم الكلام، ثم صار لكل من التاريخ والجغرافيا واللغة مهجه الخاص وترك العلماء ما كانوا قد ألفوا قُلُ من اتحاد المعارف وسيلة للتسلية، كما أنهم أصبحوا لا يعالون في حشد المعارف على تنوعها، بل أقبلوا على الدراسة العملية وعلى تنظيم المعارف، وشعروا بما يجب عليهم من عناية ومحاسبة في تدوينها وقد أوجروا مقدمات كتبهم إيجازاً كبيراً، ومن أمثلة ذلك ما كتبه صاحب المهرست في حطبة كتابه عام ٣٧٧ هـ - ٩٨٧ م ربّ يسر رحمتك العفوس تشرّب إلى النتائج دون المقدمات، وترتاح إلى العرص المقصود دون التطويل في العبارات، ولذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا، إذ كانت دالّة على ما قصدناه في تأليفه إن شاء الله، فقول، والله يستعين وإياه نسأل الصلاة على جميع أنبيائه وعواده المخلصين في طاعته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم «

ومن التعابير الأخرى أن علم الفقه تميز عن غيره من علوم الدين، وأصبح العلماء فرقتين الفقهاء، والعلماء على الحقيقة وكانت عالية طلبة العلم المتكسّين يقصدون الفقهاء، لأن الفقهاء

(١) المحلاة للعامل المتوفى عام ٣ ١ هـ طبعه مصر ص ٢٢٨

هم حملة علوم الشريعة والعبادات ، فكان لا بد لمن يريد تولى القضاء والخطابة في المساجد من التلمذ عليهم يقول الحافظ في نص مشهور له « وقد تَجَدُّ الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ، ويحالس الفقهاء حسين عاماً ، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ، ولا يُحْمَلُ قاصياً ، فما هو إلا أن يطر في كتب أي حبيبة وأشياء أي حبيبة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار ستة أوستين ، حتى تمرَّ سانه فتن أنه من بعض العمال ، وبالخرى ألا يمر عليه من الأيام إلى اليسير ، حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار أو ولد من البلدان <sup>(١)</sup> »

وكان ههنا علم الكلام بعد أن تخلص من قيود علم الفقه ، وكذلك ظهور الأفكار الحديثة في ذلك العصر مما رفع شأن العلماء إلى درجة عالية من الاحترام والتقدير ، يقول المطهر المقدسي حوالي عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م « ويأبى العلم أن يصع كعبه أو يحمص حماحه أو يسر عن وجهه إلا لمتحرِّد له نكبتته ومتوفر عليه بأبنته ، مُعانٍ له بالقرينة الثاقبة والروية الصافية ، مقتربا به التأييد والتسديد ، قد شمر ديله ، وأسهر ليله ، حليف النصب صبيح التعب ، يأخذ مأخذه متدرِّجاً ويتلقاه متطرفاً ، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام ، ولا يحط فيه حط العشواء في الطلام ، ومع هجران عادة الشر ، والروع عن راع الطمع ، ومحاسنة الإلف وسد المحاكاة واللحاحة ، وإحالة الرأي عند عموص الحق ، والتأني بلطيف المأني ، وتوفية الطرحه من التمييز بين المشتبه والمتصح ، والتفريق بين التمويه والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ العقول ، فعند ذلك إصانة المراد ومصادفة المرتاد <sup>(٢)</sup> »

وكان صاحب العلوم الديبوية يسمى كاتباً ، وكان يتميز عن العلماء في لباسه ، فكان العلماء يلبسون الطيلسان ، وكانوا في حراسان يطهرون متطلسين متحمكين ، وكانت فارس مركز الكتاب ، وكانوا في مدينة شيراز يرفعون على العلماء <sup>(٣)</sup> ولكن حراسان كانت حبة العلماء ، ولا يزال العلماء بها إلى اليوم يتمتعون بحاه واحترام لا نظير لهما في سائر البلاد

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٤٣ — ٤٤ ، واضر مثلاً Goldziher, Muhammm Studien

II, 233 ويحكى أن الحوي قال يوما للعالي يا فقيه ، فرأى في وجهه العشر ، كأنه اسقل هذه اللفظة على نفسه ( طبقات السكي ٣ ص ٢٥٩ )

(٢) كتاب البدء والتاريخ ج ١ ص ٤

(٣) المقدسي ص ٤٤



ومن أمثلة ذلك أن أحد العلماء الرهاد دخل حراسان ، فخرج أهلها بسائهم وأولادهم  
يمسحون أردابه ، ويأخذون تراب عليه ويستشفون به . وكان يُخرج من كل بلد أصحاب  
الصنائع بصائعهم ، ويثرونها ، ما بين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك ، وهو يباهم ،  
حتى وصلوا إلى الأساكفة ، فحملوا يثرون المتاعات وهي تقع على رؤوس الناس ، وخرج  
إليه صوفيات البلد بمساحهن وألقيها إليه ، وكان قصدهن أن يلبسها فتحصل لهن البركة ،  
فكان يتركهن ويقصد في حقهن ما قصدن في حقهن<sup>(١)</sup>

وكان في كل جامع كبير مكتبة ، لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على  
الجامع<sup>(٢)</sup> ويقال إن حراة الكتب عروكات تحوى كتب يردحرد ، لأنه حملها إليها  
وتركها<sup>(٣)</sup> وكان الملوك يعاقدون بجمع الكتب حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام  
الثلاثة الكبار مصر وقرطبة وبغداد في أواخر القرن الرابع ولع شديد بالكتب ، فكان  
الحكم صاحب الأندلس يبعث رجلاً إلى جميع بلاد المشرق ليشتري له الكتب عد أول  
طهورها ، وكان فهرس مكتبته يتألف من أربعة وأربعين كراسة ، كل منها عشرون ورقة ،  
ولم يكن بها سوى أسماء الكتب أما في مصر فكانت للحليفة العريير (المتوفى عام ٣٨٦ هـ  
٩٩٦ م) حراة كتب كبيرة ، وقد ذكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد ، فأمر حرّان  
دفاتره ، فأحرقوا من حرائره بيغاً وتلاتين نسخة ، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد ، وحمل  
إليه رجل نسخة من تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار ، فأمر العريير الحرّان ، فأحرقوا  
ما بين عشرين نسخة من تاريخ الطبري منها نسخة بخطه . ودُكر عنده كتاب الجهرة  
لاس دريد ، فأحرق من الحراة مائة نسخة منها<sup>(٤)</sup> وقد أراد المتأخرون أن يقدروا عدد

(١) طبقات السكي ح ٣ ص ٩١

(٢) ابن حلكان ح ١ ص ٥٥ في ترجمة أبي نصر المارئي

(٣) كتاب سداد لطيفور ص ١٥٧ ، وقد ترجم ياقوت بذكرى مكاتب مرو مع تأخر الرسم به  
وكان قد فصى عرو ثلاث سنين ، فعنى تأيامة فيها شعراً حميلاً . وكان بها على عهده اثنا عشرة حراة ،  
ياحداها نحو من ابي عسر ألف مجلد ، بقول ياقوت « وكانت ( الحرّان ) سهلة الساول لا يقارن مبرلي  
مها مائتا مجلد وأكثر غيرهن ، يكون قيمتها مائتي دينار ، فبكت أربع منها وأفسس من فوائدها ،  
وأسانى حمها كل بلد وأهلها عن الأهل والولد » (معجم البلدان ح ٤ ص ٩٠ — ١٠٠ هـ من  
الطبعة الأورمة)

(٤) المعري (المخطوط ح ١ ص ٨٤) ، فلاح عن المسحى المؤرخ الثمة (توفى عام ٤٤٢ هـ =

ما كانت تشتمل عليه هذه الحراة ، فيقول المقرئى إنها كانت تشتمل على ألف وستائة ألف كتاب ، ويدكر عن ابن أبى واصل أنه كان بها ما يريد على مائة وعشرين ألف مجلد. وقال ابن الطوير إن حراة الكتب كانت تحتوى على عدة رفوف ، والرفوف مقطعة بمحاجر ، وعلى كل حاجر باب مقفل بموصلات وقفل ، وفيها من أصناف الكتب ما يريد على مائتى ألف كتاب<sup>(١)</sup>

ولذكر ما كان فى بعض حرائر الكتب فى العرب على سبيل المقارنة كان فى مكتبة الكاتدرائية بمدينة كُنستار فى القرن التاسع الميلادى ثلاثمائة وستة وخمسون كتاباً ، وفى مكتبة دير السدكتيب عام ١٠٣٢ م ما يريد على المائة قليل ، وفى حراة كتب الكاتدرائية فى مدينة نامر ح سنة ١١٣٠ م ستة وتسعون كتاباً فقط<sup>(٢)</sup> وقد أطلع رئيسُ الفرائش المقدسى على حراة الكتب التى كانت فى دار عهد الدولة ، والمقدسى يصورها بأنها « حجرة على حدة ، عليها وكيل وحار ومشرى من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صُفِّ إلى وقت عهد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصله فيها وهى أرج طويل فى صفة كبيرة ، فيه حرائر من كل وجه ، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأرح والحرائر بيوتاً طولها فامة فى عرص ثلاثة أدرع من الحش المروِّق ، عليها أبواب تسحدر من فوق ، والدفاتر مصددة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامى الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجه<sup>(٣)</sup> »

وكان أكر عشاق الكتب المولعين بها ولعاً متديداً فى القرن الثالث الهجرى الحاحط ، وكثيراً ما يذكر بذلك ، والفتح بن حاقان ، وإسماعيل بن إسحاق القاصى فأما الحاحط فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كأنه ما كان ، حتى إنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للطر ، وقد حكى بعض المؤرخين المتأخرين

(٢٩ ١ م) الذى كان معاصراً للعرب بالله على أن الأرقام بحلف بين مخطوط وآخر ، فعول ابن الطوير إن من عجائب حراة العرب بالله أنه كان بها ألف ومائتا سعة من ماريخ الطبرى ، على أن ابن الطوير متأخر (المقرئى ح ١ ص ٩٤)

(١) المقرئى (الخطط) ح ١ ص ٩٤

(٢) Th. Gottlieb, Ueber Mittelalterliche Bibliotheken, S. 22, 23, 87

(٣) المقدسى ص ٤٤٩

أنه مات في حب الكتب ، فقد روى أنه مات بوقوع محادثات عليه ؛ وكان من عادته أن يصعبها كالحائط محيطه به ، وهو حالس عليها ، وكان عيلاً فسقطت عليه فقتلته<sup>(١)</sup>

وأما الفتح بن حاقان ، وكان من كبار رجال دار الخلافة ، فإنه كان يحصر المحالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كتبه أو حقه وقرأه في مجلس المتوكل إلى عوده إليه

« وأما إسماعيل بن إسحاق فابن مادحلت عليه إلا رأيت به بطر في كتاب أو يقلب كتاباً أو ينصفها<sup>(٢)</sup> »

وفي سنة ٢٧٥ هـ — ٨٨٨ م توفي السجستاني المحدث ، وكان له كم واسع وكم صيق ، ف قيل له في ذلك ، فقال الواسع للكتب والآحر لا أحتاج إليه<sup>(٣)</sup>

وقد عمل علي بن يحيى المحم ، وكان ممن حالس الخلفاء ، حوالي منتصف القرن الثالث الهجري حراة كتب عظيمة في صيغته ، وسماها حراة الحكمة ، وكان يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صوف العلم ، والكتب مدولة لهم والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى . فقدم أبو معشر المحم من حراسان يريد الحج ، وهو إذاك لا يحس كبير شيء من الحوم ، فوُصفت له الحراة ، فمضى ورآها ، وهاله أمرها ، « فأقام بها وأصرع عن الحج ، وتعلم فيها علم الحوم ، وأعرق فيه حتى أُلحد ، وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً<sup>(٤)</sup> »

وفي سنة ٢٧٢ هـ — ٨٨٥ م توفي أحد علماء أصفهان وكبار أصحاب الصباغ فيها ، ويقال إنه ألق في شراء كتبه ثلثمائة ألف درهم<sup>(٥)</sup>

(١) تاريخ أنى العدا تحب سنة ٢٥٥ هـ

(٢) المهرست لآل الدم ص ١١٦ — ١١٧ ، والإرساد لآلوف ح ٦ ص ٥٧ عمر الفوائد لمرتضى طبعه طهران ١٢٧٢ هـ

(٣) أبو المحاسن طبعه ليدن ح ٢ ص ٧٩

(٤) الإرشاد ح ٥ ص ٤٦٧

(٥) تاريخ أصفهان لآل معيم مخطوط ليدن ص ٥١ ب



وفي سنة ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م توفي محمد بن نصر الخاحب وحلف كتشاً بأكثر من  
ألف دينار<sup>(١)</sup>

وفي سنة ٣٥٧ هـ — ٩٦٧ م صودر حشيش من مصر الدولة لأنه أراد عصيان أخيه أمير  
بغداد ، فكان من حملة ما أخذ منه خمسة عشر ألف محلّ سوى الأحرار ، وما ليس بمحلّ<sup>(٢)</sup>

وفي سنة ٣٥٥ هـ — ٩٦٥ م هب قوم من العراة دار الوريير أي الفصل من العميد  
بالري ، فلما انصرف إلى داره ليلاً لم يجد فيها ما يجلس عليه ، ولا كوراً واحداً يشرب فيه ،  
وكان ابن مسكويه المؤرخ في ذلك الحين حارياً لكتب ابن العميد ، وهو يقص علينا  
القصة ، فيقول « فأخذ إليه أبو حمزة العلوي فرساً وآلة ، واشتعل قلب الوريير ابن العميد  
بدفاتره ، ولم يكن شيء أعزّ عليه منها ، وكانت كثيرة ، فيها كل علم وكل نوع من أنواع  
الحكم والآداب ، يُحمل على مائة وقر ، فلما رأى سألني عنها فقلت هي محالها لم  
تمسها يد ، فسُرّني عنه ، وقال أشهد أنك ميمون البقية ، أما سائر الخرائص فيوجد منها  
عوص ، وهذه الخراصة هي التي لا عوض منها ، ورأيت قد أسروا وجهه ، وقال ما كثر بها عدداً  
إلى الموضع العلاني ففعلت ، وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله<sup>(٣)</sup> »

وقد استدعى السلطان نوح بن منصور الساماني الصاحب بن عباد (المتوفى عام ٣٨٤ هـ  
— ٩٩٤ م) ليوليه وراثته ، فكان مما اعتد به أنه لا يستطيع حمل أمواله ، وأن عنده  
من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة حمل أو أكثر ، وكان فهرس كتبه يقع في عشرة  
مجلدات ، ولما ورد السلطان محمود الري استخرج من بيت كتب الصاحب كل ما كان  
في علم الكلام وأمر بحرقه<sup>(٤)</sup> ، وكذلك لم يجد البيروني من قبل ولا البيروني من محمود  
هذا مشجعاً ولا حامياً

وكان القاضي أبو المطرف (المتوفى عام ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م) قاضي الجماعة مقرطبة ،

(١) عرب ص ١٢١ هلا عن الصولي ، وكان للصولي هذا مكانه كبيرة ، انظر المظم لاس الحوري

ص ٧٩ ب

(٢) مسكويه ح ٦ ص ٣١٤ ، وابن الأثير ح ٨ ص ٢٤١

(٣) مسكويه ح ٦ ص ٢٨٦ وما بعدها

(٤) الإرشاد لأبوت ح ٢ ص ٣١٥

وقد جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، وكان له ستة وراقيين يسحون له دائماً ، وكان متى علم بكتاب حسر عند أحد من الناس طلبه ليشتريه منه وبالع في ثمنه ، وكان لا يعير كتاباً من أصوله الشعة ، وإذا سأله أحد ذلك وألح عليه أعطاه للناسح فمسحه وقاله ودفعه إلى المستعير ويحكي أن أهل قرطبة احتسبوا لبيع كتبه عاماً كاملاً في مسجده ، واجتمع من ثمنها أربعون ألف دينار<sup>(١)</sup>

ولما أراد الرقائى العالم العدادى المتوفى عام ٤٢٥ هـ — ١٠٣٣ م أن ينتقل احتاج إلى ستين من الأعدال ، وإلى صدوقين ليحمل فيها كتبه عند انتقاله<sup>(٢)</sup> وقد دخل أبو يوسف القروينى المعتزلى ( المتوفى عام ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م ) بغداد ومعه عشرة جمال عليها كتب<sup>(٣)</sup>

وقد أظهر الماوية من قبل عناية كبيرة بمرحفة كتبهم ، في سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م أحرقت على باب العامة سعداد صورة مائى ، وأربعة أعدال من كتب الرادقة ، فسقط منها ذهب وقصة مما كان على هذه الكتب ، وكان له قدر<sup>(٤)</sup> وقد قلّد أصحاب الخلاح الذى قتل عام ٣٠٩ — ٩٢١ م الماوية في رحرفة الكتب ، فكانت كتبهم تُكتب على ورق صينى ، وبعضها يكتب بماء الذهب ويطن بالديباج والحرير ، ويحلى بالأدم الحيد<sup>(٥)</sup>

وكانت الكتب التى يرسلها ملك الروم بمرحفة ، وقد وصل لى من وصف بعضها ما يجعلها تحفة فنية ، في سنة ٣٢٦ هـ — ٩٣٧ م وصل كتاب ملك الروم إلى الخليفة الراصى سعداد ، وكانت الكتابة بالرومية بالذهب والترجمة بالعربية بالعصه<sup>(٦)</sup> وعدد ذلك ورد على الخليفة عند الرحمن الناصر بقرطبة كتاب من صاحب القسطنطينية ، وكان في ورق مصبوع لوناً سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقى ، وداحل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بعصه بخط إغريقى أيضاً ، وعلى الكتاب طابع ذهب وره أربعة مثاقيل على الوجه

(١) كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس لاس شكوال طبعة محرط ١٨٨٢ ح ١ ص ٤ : ٣ — ٥

(٢) أطر Wustenfeld, AGGW, 37, Nr 335

(٣) طبقات السكى ح ٤ ص ٢٣ (٤) المتظم ص ١٢٣

(٥) عرب ص ٩ ملاء عن ابن مسكويه (٦) المتظم ص ١٥٩

الواحد منه صورة المسيح [عليه السلام] وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده  
وكان الكتاب بداخل درج قصة مقوش ، عليه عطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك  
معمولة من الرحاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل حصة ملئسة بالديباج<sup>(١)</sup>  
وكانت أشعار الخليفة المعتمد مكتوبة بالذهب<sup>(٢)</sup>

ولما تولى قاضي القضاة عبد الحارث منصبه ، كان الوريث ابن عماد المتوفى عام ٣٨٦ هـ  
— ٩٩٦ م هو الذي أنشأ له العهد وكتبه له بخطه واعتنى بحرقته ، ويقال إنه كان سعبانة  
سطر كل سطر في ورقة سمرقندي ، وله علاف آسوس يطبق كالأسطوانة العليطة ، وقد  
أهدى هذا العهد في القرن الخامس الهجري للوريث نظام الملك مع هدايا أخرى كان منها  
مصحف بخط أحد الكتاب المحوذين بالخط الواضح ، وقد كتب كاتبه اختلاف القراء  
بين سطوره بالحمرة ، وتفسير عربيته بالحصرة ، وإعرابه بالورقة ، وكتب بالذهب علامات  
على الآيات التي تصلح للانتراعات في العهود والمكائبات وآيات الوعد والوعيد ، وما يكتب  
في التعاري والتهاني<sup>(٣)</sup> وكان أكرم ما يعنى به عشاق الكتب ، الكتب التي كتبها  
كبار الخطاطين والتي لأصحابها في السح أصل منسوب

على أنه قد ظهرت إلى جانب دور الكتب مؤسسات علمية أخرى تريد على دور  
الكتب بالتعليم ، أو على الأقل بإجراء الأوراق على من يلازمها ، فيحكي عن أبي القاسم  
جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الفقيه الشافعي المتوفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م أنه أسس  
داراً للعلم في بلده ، وجعل فيها حراسة كتب من جميع العلوم وفقاً على كل طالب للعلم ،  
لا يمنع أحد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب ، وكان معسراً ، أعطاه ورقاً  
وورقاً ، وكان ابن حمدان يجلس فيها ويحتمع إليه الناس فيبلى عليهم من شعره وشعر غيره ،  
ثم يبلى حكايات مستطاة وطرفاً من الفقه وما يتعلق به<sup>(٤)</sup>

وقد عمل القاضي ابن حنّان ( المتوفى عام ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م ) في مدينة بيسانور داراً

(١) نهج الطيب للمقرى طبعة دورى ح ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧

(٢) وقد أطلع المكتبي الصولي على هذه الأشعار ، انظر كتاب الديارات للشاشي ص ٣٩ ب

(٣) طبقات السكي ح ٣ ص ٢٣

(٤) الإرشاد لياقوت ح ٢ ص ٤٢



للعلم وحراة كتب ومساكن للعباء الذين يطلبون العلم وأحرى لهم الأوراق ، ولم تكن الكتب تُعار خارج الحراة<sup>(١)</sup>

وقد أنشأ أبو علي بن سوار الكاتب أحد رجال حاشية عصد الدولة ( المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م ) دار كتب في مدينة رام هرمس على شاطئ بحر فارس ، كما بنى داراً أخرى بالبصرة ، وحمل فيها إحصاء على من قصدها ولزم القراءة والنسخ فيها ، وكان في الأولى منهما أبدأ شيخ يُدرس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة<sup>(٢)</sup>

وفي سنة ٣٨٣ هـ أسس أبو نصر سابور بن أردشير وزير بني بويه داراً للعلم في الكرخ عرني بغداد ، ونقل إليها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها ، وكان بها مائة نسخة من القرآن بأيدي أحسن الشُّاح ، هدا إلى عشرة آلاف وأربع مائة نسخة أخرى معطتها بخط أصحابها أو من الكتب التي كان يملكها رجال مشهورون ، وردَّ الطر في أمرها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى رحلين من العلويين يعاونهما أحد القصاة<sup>(٣)</sup>

وكذلك اتحد الشريف الرضي ( المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م ) بقب العلويين والشاعر المشهور داراً سماها دار العلم ، وفتحها لطلبة العلم ، وعيّن لهم جميع ما يحتاجون إليه<sup>(٤)</sup> ويدل محرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة ، فكانت دار الكتب قديماً تسمى حراة الحكمة ، وهي حراة كتب ليس غير ، أما المؤسسات الحديثة فتسمى دور العلم ، وحراة الكتب حرة منها

وقد أنشئت في مصر أيضاً مثل هذه الدور ، فقد اشترى العريز بالله الخليفة العاطي في سنة ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م داراً إلى جانب الجامع الأزهر ، وجعلها لمخس وتلاتين من

(١) Wustefeld, AGGW 37

(٢) المقدسي ص ٤١٢ وكتاب الفهرست ص ١٣٩

(٣) المتظم ص ١١٣٥ ، ورسائل أني العلاء ص ٥٢ ، ومقدمة صرطوط لهذه الرسائل ص ٢٤ ،

وقد أحرفت هذه الدار عام ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م ( اس الأثيرح ٩ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ ) وعلى أن الكتب التي كانت من قبل في حورة رجال مشهورين لها شأن هام لأنها تحفظ نوعاً من السد الصحيح لما تحويه وإقراراً به ، ولذلك سعى الفاري نكابة اسمه على عطاء الكتاب ومحدثاً ماوت ( الإرشاد ح ٦ ص ٣٥٩ ) عن حارن هذه الدار ، المتوفى عام ٥١٠ هـ ، كف كانت الكتب تهلك بأكل الراعيث لها وعشهم فيها

(٤) دنوان السرف طعة بيروت ص ٣ من طعة سنة ١٣٧ هـ

العلماء وكان هؤلاء يعتقدون محالسههم العلمية بالمسجد في كل يوم جمعة بعد الصلاة حتى صلاة العصر والجامعة الأزهرية التي هي أكبر معهد علمي إسلامي اليوم نشأت في القرن الرابع الهجري وكان الوريث اس كلّس يحب أهل العلم والأدب ويقرّتهم ، وكان يُجرى بأمر العزيز بالله ألف دينار في كل شهر على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمحلّدين<sup>(١)</sup> ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله ففتح في سنة ٣٩٥ هـ الدار الملقبة بدار العلم<sup>(٢)</sup> بالقاهرة ، وحمل الكتب إليها من حراش القصور المعمورة ، ودخل سائر الناس إليها يقرءون ويسبحون ، وأقيم لها حُرّان وبنّاؤون ، ورُتّب فيها قوم يدرسون للناس العلوم ، ولكن الحاكم أطل ذلك بعد قليل من الزمان<sup>(٣)</sup> وكان في هذه الدار ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والمحار والورق ، وقد وصلت إليها ميراثية هذه الدار ، فكان يقع عليها في كل سنة ٢٥٧ ديناراً من العين المعري فمن ذلك

|                                 |            |
|---------------------------------|------------|
| للورق                           | ٩٠ ديناراً |
| للحارون                         | » ٤٨       |
| للمراشيين                       | » ١٥       |
| للباطر في الورق والحبر والأقلام | » ١٢       |
| لمرمة الكتب                     | » ١٢       |
| ثم الماء                        | » ١٢       |
| ثم الحصر العبداني               | » ١٠       |
| ثم لنود للفرش في الشتاء         | » ٥        |
| ثم طنافس في الشتاء              | » ٤        |
| لمرمة الستارة                   | » ١        |

وقد بقيت هذه الدار إلى أن أظلمها الأفصل بن أمير الحيوش ، لأنه اجتمع بها فريق

(١) ذكر ذلك معاصره وسريكة في الوطن عجي بن سعيد ص ٨ ١١٠ .

(٢) سمي أيضاً دار الحكمة ، الفرري ح ١ ص ٤٥٨

(٣) عجي بن سعيد ص ١١٦

من العلماء ، فاستفسد بعضهم عقولَ جماعة ، وأحرجهم عن الصواب<sup>(١)</sup>

وكانت معظم دروس الفقه والكلام تُعطى في المسجد ، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدي المدرس . وكان هذا يتحد مكانه إلى جانب أسطوانة في المسجد مستنداً إليها نظيره إن أمكن ، وإذا اقترب أحد من هذه الحلقة سمع الداء . دوّروا وحوهم إلى المجلس<sup>(٢)</sup> وقد أحصى المقدسي في المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرة مجلساً من محالس العلم<sup>(٣)</sup>

وكان جامع المصور سعداد ، وهو أقدم مسجد جامع بها ، أشهر مركز للتعليم في المملكة الإسلامية . ويُحكى أن الخطيب البغدادي<sup>(٤)</sup> لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات ، وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات أحداً يقول النبي صلى الله عليه وسلم ماء زمزم لما شرب له ، والحاجة الأولى أن يحدث تاريخ سعداد ، والثانية أن يملأ الحديث بجامع المصور ، والثالثة أن يُدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي

وقد جلس ابراهيم بن محمد مطويه ( المتوفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م ) ، وكان من أكرام العلماء بذهب داود الأصماني ، إلى أسطوانة بجامع المصور حسين سنة لم يُعبر محلّه بها<sup>(٥)</sup>

وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ ، وكان ذلك طبعياً ، لأن الفقهاء يعلمون العلم الذي يؤهل أصحابه لتولي مناصب يعيشون بها ، كما تقدم القول . ولكن لو قارنا عدد التلاميذ في ذلك العصر لوحدناه صغيراً بالنسبة لما رآه اليوم ، وهذا يدل على كثرة العلماء بالنسبة إلى التلاميذ ، فقد كان أبو حامد بن محمد الاسفراييني المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م ، إمام أصحاب الشافعي ، حتى قيل إنه أفقه وأبهر منه ، وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك

(١) الخطط للمعري ج ١ ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) المقدسي ص ٥٢ — وفي سنة ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م برد الهواء برداً سيدياً وسقط سعداد بلح كثير . وحدث حله بأسرها بالموصل حتى عر الناس عليها وحلست المحدث العروف بأن ركبة في وسط دحلته على احمد ، وأملى الحديث ( الخطط لاسن الخوري ص ٣١ )

(٣) المقدسي ص ٥٢ (٤) الإرشاد لمحبوب ج ١ ص ٢٤٦

(٥) الإرشاد ج ١ ص ٨٣



بعداد ، وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمائة وسبعمائة فقيه<sup>(١)</sup> وكان أبو الطيب الصعلوكي  
الفقيه الأديب مفتي بيساور ، وهي مركز علماء حراسان ، ويقال إنه حضر مجلسه أكثر  
من خمسمائة طالب علم في عشية الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة ٥٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م<sup>(٢)</sup>  
وكان يقعد بين يدي أحد أصحاب الحويبي « الإمام الفرد » ( المتوفى عام ٥٤٧٨ هـ — ١٠٨٥ م )  
في كل يوم ثلاثمائة من الأئمة والطلبة<sup>(٣)</sup> ، هذا على حين أما بعد اليوم في كشر مثلاً ، مع  
أنها ليست مركزاً دينياً كبيراً ، أن أكثر من خمسمائة طالب يحضرون درس أكثر  
العلماء فيها<sup>(٤)</sup>

وكان عدد الطلاب يُعرف بإحصاء محارم التي يصعبها أمامهم والتي كانت أهم عتاد  
الطالب<sup>(٥)</sup> ولما قدم محمد بن حرير الطبري بعداد قصده الحائلة ، فسأله عن أحمد بن حنبل  
وعن حديث الخلويس على العرش فقال أما أحمد فلا يُعدّ حلاؤه ، فوثقوا ورموه بمحارمهم  
عاصين<sup>(٦)</sup> وكان إذا مات العالم كسر تلاميذه الحار والأقلام ، وطافوا في البلد بأئجين  
سالمين في الصباح ، فلما مات الحويبي المتقدم الذكر ، وكان حطياً مشهوراً أيضاً ، كسر  
مسره ، واشتركت بيساور كلها في حزن العلماء عليه ، « فلم تفتح الأبواب في البلد ، ووضعت  
الماديل على الرؤوس عاماً بحيث ما احترأ أحد على ستر رأسه<sup>(٧)</sup> »

وكان الطلبة يحضرون كتبهم في شيء يسمى قارورة ، ولعلها سميت بهذا الاسم من قبيل  
الفكاهة العلمية<sup>(٨)</sup>

(١) Wustefeld, AGGW 37 Nr 287 . وطاق السكي ح ٣ ص ٢٥ ، وابن الأثير ح ٩  
ص ١٨٣ بذكر أربعين طالب

(٢) التهدب للنوى طعة فستعلد ص ٧ ٣ وطاق السكي ح ٣ ص ١٦٩ — ١٧

(٣) السكي ح ٣ ص ٢٥٢

(٤) Hartmann, Chinesisch - Turkestan, S 45

(٥) السكي ح ٣ ص ١٧ ، والنوى ص ١٧٧ الإشارة

(٦) الإرشاد لياقوت ح ٦ ص ٤٣٦

(٧) Wustefeld, AGGW, 37, Nr 365 ، واطر طقاب السكي ح ٣ ص ٢٥٧ — ٢٥٨

(٨) الإرشاد ح ٢ ص ١ ، وأعل الطن أن القارورة هي المحرة كما يمكن أن يوحد من النص  
« دخلت طالبا للحديث فحضرت مجلس من أصحاب الحديث ، وليست معي قارورة ، فرأت شاة عليه سمة  
الجمال فأسأدتته في كب الحديث من قارورته » ( المترجم ) ، على أن المؤلف يقول إن كلمة قارورة تدل على  
ما يشبه الصدوق

وكان الإملاء فيما مضى من الزمان يعتبر أعلى مراتب التعليم<sup>(١)</sup> ، وكثيراً ما كان المتكلمون واللغويون في القرن الثالث الهجري يتبعون طريقة الإملاء خاصة ، فيحكي أن الحنائي المعتزلي أملى مائة ألف وحسين ألف ورقة ، وما روى يطر في كتاب إلا يوماً في ربيع الحواري<sup>(٢)</sup> وقد أملى أبو علي القالي خمس محلدات<sup>(٣)</sup> ، وكان المستملي يكتب أول القائمة « مجلس أملاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا »

وفي القرن الرابع الهجري ترك اللغويون طريقة المتكلمين والمحدثين في الإملاء ، واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ منه أحد الطلبة ، والمدرس يشرح ، « كما يدرس الإنسان المختصرات<sup>(٤)</sup> » ويقال إن آخر من أملى من اللغويين هو أبو القاسم الرحاحي المتوفى عام ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م<sup>(٥)</sup> أما إملاء الحديث فقد بقي كما صرح بذلك السيوطي ولما عزم الورير صاحب اس عباد (المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م) على إملاء الحديث حرج متطلساً متحسكاً على رى أهل العلم ، واتحد لنفسه بيتاً سماه بيت التوبة ، وقعد للإملاء فحصر الخلق الكثير ، « وكان المستملي الواحد يضاف إليه ستة كل يبلع صاحبه<sup>(٦)</sup> » ، ولكن أصحاب الإملاء احتضروا فيه حتى إن أغلب العلماء كانوا يحتضرون في أماليهم ويطيّلون في تدريسهم<sup>(٧)</sup>

وعندنا من حر كتاب الياقوت في اللغة لأبي عمرو المظفر (المتوفى عام ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م) ما يرياً كيف كان ينشأ الكتاب من الإملاء ابتدأ المؤلف بإملاء هذا الكتاب يوم الخميس ليلة بقيت من المحرم سنة ٣٢٦ هـ — ٩٣٧ م في جامع المنصور سعداد ارتحالاً من غير كتاب ولا دستور ، ومضى في الإملاء مجلساً مجلساً إلى أن انتهى إلى آخره ، ثم رأى الريادة فيه فراد في أصعاف ما أملى ، وكتب هذه الريادة أحد تلاميذه ، ثم قرأه عليه

(١) الزهر للسيوطي ج ٢ ص ١٩٩ طعة مصر ١٩٣٥ ، Goldziher, SWA, 69 S 20

(٢) المعتزلة لان المرتضى ص ٤٧ (٣) السيوطي في الزهر

(٤) السكي ج ٣ ص ٢٥٩ (٥) الزهر للسيوطي

(٦) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٣١٢

(٧) المعتزلة لان المرتضى ص ٦٣ ، ويظهر أنه في عصر حاجي خليفة كان المحدثون قد تركوا

الإملاء نهائياً انظر Marçais, Le Taqrib de en Nawawi, JA 1901, 18, S 87 ، [ وكتاب

القرن مطوع بالعمرة ومعروف — المترجم ]

أبو إسحاق الطبري وسمعه الناس ، ثم راد فيه بعد ذلك ، وقرى عليه بالريادة يوم الثلاثاء ثلاث بقين من دى القعدة سنة ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م ، وفرغ منه في ربيع الثاني سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م ، وحضرت نسخ جميع من كتب فقوربت ، ثم راد المؤلف بعد ذلك أشياء أخرى كتبها محمد بن وهب ، ثم جمع الناس ووعدهم بعرض أنى إسحاق عليه هذا الكتاب وتكون آخر عرصة يتقرر عليها الكتاب ولا يكون بعدها ريادة<sup>(١)</sup>

وكان تعبّر طريقة التعليم سبباً في إيجاد نوع جديد من المؤسسات العلمية ، ذلك أنه لما انتشرت طريقة التدريس نشأت المدارس ، ولعل من أكبر الأسباب في ذلك أن المساحد لم يكن يحسن تخصيصها للتدريس بما يتبعه من مناظرة وحدل قد يخرج بأصحابه أحياناً عن الأدب الذي تحب مراعاته للمسجد ، فالقرن الرابع هو الذي أظهر هذه المعاهد الجديدة التي بقيت إلى أيامنا ويدل مجموع الأحبار التي انتهت إليها على أن بيساور كانت مهد هذه المعاهد ، وكانت أكبر مراكر العلم في حراسان ويقول الحاكم البيساوري المؤرخ الثقة ( المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م ) صاحب تاريخ بيساور إن أول مدرسة هي التي بُنيت لمعاصره أنى إسحاق الإسرابيني ( المتوفى عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م ) بيساور<sup>(٢)</sup> أما المدرسة التي بُنيت لاس فورك ( المتوفى عام ٤٠٦ هـ ) فهي أحدث عهداً من تلك المدرسة بقليل وكان كل من الإسرابيني واس فورك أشعرياً متحمساً ، فلا بد أن يكونا قد آثرا البحث في المسائل الكلامية ، بل آثرا طريقة التدريس على مجرد رواية الأحاديث<sup>(٣)</sup>

على أنه كان بيساور رحل من كبار الأئمة وأولى الرياسة ، وهو أبو بكر السبي المتوفى عام ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ ، وقد بنى لأهل العلم مدرسة على باب داره ، ووقف عليها حملة من

(١) الفهرست لاس النديم ص ٢٦

(٢) طبقات السكي ح ٣ ص ١١١ ، ١٣٧ ، ويقول المقرئ ( الخطط ح ٢ ص ٣٦٣ ) إن أول من خطه عنه أنه بنى مدرسه في الإسلام أهل بيساور ، فبني بها المدرسة البيهقة التي بنت للبيهي ( المتوفى عام ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م ) ويقول الذهبي إن أول المدارس المدرسة الطامية ( السكي ح ٣ ص ١٣٧ ) ، ولا توجد كلمة مدرسه عند الجوهري ولكنها وردت في رسائل الهمداني ( ص ٢٤٧ )

(٣) ويريد الأساد ريبيرا ( Ribera ) في مقاله Origen del Colegio Nidami de Bagdad ، وهو بحث شيق ص ٣ ff Homenaje a Don Fr Codera, Zaragoza 1904 ، أن بنت أن المدارس في أصلها من مؤسسات الكرامة ، ولكن لا برهان له على ذلك



ماله الكثير وكان هذا الرجل من كبار المدرسين والمناظرين ميسانور<sup>(١)</sup>

وكان المستملى في المجالس الكبيرة يجلس على مقعد مرتفع ليستصت الحاضرين وليعيد كلام المدرس حتى يسمعه من كان بعيداً عنه وكان العالم ينتدى<sup>(٢)</sup> درسه بحمد الله والصلاة على نبيه بعد قراءة قارى<sup>(٣)</sup> حسن الصوت شيئاً من القرآن ثم يدعو للهد والسامعين<sup>(٤)</sup> وبعد أن يستصت المستملى الناس يبدأ كلامه باسم الله وبالصلاة على النبي ، ثم يقول للمحدث : من أو ما ذكرت رحمك الله ؟

وكما ورد ذكر النبي أو أحد الصحابة أو بحوم<sup>(٥)</sup> صلى على النبي ورضى عن الصحابة وفي حوالى عام ٣٠٠ هـ كان ابن كيسان السجوى يبدأ مجلسه بأحد القرآن والقراءات ، ثم بأحاديث الرسول عليه السلام ، « فإذا قرئ<sup>(٦)</sup> حر عريب أو لفظة شادة أمان عنها وتكلم عليها وسأل أصحابه عن معناها<sup>(٧)</sup> » وكان يحور السامع في المجلس أن يقف ويسأل المدرس ، ويدل على ذلك ما حكى عن أبى عبيدة اللعوى من أن رجلاً حصر مجلسه فسأله سؤالاً سجعاً يدل على الجهل وسوء الفهم ، ثم قام ثلث وثلاث فسألاً مثل ذلك ، فأحد أبو عبيدة عليه ، واشتد ساعياً في مسح البصرة يصيح بأعلى صوته . من أين تحترت الهائم على اليوم<sup>(٨)</sup>

على أنه قد بقي في القرن الرابع ذلك التهييب الشديد للحديث ، وقد كان معروفاً من قبل ، فكان يلع من ورع البعض أنه يتهيب رواية الحديث<sup>(٩)</sup> ، وقد حكى الرقائى ( المتوفى عام ٤٢٥ هـ — ١٠٣٤ م ) أن أستاذه كان يروى الأحاديث متهيّباً متحرراً ، وأن تلاميذه كانوا ، إذا تكلم مع أحد ، يدهون حاساً ويكتنون الأحاديث التي ترد في كلامه

(١) طبقات السككي ٣ ص ٣٣ (٢) اطر الفصل الخاص بالعقائد

(٣) Nawawi, Tyrib, trad Marçais, JA, 1901, 18, S 88 والطبعة العربية ، النوع السابع والعشرون ، وهذه كانت هي العادة الحارة في القرن الرابع كما يدل على ذلك ما روى من أن الخطيب البغدادي كان يأمر المستملى أن يرفع صوته بذلك

(٤) الارشاد ح ٦ ص ٢٨٢ (٥) من المصدر ح ٥ ص ٢٧٢

(٦) اطر Goldziher, ZDMG, 1907, S 861 ، وقد حكى السمرقندي ( سان السارفين ص ١ ) عن عبد الرحمن بن أنى البلي أنه قال أدركت مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان منهم محدث إلا ود أن أحاه كفاء الحديث ولا تمثب إلا ود أن أحاه كفاء الفتوى

دون أن يعطى هو لذلك<sup>(١)</sup> وكان أوسع الصلوكي يُطلب منه التحديث فيمتنع أشد الامتناع ، ولم يقعد لذلك إلا في آخر عمره عند ما بلغ السبعين<sup>(٢)</sup> على أن التحديث كان يعتبر نوعاً من العادة يحتاج إلى آداب خاصة فيستحب للمحدث قبل أن يجلس للحديث أن يتطهر ويتطيب ويسرح لحيته ، وأن يجلس متمكناً بوقار ، فإن رفع أحد الحاصرين صوته رحره ، وعليه أن يقل على الحاصرين كلهم<sup>(٣)</sup>

ويروى لنا من القرنين الثاني والثالث للهجرة أنه كانت تُرمى رقاع في حلقة بعض العلماء الصالحين أمام العالم ، وتتصن هذه الرقعة طلباً دعاء لريض أو صاحب حاجة ، فيقص العالم عليها ويقرؤها ، ويدعو لصاحبها ، ويؤتمن على دعائه من حصر ، ثم يمضي في درسه<sup>(٤)</sup>

وقد رويت لنا من القرن الرابع هذه الحكاية التالية لما عزم الصاحب بن عباد على إملاء الحديث ، وهو ورير ، « خرج يوماً متطلساً متحنكاً يرى أهل العلم فقال قد علمتم قدمي في العلم ، فأقروا له بذلك ، وأنا متلئس بهذا الأمر ، وجميع ما أبقته من صغري إلى وقتي هذا من مال أتي وحدي ، ومع هذا لا أحلو من نعمات أشهد الله وأشهدكم أي نائب إلى الله من ديب أدبته ، واتخذ لنفسه بيتاً أسماه بيت التوبة ، ولست أسوياً على ذلك ، ثم أحد خطوط الفقهاء بصفة توبته ، ثم خرج وقعد للإملاء وحصر الخلق الكثير ، وكان المستمل الواحد يضاف إليه ستة ، كل يبلغ صاحبه ، فكتب الناس حتى القاصي عند الحمار<sup>(٥)</sup> »

وكان أبو الحسن الدارقطني ( المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م ) يقرأ عليه تلاميذه ، فإذا أخطأ أحدهم سترح أو قرأ شيئاً من القرآن بقصد التصحيح ، من الآيات التي تكون

(١) انظر ما ذكره مارسيه في هامش ترجمه لكتاب القرب للووي JA, 1901, 17, S

196 Anm 2

(٢) الطبقات للسبكي ج ٢ ص ١٦١

(٣) القرب للووي ترجمة مارسيه f 85 JA, 1901, 18, S ( النوع السابع والعشرون من الطبعة العربية ) ، وذكر مارسيه عن العراقي أن سفيان الثوري كان يجلس القراء في الصف الأول

(٤) الإرساد لياقوت ، ج ٦ ص ٣٨٤ ، ومروء الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٨٥ وما بعدها

(٥) الإرشاد ج ٢ ص ٣١٢

ملائمة لذلك<sup>(١)</sup> وتوفي أحد العلماء في سنة ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م وكان يتنذى كل يوم بتدريس القرآن ، ثم يدرس الحديث ، وكان يجلس على حال واحدة لا يتحرك ولا يعث في شيء من أعصابه ، ولا يعير شيئاً من هيئته ، وكان يقرأ نفسه حتى يستنفد قوته ويبلغ النهاية في جهده في القراءة<sup>(٢)</sup>

وكان أبو الحسن الناهلي يدرس في كل جمعة مرة واحدة ، وكان يرحى السريبيه وبين تلاميذه كي لا يروه ، وسئل عن سبب إرساله الحجاب بينه وبين الناس فأجاب إهم يرون السوق ، وهم أهل العلة ، فيروني بالعين التي يرون بها أولئك ، « وكان من شدة اشتغال قلبه بالله مثل والده أو محبوه ، لم يكن يعرف مبلغ درسا حتى يذكره<sup>(٣)</sup> وكان بعض العلماء إذا انتهى مجلسه يقول قوموا ، فيقوم تلاميذه ، ويأخذ هو يدعو الله<sup>(٤)</sup>

وقد اختلف العلماء متى يبدأ الإنسان في سماع الحديث ، فذهب جماعة إلى أنه يستحب أن يتنذى الإنسان بسماع الحديث بعد ثلاثين سنة ، وقال آخرون بعد العشرين ، ونقل القاصي عياص ، قاصي قرطبة ( المتوفى عام ٥٤٤ هـ — ١١٤٩ م ) أن مذهب المحدثين أنهم أن أول زمن يصح فيه السماع خمس سنين ، ويذكر حديثاً للسجاري ( كتاب العلم ، الباب الثامن عشر ) لإثبات هذا الرأي ويقول النووي ( المتوفى عام ٤٧٦ هـ — ١٠٨٣ م ) إن العمل استقر على ذلك في زمانه ويحكى أن الحميدي المحدث المشهور كان أبوه يحمله على كتفه<sup>(٥)</sup> إلى مجلس الحديث ، ولهذا يذكر مؤرخو الحديث السن الذي بدأ عنده كل محدث في سماع الحديث ، وكان يسدر أن يذهب الولد لسماع الحديث وهو في السادسة من العمر ، ويقال إن القاصي التوحى المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م ، ممن سمع الحديث وهو في سن ست<sup>(٦)</sup> ، ويقال إن أبا نعيم الأصفهاني أكبر محدثي عصره سمع

(١) طبقات السكيتي ح ٢ ص ٣١٢

(٢) المسظم لآل الحوري ص ١١٦٣

(٣) طبقات السكيتي ح ٢ ص ٢٥٧ (٤) نفس المصدر ص ١٩٢

(٥) العرب للنووي ترجمة مارسية اطر f 193, 17, 1901, JA Marçais ، والسجدة العربية

النوع الرابع والعشرون

(٦) المسظم ص ١٣٦ ب



الحديث وهو ابن ثمان<sup>(١)</sup> والعاب أن يبدأ في سماع الحديث في الحادية عشرة ، وفي هذا السن سمع الحديث الخطيب العدادي المحدث المشهور وثلاثة من شيوخه<sup>(٢)</sup> ، وكذلك ابن الحوري ، فقد كتب الحديث وله إحدى عشرة سنة<sup>(٣)</sup> وكان بعض المحدثين لا يقل في مجلسه من لم يكن ملتجياً ، خوفاً من قصص الغرام فيما يظهر ، ويُذكر أن صبياً كان شديد الرعة في سماع الحديث ، ومع من ذلك فأتحد لعنه لحية مصطبة<sup>(٤)</sup>

وقد اختلف أيضاً في السن التي يحور للرجل فيها أن يتصدى لتدريس الحديث ، فذهب النووي إلى أنه يحور للإسنان أن يجلس لذلك في أي سن متى احتيج إلى ماعده ؛ ويحب على الشيخ المس أن يمسك عن التحديث ، إذا حشى التحليط هزم أو حرف أو عي<sup>(٥)</sup>

وكان الاسعراي أكرأمة الشافعية في القرن الرابع الهجري ، طالباً فقيراً ، وكان يشتغل حملاً<sup>(٦)</sup> وكان آخرون في وقت طلبهم للحديث يسكنون في مثدبة المسجد الذي يستمعون فيه الحديث<sup>(٧)</sup> ويحكى عن الوزير أبي الحسن بن الفرات (المتوفى عام ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م) أنه كان يطلق للشعراء في كل سنة من سني وراثته عشرين ألف درهم رسماً لهم ، سوى ما يصلهم به متفرقاً ، وعند مديحهم إياه ، فلما كان في وراثته الأخيرة تذكر طلاب الحديث ، وقال لعل الواحد منهم يحل على نفسه مذاق ودونه ويصرف ذلك في ثمن ورق وحرير ، وأما أحق عمراتهم ومعاوتهم على أمرهم ، وأطلق لهم من حراته عشرين ألف درهم<sup>(٨)</sup>

(١) السكبي ح ٣ ص ٨ .

(٢) تاريخ بغداد JRAS, 1912, S 50 (٣) السطيم ص ١٢٧ ب

(٤) Wustefeld, Schafirten, AGOW 37, Nr 88

(٥) القريب للنوي ترجمه مارسبه JA, 1901, 18, S 84 ، [والنسخة العربية آداب المحدث ، في النوع السابع والعشرين] . وقد كان المحدثون المأخرون مساءً في حكمهم على العمى من المحدثين ، فقد أراد البعض أن يسحبوا منهم كل ثقة في أمر الحديث ، وهذا يدل على ما أصبح للسكينة من الشأن وعلى قصص هذه الذاكرة وما كان لها من العدير فيما مضى . وقد قال الخطيب العدادي إن الأعمى في مرة الصبر الأعمى — من المصدر ص ٦٣ ، [والنوع السادس والعشرون]

(٦) AGGW, 37, Nr 287 ، وفي طبقات السكبي ح ٣ ص ٢٦ أنه كان في أول أمره يحرس في

من الدور

(٧) الأرشاد لياقوت ح ١ ص ٢٥٥ (٨) كتاب الوزراء ص ١ — ٢ ٢

يدلنا هذا على أن المعاهد العلمية التي كان يستطيع الطلاب أن يلحأوا إليها لم تكن قد طهرت ، وكان جزء كبير من مثل هذه المطايا لا يُصرف إلى الطلاب ، بل لغيرهم بواسطة دوى الخاء ، كما يصرح بهذا صاحب كتاب الورراء . وكان العالم إذا لم تكن فقيهاً صاحب منصب ، ولم يجد ما يعيش منه ، اشتغل بنسخ الكتب كما حُكي عن أبي بكر يا يحيى بن عدي المتوفى عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م ، وكان من أكر فلاسة القرن الرابع ، ومذهبه مذهب الصارى اليعقوبيين ، ودُكر عنه أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبرى ، وأنه كان يكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة<sup>(١)</sup> وكان سيساور وراق يسمى أبا حاتم ورتق بها حسين سة ، وهو القائل

إب الوراق حرفة مدمومة محرومة عيشى ——— رمن  
إن عِشْتُ عِشْتُ وليس لى أكل أو مُتُّ مُتُّ وليس لى حِكْمٌ<sup>(٢)</sup>

وكان أبو بكر الدقاق المعروف باسم الخاصة المتوفى عام ٤٣٩ هـ — ١٠٨٦ م يقول والده وروحة وبتاً من الوراق ، وفى سة واحدة كتب صحيح مسلم سبع مرات ، وهو يقول « فلما كان ليلة من الليالى رأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت ، وماد ينادى ابن الخاصة ، فأحصرت ، فقبل لى أدخل الحنة ، فلما دخلت الباب وصرت من داخل استلقيت على قعائى ووصعت إحدى رجلي على الأخرى وقلت آه استرحت والله من السع<sup>(٣)</sup> »

وقد قيل إن من آفات العلم حياة الوراقين وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسحون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا<sup>(٤)</sup>

ولم تكن حرفة التعليم تدرّ شيئاً كثيراً ، فقد ذهب طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وأحمد بن حنبل وسفيان الثورى وغيرها إلى أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجراً عن

(١) الفهرست لاس الديم ص ٢٦٤ ، وأخبار الحكماء للقفطى ص ٣٦١ من الطبعة الأوروسية .

(٢) نعمة الدهر ح ٤ ص ٣١٩

(٣) الإرصاد لياقوت ح ٦ ص ٣٣٧

(٤) مذكر هذا كثيراً ولا سيما فى تراجم المالكة

تعليمه القرآن والحديث<sup>(١)</sup> ، وأحار ذلك آخرون ، ولكمهم جعلوا معلم الحديث في درجة أعلى لأنه يعلم انتعاء الثواب الأخرى وفي القرن الثامن الهجري امتنع النووي أن يأخذ رزقاً لتدريسه في المدرسة الأشرفية ، وكان الرجل إذا انتهى من مجلس علم فقد له من غير أحر ، قال له الطالب آحر ك الله ، وهو يقول بعك الله<sup>(٢)</sup> وفي سنة ٣٤٦ هـ — ٩٥٧ م توفي أبو العباس الأصم ، وكان من أكر علماء حراسان ومحدثيهم ، وقد طهر به الصم وهو ابن ثلاثين سنة ، ثم استحكم حتى كان لا يسمع هيق الحمار ، وكان إذا ذهب إلى المسجد للتحديث وجد السكة قد امتلأت بالناس ، وكانوا يقومون له ويحملونه على عواتقهم إلى مسجده وكان لا يأخذ شيئاً على التحديث ، وإما كان يورق ويأكل من كسب يده<sup>(٣)</sup> وحكى عن أبي بكر الخورقي محدث بيساور المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م أنه قال « أسفت في الحديث مائة ألف درهم ما كسبت به درهما<sup>(٤)</sup> » وكان أبو بكر الخطيب البغدادي يوماً في جامع صور ، فدخل عليه بعض العلوية وأعطاه ثلثمائة دينار وضعها على سجادة الخطيب ، فقام الخطيب محمراً الوجه ، وأخذ السجادة وحرر من المسجد ، وترك العلوي يلتقط الدنانير من تنقوق الحصيد<sup>(٥)</sup>

أما إذا كان أحد معلم صبيان أو معلم كتاب ، كما كان أوريد السلحي العالم المشهور المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م<sup>(٦)</sup> ، فمعى هذا عيش مرة وحرفة مخترة وقد ألف الحافظ كتاباً في المعلمين ملأه بالحكايات التي تدل على حماقاتهم وقلة عقلهم ورأيهم ومن أمثال العامة أحق من معلم<sup>(٧)</sup> ولعل كثيراً مما لحق المعلمين من صروب الاستهراء إنما يقع إنمى على الروايات اليونانية الهلالية ، لأن العلم فيها كان من الشخصيات المصحكة وقد ذكر ابن قتيبة عن السدي أنه كان لا يستحلف المكارى ولا الخائف ولا الملاح ، ويجعل القول

(١) اطر مقدمة سان العارفين للسرفدى ، والعرب للنوى ، Marçais JA, 1901,

17, S 143

(٢) طبقات السكي ح ٣ ص ٢٩٧ (٣) المسطم لاس الحورى ص ١٨٧

(٤) السكي ح ٢ ص ١٦٩ (٥) نفس المصدر ح ٣ ص ١٤

(٦) الإرساد لاقوب ح ١ ص ١٤١

(٧) البان والبس للعاحط ح ١ ص ١ طبعة مصر ١٣١١ هـ



قول المدعى مع يمينه ، ويقول اللهم إني أستجيرك في الحقال ومعلم الصبيان<sup>(١)</sup> وكان  
 ابن حبيب أحد علماء اللغة والأحبار والشعر (توفي عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) يقول إذا قلت  
 للرجل ما صاعقتك ؟ فقال معلم ، فاصنع<sup>(٢)</sup> ويحكى ابن حوقل عن أهل صقلية أنهم  
 كانوا يكثرّون التعدي بالصلب اليبي<sup>(٣)</sup> ، « وما فيهم من لا يأكله في كل يوم ، ويؤكل في  
 داره صباحاً ومساءً من سائر طبقاتهم ، وهو الذي أفسد تحيلهم ، وصر أدمعتهم ، وحير  
 حواسهم ، وعير عقولهم ، ونقص أبنامهم ، وأفسد سحنة وجوههم ، فأحال مراحهم ، حتى  
 رأوا الأتشاء أو أكثرها على غير ما هي عليه والذي دخل تحت العدة أن فيها أريد من  
 ثلثائة معلم يؤدون الصبيان ، وهم يرون أنهم أفصلهم ، وأهم أهل الله ، وهم شهودهم وأماؤهم ،  
 هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم وحقمة أدمعتهم ، وإنما لحأوا إلى هذه الصناعة  
 هرباً عن الجهاد وكولا عن الحرب<sup>(٤)</sup> » وكان يدفع للمعلم أحره أحياناً عدا المال أشياء  
 مما يأكله الناس ويتنعمون به ، ولذلك كانت « رعمان المعلم » متلاً يُصرب في الاختلاف  
 وشدة التفاوت ، لأن رعمان المعلم تختلف بحسب اختلاف آباء الصبيان في العى والفر ،  
 والحد والحل وقد أشد الحاحط للرقاشي في معلم

مختلف الحر حفيف الرعيف      منثر الراد لثيم الوصيف  
 وأشد لأنى الشقيق

حر المعلم والنقال متفق      واللون مختلف والطم والصور  
 أما المعلمون الذين يؤدون الأولاد في البيوت العنية فكانوا أحسن حالا ، يقول  
 الحاحط<sup>(٥)</sup> « يكون الرجل محوياً عروصياً وهو يرصى أن يعلم أولاداً بستين درهماً ،  
 ولو أن رجلاً كان حسن البيان حسن التحريح للمعاني ، ليس عنده غير ذلك لم يرص نألف

(١) عون الأحبار طبعه بروكلمان ص ٩٣

(٢) الإرساد ح ٦ ص ٤٧٣ (٣) ابن حوقل ص ٨٦ — ٨٧

(٤) عمد المنسوب للعالي، ZDMG, VI، وثمار القلوب في المصاف والمنسوب ص ١٩٤ — ١٩٥ ،  
 وكان يوم الثلاثاء ونوم الجمعة يوم عطلة مدرسه ( انظر ديوان ابن المعتز ح ٢ ص ٣ ، ومقدمه متر لكتاب  
 حكاية أنى القاسم الأردى ص ٥٧ ، وفيما يخص بالصور المأخرة ( انظر كتاب ألف باء ح ١ ص ٨ ، ٢ ،  
 والمدخل ح ٢ ص ١٦٨ ) ، وكان الصبيان يكتسون على ألواحهم بالطباشير ( مقدسى ص ٢٤٤ ) ، وكان  
 المعلم يؤدهم بأن هربهم بالسير ( يمينه الدهر ح ٢ ص ٦٣ )

درهم<sup>(١)</sup> ، وكان عند قائدٍ لعبد الله بن طاهر مؤدب ررقه في الشهر سبعون ديناراً ، وذلك في القرن الثالث الهجري وكان مثل هذا المعلم يطل تحت إشراف من اختاره ، وهو الذي يقدّر ررقه ، ويطوف عليه ويتعهد من بين يديه من الصبيان ، وهو يصرفه ويدلّه به غيره إذا لم يعجبه<sup>(٢)</sup> وكان مؤدّبوا الأمراء أحسن المؤدّبين حالاً ، وكان الذين يُختارون لتأديب أساء الأمراء هم علماء اللغة المشهورون ، فمن ذلك أن محمد بن عبد الله بن طاهر ، وكان من أحمود أمراء رماه ، اختار لتأديب ابنه طاهر أحمد بن يحيى ثعلب السحوي اللعوي إمام الكوفيين ، فأورد له داراً في داره كان يقيم فيها هو وتلميذه ، وكان يتعدى معه ، وقد أقام له الأمير مع ذلك في اليوم سبع وطائف من الخبز الحشكار ووطيعة من الخبز السميد وسبعة أرطال من اللحم وعلوفة رأس ، وأخرى له في الشهر ألف درهم<sup>(٣)</sup>

وفي سنة ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م احتفل أبو القاسم بن الورير الخفافي بدخول ابنه الكتاب ، فدعا من القواد والرؤساء جماعة بلعوا ثلاثين نقسا ، وأمر الداعي بإعطاء المعلم ألف دينار ، وأكرم الساس ، وأكلوا<sup>(٤)</sup> ، وكان يلازم المأمون في الكتاب علامة لمعلمه ، فكان إذا احتاح المأمون إلى محو لوحه نادر إليه ، فأخذ اللوح من يده وعلب على علماء المأمون فمسحه وحاء به فوضعه على المذيل في حجره<sup>(٥)</sup>

وكان العلماء الكبار يأخذون أرزاقاً من السلطان ، وكانوا فريقين فقهاء وعلماء ، وثمّ فريق ثالث أكثر رزقا ، وهم الدماء الذين يحالسون الحصرة ، وكان البعض يأخذ رزقا في هذه الطوائف كلها كالرخاخ المتوفى عام ٣١٠ هـ ، فقد كان له ررق في الدماء ، وورق في الفقهاء ، وورق في العلماء ، وملع ذلك ثلثائة دينار ، وكانت له مرة عظيمة<sup>(٦)</sup> وقد أحرى الخليفة المقتدر على ابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ حسين ديناراً في كل شهر حينا قدم بغداد فقيراً<sup>(٧)</sup> وكذلك أحرى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب على أبي نصر الغاراني

(١) البان للحاحط ج ١ ص ١٥١

(٢) الإرشاد لابن قوتوب ج ١ ص ١٢٢

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ١٤٤

(٤) كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين ص ٧٩ ب

(٥) المحاسن والساوى للنسبي الطبعة الأوروبية ص ٦٢

(٦) Wüstenfeld, AGOW, 37, Nr 92

(٧) المهرست ص ٦١

الفيلسوف التركي المتوفى عام ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م أربعة دراهم كل يوم ، فاقصر عليها<sup>(١)</sup> .  
ويذكر أن محدثي هذا العصر من العلماء من يتحد صاعاً أو تحارة يعيش بها إلى جانب  
العلم فيحكي أن أنا نكر الصعي المتوفى عام ٣٤٤ هـ — ٩٥٥ م كان يبيع الصنع نفسه  
أو يعمله نفسه في الحانوت على عادة العلماء المتقدمين الذين يتسبون في المعاش ، وكان حانوته  
مجمع الحفاط والمحدثين<sup>(٢)</sup> وقد أوصى الصعي لأحد العلماء في أمور مدرسته « دار السنة » ،  
وقوص إليه تولية أوقافه في ذلك<sup>(٣)</sup> وكان دعلج بن أحمد بن دعلج أبو محمد السحري ( المتوفى  
عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م ) تبيع أهل الحديث ، وكان فقيهاً ، ويقال إنه لم يكن في الدنيا من  
التحار أيسر منه ، وقد حلف ثلثمائة ألف دينار ، ويحكي أنه بعث بالمسد إلى رجل ليطر  
فيه ، وحمل في الأحرار بين كل ورقتين ديناراً ، « وكان يقول ليس في الدنيا مثل داري ،  
لأنه ليس في الدنيا مثل بعداد ، ولا بعداد مثل القطيعة ، ولا بالقطيعة مثل درب أنى حلف  
ولا في الدرب مثل داري<sup>(٤)</sup> » وكذلك كان بمصر أبو العباس أحمد بن محمد الديبلي الحياط  
المتوفى عام ٣٧٣ هـ ، وكان فقيهاً جيد المعرفة على مذهب الشافعي ، وكان قوته وكسه من  
حياطته ، كان يحيط قبصاً في جمعة بدرهم وداقيق ، طعامه وكسوته منها علاء ورحصاً ،  
« وما ارتفق من أحد بمصر بشربة ماء<sup>(٥)</sup> » وكان بمصر عالم آخر توفى عام ٤٩٢ هـ —  
١١٠٩ م ، وكان يبيع الخلع لأولاد الملوك<sup>(٦)</sup> على أسا محمد أن أنا عمر المطر المتوفى عام  
٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م ، وكان أحد أئمة اللغة المشاهير المكثرين ، قد مبعه اشتعاله بالعلوم عن  
اكتساب الرق ، فلم يرل مصيئاً عليه<sup>(٧)</sup> ويقول أحمد بن فارس اللعوى المتوفى عام  
٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م

إذا كنت في حاجة مرسلأ وأنت بها كلف معرم  
فأرسل حكماً ولا توصه وداك الحكيم هو الدرهم

(١) تاريخ أنى العدا تحت عام ٣٣٩ هـ ( ح ٢ ص ٤٥٨ )

(٢) السكى ح ٢ ص ١٦٨ . (٣) من المصدر ح ٣ ص ٦٦

(٤) السكى ح ٢ ص ٢٢٢ (٥) من المصدر ح ٢ ص ١٢

(٦) من المصدر ح ٣ ص ٢٩٧

(٧) تاريخ أنى العدا تحت عام ٣٤٥ هـ ( ح ٢ ص ٤٦٤ )



وكان يقول

يا ليت لى ألف دينار موحية وأن حظى بها فلس فلاس  
قالوا فمالك منها؟ قلت تخدمى لها ومن أحلها الحق من الناس<sup>(١)</sup>

وأخيراً دخل علماء الإسلام فى نهاية هذا العصر فى حملة العطاء وأصحاب الألقاب، وكان الأسمرائى الأصغر المتوفى عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م نيسابور أول من لقب بين العلماء ركن الدين<sup>(٢)</sup> وفى ذلك العصر طهر لقب على سبيل التكريم وهو لقب شيخ الإسلام الذى صار له شأن كبير فيما بعد، وكان ظهوره عند فريقين مختلفين، وذلك أن أهل السنة فى حراسان لقنوا به أحد علمائهم، فثارت نفوس المحسنة بمدينة هرات وعمدوا إلى شيخ لهم ألف كتاباً فى دم الكلام فلقنوه به<sup>(٣)</sup>

ولم يكن يحلو الحال من شخصيات مصحكة بين المعلمين كالتى نراها فى المحلات الهزلية فقد كان بين المرتد وتعلب مسافرات كثيرة، والناس يحتفلون فى تفصيل كل واحد منهما على صاحبه، وكان يسمى بينهما السعاة، ويقولون لأحدهما هاء الآخر، وكانا يتناطران<sup>(٤)</sup> ويحكى أن قتادة السدومى قال مرة ما كنت شيئاً قط، ثم قال يا علام! ناولى على، قال بلك فى رحلك<sup>(٥)</sup> وكان ابن حالويه اللعوى عالماً عليطاً، فيحكى أنه وقع بين يديه وبين المتنى كلام فى مجلس سيف الدولة، فوثب ابن حالويه على المتنى وضرب وجهه بفتح كان معه، فخرج المتنى ودمه يسيل على ثيابه<sup>(٦)</sup> وكان سطويه مشهوراً بعلومه كما كان مشهوراً بالقدرارة والصنان وتن الرائحة، وقد أثرت فى عقل الجوهرى صاحب المعجم المشهور

(١) الإرشاد لياقوب ح ٢ ص ٩

(٢) Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr 316 ، وكان أحمد بن عبد الله أبو محمد المرنى المعقلى الهروى المتوفى عام ٣٦٥ هـ — ٩٦٦ م إمام أهل العلم والوجوه وأولياء السلطان محراسان فى عصره مع رتبة الورارة وعلو العدر عند السلطان، وكان يقال له الشيخ الحليل معارى وكان فوق الورراء لعظمه، وكانوا يصدرون عن رأيه، (طبقات السكى ح ٢ ص ٨٥ — ٨٦)

(٣) طبقات السكى ح ٣ ص ٤٧، ١١٧

(٤) الإرشاد ح ٢ ص ١٤٩ (٥) المصدر ح ٦ ص ٢

(٦) ابن حلكان (الوفيات) طبعه قسنطينة ح ١ ص ٦٥

( المتوفى عام ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م ) كثرةُ عمله ، فقد صنف كتاب الصحاح في اللغة حتى وصل إلى باب الصاد ، ثم اعتزته وسوسه فانتقل إلى الجامع القديم ببساور ، فصعد إلى سطحه ، وقال أيها الناس ! إني عملت في الدنيا شيئاً لم أسبق إليه - فسأعمل للآخرة شيئاً لم أسبق إليه ، وصمّ إلى حبيه مصراعين باب وتأطّهما بحبل ، وصعد مكاناً عالياً من الجامع ورسم أنه يطير ، فوقع فمات

---

## الفصل الثالث عشر

### علوم الدين

في القرن الرابع الهجري مرّ علم الكلام الإسلامي أو علم العقائد في أهم أدوار حياته ، وهو دور تحرّره من الفقه ، بعد أن ظلّ حتى ذلك الحين حادماً له<sup>(١)</sup> ، وكانت جميع كتب الكلام المعتزلة عند جمهور الأمة الإسلامية تتناول بعض الموضوعات الفقهية ومرجع الفصل في حدوث هذا التعبير إلى المعتزلة الذين كانوا طول القرن الثالث الهجري يعالجون مسائل كلامية محصية ، وهم في القرن الرابع يضطرونّ حصومهم إلى الإجابة عن هذه المسائل وكانوا أول فرقة إسلامية تحرّرت من رعات الفقهاء كلها ، فكانوا هم الفرقة « الكلامية » الوحيدة<sup>(٢)</sup> التي تعالج الكلام وحده بين الفرق الخمس الكبرى التي كان المسلمون منقسمين إليها في ذلك العهد ، وهي أهل السنة والمعتزلة والمرحّلة والشيعة والخوانساري<sup>(٣)</sup> وقالوا إن كلّ محتهد مصيب في الفروع<sup>(٤)</sup> وكان مهم رجال في جميع المذاهب الفقهية حتى بين أصحاب الحديث الذين يعتبرون عادة أعداء المتكلمين<sup>(٥)</sup>

ومن جهة أخرى كان الصوفية حصوماً لأداء لجميع الفقهاء ، ولم يقنعوا قط من التشيع عليهم ، وقد عبّروا عن احتقارهم لعلم الفقه الذي يسمونه علم الدنيا تعبيراً قاسياً ، ومن أمثلة ذلك ما يقوله المكي المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م أحداً عن السيد المسيح عليه السلام ، « وروينا عن عيسى عليه السلام مثلاً علماء السوء مثلاً صحرة وقعت على قم النهر ، لا هي تشرب الماء ، ولا تترك الماء يَحُلُصُ إلى الررع ، وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة ، فلا هم يعدوا ، ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل »

---

(١) هذا الحكم يمحاح إلى بعد ، فإن علم الكلام استقلّ علماً بذاته في القرن الثالث وفي هذا القرن أيضاً تكوّن مبادئ علم الكلام السني ( المترجم )

(٢) المقدسي ص ٢٧ (٣) ابن حزم مثلاً ص ١١١

(٤) المقدسي ص ٣٨ ، والمعتزلة لابن المرتضى ص ٦٣

(٥) المقدسي ص ٤٣٩



قال ومثل علماء السوء كمثل قساة الخش ، طاهرها حس وباطنها تن ، ومثل القبور المشيدة طاهرها عامر وباطنها عظام الموتى »<sup>(١)</sup>

وقد انتصر الصوفية في هذا الباب ، في القرن التالي حاء العرالى إمام جمهور المسلمين المتأخرين ، فحاضر بأن علم الفقه علم ديبوى لا ديبى<sup>(٢)</sup> ومحمد بين الصوفية طوائف كثيرة ترفض العلوم حملة ، حتى إنه يحكى عن أبى عبد الله بن حبيب المتوفى عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م أنه كان يوصى الناس بأن يشتعلوا بالعلم ولا يعتروا بكلام الصوفية ، ويقول إنه كان يحبى المحبرة والورق في تيباه ويلهب إلى أهل العلم حبة ، فإذا علم به الصوفية حاصموه وقالوا لا تغلح<sup>(٣)</sup> وقد فرق الصوفية مرة أخرى بين المعرفة ( أى علم الحقائق ) وبين العلم ( بمعنى العلوم المألوفة للناس ) يقول الخلاج المتوفى عام ٣٠٩ هـ — ٩٢٢ م مستهزئاً بالعلم « يا عمماً ممن لا يعرف شعرة من بدنه كيف تبت سوداء أم بيضاء ، كيف يعرف مكوّن الأشياء من لا يعرف الحمل والمفضل ، ولا يعرف الآخر والأول والتصارييف والعلل والحقائق والحيل لا تصح له معرفة من لم يرل » ويحكى الخلاج في موضع آخر « رأيت طيراً من طيور الصوفية عليه حماحان ، وأبكر شأنى حبيب نقي على الطيران ، فسألنى عن الصفا ، فقلت له اقطع حماحك بمقارص العلماء ، وإلا فلا تنعنى ، فقال بحاح أظير ، فقلت له ويحك ليس كمثل شىء وهو السميع البصير ، فوقع يومئذ في بحر الهمم وعرق<sup>(٤)</sup> » ولكن بمحمد قوماً آخرين ، كالخبيد المتوفى عام ٢٩٨ هـ — ٩١٠ م ، يصرّحون بأن العلم أرفع من المعرفة وأتم وأشمل<sup>(٥)</sup> ومحمد بين العلماء كالشافعية مثلاً كثيراً من الصوفية ، وهذه حقيقة واقعة وكانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحاً ، فقد كانت هى الحركة العلمية التى صمّت أعظم القوى الدينية فى ذلك العهد ، والحركة

(١) فوب القلوب لأبى طالب المكى ح ١ ص ١٤١ طبعه مصر ١٣١ هـ

(٢) Goldziher, Zahiriten, S 182

(٣) Amedroz, notes on some sufi lives, JRAS, 1912, S 556

(٤) كتاب الطوائف للخلاج طبعه باريس ١٩١٣ ص ٢٣ ، ٣

(٥) نفس المصدر ص ١٩٥ على أن الصينى الأول لا يجوز أن يصراحة تقابلاً وتعارضاً بين المعرفة والعلم ، بل فهما معنى غير هذا ، ولا أرى عارضاً بينهما وبين ما يحكى عن الخبيد ( المترجم )

الصوفية في القريب الثالث والرابع أوجدت في الإسلام ثلاثة مبادئ أثرت فيه تأثيراً كبيراً وهي ثقة وطيدة كاملة بالله تعالى ، والاعتقاد بالأولياء ، وإحلال النبي محمد عليه السلام ، ولا ترال هذه المبادئ الثلاثة أهم العوامل وأقواها تأثيراً في الحياة الإسلامية<sup>(١)</sup>

وقد راد الإقبال على دراسة القرآن والحديث ، لأن ذلك واجب من أول الواجبات المعروضة على كل مسلم ومسلمة<sup>(٢)</sup> ولكن شأ في القرن الرابع رسم حديد ، وهو الذي يحير للإسنان رواية الحديث من غير لقاء رحاله ، ومن غير إحارة مكتوبة تحوّلته حق الرواية<sup>(٣)</sup> ، وهذا حلت دراسة الكتب محل الأسفار التي كان يقوم بها طلاب الحديث من قبل للقاء رحاله وقد استطاع ابن يونس الصعدي المتوفى عام ٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م أن يكون إماماً متيقظاً حافظاً في الحديث ، وإن كان لم ير رحل ، ولا سمع غير مصر<sup>(٤)</sup> وكان مثل العالم الذي يطلب الحديث مثل التاجر أو عامل السلطان في كثرة عشاياه للجانات التي يأوي إليها المسافرون أو في طوافه في السكك ، وهكذا بقي شأنه في الحركة والتحوّل زماناً طويلاً وفي سنة ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م توفي ابن مودة « حاتمة الرحالين » الذين رحلوا لسماع الحديث ، وقد جمع ألفاً وسبعمائة حديث ، ورجع إلى وطنه ومعه أربعون وقرأ من الكتب<sup>(٥)</sup> ويقول أبو حاتم السمرقندي (المتوفى عام ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م) لعلنا كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش والإسكندرية<sup>(٦)</sup> ويروى عن أبي يعقوب القزويني السرخسي (المتوفى عام ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م) أنه طلب الحديث فأكثر ، حتى راد عدد شيوخه على ألف ومائتي شيخ<sup>(٧)</sup> على أن العراقي على شهرته ومع أنه صار أكر حجة للعلم عند أهل القرون التي حامت بعده ، لم يسافر في طلب العلم إلا قليلاً فقد خرج من

(١) اطر الفصل الخامس بالدين

(٢) نستان العارفين للسمرقندي على هامش نسخة العاقل من ٣

(٣) Goldziher, Muh Studien, II, 190 ff ، وقد ذكر النووي أن من العلماء من أجاز صحة رواية الحديث كناه ، وذلك منذ القرن الثاني الهجري ، ويحد أمثلة كثيرة لمل هذه الرواية في المجموعات الفقهية الشرعية

(٤) حسن المحاضرة للسوطي ح ٢ ص ١٦٤

(٥) الرقاني ح ١ ص ٢٣ ، Goldziher, Muh Studien, II, 180

(٦) السكي ح ٢ ص ١٤١ (٧) حسن المصدر ح ٣ ص ١١٤

ملده طوس ، وسمع محر جان في الشمال ، ودرس في بيساور ، وكانت أكبر مدينة علمية في ملاده ، وهذا كل ما عُرف من أسفاره لطلب العلم وقد بين صاحب كتاب ستان العارفين<sup>(١)</sup> في القرن الرابع اختلاف الآراء في هذا الباب أوضح بيان ومن أمثلة النقد الذي وُحِّه للمحدثين أن الوهمي يصف أنا العرج الأصمعياني صاحب كتاب الأعاني (المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م) ، وهو الذي سمع منه الدارقطني المحدث المشهور ، بأنه أكذب الناس ، لأنه « كان يدخل سوق الوراقين ، وهي عامرة ، والدكاكين مملوءة بالكتب ، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ، ويحملها إلى بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها<sup>(٢)</sup> »

على أن المحدثين كانوا يُعتبرون أكبر العلماء شأناً ، وكانوا يُعدون من أعظم رجال الإسلام ، ولا يعوت المؤرخين ذكر وفاتهم إلى حام القليلين الذين يختارون دكرهم ، وهم يقصون الحكايات المعجبة التي تدل على مقدرتهم في الحفظ فيُحكى أن عبد الله بن سليمان بن الأشعث (المتوفى عام ٣١٦ هـ — ٩٢٨ م) كان محدث العراق ، وكان يحدث في دار الوريير على بن عيسى ، وقد نصب له السلطان مبراً حدث عليه ، وقد خرج إلى سحستان فسأله أهلها أن يحدثهم فقال مامعاً أصل ، فقالوا ابن أبي داود وأصول فأملى عليهم من حفته ثلاثين ألف حديث ، فلما قدم بغداد ، قال السعداديون مصى ابن أبي داود إلى سحستان ولعب بالناس ، ثم فَيَّحُوا فيحا ستة دماير إلى سحستان ليكتب لهم السحبة فكتبت ، وحىء بها وعُرضت على الحفّاط فخطأوه في ستة أحاديث ، لم يكن أخطأ إلا في ثلاثة منها<sup>(٣)</sup> ويحكى أن ابن عقدة (المتوفى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م) كان يحفظ بالأسايد والمتون حمسين ومائتي ألف حديث<sup>(٤)</sup>

وكان قاضي الموصل المتوفى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م يحفظ مائتي ألف حديث عن طهر قلب<sup>(٥)</sup> وفي سنة ٤١ هـ — ١٠١٠ م مات بمصر الحافظ ميسر ، وكان عنده درج طويل

(١) ستان العارفين للسمرقندي ص ١٨ وما يليها (٢)

(٢) تاريخ بغداد طبعة كرمكو JRAS, 1912, S 71

(٣) المسطم ص ١٣٦ ، السكي ح ٢ ص ٢٢٩ — ٢٣

(٤) المسطم ص ٧٢ ب

(٥) Goldziher, Muh Studien, II, 200



طوله سبعة وثمانون دراعاً مملوء الوحيين فيه أوائل ما يحفظه من الأحاديث<sup>(١)</sup> ويحكى العلماء مع العجم ما جرى لأى الفصل الهمداني بساوير مع الحاكم البساسورى ، ذلك أن أما الفصل لما ورد ببساوير ، وتعصب الناس له ، ولُقِّبَ بديع الرمان أُعجب نفسه ، إذ كان يحفظ المائة بيت إذا أشدت بين يديه مرة ويشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة ، فأكر على الناس قولهم فلان الحافظ فى الحديث ، ثم قال وهل حفظ الحديث مما يُذكر ؟ فسمع به الحاكم البساسورى فوجه إليه محرم وأحلّه جمعة فى حفظه ، فردّ الهمداني إليه المحرم بعد جمعة ، وقال من يحفظ هذا محمد بن فلان وجمعه بن فلان عن فلان ، أسام محتلة ، وألغاط متنايئة ، فقال له الحاكم فاعرف نفسك ، واعلم أن حفظ هذا أصيب مما أت فيه<sup>(٢)</sup>

أما من حيث السرعة فى تعلّم الحديث فستطيع معرفة ذلك مما حكى عن الخطيب البعداى أنه قرأ صحيح البخارى على كريمة بنت أحمد المرورى فى خمسة أيام<sup>(٣)</sup>

وأكر محدثى القرن الرابع هما أبو الحسن على الدارقطى المتوفى عام ٥٣٨٥ — ٩٩٥ م والحاكم البساسورى المتوفى عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م وقد حلّهما فى القرن الخامس أو بكر الخطيب البعداى المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م وقد وحدوا من كتب الحديث التى جمعت فى القرن الثالث الهجرى موضوعاً لبعضهم مما كان فى هذه الكتب من تنويع وما كان فيها من تناقص ولذلك قاموا بتأليف كتب جديدة فى الحديث ، مثلاً ألف الدارقطى كتاباً فى السنة ، وقد استدعاها الورير حمزة بن الفصل بن الفرات من بغداد وروه عمال كثير ، وأفق عليه نفقة واسعة ، وحرّح له المسند ، وكان لهذا الورير محالسن إملاء كتبها الدارقطى وأحرّمه وحرّحها<sup>(٤)</sup> ، أو هم قاموا بتأليف الاستدراكات أو المستدركات ،

(١) سكردان السلطان على هامش المحلاة ص ١٨٨

(٢) طبقات السكى ح ٣ ص ٦٦ — ٦٧

(٣) الإرشاد لباقوب ح ١ ص ٢٤٧ ، وسمى عند ابن شكوال ( ح ١ ص ١٣٣ )

كريمة المرورى

(٤) الإرشاد لباقوب ح ٢ ص ٤٠٨ ، وقد كتب بلامد مسلم حاشه كسا فى الصحيح ، ومهم

أبو حامد ( المتوفى عام ٣٢٥ هـ ) وأبو سعيد ( المتوفى عام ٣٥٣ هـ ) — طبقات السكى ح ٢ ص ٩٧ وما بعدها

كما فعل الدارقطى والحاكم ، لاعتقادها أن كثيراً من الحديث الصحيح قد فات جامعيه الأولين ، أو عمل المحرّحات أو المستحركات ، وقد فعل ذلك كلُّ محدّث كبير في القرن الرابع<sup>(١)</sup>

وكذلك ظهرت في القرن الرابع كتبٌ جديدةٌ تعالج تصحيحات الحديث ، ومنها كتب للخطيب وللدارقطى<sup>(٢)</sup> وقد اعتنى نقاد الحديث منذ أول الأمر بمعرفة رجال الحديث ووسط أسمائهم والحكم عليهم بأنهم ثقات أو ضعفاء ، ثم نظروا في الأساس الذي يبنى عليه هذا الحكم ، أعنى الصفات التي يجب توفرها في المحدّث الثقة ، وهو ما يعرف بالخرج والتعديل ويقال إن أول من ألف في هذا الباب يحيى بن كنان المتوفى عام ١٩٨ هـ — ٩١٤ م<sup>(٣)</sup> وبعد أن اشتغل العلماء بتأليف كتب الحديث الكبرى المعتمد عليها بدأوا في الفحص عن الرجال المذكورين فيها وألفوا الكتب في رواية الصحيحين وهكذا وقد أدّت بهم حاجتهم إلى السد المتصل<sup>(٤)</sup> أب يتحاوروا البحث في حياة الرواة والحكم عليهم إلى عمل تاريخ كامل لهم ، وهكذا وُحِدت « تواريخ » القرن الثالث الهجرى مثل تاريخ البحارى المتوفى عام ٢٥٦ هـ — ٨٧٠ م ، ومثل الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ — ٨٤٥ م التي روعى في تأليفها الرمان والمكان ، وكذلك ظهرت تواريخ المدن ، وهي المؤلفات التي ظهرت في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، وتمثّل كمالها في تاريخ بيساور الذي ألفه اليبساورى المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م والذي يرى السكى أنه يشتمل على تراجم أقوى وأكمل من تراجم الخطيب البغدادي<sup>(٥)</sup> ، وفي تاريخ أصفهان لأبى نعيم المتوفى عام ٤٣٠ هـ — ١٠٣٨ م ، وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م

---

(١) Goldziher, Muh Studien, II, 257, 273 ، وقد ذكر النووى في سرحه على مسلم (ح ١ ص ١٧) تلامذ الدارقطى  
(٢) ترجمه مارسه للعرب للنووى ، اطر Goldziher, و Marçais, JA, 1901, 18, S 115 f  
Muh Studien, II 241  
(٣) ترجمه مارسه للنووى JA, 1900 16, 321  
(٤) ويقال إن الشافعى ( المتوفى عام ٢٠٤ هـ ) أول من أثار هذه المسألة ( اطر ما ذكره مارسه في المصدر المقدم حكايه عبد اس عبد البر ( المتوفى عام ٤٦٣ هـ )  
(٥) طبقات السكى ح ١ ص ١٧٣

ويدلنا على مقدار الدقة التي أظهرها العلماء في طريقة القدما ذكر عن الخطيب من أنه ألف كتاباً في «رواية الآباء عن الأبناء» وآخر في «رواية الصحابة عن التابعين»<sup>(١)</sup> وكانت هذه المعارف المتعلقة برجال الحديث سال أعظم التقدير في ذلك الوقت، ويحكى عن القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروزي المتوفى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م، والمشهور بأنه أستاذ أبي حيان التوحيدي الكاتب الكبير أنه كان محراً يتدقق حفظاً للسيرة وقياماً بالأخبار، «وكان يرغم أن السيرة محرقة وحرارة القصص، وعلى قدر اطلاع الفقيه عليها يكون استساغته»<sup>(٢)</sup> وأكبر ما كان يثير إعجاب الناس في الخطيب السعداء دقته وقدرته على نقد الوثائق المكتوبة وإثبات ترويضها اعتماداً على معرفته بتواريخ حياة الرجال الذين يدكرون فيها<sup>(٣)</sup> وفي القرن الرابع الهجري ألف الكرايسي المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٨٨ م كتاباً في أسماء الرواة وألقابهم، وقد اعتبر هذا الكتاب أحسن الكتب قديمها وحديثها<sup>(٤)</sup>

على أن الدراسات التاريخية لم تكن محمودة عند العلماء؛ ويحكى عن ابن إسحاق المتوفى عام ١٥١ هـ — ٧٧٦ م أنه سأل أحد التلاميذ الذين يدرسون التاريخ مستهزئاً به من الذي كان يحمل لواء الخالوت<sup>(٥)</sup>، أما الآن فيحكى لنا أبو القاسم الرمحي عن المحدثين الذين سمع منهم في أول القرن الرابع الهجري قصصاً تاريخية محضة مثل أخبار المنيصة، ومقتل ححر ابن عدي رعيم الشيعة، وكتاب صفين، وكتاب الحمل وبخوها<sup>(٦)</sup> ولكن الاتجاه تغير فيما بعد حتى نجد النووي يعيب ابن عبد البر المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م بأنه أفسد كتابه بما صممه من أخبار المؤرخين<sup>(٧)</sup>

وكذلك وصفت الأصول التي بنى عليها نقد الحديث وتكامل ساؤها في القرن الرابع، وأحدث مصطلحاتها من هذا العصر أيضاً وقد رتب ابن أبي حاتم المتوفى عام ٣٢٧ هـ —

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٨

(٢) السكّي ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣

(٣) الإرشاد ج ١ ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٤) مارسية في ترجمه للعرب للنووي Marçais, JA, 1901, 18, S 133

(٥) Goldziher, Muh Studien II, 207

(٦) كتاب الورراء ص ٢ ٢

(٧) القرب للنووي JA, 1901, 18, S, 123



٩٣٩ م ألعاط الحرح والتعديل مراتب فأعلاها «تقة» أو «مُتَقَن» أو «ثَنَّت» أو «حجة» أو «عدل» أو «حافظ» أو «صايط»، والثانية «صَدُوق» أو «محله الصدق» أو «لا بأس به»<sup>(١)</sup> ، ويقال إن الخطابي المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م هو أول من عيّن أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهي الصحيح، والحسن، والضعيف، ثم حدد الدارقطني المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م معنى التعليق، وحاء الحاكم المتوفى عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٥ م محل أصول الحديث علماً مستقلاً ووضع هيكله الذي بقي في حملته إلى أيامنا، بحيث إن القرون التالية لم تُصِفْ في هذا الباب لما تمّ في القرن الرابع الهجري إلا أتياء ثانوية، بل إن تقسيم الرواة إلى أنواع صار هو المستعمل منذ عصر الحاكم<sup>(٢)</sup>، ويرجع إلى الخطيب ما جرى عليه كتاب الحديث من وضع نقطة في وسط الدائرة التي تكتب في نهاية الحديث بعد التصحيح بالمقارنة والمقالة<sup>(٣)</sup>

أما الدور الثاني في الناحية العلمية الدينية فقد قام به مُقرئو القرآن ومُحدّثو القرآن لا يَعمَل في كلامه عن البلاد التي وضعها عن ذكر أصحاب القراءات فيها، وإن كان قد أمان عن عدم محنته للمقرئين بأن وضعهم بأنهم لا يفسكون من الطمع وسوء السمعة<sup>(٤)</sup> وقد وضع ابن محاهد حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م أصول هذه الناحية<sup>(٥)</sup> وقد قامت حوالى هذا الوقت خلافات شديدة حول قراءة القرآن، وتدخلت الحكومة، فاصطهدت بعض أصحاب القراءات، فمثلاً صرب الوريث أبو علي بن مقلّة ابن شذوذ المتوفى عام ٣٢٨ هـ — ٩٣٩ م بالسوط واصطره أن يتبرأ من قراءات قرأها، وأحد حظه بالتوبة عنها فكتب «يقول محمد بن أحمد بن أيوب قد كتبت أقرأ حروفاً تحالف مصحف عثمان الجمع عليه والذي اتفق أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على قراءته، ثم بان لي أن ذلك خطأ، وأنا منه تائب

(١) نفس المصدر JA, 1901, 17, S 146 ، واضر Goldziher, Muh Studien, II, S 142

(٢) العرب JA 1900, 16, S, 330 ff ، وكذلك فعل ابن حبان المتوفى عام ٣٥٤ هـ ، اطر

نفس المصدر ص ٤٨٧ هامش رقم ١

(٣) العرب للنووي في JA, 1901 17, S 528

(٤) المقدسي ص ٤١

(٥) توفي ابن محاهد سنة ٣٢٤ هـ — ٩٤٥ م ، وكان وافر اللحية عظم اهمامه ، وكان يدعو الله

في دبر كل صلاة أن يجعله ممن هرب في فربه ، وقد رآه بعض الناس في المنام هـراً (المسظم لاس الحورى ص ١٥٦)

وعنه مُقلِّع وإلى الله حل اسمه منه يرى ، إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذي لا يحور خلافه ولا يُقرأ غيره<sup>(١)</sup> » ولكن ابن شسود حلف تلاميذ منهم محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الفرج الشسودي المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م<sup>(٢)</sup> على أن قراءات ابن شسود وعيره التي انتهت إليها لا خطر فيها مطلقاً<sup>(٣)</sup> ولكن كانت مسألة القراءات مسألة خطيرة ، لأن الاعتقاد بأن القرآن كلام الله من شأنه أن يحتم هذا وفي سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م توفى أبو مكر العطار المقرئ ، وكان قد قرأ بحروف تحالف الإجماع ، واستخرج لها وحوهاً من اللغة ذكرها في كتابه الاحتجاج للقراء ، وقراءاته تقوم على تصحيح الكلمات واستخراج وحوه بعيدة لها ؛ ورغم العطار أن كل ما صح في العربية من كلمات توافق حط المصحف فقراءتها حائرة ، وشاعت عنه هذه القراءات العربية ، فأكرها أهل العلم ووصل الأمر إلى السلطان ، فأحصره واستنانه محصرة القراء والفقهاء ، فأدعى بالتوبة وكُتب محصر توبته ، وأثبت جماعة من الحاصرين حطوطهم في المحصر بالشهادة ، وقيل إنه لم يبرح عن تلك الحروف ، وكان يقرأ بها إلى حين وفاته ، واستعوى بعض أصابع المسلمين من أهل العملة والعاوة<sup>(٤)</sup>

وفي سنة ٣٩٨ هـ — ١٠٠٨ م أظهر بعض الشيعة مصحفاً ذكروا أنه مصحف ابن مسعود ، وكان محالفاً للمصاحف ، فأشار الفقهاء والقضاة بإحراقه ، وأُحرق بمحصرهم ، ثم ورد إلى الخليفة كتاب بأن رحلا من أهل حصر الهروان حصر المشهد ليلة النصف من شعبان ، ودعا على من أحرق المصحف وسنه ، فقتل<sup>(٥)</sup>

وكما أن المذاهب الفقهية الأربعة حلت محل غيرها ، وكذلك حلت الحروف السبعة الشرعية المتفق عليها محل القراءات الشاذة في القرن الرابع الهجري<sup>(٦)</sup> ، وفي هذا القرن أيضاً

(١) الأوراق للصولي ص ٨٢ ، والفهرست لاس النديم ص ٣١ — ٣٢ ، والإرشاد لياقوت ح ٦ ص ٣ وما يليها ، Noldeke, Gesch d Korans S 274

(٢) طبعات المفسرين للسوطي ص ٣٨ من طبعه Meursinge ، ومسكونه ح ٥ ص ٤٤٧ والمنظم ص ١٥٤

(٣) ولكنها تحرف القرآن عن معانيه الطاهرة المعولة (المرحم)

(٤) المنظم ص ١٩٨ ، والإرشاد ح ٦ ص ٤٩٩

(٥) المنظم ص ١٥٢ ب ، وضعات السكي ح ٣ ص ٢٦

(٦) Noldeke, Gesch d Korans, S 275 ، والفهرست لاس النديم ص ٣١ وما بعدها ،

ظهرت كتب فيما سمي بالقراءات الثمان<sup>(١)</sup>

على أن حوار تفسير القرآن لم يكن أمراً مسلماً به في القرن الرابع دون استيعاء شروطه ،  
فيحكي لنا الطبري [ من أمثلة التخرُّج في ذلك ] أن الشعبي مر على السدي ، وهو يفسر  
القرآن فقال « لأن يُصرب على إستك بالطل حبر لك من مجلسك هذا<sup>(٢)</sup> »

ويحبرها السمرقندي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى في يد رجل مصحفاً ، وقد  
كتب عند كل آية تفسيرها ، فدعى بمقراض فقرصه<sup>(٣)</sup> ونقل للسيوطي عن الأصمعي مثلاً  
أنه كان شديد التأله ، فكان لا يفسر شيئاً من القرآن ولا شيئاً من اللغة له بطير واستتقاق  
في القرآن ، وكذلك الحديث تخرُّجاً<sup>(٤)</sup>

على أن الطبري قد ذكر أمثلة تدل على أن الصحابة وخصوصاً ابن عباس كانوا يفسرون  
القرآن تفسيراً محموداً<sup>(٥)</sup> ولكن نقده<sup>(٦)</sup> يدل على أن الفريق الذي كان يحجم عن تفسير  
القرآن كان قوياً جداً وقد روى عن النبي عليه السلام حديث من شأنه أن يوفق بين  
الفريقين ، وهو قوله « من قال في القرآن رأيه فليتنوا مقعده من النار » ، وكل تفسير  
يجب أن يستند إلى أثر وارد عن النبي ، ولا يجوز أن يُعتمد فيه على الرأي ، ولا يكون القول  
بالرأي إلا في التفسير اللغوي للألفاظ<sup>(٧)</sup> على أما نجد في تفسير الطبري نفسه دليلاً على أن  
المفسر يستطيع رغم هذه القيود أن يقول في تفسيره بحق ومهارة أشياء كثيرة يدعي ألا تقال  
في التفسير<sup>(٨)</sup> ، هذا مع العلم بأن العلماء يقولون عن تفسير الطبري إنه لم يؤلف مثله ، لأن  
صاحبه جمع فيه بين الرواية والدراية ، ولم يشاركه في ذلك أحد لا قبله ولا بعده<sup>(٩)</sup>

على أن السمرقندي مع حرите الكبيرة في الرأي ، ومع كونه حفيظاً ، قد تكلم في

(١) Noldeke, Gesch d korans, S 299 ، وقد كتب أنو عام المصري الموق عام ٣٣٣ هـ  
في الاحلاف بين القراءات السبع ، وكذلك ألف مصري آخر ، وهو فارس ابن احمد الجصبي الموق عام  
٤١ هـ كتاب المنشأ في القراءات الثمان اطر حسن المحاصرة للسوسي ح ١ ص ٢٣٢ ، ٢٣٤

(٢) تفسير الطبري ح ١ ص ٣ طبعة المطبعة الميمنية بمصر

(٣) نسان العارفين ص ٧٤ — ٧٥

(٤) المرهف للسيوطي ح ٢ ص ٤٢ اطر أيضاً Goldziher, SWA, Bd 72, S 630

(٥) التفسير للطبري ح ١ ص ٢٦ (٦) ص ٢٦ — ٣

(٧) تفسير الطبري ح ١ ص ٢٧ (٨) ملاح ١ ص ٥٨ عبد الكلام عن العدر

(٩) طبقات المفسرين للسيوطي صفة Meursinge ص ٣



هذه المسألة بلا لئس ، ومع كل تفسير بالرأى ، وكل ما أحاره هو أن يحكى المفسر ما سمعه من بعض الأئمة على سبيل الحكاية ، وإذا أراد أن يستخرج حكماً من الآية فلا بأس أن يقول المراد من الآية كذا وكذا ، أعنى أن التفسير عند السمرقندى يكون على صورة الفصول المتعلقة بتفسير القرآن عند البخارى ومسلم ، وهو ما يفعله الفريق الثانى من المفسرين عند السيوطى ، وهم المفسرون المحدثون الذين صنعوا التفسير مسندة مورداً فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد<sup>(١)</sup> ثم إن السمرقندى يسمح بأن تستنط التفسير الفلسفية والآراء الفقهية فى الأحكام والأوامر من ذلك<sup>(٢)</sup>

والحديد الذى يلاحظه فى تفسير القرآن فى هذا القرن وفى القرن الذى تقدمه هو تعاون المعتزلة واحتجادهم فى تفسير القرآن ومن ألف فى التفسير مهم أبو على الحسائى ، ويقول الأشعرى تلميذه وحصنه وابن روحته إنه فى هذا التفسير ما روى حرفاً واحداً عن المفسرين ، وإنما اعتمد على ما وسوس به فى صدره وتبسطه<sup>(٣)</sup>

على أن أهل العرب السنيين ترددوا فى اتباع الأشعرى فى تفسيره للقرآن ، وكانوا يتركون التأويل ويمرثون المنشأهات كما جاءت اقتداءً بالسلف ، حتى جاء ابن تومرت وحملهم على القول بالتأويل والأحد مذهب الأشعرية<sup>(٤)</sup>

وقد ألف أبو الحسن على بن عيسى الرمانى المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م ، وهو عالم بالكلام والفقه والمحو واللغة ، تفسيراً للقرآن ، وقد بلغ من قيمة هذا التفسير أنه قيل للصاحب ابن عباد هلا صفت تفسيراً فقال وهل ترك لما على بن عيسى شيئاً<sup>(٥)</sup> ؟ وكذلك ألف أبو بكر المقاش المعترلى المتوفى بعداد عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م ، تفسيراً كبيراً يقع فى اتى عشر ألف ورقة<sup>(٦)</sup> ، و « كان يكذب فى الحديث »<sup>(٧)</sup> وكذلك صنف

(١) نفس المصدر ص ٢

(٢) نسان العارفين ص ٧٥ وما بعدها ، ولم أستطع أن أحقق إلى أى حد عمل السمرقندى بهذه الأحكام فى تفسيره الذى لا يزال مخطوطاً

(٣) W Spitta, Zur Gesch Adu'l Hasan al Asch'ari's, Leipzig, 1876, S 127 128

(٤) Goldziher, ZDMG, 41, S 59 ، ملاحى تاريخ العرب لابن خلدون ج ١ ص ٢٩٩

(٥) المعتزلة لابن المرسى ص ٦٣ ، والمفسرين للسيوطى ص ٢٤

(٦) الفهرست لابن النديم ص ٣٣ ، والإرشاد لابن خلدون ج ٦ ص ٤٩٧

(٧) السيوطى ص ٣

أبو بكر الإدهوى المصرى المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م تفسيراً يقع فى مائة وعشرين مجلداً<sup>(١)</sup> ولم يرد عليه فى عظم التأليف إلا عبد السلام القرويين شيخ المعتزلة بعدد المتوفى عام ٤٨٣ هـ — ١٠٩٠ م فإنه ألف تفسيراً فى ثلثمائة مجلد منها سبعة مجلدات فى العاتحة<sup>(٢)</sup>

وستطيع أن يكون لأنفسا فكرة عن طريقة هؤلاء المفسرين إذا عرفنا أن عبيد الله الأسدى المعتزلى المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م صنف تفسيراً للقرآن ذكر فيه فى سم الله الرحمن الرحيم مائة وعشرين وحماً<sup>(٣)</sup>

ولما كانت كل فرقة من الفرق فى هذا العصر تعتد بالقرآن وترجع إليه بحيث كان مصدرها الأكبر للاسديشهاد ومستودعها الذى تتسلح به فى أدلتها فقد كان لابد للقرآن ، ككل كتاب مقدس ، أن يتعرض لكثير من التكلف فى التفسير وقد اشتهر الصوفية والشيعة بأنهم أصحاب تأويلات ، وقد حروا على عادة مألوفة من قبل وهى الخروج عن ظاهر القرآن بالتأويل البعيد لإثبات دعاويهم<sup>(٤)</sup> وحاول بعض الشيعة أن يؤولوا كثيراً من الأسماء الواردة فى القرآن بأسماء أشخاص ، فقالوا إن المقرة التى أمر قوم موسى بدحها<sup>(٥)</sup> هى عائشة ، وإن الحنت والطاعوت<sup>(٦)</sup> هما معاوية وعمر بن العاص<sup>(٧)</sup>

أما المفسرون العلماء فكانوا على خلاف ذلك ، ومهم أن يورث اللحن ( المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م ) الذى تتلمذ للكمدى بعدد ، وأحد عنه الفلسفة والتنجيم والطب وعلوم الطبيعة كان اللحن يتبره عما يقال فى القرآن من تأويل بعيد ولا يقول إلا بالظاهر المستفيض من التفسير والتأويل ، وقد بين ذلك فى كتابه المسمى بظم القرآن<sup>(٨)</sup> ثم صنف

(١) حس المحاصرة للسوطى ح ١ ص ٢٣٣

(٢) السوطى ص ١٩ ، وهول السكى ( الطغات ح ٣ ص ٢٣ ) إن هذا التفسير سبعائة مجلد

(٣) السوطى ص ٢٢ ، ويرى أن نفسه حص المعتزلة أنهم فى تفسيرهم للقرآن ردوه إلى مذهبهم

وحملوه على محلهم وحاءوا فى إصاب صحة تأويلهم شواهد لا تعرف ( تأويل محلف الحديث ص ٨ وما بعدها )

(٤) Goldziher, Zahirten, S 132 هلا عن ابن حزم ح ٢ ص ١٤

(٥) سورة البقرة آية ٦٧ (٦) سورة النساء ص ٦

(٧) وهذا هو تفسير الروافض للقرآن عند ابن فيه فى محلف الحديث ، ص ٨٤ وما بعدها

(٨) الإرشاد لافوف ح ١ ص ١٤٨ ، ولم يذكر صاحب المهرست هذا الكتاب

كتانا في السحت عن التأويلات أعصب فيه رحلا قرمطياً ، فقطع هذا القرمطى عن الملحى  
صلاتٍ كان يُحريها عليه<sup>(١)</sup>

وكذلك كان لا بد للعويين من التدقيق في الألفاظ حتى أمكن وضع مصطلحات دينية  
خاصة تتميز عن اللغة المألوفة<sup>(٢)</sup> على أنه وإن كان أصحاب المذهب الطاهري بأجمعهم قد  
حصلوا أساس مذهبهم الأحد بالطاهر في تفسير كتب الشريعة ، وأولها القرآن ، فإن أحدا  
مهم لم يصف تفسيراً للقرآن ، وذلك لأسباب ستة ، وهي أن التفسير الحرفي للقرآن لم يكن  
يروق المسلمين في ذلك العهد كما أنه لا يروقنا اليوم

وقد كانت القصص القديمة العربية واليهودية والمسيحية المذكورة في القرآن ميدانا  
خاصاً لاختلاف وراع شديد ، وكانت هي النقطة التي يواحه العلم فيها مشكلة الخوارق ،  
لأن هذه القصص لا تعرف من تقدم محمداً عليه السلام من الأنبياء عليهم السلام إلا أنهم  
أصحاب معجرات ، ولذلك نجد أن أشهر الكتب التي ألفها أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي  
اليسابوري المتوفى عام ٤٢٧ هـ — ١٠٣٦ م ، والذي كان أوحده رمانه في علم القرآن ، بعد  
تفسيره المشهور للقرآن ، هو كتابه المسمى العرائس في قصص الأنبياء<sup>(٣)</sup>

وقد أولع البعض بالعرائب ليقصوها على الناس ، وبكلم المطهر المقدسى عن هذا الفريق ،  
فوصفهم بأن « الحديث لهم عن حمل طار أتى إليهم من الحديث عن حمل سار ، ورويا  
مُرِّيَّة آثر عسدهم من رواية مَرُوية<sup>(٤)</sup> » وأذكر قوم العجائب رأساً ، وصرفها آخرون  
إلى تأويل محول<sup>(٥)</sup> وقد ألف الرازي الطبيب المشهور حوالي عام ٣٠٠ هـ كتاباً سماه  
محاريق الأنبياء لم يستحر المطهر ذكر ما فيه « فإنه المفسد للقلب ، المذهب للدين ، الهادم  
للمروءة ، المورت للعص للأنباء صلوات الله عليهم<sup>(٦)</sup> »

(١) الفهرست ص ١٣٨ والإرساد للموت ح ١ ص ١٤١ — ١٤٢

(٢) Goldziher, Zehniten, S 134

(٣) طبقات المفسرين لاسوطي ص ٥ ، وقد ألف أبو رحاء الأسواني ص ١٧ (توفي في سنة ٣٣٥ هـ — ٩٤٦ م) فصدده ذكر فيها أحوار العالم وقصص الأنبياء بلعب مائة ألف وبلايين ألف باب (طاعت  
السكي ح ٢ ص ٨ ، وأبو المحاسن طبعه لندن ح ٢ ص ٣١٩)

(٤) كتاب البدء والبارخ للمطهر بن طاهر المقدسى طبعه هوار ح ١ ص ٥

(٥) نفس المصدر ح ٣ ص ١٧ (٦) نفس المصدر ح ٣ ص ١١



وقد حاول البعض أن يوفقوا بين ما في القرآن وبين العقل ، فكان ما وصلوا إليه توفيقا مصحكا غير مُحْكَم كالذي تأدى إليه البروتستانتيون الذين فسروا الإنجيل تفسيراً عقلياً .  
مثلاً تألم بعض العقليين من أن يكون الأطفال قد عرقوا مع آبائهم في الطوفان عيردب ؛ فقالوا إن الله أعظم أرحام النساء قبل الطوفان ، فلم تحمل مهن واحدة خمس عشرة سنة ، حتى لم يأت العرق إلا على مستحق للعذاب<sup>(١)</sup> ، وذهب آخرون إلى أن سفينة نوح إنما هي مثل<sup>(٢)</sup> للدين الذي جاء به ، فأما لشه في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فهو مثل<sup>(٣)</sup> لبقاء شريعته<sup>(٤)</sup> ورعم قوم أنه يحور أن يكون حروح الناقة المسونة لصالح عليه السلام من الصحرة معناه حجة دامعة وسلطان قاهر أدعى له القوم ، وأن يكون شرها ماء العين معناه إبطال تلك الحجة جميعاً ما حالها وقال البعض يشبه أن يكون حياها تحت الصحرة ، ثم أخرجها ، ورعم آخرون أن اسم الناقة كناية عن رجل وامرأة<sup>(٥)</sup> ورعم غير هؤلاء أن إبراهيم عليه السلام سحر القوم الذين أوقدوا له النار وطرحوه فيها ، وأطلى سمع الأدوية التي يبطل معها عمل النار ، وساق هؤلاء قصة لعص الهدد وشهوا إبراهيم بها<sup>(٦)</sup> أما أصحاب العيل الذين أهلكهم الله بحجارة ألقتها عليهم طير<sup>(٧)</sup> أنابيل ، فقد أول العص هذا بأن القوم أحرقهم ثمار الين ، وأو بأهم ماؤها وهواؤها ، فخصوا ، وحذروا فهلکوا<sup>(٨)</sup>

أما عين القطر التي وردت في قوله تعالى « وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ<sup>(٩)</sup> » ، فهي إشارة إلى ما اهتدى سليمان إلى استخراجه من معدنه كسائر الحواضر والهدهد الذي لم يره حين تفقد الطير<sup>(١٠)</sup> كناية عن رجل ، وكذلك أول النمل في قوله تعالى حتى إذا أتوا على وادي النمل<sup>(١١)</sup> الآية<sup>(١٢)</sup> ، نأهم قوم صغاف حافوا حط عسكر سليمان ، والخن والشیاطین الذين سحرُوا لسليمان هم عتاة الناس وأشدائهم وحذاقهم وعرفاؤهم بالأمور العامصة<sup>(١٣)</sup>

(١) نفس المصدر ح ٣ ص ١٧

(٢) نفس المصدر ح ٣ ص ٢٢ ، وانظر أيضا الفصل في محله RHR, Bd 50, 1904 في مقالة لحوار

عبودها Le Rationalisme Musulman au IV siecle

(٣) البدء والبارخ للمطهر المقدسي ح ٣ ص ٤٢

(٤) نفس المصدر ح ٣ ص ١٨٧

(٥) نفس المصدر ح ٣ ص ٥٥

(٦) سورة النمل آية ٢

(٦) سورة ساء آية ١٢

(٩) البدء والبارخ ح ٣ ص ٩٩

(٨) سورة النمل آية ١٨

أما المعجرات الوحيدة التي وُجّه العلماء إليها اهتمامهم ، فيما عدا القرآن ، فهي معجرات محمد عليه السلام ، وهي ، وإن لم ترد في القرآن ، فقد ذكر في الأحاديث التي تُجمعت في القرن الثالث الهجري نحو المائتين منها

وقد حاول بعض العقليين أن يؤولوا هذه المعجرات ، مثلاً قالوا إن أنصار من اجتمع من قريش ليلة الدار للفتك بالنبي لم تنه حقيقة ، بل هم أعمام الحقد والعبط والغصب ولم يكن إبليس هو الذي كلم المتأمرين ليعيهم بالرأي ، بل هو رجل ممن يعمل بعمل إبليس ، فُسى بذلك<sup>(١)</sup>

على أنه كان بين المسلمين المتقين طائفة ممن حسن إسلامهم فالوا بهذه المعجرات من غير أن تطمئن قلوبهم لذلك وقد ألف المطهر بن طاهر المقدسي حوالى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م كتابه المسمى البدء والتاريخ ليحمي الإسلام ممن يشحون صدور العامة بترهات الأباطيل ، ويقصون عليهم عرائب العجائب ، معتقدين كل غريب وحاكين كل أسطورة ، وليحميه أيضاً من الشكاك الذين لا يؤمنون بشيء وهو لا يمل من الإعراب عن رأيه بالتصديق بما برل به الوحي وما جاءت به السنة الصحيحة ، وهو كذلك لا يستطيع إحصاء سروره حينما يُوفق إلى تأييد إحدى المعجرات بأدلة العقل الذي يعتز به « أم العلوم كلها » وهو يحيب على من يسكر ما ورد في الحديث من رفع إدريس إلى السماء بأن « أعظم منه هذا العيم الراكد في الحو ، وهذه الأرض في ثقلها واقعة في السماء كما ترى<sup>(٢)</sup> » وأما من أنكر قصة يونس وأحال إمكان لقاء روح حي في بطن حيوان ، فإن المطهر يرد عليهم بقوله « أوليس الحين في بطن أمه بمنس<sup>(٣)</sup> حتى ؟ فهل يعجز من أبقى الأحياء في ظلم الأرحام أن يبقى الأرواح في أحسام الخوسين حتى لا يصل إليهم الهواء<sup>(٤)</sup> ؟ » وهذا نوع من الدفاع عن الدين قد ألهاه مح من قبل ، ويستطيع أن يستشف ما تطوى عليه نفس المطهر من سرور حي ، حينما يعالج المعجرات السوية بطريقة عقلية ، ويبين حرياتها على سن الطبيعة ،

(١) من المصدر ح ٤ ص ١٧٣ والصفحات التالية

(٢) البدء والتاريخ ح ٣ ص ١٣

(٣) في الأصل منس ، وأطبا خطأ

(المرجم)

(٤) من المصدر ح ٣ ص ١١٢ — ١١٣

وقد تحمس لوضع مدأ يقوم على أن الشيء قد يكون معصرة في وقت ، ويكون بعينه غير معصرة في وقت آخر ، ويكون معصرة لقوم وغير معصرة لقوم آخري<sup>(١)</sup>

ويروى عن النبي عليه السلام أنه وعد أمته بقوله « يبعث الله على رأس كل مائة سنة رجلاً من أهل بيتي يبين لهم أمر دينهم » وقد أحصى العلماء المتأخرون هؤلاء « المحددين » الذين يموت كل واحد منهم في أوائل قرنه ، وقد احتار العلماء في حوالى عام ٤٠٠ هـ ثلاثة رشحوهم لهذه المهمة ، وكلهم لم يكونوا ذوي شأن عظيم<sup>(٢)</sup> ، وفي حوالى عام ٣٠٠ هـ لم يقع اختيارهم إلا على الأشعري المتوفى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٦ م<sup>(٣)</sup> ويدل هذا على قلة العلماء بين جمهور أهل السنة ، لأن أعظم معكزي الإسلام في ذلك العهد كانوا جميعاً بين صفوف المعتزلة الذين كانت تنبت من عندهم جميع المسائل التي يعالجها المتكلمون

ولم يكن المعتزلة من حيث هم ورقة لها مذهبها الخاص أتشد محالفة لأهل السنة من الشيعة في ذلك العهد ، ذلك أن من الفريقين ، كما قال ابن حزم ، من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد ، ومنهم من يخالفهم الخلاف القريب<sup>(٤)</sup> وفي القرن الرابع الهجري كانت محالفة المعتزلة لجمهور المسلمين محالفة كلامية محضة لا تخرج عن حدود مسائل علم الكلام ، وهي تنبيه خلاف الصوفية ، لأن هؤلاء اعتدوا فرقة إلى جانب الفرق الأخرى الكبيرة<sup>(٥)</sup> أما في العادات فقد كان المعتزلة في الغالب متفقين مع أهل السنة ، هذا إلى أنه كان بين المعتزلة شيعة كالريضية ، وكان من هؤلاء بعض أهل البيت مثل أبي عبد الله الداعي ، وهو

(١) نفس المصدر ج ٤ ص ١٧٥ — ١٧٦

(٢) لا ألب متركبانه لم تكن القاضي أبو بكر البافاني ، أعظم متكلمي القرن الرابع ، معروفاً للباحثين ، كما يسعى له ، وقد اعتبر المحدد الموعود به على رأس المائة الرابعة ، راجع مقدمه كتاب التمهيد ط القاهرة ١٩٤٧ ص ٩ ، والملحق ص ٢٤٤ ( المترجم )

(٣) Goldziher, Zur Charakteristik es—Suyûtis SWA, Bd 69, S 8 ff وقد احتلف العلماء هل لكل قرن محدّد واحد أم له محدّد في كل علم من علوم الدين ؟ كان الذهبي يذهب إلى هذا الرأي الأخير ، وهو لكان على رأس المائة الثالثة ابن سريج في الفقه والأشعري في أصول الدين والنسائي في الحديث ( انظر طبقات السكّني ج ٢ ص ٨٩ )

(٤) الفصل لاس حرم ج ٢ ص ١١١

(٥) البدء والتاريخ للمطهر المقدسي ج ١ ص ١٦



أحد تلاميذ أنى عبد الله البصرى<sup>(١)</sup> وكان من الشيعة المعتزلة المشهورين إلى جانب من تقدم أبو الحسين الراوندى<sup>(٢)</sup> والرماني اللعوي<sup>(٣)</sup> المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م ، وكان أساتذتهم كلهم تقريباً فرساً هاجروا إلى العراق أو استوطنوا أصفهان ، بل يقال إن الحائى المتوفى عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م ألف تفسيراً للقرآن بالفارسية<sup>(٤)</sup> وكان موضوع بحث المعتزلة علم العقائد بمعناه المحدود ، وأول ما عالجوا من ذلك مسألة القدر وما يتصل بها من وصف أفعال الله بالخير والشر وكانت هذه المسألة أكبر ما أثار اهتمام أدمعهم التي تأثرت بمذهب ررادشت وكان إمام المعتزلة في عصر المأمون أبو الهذيل العلاف وأكبر ما ظهرت فيه قدرته وانتصاراته ردوده على الثنوية<sup>(٥)</sup> وفي أواخر القرن الثالث الهجرى أخرج المعتزلة أكبر مدافع عن مذاهب الثنوية ، وهو ابن الراوندى الذى كان من المعتزلة ، ثم اسلح عنهم ، وتوسع عليهم حتى استعانوا بالسلطان على قتله<sup>(٦)</sup> وفي القرن الرابع الهجرى كان نصيب المعتزلة في أصفهان على الأقل<sup>(٧)</sup> نصيب الصوفية من أنهم دخل فيهم بعض الشيعة فانتسوا بسبب ذلك لعل وردوا سند مذهبهم إليه<sup>(٨)</sup> ويدكر الخوارزمى أن المعتزلة يعتدّون بالحسن البصرى — الذى يعتد الصوفية به ويدعونه لأنفسهم — اعتداد الشيعى بالوصى ، واعتداد الريدية بريد بن على ، والإمامية بالمهدى<sup>(٩)</sup> ويحد آتاراً متفرقة تدل على أثر مذاهب العوسطيين في المعتزلة مثل ما يحكى عن أحمد بن حائط من قوله إن للعالم خالقين أحدهما قديم وهو الله تعالى ، والآخر حادث ، وهو كلمة الله عز وجل ، عيسى بن مريم ، التي بها خلق العالم<sup>(١٠)</sup> وكان بعض المعتزلة في القرن الرابع يتكلمون في القدر وفي تحديد معنى الفسق

(١) المعتزلة لابن المرسى ص ٦٣

(٢) انظر فيما يتعلق به مقدمه مبرج لكاتب الاصار للحافظ ط الفاهري ١٥٢٥ ، وما أكسبه عنه رنتر في مجلة Der Islam مجلد ١٩ ( ١٩٣١ ) من ص ١ — ١٧ ، وكراوس في مجل الدراسات البروف ( RSO ) التي صدر في روما ، مجلد ١٤ ( ١٩٣٤ ) من ٩٣ — ١٢٩ ، ٣٣٥ — ٣٧٩ ( الملاحم )

(٣) طبقات المفسرين للسوطى ص ٢٤

(٤) Spitta el—Asch'ari, 87 (٥) المعبر ابن المرسى ص ٢٥ — ٢٧

(٦) نفس المصدر ص ٥٣ — ٥٤ (٧) نفس المصدر ص ٦١ — ٦٢

(٨) نفس المصدر ص ٥ — ٦

(٩) التسمية للعالي ح ٤ ص ١٢

(١٠) الفصل لابن حرم ح ٤ ص ١٩٧

والإيمان ولكن كانت عمدتهم التي يتمسكون بها هي الكلام في التوحيد وما يوصف به الله تعالى ، ثم يريد «عصمهم غير ذلك»<sup>(١)</sup> ولا يحل ذلك من تأثير الفلسفة اليونانية التي كان لها أثر فعال في تحريك الحواطر في أنساء القرن الثالث ، وإن كان تأثيرها مقصوراً على الطبقة العليا من المتكلمين كالطام والملاحظ<sup>(٢)</sup> ، ومن تأثير علم العقائد المسيحية الذي كان طول تلك المدة مهتماً ببيان وحدة الذات وتبرُّها عن الكثرة<sup>(٣)</sup> ولما كان المعتزلة قد حصلوا عمدة بحثهم الكلام في ذات الله وصفاته ، فلم يقتصر الأمر على أن صارت هذه المسألة أهم مسائل العقائد الإسلامية حتى اليوم ، بل أدى كلامهم في هذه المسألة إلى طبع الفلسفة العربية بطابع خاص ، كما أن مباحثهم في هذا الموضوع كان لها أثر في مذهب سيبورا ، وبعد التأثير من مذهب سيبورا إلى الفكر الأوربي ويقول ابن حزم

(١) كان هؤلاء الفيلسوف الذين لم يرأوا مالحون الحب في مسألة الاحيار والقدرة الإنسانية يسمون «القدرية» ، وليس من السهل بيان معنى هذه الكلمة ، فالقدرية عند ابن قسبة هم الذين أضافوا القدر إلى أنفسهم ( بأول محلف الحدث ص ٩٨ ) ، يعنى أنهم أصحاب الاحتمار ، وهم الذين يحالفون الحسنة ، ولكن هذا التفسير مسافس ، لأن لفظ القدرية كان يطلق قديماً على العائلين بالقدر من الله حربه وشره ونحكي عن رندس على أنه قال « أقرأ من القدرية الذين حملوا ديوهم على الله ، ومن المرحته الذين أطمعوا الهوى في عفو الله » ( كتاب المعتزلة لاس المرحى ص ١٢ ) أما في القرن الثالث فكانوا يقولون على وجه الدق إن الله تعالى يحل الحبر وإن الشيطان يحل الشر ( اس فيه محلف الحدث طبعه الفاهرة ١٣٢٦ هـ ص ٥ ، والأسعري في الإمانه كما ذكر ذلك Spitta S 131 ) ، وسبب هذه الأتيهه ، سمي المعزله « محوس الأمانه الإسلامية » ( اس فيه ص ٩٦ ) ، ونحكي عن أحدهم أنه قال لرحل من أهل الدمه الأسلم بافلان ؟ فقال حتى رمد الله ، فقال له قد أراد الله ولكن إبليس لا يدعك ، فقال له الذي فأنا مع أفواهما ( اس فيه ص ٩٨ — ٩٩ ) وسبب هذه الأتيهه أيضاً ، سمي العائلوب بالاحيار قدرية في حين أن أصحاب الاحيار هولون إن إطلاق اسم القدرية على من هول بالقدر حربه وسره من الله أولى ( السهرساي على هامش اس حرم ج ١ ص ٥٠ ، واس فيه ص ٩٧ ) وفي القرن الرابع ، هول المقدسي إن المعزله علموا على القدرة ( ص ٣٧ ) ، وهول الأسعري ( Spitta, 131 ) ما يدل على أن القدرية هم المعتزلة ، وهول المقدسي — إلى جانب ما تقدم من علمه المعتزله على القدرية — إليه لا يمر إحداها من الأخرى إلا كل محرر ( ص ٣٨ ) وقد حاول القاضي عبد الحار بالري ، حوالى أول القرن الخامس ، وكان القاضي أكبر سنج المعزله في عصره ، أن يثبت من الأحاديث أن اسم القدرة لا ينبغي أن يطلق على المعزلة ، بل على العائلين بالقدر حربه وسره من الله ( اطر مقالة الأساد شريتر

Schreiner ZDMG 52 S 509 f

(٢) S Horowitz über den Einfluss der griechischen philosophie auf die Entwicklung des Kalam Breslau 1909 [ ولكن الاسعال صاحب الفلسفه والتأثيرها ، سمن ]  
 كبر عن الملاحظ وأساسه الطام المرحى [ Becker, ZA, Bd 26, 175 ff (٣)

إن المعتزلة هم الذين اخترعوا لفظ الصفات ، وكان المستعمل قبل ذلك هو كلمة « النعوت »  
أو « الأسامي »<sup>(١)</sup>

أما ما يمتار به المعتزلة من الحصال فيقول المقدسي<sup>(٢)</sup> إبهم لا يفتكون من أربع  
حصال اللطافة والدراية والعسق والسحرية وبما يدل على أن المعتزلة كانوا مولعين بالمناظرة  
والجدل<sup>(٣)</sup> أن مذهبهم كله يقوم على الجدل<sup>(٤)</sup> ، ولذلك قال المعتزلة إن المختلفين كلاهما على  
صواب<sup>(٥)</sup> ومع ذلك كانوا متكلمين حتى إن تكاتهم في القرن الرابع كان مصرع  
المثل ، وحتى تمتل الحواررى باعتداد المعتزلى بالمعتزلى<sup>(٦)</sup> وكان المتكلمون يسطرون في كل  
شئ ، « وأرادوا معرفة كل شئ »<sup>(٧)</sup> ، وكان من يسمون بالفلاسفة يسطرون إليهم من  
التصغير ، كما ينظر الباحث في علم النفس التحريى إلى صاحب ما بعد الطبيعة<sup>(٨)</sup> وكان  
الفلاسفة يرمون المتكلمين بالتعصب واستحسان التقليد واللحاح ، وأهمهم « افتتح باب الحيرة  
عليهم وسد باب اليقين عنهم ، ولهذا قال بألهم وترهمهم ، وصاروا يقولون شكافؤ الأدلة<sup>(٩)</sup> »  
ولما كان المتكلمون يسكرون السحر بجميع صورته والتعجيم ، بل أنكروا كرامات الأولياء<sup>(١٠)</sup>  
فإنما يستطيع أن يعتزهم من دعاة حرية الفكر والاستمارة ، رغم مذهبهم الكلامى ، وما كان

(١) التجارى كتاب الواحد بفا عن حوالدهر Goldziher, Zalmuten, S 14, Ann 1

(٢) المقدسى ص ٤١

(٣) ينسب الدهر ح ٣ ص ٦ ١

(٤) وقد كان العمال أبو مكر الشاسى ، الموى عام ٣٣٦ هـ ( أو ٣٣٥ ) ، أحد أئمة السافعه ،

أول من صف في الجدل ( أبو المحاسن ح ٢ ص ٣٢١ طبعه لندن )

(٥) نسان العارفين للسمرقندى ص ١٥

(٦) رسائل الحواررى ص ٦٣ ( ٩ )

(٧) الحيوان للحافظ ح ٤ ص ٩ ١ ( ٩ )

(٨) كتاب معانى النفس Goldziher, AGGW, N F, 10, S 1, ff

(٩) انظر Goldziher, ZDMG, Bd 62, S, 2 ff ، بفا عن الواحدى فى الفاساب ( طبعه

عماى ص ٥٢ ) على أن المتكلمين من حاشهم بطعون فى الفلاسفة ، فعكى أن رجلا سوفسطائياً أنكر  
الضروريات فى مجلس أنى القاسم اللجى وألحقها بالتحالاب ، فقام اللجى الى نعل حاء السوفسطائى راكراً  
عليه وحسأه ، ثم قام السوفسطائى من غير أن يسمع ، فلما لم يجد النعل ، رجع إلى أنى القاسم ، فقال له  
أبو القاسم لعلك تركه فى غير هذا الموضع ، أو لعلك لم تأب راكراً ، وحل إليك ذلك تحسلاً ، وحاءه  
أنواع من هذا الكلام ، حتى رجع عن مذهبه ( المعتزلة لابن المرسى ص ٥١ )

(١٠) لم يكن هذا مذهب المتكلمين جمعاً ( المرحم )



لهم فيه من تدقيقات حاء في كتاب الإرشاد لياقوت « اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمي العالم ثلاثة الحاحط ، وعلى بن عبد الله اللطفي ، وأبوريد السلحي » ، والأول والثالث من هؤلاء الثلاثة — ولا أعرف من أمر الثاني شيئاً — رحلان يمثلان الفكر الحر على نحو حدير بالتقدير ؛ أما الحاحط « ويريد لفظه على معناه » ، وأما أبوريد « فيتوافق لفظه ومعناه »<sup>(١)</sup> ، والاحاط يشبه قولتير Voltaire ، أما أبوريد (وقد توفي عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م ، وقد حاور الثمانيين) فقد كان أثبت وأكثر اتزاناً ، وهو يشبه الإسكندر همولت Alexander Humboldt بين دعاة الفكر الحر في القرن التاسع عشر وقد جمع إلى دراسة الفلسفة دراسة التسحيم والطب والجغرافية وعلوم الطبيعة ، وألف كتاباً سماه نظم القرآن ، تكلم فيه بكلام لطيف ، وكان يتره عن التأويل البعيد للقرآن وكان الحسيب بن علي المروروري يجرى عليه صلوات دأمة ، فلما أملى كتابه في السحت عن التأويلات قطعها عنه ، وكان الحيهاني يجرى عليه صلوات أيضاً ، فلما أملى كتاب القرايين والدنايح حرمة إياها ، وكان الحسين قرمطياً والحيهاني تويهاً وهالك مثالا من طر حصوم الحاحط إليه فيما كتبه اس قتيبة « هو آخر المتكلمين ، والمعاير على المتقدمين ، وأحسبهم للحجة استشارة ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر » ، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ، وبقيصه ، ويحتج لفصل السودان على البيصان ، ويحدده بحتح مرة للعثمانية على الرافصة ومرة للريدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يُفصل عليا رضى الله عنه ومرة يؤخره ، ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتعه قال الحمار ، وقال إسماعيل بن عروان كذا وكذا من الفوايحس ويحلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يذكر في كتاب دُكر فيه ، فكيف في ورقة أو بعد سطر وسطرين ؟ ويعمل كتاباً يذكر فيه حجاج البصاري على المسلمين ، بإدصار إلى الرد عليهم تمحور في الحجة ، كأنه إنما أراد تسبيهم على ما لا يعرفون وتشكيك الصفة من المسلمين وتحدده يقصد في كتبه للمصاحيك والعث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشرب البید ، ويستهرى من الحديث استهراء لا يحصى على أهل العلم ، كد كره كد الحوت ، وقرن الشيطان ، ود كر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوده

المشركون ، وقد كان يجب أن يبيصه المسلمون حين أسلموا ، ويدكر الصحيفة التي كان فيها  
المرل في الرصاع تحت سرير عائشة ، فأكلتها الشاة ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في  
تناذم الديك والعراب ، ودفن الهدهد أمه في رأسه ، وتسبيح الصمدع ، وطوق الحمامة ،  
وأشياء هذا وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأبصرهم لماطل<sup>(١)</sup> »  
وقد رويت عن المعتزلة أقوال أخرى يقشع لها حلد المسلم الحق ويمحها قلبه ، فيذكر ابن قتيبة  
أن تامة بن أشرس كان ينقص الإسلام ويرسل لسانه عما لا يكون من رحل يعرف الله  
ويؤمن به ، « ومن المحفوظ عنه المشهور أنه رأى قوما يتعادون يوم الجمعة إلى المسجد  
لخوفهم فوت الصلاة فقال انطروا إلى النقرة انطروا إلى الخمر انتم قال لرحل من إخوانه  
ما صنع هذا العربي بالناس<sup>(٢)</sup> »

وفي القرن الثالث الهجري كان أهل السنة يسطرون إلى المعتزلة عين الكراهية والاحتقار ؛  
ثم حرح الأشعري حوالى آخر القرن الثالث على المعتزلة ، بعد أن كان منهم ، وبدأ يحارهم  
سلاحهم ، وعلى هذا نشأ في القرن الرابع الهجري المذهب الكلامي الرسمي القائم على العلم  
والنظر العقلي ، وكان مذهب الأشعري مذهب توفيق ، وذلك شأن كل مذهب رسمي ،  
ولذلك سمي مذهباً أوسط<sup>(٣)</sup> ، وقد حسب الأشعري أن في قدرته أن يوفق بين مذهب أهل  
السنة وبين العقل ، وأعلن فيما كتبه تمسكه بمذهب الحنابلة ، يقول الأشعري « قولنا  
الذي نقول به ، وديانتنا التي بدينها ، التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ،  
وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وما كان عليه  
أحمد بن حنبل ، نصر الله وجهه ورفع درجته وأحرل مشيخته ، قائلون ، ولم حالف قوله قوله  
مخاضون ، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أناب الله به الحق عند ظهور  
الضلال<sup>(٤)</sup> »

(١) بأوّل محلف الحديث لابن فهد ص ٧١ — ٧٢ طبعه مصر ١٣٢٦ هـ

(٢) ابن فهد ص ٦

(٣) Spitta, Asch'ari, 46 ، وكان أسلاف الأشعرية الأفرقون من المسكانيين هم الكلامية الذين

اندحوا في الأساعرة في القرن الرابع ، وكانوا سكران الخمر ( مقدسي ص ٣٧ )

(٤) Spitta, 133

ولكن الحاملة كانوا يحاصمون الأشعري<sup>(١)</sup> ، فيقول ابن الحورى إن الأشعري ظل معتزليا دائما<sup>(٢)</sup> ، وقد قُدِّرَ لمذهب الأشعري ما يقدر عادة لعيره من المذاهب التي تميل إلى التوسط والتوفيق بين ما اختلف ، فاحرف عنه أهم تلاميذ الأشعري مائلين إلى رأى الخصوم العقليين ، وأكبر ما يحد ذلك عند الباقلاني المتوفى عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م ، فإنه أدخل في علم العقائد مسألة الحرء الذى لا يتحرأ ، والحلاء ، وغير ذلك من الأشياء العربية عنه<sup>(٣)</sup> وكان القاضى عند الحارثى<sup>(٤)</sup> (توفى سنة ٤١٥ هـ — ١٠٢٤ م) في ابتداء حاله يذهب في الأصول مذهب الأشعرية ، ثم انتقل إلى حصومهم — المعتزلة — وإليه انتهت الرئاسة فيهم ، حتى صار شيخهم وعالمهم غير مدافع<sup>(٥)</sup> وكان الصاحب بن عباد قد أحسن إليه وقدمه وولاه القضاء ، فلما توفى الصاحب قال عند الحارثى لا أرى الترحم عليه ، لأنه مات من غير توبة طهرت منه ، فنسب عند الحارثى إلى قلة الوفاء<sup>(٥)</sup> ورى من هذا أن المعتزلة لا يستحقون كل ما ينسب إليهم من أهم أصحاب الفكر الحر

وفي عصور القرن الرابع الهجرى كان أصحاب مذهب السنة القدماء يحاربون الشيعة الذين صغروا حدودهم سعداء ، ويصيّقون على متكلمي المعتزلة في سائر البلاد ، حتى بعضوا عليهم العيش ، ولكهم على الرغم من استهوائهم للعامة وإتارتهم لهم لم ينجحوا في ذلك إلا قليلا ، ولا سمع من أمثلة هذا الاصطهاد إلا قليلا<sup>(٦)</sup> ، ولم يكن مذهب الأشعري قد قوى في ذلك العهد بحيث يُعتبر حصا وبهاخم ، فإنه لم يشر في العراق إلا منذ نحو سنة ٣٨٠ هـ<sup>(٧)</sup> ، وبعد ذلك بدأت تظهر آثار الاصطهاد له ، وقد حاول الحاملة أن يجمعوا الخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م من دخول المسجد الجامع بغداد ، لأنه

(١) نفس المصدر ص ١٠١

(٢) المصطفي ص ٧١ ب ، على أن ابن الحورى إنما قال إن الأشعري ظل على مذهب المعتزلة زماناً طويلاً (أربعين سنة) ثم تركه وأتى عمالة حط بها عقائد الناس (الترجم)

(٣) Schreiner, Or Konger Stockholm, I 1, S 82 ، قلاعى ابن خلدون (المقدمة ،

العصل الخاص بعلم الكلام) ، [راجع مقدمة كتاب التمهيد للباقلاني ، طبعه القاهرة ١٩٤٧ ص ١٣ وما بعدها — المترجم]

(٤) المعتزلة لابن الرضى ص ٦٦ (٥) ابن الاثير ج ٩ ص ٧٧

(٦) Zwei besonders characktristische bei Goldziher, ZDMG 62 S 8

(٧) الخطط المقرئى ح ٢ ص ٣٥٨



كان يذهب مذهب الأشعرى<sup>(١)</sup>، وكان أكار الأشاعرة في ذلك العهد يُصطَلِّدون ويسعون في أيام طهرلك وقرب أواخر القرن الرابع تحاملت الحمايلة على رحل من كبار الأشاعرة دوى السقود، وهو القشيري المتوفى عام ٥١٤ هـ — ١١٢٠ م، ووقع سبب تهنيج الحمايلة قتال في الشوارع، واصطر القشيري إلى ترك بغداد<sup>(٢)</sup> ومن هذه الحادثة أرتح اس عساكر مدأ وقوع الانحراف بين الحمايلة والأشاعرة<sup>(٣)</sup> ولم ينتشر مذهب الأشاعرة، وهو المذهب الكلامي الحديدي الذي قدّر له أن يصير مذهب جمهور المسلمين إلا انتشاراً طفيفاً في المملكة الإسلامية، في أقصى المشرق كان الماتريدية ينافسون الأشاعرة، وذلك على الرغم مما بين الفريقين من تشابه في أصل المذهب، وكان لا بد للأشاعرة أيضاً أن يدرأوا هجمات الحمايلة الذين كان شيخهم حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م يلعن أبا الحسن الأشعرى أمام الملائكة ويبال من الأشاعرة<sup>(٤)</sup>، وأن يقاوموا أيضاً هجمات الكرامية الذين تحرّوا على الأشاعرة، ورفعوا أمرهم إلى السلطان محمود بن سكتكين مدّعين أن الأشاعرة يعتقدون أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس نبياً اليوم وأن رسالته انقطعت بموته، ولم يكن هذا معتقداً للأشاعرة<sup>(٥)</sup>

أما في المغرب فقد انتشر مذهب الأشاعرة من بلد إلى آخر، فقامت لهم سوق في صقلية والقيروان والأندلس، «ثم رُقَّ أمرهم والحمد لله رب العالمين»<sup>(٦)</sup> ولم يكن مذهب الأشاعرة معروفاً قط في شمال إفريقيا حتى حمله إليها محمد بن تومرت حوالى عام ٥٠٠ هـ — ١١٠٧ م<sup>(٧)</sup>

وكانت الحكومة في أوائل القرن الخامس الهجري تندخل نوعاً من التدخل الرسمي لبعض المبارعات المذهبية، ففي عام ٤٠٨ هـ — ١٠١٧ م أصدر الخليفة القادر كتاباً صدد المعترلة، فأمرهم بترك الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والمقالات الخالصة للإسلام، وأبدرهم — إن حالوا أمره — بحلول السكال والعقوبة وامثل السلطان محمود في عرنة

(١) كان الخطيب البغدادي يعصب على الحمايلة (السطم ص ١١٨ ب)

(٢) Goldziher, ZDMG, 62, S 8 (٣) Spitta, Asc'harī, S 145

(٤) طبقات السكي ح ٣ ص ١١٧ (٥) نفس المصدر ح ٣ ص ٥٤

(٦) الفصل لاس حرم ح ٤ ص ٤ ٢

(٧) Goldziher, ZDMG, 41, S 30 ff

أمر أمير المؤمنين واستنّ سنته في قتل المخالفين وبعيهم وحسبهم ، وأمر بلعهم على المنابر ، « وصار ذلك سنة في الإسلام »<sup>(١)</sup> وصدر في عداد كتاب آخر مسمى الاعتقاد القادري ، وذلك في سنة ٤٣٣ هـ — ١٠٤١ م ، وقرئ في الدواوين ، « وكتب الفقهاء خطوطهم فيه أن هذا اعتقاد المسلمين ومن حاله فقد فسق وكفر » ، وكان هذا أول اعتقاد رسمي يعلنه الخليفة<sup>(٢)</sup> ، وكان معنى ذلك نهاية تطور علم الكلام ، ويستطيع الرجل الثاقب النظر أن يتبين في كل كلمة من هذا الاعتقاد حرائيم الممارعات التي مصت عليها قرون ، وهاك نصه « على الإنسان أن يعلم أن الله عز وجل وحده لا شريك له ، « لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، وهو أول لم يرَ ، وآخر لا يرال ، قادر على كل شيء ، غير عاخر عن شيء ، إذا أراد شيئاً قال له كن ، فيكون ، عني غير محتاج إلى شيء ، « لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم » « يُطعم ولا يُطعم » ، لا يستوحش من وخذة ولا يأس شيء ، وهو العي عن كل شيء ، لا تخلقه الدهور والأرمان ، وكيف تعيره الدهور وهو خالق الدهور والأرمان ، والليل والنهار ، والصوم والطلعة ، والسموات والأرض ، وما فيها من أنواع الخلق ، والبر والبحر وما فيهما ، وكل شيء حي أو موات أو حماد ؟ كان ربنا وحده لا شيء معه ، ولا مكان يحويه ، فخلق كل شيء بقدرته ، وخلق العرش لا لحاحته إليه ، فاستوى عليه كيف شاء وأراد ، لا استقرار راحة ، كما يستريح الخلق ، وهو مدبر السموات والأرضين ومدبر ما فيها ومن في البر والبحر ، لا مدبر غيره ، ولا حافظ سواه ، يرزقهم ويبرصهم ويعافهم ويميتهم ويحييهم ، والخلق كلهم عاحرون ، الملائكة والسيون والمرسلون والخلق كلهم أجمعون ، وهو القادر بقدرته ، والعالم بعلم أرقى غير مستفاد ، وهو السميع سمع ، والمنصرُ بنصر ، يعرف صفتها من نفسه ، لا يطلع كنهها أحد من خلقه ، متكلم بكلام ، لا مالة مخلوقة كالة المخلوقين ، لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه عليه السلام ، وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله فهي صفة حقيقية لا محارية ، ويعلم أن كلام الله تعالى

(١) المصطفى ص ١٦٥ ب

(٢) على أن ما حدث في أيام المأمون من أمر المحنة ، وإصدار سكك بعضها بنو العيص في العدة

التي تحب أن يحمل الناس عليها ، هو أيضاً اعتقاد رسمي أصدره الخليفة ، وهو أول اعتقاد (المرحم)





العبد والكفر ترك الصلاة ، فمن تركها فقد كفر ، ولا يزال كافرا حتى يندم ويعيدها ، فان مات قبل أن يندم ويعيد أو يصبر أن يعيد لم يُصَلَّ عليه وحُتِر مع فرعون وهامان وقارون وأُنِيَ من حلف وسائر الأعمال لا يُكفرُ بتركها ، وإن كان يعشَق ، حتى يَحْدَها ، ثم قال هذا قول أهل السنة والجماعة الذين من تمسك به كان على الحق المين ، وعلى مهاج الدين والطريق الواصح ورُحِيَ به السحاة من البار ودحول الحمة إن شاء الله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم الدينُ الصيحة ، قيل لمن نارسول الله ؟ قال لله ولسكتاه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وقال عليه السلام أيُّما عدا حاة موعظة من الله تعالى في دينه فإياها نعمة من الله سيقت إليه ، فإن قلها شكر ، وإلا كانت حجة عليه من الله تعالى ليرداد بها إثما ويراد بها من الله سخطا ، حَمَلْنَا الله لآلائه شاكرين ولعماته ذاكرين وبالسنة معتصمين ، وعَفَرْنَا لسا ولجميع المسلمين<sup>(١)</sup>»

وكان تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى ، وهو التسامح الذي لم يسمع مثله في العصور الوسطى سنا في أن لحق عما حث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى ، وهو علم مقارنة الملل ، ولم تكن نشأة هذا العلم من جانب المتكلمين ، ذلك أن النويختي ، وهو مؤلف أول كتاب له شأن في الآراء والديانات ، كان من نقلة كتب اليونان إلى لسان العرب<sup>(٢)</sup> وكذلك ألف المسعودي كتابين في الديانات<sup>(٣)</sup> ، ولم يكن المسعودي متكلمًا ، ثم جاء المسنحي المتوفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م ، وكان ممن اشتغل في الدواوين ، ومن مؤلفاته كتاب دَرْكُ البعية في وصف الأديان والعبادات ، وهو كتاب مطول على طريقة المسنحي ، ويقع في ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة ، وإدس فقد عى هذا المؤلف الأديب العالم بالبحث في الأديان إلى جانب اشتغاله بأمور الدولة ، وهذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذي يتصل بعلوم الدين من بين كتب المسنحي ، ومرجع عايتة بذلك إلى أن أسرته من حرَّان ، ولذلك عى عما كان يعنى به الصائته<sup>(٤)</sup> ثم أقبل على البحث في الملل بعض المتكلمين الميالين إلى معرفة ما غاب عنهم ، فمن ذلك كتاب الملل والنحل ، ( وقد صار هذا

(١) المسظم ص ١٩٥ ب — ١٩٦ ا

(٢) الفهرست ص ١٧٧ ، مروج الذهب ج ١ ص ١٥٦

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٢ — ١

(٤) العرب لأن سعد ص ٩٦ وما بعدها

الاسم ثانيا بين المؤلفين في هذا الباب) لأبي منصور العدادي المتوفى عام ٤٢٩ هـ —  
 ١٠٣٨ م<sup>(١)</sup>، ثم جاء ابن حرم الأندلسي المتوفى عام ٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م فألف كتاب  
 الفصل في الملل والأهواء والنحل، ورد فيه على مختلف المذاهب متحمساً في ذلك للدفاع عن  
 الإسلام، وفي أول القرن الخامس الهجري ألف أبو الريحان البيروني المتوفى عام ٤٤٠ هـ —  
 ١٠٤٨ م كتابه المسمى «تحقيق ما للهد من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة»، وجعله  
 كتاب حكاية لمذاهب الهد على وجهها لا كتاب حجاج وحدل، ولذلك لم يباقي  
 الحصوص، ولم يتخرج من حكاية كلامهم، وإن بآب الحق<sup>(٢)</sup>، فكان هذا الكتاب  
 كتاب بحث علمي ربه وما يدعى أن يلاحظه أن عقيدة مؤرخي النحل كانت في  
 الغالب موضعاً لشكوك الشاكين وطعنهم. وقد نقل باقوت<sup>(٣)</sup> عن صاحب تاريخ  
 حوارم ما اتهم به الشهرستاني<sup>(٤)</sup> من التحميط في الاعتقاد، والميل إلى الإلحاد لأنه — في  
 رعم مؤرخ حوارم — مع وفور فضله وكال عقله أعرض عن مير الشريعة واشتغل بطلعات  
 الفلسفة، ولم يكن في محالس وعظه «قال الله» ولا «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»  
 ولا جواب من المسائل المترعة<sup>(٥)</sup>

---

(١) طبقات السككي ح ٣ ص ٢٣٩ (٢) كتاب الهد للبيروني طبعه سجاو ص ٤  
 (٣) معجم البلدان ح ٣ ص ٣٤٣ من الصفة الأورمية، واطر Goldziher, SWA 7, S 552  
 (٤) المتوفى عام ٥٤٨ هـ وهو صاحب الكتاب المشهور المسمى الملل والنحل  
 (٥) وكتاب الشهرستاني المشهور، أعني كتاب الملل والنحل، خبر ما يذكر في باب علم معارفه  
 الملل وباريحها وأصولها عند المسلمين (المرحم)

## الفصل الرابع عشر

### المذاهب الفقهية

كان القرن الرابع الهجرى أهم نقطة فاصلة في تاريخ التشريع الإسلامى ، فيُقال إنه في هذا القرن وقف التكوين المستقل للتشريع الإسلامى المبني على الاجتهاد المطلق وعلى الحكم بالرأى في فهم القرآن والحديث<sup>(١)</sup>

ومضى عصر الابتكار في التشريع ، واعتبر العلماء الأولون كالمعصومين ، وأصبح الفقيه لا يستطيع إصدار حكمه الخاص إلا في المسائل الصغيرة ، وهذا يشبه ، حدث عند اليهود من محبي الرابيين الذين كان قصاراهم التناقض في آراء القدماء ، وذلك لدى عصر عهد علماء الكتاب الذين كانوا يعلمون الكتاب ويحق لهم الاجتهاد

ولكن هذا إنما هو اعتذار المسألة من وجهة النظر الإسلامية<sup>(٢)</sup> والواقع أنه طهر في هذا الميدان الفقهى ما طهر في غيره من الميادين ، وأهم ما حدث هو تسرب آراء في التشريع مما كان قبل عهد الإسلام إلى الفقه الإسلامى ، كما حيت من حديد بعض النظريات اليونانية والرومانية القديمة وكان يمثلها الفقهاء ، ويحالفهم أصحاب الحديث المتسكون بالسنة القديمة والذين يقيسون الحياة بمقياس نصوص الوحي والسنة النبوية ولم يشأ هؤلاء المتسكون بالقديم أن يبرلوا عن مكانهم بسهولة ، فقد كانت لهم العلة في إقليمين من أهم أقاليم المملكة الإسلامية وهما فارس والشام ، وكذلك كانت لأهل الحديث علة في السد ، كما كانت همدان وأحاديها أصحاب حديث<sup>(٣)</sup>

وكان أهم المذاهب بين أصحاب الحديث الحنابلة ، والأوراعية والثورية<sup>(٤)</sup> ولم يكن

---

(١) Snouck Hurgronje, RHR, 37, S 176

(٢) راجع مثلاً ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن الفقه ( المترجم )

(٣) المقدسى ص ١٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٩ ، ٤٨١

(٤) الفهرست لابن النديم ص ٢٢٥ وما بعدها ، والمقدسى ص ٣٧



الحاملة في ذلك — خلافا لما صار إليه الحال فيما بعد — يعتبرون من حملة الفقهاء ، وفي سنة ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م ذكر أصحاب المذاهب فكانوا الشافعية والمالكية والثورية أصحاب سفيان الثوري ، والحنفية والداوودية<sup>(١)</sup> وفي أواخر القرن الرابع كانوا الحنفية والمالكية والشافعية والداوودية<sup>(٢)</sup> ولم يذكر الحاملة بين الفقهاء في هاتين المديتين ، ولما توفي محمد بن حرير الطبري عام ٣١٠ هـ — ٩٢٣ م ذكر في نذاره ليلا ، لأن العامة اجتمعت وسعت من دمه بهاراً ، وكان ذلك تأثير الحاملة ، وقد تعصب عليه هؤلاء ، لأنه جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فمثل في ذلك فقال لم يكن فقيهاً ، وإنما كان محدثاً<sup>(٣)</sup> ولم يبل الحاملة الاعتراف بأنهم فقهاء إلا أحياناً<sup>(٤)</sup> أما مذاهب غيرهم من أصحاب الحديث فلم تستطع البقاء ، ففي القرن الثالث الهجري غلب المالكية على أصحاب الأوراعي في الأندلس<sup>(٥)</sup> وكان قاضي دمشق المتوفى عام ٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م أوراعي المذهب<sup>(٦)</sup> ، وكان للأوراعية على عهد المقدسي مجلس محامع دمشق<sup>(٧)</sup> ويرى المقدسي أيضاً أن مذهب الأوراعي لم ينتشر أكثر من ذلك لأنه كان متطرفاً ، فقلل الواردون عليه والناقلون عنه ، « ولو كان على سائلة الحج لثقل مذهبهم أهل الشرق والغرب<sup>(٨)</sup> » ، وكذلك يعد المقدسي مذهب سفيان الثوري بين المذاهب المدرسة ، بعد أن كان لهذا المذهب حلبة في أصبهان والديبور<sup>(٩)</sup> وفي سنة ٤٥٠ هـ — ١٠١٤ م توفي أبو بكر عبد العافر بن عبد الرحمن الديبوري ، ولم يكن بعدد مؤلف على مذهب سفيان الثوري غيره ، وهو آخر من أفتى بمحامع المصور على مذهب الثوري<sup>(١٠)</sup> ولم تكن المذاهب قد استقرت على رأس المائة الثانية ، رغم ما قيل

(١) طبقات السكي ح ٢ ص ٧ (٢) المقدسي ص ٣٧

(٣) المسظم لاس الحوري بح عام ٣١٠ هـ فلا عن باب ١١١١ ، وابن الأثير ح ٨ ص ٨٠

قلا عن مسكونه ، Wustefeld AGGW, 37, Nr 80

(٤) حوالى عام ٥٠٠ هـ كما هو العرالى ( انظر كتاب اختلاف الفقهاء لمحمد بن حرير الطبري

طبعه كرن (Kern) ، مصر ١٣٢٢ هـ — ١٩٠٢ م ، ص ١٤ )

(٥) انظر فيما على هذا كتاب Fagnon Homenaje a Don Fr Codeira , Zaragosa

1904 S 108

(٦) أبو المحاسن ح ٢ ص ٣٤٧ طبعه لين (٧) المقدسي ص ١٧٩

(٨) المقدسي ص ١٤٤ (٩) المقدسي ص ٣٧ ، ٣٩٥

(١٠) أبو المحاسن طبعه كلغورنيا ص ١٢ ، وهو أبو المحاسن لعل هذا السرى ، وأما

بالعرب فدام مذهب الثوري مع هذا التاريخ عدة سن ( المرحم )

من أنه في هذا التاريخ كان قد نزل نحو من خمسمائة مذهب<sup>(١)</sup>

وقد أسس داوود الأصبهاني (المتوفى عام ٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م) مذهباً كان له شأن ، وهو مذهب الطاهرية ، وقد عظم شأن هذا المذهب في الشرق في القرن الرابع الهجري ، وكان بين أتباعه كثير من أصحاب الحياه بايران<sup>(٢)</sup> وكان الداوودية يمارس يتقلدون الأعمال والقضاء ، وكانت لهم العلّة ، لأن السلطان عصف الدولة كان يتقلد هذا المذهب<sup>(٣)</sup> وقد أكر الطاهرية أشد الإيثار ما فعله الشافعي من محاولة التوفيق بين المذهب الفقهي القديم الذي انتهى إليه وبين المذهب الجديد<sup>(٤)</sup> ، وكان مذهب الطاهرية سنياً في وصوح المباح ، شأن غيره من مذاهب المتطرفين ، وكانت القاعدة الكبرى التي استندوا إليها هي التمسك بحرفيّة النصوص تمسكاً دقيقاً ولكن هذه قاعدة علمية ، وسرعان ما أذكروا أن الفقه ليس علماً بطرياً ، بل هو عمل ، ولم يكن الأثر الأكبر لمذهبهم القائم على نحو اللبس ، في الفقه ، بل كان في المباحث التاريخية واللغوية ويرى المقدسي أن أكبر حصال أصحاب داود هي الكبر ، والحدة ، والكلام ، واليسار<sup>(٥)</sup>

وقد أسس أبو جعفر محمد بن حرير الطبري صاحب التاريخ المتوفى عام ٣١٠ هـ — ٩٢٣ م مذهباً خاصاً به ، وقد ظل الناس بعد موته عدة شهور يجتمعون للصلاة على قبره ليلاً وبهاراً<sup>(٦)</sup> وكان للطبري صاحبٌ يسمى ابن شجرة وتوفي سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م ، وقد ناهر التسعيني ، وكان حريري المذهب ، ثم حالف أستاذه وأصبح يختار لنفسه ، ولا يصع

(١) كتاب أحلاف الفقهاء للطبري ص ١٤ . تقرأ عن كتاب عمدة العارفين ، وكانت مذاهب أصحاب الحدث كثيرة جداً ، وإعما كان ذلك لكثرة ما في الأحاديث من غموض

(٢) Goldziher, Zahiriten, S 110

(٣) المقدسي ص ٤٣٩

(٤) معانيح العلوم للحوارري ص ٨ ، ولا توجد هنا مطامعة تامه ، وإعما نسب للطاهرية إسكر القاص ( المترجم )

(٥) المقدسي ص ٤١

(٦) Wustenfeld, AGGW, 37, Nr 80 ، وذكر أبو المحاسن (طبعة كلفورنيا ص ١٢٦ تحت سنة ٤١ هـ — ١٩١ م ، وفاة عالم ، كان ينفعه على مذهب الطبري ، ومما صفعه القاصي عبد الله بن محمد بن الحصب العروفي بالقاصي الحصبني ، المتوفى عام ٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م ، كتاب في الرد على الطبري ( ملحق القصة للسكندى ص ٥٧٧ ) ، اطر أيضاً طبقات السكندى ح ٢ ص ١٣٩ وما نلها

لأحد من الأئمة أصلاً ، ومع هذا تقلد قضاء الكوفة<sup>(١)</sup> ، وهذا دليل على مرونة الظروف وعدم التعصب بسبب الاختلاف في الرأي ؛ وكذلك كان ابن حريويه الشافعي المذهب ، قاضي مصر المتوفى عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م بعد أن حاور المائة ، يختار في أحكامه ، « وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه ، فلم يسكر عليه أحدٌ ، لأن أنا عبيد (كنية ابن حريويه) كان لا يُطعن عليه في علم ، ولا تلحقه تهمة في رُشدِهِ ، ولا يجيب في حكم<sup>(٢)</sup> »

وبالإجمال استقرت المذاهب الفقهية الكبرى في ذلك العصر وتوطدت أركانها على النحو الذي نلحظه اليوم ، إذا استثنينا البلاد التي آل أمرها إلى الشيعة ، ولم يبرر مذهب الإمام أحمد خارج العراق إلا في القرن الرابع الهجري<sup>(٣)</sup>

وفي هذا القرن فتح مذهب الشافعي — وهو أهم المذاهب اليوم — البلاد التي يحتلها اليوم ، وكان أكبر مراكزه مكة والمدينة<sup>(٤)</sup> ويقول السككي « وأما بلاد الحجاز فلم تترخ أيضاً منذ ظهور مذهب الشافعي ، وإلى يومنا هذا ، في أيدي الشافعية القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة ، والناس من حمائة وثلاث وستين سنة يخطبون في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويصلون على مذهب ابن عمه محمد بن إدريس ، يفتنون في الفجر ، ويجهرون بالتسمية ، ويعرّدون الإقامة إلى غير ذلك ، وهو صلى الله عليه وسلم حاصرٌ ينصر ويسمع ، وفي ذلك أوضح دليل على أن هذا المذهب صواب عند الله تعالى<sup>(٥)</sup> » ، ولم يكن للشافعي أتباع كثيرون في العراق ، وكان الغالب على فقهاء هذا الإقليم وقصاته أصحاب أبي حنيفة<sup>(٦)</sup> ، وإن كان قد ولى قضاء القضاة بعدد أحد الشافعية سنة ٣٣٨ هـ — ٩٤٩ م<sup>(٧)</sup> ، وقد أفلح الشافعية في التغلب على الحنفية بالمشرق<sup>(٨)</sup> ، وكان أكبر حصص لهم في الشام

(١) الإرساد لبافوت ح ٢ ص ١٨

(٢) ملحق الكندي ص ٥٢٨ ، وطاقات السككي ح ٢ ص ١ — ٣ ٢

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي ح ١ ص ٢٢٨

(٤) رسائل الخوارزمي ص ٦٣ ، ولم يقل المقدسي شيئاً في هذه المسألة

(٥) طقات السككي ح ١ ص ١٧٤ (٦) المقدسي ص ١٢٧

(٧) طقات السككي ح ٢ ص ٢٤٤

(٨) يقول السيوطي في طقات المفسرين ( ص ٣٦ من الطبعة الأوربية ) إن الإمام أبا بكر الساسي

الفقيه الشافعي ، المعروف بالقفال ، المتوفى عام ٣٦٥ هـ — ٩٧٨ م هو الذي نشر فيه الشافعي فيها وراء النهر ، ويقول المقدسي ( ص ٤٦٨ — ٤٦٩ ) إن العلة مكرمان لأصحاب الشافعي



ومصر وكان أوردة محمد بن عثمان الدمشقي (المتوفى عام ٣٠٢ هـ — ٩١٤ م) أول من ولي قضاء مصر من الشافعية ، وهو أول من أدخل في دمشق مذهب الشافعي وحكم به ، ولم يَلِ بعده قضاء مصر ولا قضاء الشام إلا شافعي المذهب ، بعد أن كان الغالب على أهل دمشق مذهب الأوراعي<sup>(١)</sup>

وكان ينافسهم في مصر المالكية الذين استولوا على مصر منذ منتصف القرن الثاني الهجري وفي سنة ٣٢٦ هـ — ٩٣٨ م كان للمالكيين في المسجد الجامع خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ، ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات فقط<sup>(٢)</sup> وفي عهد المقدسي تولى إمامة مسجد ابن طولون أحد الشافعية لأول مرة ، ولم يقدم في محراب هذا المسجد إمام قط قبله إلا وهو يتفقه لمالك<sup>(٣)</sup> ، وكان معظم الفقهاء بمصر من أصحاب مالك ويقول السيوطي إن أبا بكر البقال المتوفى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م كان إمام المالكية بمصر ، وكانت حلقاته في الجامع تدور على سعة عشرين عموداً لكثرة من يحضرها<sup>(٤)</sup> ولهذا استندت الدولة الفاطمية في محاربة المالكية ، في سنة ٣٨١ هـ — ٩٨٩ م مثلاً ضرب رجل بمصر وطيف به في المدينة ، لأنه وُجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس<sup>(٥)</sup> ، ولما رالت دولة الفاطميين وحلت محلها دولة الأيوبيين ، وهم من الأكراد الشافعية ، أكلوا انتصار هذا المذهب بإشارتهم للفقهاء الشافعية ، ولكن الصعيد بقي في الحملة مالكي المذهب إلى أيامنا ، ولم ينتشر مذهب الشافعي عندها أكثر من ذلك ، وقد اقتسم المالكية والحنفية بلاد المغرب ، وكان مذهب الحنفية بفصل مروته أكثر ملائمة للحكومة الفاطمية من مذهب مالك ، ولكن لما حاربت بلاد المغرب من يد الفاطميين سنة ٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م لم يقتصر البلاء على مذهبهم الشيعي فقط بل شمل مذهب الأحناف السنيين الذين كانوا يطولهم رعايتهم ، وانتقل المغرب إلى مذهب

(١) ملحق الفصاة للكندى ص ٥١٨ ، وطغاب السكي ح ٢ ص ١٧٤ ، وحسن المحاصرة للسيوطي ح ١ ص ١٨٦ ، ولكن فاضل دمشقي ، المتوفى عام ٣٤٧ هـ كان أوراعي المذهب (أبو الخامس ، طبعه لندن ح ٢ ص ٣٤٧ ، وطغاب السكي ح ٢ ص ١٧٤)

(٢) المغرب لابن سعد ص ٢٤ (٣) المقدسي ص ٢٢ — ٢٣

(٤) حسن المحاصرة للسيوطي ح ١ ص ٢١٢

(٥) الخطط للمعري ح ٢ ص ٣٤١

مالك ، ولا يرال عليه إلى اليوم<sup>(١)</sup> ، أما في الأندلس فكانت السيادة المطلقة لمذهب مالك<sup>(٢)</sup>

أما في بغداد نفسها فقد كان الحسالة ، دون سائر أهل السنة ، أكثر من أقلق نال الحكومة ، ثم إهمم اشتدوا في محاربة الشيعة بغداد ، وقد سوا بغداد مسجداً « وجعلوه طريقاً إلى المشاعة والفتنة<sup>(٣)</sup> » ، ثم عظم أمرهم حتى أزهقوا بغداد ، واستطهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد ، وكانوا مثلاً في عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م إذا مر بهم شافعي المذهب أعبروا به العميان فيصرونه بعضهم حتى يكاد يموت<sup>(٤)</sup> ولكمهم ادّحروا أشد عصهم للشيعة ، ولمن حاصمهم من المتكلمين ، وكان الشافعية أشد الفقهاء قدرة على النظر والشعب ، وهاتان الحصلتان من ضمن الحاصل التي وصفهم بها المقدسي<sup>(٥)</sup> والمؤرخ عريضة للخطأ في هذه المسائل لأن معظم معارفنا عن هذه الحركات مستقاة من مصادر شافعية ، ولكن الشافعية كان لا يحلو منهم راع فقهي ، وكانوا حصوماً لمن عداهم لا يعدلون عن الحصومة ، على حين كان حصومهم يتصالحون ويسخثون عن طريق للوافق ، على أن المذاهب كانت في الحملة على وفاق ومسألة تامة في القرن الرابع ويحد العلماء — كالمقدسي — يوصون بترك الخلاف ، ولروم أحد المذاهب ، وترك العلم في الدين ، وكف اللسان عن تمريق المسلمين<sup>(٦)</sup>

ولم يكن الانتقال من مذهب إلى آخر بالأمر العسير فيحكي أن أحمد بن فارس ، أكبر اللغويين المتوفى عام ٣٦٩ هـ — ٩٨٠ م كان شافعيًا ، فصار مالكياً وقال دخلتني الحميمية لهذا البلد ، يعني الري ، كيف لا تكون فيه رحل على مذهب هذا الرجل المقبول القول على جميع الألسنة<sup>(٧)</sup> وقد احتير لإمامة مسجداً ابن طولون بمصر أحد الشافعية بعد

(١) مقدمه حول دهر لكتاب محمد بن بومرث ص ٢٣

(٢) المقدسي ص ٢٣٦ ، وهول المقدسي « أما في الأندلس فذهب مالك وبراءة نافع ، وهما قولون لا يعرف إلا كتاب الله ، وموطأ مالك ، فإن طهروا على حقي أو شافعي فهو ، فإن عذبوا على معتزلي أو شيعي أو نحوهما رعا قلوبهم » (الترجم)

(٣) كتاب الورداء ص ٣٣٥ (٤) ابن الأثير ح ٨ ص ٢٢٩ — ٢٣

(٥) ص ٤١ (٦) نفس المصدر ص ٣٦٦

(٧) الإرشاد لنافوس ح ٢ ص ٧

أن كان لا يقدم فيه إلا مالكي ؛ وكان ذلك لسبب بسيط ، وهو أنه لم يوجد أطيب منه <sup>(١)</sup>  
ولما سئل المقدسي عن سبب تفضله لأي حبيبة ، مع أنه شامي وأهل حاجته أصحاب حديث  
يتفقون للشافعي ، أجاب بأنه استحس مذهب الحلال ذكرها <sup>(٢)</sup> ولم تظهر المناقشة بين  
المذاهب في صورة شديدة إلا في القرن التالي عند ما فئت المذاهب الصغرى ، وبقيت  
المذاهب الكبرى وحدها في ميدان الخلاف ، عند ذلك قويت المناقشة ، وصار أصحاب  
المذاهب يستعين بعضهم على بعض بالسلطان ، خصوصاً في المشرق <sup>(٣)</sup>

---

(١) المقدسي ص ٣ ٢

(٢) المقدسي ص ١٢٧ ، يقول المقدسي إن هذه الخلال ثلاث أولها إعتقاد أي حبيبة على قول  
على رضى الله عنه ، وقال النبي عليه الصلاة والسلام أنا مدينة العلم وعلى ناسها ، وثانيها أن أنا حبيبة كان  
أقدم الأئمة ، وأمرهم إلى الصحابة ، وأورعهم وأعدهم ، وقد روت النوصة بالعق ، والثالث أن  
المقدسي رآه أصاب عياناً في مسألة أخطأ فيها الجمع ، وهي أنه كان لا يجوز أحد الأحرار على العرب فقال  
السائل للمقدسي دعت الطر بالمقدسي واحطط لفسل (المرحم)

(٣) انظر بصوص الر الأثير الى ذكرها سنوك هورحروى ، في (محنة — تاريخ الأديان)



# الفصل الخامس عشر

## القضاة

لم يعكر المسلمون إلا قليلاً في المبدأ الذي يقضى بالفصل الأساسى بين السلطتين القضائية والتنفيذية ، وكان هذا أيضاً هو شأن أوروبا المسيحية حتى أحدثت العصور فقد كان الذى هو القاضى الأعلى للمسلمين ، وكذلك كان حليفته من بعده ، وكان ولائته على البلاد يباشرون هذه السلطة بالبيان عنه ، ثم إن كثرة الواجبات تطلبت الاستعانة ببعض القضاة ، كما يحكى عن المختار ، فإنه كان يجلس للقضاء بنفسه ، وقد شط في ذلك وأحسن ، حتى كثرت عليه الأعمال فاضطر إلى تعيين القضاة<sup>(١)</sup> ولهذا السبب نفسه لم يحدد اختصاص القاضى بالنسبة لاختصاص الوالى تحديداً دقيقاً وقد احتفظ الوالى لنفسه بما كان « يعجر عنه القاضى<sup>(٢)</sup> » ، وإذا لم يقل الوالى حكم القاضى لم يكن أمام القاضى إلا أن يصرف عن الحكم ويعتزل أو يجلس في منزله مصرماً على الأقل<sup>(٣)</sup> ولكن مثل هذا الإهمال لحكم القاضى لم يكن كثير الوقوع . فلم يذكر الكندى صاحب تاريخ القضاة بمصر من أمثلة التصادم بين حكم القاضى وبين الوالى في مسائل مما يمس الأحوال الشخصية إلا حادثتين طوال القرون الأولى ، وكانت إحدى هاتين الحادثتين مسألة هامة حدا من حيث المبدأ ، وذلك أن امرأة تروحها رحل ليس من أكفائها ، فقام بعض أوليائها وأكثروا الرواح ، وترافعوا إلى القاضى ليعسح الكاح ، فأبى ، فذهبوا إلى الأمير فأمر القاضى بعسح الكاح ، فامتنع أيضاً ، ثم فرق الأمير بينهما<sup>(٤)</sup> وبهذا اصطداماً بين مدأين المبدأ العربى القائم على الأرستقراطية والدم ، ومبدأ الإسلام الديمقراطي الذى يحكم على الناس لا باعتبار الدم بل على قاعدة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

(١) Wellhausen , Die religios politischen Oppositionsparteien im alten

Islam, S 78

(٢) الخطط للمعبرى ح ٢ ص ٧

(٣) القضاة للكندى ص ٣٢٦ — ٣٢٧ ، ٣٥٦ ، ٤٢٧

(٤) الكندى ص ٣٦٧ ، والثالث الآخر في ص ٤٢٧

وكان من أثر القضاء على الإدارة الاقطاعية في عهد العباسيين أن خرج القاضي من سلطان الوالى ، وصار يُعيّن الخليفة مباشرة أو يُقرّ تعيينه على الأقل وكان أبو جعفر المنصور أول خليفة ولى قضاء الأمصار من قبله<sup>(١)</sup> ولما قدم هارون بن عبد الله قاصياً على مصر من قبل المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ — ٨١٣ — ٨٣٣ م) جلس معه صاحبُ البريد في مجلسه ، فأحرقه منه ، وقال هذا مجلس أمير المؤمنين ، ليس يجلس فيه أحد إلا بأمره<sup>(٢)</sup> وطل تعيين القضاة من حق الخليفة حتى في العصور السيئة ، باعتار أن القضاء آخر ما بقى من المناصب الهامة ، ولما تولى المستنكى عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م ، وجلس على عرش الخلافة ، سأل عن القضاء وكشف عن أمر اليهود بالحصرة ، فأمر بإسقاط بعضهم وقبول بعضهم ، فامتلأ القضاء ما أمر به وقال العامة ساحرين « إلى هنا بلغ سلطانه وانتهى في الخلافة أمره ونهيه<sup>(٣)</sup> » ، وفي سنة ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م سلم الأحشيد قضاء مصر إلى أبى بكر بن الحداد ، فألف البعض فيه الأتعار متهمين ، لأنه تولى القضاء من قبل الأحشيد لا من قبل الخليفة<sup>(٤)</sup> وفي سنة ٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م قلد السلطان بهاء الدولة القيتُ أبا أحمد الموسوى والد الشريف الرضى نقابة العلويين بالعراق وقضاء القضاء والحج والمطالم ، فلم يطر في قضاء القضاء لامتناع الخليفة القادر بالله من الإذن له بذلك ، هدام مع عظم سلطان بهاء الدولة<sup>(٥)</sup> ولا يزال من الحقوق القليلة الباقية التى يمتار بها الخليفة اليوم تعيينه قاضى القضاء تحصر<sup>(٦)</sup> وقد عظم شأن القضاء وقوى مركزهم منذ عهد الخلفاء الأولين من بنى العباس ، فقد كانت العادة أن الولاة يُخَصِّرون القضاء إلى محالهم ، فلما قدّم محمد بن مسروق الكمدى

(١) تاريخ اليعقوبى ، طبعه هوسبا ح ٢ ص ٤٦٨ وكان عبد الله بن هبة الحصرى ، الذى ولى قضاء مصر في مستهل عام ١٥٥ هـ — ٧٧٢ م ، أول قاض ولى مصر من قبل الخليفة ( القضاء للكمدى ص ٣٦٨ ) وكان أول قاض قضى بالمدن من قبل الخليفة هو عبد الله بن عمران التميمى من قبل الخليفة المهدي ( تاريخ اليعقوبى ح ٢ ص ٤٨٤ ) وأما فيما سلق قضاء الإسلام الأولين الذين يحكى أن الخليفة هو الذى كان يعينهم ، فالظاهر أن حكايهم موصوعة ، كما هو الحال في الخطابات التى يسب لغير أنه كان يوجهها إلى القضاء والولاة

(٢) الكمدى ص ٤٤٤ (٣) مروح الذهب للمسعودى ح ٨ ص ٣٢٨

(٤) طبقات السككى ح ٢ ص ١١٤ وما بعدها

(٥) المسطم لاس الحورى ص ١٢٩ ب ، واس الأندرج ص ١٢٩

(٦) Gottherl, The Cadi, SA der REES, 1908, S 7, Ann 3 ( وقد ظل ذلك من

فاصياً على مصر من قتل الرشيد عام ١٧٧ هـ — ٧٩٣ م أرسل إليه الأمير عبد الله بن  
المسيب يأمره بمحضور مجلسه ، فقال لو كنتُ تقدمتُ إليك في هذا لفعلت بك وفعلت  
يا كذا وكذا ، فانقطع ذلك عن القصة من يومئذ<sup>(١)</sup> بل نجد أن الآية قد انعكست في  
القرن الثالث الهجري ، فكان الولاة يحضرون مجلس القاضي في كل صباح<sup>(٢)</sup> إلى أيام  
القاضي ابن حريويه عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م ، فكان آخر من ركب إليه الأمراء ، لأنه  
كان لا يقوم للأمير إذا أتاه<sup>(٣)</sup>

وكان هذا القاضي مثلاً أعلى للعدالة ، لا يطمع في حكمه ولا تلحقه تهمة ، وكان لا يؤمّر  
أحداً من ولاة مصر ، بل كان يدعوهم بأسمائهم ، ويحكي من بضميمة أن مؤسسا الخادم ،  
وهو أكبر أمراء المقتدر ، وكان في خدمته سبعون أميراً سوى أصحابه ، وكان يحطّبه  
على جميع الممارع الخليفة ، عرص له بمصر سرص ، فأرسل إلى القاضي يطلب شهوداً  
يشهدون أنه أوصى بوقف على سبيل البر ، فقال القاضي لا أفعل حتى يثبت عدي أن  
مؤسسا حر ، وقال إن لم يرد عليّ كتاب المقتدر أنه أعفقه ، وإلا فلا أفعل ولما وصل  
الكتاب أتى القاضي إلا أن يشهد عدلان أنه كتاب أمير المؤمنين ، هذا ومؤسس أكبر  
أمراء الإسلام وكان ابن حريويه مهيباً وافر الحرمة ، لم يره أحد يأكل ولا يشرب ،  
ولا يلبس ولا يغسل يده ، وإما يفعل ذلك في حلوة ، ولا رآه أحد تتمحط ولا يبصق  
ولا يحك حسمه ، ولا يمسح وجهه ، وكان إذا ركب لا يلتفت ولا يتحدث مع أحد ،  
ولا يصلح رداءه ، وكان عليه من الوفاء والحشمة ما يتداكره أهل بلده ، وكان يختار في

(١) الكندي ص ٣٨٨ ، وقد ذكرت المحاولة الوحيدة التي أورد فيها الجسم من القضاء  
والإمرة لرجل واحد ، وهما بعلقان بالقاضي الأندلسي أسد ، الموفى عام ٢١٣ هـ ، وبالقاضي سربك  
ابن عبد الله في عهد المهدي (١٥٨ — ١٥٩ هـ) ، انظر كتاب العيون ص ٣٧٢ [ والمؤلف سر  
إلى الجزء الذي طبعه من هذا الكتاب دي عوى بلندن سنة ١٨٧١ ، المترجم ]

(٢) Wustenfled, AGGW, 37, Nr 91 ( وطبقا للسكي ح ٢ ص ٢ ٣ المرحم )

(٣) حسن المحاصرة للسيوطي ح ٢ ص ١١ ، وملحق الكندي ص ٥٢٨ ، ويحيى بن هذا  
عن الوزير صاحب بن عباد ، ذلك أنه قصد القاضي أبا السائب ، فساقل في المنام له ، ومعه حمرا ، أراه  
به صعب حركته ، فأخذ الصاحب بصبغه ، وأقامه ، وقال من القاضي على قضاء حقوق أحواله ، جعل  
أبو السائب واعتذر للصاحب ، ويحيى الفقه بها من القاضي ورجل آخر . وقال ان الصاحب استجلبها  
لغسه ، لأنه كان يحب الفجر واستحال الفصائل ( الإرساد للافوب ح ٢ ص ٣٣٨ )



أحكامه ، ويرى أن من قلده فهو متعصب أو عي ، وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه ، فلم يسكر عليه أحد ، ولم يكن يلحق علمه طعن ، ولا رتدته تهمة وكان لا يجيب في حكم<sup>(١)</sup> وقد احتشم عنده رحلان ، وكان المدعى عليه قد سبق إليه وجعل نفسه المدعى صاحب الحق ، فصحك حصه منهجاً ، وعند ذلك صاح ابن حرويه صيحة ملأت الدار ، وقال « ممّ تصحك ، لا أصحك الله سبك ، تصحك في مجلس ، الله مطلع عليك فيه ، ويحك ؟ تصحك وفاصيك بين الحمة والبار ؟ » فأرعب القاصي الرجل ، ومرص ثلاثة أشهر ، وكان إذا عاده صاحبه يقول له صيحة القاصي في قلبي إلى الساعة وأحسها تقتلي<sup>(٢)</sup>

وكان القاصي أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الأسعرائي قاصي بغداد المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م ربيع الحاء في الدنيا ، وقد وقع من الخليفة ما أوحى أن كتب إليه الشيخ أبو حامد اعلم أنك لست بقادر على عملي عن ولايتي التي ولّيتها الله تعالى ، وأنا أقدر أن أكتب إلى حراسان بكلمتين أو ثلاث أعمرلك عن خلافتك<sup>(٣)</sup>

ومما يدل على رهمة منصب القضاء واحترامه في ذلك العهد أسامحة الأمراء والوزراء كثيراً ما يساقون إلى السحن ، ولا يحكى مثل ذلك إلا عن قليل من القضاة ، ولم يمت في أثناء السحن إلا فاص واحد ، ولا يعلم أن قاصياً مات في السحن سواء ، وهو القاصي أبو أمية المتوفى عام ٣٠٠ هـ وكان أمر هذا القاصي عريباً ، فإبه كان قليل العلم ، وكان يتحرى البر سعداد ، فاستتر عنده الوزير ابن الفرات أيام محنته ، وقال له إن وُلّيت الوراة فأى شيء تحب أن أصنع بك ؟ فقال تقلدني شيئاً من أعمال السلطان ، قال ويحك لا يحىء منك عامل ولا أمير ولا فائد ولا كاتب ولا صاحب شرطة ، فأيش أقلدك ؟ قال لا أدري ، قال أقلدك القضاء ، قال قد رصيت ثم حرح ابن الفرات ، وولى الوراة وأحسن إلى أبى أمية ، وولاه قضاء البصرة وواسط والأهوار ، ورعما أراد بذلك أن يعيط الفقهاء ، ولكن عفة أبى أمية وتصوّنه عطيا على نفسه في العلم ، وكان يتيه على أمير البصرة ، ولا يرك

(١) طبقات السكي ح ٢ س ٢ ٣ وما بعدها ، ومحق لكندر ص ٢٨ هـ

(٢) طبقات السكي ح ٢ ص ٥ ٣ — ٦ ٣

(٣) نفس المصدر ح ٣ ص ٢٦ ، وانظر أيضاً Wustenfild ACGW Nr 287

إليه ، حتى ورد على الأمير كتابٌ مع طائر سكة اس العرات ، والقصص عليه ، فقصص على  
أبي أمية وأدخله السجن ؛ فأقام فيه مدة ، ثم مات<sup>(١)</sup>

على أن دوائر الفقهاء لم تكن من الناحية المطرية ترمق منصب القضاء بعين الرضا ،  
وبحد الكلام في قبول القضاء وعدم قبوله يمتد حتى إلى القرب الرابع المحرى ، ويقول  
السرقندى المتوفى عام ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م احتلف الناس في قبول القضاء قال بعضهم .  
لا يسعى أن يُقبل القضاء ، وقال بعضهم إذا وُلِّي رجل يعير طلب منه فلا بأس بأن يقبل  
إذا كان يصلح لذلك الأمر<sup>(٢)</sup> وقد احتج من كره ذلك بأحاديت رُويت عن النبي عليه  
السلام من شأنها أن تُزهب القصة حتى العادل منهم<sup>(٣)</sup>

ولما كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يجعل كتب من صمَّه على القضاء  
أرسل إليه عمرو بكتاب أمير المؤمنين ، فقال كتب والله لا ينجيه الله من أمر الجاهلية وما كان  
فيها من الهلكة ، ثم يعود فيها أبدأ إذا أنجاه الله منها ، وأبى أن يقبل القضاء<sup>(٤)</sup>

وفي سنة ٧٠ هـ — ٦٨٩ م تولى قضاء مصر عبد الرحمن بن حنيفة ، فلما بلغ أنه ذلك  
قال إنا لله وإنا إليه راجعون ، هلك الرجل ، وروى أنه قال هلك ابنى وأهلك<sup>(٥)</sup>  
ولا أعلم كيف كان موقف المسيحيين الأولين من مسألة القضاء ، أما المسلمون فإبهم  
تمسكوا بالوصية التي جاءت في حطمة الخيل ( إنجيل متى ) من عدم التعرض للحكم  
على الناس

ويحكى لنا من ورع المسلمين وخوفهم من ولاية القضاء أن أبا قلانة مثلاً دعى للقضاء ،  
فهرب من العراق حتى أتى الشام ، فوافق ذلك عمرل فاصبها ، فهرب واحتج حتى أتى بلاد  
اليمامة ، وروى عن سفيان الثوري أنه دعى إلى القضاء ، فهرب إلى البصرة حتى مات وهو

(١) المسظم لاس الحورى ص ٧ ب

(٢) نسان العارفين ص ٣٨

(٣) من أمثلة ذلك ما ذكره السرقندى ، عن عائشة رضى الله عنها أن النبي عليه السلام ، قال  
« من جاء بالفاصل العدل يوم القيامة فيلقى من سنة الحساب ما يود أن لم يكن ففى من اى » ، وعن أبى  
هريرة « من حُجِّل فاصياً فكأعما دح غير سكين » ( المرحم )

(٤) الكندى ص ٣١٥

(٥) الكندى ص ٣ ٢

متوار؛ وروى عن أنى حبيفة أنه ابتلى بالصرب والحسن فلم يقبل حتى مات<sup>(١)</sup>، وقد حكى الطبرى أن قوما من أهل الحديث تحاموا حديث أنى يوسف القاصى من أحل علبة الرأى عليه مع صحة السلطان وتقلده القصاء<sup>(٢)</sup> وفى عهد الخليفة المهدي أرم قاصى المدينة ولاية القصاء بعد أن أشرف عليه والى المدينة بصرب الشياط<sup>(٣)</sup> وكان القاصى شريك قدولى القصاء حوالى هذا العصر بعد تأب، وذهب إلى الصيرفى ليأخذ ررقه، فصايقه فى النقد فقال له الصيرفى إبتك لم تنع به رآ، فقال له شريك بل والله نعت أكثر من البر، نعت به ديبى<sup>(٤)</sup> بل يحكى عن بعض العلماء أنه أظهر الحون هربا من تولى منصب القصاء<sup>(٥)</sup>

وكان الصوفية سوع حاص يقفون من القصاة الذين يسموهم علماء الدنيا على طرى نقيص، ويقولون « إن العلماء يحشرون فى رصرة الأنبياء، والقصاة يحشرون فى رصرة السلاطين »، ويحكى لنا أنوطالب المكى أن إسماعيل بن إسحاق القاصى كان من علماء أهل الدنيا، ومن سادة الفضلاء وعقلائهم، وكان مؤاحياً لأئى الحسن بن أنى الورد، وكان هذا من أهل المعرفة، فلما ولى إسماعيل القصاء هجره ابن أنى الورد، ثم إنه اضطر إلى أن دخل عليه فى شهادة، فصرب ابن أنى الورد على كتف إسماعيل القاصى، وقال يا إسماعيل ! علمٌ أخلصك هذا المجلس لقد كان الجهل حيراً منه، فوضع إسماعيل رداءه على وجهه، ونكى حتى لله<sup>(٦)</sup>

وكان الحنفية فيما يتعلق بالقصاء أول من حصع لما اقتضته ظروف الحياة، وهذا شأنهم بالإجمال فيما عدا ذلك، ويحكى عن الفقيه الشافعى ابن حيران المتوفى عام ٣١٠ هـ — ٩٢٢ هـ

(١) سان العارفين للسمرقندى ص ٣٩، ومجد أمثلة أخرى فى كتاب كسب المحجوب، ترجمه سكسون ص ٩٣

(٢) وفاب الأعنان لاس حلكان ترجمه رقم ٨٣٤ من طبعه قسطنطد

(٣) تاريخ بغداد JRAS, 1912, 54، ح ١١ ص ٢٨٦ — ٢٧٧ طبعه مصر ١٩٣١

(٤) ابن حلكان ترجمه رقم ٢٩

(٥) تجد أمثلة أخرى ذكرها أمدرور فى مقاله عن منصب القصاء فى الأحكام السلطانية، وذلك

فى مجلة JRAS, 1910, S 775

(٦) فوب القلوب ص ١٠٧ طبعه مصر ١٣١ هـ



أه كان يعيب صاحبه اس سريخ على تولى القضاء ، ويقول له هذا الأمر لم يكن  
في أصحابنا ، إنما كان في أصحاب أبي حنيفة وكان اس حيران قد امتنع من تولى قضاء  
عداد ، فوكل الوريث به في داره ، وحتم الباب بصعده عشر يوماً<sup>(١)</sup> ولكن أنا مكر الراى  
التوى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م ، وكان إمام أهل الراى في عصره ، حوطل في أن يلي قضاء  
القضاة فامتنع وأعيد عليه الخطاب فلم يفعل<sup>(٢)</sup> وكانت العادة حتى أواخر القرن الرابع  
تقضى ألا يقل أحد منصب القضاء إلا بعد إحكام وتردد

ولما صُرف أبو عمرو بن عبد الواحد عن قضاء البصرة ، وحل محله أبو الحسن  
اس أنى الشوارب وذلك في عام ٣٩٩ هـ — ١٠٠٩ م قال المصبرى الشاعر<sup>(٣)</sup>

عدى حديث طريفٌ      ثمسله يُتَعَى  
من قاصين يُعَرَى      هذا ، وداك يُهَى  
فدا يقول اكرهونا      ودا يقول استرحنا  
ويكدان جميعاً      من يصدق ما

وقد احتلّف هل يأخذ القاضي عن القضاء ررقاً ؟ ويقال إن عمر بن الخطاب منع من  
ذلك<sup>(٤)</sup> أما الحصاف الفقيه الحنبلى المتوفى عام ٢٦١ هـ — ٨٧٤ م فقد حاول أن يثبت

(١) AGGW, 37, Nr 81 ، وهكذا وقع لاس سريخ ، المتوفى عام ٣٠ هـ — ٩١٨ م ،  
فقد أراد الوريث على بن عيسى أن يوليه القضاء ، فامتنع ، فسر عليه ماله ، فلما عوب في ذلك ، قال  
لله أراد أن نسمع الناس أن رجلاً من أصحاب الشافعى يعامل عمل هذا لقلد القضاء ، فصر على  
الامتناع ، ويرهد في الدنيا وكان اس سريخ قاصاً على شيران من قبل (اطرطقات السكى ح ٢ ص ٩٢) ،  
ونقول السكى (ح ٢ ص ٢١٣) إن الوريث كان يقصد من حتم دار اس حيران أن يقال لله كان في زمانه  
من يوكل به ليقلد القضاء فلا يفعل ، ويحكى السكى (ح ٢ ص ٢١٤) عن اس رولاق المؤرخ المصرى ،  
المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٩٨ م أن الناس كانوا يأتون بأولادهم الصغار ليشاهدوا باب اس حيران ، وهو  
ويقولون لهم اطروا حتى تحدثوا بهذا

(٢) المسطم لاس الحورى ص ١١٧ ب

(٣) من المصدر ص ١٥٤ ، واس الأثير ح ٩ ص ١٤٩ ، وأبو المحاسن ، طبعه كاهورسا

ص ١٠٣ .

(٤) Gottheil, The Cadi, S 8 (٤)

حوار أحد القاصي لرق من بيت المال مستنداً في ذلك إلى أحاديث سوية وإلى أمثلة حرت في الصدر الأول<sup>(١)</sup>

ولما ولي القضاء بمصر ابن حجية سنة ٧٠ هـ — ٦٨٩ م كان ررقه في السنة من القضاء مائتي دينار ، وكان لابن حجية إلى جانب ولاية القضاء القصص وإدارة بيت المال ، وكان ررقه من القصص ومن إدارة بيت المال أربعمائة دينار ، وكان عطاؤه مائتي دينار ، وكانت حائزته مائتي دينار ، فكان مجموع ررقه في السنة ألف دينار<sup>(٢)</sup> ، وفي سنة ١٣١ هـ — ٧٤٨ م كان ررق قاضي مصر عبد الرحمن بن سالم عشرين ديناراً في الشهر<sup>(٣)</sup> ، ولكن هذا المبلغ كان فيما يظهر لا يكاد يكفي للإيفاق على كُتّاب القاصي وعلى غير ذلك مما يتطلبه ديوانه ، ومع أن القاصي ابن حجية كان يأخذ ألف دينار في كل سنة ، فكان لا يحول عليه الحول وعنده معها شيء يَفْضُل على أهله وإخوانه<sup>(٤)</sup>

وقد دخل رجل على قاضي المسطاط في سنة ٩٠ هـ — ٧٠٩ م وقد تعدّى ، فقال أتعدّي؟ قال نعم ، فأنت الحارّية بعدس بارد على طبق حوص وكعك وماء ، فقال المُلُّ ، وكل ، فلم تتركها الحقوق تشع من الحر<sup>(٥)</sup> وكان القاصي حير بن نعيم الحصرمي الذي تولى القضاء والقصص بمصر عام ١٢٠ هـ — ٧٣٨ م يتّجر — إلى جانب منصبه — بالريت ، فقال له رجل حديث السن من حصر موت كان يلازمه وأنت أيضاً تتّجر ! يحكي لنا هذا الحصرمي الصغير فيقول « فصر ب ( حير بن نعيم ) بيده على كتفي ، ثم قال انتظر حتى تحوج سطن عيرك ، قلت في نفسي كيف يحوج إنسان سطن عيره ؟ فلما اتليت بالعيال إذا أنا أحوج سطوهم<sup>(٦)</sup> »

وكان القاصي أبو حريمة إبراهيم بن يزيد الرعيبي الذي ولي قضاء مصر عام ١٤٤ هـ — ٧٦١ م ، متحرراً حداً فيما يتعلق بررقه ، « فكان إذا غسل ثيابه أو شهد حارة أو اشتعل شعل لم يأخذ من ررقه بقدر ما اشتعل ، وقال إنما أنا عامل للمسلمين ، فإذا اشتعلت

(١) كتاب أدب القاصي مخطوط لادن رقم ٥٥ ص ١٢٥

(٢) الكندي ص ٣١٧ (٣) الكندي ص ٣٥٤

(٤) نفس المصدر ص ٣١٧ (٥) نفس المصدر ص ٣٣١

(٦) نفس المصدر ص ٣٥٢

نتىء غير عملهم فلا يحل لى أحد ما لهم » ، « وكان يعمل الأرسان ، كل يوم رسين ، واحدا يبقه على نفسه وأهله ، وآخر يبعث به إلى إخوان له من أهل الإسكندرية ، لكل واحد منهم رس ، وكان ذلك فى سبيل الله <sup>(١)</sup> »

وكما أن العباسيين جعلوا للقاصى مصفا رقيقا مستقلا بابهم رفعوا ررقه أيضا ، فكان ررق عبد الله بن هبة الذى ولى القضاء على مصر من قبل المصور عام ١٥٥ هـ ثلاثين ديناراً فى كل شهر <sup>(٢)</sup> ، وكان ررق الفصل بن فصالة قاصى مصر من قبل المهدي ثلاثين ديناراً فى كل شهر أيضاً ، وكان يأخذ عسلا بدل عشرة منها <sup>(٣)</sup> أما فى عصر المأمون كما كان فيه من كرم فقد أحرى والى مصر على القاصى الفصل بن عام الذى ولى القضاء عام ١٩٨ هـ مائة وثمانية وستين ديناراً فى كل شهر ، وكان الفصل أول قاص أحرى عليه هذا الرق الكبير <sup>(٤)</sup>

ولما تولى مصر عبد الله بن طاهر ، وكان مشهوراً بالكرم ، قلّد عيسى بن المسكدر القضاء عام ٢١٢ هـ ، ولما عرف أنه مُقِلّ أحرى عليه سعة دناير كل يوم ، « فحرت فى القضاء إلى اليوم <sup>(٥)</sup> » ويحدثنا المسعودى عن إبراهيم بن حار القاصى أنه كان سعداد « يعالج الفقر ويتلقاه من حالقه بالرصا ناصراً للفقر على العى ، ثم مصت أيام حتى اقيته بحلب من حند قنسرين والمواصم من أرض الشام ، وذلك فى سنة ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م ، وإذا هو بالصد مما عهدته متولياً للقضاء على ما وصفها ، ناصراً ومترفاً للعى على الفقر وقد أحررت أنه قطع لروحته أربعين ثوباً تسترّياً وقصا وأتياه ذلك من الثياب على مقراص واحد ، وحلف مالا عطيا لغيره <sup>(٦)</sup> »

وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين أحد الأموال غير حق ، فأمر بأن

(١) الكندى ص ٣٦٣ — ٣٦٤

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٩ (٣) نفس المصدر ص ٣٧٧ — ٣٧٨

(٤) نفس المصدر ص ٤٢١ ، وفى ص ٤٣٥ أن ررقه كان مائة وملائة وسين ديناراً ، وفى ص ٥٠٧ أن الموكل أحرى على حلقه مل ررقه

(٥) نفس المصدر ص ٤٣٥ ، وفى نصوص أخرى أن ررقه عد ذلك ، وبحكى السكى ( ح ٢ ص ٣٢ ) فعلا عن ابن رولاف الموفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٩٨ م أن ررق القاصى ابن حروب الذى عمل عن القضاء سنة ٣١١ هـ — ٩٣٣ م كان مائة وعشرين ديناراً فى الشهر

(٦) صروح الذهب للمسعودى ح ٨ ص ١٨٨ — ١٩



يُصَتَّف للحسين بن علي بن النعمان ررقه وصلاته وإقطاعاته ، وشرط عليه ألا يتعرض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه<sup>(١)</sup>

ويحدثنا الرحالة الفارسي ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري أن ررق قاضي القضاة بمصر ألقا ديار في الشهر<sup>(٢)</sup> ويُذكر في ملحقات أخبار القضاة للكندي أن دخل القاضي عبد الحاكم بن سعيد الفارقي في السنة كان يريد على عشرين ألف دينار<sup>(٣)</sup>

وكان القاضي في المشرق يُعطي ررقه من بيت المال<sup>(٤)</sup> ، ولكن عندما من المصوص ما يدل على أنه كان لا يأخذ شيئاً من ررقه ، إما لأنه كان لا يكرهه أو رقة عن ررق القضاء على سبيل اتقاء التهمة والرقة في التحرر ، ويظهر أن الأمر الأخير هو الحق ، فإن الحسن بن عبد الله (المتوفى عام ٣٦٩ هـ — ٩٧٨ م) لث على قضاء مدينة سيراو حسين عاماً ، ومع أن هذه المدينة كانت مدينة تجارية كبيرة ، فقد كان الحسن يعيش مما يبيعه من ممتلكاته المشهورة بخودة حطها<sup>(٥)</sup>

وقد امتنع قاضي المدينة في عهد المهدي أن يأخذ ررقاً ، لأنه لم يرد أن يصيب مالا من هذا المصب الذي يكرهه<sup>(٦)</sup>

ولما ولي قضاء القضاة سعداد محمد بن صالح بن أم تيمان الهاشمي هم سنة ٣٦٣ هـ — ٩٧٢ م وكان يتفقه لمالك انتدب عبد تولى منصبه شروطاً منها ألا يتناول على القضاء أحراً ، ولا يقلل تنفاعة في فعل ما لا يجوز ولا في إتيان حق ، ولا يعير ملبوسه<sup>(٧)</sup>

وكان علي بن الحسن التتويحي المتوفى عام ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م قد تقلد قضاء عدة

(١) الكندي ص ٥٩٧ (٢) ناصر خسرو ص ١٦١

(٣) الكندي ص ٦١٣ ، أما ما ذكر في ص ٤٩٩ من أن دخله كان حسين ألف دينار في السنة ، فيجب أن نؤيد على أنه ما حصل عليه من ررقه ويحدث في شأن المقرري (الخطط ج ١ ص ٤١) لفيقات القاطنين أن ررق قاضي القضاة كان مائة دينار في الشهر

(٤) كتاب الجراح لأبي يوسف ص ١١٥

(٥) Huart, Calligr S 77

(٦) تاريخ بغداد JR A S, 1912, S 54 وح ١١ ص ٢٧٧ من طبعة القاهرة سنة ١٩٣١

(٧) ملحقات القضاة للكندي ص ٥٧٣ ، وابن الجوزي في المسند ص ١٥ ب ، ولذلك حكاية

أخرى عبد السكي في طباعه ج ٣ ص ٨٤

نواح ، وكان دحله كل شهر من القصاء ودار الصرب التي كان يتولاها مع القصاء ستين دياراً في الشهر<sup>(١)</sup>

وفي سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م كس اللصوص دار أحد القصاة سعداد ، وأحدوا جميع ما كان في منزله ولم يكن شيئاً مدكوراً ، لأنه كان مشهوراً بالفقر ، وكانوا يقدرون أن للقاصي مالا ، فصره ليعتجروه منه ، فهرب إلى السطوح ورى نفسه إلى ما حاوره فسقط فمات<sup>(٢)</sup>

وفي سنة ٣٥٢ هـ — ٩٦٣ م تقلد أبو شر عمر بن أكرم القصاء سعداد ، على ألا يأخذ ررقاً<sup>(٣)</sup>

وكان للقاصي أني الطيب الطبري عمامة وقبض بيه وبين أحييه ، إذا خرج داك فقد هذا في البيت ، وإذا خرج هذا احتاح ذلك أن يقعد<sup>(٤)</sup>

وكان أبو بكر محمد بن المطهر الشامي قاصي قصاة سعداد المتوفى عام ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م راهداً ورعاً ، وقد شرط عند تولى القصاء ألا يأخذ ررقاً ، وكان له كراء بيت قدره في الشهر دينار ونصف ، وكان من ذلك قوته ، وكان له عمامة من الكتان وقبض من القطن الحش ، وكان له كيس يحمل فيه فتيت الخبز ، فإذا أراد الأكل جعل من الفتيت في قصعته ، ووضع عليه قليلاً من الماء وأكل منه<sup>(٥)</sup>

وكذلك كان أحمد بن يحيى القاصي الأندلسي يختلف إلى علة كان يعمرها بالعمل ليعيش منها<sup>(٦)</sup> ويحدثنا بيترمان (Petermann) وهو في دمشق عام ١٨٥٢ م « في كل سنة تُرسل قاص حديد من القسطنطينية يختاره شيخ الإسلام ويرسله ، وهو يأخذ بصيباً ثانياً من تركة كل من يموت (قيل لي إنه الربع ، وهو كثير بالطبع) ، ويأخذ نصف العشر عن كل قصبة يحكم فيها ، وهذا هو المقدار الذي يدفعه كل فرد من رعايا الباب العالي عن

(١) الإرشاد لنافوس ح ٥ ص ٢ ٣ (٢) السطم ص ١٧٥

(٣) مسكوه ح ٦ ص ٢٥٧

(٤) ابن حلسكان ترجمه رقم ٦ ٣ من طبعه فستفيلد

(٥) طبعات السكي ح ٣ ص ٨٤ (٦) ابن شكوال ح ١ ص ٦

القصة التي يتقدم بها (ولو حسرهما) أما الرعايا الأوربيون فإنهم يدفعون خمس العشر<sup>(١)</sup> «  
وفي مرا كش اليوم يأخذ القصة ، باعتارهم عمالاً دينيين ، أراقهم من الخوس  
(الأوقاف الخيرية) ولما كان هذا نادراً فإنهم يُتركون لقبول الهدايا من المتحاضرين  
إليهم<sup>(٢)</sup>»

وفي سنة ١٣٥٠ هـ - ١٩٦١ م تقلد أبو العباس س أنى الشوارب قضاء بغداد ، بعد أن  
وافق على أن يحمل إلى حراة الأمير مع الدولة مائتي ألف درهم في كل سنة وكان هذا  
القاضي « مع قسح فعله قسح الصورة مشوهاً<sup>(٣)</sup> » ، وقد اتهم « بالعلمان والشهوات  
والجور<sup>(٤)</sup> » ، ولكن الأمور لم تسر معه على عادتها ، فقد حُلع عليه من دار السلطان  
وامتنع الخليفة من أن يصل إليه ، ولم يأذن له الخليفة أن يصل إليه في يوم موكب ولا غيره ؛  
ثم عُزل من منصبه بعد عامين ، وتولى مكانه أبو شر عمر س أ كتم المتقدم الذكر وأُعفى  
مما كان يحمله من أنى الشوارب ، وأمر بالاعصى شيئاً من أحكام من أنى الشوارب  
وسجلاته ، لأنه اشترى منصبه شراءً<sup>(٥)</sup>

وقد كان القاضي تونة س عمر الحصري التتوي عام ١٢٠ هـ - ٧٣٨ م أول قاص عصر  
وضع يده على الأحاس ، وإمما كانت الأحاس في أيدي أهلها وأيدي أوصيائهم ، فأراد  
تونة أن يصع يده عليها حفظاً لها ، « فلم يمت حتى صارت الأحاس ديواناً عظيماً<sup>(٦)</sup> » ،  
وكان القاضي إلى جانب هذا يتولى أموال اليتامى ، ومنذ عام ١٣٣ هـ - ٧٥١ م أورها  
القاضي خير س نعيم بيت المال وسخل في كل مال منها سحلاً ما يدخل منها وما يخرج<sup>(٧)</sup>

(١) Petermann, Reisen im Orient, S, 98

(٢) اطر Revue du monde Musulman, XIII S 517

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٤) تذكرة ابن حمدون عند أمدروز (في Amedroz, JRAS 1910, s 789) ، وكان الولع  
بالعلمان من رذائل القضاة المعروف ( نتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٨٨ ) ، ومن القضاة من كان مشهوراً  
باللواط ، ومنهم من كان مشهوراً بالأمة (محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٢٥ ، والمسطف ج ٢ ص ١٩٩) ،  
وكان يحى س أ كتم قاضي قضاة المأمون لواطاً مشهوراً ، وقد هجا الحنري ( الديوان ج ٢ ص ١٧٥ من  
طبعة العسطينية ) من أنى الشوارب قاضي القضاة مثل هذه الرذلة

(٥) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤ ، ٧ ، ٤

(٦) السكندى ص ٣٤٢ (٧) من المصدر ص ٣٥٥ .



وفى سنة ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م تولى القاضى محمد بن النعمان ، فوُحِدَ عليه من أموال اليتامى ستة وثلاثون ألف دينار ، فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله أن تُصادر أمواله ، وأُرسل هُدم البصرانى ، كاتب الوريث ، فاحتاط عليها ، وشرع فى البيع وفى تفريم الشهود الذين كانت الودائع تحت أيديهم ( وهم خيار أهل البلد ) إلى أن تحصل نصف الدين ، وأمر الحاكم ألا يودع بعد ذلك أحد الشهود مالٌ يتيم ولا عائب ، وأُفرد موضعٌ يوضع فيه المال ويحتم عليه أربعة من الشهود لا يفتح إلا بحضورهم<sup>(١)</sup>

ولم يدخل فى اختصاص القاضى النظر فى المواريت بصورة نهائية إلا فى القرن الرابع الهجرى<sup>(٢)</sup> ، ثم صار إليه أخيراً الإشراف على سجون البلاد التى بلى قضاءها ، واختص القضاة من ذلك مما سُمى « حوس القضاة » ، وهى الخاصة من يحبس لدين عليه ، وذلك فى مقابل حوس المعونة التى يُحس فيها أصحاب الحمايات وفى سنة ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م أمر بحر الدولة ليلة الفطر بتأمل من فى حوس القضاة ، فمن كان محبوساً على دينار إلى عشرة أطلق ، وما كان أكثر من ذلك كُفِّل ، وأُخرج ليعود بعد التعييد ، وأوعز بتميز من فى حوس المعونة ، فمن صُعرت حبايته أطلق ووقعت توثته<sup>(٣)</sup>

وكانت عادة المتحاكمين أن يتقدموا للقاضى برقاع فى الرقعة منها اسم المدعى واسم حصه وأبيه ، وكان الكاتب يأخذ هذه الرقاع عند باب المسجد قبل محيى القاضى ، ولا يرال يأخذها حتى يحضر القاضى ، وإذا كانت الرقاع كثيرة لا يقدر القاضى أن يدعو بها كلها فى يوم ، فرّقها فى كل يوم خمسين رقعة أو أكثر من ذلك على قدر طاقته فى الخلو والصر<sup>(٤)</sup>

وكانت جلسات القاضى للحكم عليه ، وقد حاصم رجل المأمون مرة ، وأذن المأمون للقاضى يحيى بن أكرم فى القضاء بينهما فى دار الخلافة ، فقال القاضى فإنى أبدأ بالعامّة أولاً ليصح المجلس للقضاء ، ثم أمر بفتح الباب وقعد فى ناحية من دار الخلافة ، وأذن

(١) ملحق الكندى ص ٣٩٥

(٢) اطر الفصل الخاص بالأمور المالية ( الفصل الثامن )

(٣) المسظم لاس الحورى ص ١٥٢ ب

(٤) كتاب أدب القاضى مخطوط عكسه لند ريم ٥٥ ص ١٩

للعامه في الدحول ونادي المادى وأحد الرقاع ودعا بالناس ، ثم قصى بين الخليفة وحصنه<sup>(١)</sup> ومن أجل أن جلسات القضاء كانت عليه ، فقد كان القاضي في أول الأمر يجلس في مكان لا يجمع أحد من المسلمين من الدحول إليه ، وهو المسجد الجامع حيث كان يجلس مستنداً إلى أسطوانة من أساطين المسجد<sup>(٢)</sup> ، وكذلك كان القاضي يجلس أحياناً للقضاء في داره ، ويحكى عن خير بن يعيم الذي تولى قضاء مصر عام ١٢٠ هـ — ٧٣٨ م أنه كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره ، فكان يجلس فيه فيسمع ما يجري بين الخصوم من الكلام<sup>(٣)</sup>

وقد ولي قضاء مصر إبراهيم بن الخراج سنة ٢٠٥ هـ — ٩١٩ م ، وقد مسح المصريون عليه ، وكان مُصَلَّاه موصوعاً في المسجد الجامع ، فحاء المصريون وألقوه في الطريق ، فجلس للحكم في منزله ، ولم يعد للمسجد الجامع حتى صُرف ولم يكن هذا القاضي بالمدعوم في أول الأمر ، حتى قدم عليه اسم من العراق ، فأفسد أموره وهدده وأخذ الرشاً من الناس ، فسخط المصريون على القاضي<sup>(٤)</sup>

ولما ولي القاضي هرون بن عبد الله قضاء مصر سنة ٢١٧ هـ — ٨٣٢ م جعل مجلسه في الشتاء في مقدم المسجد ، واستدر القلعة ، وأسند ظهره بخدار المسجد ، « ومع المصلين أن يقرؤا منه ، وباعد كتابه عنه ، وباعد الخصوم ، وكان أول من فعل ذلك » واتخذ مجلساً للصيف في صحن المسجد وأسند ظهره للحائط العربي<sup>(٥)</sup>

وقد رأى أهل السنة بعد انتصارهم حوالي منتصف القرن الثالث الهجري أن جلوس القضاة في المسجد يناهض ما يجب لبيوت الله من الحرمة ، فأمر المعتصم سنة ٢٧٩ هـ ألا يقعد القضاة في المسجد<sup>(٦)</sup> ولكن هذا الأمر لم يثمر إلا قليلاً ، فقد كان قاضي القضاة بعدد

(١) المحاسن والمساوي للبيهقي طبعه شتالي ص ٥٣٢

(٢) الأغاني ج ١ ص ١٢٣ (٣) الكندي ص ٣٥١

(٤) الكندي ص ٢٢٨ (٥) نفس المصدر ص ٤٤٣ — ٤٤٤

(٦) أبو المحاسن طبعه ليدن ج ٢ ص ٨٧ [عبر أن كلمة قاص في هذا النص محرفة عن كلمة قاص ، بدليل أن القصاص هم الذين منعوا من العودة في المساجد ، وفي النص أيضاً أنه منع معهم أصحاب العجوم ، ويؤيد هذا تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٣١ ، ٢١٦٥ من الطبعة الأوربية (عام ٢٧٩ ، ٢٨٤ هـ) ]

[المرحوم]

حوالى عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م مجلس للقضاء فى داره<sup>(١)</sup>، أما فى مصر فكان القاضى مجلس للقضاء فى داره أحياناً ، وفى الجامع أحياناً أخرى<sup>(٢)</sup>

ولما تولى أبو عمر محمد بن الحسين السطامى (المتوفى عام ٤٠٧ هـ — ١٠١٦ م) قضاء بيسابور أحلس فى مجلس القضاء فى المسجد فى الساعة التى قرئ فيها عهده<sup>(٣)</sup> يقول المعرى شاكياً حال العدول وسوء فعلهم<sup>(٤)</sup>

فى السدو حُرَّابُ أدواد مسوِّمة وفى الخوامع والأسواق حُرَّابُ  
فهؤلاء تسموا بالعدول أو التحار واسم أولاك القوم أعرابُ  
ويقول فى العدول فى موضع آخر<sup>(٥)</sup>

عدول لهم ظلم الضعيف سجية يستون أعراب القرى والخوامع

أما فى عصر الفاطميين فكان قاضى القضاة بالقاهرة مجلس الست والثلاثاء بزيادة جامع عمرو بن العاص على طراحة ومسند حرير وكان الشهود يجلسون حواليه يمينه ويسرة بحسب تاريج عدالتهم ، وبين يديه خمسة من الحجاب ، اثنان بين يديه ، واثنان على باب المقصورة ، وواحد بعد الحصوم إليه ، وأمامه كرسى الدواة ، وهى دواة محلاة بالقصة تُحمل إليه من حرائر القصور<sup>(٦)</sup>

وكان المتحاكمون إلى القاضى فى العصر الأول يسطون قصيتهم وهم وقوف بين يديه ، وقد أتى الأمير الأموى عبد الملك بن مروان البصرى إلى القاضى حيدر بن يعين بحاصم ابن عم له ، فقعده على مهرش القاضى ، فقال له القاضى قم مع ابن عمك ، فعصب الأمير ، وقام ولم يحاصم<sup>(٧)</sup>

ثم صار الرسم أن مجلس المحتصمون بين يدى القاضى صفّاً متساوين

وقد وقع بين أم المهدي وبين أنى حمير المصور حصومة ، فقالت لا أَرْضِي إلا بحكم

(٢) من المصدر ح ٢ ص ١١٤ .

(٤) Kremer, ZDMG, 30, S 49

(٦) الخطط للقريرى ح ١ ص ٣ ٤

(١) طبقات السكى ح ٢ ص ١٩٤

(٣) من المصدر ح ٣ ص ٥٩

(٥) Kremer, ZDMG 31 S 478

(٧) الكندى ص ٣٥٦



عوث بن سليمان ، وكان هذا قاصياً على مصر من قبل المهدي ، فحمل إلى العراق للحكم بينهما ، فوكلت أم المهدي عنها وكيلًا ، جلس أمام القاضي ، فطلب القاضي من أمير المؤمنين أن يساوي حصته في مجلسه فامحط عن فرشه ، وجلس مع الخصم ، وبعد النظر في القضية حكم القاضي لأم المهدي على أمير المؤمنين<sup>(١)</sup>

وقد جاء في مصدر أن المأمون شكاه رجل إلى القاضي يحيى بن أكنم ، مودى الخليفة ليجلس مع حصته ، فأقبل ، ومعه علام يحمل مُصَلًى ، فأمره القاضي بالخلوس ، فطرح المصلي ليقعد عليه ، فقال له يحيى يا أمير المؤمنين لا تأخذ على حصتك شرف المجلس ، فطرح للخصم مصلي آخر فجلس عليه<sup>(٢)</sup>

وقد حوصم مولى السيدة ربيعة ، روضة الرشيد ، ووكلها إلى القاضي محمد بن مسروق ، فأمر بإحصاره ، فجلس مترنماً ، فأمر به ابن مسروق فطرح وصُرب عشرين<sup>(٣)</sup> ، هذا مع أنه وكيل السيدة دات العود العظيم

وقد تعرض أهل الطر للسحت في جميع الأمور الصغيرة التي قد تؤثر على عدالة القاضي ، هل يحور للمتخاصمين أن يسلموا على القاضي ؟ إذا سلم عليه أحد الخصمين فقال « السلام عليكم » يسعى للقاضي أن يقول « وعليكم » ، ولا يريد على ذلك شيئاً ، لأن هذا يكنى ، أما إن قال « وعليكم السلام » فإن كلمة السلام زيادة في الخواب ولهذا ذهب قوم إلى أنه لا يسعى للخصوم أن يسلموا على القاضي<sup>(٤)</sup>

وكذلك شدد أهل العدالة على القاضي في ألا يؤثر على المتخاصمين أقل تأثير ، فلا يصح على أحدهم ليستخرج منه الإحالة التي يريد<sup>(٥)</sup> وقد كانت هذه المعاملة اللينة من القضاة لمن يحتصم إليهم وعمر القضاة أحياناً عن إلزام أحد الخصمين بإعطاء المال لصاحبه ، سبنا في أن اخترعت عند أهل المكاهة بمصر قصة القاضي البطاح الذي تنث في فلسوته قرني نور

(١) من المصدر ص ٣٧٤ — ٣٧٦ (٢) المحاسن والمساوي للسهي ص ٥٣٣

(٣) الكندي ص ٣٩٢ (٤) أدب القاضي مخطوط ليدن رقم ٥٥ ص ١٢٢

(٥) فلا يصحك في وجه أحدهما أو سارّه ، أو يوميء إليه شيء دون حصته لئلا يكسر قلب أحدهما وبعد عن الحجة بارتكاب الحق لصاحبه ، ويحب عليه أن يدين الصعب حتى تشد قلبه ، وسعد العرب حتى هوى في المطالبة محفه ، هذا ولا يحور له أن يمارح الخصوم ، ولا أن يفعل ما ساء هيه القاضي [ المترجم ]

ليطرح مهما المعاند من المتحاصمين وقد سمع الخليفة الحاكم بذلك ، فلام القاصي على ما فعل ، فطلب القاصي من الخليفة أن يجلس وراء الستار في مجلس القضاء ليرى بنفسه مقدار بلادة الناس ، فحصر الخليفة ، ومثل بين يدي القاصي حصان يطالب أحدهما الآخر بمائة دينار ، فاعترف المدعى عليه بالدين ، ولكنه طلب أن يدفعه مقسطاً ، فاقترح القاصي في أول الأمر أن يدفع عشرة دنانير في كل شهر ، ولكنه اعترض شخص القاصي ذلك إلى خمسة دنانير ، ثم إلى دينارين ، ثم إلى دينار ، ثم نصف دينار ، فأطهر المعر ، وأخيراً سأله القاصي أن يبين ما يستطيع أن يدفعه فقال إنه يدفع ربع دينار في كل عام ، ولكنه شرط أن يبقى حصنه في السجن ، لأنه إن أطلق وعمر هو عن أداء ما عليه فرما قتله عند ذلك سأل الحاكم القاصي كم يطحنه فقال واحدة ، فقال الحاكم ابطحه مربيين ، أو ابطحه مرة وأنا ابطحه الأخرى<sup>(١)</sup>

وكان القاصي يلبس السواد على هيئة عمال بني العباس ، وكان المفصل من فصالة قاصي مصر من قبل المهدي عام ١٦٨ هـ — ٧٨٤ م يعتمّ بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة<sup>(٢)</sup> ولما ولي الخارت بن مسكين قضاء مصر عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م طلب إليه أن يلبس السواد ، فامتنع ، فحوّوه أصحابه سطوة السلطان به ، وقالوا له يقال إنك من موالى بني أمية ، فأجابهم إلى لباس كساء أسود من الصوف<sup>(٣)</sup> وفي عصور القرن الثالث الهجري كانت القلنسوة ، وتسمى أيضاً الدّتيّة في لغة المستهريين ، هي لباس القضاة الذي يلبسهم ، وكانت تلبس مع الطيلسان<sup>(٤)</sup>

ولما صُرف القاصي أحمد التوحى عن القضاء ، ثم أعيد إليه ، قال أحب أن أكون من الصرف والقدر فرحة ، ولا أزل من القلنسوة إلى الحرة<sup>(٥)</sup>

(١) de Sacy, Religion des Druses, CCCCXXVIII

(٢) الكندي ص ٣٧٨

(٣) نفس المصدر ص ٤٦٩ وكان محمد بن سير قاضي مرطه في عهد الخليفة الحاكم حسن الله به مطب اللبس ، وكان يجرّح إلى المسجد وبعد للحكم في إزار مودر وله مفرقه ، ( أبحار جموعه ص ١٢٧ ، البيان العرب في أبحار العرب لابن عذارى المراكسي ح ٢ ، ص ٨١ طبعه لندن )

(٤) الأعاني ح ١ ص ١٢٣ والإرشاد لسفوف ح ١ ص ٣٧٤ ، ح ٦ ص ٩ ، ورسائل الهداني ص ١٦٨ وملحق الكندي ص ٨٦

(٥) الإرشاد لسفوف ح ١ ص ٩٢

وقد شته أحد الكتاب رحلاً فقد الملاحه فقال مثل قاص بلاد دنيّة<sup>(١)</sup>

وكان سعداد في سنة ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م قاص يعرف بأحمد بن سيّار ، وكانت له هبة وحنة مهولة ولحية طويلة ، فقدم إليه امرأتان ادّعت إحداهما على الأخرى ، فقال لهنّ ما تقولين في دعواهما ؟ قالت أفرع ، أيّد الله القاصي قال ممّادا ، قالت « لحية طولها ذراع ، ووجهه طوله ذراع ، ودنيّة طولها ذراع ، فأحدثني هيتها » ، فوضع القاصي دنيّته ، وعطى نكته لحيته ، وقال قد نقصتك ذراعين ، أحييني عن دعوتها<sup>(٢)</sup>

وكان قصاة الفاطميين يحملون سيفاً<sup>(٣)</sup>

وكان موطعو ديوان قاصي القصاة سعداد في سنة ٣٣٦ هـ م

الكتاب ، وقد رُتّب له في كل شهر تلمائة درهم

الحاح ، وورقه مائة وخمسون درهما في الشهر

ومن يعرض الأحكام ، وراتبه في الشهر مائة درهم

وحارر ديوان الحكم ومن معه من الأعوان ، ولهم ستمائة درهم<sup>(٤)</sup>

ومند عهد الخليفة المصور طهر أكر ما يستلفت النظر في النظام القضائي ، وهو إيجاد جماعة من الشهود الدائمين أمام القاصي ، ويحضرنا السكدي ، وهو مؤرخ ثقة ، عن شاة الشهود ، فيقول كان القصاة إذا شهد عندهم أحدٌ ، وكان معروفاً بالسلامة ، قبله القاصي ، وإن كان غير معروف بها أوقف ، وإن كان الشاهد مجهولاً لا يُعرف سئل عنه حيراه ، فما ذكره به من حير أو شرّ عمل به ، حتى كان عوت بن سليمان في خلافة المصور ، فكان أول من سأل عن الشهود بمصر في السرّ ، وكان سبب ذلك كثرة شهادة الرور في

(١) كتاب الدنارات للشاسقي ص ١٨١

(٢) تاريخ الإسلام للدهلي في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ( JRAS, 1911 p 669, Note I ) ، ولاحظ أن قصاة مصر في الصف الأول من القرن الرابع كانوا يلبسون طيلساناً أرق ( كتاب الدنارات ص ١١٣١ ) ، وكذلك كان أحد القصاة سعداد حوالي عام ٤ هـ يلبس طيلساناً أرق ( الإرساد لناعوب ح ٥ ص ٢٦١ ) ، وكذلك كان العدول يلبسون فلاحس سوداء طويلة ، وسجر أحد شعراء القرن الرابع من الفلاحس ، وشبهه فلاحسوه القاصي بأنها عراب نوح بلا حاح ( انظر محاصر الأدياء ح ١ ص ١٢٩ )

(٣) ملحق السكدي ص ٥٨٩ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧

(٤) نفس المصدر ص ٥٧٤ ، والمسلم لاس الحوري ص ١٠ ب



ومن عوث ، وكان من عُدل عدده قبله ، ثم يعود الشاهد واحداً من الناس ، ولم يكن أحد يوسم بالشهادة ولا يشار إليه بها<sup>(١)</sup>

ثم إن القاصي الفصل من فصالة عين رحلا يسمى صاحب المسائل ليسأل عن الشهود ويتشهد عليهم ، وكان الفصل أول من استعمل هذا العامل ، فتحدث الناس أنه كان يرتشي من أقوام ليدكرهم بالعدالة<sup>(٢)</sup> ثم جاء القاصي العمري على قضاء مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ — ٨٠١ م فاتخذ الشهود « وجعل أسماءهم في كتاب ، وهو أول من فعل ذلك ، ودوّنهم وأسقط سائر الناس ، ثم فعلت القصة ذلك من بعده حتى اليوم »<sup>(٣)</sup>

وقد سحر الشعراء من هذا القاصي لأنه اتحد من أهل المدينة من موالى قريش والأبصار وغيرهم بحواً من مائة شاهد<sup>(٤)</sup> ، ثم أسقط جمعاً منهم ، وحطّ عليهم بحواً من ثلاثين رحلا ممن ألب عليه من الفرس<sup>(٥)</sup>

ومن الشهود نشأت بطانة القاصي ، وقد أمر القاصي لطبعة من عيسى الذي تولى القضاء بمصر عام ١٩٩ صاحب مسائله أن يحدّد السؤال عن الشهود والموسومين بالشهادة في كل ستة أشهر ، ليقف من حدثت له حرجة ، واتحد من بين الشهود قوماً جعلهم بطانته ، وكانوا بحواً من ثلاثين رحلا<sup>(٦)</sup>

وقد اهتم أحد القضاة ، وهو عيسى بن المكدر الذي تولى القضاء عام ٢١٢ هـ ، بأمر الشهود اهتماماً كبيراً ، فكان ينكر بالليل ، ويعطى رأسه ، ويمشي في السكك ليسأل عن الشهود<sup>(٧)</sup> ويحد في عهد بولاية القضاء في كتاب الحراج لقدامة بن جعفر أن التتت في شهادة الشهود ، والمبالغة في المسألة عنهم ، والعحص عن وحوه عدالتهم ، والبحث عن حالاتهم ، من أهم واجبات القاصي<sup>(٨)</sup>

وكان عصد الدولة لا يحمل للشعاعات طريقاً ، ويحكي أن مُقَدِّم جيشه شفع في بعض أساء

(١) الكندي ص ٣٦١ . (٢) نفس المصدر ص ٣٨٥

(٣) نفس المصدر ص ٣٩٤

(٤) الكندي ص ٣٩٥ — ٣٩٦ (٥) نفس المصدر ص ٢ ٤

(٦) نفس المصدر ص ٤٢٢ (٧) نفس المصدر ص ٤٣٢

(٨) مخطوط باريس رقم ٧ ٥٩ ص ١٢ ب

العدول ليتقدم إلى القاصي ليسمع تركيته ، ويُعَدِّله ، فقال عصد الدولة « ليس هذا من أشغالك ، إنما الذى يتعلّق بك الخطاب فى زيادة قائد ونقل مرتبة حدى وما يتعلّق بهم ، وأما الشهادة وقبولها ، فهو إلى القاصي وليس لنا ولا لك الكلام فيه »<sup>(١)</sup>

ويحكى أن الخليفة الحاكم حرى فى هذه المسألة ، مسألة العدول ، على ما عرف عنه من فعل الشيء ثم نقصه ، فى سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م سأله جماعة من المصريين أن يؤثّلهم للعدالة ، فأذن لهم فى ذلك ، وتشتت بهم غيرهم فى سؤاله ، حتى بلغ عدد العدول ألفاً ومائتين وبيّعا ، فأعلمه قاصي القضاة أن كثيراً منهم لا يستحقون العدالة ، ولا يؤتق بهم فى شهادة ، فأذن له ، على حسب عادته ، تصفحهم وإقرار من يرى إقراره منهم<sup>(٢)</sup>

ولما كان هؤلاء العدول يختارهم القاصي ويُعَدِّلهم نفسه ، فإنهم كانوا يُعرفون بعزله أو موته<sup>(٣)</sup>

وكان القاصي إسماعيل بن عبد الواحد ، قاصي مصر سنة ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م يلزم الشهود أن يركبوا معه<sup>(٤)</sup>

وحوالى ذلك الوقت كان الرسم أن يجلس مع القاصي عدد بطره فى القضاة أربعة شهود ، اثنان يجلسان عن يمينه واثنان عن يساره<sup>(٥)</sup>

وفى القرن الرابع الهجرى نجد الشهود قد أصبحوا نوعاً من العالى الثنتين ، بعد أن كانوا فى أول الأمر من حاشية القضاة الأسماء الذين يؤتق شهادتهم وهذا القرن أيضاً هو الذى أوجد هذا النظام الذى لا يزال باقياً إلى اليوم وأحلّه محل النظام الإسلامى القديم ، بل نجد أن القاصي التميمي فى القرن الثالث الهجرى بالصرة قد عين فى أثناء ولايته ستة وتلاتين ألف شاهد ، منهم عشرون ألفاً لم يشهدوا بعد تعيينهم ، فلم يحطوا شرف

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥

(٢) يحيى بن سعيد مخطوط مارس ص ١٢٤ — ب ، وملحق الكدى ص ٦١٢

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٢٨

(٤) ملحق الكدى ص ٥٤٥

(٥) المصدر ص ٥٥٢ ، ٥٦ ، ٥٦٩ ، ٥٩

مصرهم<sup>(١)</sup> وكان سعداد حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م نحو من ألف وثمائة شاهد .

وفى سنة ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م أكثر الشهود التردد على القاصى محمد بن موسى مصر ، فقال لهم مالكم معاش عدنا ، فلا يحىء أحد مسكم إلا لحاجة أو لشهادة<sup>(٢)</sup> فكان الشهود أرادوا أن يكونوا موطعين ، ولكن القاصى كان على الأى القديم فى أمر الشهود

وفى سنة ٣٨٢ هـ — ٩٩٢ م بلغ عدد الشهود سعداد ثلاثمائة وثلاثة ، ولكن هذا العدد كان يعتبر كثيراً<sup>(٣)</sup> ، وفى أواخر القرن الرابع أنقص قاصى القضاة بالقاهرة عدد الشهود<sup>(٤)</sup>

وقد أوصى الدمشقى التاجر الماهر أن يحتاط فى شهادة من يشهدون على العقود التى يريد إمضاها ، فيسأل عنهم إن لم يكن حبراً بهم ، حتى يعرف المسهورين بالأمانة والبراهة فى الدين واليسار فيأخذ شهاداتهم ، وذلك لأنه فى أكثر الأوقات يدخل فى الشهود من لا يستحق مرة العدالة لعناية به أو حياء بعض أقاربه ويلت مدة ، ثم ربما حدث أمر آخر فيُسقط الشاهد وتضيع قيمة الكتاب أو العقد الذى شهد عليه<sup>(٥)</sup>

(١) Amedroz, JRAS, 1910, S 779 ff ملا عن بشوار المحاصرة للسوحى بخطوط باريس  
اظر أيضاً رسائل الصائى ص ١٢٢ وسمى كبر الشهود مقدمهم ووجههم (كندى ص ٥٨٨ ، ٥٨٩)  
وقد سلك المسعودى (صروح ح ٨ ص ٣٧٨) ، وهو مصر عام ٣٣٣ هـ عن الشهود سعداد ، وقد سمي  
الشهود فى حراسان والمغرب فى النصف الثانى من القرن الرابع بالعدول (سنة الدهر ح ٣ ص ٢٣٣ ،  
ومسكوه فى مواضع كثيرة ، وفاموس دورى ، ومقدمه ابن خلدون رحمه دى سلان ص ٤٥٦) وقد نسب هذه  
النسبة عمرا كش إلى اليوم (اظر مجلة العالم الإسلامى Revue du monde musulman, XIII 517 ff)  
أما الشهود الذين لا همون بالسهادة وشرعون لها فسمون الموسومين بالعدالة (الكندى ص ٤٢٢  
ورسائل الصائى ص ١٢٢)

(٢) الكندى ص ٥٤٩ ، وأمدروز Amedroz, JRAS 1910, S 783 ملا عن رفع الإصر  
لاس حجر بخطوط باريس رقم ٢١٤٩ ص ١٢٨

(٣) المظم لاس الحورى ص ١٦٣ ، ١١٣٤ ، Amedroz, JRAS 1910 S 779 ff ملا عن  
رفع الإصر ، وعن تاريخ الدهى

(٤) رفع الإصر ، ص ١٢٨ ، الكندى ص ٥٩٦

(٥) الإشارة إلى محاسن الحارة لأن الفصل خمس بن على الدمشقى ص ٣٥ -- ٣٦ من طبعه



وكان يسوب عن القاضي شاهد في كل محكمة من المحاكم الخمس الصغرى ليحكم فيها باعتباره قاصياً مستقلاً يحكم في القضايا الصغيرة<sup>(١)</sup>

وكان الشهود في عصر لين Lane يجلسون في دهليز المحكمة الكبرى، ويقدم الشاكي قصيته لمن يجده غير مشغول مهم، فيقيدها هدا، ويأخذ عن تقييدها قرشاً أو أكثر، فإن كانت القضية صغيرة، ورضى المدعى عليه بحكم الشاهد حكم هدا فيها، وإلا أدخل الخصمين إلى القاضي

وقد أوصى الخليفة الطائع في عهده لقاضي القضاة<sup>(٢)</sup> أنى محمد بن معروف، وهو العهد الذى كتبه الصابى في سنة ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م، وصية متكررة بالإكثار من تلاوة القرآن وأن يتحده إماماً يهتدى بآياته، وبالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وبالحلوس للخصوم وفتح ناه لهم على العموم، وأن يوارى بين الفريقين المتحاكين إليه، ولا يحاى ملئياً على دنى وأمره بالقصد في مشيته، وبالعص من صوته، وحذف الفصول من لفظه، وأن يحفف من حركاته ولفظاته، ويتوقر من سائر حساباته وحجته، وأن يستصحب كاتبا ذرباً بالمحاصر والسجلات، ماهراً في القضايا والحكومة غير مقصر عن القضاة المستورين والشهود المقبولين في طهارة ديله وبقاء حيبه، وحاحماً سديداً رشيداً لا يسف إلى دنيئة، ولا يقل رشوة، ولا يلتبس حُعلاً، وحلفاء يرد إليهم ما بعد من العمل عن مقره، وأعمره أن يتولى النظر فيه نفسه، ويحمل لكل من هذه الطوائف رزقاً يكفه ويكفيه، وأن يبحث عن أديان الشهود ويفحص عن أماناتهم، وأمره أن يصط ما يجرى في عمله من

(١) حطط المقررى ح ١ ص ٣٣٣ (٤)

(٢) قال إن أول من لف بهذا اللقب هو أبو يوسف قاضى الرسد الذى كان يرسح القضاة للعين بالبلاد (حطط المقررى ح ٢ ص ٣٣٣) ، وكان يحيى بن أكرم قاضى المأمون عن القضاة الذين يراد توليتهم (طيفور في كتاب تعداد ص ٢٥٨) ، فكان سألهم في مسائل مشككة من الشريعة ، وكان مما أمحن به رجلاً أنه سأل ما قول في رجلين روح كل واحد منهما للآخر أمه ، فولد لكل واحد من امرأته ولد ، ما فرانة ما من الولدين ، فلم يعرفها ، فقال له يحيى كل واحد من الولدين عم الآخر لأنه (عون الأحبار طبعه بروكلمان ص ٨٦) ، وكان عن قاص من كل مذهب من المذاهب الأربعة وذلك بعد عصر الحروب الصليبية — انظر كتاب رتبة كسب الممالك للطاهرى طعة Ravaisse ص ٩٢ وفي سنة ٦٦٤ هـ ضم الملك الطاهر بيرس القضاة الثلاثة إلى الشافعية ، بعد أن كان القضاء للشافعية مصرأ وشاما (طبقات السكى ح ٢ ص ١٧٤)

الوقوف الثابتة في ديوان حكمه ، ويحتاط على أموال الأيتام ويسببها إلى أعمت وأوثق القوام ، وأمره إن ورد عليه أمر يُعنيه الفصل فيه أن يردّه إلى كتاب الله ، فإن وجد فيه الحكم وإلا ففي السنة ، فإن أدركه وإلا استعتى دوى الفقه والعلم وأهل الدراية ، وأمره ألا ينقص حكماً حكم به من كان قبله إلا إذا كان خارجاً عن الإجماع وأنكره جميع العلماء ، عند ذلك ينقصه نقصاً يشيع ويديع<sup>(١)</sup> وهذا الإجماع الذي يعتقد من جماعة العلماء الذين لا يخصصون لسلطة أخرى هو المحكمة الإسلامية العليا ، وهؤلاء العلماء الذين يدون رأيهم في ميدان الأحكام القضائية الهامة هم المطهر الذي أثبتت فيه الديمقراطية الإسلامية وجودها ، لأن الحكم الأعلى هنا يصدر عن جماعة المسلمين

وكان في الحياة الديوانية رعة قوية إلى جعل المناصب وراثية من الأب إلى الابن ، وأظهر ما كان ذلك في مناصب القضاء في القرنين الثالث والرابع تقلد قضاء القضاة من أسرة واحدة هي أسرة أبي الشوارب ثمانية رجال سعداد ، هذا عدا ستة عشر قاصياً آخرين من هذه الأسرة<sup>(٢)</sup> وظل سواهم ردة مسد حوالى عام ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م يتقلدون قضاء القضاة مارس أحيالا كثيرة ، كما ظلوا قروناً كثيرة مسد ٤٠٠ هـ قضاة في عربة<sup>(٣)</sup> وكذلك توارث آل العمان قضاء القضاة ثمانية سدة في عهد الفاطميين بمصر<sup>(٤)</sup>

وقد رادت شوكة هذه الأسر التي توارثت القضاء ريادة هائلة ، وذلك لأن نظام الاستحلاف في المناصب ظهر في القضاء ، كما كان في مناصب الولاية وحكم الأقاليم ومحد في صور المحاطات التي ترجع إلى أوائل القرن الرابع الهجري أنه كان بمصر قاضي واحد ، وأن

(١) رسائل الصافي ص ١١٥ وما بعدها ، وفي أوائل القرن الرابع الهجري حكم القاضي مسيح رواج بكر كره روحها ، لأن أنها لم تكن قد أسأدها عند العقد ، فأراد الروح جمع كله المصنف على صحة الكاح ، وأحد خطوطهم صحة العقد ، وحشى القاضي من اجتماع كله المصنف على فساد حكمه ، فأشار عليه صديق له أن سجل حكمه بمسح الكاح وشهد بذلك فأفسد على الروح وعلى المصنف تدميرهم ( ملحق الكندي ص ٥٦٦ )

(٢) انظر ما حكاه Amedroz, 1910, S 780 ملاحظ عن مذكرات ابن حمدون ، مخطوط لندن ، وانظر أيضاً المسظم لابن الجوزي ص ١٧٤ ب

(٣) ابن اللحي JRAS, 1912, S 14 f

(٤) Gottheil, a distinguished family of fatimide Cadis in the tenth century, (٤)

JAOS, 1906 S 217 ff,

فارس والأهوار كانا يُجمعان لقاص واحد<sup>(١)</sup> وكان القاصى عبد الجبار قاصى قصاة بنى نويه يجمع بين قصاء الرىّ وهمدان والحنال<sup>(٢)</sup> وكان قاصى مكة فى سنة ٣٣٦ هـ — ٩٤٧ م له قصاء مصر وغيرها<sup>(٣)</sup> وفى عهد الفاطميين كان ربما جمع قصاء الديار المصرية وأحمد الشام وبلاد المغرب لقاص واحد<sup>(٤)</sup> ومحمد فى العهد الذى كتب لقاصى القصاة محمد بن صالح الهاشمى سنة ٣٦٣ هـ — ٩٧٤ م ما يجعله قاصياً على المملكة الإسلامية كلها تقريباً من البلاد الواقعة غرب حنال فارس إلى مصر ، وكان تحتها حكام فى البلاد عهداً إليه فى تصفح أحوالهم واستشراف ما يجرى من الأحكام فى سائر النواحي<sup>(٥)</sup>

وكان هناك إلى جانب القصاص النطرى فى المطالم ، وكان الناطر فى المطالم يطر فى كل « حكم يعحر عنه القاصى ، فيطر فيه من هو أقوى منه يداً<sup>(٦)</sup> » وكان القصاص والنطرى فى المطالم يقومان حسناً لحب فى جميع البلاد الإسلامية<sup>(٧)</sup> ولكن احصاى كل من هذين القصاصين لم يُحدّد تحديداً دقيقاً ، وكانت المسألة الهامة دائماً هى هذه أيهما أقوى سلطان الإسلام الذى يمثله القاصى أم السلطة الديوية ؟ وكانت الأمور المتعلقة بالحدود تُقدم إلى صاحب المطالم<sup>(٨)</sup> وكان القاصى أحياناً يطر فى المطالم ، وكان قاصى القصاة سوع حاص يطر فى المطالم بدار السلطان<sup>(٩)</sup> وكان الورى هو الذى يعين أصحاب المطالم فى البلاد<sup>(١٠)</sup>

(١) كتاب الورى ص ١٥٧ (٢) الإرشاد ح ٢ ص ٣١٤

(٣) مروح الذهب للمسعودى ح ٩ ص ٧٧

(٤) صبح الأعشى ح ٣ ص ٤٨٦ من طعة دار الكتب المصرية

(٥) المسطم ص ١٥ ب

(٦) الحطط للمعبرى ح ٢ ص ٧ ، وإلى لأسمع فى هذا المقام مع الشكر منجند امدرور, Amedroz,

JRAS, 1911, S, 635 ff

(٧) فيما يتعلق بالركسان اطر Schwarz, Turekstan, 210 أما فى مصر فى عهد محمد على فاطر

Snoeck Hurgronje, Lane, Manners and Customs فى أول الفصل التاسع وفيما يتعلق بمكة اطر

Mekka, 1, 182

(٨) Amedroz, JRAS, 1911 S 664

(٩) كان نطرى فى المطالم عصر قاصى الأحشد الذى ولى القصاص سنة ٣٢٤ هـ — ٩٣٦ م ، اطر

طقات السكى ح ٢ ص ١١٣ — ١١٤ وفى سنة ٣٣١ هـ أفرد للنطرى فى المطالم قاص مستقل ( السكى

ص ٥٧٢ ) وفيما يتعلق بعدد فى سنة ٣٩٤ هـ — ٤ ١ م اطر المسطم ص ١٤٩ ب وفى

الأهوار بلاد القاصى ال وحى عام ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م القصاص والمطالم (الإرساد لافوت ح ٥ ص ٣٣٢)

وعندما لا نطر القاصى فى المطالم كانت ترسل إليه قصص المظالم بعد التوقيع فيها ( اطر كتاب الورى

ص ١٥١ ) (١) عرب ص ٥ ، والإرساد لافوت ح ٥ ص ٣٣٢



وقد حاول رجال الشرع مرتين في القرن الرابع الهجري أن يشرفوا على أعمال الشرطة؛  
ففي سنة ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م أمر الخليفة المقتدر بمنّا الطولوني صاحب الشرطة سعداد بأن  
يُجْلِس في كل ربع من الأرباع فقيهاً يسمع من الناس طلاعاتهم ، ويعتق في مسائلهم حتى  
لا يجرى على أحد ظلم<sup>(١)</sup> ، وكان هؤلاء الفقهاء بمثابة أصحاب شرطة من الفقهاء يشرفون  
على أعمال أصحاب الشرطة لتكون مطابقة لفتواهم ، ويقول ركن الدين بيدر المصوري  
الدوادار المتوفى عام ٧٢٥ هـ بعد ذكر هذا النظام « فصنعت هيئة السلطة بذلك ، وطمع  
اللصوص والعتارون ، وكثرت الفتن ، وكُتبت دور التحار ، وأحدث ثياب الناس في الطرق  
المقطعة<sup>(٢)</sup> »

وكذلك نصّب الخليفة الحاكم بمصر في الشرطة وفي كل بلد شاهدين من العدول ،  
وأمر ألا يُقام على دى حرية أو مرتكب جريمة حدّاً إلا بعد أن يصح عند دينك الشاهدين  
أنه مستوح لذلك<sup>(٣)</sup> ولكن هاتين المحاولتين لم يكن لهما تأثير ؛ بل نجد الآية قد  
انعكست ، فكانت ترفع الطلّامات من حكم القضاة إلى أصحاب المطالم ، ولا سيما إلى الوزير  
الذى يحلس للمطالم ، وهذا يحالف النظرية الفقهية وقد جاء وصف الجمهور المستصرحين إلى  
الوزير الذى كان يقعد للمطالم بأنهم كانوا « قوماً كثيرين قد قصدوا من نواح بعيدة وأقطار  
شاسعة مُستصرحين متطلّمين ، فهذا من أمير وهذا من عامل ، وهذا من قاص وهذا من  
متعرّ<sup>(٤)</sup> »

وقد حدث حوالى سنة ٤٣٠ هـ — ١٠٣٩ م أن مات رجل بمصر وترك مالا خريلا ،  
ولم يخلف سوى بنت واحدة ، فورت جميع المال ، وتناول الناس تروّحها لكثرة مالها ، ومن  
حملتهم القاصى عند الحاكم بن سعيد الفارقي ، فامتعت عليه ، فحق عليها ، وأقام أربعة شهود  
بأنها سفية ، وأحد مالها ، فهرت إلى الوزير ، وعرفته بما فعله القاصى ، فعمل محصراً  
رقتدها وأشهد عليه ، وأمر بإحصار القاصى ، فأحصر منها ، وأخذ المال منه ، وأبى ولده  
عنه في الأحكام ، ولم داره فلم يجرح منها ، ثم قص الوزير على الشهود الذين شهدوا

(١) عرب من ٧١

(٢) رتبة المسكرة في تاريخ المهجرة مخطوط مارس رقم ٥٧٢ ص ١٨٦

(٣) محي بن سعد من ١٢٣ (٤) كتاب الوزراء ص ١٢

سفيها ، فأودعهم السجن ، وحلج على من شهد لها بالرشد<sup>(١)</sup>  
وقد داوم أحمد بن طولون صاحب مصر المطر في المظالم بكل عناية ، « حتى استعفى  
الناس عن القاصي » ، وحتى كان القاصي رثما نكس في محله ، ثم انصرف إلى مدرله ولم يتقدم  
إليه أحد ولم يكن في مصر قاصي في ذلك العهد مع سبين ، فكان كل شيء يرد إلى  
الناظر في المظالم<sup>(٢)</sup>

وكذلك كان كاهن الأحمدي الأسود يجلس للمظالم حتى « كان القاصي كالمحجور  
عليه لكثرة حله من كاهن للمظالم<sup>(٣)</sup> »

وفي سنة ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م وقع راع بين صاحب الشرطة وبين القاصي ، وذلك أن  
صاحب الشرطة حكم في شيء ليس من اختصاصه ، فأكر القاصي حكمه ، واعتصم فيه ، فوقع  
الوزير بأنه ليس لأحد الفريقين أن يعترض على الآخر فيما حكم به<sup>(٤)</sup>

وفي حوالي سنة ٤٠٠ هـ مع القاصي أصحاب الشرطة من التكلم في الأحكام الشرعية ،  
ثم أنهى الخليفة الرابع بأن أضاف للقاصي المطر في المظالم<sup>(٥)</sup>

وكانت الطلقات تقدم مكتوبة<sup>(٦)</sup> ، وكان يحدث أحيانا حوالي عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م  
أن ترمى الرقعة في ورق المظالم أمام القاصي في المجلس<sup>(٧)</sup>

وكانت الأحكام تصدر مكتوبة ، وقد حرت بعض هذه التوقيعات بحري المصوص  
الأدبية المشهورة التي تؤثر لحسها ، وهي شبيهة بمحاشي فريدريك الأكبر التي كان يكتبها  
على هامش ما يرفع إليه<sup>(٨)</sup>

(١) Amedroz, JRAS, 1910, S 793 ، فلا عن رفع الإصر مخطوط باريس رقم ٢١٤٩ ص ٦٠

— ب ، اطر أيضا JRAS, 1911, S 663 ، وملحق الكندي ص ٤٩٨ — ٤٩٩ ، ص ٦١٣

(٢) ملحق الكندي ص ١٢٠ (٣) نفس المصدر ص ٥٨٣ ، ٥٨٤

(٤) نفس المصدر ص ٩١ (٥) نفس المصدر ص ٤٦

(٦) كتاب الورداء ص ٥٢٠ ١٧٠ وكان على صاحب ديوان المظالم أن يعيد جميع القصص حامعا

مبعرص على الخليفة في كل أسبوع ( اطر كتاب الخراج لعدامه مخطوط باريس ٧٩٠ ص ٢٣ ب )

(٧) كتاب الورداء ص ٥٢ ، وملحق الكندي ص ٤١٠

(٨) ومن هذه التوقيعات توقيع طاهر الي ذكرها طهور في كتاب عداد ص ٥ ب وتوقيعات

المأمون عند السبي في المحاسن والساوي ص ٣٤٠ وما بعدها ، وتوقيعات صاحب ن عداد عند الثعالي

في خاص الخاص طبعة القاهرة ٩٩٠ ص ٧٣

وكان يخصص في دار الخلافة يوم في الأسبوع لسماع المظالم ، وكذلك كان الحال من قبل في العصر النوري ، في سنة ٤٩٦ م كان حاكم الرضا يحلّس كل يوم جمعة في الكيسة للقضاء<sup>(١)</sup>

وفي عصر الخليفة الأمان مثلاً حصّص يوم الأحد للطر في المظالم<sup>(٢)</sup>  
وكان أحمد بن طولون بمصر يحلّس لذلك يومين في الأسبوع<sup>(٣)</sup>  
وكان الأحشيد يحلّس للمظالم نفسه كل يوم أربعاء<sup>(٤)</sup> ، وبعده كان كافور يحلّس كل سنت ، ويحصر عنده الوزير وسائر الفقهاء والقضاة والشهود ووجوه البلد<sup>(٥)</sup>

وأول من حلّس من الخلفاء المهدي وآخرهم المهدي (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ = ٨٦٨ — ٨٦٩ م)<sup>(٦)</sup> وكان المهدي يحلّس للمظالم ويظهر فيما يرفعه إليه العام والخاص ، وقد بنى قبة لها أربعة أبواب كان يحلّس فيها وسمّاها قبة المظالم ، وكان يقفها ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وكان يحصر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيحطب الناس ويؤمّ بهم<sup>(٧)</sup> وكان إذا حلّس للمظالم أمر بأن توضع كوابين الفحم في الأروقة والمارل عند تحرك الرد ، فإذا حلّس المتظلم « أمر بأن يذقاً ويحلّس ليسكن ويثوب إلى عقله ، ويتذكر حخته ، ثم يُدبّيه ، ويسمع منه ، ويقول متى يلحق المتظلم بحخته إذا لم يُفعل به هذا ، وقد تداخلته رهبة الخلافة وألم الرد ؟ »<sup>(٨)</sup>

وكان مما وعد به الخليفة القاهرة ، وهو يطلب الخلافة ، أن يقعد للطر في المظالم نفسه<sup>(٩)</sup>

وفي عهد الخليفة المعتصم قام مقام الخليفة في الطر في مظالم العامة الوزير عبيد الله ابن

(١) Josua Stylites, S 29

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٣ طبعه إيجر (Enger)

(٣) الخطط للمقري ح ٢ ص ٧ (٤) المغرب لابن سعد ص ٣٩

(٥) ملحق الكندي ص ٥٧٧ ، والمقري ح ٢ ص ٧

(٦) المقري نفس النص نقله عن الماوردي ، ويدكرها أن الأحشيد وأنه كانا يحلّسان للمظالم يوم السبت ، واللمحة التاريخية التي ذكرها المقري مأخوذة من الأحكام السلطانية ص ١٢٨ والصفحات التالية

(٧) مروح الذهب للمسعودي ح ٨ ص ٢

(٨) المحاسن والمساوي للسهي ٥٧٧ — ٥٧٨

(٩) Amedroz, JRAS, 1911, s 657 ، وابن الأثير ح ٨ ص ١٩٣



سليمان ، وباب عنه القائد بدر في الطر في مظالم الخاصة ، وكان يوم المظالم يوم الجمعة<sup>(١)</sup> ولكنا محمد الورير في أوائل القرن الرابع يجلس للمظالم يوم الثلاثاء ، وكان أكثر الكتاب يحصر مجلسه<sup>(٢)</sup>

وفي سنة ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م جلست للمظالم قهرمانة لأم المقتدر تسمى ثمل<sup>(٣)</sup> ولما كان الطر في المظالم غير مقيّد بتدقيقات الفقهاء ، فقد كان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضي وقد بين الماوردي مما له من قدرة على الإحصاء وبيان الفروق أن الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاة من عشرة أوجه أهمها أن لناظر المظالم من فصل الهيئة وقوة اليد ما ليس للقضاة فكف الخصوم عن التحايد ومع الطلّة من التعال والتحاب ، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الأمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من المظلم ، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعصوا إلى وساطة الأسماء ، ليفصلوا التمارع بينهم صلحاً عن تراص ، وليس للقاضي ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد ، وأنه يحور له إحلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عددهم ليرول عنه الشك ، وأنه يحور له أن يتدى باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم ، وعادة القضاة تكليف المدعي إحصار بينة ، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله<sup>(٤)</sup> ولكن هذا كله لا يعدو الكلام الطري ، وكان يعمل في كل بلد بحسب قانونها وعاداتها وكانت الوسائل القديمة التي أنشئت لتحريّة قيمتها كالصرب مثلاً منتشرة ، وإن كانت محرّمة على القاضي<sup>(٥)</sup>

(١) كتاب الورراء ص ٢٢ (٢) نفس المصدر ص ٦٦ (٣) عرب ص ٧١ ، وأبو المحاسن طبعه لدين ح ٢ ص ٣ ٢ ، وقد احلف في المرأة هل نقصى ؟ فقال أبو حنيفة يحور أن نقصى فيما نصح فيه شهادتها ، وأعلب العلماء على أنها لا تقصى ، وشد الطري المتوفى عام ٣١ هـ خور قضاها في جميع الأحكام ( الماوردي ص ١٧ — ١٨ ) ، ثم استرط فيما بعد في القاضي أن يكون دكراً ، أما في الطر في المظالم فلم يشترط ذلك (٤) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤١ — ١٤٢ (٥) اطر الفصل الخاص بالأحلاق والعادات ( الفصل العشرون )

## الفصل السادس عشر

### علم اللغة

فتح القرن الرابع الهجرى فتحا حديداً فى كل من الناحيتين الرئيسيتين لعلوم اللغة العربية ، وهما النحو ، وعمل المعاجم . وقد تخلص علم اللغة ، كما تخلص علم الكلام من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية ، ويصف السيوطى طريقة علماء اللغة المتقدمين فى تعليمهم فيقول « وطائفة الحفاظ فى اللغة أربعة ، أحدها — وهى العليا — الإملاء ، كما أن الحفاظ من أهل الحديث أعظم وطائفتهم الإملاء وطريقتهم فى الإملاء كطريقة المحدثين سواء يكتب المستمل أول القائمة مجلساً أملاه شيخاً فلا يجمع كذا فى يوم كذا ، ويدكر التاريخ ، ثم يورد المملئ بإساده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه عربيتٌ يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسايدته ومن الفوائد اللغوية بإساده وغير إساده ما يختاره ، وقد كان هذا فى الصدر الأول فاشياً كثيراً ، ثم مات الحفاظ ، وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد واستمر إملاء الحديث وآخر من علمته أُملى على طريقة اللعويين أبو القاسم الرحاحى ، له أمال كثيرة فى مجلد صحم ، وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، ولم أقف على أمال لأحد بعده <sup>(١)</sup> »

كان هؤلاء العلماء المتقدمون يصنعون معارفهم بعضها إلى جانب بعض ، ممكنة لارباط بينها ، وكان اهتمامهم ينصب على الحريثات على حادثة واحدة ، أو صورة من صور التعبير واحدة ، أو كلمة واحدة ، أو جملة واحدة ، كما نجد ذلك فى كتب المترد ( المتوفى عام ٢٨٥ هـ — ٨٩٨ م ) ، بل فى كتب القالى ( المتوفى سنة ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م ) وهى كتب مؤلفة من علوم اللغة ومن القصص والتاريخ ، وكان أبو عمر محمد بن عبد الواحد اللعوى المعروف بعلام ثعلب ( توفى سنة ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م ) يجعل كلامه بحسب أسئلة الحاضرين فمثلاً كان يسأله بعضهم أيها الشيخ ما القسرة عند العرب <sup>(٢)</sup> ؟

(١) المرهبر للسيوطى ج ٢ ص ١٩٩ من طبعة القاهرة سنة ١٣٣٥ هـ

(٢) المسظم ص ١٨٥ ، وليس فى النص ما يدل على أن هذه كانت طريقتهم ( المترجم )

أما أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري فقد شعروا بالحاجة إلى منهج يسرون عليه ، وإلى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة وقد كان لمعرفة العرب معلوم اليونان اللسانية أثر كبير في ذلك وكان البحث يدور في مجلس عصد الدولة (المتوفى عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م) حول الفرق بين السحو العربي والسحو اليوناني ، وأصل استساظهما ، وقد مير أبو سليمان السحستاني الرعة الجديدة في السحو بأن قال نحو العرب فطرة ، ونحونا فطمة<sup>(١)</sup> « وإذا وحدنا ابن فارس (المتوفى عام ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م) يؤلف لأول مرة « مقدمة في السحو » فيسعى ألا يرى في هذا سوى وليد للمقدمات (إيساعوحي) التي كتبها علماء اللغة اليونان

وأكثر ما تم على أيدي علماء اللغة هو تحديد معاني الكلمات وعمل المعاجم ، ومحدما حدا واحداً يفصل بين عهدين وطريقتين ، وكان حمزه الأصفهاني (المتوفى بين ٣٥٠ ، ٣٦٠ هـ = ٩٦١ ، ٩٧٠ م) حائمة اللعويين القدماء الذين كانت كتبهم لا تشتمل إلا على عبارات للخطاء والبلعاء والذين ألفوا كتباً من المترادف وأخرى يستعين بها الخطباء في الخطابة ، في كتاب المواربة متلاد كرأر بعانة كلمة في معنى « الشقي » ، وكذلك جمع في كتاب الأمثال أكثر ما يعرض في لغة الخطباء من عبارات المفاصلة من نحو أبيض من الثلج وأحشع من الفيل ، وقد كان تحفه وإفياً ، بحيث لم يصف علماء القرون التالية شيئاً إليها ، وكان سلفه قد جمع من هذه العبارات ثلثمائة وتسعين جمع هو ألعاً وثمانمائة ، ولم يفعل الميداني (المتوفى عام ٥١٨ هـ — ١١٢٤ م) أكثر من نقل ما كتبه حمزة ، واستطاع أن يريد على كل فصل مثلاً واحداً أو مثليين أو أربعة على الأكثر وكذلك أحد الميداني كل الشروح عن سلفه<sup>(٢)</sup> وفيما يتعاق بالأمثال الخالصة محد أن أكثر كتاب هو الذي ألعه في القرن الرابع الحسن العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م

على أن المدرسة الجديدة أظهرت عد حيل ما كانت تُعى به ، ويتحلى ذلك في كتاب الصحاح للحوهري المتوفى عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠١ م وتدل كل مقارنة لهذا المعجم بالمعجم الكبير الذي ألعه ابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م على مقدار التقدم في المنهج وفي الوصوح

(١) إبحار العلماء بأبحار الحكماء للعطفي ص ٢٨٣ من الطبعة الأورمه .

(٢) Mittwoch, MSOS, 1910, S 148 f (٤)



ويقول ابن فارس المتوفى عام ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م في مقدمة معجمه المسمى بالتحصيل :  
« والمقصود من كتابنا هذا من أوله إلى آخره التقريب والإبانة عما اختلف من حروف العربية  
فكان كلاماً<sup>(١)</sup> » ، وكان شأن الجوهري عالياً حتى إن الكتب الكثيرة ألفت في الطعن  
فيه والدفاع عنه<sup>(٢)</sup> ، بل نجد السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ — ١٥٠٥ م قد أضاف نمكة في  
الدفاع عن الجوهري كتاب « اللمع الجوهري » ، في رد حياط الجوهري » ، وكتاب الكرم  
على عبد الله وكان السيوطي قاسياً سوع حاص على الجوهري معاصره المتوفى عام ٨٨٩ هـ  
— ١٤٨٤ م ، فقد أحشى في الكلام عليه وأتى فيه من الإرداء وإساءة الأدب ما يستحق  
التعريض عليه<sup>(٣)</sup>

وكل المعاجم التي عملت بعد الجوهري هي أشبه بتوسيع وشرح لقاموسه ، وهذا نجد  
أيضاً — أعنى في علم اللغة — نهاية عهد قديم وبداية عهد جديد بقي أثره قروناً متطاولة  
وكذلك ظهرت في القرن الرابع دراسة حذية للاشتقاق اللغوي ، وقيت عصراً طويلاً ،  
وكان أستاذ هذه الدراسة ابن حنّى الموصلي ( المتوفى عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م ) وكانت  
أمه حارية رومية ، وهو الذي ينسب إليه ابتداء بحث جديد في علم اللغة ، وهو المسمى  
بالاشتقاق الأكر<sup>(٤)</sup> ، وهو البحث الذي لا يزال يؤثر ثمره إلى اليوم ، والذي يختص بمادة  
الكلمة دون هيئتها ، ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا  
ويقيت لغة التحاطب الدارحة إلى جانب لغة الكتابة ، وكان الفرق بينهما كبيراً ،  
حتى نجد المؤرخين يدكرون مع العجب أن يكون في بغداد في القرن الثالث الهجري من  
يستطيع الكلام الصحيح من غير تكلف للإعراب ، بل كأن ذلك له كالطبع<sup>(٥)</sup>  
وكان ما ظهر في الأدب من عناية بالعامّة وبحياتهم مما جعل علماء اللغة يهتمون بدراسة

(١) Goldziher, Beitr. Zur Gesch. d. Sprachgelehrsamkeit bei den Arabern, SWA phil. hist. Kl. 37, S. 518

(٢) Goldziher, SWA, 72, S. 587 Zur Gauhari Literatur

(٣) طبقات المفسرين للسيوطي ص ٢٤ — ٢٥ من إصابات الناصر الأوروبي

(٤) Goldziher, SWA, 67, S. 250 معاً عن المرمر للسيوطي (ح ١ ص ١٦٤) وأطرح ١

ص ١ من طبعه مصر سنة ١٣٢٥ هـ وفي الكتاب الثاني ( الفصل الثلاثين ) من كتاب الخصائص  
تناول ابن حنّى الكلام في الاشتقاق الأكر ( اطرح O. Rescher, Studien über Ibn Ginnī, ZA, 1909, S. 20

(٥) مروج الذهب ج ٨ ص ١٣١

لغة العامة ، وما يعرض فيها من خطأ ، فآلف أبو بكر محمد بن الحسن الريدى الأندلسى المتوفى  
عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م كتاباً فى لحن العامة ، ثم آلف ابن حالويه ( المتوفى عام ٣٧٠ هـ  
— ٩٨٠ م ) بحلب كتاب « ليس فى كلام العرب »<sup>(١)</sup> أما ما ترك لعلماء اللغة  
وخصوصاً للحريرى فهو موضوع لبحث حديد

---

(١) لغة الملمس فى تاريخ رجال الأندلس لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الصي ، طبعة محريط

## الفصل السابع عشر

### الأدب

إن احتلاط دم الأمة العربية وبصوب قوة الطبقة العليا فيها ، التي كانت بيدها القيادة ، و مرور الشعوب الشرقية القديمة التي كانت تتألف من أحاسن محتلطة ، كل هذه تتحلى أوضح ماتكون في الأدب فمد حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨٠٠ م بدأ الأدب يتحرك بحركات جديدة ، وأصحت القصيدة التي حرت عادة شعراء العرب القدماء أن يسيروا عليها في التعنى مسمى ما في حياة البداوة من مشاعر شيئا طويلا على الحيل الحديد ، وبدت مسرفة في تصوير الشعور ، وأحدث تفقد ما كانت تتمتع به من تفرّد بالسيادة وعمل أهل المدن ، بعد أن صاروا هم الطبقة المتارة ، على تأخير القصائد وما كانت تقتضيه من مادة شعر البطولة وكذلك على تأخير اللغة القوية البارة التي تفيض بالحياة والبطولة إلى الحُلّ الثاني شيئا فشيئا ، وأحدث الأساليب الدوية الحشة تفسح المجال للعبارات اللينة ، ومال الناس إلى الأوران القصيرة ميلا سدهش له

وأصبح ميل الشعراء إلى أن يعيشوا في العوس ما يرفعها إلى آفاق الحياة القوية أقل من ميلهم إلى أحد ألباب الناس مادة جديدة للأدب ، وتمعن دقيقة وعبارات وأحياء حيلة وتيقظ في الناس ميلٌ إلى الطرائف المستحدثة — وهو أخطر شيء على شعر البطولة لجميع أنواعه — وعاد الأدب مرة أخرى إلى كشف ما يحيط بالإسان في حاصره ، وأصبح يلد له البحث فيما حوله من حياة متشعبة الواحي ، وإن لم تكن حياة بطولة وروح سامية وبدأ العامة — وخصوصاً عامة المدن غير المتعلمين — يدخلون في الأدب العربي ، وهم لم يقتصروا على تعلم القصائد والحكم عليها سطرهم الخاص وعلى التعنى بها على أورايم الشعبية ، بل إن الكلام المرسل أيضاً أصبح عديم يستعمل في التعبير عن كل ما حدث في الحياة من نواح متنوعة وهكذا نشأ الثر في الأدب ، بعد أن كان حتى ذلك الحين مقصوراً على العلماء وأهل الدين



أو على الأكثر على كتب شعبية قليلة نقلت عن الفارسية ويحكى عن قوم حوالى عام ٢٥٠ هـ — ٨٦٤ م أنهم فصلوا الكلام المشور على المخطوم<sup>(١)</sup>

## ١ — النثر

كان التقدير والإحلال للكلام المشور ، إلى جانب تقدير الشعر ، ذلك التقدير الذى هو مبدأ كل نثر جيد ، أكر فضيلة للعرب القدماء ، وهم قد فاقوا فى ذلك جميع الشعوب ، فكان فى كل قبيلة حطباء إلى جانب الشعراء يساويهم فى المكاة ، وكانت ملكة الخطابة تعتبر أشبه بملكة حارقة ، حتى نشأ الاعتقاد فى بعض القبائل أنه لا يشأ فيها حطيب قط إلا مات من قبله<sup>(٢)</sup>

وكانت ملكة الخطابة تعتبر شيئاً آخر مخالفاً للملكة الشعرية إلى درجة أن المؤرخين يدكرون بالإعجاب من يكون إلى جانب الإحسان فى الشعر مجيداً فى الرسائل والخطب<sup>(٣)</sup> وقد بلغ من شدة تقدير الناس للفظ الحسن أنه أصاب أهل مكة سنة ٢٠٨ هـ — ٨٢٣ م سبيل مات بسببه خلق كثير ، فكتب والى المدينة إلى الخليفة للأموون طالماً عطفه ومعوته لمن حرف السيل أموالهم وهدم بيابهم ، فأبعد إلى أهل مكة أموالاً كثيرة ، وكتب مع ذلك كتاباً حسن العبارة ، فكان كتابه « أسر إلى أهل مكة من الأموال التى أهدا إليهم<sup>(٤)</sup> »

وأول صورة تحلى فيها اهتمام الأدباء بما يحيط بهم إقبالهم على دراسة أخلاق العامة ، فمثلاً حوالى ذلك الوقت ألف أبو عقاب الكاتب كتاباً فى أخلاق العوام ، وصف فيه أخلاقهم وشيمهم ومحاطبهم وسماء الملهى<sup>(٥)</sup> ، وكذلك ألف القاصى محمد بن اسحاق الصيرى ، قاصى صير ، المتوفى عام ٢٧٥ هـ — ٨٨٨ م ، كتاب مساوى العوام وأحبار السقاة والأعنام<sup>(٦)</sup>

(١) مروح الذهب للمسعودى ج ٧ ص ٣٤٧ — ٣٤٨

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ١٧٣

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٥ ، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، طعة بروكلمان ص ٤٩ هـ

(٤) كتاب المحاسن والمساوى للبيهى ص ٤٧٥ — ٤٧٦

(٥) مروح الذهب ج ٥ ص ٨٨

(٦) الإرشاد لباقوت ج ٦ ص ١ — ٤٠٣

وكذلك كان وصف حياة المدن من الموصوعات التي أحب الحاحط معالجتها<sup>(١)</sup> وهذا الأديب المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م والذي يُحكى الكثير من الحكايات الطريفة عن دمامة حلقتة — كانت عيابه حاحطين ، وكان حده أسود<sup>(٢)</sup> — هو أبو النثر العربي الجديد ويعتبره تعالى أول كُتّاب النثر<sup>(٣)</sup>

وكان من عادة الورير ابن العميد أكر كتاب الرسائل الديوانية إذا ورد حصرتة أحد من متحلي العلم وأراد امتحان عقله سأله عن بعداد وعن الحاحط<sup>(٤)</sup> ، ولذلك دُعي ابن العميد الحاحط الأخير<sup>(٥)</sup>

ويحكى عن ثامت بن قرة العالم المشهور أنه قال ما أحسد هذه الأمة ( الإسلامية ) إلا على ثلاثة أنفس أولهم عمر بن الخطاب ، والثاني الحسن البصري ، والثالث أبو عثمان الحاحط<sup>(٦)</sup> وقد وصف أبو حيان التوحيدى — الذى ربما كان أعظم كُتّاب النثر العربى على الإطلاق — كتاباً فى تقريب الحاحط ، وبلغ من مريد اهتمامه بذلك أنه ذكر العلماء الذين كانوا يفصلون الحاحط وبين عظم مكاتهم<sup>(٧)</sup> وبلغ من تقديره للحاحط أنه كان يسلك مسلكه فى تصانيفه ، ويشتهى أن ينتظم فى مسلكه<sup>(٨)</sup>

وقد كتب الحاحط فى كل شيء ، من الكتابة فى المعلمين<sup>(٩)</sup> إلى الكلام عن نبي هاشم<sup>(١٠)</sup> ، ومن ذكر الاصوص<sup>(١١)</sup> إلى الكلام عن الصّاب ، ومن الكلام فى صفات الله إلى الكلام فى قنّاح ما يحكى من كيد النساء

(١) طراز المجالس لشهاب الدين الحافى طبعه مصر ١٢٨٤ هـ من ٦٧ وما بعدها

(٢) الإرشاد ح ٦ ص ٥٦

(٣) يتسم الدهر ح ٣ ص ٢٣٨ ، وقد سمي بالحررى تعالى نفسه بأنه حاحط بنسب انظر مقدمة كتاب الإعجاز والإيجاز للثعالى طبعه القاهرة ١٨٩٧ ص ٥

(٤) لطائف المعارف للثعالى طبعه أوربا من ١٥ ، والإرساد لنافى ح ١ ص ٦٨٦ ( ١ )

(٥) يتسم الدهر ح ٣ ص ٣

(٦) الإرساد ح ٦ ص ٦٩ — ٧

(٧) نفس المصدر ح ٥ ص ٢٨٢ (٨) نفس المصدر ص ٣٨

(٩) المسطرف ح ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ طبعه مصر ١٣ هـ أما مقدار تأسر الحاحط فيما كسه من السجرة بالمعلمين مكتب اليونان المرله الى كتاب شخصه المعلم من أكر صورها فهو موضوع للبحث ، انظر Reich, Mimus, 1, 443

(١٠) زهر الآداب للحصرى على هامش العهد الفريد ح ١ ص ٥٦ وما بعدها

(١١) ذكر السوحى فى الفرح عد السده ( ح ٢ ص ٦ ) كتاباً للحاحط يسمى كتاب الاصوص

وكان أسلوب الخاطـظ مستحدثاً لم يستحكم في التحررة ، وكثيراً ما يشوب طريقته في الكتـابة الثررة والاستطراد إلى حد الإملال ، ولكن هذا بعينه هو ما كان موضع لدة المعـيين بالـخاطـظ ، وكانوا يشعرون بأنه إنقاد لهم من طريقة العلماء السائدة إلى ذلك الحين والتي كانت تقيلة لكثرة ما فيها من الحد وإطهار العلم ، وكان المعـيون بالـخاطـظ يعـتـرون الثررة الطـبيعية الجميلة فما تعمد الخاطـظ أن يعالجه وقد قدر المسعودى حوالى عام ٣٣٢ هـ - ٩٤٣ م قدرة الخاطـظ على التسيق ومدح مائة ساء تأليفه بقوله « وكان إذا تحوَّف مَلَلَ القارئ وسامة السامع حرج من حدٍّ إلى هرل ، ومن حكمة بليعة إلى مادرة طريقة » ويدكر المسعودى كتب الخاطـظ فيبدأ بالبيان والتبيين ، ويقول إنه أشرف كتب الخاطـظ « لأنه جمع فيه من المشور والمطوم ، وعرر الأشعار ، ومُستَحس الأحرار ، وبلغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر لا كـتفى به <sup>(١)</sup> » ويشبه المسعودى المصنف المجيد بأنه حاطب ليل ، لأنه يدكر في تصليفه من كل نوع <sup>(٢)</sup>

ثم إن التصوف الذى جاء حوالى أوائل القرن الثالث الهجرى على أثر اصمحلال الروح العربية وبصوب قوتها ساعد كثيراً على نشر الأدب وجعله شعبياً وعلى نشر الكتب بين الجماهير ، وصنعها بصيغتهم ، وساعد مساعدات كبيرة على تقوية المذهب الواقعى الطـبيعى — كما فعل ذلك أيضاً فى الآداب الأخرى — هذا إلى أن أهل التصوف كانوا يشعرون على العلماء وعلمهم ، ويعتمدون فى العالب على عامة الناس ، وكان هذا التصوف يتجه إلى وعط العامة وتحليل حياتهم والعناية بمحاحاتهم ، وقد تأثر بكلامهم وأساليبهم وأحيراً فإنه يتصح لسا أنه لولا اصمحلال الطريقة والروح العربية القديمة لما دخل السجع فى البلاعة العربية فى ذلك العصر

وكان لا يرال فى مآثور العرب قليلٌ من الشر الوتى المسجوع ، وكان المسلمون ينفرون من هذا السجع نفور المسيحيين فى الامراطورية الرومانية من الأوران القديمة الباقية عن اليونان والرومان وبين لنا الخاطـظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ - ٨٦٨ م علة كراهية الأسجاع ،

(١) المسعودى فى مروح الذهب ج ٨ ص ٣٤ ، وقد ظل هذا النوع من الحد والهرل منسواً للـخاطـظ عند مؤرخى الأدب ، وقد ذكره كثر من الأدباء انظر مثلاً رسائل الخوارزمى ص ١٨٣  
(٢) مروح الذهب ملاح ٤ ص ٢٥



يقول « وكان الذي كرهه الأسحاج ، وإِنْ كانت دون الشعر في التكلف والصنعة أن كُهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتعاطون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة كانوا يسكنون ، ويحكمون بالأسحاج قالوا فوقع النهي في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم ، فلما رالت العلة زال التحريم <sup>(١)</sup> »

على أن المسيحيين الذين دخلوا في الإسلام وكان لهم الشأن الأكبر في ذلك العهد كانوا قد ألفوا استعمال السجع في مواعظهم الدينية ، وكذلك يظهر أنه « حوالي منتصف القرن الثالث الهجري دخل السجع عند المسلمين في الخطب الرسمية ، وبحد كثيراً منه في كتاب وختمه الخليفة للمسلمين ، وإن لم يكن كله مسحوعاً <sup>(٢)</sup> »

وكانت طريقة كتابة الرسائل محالاً للتمرين على إظهار صور السلاعة وأساليبها ، ولم يَعدْ قط بين الأدباء من لم يأنه للاعتبارات الدينية في كراهية السجع ، وكان يكتب سجعاً كالسجع العربي القديم الذي كان لا يزال موضع إعجاب ويحدثنا الخاطب أن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي <sup>(٣)</sup> ، وكان في هذه الرسالة شيء من السجع

على أن الرسائل الديوانية كانت هي مقياس العرف اللغوي العام ، وبحد وزير الخليفة المأمون حوالي عام ٢٠ هـ يكتب كتابة مرسللة لا سجع فيها <sup>(٤)</sup> ، وقد انتهى إليها لاس ثوانة الكاتب ( المتوفى عام ٢٧٧ هـ — ٨٩٠ م ) رسالة فيها بعض السجع ، وكان هذا الكاتب معروفاً بالتكلف في كتابته <sup>(٥)</sup> ، وكذلك بحد الكتاب الذي أُشئ للسن الأمويين ، وكان يُراد قراءته على جميع المنابر بعدد سنة ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م ، ثراً مرسللاً ، وإن كان

(١) كتاب السان والسنن ح ١ ص ١١٣

(٢) Goldziher, Abhandlungen Zur arabischen Philologie, 1, S 65 f

(٣) السان والسنن ح ٢ ص ١١٤

(٤) الكندي ص ٤٤٥ — ٤٤٦ ، وفي مواضع كثيرة من كتاب بعدد لظهور ، وبحد الفارسي كتاباً من المعتصم إلى عبد الله بن طاهر ، وهو من مرسل لا سجع فيه — انظر رساله في الصداقه للوحيدى ص ٥٤ — ٥٥ من طعة فسطاطيه

(٥) الإرشاد ح ٢ ص ٣٧

لا يحلو من أثر طفيف للسجع<sup>(١)</sup> وحوالى هذا الوقت كتب أحد المشثين فى الديوان من غير سجع<sup>(٢)</sup>

على أن السجع قد أصبح حوالى عام ٣٠٠ هـ هو الطريقة الحديدة المستحدثة عند كبراء عداد ، فمجد الخليفة المقتدر يكتب إلى عمال البلاد سجعاً<sup>(٣)</sup> ، وكذلك كان الوزير على من عسى يحلى كتبه بالسجع الكثير<sup>(٤)</sup> ، ولكن أمر السجع لم يصل فى سائر أحرار المملكة إلى ما وصل إليه عداد ، فكانت رسائل الوزير اس حافان المسجوعة تقع لدى عمال الولايات موقع الشيء العريب<sup>(٥)</sup> ، وكان أصحاب الدواوين فى البلاد يكتبون على الطريقة القديمة من غير سجع<sup>(٦)</sup> ، ثم انتشر السجع قال اس حفاحة « من كُتِّب المحدثين من كان يستعمل السجع ولا يكاد يُحَلَّ به ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصائى وأبو الفرج المعروف بالسَّعَاء ، وهم من كان يتركه ويتحسه ، وهو أبو الفضل محمد بن الحسين العميد ، وطريقة غير هؤلاء استعماله مرة ورفضه أخرى ، بحسب ما يوحد من السهولة والتيسير والإكراه والتكلف<sup>(٧)</sup> »

ويحكى عن الوزير اس عباد ، وزير الموبهيين ، أنه كان ولوعاً بالسجع إلى حد الإفراط فيه ، ويقول التوحيدى عن هذا الوزير « وكان كله بالسجع فى الكلام والقلم عند الحد والهرل يريد على كلف كل من رأياه فى هذه البلاد قلت لاس الميسى أين يبلغ اس عباد فى عشقه للسجع ؟ قال يبلغ به ذلك لو أنه رأى سحمة تحل بموقعها عمروة الملك ، ويضطرب بها حل الدولة ، ويحتاج من أحلها إلى عزم ثقيل وكلفة صعبة لما كان يحف عليه أن

(١) الطبرى ٣ ص ٢١٦٦ وما بعدها .

(٢) الإرساد لياقوت ح ٦ ص ٤٦٣ ولكن الرسالة التى تشير إليها المؤلف هما فيها سجع ، وكاتبها اس ثوانة نفسه ، والعبء ها أن المؤلف معمد على أمر حرثى منى عليه فاعده ، وقد فعل هذا كثيراً فى أثناء كتابه . وما يدل على الاضطراب فى استباحاه أن اس ثوانة كان منشأ فى ديوان المقتدر ، وقول المؤلف إن المقتدر كان يكتب إلى عماله سجعاً [ المترجم ]

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٣٧ وما بعدها

(٤) الإرشاد ح ٦ ص ٢٨ ، وكتاب الوزراء ص ٢٧٧

(٥) اطر مثلاً من سجعته فى كتاب الوزراء ص ٢٧٧

(٦) اطر متلاكبات صاحب الأحبار إلى عداد من مله الدور — عرب ص ٣٩ — ٤

(٧) اس حفاحة فى مقدمه كتاب الخط لاس ماته ص ١٦

يحبها ، بل يأتي بها ويستعملها<sup>(١)</sup> » ويقول نقلا عن ابن العميد إن الصاحب خرج من الري متوجهاً إلى أصفهان ، فحاور في طريقه قرية كالمدينة إلى قرية عامرة وماء ملح ، لا شيء إلا ليكتب قائلاً . كتاني هذا من الوهار ، يوم السبت نصف النهار<sup>(٢)</sup> ، وهذا ما حكاه التوحيدي ، وكان أثلب أهل زمانه ، وهو الذي يقول عن ابن عماد أيضاً إنه كان عنده أبو طالب العلوي ، فليحه عشي سب كلام ابن عماد المسحوع ، فرش على وجهه ماء الورد<sup>(٣)</sup> وهذا هو شأن السجع إلى اليوم<sup>(٤)</sup>

ورسائل القرن الرابع الهجري هي أدق آية من اردهار الفن الإسلامي ، ومادتها هي نفس ما عالخته يد الفنان ، وهي اللغة ، ولولم تصل إليها آيات الفن الجميلة التي صيغتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الرياح والمعادن لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل منابع تقدير المسلمين للرسالة الرقيقة ، وامتلاكهم لخاصية البيان في صورته الصعبة ، وتلاعهم بذلك تلاعاً ؛ وليس من محض الاتفاق أن كثيراً من الورراء في ذلك العهد كانوا من أساتذة البيان وأعلامه ، ولذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها حلقة أن تنسر كتباً للناس وكان من أولئك الورراء الحصري ، وابن مقلة<sup>(٥)</sup> ، والمهلي<sup>(٦)</sup> ، وابن العميد ، والصاحب بن عماد ، والإسكافي وزير السامانيين ويحكى أن الإسكافي كان أكتب الناس في السلطانيات ، فإذا تعاطى الإحوايات كان قصير الماع<sup>(٧)</sup> وهذا يدل على التمييز الدقيق بين نوعي الرسائل وكانت الرسائل الهامة مثل كتب تولية العمال ومحوها تكتب في ديوان خاص يسمى ديوان الرسائل ، وهو ديوان لم تحل منه حكومة ما وقد بلغ من العناية بهذا الديوان أنه قلَّ سعداد لإبراهيم بن هلال الصابي المتوفى عام ٣٨٤ هـ -- ٩٩٤ م ، وكان أكبر المشيئين في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، مع أن الصابي ظل طول حياته

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٩٨

(١) الإرشاد ج ٢ ص ٢٩١

(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٤ ٣

(٤) مع شواد فليحة حدا ، فقد كان ورر مشهور من ورراء المراطيين الأولين يتحب السجع ، وكان على طريقه قدماء الكتاب ، « اطر المعجب في أحبار العرب للمراكشي طبعه مصر ص ٤ ١ »

(٦) الفهرست ص ١٣٤

(٥) رسائل الحوارمي ص ٣٥

(٧) نبيه الدهر ج ٣ ص ١١٩ ، ج ٤ ص ٣١ ، وكتاب الإرشاد ج ٥ ص ٣٣١



يعتق دين الصائفة ، ويصر عليه ، وقد عرّضت عليه الورادة ، إن أسلم ، فأبى<sup>(١)</sup> ولمّا مات ألف نقيب العلويين ، مع علو منزلته في الدين ، قصيدة في رثاء هذا الذي رفض الإسلام ؛ وهذا يدل على أن قيمة الإيشاء الحيد كانت في نظرهم أعظم من قيمة صحة العقيدة وكان الصائى يعرف قدر نفسه ، وهو يقول مفتحراً

وقد عَلِمَ السلطان أنى أَمِينُهُ      وكأنّه الكافى السديدُ المُوَفَّقُ  
فِيْمَايَ يُنْمَاهُ ، وَلَعَطَى لَهْطُهُ ،      وعيى له عينٌ ، بها الدهرَ يَرْمُقُ  
ولى فَقَرٌ تصحى الملوكُ فقيرة      إليها لدى أحداثها حين تطرق<sup>(٢)</sup>

وتنقسم رسائله كلها قسمين في الجزء الأول إحمال للحطاب الذي تُراد الإحابة عنه ، وهذا القسم كان يتيح المجال لإظهار الأدب في الثناء على المُرسِل وامتداحه والدعاء له ، مثلاً كتب الصائى عن الوريث ابن نقيب إلى قاصى القصاة ، فقال في أول الكتاب « وصل كتاب قاصى القصاة بالألفاظ التى لو مارحت البحر لأعدته ، والمعانى التى لو واحمت دحى الليل لأراحته وأدهشته<sup>(٣)</sup> » ، ثم يمضى في الإحابة عن الكتاب مستنداً بقوله وفهمته ولا ترال رسائل الصائى تُقرأ إلى اليوم مع لذة يحس بها القارىء وإعجاب بامتلاكه عيان البيان وهى تُنلِس موضوعها ثوباً من جمال الإيشاء القشيب ، وحتى لو كان الكتاب يتناول أحباراً عملية رسمية ليس من شأنها أن تناسب ملكة البيان وكان الصائى يدّتح رسائله بعبارات جميلة مسهبة مسحوعة في أولها وآخرها ، مليئة بصروب المحارات والاستعارات وأنواع الحساس ، ومع هذا لا يحتجى المعنى بين صعط الألفاظ ، ولا يطغى عليه جمال الألفاظ وموسيقى السجع ، بحيث يستطيع القارىء أن يفهم المراد من غير تلك المشقة التى يعاينها الإنسان في فهم رسائل من جاء بعده وحتى لو ترجمت هذه الرسائل ، وحُرِّدت من كل ما تتحلى به ، وعُرِّصت على صورة تُفقدُها الكثير من جمالها ، فإنها لا ترال حليقة بالقراءة ولد كرم أمثلة الرسائل الديوانية التى كتبها الصائى كتاباً عن عر الدولة إلى ابن عمه عصف

(١) الإرشاد ح ١ ص ٣٢٤

(٢) رسائل الصائى طبعه بعدا لسان ١٨٩٨ ص ٨

(٣) ينسبه الدهر ح ٢ ص ٢٧٧

الدولة حوانا عن كتاب عصيد الدولة الذي أخبره فيه بفتح حبال القعص والثلوص سسة

٣٥٧ هـ — ٩٦٨ م

» وصل كتاب سيدى الأمير عصيد الدولة أدام الله عمره<sup>١</sup> بما سهل الله على يده ،  
ويستره بيممه وركته من فتح حبال القعص والثلوص ، وما نلعه ، أدام الله علوه<sup>١</sup> من أهلها  
المعادين كانوا للعلّة ، العادلين عن سبيل الله ، حتى استرلهم عن مَعْقِل بعد معقل ، واستباحهم  
في موبل بعد موبل ، وقتل مُحَمَّاتِهِمْ ، وأفى كُتَاتِهِمْ ، وأناد حصراءهم وعبراءهم ، وعبي  
معالمهم وآثارهم ، وألحاهم إلى الإدعان وطلب الأمان ، وتسليم الرهائن ، والإفراح عن  
الدخائر ، والاستقامة على سواء الدين ، والدخول في عصمة المسلمين ؛ وفهمته وحمدت الله  
على ما منح الأمير عصيد الدولة ، حمد المتحقق بما أفاء الله عليه ، المعتطف بما أرله إليه ، المشارك  
له فيما يحصه ، المساهم له فيما يمشه ، ووجدت الأثر فيه كبيراً بمؤثره ، والتدبير حليلاً كمدّره ،  
وتلك عادة الأمير ، أيده الله<sup>١</sup> في الصمد للفاسد حتى يصلح ، وللمعتاص حتى يسمح ، وعادة  
الله عنده في المعونة الصامدة للساح ، الكافلة بالفلاح ، فما تردّ على من جهته تسرى إلا كنت  
متوقفاً لتالية لها أخرى ، ولا أستقل منها شكر ماصٍ سالفٍ إلا ارتهى بترقب حادثٍ  
مُستأنفٍ ، والله أسأل أن يهتبه نعمته ، ويملاؤه موهبته ، ويبلعه في الدين والدنيا آماله ،  
ويحمل فيهما أحواله ، ويحمل رأيته مصورة على أعدائه ، سعروا أم كبروا ، وكلته العلبا  
عليهم ، قلوا أم كبروا ، ويمكّه من نواصيههم ، سالموا أم حاربوا ، ويقودهم إلى التسليم له ،  
رصوا أم كرهوا ، ولا أعذّمه فيما احتصه به من حساء وكرامة ، وطاهره عنده من إعلاء  
وأنافة ، مريداً تتصل مُدَّتُهُ إليه ، وتحل عائدته عليه بحوله وطوله ، والأمير عصيد الدولة أطل  
الله بقاءه ولّى مواصلي بما يهيج من أحماره ، ويعطى من آثاره ، ويسرى من عافيته ،  
ويؤسى من سلامته ، وأمثله من أمره وهيبه ، وأقف عنده من حده ورسمه ، إن شاء  
الله<sup>(١)</sup> »

نم انتقل استعمال الأساليب المُحَلَّاة بالسجع من الرسائل السلطانية إلى الرسائل  
الإيحائية ، على أنه في القرن الثالث الهجري كتب الأمير الشاعر ابن المعتز إلى الأمير الشاعر

عيد الله بن عبد الله بن طاهر رسالة تعزية عن وفاة روحته ، وقد ردَّ عيد الله على ابن المعتز شاكرًا ، وكلا الرسالتين نثر مرسل ، ولا سمع فيهما<sup>(١)</sup> أما في القرن الرابع فكان لا يحظر على المال أن تكتب مثل هذه الرسائل من غير أن يكون فيها سمع ، وقد عظم شأن هذا الفن ، من كثرة الرسائل الحيدة ، في أواخر القرن الرابع حتى كان الناس يستطيعون أن يعيشوا من هذه الصناعة ، كما عاش الشعراء قديماً من التكسب بالشعر وكان أبو بكر الخوارزمي ، المتوفى عام ٣٨٣ هـ - ٩٩٣ م ، أشهر كتاب الرسائل الإحوائية ، وقد ظل زماناً طويلاً أكبر كتاب العرب

كان أصل الخوارزمي من طبرستان ، ومولده ومشوّه بخوارزم ، وقد تقلب في البلاد ، وشرق وعرب ، واتصل بجميع الأمراء تقريباً في شرق المملكة الإسلامية فورد بخاري ويساور ، وهراة ، وأصفهان ، وشيراز ، وغيرها<sup>(٢)</sup> وكانت رسائله توجّه إلى الأمراء والوزراء والقضاة والعمال والعلماء واللعييين ، وكان موضوعها ما يرد في الرسائل عادة من التهئة بالأعياد ، وبارتفاع المنصب ، وبالمنحة من الشر ، والتعزية بالوفاة ، والكتابة بعد نكبة أو محنة أو حلع ، والكتابة بمناسبة المرض ، أو الخروج لحرب ، أو للشكر على هدية ومن رسائله رسالة كتبها إلى صاحب ديوان الخراج جاء فيها « حيث صرت أُرْمُ حراحاً الترم سوا المدتر أصعافه للمحتري ، وأصاتي في صبيعة وهب أمثالها محمد بن الهيثم العسوي لأبي تمام الطائي وقد عرف الشيخ أبي لا أقيم على الحسف ، ولا أحل إلا حطة النصف ، فإن رأى ألا يجمع حراسان بلسانها ، ولا يحلها من سيعها ومسماها ، فعل » ، فوصع صاحب الخراج عنه حراح سنة<sup>(٣)</sup>

ويظهر أن صيت الخوارزمي حذب إليه كثيراً من التلاميذ ، وخصوصاً من الفقهاء ، ويحد في رسائله الكثير موحها إلى تلاميذه الحدد أو القدماء ، ومنها رسالة شكر فيها رجلاً على اصطباعه فقيهاً من تلاميذه<sup>(٤)</sup> ومن أمثلة ما كتبه لبعض تلاميذه « كُتُبُكَ ، يا ولدي ،

(١) كتاب الداراب للفاشي ص ١٤٦ وما بعدها

(٢) بسمه الدهر ح ٤ ص ١٢٣ والصفحات البالية

(٣) رسائل الخوارزمي ص ٨١

(٤) رسائل الخوارزمي ص ١١٩



عدى تحف وشمامات وأبواز وناكورات ، أفرح بأولها ، وأنتظر ورود ثابها ، وأشكرك على ماضيها ، وأعد الأيام والليالي على باقيها ، فكثرت على مسوادةها ، ووفر على أعدادها ، واعلم أني أحبك حباً مستكماً ونادياً

أحبتك ما لو كان بين معاشر من الناس أعداء لحرّ التصافيا  
وأني آس بك حاصراً ، وأستاق إليك عائناً ، شوقاً لو عرفته لتكرت على الوري ،  
ولم تُقيم ورباً لأهل الدنيا ، وكنت لا تنظر إليهم إلا بمؤخر عينك ، ولا تكلمهم إلا بعص  
شفتيك<sup>(١)</sup> «

ولو فارنا بين رسائل الحواررى ورسائل الصائى لوجدنا هذه أكثر اتزاناً ، وأقل مبالغة ،  
وأقرب إلى الواقع ، وكان أهم ما عند الحواررى المحسّات الندية والسلاسة ، أما موضوع  
الرسالة فهو بمثابة حيط ينسج الفنان حوله ثمرات خياله وبلاغته ، كما يلتف النبات المتسلق  
حول الحيط الذى ينصب له ، وبين هذا الأسلوب وبين الأسلوب العربى القديم كثير من  
وحدوه الشبه ، من شعف بالألفاظ الحرة دات الحرم ، والتشبيهات الحسنة ، وقلق نفس  
الكاتب ، غير أن ما كانت تطوى عليه العروسية قديماً من سل العاطفة وقوتها قد تغير  
وصار موضع سحرية ، وهذه هى الصورة الوحيدة التى أتيت له فى مجتمعات المدن

أما الصفات الرئيسية التى انصف بها أسلوب الحواررى ، فهى أيضاً صفات الأسلوب  
الساحر وهى المبالغة والتكرار والحشو ، وهو يعتمد إليها باعتدالها طريقة فنية فى الكتابة ،  
من ذلك فى إحدى رسائله « فلان أظأ على ، فليت شعرى الريح قلعت ، أم الأرض  
انتلمه ، أم الأفق مهشته ، أم الساع افترسته ، أم العول أعوته ، أم الشياطين استهوته ،  
أم أصواته نائقة ، أم أحرقته صاعقة ، أم رفسته الجمال ، أم اعتاله الجمال ، أم انعكس  
على ظهر حمل ، أم تدحرج من رأس حمل ، أم وقع فى بير ، أم انهار عليه حرف شعير ،  
أم حفت يده ، أم قعدت رحلاه ، أم صر به الحدام ، أم أصابه الرسام ، أم حمس علاماً  
فقتله ، أم ناه فى البر ، أم أعرق فى البحر ، أم مات من الحر ، أم سال به سيل راعب ،  
أم وقع فيه سهم من سهام الآحال صائب ، أم عمل عمل أهل لوط ، فأرسلت عليه حجارة

من طين مصود مسومةً عند ربك ، وما هي من الطالبين سعيداً<sup>(١)</sup> وكتب إلى رجل طلب نسخة من رسائله » ولو قدرت لحملت الورق من حلى ، بل من صحن حلى ، والقلم من ساني ، والمداد من أحقاني<sup>(٢)</sup> وقد تؤتينا مبالغته في كثير من الأحياء مجموعة قيمة من الأحوال المتعارضة التي قد تعرض في حياة ذلك العصر ، كالذي كتبه الحوارري إلى أبي علي البلعي لما فارق الحصرة وورد بيساور ، وما قاله في وصف حاله » حتى لقد ركت عير داتي ، وأكلت عير مفتي ، وبرت بيتاً نكراً ، وأكلت حبراً سراً ، وحرمت العبي ، وشرت الرشي ، ولست الصوف في المصيف ، والبردي في الحريف ، وكوتنت مواجحةً ، وحوطت بالكاف مشافهة ، وأحلت في صف العمال ، أعنى أحرىات الرجال ، وناطرنى من كان يدرس على ، وحالني من كان يختلف إلى ، وحتى لقد شرت على حاريتي ، وحرمت داتي ، وتقدمي في السير رفيقي الذي جمعي وإياه طريقي ، وحتى إنني أحدث الدرهم الحيد ، فصار في يدي ستوقاً ، وقطعت الثوب المشتري ، فصار على يدي مسروقاً ، وعسلت قبانى في تمر ، فعامت الشمس وطلع السحاب ، وسافرت في حريران فعصفت الريح وسد الأفق الصبا ، وفقدت كل شيء ملكته غير عرصي الذي عهدته الشيخ معي وصبري الذي عرفه مني<sup>(٣)</sup> وقد يصل باستعمال الحشو والتكرار إلى ملاطفة من يوجه إليه الخطاب وتعلقه ، ويدكر لما مع ذلك مجموعة من الكتب التي يستطيع الإنسان أن يرجع إليها حيناً يريد أن يكتب خطاباً من السجع الحسن ، فقد جاء في إحدى رسائله » ذكر السيد أنه كتب جواب كتابي من الطهر إلى العصر ، ولقد استنطأته على ما أعرفه من بُعد عوره ، وعراة بحره ، ولكي أعقلت لهذا الجواب ناني ، وأرحيت له حجابي ، وصحمت إلى شر كتب آداني ، وحلست من الدواوين بين آل الخراج وآل بويه وبنى الحصيب وبنى مقلة ، وشرت من المقابر آل يرداد وآل شداد ، وشرت من الآخرة ابن المقفع المصري ، وسهل بن هارون الفارسي ، وابن عدان المصري ، والحسن بن وهب الحارثي ، وأحمد بن يوسف المأموني ،

(١) رسائل الحوارري ص ٨٨

(٢) من المصدر ص ٦ ١ اطر أيضاً ص ٦٨

(٣) رسائل الحوارري ص ٣

ووصفت عن يحيى عهد أردشير بن بابكان ، وعن يسارى كتاب البيان والتبيين ، وبين يديّ  
فصول زر جهر بن السحكا ، وقبل ذلك رسائل مولانا صاحب ، عين الرمان ، وريين  
الشيب والشبان ، فما رلت أسرق من هذا كلمة ، وأطر من داك فقرة ، وأستعير من هناك  
بادرة وتيقه ، أعصب الأحياء على بياهم ، وأنش الموتى من أكفاهم ، وأنا فى أثناء ذلك  
رَطَبُ اللسان بالدعاء ، رطب العيب بالكاء ، أدعو الله بالتوفيق والتسديد ، وبالعصمة  
والتأييد<sup>(١)</sup> »

على أن الحواررى كان فى نظر معاصره الهمدانى ( وكان هذا أصغر سنًا من الأول )  
لا يحس من الكتابة « إلا هذه الطريقة السادسة وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم ،  
المتداول لكل يد ودم<sup>(٢)</sup> »

وكان أبو الفصل الهمدانى هو رعيم الطريقة الحديدية والحامى لها ، فارق همدان سنة ٣٨٠ هـ  
وهو مُقْتَلُ الشيعة ، عصّ الحداثة ( كان يباهر الثانية والعشرين ) ، وورد حصرة صاحب  
فتروء من ثمارها ، ثم ورد حرحان ، وأقام بها مدة ، ووافى بيساور سنة ٣٩٢ هـ<sup>(٣)</sup> ، أى  
بعد أن فارق وطنه باتى عشر عاماً ، ثم شحر بيه وبين أى تكر الحواررى ما كان سنًا  
عُلُوّ أمره ، وُعدّ صنته ، إذ لم يكن فى الحسان أن يبرى للحواررى أحدٌ ، فلما تصدى  
الهمدانى لمساحلته ، وحرّت بينهما مكائبات ومباطرات ومماصلات ، وعلّب هذا قومٌ وذاك  
آخرون ، وحرى من الترحيح بينهما ما يجرى بين الحصين المتصاولين ، طارد كره الهمدانى  
فى الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، ثم أحاب الحواررى داعى ربه ، فحلا الحو  
للهمدانى ، وتصرفت به أحوالٌ حميلة ، وأسعارٌ كثيرة ، ولم يبق من بلاد حراسان وسجستان  
وعربة بلد إلا دخلها ، واستفاد خيرها ، وألقى عصاه بهراة ، ثم صاهر أباه على الحسين بن محمد  
الحشامى ، وهو العاقل الكريم الأصل ، فانتطمت أحوال أى الفصل بهذه المصاهرة ،  
واقضى عمولة صهره ومشورته صياغاً فاحرة ، وعاش عيشة راضية ، وحين بلغ أتمده وأرى

(١) نفس المصدر ص ٣٥

(٢) رسائل الهمدانى طعة دروب ص ٧٦

(٣) هذا هو الصواب كما فى الإرساد للاقوت ( ج ١ ص ٩٦ ) ، لا ٣٨٢ هـ كما فى نسخة الدهر

للتعالى ( ج ٤ ص ١٦٨ )



على الأربعين سنة ناداه ربه فلباه في سنة ٣٩٨ هـ ، « فقامت عليه نوادب الأدب واشتم  
حدث القلم <sup>(١)</sup> »

كان أبو الفصّل مشهوراً بدكاء القريحة وقوة الحفظ ، وكان يُنشد القصيدة التي لم  
يسمها قط ، وهي أكثر من حسين بيتاً ، فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها إلى آخرها ،  
لا يحرم حرفاً ، ولا يُحِلّ ممعًى <sup>(٢)</sup> وكان من العجائب التي يقدر عليها ، ويعجز عنها الحوارمي  
أنه كان يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ فيه حواشه ، أو كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله ،  
أو كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً ، فإن عكست سطوره مخالفة كان حواشياً ،  
أو كتاباً لا يوجد فيه حرف مفصل ، من راء يتقدم الكلمة أو دال يفصل عنها ، أو حالياً  
من الألف واللام ، أو من الحروف العوامل ، أو أول سطوره كلها ميم وآخرها ميم ، أو كتاباً  
إذا قرئ معرجاً ومُرد معوّجاً كان شعراً ، أو إذا فسر على وجهه كان مدحاً ، وإذا فسر على  
وجهه كان قدحاً <sup>(٣)</sup> وكان هذا وأشباهه يعتز أعلى درجات القدرة على الإشاء في  
ذلك العصر

وكذلك يعيب الهمداني الحافظ بأن كلامه سهل ، قليل الاستعارات ، قريب  
العبارات ، وأن الحافظ « مُنقادٌ لُغريان الكلام يستعمله ، بقور من معتاصه يهمله <sup>(٤)</sup> »  
غير أن رسائل الهمداني التي انتهت إليها ليس فيها لحسن الخط مثل هذه الإشارات  
المعتاصة ، وهي قد كفتنا مشقة ذلك ، ولكها أكثر التواء وتكلفاً من رسائل الحوارمي  
وأحمل بالتشبيهات البعيدة المطلب وأنواع الحساس

وقد طهر شيء حديد تحاور أسلوب الرسائل ، وهو الميل إلى القصص والحكاية ،  
فبعد الأدباء يدكرون في سياق رسائلهم بين حين وآخر حكايات طويلة أو قصيرة على  
سبيل التمثيل ، مثلاً يشبه الهمداني في إحدى رسائله حال الطامع الذي يذهب به الأمل

(١) نبيه الدهر ج ٤ ص ١٦٧ — ١٦٨ ويدكر ابن حلكان (ج ١ ص ٦٨ — ٦٩ من  
طبعة مستغلة) أن بدع الرمان مات من السكه ، وعجل بدفه ، فأما في قبره ، وسمع صوته بالليل ، فمشوا  
عه فوجدوه قد مات من هول القبر

(٢) نبيه الدهر ج ٤ ص ١٦٧ (٣) رسائل الهمداني ص ٧٤

(٤) مقامات الهمداني طعة بيروت ١٨٨٩ ص ٧٢

والطمع بعيداً ، والخير منه قريب ، بحال الرجل البخاري الذي صاع حماره . يقول الهمداني :  
 » ثم لم يكن مثلي معه إلا مثل البخاري الذي صاع حماره ، وخرج في طلبه ، حتى  
 عر حيون نسله ، يطلعه في كل مهلة ، ويشده في كل مرحلة ، وهو لا يحده ، حتى حاوز  
 حراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق ، وطاف الأسواق ، فلما لم يحده ، وأيس ،  
 عاد ، وقد طالت أسفاره ، ولم يحصل حماره ، حتى إذا حصل في بلده ، بين أهل وولده ، أحت  
 الله أن يطلع به لطفاً ليعتبر به ، فطردت يوم إلى اصطبله فإذا الحمار يسرحه ولحامه وشره  
 وحرامه قائماً على الملعف يش<sup>(١)</sup> »

وهو يقول مدلاً على أن الإنسان يظل هواه دائماً مع وطنه « إب الإبل على علف  
 أكادها لتحن إلى بلادها ، وإن الطير لتقطع عرص البحر إلى مطاياها »  
 ويحكى عن ذي اليمين طاهر بن الحسين أنه « لما ولي مصر وأقامها مصرونة قضاها ،  
 مصرونة أرضها ، مرحفة حدرائها ، والناس ركناً ورحالاً ، والشارع يميناً وشمالاً ، فأطرق  
 لا يطق حرفاً ، ولا يرفع طرفاً ، ولا يهش إلى أحد ، فقبل له في ذلك ، فقال ما أصع  
 هذا ، وليس في البطارة عجائب توشح (وهي بلده) ٤١ »<sup>(٢)</sup>

وكذلك يحكى الهمداني حكاية التاجر مع ولده ويتمثل بها ، وكان التاجر قد جهز ولده  
 بمال للتجارة ، وأوصاه عند ما خرج من بلده بأن يحذر النفس وسلطانها وكان مما قاله له  
 متحدثك النفس بمعنى اسمه القرم ، ويحرك السفهاء عن شيء يقال له الكرم ؛ وقد حررت  
 الأول فوحدته أسرع في المال من السوس ، وبطرت إلى الثاني فوحدته أشأم من السوس ،  
 ودعى من قولهم أليس الله كريماً ؟ بلى ، ولكن كرمه يريدنا ولا يقصه ، ويعصا ولا يصره ،  
 فأما كرم لا يريدك حتى يقصى ، ولا يرشك حتى ينري ، فهو حدلان ، فلما فصلت  
 العير لحت بالفتى همة العلم ، فأفق ما معه من المال في طلبه ، « فلما اسلح من طارقه وتالده ،  
 رجع بالقرآن وتفسيره إلى والده ، فقيراً لا يملك نقيراً ، وقال يا أبت حثتك سلطان الدهر ،  
 وعمر الأبد ، وحياة الخلد ، حثتك بالقرآن وتفسيره ، والحديث بأسايدته ، والفقه بأباريره ،  
 والكلام بأفانيه ، والشعر بعريبه ، والمحو بتصاريقه واللغة بأصولها ، فأخى العلم نوراً ونوراً

(١) رسائل الهمداني ص ١٧٤ — ١٧٥

(٢) نفس المصدر ص ٣٧

والآداب حُرّاً وحُوراً ، فأثنى به إلى السوق وقدمه للصراف والبرار والعطار والخباز والقصاب ،  
وانتهى إلى المقال ، فساومه عن ناقة نقل ، وقال : اشترى تفسير أى سورة شئت ، فتسحى  
النقال ، وقال : إنما يبيع بالكثرة المكثرة لا بالسورة المفسرة ، فأخذ الوالدُ تراباً بيده ،  
ووضعه على رأس ولده ، وقال : يا ابن المشثومة ، ذهبت نقاطير ، وحثت ناساطير ، لا يبيع  
مها دو عقل ناقة نقل<sup>(١)</sup>»

وإذا كنا نجد عند الهمداني ميلاً إلى القصص والحكاية ، فقد كان يقابل ذلك عند  
الصاحب بن عباد ومن يتصل به اهتمام خاص شديد بالخوالب المكذّبين وحكاياتهم  
ومخاطراتهم ولغتهم وكان الصاحب بن عباد نفسه يحفظ « مذاكرة بنى ساسان » حفظاً  
عجيباً ، ويعبثه من أى ذلف الخرجى الشاعر وفور خطه منها ، وكانا يتحدان أهدابها ،  
وكان أبو ذلف هذا شاعراً كثير الملح والطرف « أخلق التسعين فى الأطراف والاعتراب ،  
وركوب الأسفار الصعاب ، وصرب صفحة الحراب بالحراب فى خدمة العلوم والآداب » ،  
وقد دوّج البلاد ، فطاف بالهند والصين ، « وكان يفتاب حصرة الصاحب بن عباد ، ويكثر  
المقام عنده ويتروّد كتبه فى أسفاره ، فتحرى بحرى السفائح فى قضاء أوطاره<sup>(٢)</sup> »

ولم تقتصر دقة ملاحظته بالعين والأذن على أحوال البلاد الأجنبية ، بل شملت أحوال  
طبقات أمته ، وهى الطبقة التى يجهلها الثقفون فى العادة جهلهم لما ليس فى بلادهم ، وكان  
الحاحط أيضاً هو أول من كشف عن هذه الباطنية ، فقد تكلم قبل ذلك العهد جماعة  
وحسين سنة عن المكذّبين ، وأسمائهم ، وما يمتارون به ، ويحتالون به<sup>(٣)</sup> ، ثم جاء البيهقي  
فى أوائل القرن الرابع فقل عن الحاحط ، وتوسع فى الكلام عن أوصاف المكذّبين وأفعالهم  
ووادعهم<sup>(٤)</sup>

أما أبو ذلف فإنه ألف قصيدة طويلة فى أوصاف المكذّبين وشرحها شرحاً وافياً كافياً  
وتقدم كثيراً على كل من الحاحط والبيهقي<sup>(٥)</sup>

(١) رسائل الهمداني ص ٣٩٣ وما بعدها

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٤ — ١٧٥

(٣) كتاب الحلاء للحاحط ، طبعه فان فلوس ص ٤٧ وما بعدها

(٤) المحاسن والمساوى ص ٦٢٢ — ٦٢٧

(٥) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٥ وما بعدها



ويرجع الفصل في حفره على ذلك إلى الأحف العكبرى الشاعر ، فقد كان الأحف أيضاً حوَّالاً ، طاف البلاد ، وتعنى تعبيراً مؤثراً محرماً من وطن يأوى إليه ، ولكنه التزم طريقة الشعراء الحقيقيين ، فلم يحاول أن يذكر في شعره كل الألفاظ الصعوبة التي تسمى أوصاف المكذِّين وألفاظهم ، وإنما ترك بعض ذلك لأني دُلف<sup>(١)</sup>

أما الهمداني فقد ظهر في هذا الميدان متميزاً ببرعة خاصة إلى الحكايات القصصية التمثيلية القصيرة التي تعلب عليها الصعة البلاغية ، وكانت ثمرة ذلك مجموعة من المقامات ، منها واحدة تسمى الرصافية ، وهي معرض تحتج فيه الاصطلاحات المتعلقة بالمكذِّين ، كما هو الحال في قصيدة أني دُلف<sup>(٢)</sup> والهمداني نفسه يشير إلى تأثيره في مقاماته بأني دُلف ، وذلك بأن أحد من قصيدته الأبيات التي ذكرها في المقامة الأولى<sup>(٣)</sup> وقد قدح الخوارزمي في الهمداني بأنه لم يحسن سوى هذه المقامات ، فثارت لهذه التهمة نائرة الهمداني<sup>(٤)</sup> ومن أسف أسا لا يعرف الناحية التي أعجبت الخوارزمي في هذه المقامات

أما عندما فاتتقدم الكبير الذي ملاحظه هو أن جميع المقامات تدور كلها حول رجل واحد هو أبو الفتح الأسكندري ، ولذلك تقوم الحكايات المختلفة الأشكال على أساس واحد ، وهذا تمهيد للكتابة الروائية على صورة أكبر ، ولم يكن قد بقي على الهمداني إلا خطوة واحدة ليأتي لما تقصص المحتالين واللصوص من أحف وألفظ نوع لم يصل إليه أحد إلى اليوم ولكن هذه الخطوة لم تتم مع الأسف ، ولم يكن ذلك لنقص أو قصور في القدرة على سحر القصص وربط أحرارها ، فهذه القدرة كانت موحودة ، ونحن نلاحظها في القصص

(١) نفس المصدر ص ١٧٥ على أنه قال في هذا النص إنه كان للعكبري قصيدة داله في الماكاه وذكر المكذِّين . ( المرحم )

(٢) يفتح الهمداني ( رسائل ص ٣٨٩ — ٣٩٠ ، ٥١٦ ) بأنه أمل في الكدنه ارسائه مقامة لا مناسبة من المقامين لا لفظاً ولا معنى ، ولكن لم يصل إلينا إلا نحو من خمسين مقامة منها ، ويسمى ألا تعتبر الأرسائه رقماً دقيقاً ، فإن الهمداني يؤكد في رسالته ( ص ٧٤ ) أنه تقدر على أرسائه صف من الترسل

(٣) النسيم ح ٣ ص ١٧٦ على أن المقامات لم يذكر تاريخ تأليفها ، وهو الحصري ( على هامس العدد الفريد ح ١ ص ٢٨ ) إن المقامة الحمدانية ( ص ١٥ وما بعدها من طبعه نروب ) أُمليت سنة ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م

(٤) رسائل الهمداني ص ٣٨٩ — ٣٩٠

الشعبية ، ولكن السبب هو أن المقامات كانت ولا تزال أدناً يؤلف للبلعاء ، وهؤلاء لا يعملون ربطاً أحراء القصة بعضها بعض ، وإنما يعملون بالألفاظ والأساليب البليغة وقد أوحدت هذه المقامات ميلاً إلى الخطب دات الأساليب الوصاءة التي تشبه « السواريح » التي سطلق لامعة ، ثم تهمي ولا تترك أثراً ، وكذلك أساليب البلعاء لم يكن لها ، رغم جمالها ، أثر في وضع قصة طويلة متماسكة الأجزاء

على أنه قد جمعت أشعار الهمداني أيضاً<sup>(١)</sup> ، وهي قصائد تدل على أن صاحبها كان بيطرته كاساً موهوباً ، ولم يكن شاعراً ، فهي أساليب بلاغية محضة محردة من كل عاطفة شعرية ، وفيها فرط تكلف في الألفاظ والمعاني ، مثلاً يقول الهمداني

إذا سجع القمري راسلت لحنه بإيقاع دمع للعباء موافق<sup>(٢)</sup>

وهو يتلاعب في شعره بعلم اللسان فيكتب قصيدة معرّاة من الواو ، وهو ما لم يستطع صاحب س عباد أن يفعله ، مع أنه استطاع عمل قصائد كل واحدة منها حالية من حرف من حروف الهجاء<sup>(٣)</sup>

وتدل عناية الحصري<sup>(٤)</sup> ( المتوفى عام ٤٥٣ هـ — ١٠٦١ م ) رسائل الهمداني على أن الهمداني قد غلب على من تقدمه ، فالحصري يذكر أحراء طويلة من رسائل الهمداني ، أما الحوارمي فلا يذكره أصلاً

وكان أبو العلاء المعري<sup>(٥)</sup> ( ٣٦٣ — ٤٤٩ هـ — ٩٧٣ — ١٠٥٧ م ) أكر كتاب الشعر في عصر الحصري ويقول ناصر خسرو الرحالة الفارسي الذي ورد المعرة سنة ٤٢٨ هـ — ١٠٣٧ م « إن فصلاء الشام والعرب والعراق يقرّون أنه لا بيطر له في هذا العصر ، ولن يكون له بيطر » ، وقد أستاذ الرحالة الفارسي إتادة خاصة بوصف كتاب لأبي العلاء « حاء فيه كلمات مرمورة وأمثلة لألفاظ فصيحة وعجيبة ، بحيث لا يقف عليه الناس إلا قليل منهم ، وهؤلاء يقرؤونه عليه أيضاً<sup>(٥)</sup> »

(١) طبع ديوانه عصر عام ١٣٢١ هـ ، ومخطوط باريس ( ٢١٤٧ ) أدق وأولى

(٢) الديوان ص ٥٩ ، والطاهر أن المؤلف لا يحسن تشبيه الهمداني بالإيقاع الموسيقي ( المرحوم )

(٣) نسيمة الدهر ح ٣ ص ٢٢٣ ، والديوان مخطوط باريس ص ١٥٤ — ب

(٤) زهر الآداب المطبوع عصر على هامش المقدّم

(٥) ناصر خسرو ص ١١ من طبعة شعر [ وهذا النص نقله إلى العربية عن كتاب سفرنامه

ص ١٦ من طبعة كاوانا برلين — المرحوم ]

وكان ذلك هو المثل الأعلى للشعر الحيدى في ذلك العصر ، وقد أذحر أبو العلاء التعميرات العويصة اقمصائده ، ولكما نجد الأسجاع قد صارت في رسائله أقصر مما يحده عند الهمداني ، كما أننا نجد تشبهاته أكثر تكلفاً ، وكثيراً ما تطغى الصاعقة والتكلف اللغزائى على العرص من الرسالة ، حتى يجد القارئ مشقة في الوصول إلى معرفته ، وكثيراً ما نجد في رسائله تشبهات متكلفة مطوّلة كثيراً بالنسبة لما عرف من قبل ، فمن ذلك قوله « وأسنى لعراق سيدي الشيخ ، أدام الله عمره ، أسف ساق حرّ ، ساقه الطرب إلى الحرّ ، توارى بالورقة ، من حر الوديقة ، كأنه قبة وراء ستر ، أو كبير حجب من الهتر ، في عنقه طوق ، كرب يفصمه الشوق ، لو قدر لا ترعه باليد ، من المقلد ، أسفاً على إلف ، عادره للكمد ، أى حلف ، أرسله ، فهلك ، روح ، فالحائم عليه تنوح ، يسمعك بالعناء أصناف العناء ، ويطهر في العصور حتى الواحد المصون » ، وهلمّ حراً<sup>(١)</sup>

ومجد الكلام تلمع من تباياه الإشارات اللطيفة وأواع الحساس اللفظي ، وسكاد مجد في كل جملة صدى من ذلك قليلاً أو كثيراً

وهذا التعبير عن الشوق للمرسل إليه هو الموضوع الذي تبدأ به الرسائل عادة على أنما نجد الهمداني قد عر عن شوقه بما هو أسط من ذلك ، مثال ذلك قوله . « معاد الله أن أشتاق إلى حصرته ، لكى أفقر إليها افقار الحسد إلى الحياة ، والحوث إلى المرات<sup>(٢)</sup> » أما بعد ذلك فمجد الكتاب يعثرون عن الشوق ، ويبالعون في المثل بالجمام أو يحوه بما لم تحر به عادة

مثلاً يقول أبو العلاء . « وشوقى إليه وإلى الجماعة الذين عرفتهم بمدينة السلام كالنسيم لا يحمد ، وبار فارس ليس تحمد ، وفقرى إلى لقائه ولقائهم فقر الذى أملك إلى الصلاة ، وبيت الشعر إلى القافية المتصلة »

ويقول أيضاً « شوقى إلى مولاي الشيخ مناسب طول الدهر لا يعد سنة وشهر ، وكما ذهب زمان صادف ، أعقبه من الأرملة رادف »

(١) رسائل أنى العلاء بشرة مرحلوت من ٤٦ — ٤٧ ، ص ٥٢

(٢) رسائل الهمداني من ٨



ويقول « شوق إلى سيدى الشيخ شوق البلاد المحلة ، إلى السحابة المسحلة ، وانتطارى  
لقدومه انتطار تاحر مكة وفد الأعاجم »

ويقول أيضاً « وأنا والجماعة سعت إلى سيدى الشيخ مع راكب الطريق وسيم الريح  
الخريق ، والعقيق المومص ، والخيال المتعرض ، سلاما تأرجح رجال الرقة إذا استودعته ،  
وتبتجع قلوب العر إن الآدان مهم سمعته <sup>(١)</sup> »

أو نجد في بعض الرسائل مبالغة في المحاملة والملاطفة لا حد لها ، فمن ذلك أن أحد الأدباء  
أهدى إلى أحد الأمراء مختصراً لكتاب مشهور في النحو ، فعتز المعري عن إعجابه بالمختصر  
بأن شبهه في دقته وإحاطته بما في الأصل بالفرات ، حرى من سمّ الحياض ، وأول ما يحدّه في  
رسائله رسالته التي سعت بها إلى رجل بمصر ، وفي أولها يقول « إن كان للآداب ، أطال  
الله بقاء سيدنا ، نسيم يتصوّع ، ولاد كاء نار تشرق وتلمع ، فقد فعما على بعد الدار أرح  
أدبه ، ومحا الليل عما دكاؤه تلهته ، وحوّل الأسماع تسوفا غير داهية ، وأطلع في سويداوات  
القلوب كواكب ليست بعارية ؛ وذلك أنا معشر أهل هذه البلدة وهب لنا شرف عظيم ،  
وألقى إلينا كتاب كريم ، صدر عن حصرة السيد الحر ، ومالك أئمة نظم والمثر ، قراءته  
نُسكٌ ، وختامه ، بل سائره ، مسكٌ ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . أحلّ عن التقييل ،  
فطلاله المقفلة ، ورؤّه أن يتبدل ، فسححه المتدلة ، وإبه عندما لكتاب عرير وإما  
المارل التي يبرها السيد كالتهب الشامية الموفية على العشرين ثمانية ، بل بها الررفان  
فتشهرت ، وسبت العرب إليها كل سحابة أمطرت <sup>(٢)</sup> » وكتب أبو العلاء إلى رجل  
أحبره بأنه سيرور بدته المعرّة ، فوصفها له بقوله « مثله قدوم هذه الناحية مثل السر الذي  
هو من ملوك الطير وعطائها ، تتصل من أوصاله رائحة المسك ، يهبط على نبيلة حد ونبيلة ،  
وهذه حمل من صفة المعرّة هي صد ما قال الله عز وجل ( مثل الحمة التي وعد المتقون  
فيها أنهار من ماء غير آسن ) اسمها طيرة ، وعند الله ترحى الخيرة ، المورد بها محتس ،  
وطاهر ترابها في الصيف ينس ، ليس لها ماء حار ، ولا عرس بها عرائب الأشجار ، وإذا

(١) رسائل أبي العلاء ص ٣٦ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٨٨

(٢) رسائل أبي العلاء ص ٣ وما بعدها

أمر لأهلها دِنْخ ، يؤمّل به الرّيح ، تحسه صبح يحطر ، فكأنما يرمق به هلال العطر ، وقد يحببها وقت يكون فيها حدى المعرفى العرة كحدى العرقد ، ومثل حمل السكواك حمل النقد ، ويكر فقيرها على الهداية قبل أى المرحين اس دأية ، حتى يقف سائح الرسل ، فكأنما وقف رصوان يستوهه ماء الحيوان<sup>(١)</sup>»

والف عظيم الذى يتحلّى فى هذه الطريقة بما فيها من رحارف كثيرة تشبه « السواريح » حمل اللمة سلسلة القياد إلى درحة نادرة ، قويه التعبير رغم الاختصار ، وهو الطريقة التى استند إليها كل الدس كانوا يريدون التعبير عما فى نفوسهم مراعين فى ذلك عايه ما أرادوا من الإبحار والقوة والحريه فى التعبير

وقد بلغ أبو حيان التوحيدى المتوفى حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠٩ م مرتبة الأستاذ لهذه الطريقة ، وكان على دروة من دراها وأول ما ملاحظه أنه كان عالما بدقائق الأسلوب الرائع ، وقادراً عليه ، غير أنما سكاد لا يلاحظ فى أسلوبه ذلك التكلف الذى يحده عند غيره من الأدباء ولم يُكْتَب فى النثر العربى بعد أنى حيان ما هو أسط وأقوى وأشدّ تعبيراً عن صراح صاحبه مما كتب أبو حيان ، ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين فى المديح ، فيحرق عليها ويعظم أصحابها ، ولقد كان أبو حيان فناناً عربياً بين أهل عصره ، وكان يعانى وحشة من يرتفع عن أهل زمانه ، ويتقدّم عليهم ، وهو يقول « فقدت كل مؤس وصاحب ، ومرفق ومشفق ، والله لربما صليت فى المسجد ، فلا أرى إلى حصى من يصلى معى ، فإب اتفق فيقال ، أو عصّار ، أو يذاف ، أو قصّاب ، ومن إذا وقف إلى حاصى أسدرنى بصابه ، وأسكرنى نقيّه ، فقد أمسيت عريب الحال عريب السحلة ، عرب الخلق ، مستأساً بالوحشة ، قابلاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملارماً للحيرة ، محتملاً للأدى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقفاً ما لا يد من حلوله ، فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى بصوب ، ونحم العيش إلى أهول<sup>(٢)</sup>»

وفى آخر حياته أحرق كتبه ، فلما عدل فى ذلك قال « إني فقدتُ ولداً محبباً ،

(١) نفس المصدر ص ٥٥

(٢) رسالة فى الصداقة والصدق طبع القسطنطينية ١٢٣١ هـ ص ٥ — ٦ وهول أبو حيان له كتب هذه الرسالة « لما بلغت سبعة وأربعين الحائط » ( ص ١٩٩ )

وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتامعاً أديباً ، ورئيساً ميباً ، فشقّ على أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدتسون عرصى إذا نظروا فيها وكيف أتركها لأناس حاورتهم عشرين سنة ، فما صح لي من أحدهم ودادٌ ، ولا ظهر لي من إسان منهم حِياطٌ ؛ ولقد اضطرت بهم ، بعد الشهرة والمعرفة ، في أوقات كثيرة إلى أكل الحصر في الصحراء ، وإلى التكفف العاصح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة<sup>(١)</sup>»

وكتابه في دم الوريثين مشحون بالثبات المقدع ، وقد ظل الناس زماناً طويلاً يعتقدون أن هذا الكتاب يحلب السحس على من يقتنيه

وآخر مطهر لصعب الذوق العربي الأصيل أنه مد القرن الثالث الهجري بدأت قصص السمر الأحسية تحتل مكاناً كبيراً في الأدب العربي<sup>(٢)</sup> وكانت الإسرائيليات وقصص البحرين تقوم ، حتى ذلك الحين ، بحاجة من يريد التسلية أما مد القرن الثالث فقد أصيب إلى ذلك ما ترحم من قصص الهند والفرس ، وكان أهمها في داك العصر حكايات ألف ليلة وليلة أو « هرار أفسان » ، (ألف حكاية) ، وهو اسمها الفارسي ، وإن كانت هذه الحكايات دون المائتي سمر مورعة على ألف ليلة<sup>(٣)</sup>

غير أن هذه الحكايات لم تكن تروق الأديباء الذين يؤثرون قراءة المثر الفنى الذى يهر أرحاء النفس والذى لا يحلو إلى حاب ذلك من رحرقة ، فكانوا يرون أنها « كتابٌ عثّ نارد الحديث<sup>(٤)</sup> » ، وكذلك محد أبا العلاء ، الفسان الكبير ، يتكلم عن كتاب كليله

(١) الإرشاد لمحبوب ح ٥ ص ٣٨٧ — ٣٨٨

(٢) حاء في أحوار العرب أن أحسن الناس حواماً وأحصرهم فرش ثم العرب ، وأن الموالى تانى أحويتها بعد وكرة ورويه (أمالى المرصى ح ١ ص ١٩٧ طعة القاهرة ١٩٢٥ م)

(٣) هل كانت قصص السندباد ضمن حكايات ألف ليلة وليلة ؟ كاب ملك القصص موحودة قائمه مدانها ، على معاوب في طولها ، وكذلك كان يعرف أنها من كتب الهند (مرواح الذهب للمسعودى ح ٤ ص ٩ ، والمهرست لاس الدم ص ٣٠) وقد ذكر الصولى في الأوراق (مخطوط باريس ص ٩) وابن الجاحح السامر (ديوان ابن الجاحح) (الموفى عام ٣٩١ هـ — ١ م) مخطوط مدسه حونا ص ١١١) أن هذا الكتاب ، كتاب السندباد من كتب الحكايات المحبوه ، التى يعمل إليها الناس ميلا خاصا ويقال إن مؤلفه طبب همدى سسمى سندباد ، وهو يحوى على كتاب الورياء السعه والعلم والعلام وامرأة الملك (مرواح الذهب ح ١ ص ١٦٢)

(٤) المهرست لاس الدم ص ٤ ٣



ودمة كلام من لم يتحمس له ، فيقول إنه لم يَقْتَسِ هذا الكتاب ، ولم يتمكن علمه بما فيه ، ولم يستكمله سماعاً<sup>(١)</sup>

ولكن روح ذلك العصر الحديدة التي حرحت عن الرعة العربية الأولى كانت تنحى إلى ما هو أحسن ، وسرعان ما وحدا حتى من العلماء والمعتبرين من الأدباء من لم يجد عصا على مكانته أن يؤلف أسماراً من النثر السهل ، عايتها مجرد التسلية ، فمثلاً ابتداءً أنوع عبد الله محمد بن عدوس الهشيارى ، صاحب تاريخ الورداء ، تأليف كتاب على سق كتاب ألف ليلة وليلة ، فاختار ألف سمر من أسمار العرب وغيرهم ، وكتب منها أربع مائة وثماني سمر ، ولكن المنيّة عاجلته قبل تسميه الألف ، وبما يجب ملاحظته أن الهشيارى لم يهتم لوصل قصصه بعضها ببعض ، ولهذا الوصل سحره وتأثيره الخاص فيها ، لأنه يحسن في مواصلة القراءة ، بل جعل الهشيارى كل سمر قائماً بذاته ، ويكفى ليلة واحدة<sup>(٢)</sup> ومن هذا النوع الكتب المسلية التي ألّفها القاضي التوحى المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م وأخيراً جاء المؤرخ الكبير مسكويه المتوفى حوالى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م ، وكان أكرم مؤرخى القرن الرابع ، فألف كتاب « أنس العريد » ، « وهو أحسن كتاب صُفِّى الحكايات القصص والعوائد اللطاف<sup>(٣)</sup> »

وهذه القصص الحديدة هي من نوع يعاير كل المعايير القصص القديمة التي ألّفها ابن قتيبة وصاحب العقد ، فيها محد لأول مرة تمام الأسلوب القصصى الإسلامى ، أعنى طريقة القصص التي ليست عربية حالية وإلى جانبها انتشرت كتب شعبية كثيرة لا يُعرف مؤلفوها ، منها قصص فى الفروسية ، كالتى تحكى عن عمرو بن عبد الله ، وأبى عمر الأعرج ، وكتب فى النوادر والحكايات مثل حكايات حنا وحكايات ابن المعامل المعنى المشهور ، وكتب هزلية مثل قصة عاشق المقررة ، والسور والفار<sup>(٤)</sup> ، وحرّء الطائر ، وكتاب دات الطيب ، ثم مجموعة كبيرة من القصص العرامية وخصوصاً حكايات الشعراء المشهورين وأهل

(١) رسائل أبى العلاء المعرى طعة مرحليوب ص ٢ ١

(٢) الفهرست ص ٤ ٣

(٣) تاريخ الحكماء للعطى ص ٣٣١ — ٣٣٢ من الطبعه الأوروسيه

(٤) الأوراق للصولى ص ٩

الدهاء من النساء العاشقات وكذلك شملت قصص الحب بين الآدميين وبين الجن مكاناً كبيراً<sup>(١)</sup>؛ وقد ذكر المؤرخ حمزة الأصفهاني حوالى عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م أنه كان في عصره من كتب السمر التي تتداولها الأيدي ما يقرب من سبعين كتاباً<sup>(٢)</sup> وكان من بين هذه الكتب القصص التي كان يؤثرها أهل الطبقة الراقية والتي يعلب عليها الولد واللدة سجع الدموع ، وكان يشير تولد العشاق ما روى عن نبي عذرة من أن أحدهم « كان يموت إذا عشق » ، وعن أبطال القصص العرامية الذين يموتون من شدة الفقد ، وتتصعصع أعضاؤهم من شدة الوحدة<sup>(٣)</sup>

وإلى هنا وقف النثر العربي إلى اليوم

## ٢ — الشعر

كانت مدن العراق الكبرى مهداً لشعر المحدثين ، أما قائدهم فيعتبر نزار بن برد الذي نشأ بالبصرة ، وتوفي عام ١٦٨ هـ — ٧٨٤ م<sup>(٤)</sup> وكان أبوه طيّباً يصرب اللين<sup>(٥)</sup> وقد ولد نزار أعمى ، وكان صحاباً طويلاً عظيم الخلق والوجه ، وقد سحر منه رجل بأن قال له كأنك فيل عرسك أتقل من طولك ، وذلك عند ما روى له قول نزار في حُلَّتِي حَسْمُ فَتَى مَاحِلْ لَوْ هَتَّتِ الرِّيحُ نَهَ طَاحَا<sup>(٦)</sup>

وكان نزار إذا أراد أن يشد شعراً صقق يديه ، وتنحجح ، وصبق عن يمينه وشماله ،

(١) الفهرست ص ٨ ٣

(٢) كتاب تاريخ سبي ملوك الأرض والأبناء عليهم الصلاة والسلام تأليف حمزة بن حسن الأصفهاني

طبعة حوثالده ص ٤١ — ٤٢

(٣) الموشى للوساء ، طبعه لندن ٢ ١٣ هـ ص ٦٤ وما بعدها

(٤) ألف المرباني (الموتى عام ٣٧٨ هـ) كتاباً كبيراً في أخبار الشعراء المحدثين وحمل أولهم نزار بن برد وآخرهم ابن المعبر (الفهرست ص ١٣٢) ويعول ابن حلال الساعى في شطريه له والآخرون نقودهم نزار (نسمة الدهر ج ٣ ص ٢٣٥) وهو سمي فائد المحدثين (حمزة الأصفهاني في ديوان أنى بواس طبعه القاهرة ١٨٩٨ ص ١ — ١١ ، والحصرى على هامش العهد ج ٢ ص ٢١)

(٥) الأغاني ج ٣ ص ٢

(٦) نفس المصدر ص ٢٢ و ٦٥ ونحكي عن رجل أنه قال صهرت نزار ، وهو مسطح في دهليره

كأنه حاموس (نفس المصدر ص ٥٦)

ثم يشد ، فيأتي بالعجيب<sup>(١)</sup> ويحكى عن رجل أنه قال : « عهدي بالبصرة وليس فيها  
عَرَلٌ ولا عَرَلَةٌ إلا يروى من شعر شار ، ولا بأثمة ، ولا معشية إلا تتكسب به ، ولا دوشرف  
إلا وهو يهانه ويحشى معرة لسانه<sup>(٢)</sup> » على أن شاراً قصد بعداد وأشد قصائده  
أمام الخليفة المهدي ، ويقال إنه ألف اثني عشر ألف قصيدة من الشعر ، وهو من أحسن  
ما يؤثر<sup>(٣)</sup>

وكانت لعة شعر شار هي لعة كل الشعراء القدماء ؛ ويُذكر أنه كان يرل نظام  
البصرة قوم من أعراب قيس عيلان ، وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان شار يأتيهم  
ويشدهم أتعاره<sup>(٤)</sup> ، وكان شار علياً بأسرار اللمة حتى اعتدته اللعويون حجة ولكن هذا  
كله كان على الطريقة القديمة ، فلم يتكرر الشعراء المحدثون صوراً جديدة ، ولا هم اكتشفوا  
مادة جديدة إلا نادراً ، وإن كانوا قد افتتحوا قصائدهم بذكر الورد والياقوت وما أشبههما  
من أرهار الرياض والساتين ، على حين كان أهل النادية يفتتحون قصائدهم بذكر الحرامى  
والنهار والعرار ويحوها من رهر البرية<sup>(٥)</sup> ، وإن كانوا أيضاً تركوا وصف حمار الوحش إلى  
وصف الهائم ، كما فعل القاسم بن يوسف أحو أحمد بن يوسف الكاتب الذي كان يتولى

(١) نفس المصدر ص ٢٢ وكذلك كان الحمرى من أخص الناس لإسداً ، فكان يشدق وتراور في  
مشه مرة حاساً ومرة الفهري ، وهر رأسه مرة ومكة أخرى ، وشركما وهول أحسب والله ، م  
يعمل على المسمعين فيقول ما لكم لا تقولون أحسب ، هذا والله ما لا يحس أحد أن يقول . له  
( الإرشاد لياقوت ح ٦ ص ٤٤ ) وكان في بعض اللاد في أثناء القرن الرابع الهجرى شعراء يطهرون  
شدود الشعراء كما كان الحال في العصور القديمة ، ويحكى عن أحدهم أنه دخل على بعض الولاة ، وقد لمس  
وجهه طين أحمر ، وليس لسداً أحمر وعمامة حمراء ، وأمسك عكاراً أحمر ، وليس في رجليه حديد أحمر  
( كتاب الدنارات ص ٨٦ ب )

(٢) الأغاني ح ٣ ص ٢٦

(٣) وقد قبل شار ، وهو باهر السن أو صب على السعين ، وقد مكة الدهر فقد جمع أصدفاته  
فل ذلك وقد قال في أسعاره إنه لم سى إلا الناس الذين لا يعرفون ما هو الكلام ، وقد دم المهدي ،  
فسعى به إليه ، وفضل له إنه ردى ، فأمر صر به صرب اللب حتى مات ، فألفت حشه بالطيحه ، فحمله  
الماء إلى دحلة البصرة ، فأحدودى ، وأحرج حماره فما معها أحد إلا أمه له سواد سندية غشاء ما يهصح ،  
رؤيت سير حلف حماره وصبح واستداه واستداه<sup>(١)</sup> ( الأغاني ح ٣ ص ٧١ - ٧٢ )

(٤) كتاب الأغاني ح ٣ ص ٥٢

(٥) العمدة لاس رشق ص ١٥ طبعة مصر ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م



ديوان الرسائل للمأمون<sup>(١)</sup> ، أو إلى وصف القطط الدرلية ، كما فعل ابن العلاف المتوفى عام ٣١٨ هـ — ٩٣٠ م<sup>(٢)</sup>

أمّا الحديد فكان وهو السحت عن الطرائف البديعة التي تحالف المألوف والتي تسمى الطيبة<sup>(٣)</sup> ، وهو أثر من آثار تدهور الحضارة التي دخلت في الشعر العربي حينما آلت القيادة إلى الأحلاط الذين سكوا المدن

وحدث في الشعر ما حدث في السحر ، ذلك أن الميل إلى الطرائف والمسليات قتل في الناس الميل إلى شعر البطولة القديم ، وقد امتدح الحاحط ، لأنه كان مؤسس الطريقة الجديدة التي تجمع بين الحد والهزل ، وكذلك نال شارح — رعيم الشعراء المحدثين — إعجاب أنى ريد اللعوى والأصمعي وأول ما أعجبهما فيه أنه كان يحد ويهزل ، على حين أن مسافسيه من المتسكين عذّب الأوائل لم يكونوا يحسون إلا واحداً من هذين<sup>(٤)</sup> وكذلك أعجب الأصمعي في سار أنه كان أكثر تصرفاً في فصول الشعر ، وأعرر وأوسع بديعاً من غيره<sup>(٥)</sup> أما إسحاق الموصلي الذي كان يتحمس لمذهب القدماء فقد كان لا يعتدّ شعر شار ، ويقول هو كثير التحليط في شعره ، وأشعاره مختلفة لا شبه بعضها بمصاً ، فيها المتناهي في الجودة ومنها غير الحديد ، وهو يدكر لنشار هذين البيتين

إمّا عظم ——— سليمى حتّى      قصب السكر لا عظم الجمّل

وإذا أدبت منها مصلاً      علب المسك على ربح الصل

ويقول إن هذا يررى شعره ، مهما كان فيه من الحديد<sup>(٦)</sup>

(١) الأغاني ج ٢٠ ص ٥٦

(٢) الدمري ج ٢ ص ٣٢١ لأن العلاف قصده طوباً رثى بها هراً وقد أحلف في سب عملها ، فعيل كان له فط حقيقه ، فعليه الخمران ، فرباه وفل بل رنى بها صدهه ابن المعتز ، ولم يصرح بدكره خوفاً من القدر ، فورى بالقط وفل بل هوب حارية لعل بن عيسى الوريير علاماً لأن العلاف ، فعطن بهما على بن عيسى ، فعقلهما جمعا فرتى ابن العلاف علامه وكى بالهر ( تاريخ أنى القداح ج ٢ ص ٣٦١ — ٣٦٢ تحت عام ٣١٨ ) ، وقد كتب الصاحب بن عباد مره لفظ عارض فيها ابن العلاف ( بيه الدهر ج ٣ ص ٢٣ )

(٣) أحدث كله « طب » يظهر في صفه ذلك ، وهى من الكلمات المحبوه عند الحاحط ، اطر

Van Vloten, Livre des Avars, S III

(٥) الأغاني ج ٣ ص ٢٤

(٤) الأغاني ج ٣ ص ٢٥

(٦) نفس المصدر ص ٢٨

وكان « الطيب » ، وهو الديدع المستطرف ، في نظر الشعراء القدماء ، شيئاً رائئاً ،  
لاحقيقة وراءه ، ولكنه انتشر عند المحدثين ، وكانت الكلمة الحارثية في وصف الشعر  
الحسن في القرن الثالث هي « الديدع » ، أي الطريف المستحدث<sup>(١)</sup> . وقد كتب ابن المعتز  
( المتوفى عام ٣٩٦ هـ — ٩٠٩ م ) — وهو من أكبر الشعراء — كتاباً خاصاً بهذا المعنى

وقد تنوّات المعاني المقام الأول ، كما هو الحال في كل شعر عاتقه الحري وراء المستطرفات  
وكان الشعراء يتلمسون العبارات ذات المعاني الراققة والتبويج في تأليف الأبيات الشعرية وفيما  
تصممه من تشبيهات وتصورات ومن هنا جاءت المعاني التي رادها بشار بن برد وأصحابه ،  
فإبهم أتوا « بمعانٍ مامرت قط بمخاطر جاهلي ولا محصرم ولا إسلامي<sup>(٢)</sup> » وقيل لبشار  
بِمَ فُتَّتْ أَهْلَ عَصْرِكَ فِي حَسَنِ مَعَانِي الشَّعْرِ وَتَهْدِيدِ أَلْفَاظِهِ ؟ قال « لأني لم أقبل كل  
ما تورده عليّ قريحتي ، وبياحيبي به طبعي ، ويسعث به فكركي ، وبطرت إلى معارس  
الفطن ، ومعادير الحقائق ، ولطائف التشبيهات ، فسرت إليها بفكر حديد ، وعريرة  
قوية ، فأحكمت سترها ، وانتفيت حرّها ، وكشفت عن حقائقها ، واحتررت عن  
مُتَكَلِّفِهَا<sup>(٣)</sup> »

ومن شعر بشار الذي يُعتبر « مستحدثاً » ومثالا للمعاني المتكررة والشعر الحيد قوله في  
وصف حثّه ، وهو المكعوف البصر ، لصوت امرأة تكلمت معه

يا قوم ! أدنى لعص الحى عاشقةً والأدن تعشّق قل العين أحيانا  
قالوا ممن لا ترى تهدي ، فقلت لهم الأدن كالعين توى القلب ما كانا  
وهو يريد هذا المعنى بساطة ودقة في صورة أخرى له ، حيث يقول

قلت عقيل من كعب إذ تعلقها قلبي ، وأمسى به من حبها أثر  
أني ، ولم ترها ، تهدي ! فقلت لهم إن العواد يرى ما لا يرى البصر<sup>(٤)</sup>

(١) ويصل كلمة « ديدع » من حب الاسفاى بمعنى ما هو مرند في ناله أو غرب أو مستحدث

(٢) العمدة ح ٢ ص ١٨٥ (٣) نفس المصدر

(٤) العمدة ح ٢ ص ١٨٨ ، وتجد صورة أخرى لهذه الأبيات في الأعاني ح ٣ ص ٦٧ ، وقد كان  
عمر بن أبي ربيعة هو صاحب طريقه قالوا ولب في شعر العزل

وكانت عادة الشعراء ، فيما سلف ، أنهم كانوا يشبهون الحدود بالورد ؛ أما اليوم فإن  
الورد يشته بالحدود يضاف بعضها إلى بعض

وقد أشد أحد الشعراء أمام رجل هذا البيت

عشيرة حَيَّانِي نورد كأنه حدود أصيغت بعضهن إلى بعض

فأعجب السامع حتى رجع إلى المشد وطلب الريادة<sup>(١)</sup> وقد نال أعظم الإعجاب ،

واعترض من « المديح » قولُ اس الرومي ( المتوفى عام ٢٨٠ هـ — ٨٩٣ م )

يحدث من نقرته طرّة إلى مدى يقصر عن بيله

فوّحه يأخذ من رأسه أحد بهار الصيف من ليله

وهو يشير بالليل والنهار إلى لون الشاعر الأسود وجمال بياض حلقه الرأس<sup>(٢)</sup>

وكان اس الرومي هذا متطرفاً في حكمه على الشعراء المحدثين ، حتى كان يرغم أن شاراً

أشعر الناس جميعاً ممن تقدم وتأخر<sup>(٣)</sup> ، وهو حكم كان يقف له شعر الأدباء واللعويين في

ذلك العصر

على أن اس رشيق ، ناقد الشعر المعروف ( المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م ) ، قرر

بعد ذلك بمائتي عام أن اس الرومي نفسه أكبر الشعراء المحدثين وهو يروى له البيت المتقدم

ويقدمه بقوله فقال اس الرومي ، وأحسن ما شاء<sup>(٤)</sup>

وهذه الطريقة الحديدة قوّت ما عدا الشعراء الموهوبين من ميل طبيعي إلى الاستقلال

في رؤية الأشياء بعيونهم لا بعيون المتقدمين وإلى الابتكار في عباراتهم ، تقوية كبيرة ،

وأصبح لا يحمد لهم أن يسيروا على المأهج السهلة المطروقة ولهذا الطريقة الحديدة يرجع

العصل في هذه الملاحظة الطبيعية التي تشبه الكحل من غير تكحل والتي محددا مثلاً في

رثاء شار لُنَيَّةٍ صغيرة له<sup>(٥)</sup>

(١) كتاب الدنارات ص ٥ ب

(٢) العمدة ح ٢ ص ١٨٨

(٣) حمره الأصغهاى في ديوان أنى نواس طبعه القاهرة ١٨٩٨ ص ١

(٤) العمدة ح ٢ ص ١٨٨ ، ١٩٤ (٢) هـ

(٥) الأعالي ح ٣ ص ٦٣



يا بنت من لم يلك يهوى شتا      ما كنت إلا حمسة أوستا  
حتى حلت في الحشى وحتى      فنت قلى من حوى فاعتنا  
لأت حيد من علام شتا      يصبح سكران ويمسى مهتا  
أوما قيل في وداع حارية<sup>(١)</sup>

تقول عادة اليب إحدى سائهم      لي الكبد الحرى ، قسِر ! ولك الصبر  
وقد حقتها عسرة ، فدموعها      على حدها يبص وفي بحرها صبر  
أوى أنواع التصوير القوية التي بحدها عد أنى نواس<sup>(٢)</sup> المتوفى حوالى عام ١٩٥ هـ —  
٨١٠ م والتي تدكرنا في أعابها الشعبية من نحو تشبيه فعل الحب بالقلب بعمل  
القط بالعار<sup>(٣)</sup>

أوى التمثيل الرفيع الذى بحده عد ان المعتر المتوفى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م في قوله<sup>(٤)</sup>  
وحلحل رعد من عييد كأنه      أمير على رأس اليعاق حطيب  
أوقوله<sup>(٥)</sup>

رددت إلى التقى بمسى ، فقرت ،      كما رُدَّ الحسام إلى القراب  
أوقوله في إحدى الحمريات<sup>(٦)</sup>

فانظر إلى ديا ربيع اأقلت      مثل النساء تدرجت لرباة  
والكمأة الصغراء ناد ححبها ،      فكل أرض موسم حياة  
أوقوله<sup>(٧)</sup>

(١) حله الكبير ص ١٩١  
(٢) سَأَ أَبُو نَواS في الصرة ، وكثيراً ما كان يسمع شاراً وصب على قوالب معانه ، كما يقول حمزة  
الأصفهاني ( ديوان أنى نواس ص ١ ) ونحكي عن الحاحط المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م أنه قال  
لا أعرف عد شار مولدا أسعر من أنى نواس ( ديوان أنى نواس ص ٩ )  
(٣) ديوان أنى نواس ، مخطوط مسافرهم ٧٣٤ ص ١٦٧ ب (٤)  
(٤) ديوان ان المعتر ح ١ ص ١٥ وكذلك يقول أبو تمام ( في الديوان طبعه مروب ١٨٨٩  
ص ٣٧ )

فهام فيها الرعد كالخطيب      وحب الرخ حين اللوب

(٥) ديوان ان المعتر ح ١ ص ١٦

(٦) ديوان ان المعتر ح ٢ ص ٣٤      (٧) نفس المصدر ح ٢ ص ١١

راري ، والدحي أصم الحواشي ، والثريا في العرب كالنقود  
وهلال السماء طوق عروس بات يُحلى على علائل مود  
أوقوله (١)

أطال الدهر في بعداد همتي وقد يشقى المسافر أو يعور  
طلت بها على كره مقياً كمين تعاقبه عخور  
وكثيراً ما يكون في شعر هؤلاء الشعراء اشكاً كبير من ذلك قول أبي نواس  
تقول عداة الين إحدى سائهم لي الكبد الحري سيرا ولك الصبر  
وقد حصتها عرة ، فدمعها على حدّها حدّ وفي بحرها بحر (٢)  
أوقول ابن المعتز (٣)

انظر إلى حُسْ هلال ندا يهتك من أواره الجندسا  
كيتخلّ قد صبع من قصة يحصد من رهر الدحي رحسا  
أوقول ابن الرومي (٤)

وقد شرت أيدي السحاب مطارها على الأرض دُ كما وهي حُصرت على الأرض  
يطرّرها قوسُ العام بأصغر على أحر في أحصر وسط مُنَيص  
كأديال حود أقملت في علائل مصتعة ، والعصُ أقصرُ من بعض

ويحد هذا الحري وراء ما هو غير مألوف من المعاني الجديدة يتمشى في الشعر العربي  
طول القرن الرابع الهجري ، وهو قد أيقظ جميع حواس الشاعر ونهها بنيتها كبراً ، ليستخرج  
أعمق ما في باطن الأشياء من أسرار ، وليكشف عن أعرب خصائصها وأول ما يلاحظه  
أن الشعر لم يكن له بدّ من أن يقوم مقام الفن التصويري ، فالكثير مما يعبر عنه الشعر  
ما هو إلا تصوير ورسم لما تحيى به نفس الشاعر ويصطر إلى إراره في صورة من الألفاظ  
وقد قويت في الشعراء رعة عظيمة للطر بأعيهم ، وقامت في نفوسهم حاجة إلى الطر في  
الأشياء بطرة فية ، وإلى الإبانة عنها إبانة توصحها لهم وهذا ما لم يعرفه العرب الأولون ، فقد

(٢) ديوان أبي نواس ص ٨

(٤) العمدة ح ٢ ص ١٨٤

(١) نفس المصدر ص ١٢٢

(٣) الديوان ح ٢ ص ١٢٢

كان فهم فمًا لعويًا أداته الألفاظ وقد اتصل العرب بشعوب أخرى تختلف عنهم اختلافًا تامًا ، وقد كان لهذه الشعوب فنون غير الفنون الكلامية ، ولكن العرب لما علموا عليهم علومهم الكلام لا التصوير ، أى أنهم وصعوا في أيديهم القلم بدلًا من ريشة الرسام المصور ، ولما آل الأمر إلى هذه الشعوب وأصبحت هي القاصصة على رمام الفن الأدنى راد الشعر التصويرى زيادة كبيرة ، بعد أن لم يجد أن تمام ما يصلح للاختيار في باب الأوصاف حتى يدكره في ديوان الحماسة إلا بصعة عشر بيتًا وكان شعراء العرب القدماء قد احتصروا دائمًا في وصف الطبيعة المحيطة بهم نوع خاص ، وكانوا يمد القدم يدكروا شيئًا من وصفها في شعر الشراب ، وخصوصًا في وصف الأيام المطرة المذحجة التي كان يحلو لهم فيها الشراب عادة ، أما الشعراء المتأخرون فقد حاءوا في هذا الباب بأدق التشبيهات ، فيقول ابن الرومي مثلاً<sup>(١)</sup>

يومًا للديم يوم سرور والتداد وعة واتهاج  
دوسماء كأدكن الخرق عيتم وأرض كأحصر الديباح  
ويقول الوريث أبو محمد المهلبى<sup>(٢)</sup>

يوم كأش سماء شه الحصان الأرش  
وكأش رهرة روصه فرشت بأحسن مفرش  
فسماؤه دكن الخرور وأرصه حصر الوشى

وكان القدماء يفضون الشراب في الليل أو عند طلوع الفجر الأول ، في الوقت الذى قال فيه ابن المعتز<sup>(٣)</sup>

حان ركوع أريق لكأس وبادى الديك حتى على الصوح  
وكذلك قال أبو نواس في قصيدتين له شيئًا من هذا ، فمن ذلك<sup>(٤)</sup>

---

(١) يسمة الدهر ح ٢ ص ٢  
(٢) يمينه الدهر ح ٢ ص ٢  
(٣) الديوان ح ٢ ص ٣٦  
(٤) ديوان أبى نواس ص ٣٤٩ ، وقد أصبح أبو نواس لأحدى حرماته عما هو أكبر تواضعاً  
طالب الرمان وأوراق الأشجار ومضى الشاء أوفد أن آدار  
وكسى الربيع الأرض من أنواره وشا تحار لحسه الأصار (س ٢٩) =



قد هتك الصبحُ ستورَ الدحي فامحسرت أنواه الخوب  
فأصبحُ بداماك سحامية أتى لها في دَهَّها حيب  
وبعد ذلك سحوقن بحد اس المعتر قد جاء في هذا بالكثير المتشوع من ذلك قوله (١)  
قم يا يدي بصطح سواد قد كاد يسدو الصبح أو هو ناد  
وأرى الثريا في السماء كأنها قدم تددت في تياب حداد  
وقوله (٢)

وقد بدت فوق الهلال كرتة كهامة الأسود شات لحيته  
على أنه في عصر اس المعتر نفسه بدأ الناس يصرفون عن الشراب في هذا الوقت  
العريب ، واس المعتر يصعبه أحيانا بعدم الملازمة ، من ذلك قوله (٣)

إذا أردت الشرب عند العحر والحلم في لحة ليل يسرى  
وكان رد بالنسيم يرتعد وريقه على الشايا قد حمد  
وللعلم صخرة وهمهمه وشتمة في صدره تحممه  
يمشي بلا رحل من العاس ويدفق الكاس على الحلاس  
أعجل من مساوكة وريسته وهيئة تنظر حسن صورته  
فجاءهم مسموعة اللحاف محمولة في الثوب والأعطاف  
فأى فصل للصوح يعرف على العوق والطلام مسرف  
وبعد اس المعتر نفسه بحد الشعور بحال الطبيعة والتمتع به يظهر قويا في الحمريات ، فقد  
بدأ أصحاب الشراب يتمتعون بحال الحبان والأشجار ، ويشربون بين الورد والرحس والخلنار  
والأقحوان وعناء الطيور ، وذلك كله في الربيع « وموسم الحياة » (٤)

== أما كلامه بعد ذلك عن الحبان الحصراء وعناء الأقطار فلا نسئ مع همة القصيدة ، ولعله من وضع  
المأخرين ، ومن هذا المثل ما نسه السعوى ( مروح الذهب ح ٨ ص ٧ — ٤ ٩ ) لأنى نواس  
من قال من الأرهار في قصيدة له ، فهو لا يوجد في الديوان ، وأصله رجع إلى المؤلفين

(١) ديوان اس المعتر ح ٢ ص ٣٧

(٢) ديوان اس المعتر ح ٢ ص ١١

(٣) ديوان اس المعتر ح ٢ ص ١١٣

(٤) ديوان اس المعتر ح ٢ ص ٣٤ ، ٥١ ، ١١ — ١١١

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري مع شاعران شاميان ، وكأنا صديقين ؛  
فأشأ قصائد تعنيا فيها باللسانين وما لها من جمال داني القطوف متنوع النواحي يحلب  
الألباب ، وبلغا بذلك الشعر إلى الدروة

أما أولهما فهو أبو بكر محمد بن أحمد الصوري<sup>(١)</sup> ولد هذا الشاعر بأطاكية ، وكان  
أمياً على حراسة كتب سيف الدولة<sup>(٢)</sup> ويدل لقبه ، « الصوري » ؛ على أنه هو أو أباه  
كان يتحرف في حشب الصور<sup>(٣)</sup> ولما كان المحروط الشكل يسمى الصوري تشبيهاً له  
يحمل شجرة الصور<sup>(٤)</sup> ، فقد يحور أن يكون هذا الشاعر لقب بهذا اللقب على سبيل  
الإشارة إلى صفته وصورته وله لقب آخر هو « الصيبي » ، وليس في هذا ما يدعونا إلى  
الطعن بأنه ذهب إلى الصين ، فقد كان بالكوفة مثلاً رحل يسمى الصيبي ، لأنه كان يتحرف  
إلى الصين ، فنُسب إليها<sup>(٥)</sup> وقد مات الصوري في عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م<sup>(٦)</sup> ، وهو  
يماهر الحسين على الأقل<sup>(٧)</sup> ويعرف من حياته أنه كان صديقاً للشاعر كشاحم ، وأن  
كشاحم وصفه بأنه « محرف ما له شط<sup>(٨)</sup> » ، وأنه طلب يد ابنته<sup>(٩)</sup> ، وعمره عن فقد اسة  
أخرى له توفيت نكراً<sup>(١٠)</sup>

وقد تعنى كثيراً بذكر حلب والرقّة ، وهما أكبر بلدين كانا مقرّاً لسيف الدولة على

(١) هكذا في فهرست ص ١٦٨ ، وعند أبي المحاسن ( ج ٢ ص ٣١٢ تحت عام ٣٣٤ ) . أحمد  
ابن محمد بن الحسن الصبي الحلي ، وعند نافوت ( ج ٢ ص ٣١١ ) محمد بن الحسن بن مزار ، وعند الكشي  
( ج ١ ص ٦١ ) أحمد بن محمد

(٢) مطالع الدور للعرولى ج ٢ ص ١٧٦

(٣) بذكر ابن حوقل ( ص ١٢١ ) أنه كان على شط البحر مكان يعرف بحشب النبات فيه معلّم  
لحشب الصور الذي كان ينقل إلى مصر والشام والعبور وهوول السرب الإدرسي ( برهه المشاق في  
احتراق الآفاق طبعه براندل ص ٢٣ ) إنه كان لبيروت عصية أسرار صور مما إلى حدودها جعل إلى  
حل لسان ، وبكسر هذه العصية اما عشر ملاء في ملها

(٤) مفاتيح العلوم للحوارري ص ٧ ٢

(٥) معجم البلدان لنافوت ج ٣ ص ٤٤٤

(٦) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٢

(٧) معجم البلدان لنافوت ج ٢ ص ٦٦٥

(٨) ديوان كشاحم طبعه ديوب ١٢١٣ هـ ص ١١٦

(٩) نفس المصدر ص ٧٤ وما بعدها

(١٠) نفس المصدر ص ٧١ وما بعدها

أهـ سكن الرُّها ، وكان يجتمع في دكان ورّاق يقال له سمعد بكثير من أدباء الشام ومصر  
والعراق<sup>(١)</sup> وكانت له مديونة حلب حديقة بها قصر فخم حوله العروس والرياحين وشجر  
الدارج<sup>(٢)</sup> ، ولذلك يسمى الحلبي وكان الصوري صغيراً فلم يَبَلْ مكاناً في كتاب الأعالي ،  
وكان مسناً فلم يَبَلْ مكاناً في يتيمة الدهر ، ولذلك بقي ديوانه مفرقاً ، ولم يوجد منه إلاّ أحرار  
صغيرة ، وإن كان الصولي قد رتبته على حروف الهجاء ، وجمعه في مائتي ورقة<sup>(٣)</sup> ، فلا بد  
أن تُجمع بقاياه من كل ناحية يقول الصوري في وصف سريره من الشقيق أحاط به  
ورد أبيص<sup>(٤)</sup>

قد أحرق الورد بالشقيق حلال ستاك الأبيق  
كأن حوله وحوه مستشرفات إلى حريق  
ويقول<sup>(٥)</sup>

وكأنـ نُحْمَرُ الشقي ق إذا تصوّت أو تصعد  
أعلامُ ياقوت نُشِر ن على ساط من ررحد  
ويقول<sup>(٦)</sup>

ياريم قومي الآن، ويحك افاطري ما للزنى قد أظهرت إمحاهها  
كانت محاسن وجهها مححوة فالآن قد كشف الربيع ححاهها  
وَزِدْ بدا يحكي الحدود ورحس يحكي العيون إذا رأت أحباهها  
وتياب باقلاء يتسمه بوزّه تلق الحمام مُشيلة أدماهها  
والسرو تحسه العيون عوايا قد سمّرت عن سوقها أثوابها  
وكأن إحداهن من نوح الصا حودّ تلاعب موهبا أترابها  
لو كنتُ أملك للرياض صيانة يوما لما وطى اللثام ترابها

(١) الإرساد لباقوب ح ٢ ص ٢٣

(٣) الفهرست ص ١٦٨

(٢) ديوان كساحم ص ٧٤

(٥) ربحانة الألبا للحفاحي ص ٢٥٦

(٤) كتاب الدنارات ص ١٩٧

(٦) فوات الوفاة للكسي ح ١ ص ٦١ ، وكتاب من غاب عنه المطرب للشمالي ، طبعه بيروت



ويعتبر الصوريُّ الرحسَ ملصكا للأرهار ، فمن قوله في الرحس<sup>(١)</sup>

أَرَأَيْتَ أَحْسَنَ مِنْ عَيُونِ الرَّحْسِ      أَمْ مِنْ تَلَاخُطِهِمْ وَسَطِ الْمَحْسِ  
دُرٌّ تَشَقُّقٌ عَنْ يَوَاقِيتٍ عَلَى      قَصَبِ الرَّمْدِ فَوْقَ سَطِّ السِّدْسِ  
أَحْمَانِ كَافُورِ حَمْسٍ بَاعِينَ      مِنْ رَعْرَعَانِ بَاعِمَاتِ الْمَحْسِ  
فَكَأَنَّهَا أَقْمَارُ لَيْلٍ أَحْدَقَتْ      شَمْسُوسَ أَفْقٍ فَوْقَ عَصَى أَمْلَسِ  
والرحس هو أعظم أرهار الشام ، وهو الذي يجعل مراعيها بيضاء ناصعة<sup>(٢)</sup>  
وكذلك وصف هذا الشاعر معركة بين الأرهار فقال<sup>(٣)</sup>

حَلَّ الْوَرْدُ حِينَ لَاحَظَهُ الرِّحْسُ      حَسْنٌ مِنْ حَسَنِهِ وَعَارُ الْهَارِ  
فَعَلَّتْ دَاكُ حِمْرَةٍ وَعَلَّتْ دَا      صَعْرَةٌ وَاعْتَرَى الْهَارَ اصْغَرَارُ  
وَعَدَا الْأَقْحَوَانُ يَصْحَكُ عَجْمًا      عَنْ تَنَائِيَا لَثَامِهِمْ بَصَارِ  
نَمَّ نَمَّ الْيَامُ وَاسْتَمَعَ السَّو      مِنْ لَمَّا أُدْبِعَتِ الْأَسْرَارُ  
عَمْدَهَا أَرَّرَ الشَّقِيقُ حَدُودَا      صَارَ فِيهَا مِنْ لَطْمِهِ آثَارُ  
سَكَنَتْ فَوْقَهَا دُمُوعٌ مِنَ الظَّلِّ      كَمَا تَسْكَبُ الدَّمُوعُ الْعَرَارُ  
فَاكْتَسَى السَّمْسَحُ الْعَصَ أَثْوَا      بَ حِدَادِ دَحَاهِمَا الْإِصْطَارُ  
وَأَصْرَ السَّقَامِ بِالْيَاسَمِينِ      الْعَصِ حَتَّى آدَى بِهِ الْإِصْرَارُ  
نَمَّ نَادَى الْخَيْرِ فِي سَائِرِ الرَّهْرِ      فَوَافَاهُ حَمْلُ حَرَارِ  
فَاسْحَاشُوا عَلَى مَحَارِبَةِ الرِّحْسِ      حَسْنٌ بِالْحَمْلِ الَّذِي لَا يَبَارُ  
فَاتُوا فِي حَوَاشٍ سَاعَاتٍ      تَحْتَ سَحَابٍ مِنَ الْعَمَاحِ يَثَارُ

(١) فوات الوفيات للكسي ح ١ ص ٦١ طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ

(٢) رحلة ناصر خسرو (سفرنامه) ص ٣٩ من ترجمه سيمر (Schefer) بعد ذلك يذكرنا

ناصر خسرو بحمزة الرحس الى في طرابلس الشام

(٣) فوات الوفيات ح ١ ص ٦١ ، ونسب المسعودي (ح ٨ ص ٧ ٤) لأنى نواس قصيدة يصف

فيها قتالا بين الرهور حيث يحد الرهور ، الحمراء مثل الورد والخيلار وفاح لسان تحارب الأرهار الصغراء  
مثل الرحس والنهار والأترج وهذه النسب لا يمكن أن تكون صحيحة لأسباب نصيبها القند الداخلي  
ولا يحد هذه القصيدة في نسخة الديوان الى طبع بيروت ، ولا يمكن أن تكون هذه القصيدة من قول  
الصوري لذكرنا طرحي فيها ، ولأن الورد فيها يحصل على الرحس

ثم لما رأيت ذا البرحس اله ص صعيماً ما إن لديه انتصار  
لم أرل أعمل التلطف للور د حداراً أب يُعلب الوار  
فجساهو لدى مجلس في ه تعى الأطيّار والأوتار  
لو ترى دا ودا لقلت حدود تدمس اللحظ حولها الأنصار

وفي القرن الثالث وصف البحترى ركة في دار الخلافة فقال

تنصت فيها وفود الماء مُفجَّلة كالخيل حارحة من حل محريها  
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السائك تحرى في محارها  
إذا المحوم راءت في حواشها ليلاً حسنت سماء ركت فيها  
لا يلع السمك المحصور عايتها لُعد ما بين قاصيها ودائها  
يُغنّى فيها بأوساط محجة كالطير تنقص في حو حواشها<sup>(١)</sup>

والآن نجد الصوري يشته ركة بموضع يصعبه ، تشبيهاً لا يحلو من تطرّف ومسالمة ،  
فيقول<sup>(٢)</sup>

هي الحو من رقة غير أن مكان الطيور يطير السمك  
ولكن لما كان الصوري ساعراً وصافاً للحنان فهو يقول في تلك القصيدة  
وقد بطم الزهر بطم المحوم فمفترق الطم أو مشتك  
وكان الصوري ، وهو أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي ، يجمع إلى ذلك  
ولوفاً شديداً بالسما والصياء والهواء مع التطلع إلى أسرارها الجميلة ، فهو يقول في إحدى  
أعاني الربيع<sup>(٣)</sup>

إن كان في الصيف ريحان وفاكة والأرض مستوقد والحو تنور  
وإن يكن في الحريف المحل محترقا فالأرض عريانة والحو مقرر  
وإن يكن في الشتاء العيت متصلا فالأرض محصورة والحو مأسور  
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا جاء الربيع أذاك النور والنور

(١) ديوان البحترى ح ١ ص ١٧

(٢) المصري على هامش العقد ح ١ ص ١٨٣

(٣) فاروق الوهاب للكسي ح ١ ص ٦١ ، وثر الطم ص ١٤٥

والأرض يا قوته والحو لؤلؤة والست فيرورج والماء تلور  
تارك الله ! ما أحلى الربيع ! فلا تعرر ققايسه بالصيف مغرور  
من شم طيب حبيات الربيع يقل لا المسك مسك ولا الكافور كافور  
وكان أول من تعي بالقصائد الثلحيات ، ومن ذلك قوله<sup>(١)</sup>

دهب كؤوسك يا علا م فابه يوم معصص  
والحو يحلى في البيا ص وفي حلى الدر يعرض  
أطرب دا ثلجاً ودا ورد على الأعصان بعض  
ورد الربيع ملون والورد في كابون أبيض

وقد ترك الصوري آثاراً قوية في الأدب العربي ، وقد طهر أول أثره عبد كشاحم<sup>(٢)</sup>  
شريكه في الوطن وصديقه الحميم ، وقد عبر كشاحم عن هذه الصداقة بقوله<sup>(٣)</sup>

أتسى رماً كما به كالماء في الحجر  
أليعين حليعين على الإيسار والعسر  
مكتنين على اللدا ت في الصحو وفي السكر  
رى في فلك الآدا ب كالشمس وكالندر

وقد سار كشاحم في شعره على الطريق الذي رسمه صديقه الصوري ، فاعتدى به في  
التعني بملكات العين ، فمن ذلك قول كشاحم<sup>(٤)</sup>

أقلت في علالة ررقاء ورقة لقيت بحرى الماء  
فتأملت في العلالة مهياً حسد النور في قميص الهواء  
هي بدر ، وإن أحسن لون طهر الدر فيه لون السماء

(١) ندر النظم للعالى طبعه دمشق ١٣ هـ ص ١٣٧

(٢) كان كشاحم شاعراً كاتباً ، وإلى جانب ذلك كان منجماً وصاحب مطبع لسبب الدولة ، ( انظر

دوايه ورسمه الدهرج ٤ ص ١٥٧ )

(٣) ديوان كشاحم ص ٧٤

(٤) ديوان كشاحم ص ٦



وهو يصف مليحة في لباس حداد بقوله

في حداد كأنها وردة في سفسح

ويقول في علام

كلف الفؤاد شادن أنصرتة  
ما رال يحمش حده نسا به  
وقال يتعزل في مهر قويق لحلب<sup>(٢)</sup>  
في مأنم يكي بطرف أدعج  
حتى تنقب ورده بسفسح<sup>(١)</sup>

والأرض تكسى زهرالر  
كأن حرّ د عينا  
ياص وشيا معمد  
ها يصاحكن حرّ د

وحجرة في شقيق وحصرة في ررحد  
وأقحواب كعقد من لؤلؤ قد تدّد  
والبرحس العص يرو إلى النهار المصدّد  
كما أشار حبيب إلى حبيب موعد  
والهر بين اعتدال من سيره وتأوّد  
كأفصوان تلوى ثم استوى وتمدد  
كأن فيه سيوفاً مهتدات تحرّ د  
فتارة هي تنص وتارة هي تعمد  
كأن ليلوفر الهر فيه سراح توقد  
طوراً تنص وطوراً نشدة الريح تحمد

وهو يقول في وصف بيل مصر<sup>(٣)</sup>

كأن الليل حين أتى بمصر  
وأحرق بالقرى من كل وجه  
وفاص بها وكسرت التراع  
سماوات كواكبها صياح

(١) نفس المصدر ص ٢١ ، ٢٢

(٢) نفس المصدر ص ٤٨ وما بعدها

(٣) كتاب الداراب ص ١١٥

وكذلك نظم قصائد في وصف الثلج ، منها قصيدة أولها .  
الثلج يسقط أم لحين يُسكَّ أم دا حصا الكافور ظل يعرَّك  
على أنه في هذه القصيدة قال ما يدل على عدم انصقال الدوق ، ومن ذلك قوله في

وصف الثلج

راحت به الأرض العشاء كأنها من كل ناحية شعر تصحك<sup>(١)</sup>  
وكان لكشاحم كثير من المعجبين ، وقد قال أحدهم

يا نؤس من يُمنى بدمع ساحم يهيم على حجب العوَّاد الواحم  
لولا تعالاه «كأس مدامة ورسائل الصابي وشعر كشاحم<sup>(٢)</sup>

وكان كشاحم يلقب في منتصف القرن الرابع الهجري «ريحانة أهل الأدب» في بلاد  
الموصل ، وكان الخالدتان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيدا ساهاشم شاعرين كبيرين في الموصل ؛  
وكان هذه المدينة من الشعراء السريين أحمد الكندي المعروف بالرفاء وكلهم — رغم  
ما كان بينهم من تباين وعداوة وكيد — كانوا يسرون في طريق كشاحم ، ويهجون  
مبهجه وكان السري يشتم على الخالدين ويعص منها ، فكان يسبح ديوان كشاحم ،  
ويدسّ فيه أحسن شعر الخالدين ، ليريد في حسم ما يسبحه من شعر كشاحم ، وتُظهر  
صدق ما يدعيه على الخالدين من سرقة شعره ، ولذلك يقول الثعالبي «من هذه الخبة  
وقعت في بعض السح من ديوان كشاحم أتعارّ ليست في الأصول المشهورة منها ، وقد  
وحدتها كلها للخالدين»<sup>(٣)</sup>

وكان أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي المتوفى عام ٣٩٤ هـ — ١٠٤٠ م من أسعد  
أهل العراق ، وورد الموصل صبيا ، فوجد بها أبا عثمان الخالدي وتيوخ الشعراء ، فـ

(١) ديوان كشاحم ص ١٤ (٢) نسخة الدهر ح ٢ ص ٢٤  
(٣) نسخة ح ١ ص ٤٥٠ — ٤٥١ ومن رسائل الصابي رساله بعث بها الى الخالدين برأى منها  
نسخه مما طناه به من مساعده السري على عداوتهما والرضا بطلعه عليها وقال فيها أنصاً إن السري سأل  
اسماع شعر مدحه به ، فلم يحبه إلى ذلك إلا بعد أن شرط عليه ألا يعرض في ذلك ذكر للخالدين ،  
ولا عمر ويدكر الصابي أنصاً أن السري أحضر قطعة من شعره فيها أسعار للخالدين ، فأخرج ما عدده  
من نسخ لشعرهما ، وماطر لسري عانها لندت أنها ليست له انظر رسائل الصابي مخطوطات  
ص ١٣٤ — ٣٥ ب

منه ، واتهموه بأن الشعر ليس له ، فاتخذ الخالدي دعوة ، وجمع الشعراء ، وحصر السلاحي معهم ، فلما توسطوا الشراب أخذوا في ملاحاته والتفتش على قدر بصاعته ، فلم يلبثوا حتى جاء مطر شديد ورتد ستر الأرض ، وألقى أبو عثمان نارحاً كان بين أيديهم على ذلك الرد ، وقال يا أصحابنا هل لكم في أن نصف هذا ، فقال السلاحي ارتحالاً<sup>(١)</sup>

لله درّ الخالديّ الأوحـد الذّب الحـطير  
أهدى لماء المرن عـد حموده نار السعير  
حتى إذا صدر العنا ب إليه عن حمق الصدور  
بعثت إليه بـعدره من حاطري أيدي السرور  
لا تـمدلوه فإبه أهدى الحدود إلى الثعور

وقال أحد الخالدين في وصف الحجر<sup>(٢)</sup>

أرعى الدحوم كأنها في أفقها رهرا الأفاحي في رياض سهـسح  
والمشترى وسط السماء تحاله وساء مثل الرثق المترحرح  
مسمار تر أصغر ركـسته في فص حاتم قصة فيرورح  
وتمايل الحوراء يحكي في الدحي ميلان تارب قهوة لم تمرح  
وسقت بحيف عيم أبيض هي فيه بين تحمر وتـرح  
كتفس الحساء في المرأة إـد كملت محاسنها ولم تـروح  
ويقول أيضاً<sup>(٣)</sup>

ومدامة صفراء في قارورة ررقاء تحملها يد بيضاء  
فالراح تـمس والحباب كواكـ والكـ قط والإباء سماء

وكان الوريث المهلّي شاعراً في مرسة أرقى من مرسة الطنقة الوسطى من الشعراء ، وقد أستا محلساً حافلاً للأدباء ، وكان يحب الطبيعة والشراب ، فبشر طريقة الصوري بعداد ومحدثنا الصاحب بن عماد في كتاب الروربامحة ، وهو يوميات رحلته إلى بعداد ، أن الوريث

(١) نـسبه الدهرج ٢ ص ١٥٧ — ١٥٨

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٥١٤

(٣) نفس المصدر ص ٥١٩



المهلى كان كثير الإيثار لشعر الصورى<sup>(١)</sup>، بل يحد المهلى يسبح على سوال أستاذة ،  
فيصف الثلج ، وهو من الأعاجيب سعداد ، ومن ذلك قوله<sup>(٢)</sup>

الورد بين مصبّح ومصرّح والرهز بين مكلّل ومتوّح  
والثلج يهبط كالنّار ، فقم بما ١ لتدّ ناسة كرامة لم ترح

وكذلك يقول القاصى التوحى — وكان من بدماء المهلى — متأثراً بطريقة الصورى  
فى وصف امرأة مسحها حجل ، وقد بدت فى رداء معصفر<sup>(٣)</sup>

لم أسّ شمس الصبحى بطالعى ونحن من رقصة على فرق  
وحسن عيبى بدمعه شرق لما بدت فى معصر شرق  
كانه أدمعى ووحشها لما رمتا الوثاة بالحدق  
ثم تعطت مكها ححلا كالشمس عات فى حمرة الشفق  
ويقول<sup>(٤)</sup>

لم أسّ دحلة والدحى متصوّب والسدر فى أفق السماء معرب  
وكأنها فيه اساط أرق وكأنه فيها طرار مذهب

وإذا وحدا سيف الدولة صاحب حلب يشبه نار الكابون والرماد بوحمة عذراء مسحها  
حجل فاستترت بحجاب أشهب ، وهو يرى ذلك بعين الصورى<sup>(٥)</sup> وكذلك الواثق يتأثر  
بالصورى حين يصف نار فحم العصا بقوله<sup>(٦)</sup>

وليلة شاب بها المرقى قد حمد الماطر والمطق  
كأما فحم العصا يسا والمار فيه ذهب يحرق

- 
- (١) نسبه الدهرج ٢ ص ١٢  
(٢) نفس المصدر ح ٢ ص ٢ ، ويحد قصيدة أخرى للمهلى فى ٢ اب من باب عده العارب  
للامالى ، طبعه بروك ٩ ١٣ ص ٢٨  
(٣) الإرشاد لياقوب ح ٥ ص ٣٣٨  
(٤) نسبه الدهرج ٢ ص ٩ ١ والإرشاد ح ٥ ص ٣٣٥  
(٥) نسبه الدهرج ١ ص ٢١  
(٦) الديعة ح ٤ ص ١١٣
- كأما النار والرماد معا وصوؤها فى ظلامه يحجب  
وحده عذراء مسحها حجل فاستترت بحجاب أشهب

أوسح في ذهب أحمر بيها يلوهر أرق  
ولما قال الصاحب بن عباد محراسا أواخر القرن الرابع في الثلح  
هات المدامة يا علام معجلا فالعس في قيد الهوى مأثورة  
أو ما ترى كائن يثر ورده وكأما الدنيا به كافورة

لاحظ أبو بكر الخوارزمي أن هذه وأمثالها من الثلجيات كلها عيال على قول  
الصوري<sup>(١)</sup>.

وكان الشريف أبو الحسن العقيلي بمصر حوالي عام ٤٠٠ هـ بمثل طريقة الصوري  
في الوصف، وكان من أكر المدبرين في هذا الباب، « وكان له متهرات بحريرة القسطاط،  
ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا يمدح أحداً »<sup>(٢)</sup>، ومن شعره<sup>(٣)</sup>

وهر من الأشهار ألفت يد الصبا عليه شقيقاً ناره تنصرم  
كأن ابصاص الماء تحت احمراره صفيحة سيف قد حرى فوقها الدم

وقد أهمل وصف السموعات إهمالاً شديداً، فتلا وصف السلامي الشاعر المتوفى عام  
٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م السكر المتى شيرار من غير أن يذكر شيئاً عن حرير المياه أو صوتها<sup>(٤)</sup>،  
ولم أحد من هذا القليل إلا مثالا في شعر للأمير البويهى عن الدولة، وهو قوله في سياق  
قصيدة له<sup>(٥)</sup>، وصف فيها مجلساً على شاطئ الدحلة

والماء ما بين العصور مصفق مثل القيان رقص حول الرامر

وفي أواخر القرن الرابع الهجرى أولع الأدباء بوصف جميع الأشياء على اختلافها،  
فجد وصف الميراب إلى جانب وصف الشاعر صورته في المرأة<sup>(٦)</sup>، وذلك إرصاد لرعة  
الماس في المستخذت وقد وصف المأمونى الشاعر سحارى جميع أصناف الأطعمة من  
حسن وريتون والسملك المشوى وماء الخردل والبيض المعلق والعالودج والهريسة وغيرها

(١) من المصدر ح ٣ ص ٩٥ (٢) العرب لاس سعيد ص ٥٢  
(٣) من المصدر ص ٧٨ (٤) نيمه الدهرج ح ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩  
(٥) من المصدر ح ٢ ص ٥  
(٦) كما فعل الفصار الشاعر المعروف بصراع الدلاء المتوفى عام ٤١ هـ اطر تبه النسبه للثعالى  
مخطوط مسافر ٦٦٨ ص ٢٨ ب (٩)

كثير<sup>(١)</sup> وقال أبو العباس الفصل من على الأسعرايين من كور يساور في وصف شجرة  
بصت في ركة

وشجرة وسط أيمن البرك      تمس في الماء ميس مرتك  
كأنها المدر في السماء سري      فجار في أوجه الفلك

وقال في فوارة أقلت تفاحة

وفوارة سائل ماؤها      سفاحة مثل حد العثيق  
كمفحة من رقيق الرحا      ح تدارها كرة من عقيق<sup>(٢)</sup>

وقال عمدة الوهاب من حسن من جعفر الخاحب الشاعر المصري ( المتوفى عام ٣٨٧ هـ

— ٩٩٧ م ) في وصف الهرمين<sup>(٣)</sup>

أنظر إلى الهرمين إذ برا      للعين في علو وفي صعد  
وكأما الأرض العريضة قد      طمئت لطول حرارة الكد  
حسرت عن التدين نارة      تدعو الإله لفرقة الولد  
فأحاسها باليل يشعها      رثا ويسقدها من الكد

ومما هو عظيم الدلالة أن لا نجد في الشعر العربي مكانا للمكدين الطوائف قبل القرن

الرابع ، من ذلك قول الأحمب الكري مفتحرا<sup>(٤)</sup>

على أنى محمد الله في بيت من الحد  
باحوانى بنى ساسا      ن أهل الحد والحد  
لهم أرض حراسا      ن فقاشان إلى الهد  
إلى الروم إلى الرنح      إلى البعار والسد  
إذا ما أعور الطرى      على الطراق والحد  
حداراً من أعاديهم      من الأعراب والكرد

(١) نسخة الدهرج ٤ ص ٩٤ — ١١٢

(٢) نفس المصدر ص ٣١٦

(٣) الخطط للمعروف ح ١ ص ١٢١

(٤) نسخة الدهرج ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٦



قطعا ذلك الهج بلا سيف ولا عمد  
ومن حاف أعاديه ما في الروع يستعدي

وقد دخل في الأدب على أيدي المكذّين شعر حر مُرْهِر ترموا به ، كما دخل الشعر  
العاطفي العائى المرح الذى لا تكلف فيه وأكر شعراء المكذّين وطريعتهم هو الأحف  
العكرى ، من مدينة عكرى بالعراق ، وهو لم يعنا في حرياتة بوصف شيء من جمال الطبيعة  
الذى يلتد منه الشعراء ، فمن قوله (١)

شربت عماحور على دوت وطبور  
وصوت الطبل كردم وصوت الباي طليز  
وصرنا من حمى البيت كأنا وسط تنور  
وصرنا من أدى الصبح كمثل العمى والعور  
لقد أصحت محمورا ولكن أى محمور

وقال يصف آلام المكذّين (٢)

عشت في دلة وقلة مال واعترا في معشر أبدال  
بالأمانى أقول لا بالمعاني معدائى حلاوة الآمال  
لى ررق يقول بالوقف فى الرأى ورحل تقول بالاعتزال

وقال

العسكوت ست بيتا على وهن تأوى إليه ومالى مثله وطن  
والحفساء لها من حسنها سكن وليس لى مثلها إلف ولا سكن  
ولا محذ فى هذا الشعر صاعقة لعطية ولا رحرقة ولا عبارات من التى تحرى محرى  
لأمثال أو الحكم هذا هو الأسلوب الذى حرى عليه الأدب العربى من عهد قبلون

(١) نفس المصدر ح ٢ ص ٢٨٧ ، وروى عن الخلعة المسمدة أنه قال  
وعصى الأمر أنو أحمد وصرى بالطل كردم كدم

(٢) انظر كتاب الديارات ص ٤٢ ب

(٢) النسخة ح ٢ ص ٢٨٦ ، وكتاب الإغمار للشعالى ص ٢٣٦ ، وكتاب عمار العلوب فى المصاف  
والمسود للمؤلف نفسه ص ٣٤٢

Villon إلى عهد فرلين Verlaine وقد جرى على هذه الطريقة الشاعر محمد بن عبد العزيز السوسي ، أحد تياطين الإيس ، فقد قال قصيدة تروى على أرمائة بيت ، وصف فيها حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات وقد افتتحها بقوله

الحمد لله ! ليس لي تحت ولا ثياب يصمها تحت<sup>(١)</sup>

وإلى جانب هذا الشاعر نجد الشعراء الشعبيين الذين طهروا في مدن العراق السكري مثل أبي الحسن محمد بن لَكَّك البصري ، « وما أشبه شعره في الملاحظة وقلة محاورة البيتين والثلاثة إلا شعر كتيه أبي الحسن بن فارس إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أعرب عما حلب وأندع فيما صنع ، فأما إذا قصد القصيد فقلما يفلح ويصحح<sup>(٢)</sup> » ، وابن سكرة الذي كان شاعراً متنوع الناح ، إذ يقال إن ديوانه يروى على خمسين ألف بيت ، منها أكثر من عشرة آلاف بيت قالها في قبة سوداء يقال لها حمرة<sup>(٣)</sup>

وكان أكبر هؤلاء الشعراء الشعبيين غير مدافع ابن الجراح الذي كان سعداد ، وتوفي عام ٣٩١ هـ — ١٠٠١ م<sup>(٤)</sup> وكان محبباً ولذلك يقول<sup>(٥)</sup>

لا تحاي على دقة كشحي لا تكال الرجال بالقفران

وقد قال مدافعاً عن نفسه ، لما حرج هارثاً من عرمانه<sup>(٦)</sup>

(١) نجد القصيدة كاملة في النسخة ح ٣ ص ٢٤٧

(٢) النسخة ح ٢ ص ١١٦ — ١١٧ ، وقد جمع ابن لَكَّك ديوانه من أحمد الحسري أوردى البصري الشاعر الموصي عام ٣٣ هـ — ٩٤١ م ( السطيم لابن الجوري ص ٧ ب ) ، وكانت أثمار الحسري أوردى قصائد قصيرة في العزل ، وكانت حرفه بحر الأرز ، فكان بحر ونشيد أشعاره والباس يردحون عليه لتسمعوها ، وكان معظمها في العلمان ، وكان أحداث البصرة ينافسون في عمله لا يمدونهم ، ومحمطون كلامه لغرب مأخذه وسهواته ( ينسخه الدهر ح ٢ ص ١٣٢ ) ، وهو الذي عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م ( المروج ح ٨ ص ٣٧٤ ) ، وأكبر العلماء المحدث في ودان من شعره . وكان الحسري أوردى محبباً حتى بعد موته

(٣) البيه ح ٢ ص ١٨٨

(٤) هو أبو عبد الله الحسن بن أحمد ، توفي في طريق السل بالعراق ، وهو عائد منها ، في ٢٧ هجدي الآخرة ( وفي كتاب الوراء ص ٤٣ لسبع هين من سنة ٣٩١ هـ ) ، ودرس إلى جانب من جمعهم الصادق محبة منه لاشعه ، وقد أصر أن يكتب على قبره وكلهم ناسط دراعه الوعد ( سورة الكهف آية ١٧ ) اطر الهمداني مخطوط فارس ص ٣٤ ب (٤) وكان سكنى سوى يحيى ، وقد بقي بها في شعره ( اطر معجم البلدان لياقوت ح ٣ ص ١٩٥ )

(٥) النسخة ح ٢ ص ٢٤٢ (٦) نفس المصدر ص ٢٢٨

هربت من وطني إلى بلد قد صعر الجوع فيه مقاري  
يقول قوم فرّ الحسيس، ولو كان فتى كان غير فرار  
لا عيب لا عيب في الفرار فقد فرّ بنى الهدى إلى العار  
ويظهر أنه قال في ذلك الوقت العصب هدين البيتين الآتين مفتحراً<sup>(١)</sup>  
قد قلت لما عدا مدحى، فما شكروا وراح دمي، فما بالوا ولا شعروا  
على تحت القوافي من معادها وما على إذا لم تفهم المقر  
وكان ابن الحجاج لسحفه ورداءة لسانه تحشى الحاب، مقصي الحاجة، مقبول الشفاعة،  
ولم يرل أمره يترايد حتى حصل الأموال، وصار من أهل الحاه، وقد قال ابن الحجاج نفسه  
لنص الرؤساء، حين كتب إليه يدكر أن سحفه حاور الساهي  
سیدی اسحی الدی قد صار یأتی بالدواهی  
أنت تدري أنه يدفع عن مالي وحاهي<sup>(٢)</sup>  
وقد كان ابن الحجاج من أولاد العمال، واستعمل بالكفانة في أول أمره، ثم صم  
فرائص الصدقات بسقي الفرات، وصار أحياءاً محتسباً على مدينة بغداد ولتد ما حسده  
ابن سكرة، رميله في المذهب الشعري، لأنه كان أقل محاحاً من ابن الحجاج<sup>(٣)</sup>  
وكان ابن الحجاج في قصائده يستعمل عبارات المكدين وأهل التطارة<sup>(٤)</sup> وقد أتاح  
هو وأمثاله فرصة لظهور الفحش المستشع في المدن الشرقية، فرفع هذا الفحش رأسه بعد أن  
كانت قد أحمده الروح العربية وأحرحه من الأدب العربي، لأن الذي كان يسيطر على  
البرعة الأدبية هم البدو الذين هم أكثر عفة واعتدالاً<sup>(٥)</sup> وما أثنى ابن الحجاج رحل كانت  
تقيده سلطة حارحية، فحرر منها واطلق في السحب وكان أساس مبالغة في ذلك أنه

(١) نفس المصدر ص ٢٦

(٢) نفس المصدر ص ٢١١، وديوان ابن الحجاج مخطوط بغداد (مرعاه) نسخة المؤلف ص ٢٥٨

من ح ١

(٣) ديوان ابن الحجاج ح ١ ص ٢٤، وكتاب الوزراء ص ٤٣ والنسخة ح ٢ ص ٢١٩

(٤) النسخة ح ٢ ص ٢١١

(٥) ولو أراد الإنسان أن يحص عن أصل هؤلاء المحان الذين يحاهرون بالفحش لوحد أكثرهم  
معال عنه مثل ما فعل عن ابن الراوندي (الموتى عام ٢٩٨ هـ — ٩١١ م) المالح المنسوب إلى الهرل  
والرندة، وكان أبوه يهودياً فأسلم (أبو المحاسن ح ٢ ص ١٨٤ من طبعه ليدن)



أراد أن يتحد من الإسراف في الفحش طريقاً لمعارضة الشعراء الآخرين الذين كانوا يعالجون  
في شعرهم الموضوعات الحسنة ، وهو يقول<sup>(١)</sup>

وشعري سحفة لا بد منها      وقد طسا وراى الاحتشام  
وهل دار تكون بلا كيف      فيمكن عاقلاً فيها المقام

وهو يقول

ترانى ساكماً حاوت عطر      فإن أنشدتُ ثار لك السكيف

ومن قوله

ومن كل يحوى العطرَ دكانُ شعره      فإني ككتاس وشعري مخرج  
ولهذا جاء في كتاب في الحسنة لمؤلف متأخر ما يقضى بمع الصبيان من حفظ أشعار  
ابن الجراح والنظر فيها ونصرهم على ذلك<sup>(٢)</sup> ولكن يظهر أن ابن الجراح لم يلحقه عند  
معاصريه صرر نسب ذكره للمقادير وإفصاحه عن السحب والفحش والمجون فمثلاً كان  
الشريف الرضى نقيب العلويين وأكبر أصحاب المكناة في الدولة العباسية من أكر المعجبين  
بأن الجراح والمتعصبين له ، وقد رثاه بقصيدة ، واحار من شعره السليم أشياء كثيرة وقد  
حمل إليه الخليفة الفاطمي ، صاحب مصر عن مديح مدحه ألف دينار معربة على سبيل  
الصلة<sup>(٣)</sup> ويحكى أنه كثيراً ما بيع ديوان شعره بخمسين ديناراً إلى سبعين وقد سأل  
المكركى معنى سيف الدولة ابن الجراح أن يصنع شعراً ليعتق به بين يدي سيده ، فألف له  
شيئاً<sup>(٤)</sup> ويقول ابن الجراح نفسه<sup>(٥)</sup>

لو حدّ شعري رأيتَ فيه      كواكب الليل كيف تسرى  
وإعما هزله محو      يمشى به في المعاس أمرى

وكان ابن الجراح لا يبنى حُلَّ أقواله إلا على سجع ، « ولم تُر كافتداره على ما يريد  
من المعاني مع سلامة الألفاظ وعدوتها » ، وكان لا يبالي بالورن والقافية ، وقد حوى ديوانه

(١) اليمنه ج ٢ ص ٢١٤ (٢) محله المسرق اليمنه العاسرة ص ٨٥ ١

(٣) كتاب الوراء ص ٤٣ ، وديوان ابن الجراح ج ١ ص ٢٣٧

(٤) ينمة الدهر ج ٢ ص ٢١٥ . ٢٢٦

(٥) نفس المصدر ص ٢١٣

كثيراً من الكلمات غير المعروفة أحدها من لغة العامة سعداد في القرن الرابع الهجري<sup>(١)</sup>  
وكان يعرف التمدح الشعرية الماثورة ، غير أنه يحايلها ويعارضها معارضة سحرية وهزل ،  
فما قاله عند موت سكتكين

واستى تمكى مرد عينى لفقد عيى سكتكين

إلى أن قال

ما لكيف دفت فيه لا رال يُسقى عيت النطون<sup>(٢)</sup>

ولكننا نرى بين حين وآخر من حلال هذا الصواب الذى يكون من السحب والمخون  
معانى وألغاطاً مثل كواكب الليل ، ويستطيع أن يدرك لماذا كان معاصرو هذا الماحن  
يعدونه شاعراً كبيراً

أما المسنى الذى يرجع أصله إلى العراق أيضاً ، والذى نشأ في الشام ، فحده يمسك  
بطريقة العرب القدماء ، خلافاً لهؤلاء الشعراء<sup>(٣)</sup> المحدثين

كان أولئك الشعراء واقعيين في رغبتهم الشعرية ، فكانوا يتعنون بما يرويه ويمحسونه  
وشاهدونه ، أما المسنى فهو مثال للأستاذ العالم الذى يستهويه المعنى الكلى ، فمن ذلك أن  
رحلاً حرح للصيد مرة ، وكان معه كلب فطرد به طيباً ، ولم يكن معه صقر ، فاستحسن صيد  
الكلب ، وقال للمسنى وَدِدَا يَا أبا الطيب لو كنت معاً فقال له أما قليل الرعة في

(١) ومن أسف أنها لم تسرح إلا سرحاً جزئياً وذلك في نسخة الديوان المخطوطة بالمتحف البريطاني

(٢) ديوان ابن الجراح مخطوط سعداد ص ٨ ، ومخطوط دار الكتب المصرية رقم ٧٣٤٢

س ٦١ — ٦٢

(٣) وكذلك كان الشاعران الشاميان أبو تمام (الموتى عام ٢٣٠ هـ — ٨٤٥ م) والبحتري  
(الموتى عام ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م) محافظين ، وقد نهجاً طريق أسلافهما من شعراء دمشق وهم الفرزدق  
وحرير والأحطل على أنه قد بلغ من الحسن السعري عند البحتري أنه قال إن أنا نواس أسعر من مسلم  
ابن الوليد ، لأنه يصرف في كل طريق ، إن شاء حد وإن شاء هزل — ومسلم يلزم طريقاً لا بعداه ، فعلى له  
إن تعلماً لا نوافقه فقال ليس هذا من علم نعل وأصراة من يحفظ الشعر ولا يقول ، وإنما يعرف الشعر  
من دفع إلى مصاعفه ، (انظر Goldziher, Abhandlungen Zur arabischen Philologie S, 164, 4 Ann)  
على أنه كان بالشام شاعر مشهور هو أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المعروف باسم الرافعي  
الموتى عام ٣٩٩ هـ وقد صرف بالشعر الجدل في أنواع الجد والهزل ، وكان بالشام كان الجراح في العراق  
(نسبه الدهر ح ١ ص ٢٣٨ — ٢٦١) ، انظر للاسرافة من أحباره معاهد التنصيص مخطوط برلين  
رقم ٧٢٢٤ ص ١٥٦

مثل هذا ، فقال له الرجل : إنما اشتييت أن تراه ، فتسبحه ، ونقول فيه شيئاً ؛ فأجاب المتنبي إنه يستطيع أن يفعل ذلك من غير أن يحصر الصيد أو يرى السكاب ، وقال قصيدة وصف بها الكلب وسرعته ، على الطريقة المأثورة<sup>(١)</sup>

وكان المتنبي كثير الأحاد من ابن المعتز على تركه الإقرار بالنظر في شعر المحدثين<sup>(٢)</sup> وقد عاداه شعراء العراق كان سكرة وابن له كك<sup>(٣)</sup> ، وابن الحجاج<sup>(٤)</sup> ، وعملوا على ثلثه والتماح به والتنادر عليه ، وقد انتهى إليها وصف محاورة حرت به وبين أحد الشعراء لما ورد المتنبي مدينة السلام وتدل هذه المحاورة على سوء ما وقع بين المتنبي وشاعر الملوك وبين أدباء بغداد ، ذلك أن المتنبي قدم إلى مدينة السلام ، وقد المحف رداء السكر ، وصغر حده ، فذهب إليه الخاتمي الشاعر ، فوحده يلبس سمعة أقيية ، كل قباء منها لون ، مع أن الوقت كان أحر أيام الصيف وأحلقها سحيف اللبس ، فأعرض المتنبي عنه ، وجاهله ، ولم يسأله عن قصده ، ثم كلمه الخاتمي وأعطاه القول<sup>(٥)</sup>

وكذلك كان أبو فراس الشاعر الشامي المتوفى عام ٣٥٧ هـ — ٩٦٨ م يسبح على موال القدماء ، لم يحد عن ذلك قط وأعرب ما رآه فيه قلة تعرضه في قصائده ، أو بالأحرى أنه لم يرد أن يتعرض في قصائده ، لذكر الحروب الشعواء التي كانت ناشئة في عرب المملكة الإسلامية ، ونظراً لأنه كان ابن حال سيف الدولة الأمير الحمداني ، فلا بد أن يكون قد داق الكثير من أثر حوادث ذلك العصر ، وإن كان الكثير من شعره في العصر ليس إلا حملاً لا حقيقة وراءه وقد يستحيل على من لم يكن ملماً بحوادث ذلك العصر أن يستلطف من قصائده أن الروم والمسلمين والمصريين كانوا يتحاربون بمحيوس حرارة مساحين بأكل سلاح

(١) ديوان المتنبي طبعه القاهرة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٨ م ج ٩٧ — ٩٨

(٢) النسخة ج ١ ص ٩٨ (٣) نفس المصنف ج ١ ص ٨٥ — ٨٦

(٤) ديوان ابن الحجاج مخطوط بغداد ص ٢٧

(٥) الإرشاد لباقوب ج ٦ ص ٥٥ وما بعدها ، وطرار الخالصة للشمس طبعه مصر ١٨٩٤ ج ٢

ص ٦٥ وما بعدها والنسخة ج ١ ص ٨٥ ، وقد ترك أبو العلاء الشاعر الشامي مدحه بغداد في عام ٤ هـ وذلك لأن الرضى طعن في المتنبي ومدحه أبو العلاء ، فأخرج الرضى من العزلة ( انظر مقدمته ومرحلتها لرسائل أبي العلاء ص ٢٨ ، وقد ألف أبو العلاء سرحاً كبيراً لأشعار المتنبي سماه كتاب العلاب والمصون انظر kremer, SWA, 117, S 89



حر في عمره ذلك العصر ، ولا يريد وصفه لهذه الحروب الكبيرة في شعره عما يمكن أن يقال في وصف قتال بين قبيلتين من البدو ولا أرى في القصائد التي قالها في سجنه سلالاد الروم إلا أنها أثر مسحوع ، وإذا وجدنا من يبالغ في امتداحها من المؤلفين كالصاحب والشعالى فهذا برهان حديد على ضعف الفارق بين الكاتب والشاعر

وقد ولد الشريف الرضى عام ٣٦١ هـ — ٩٧٠ م بغداد ، وكان في الثلاثين من عمره ، لما مات ابن الحجاج ، وكان الرضى شاعراً عظيماً ، وقد احتار من شعر ابن الحجاج كتاباً سماه الحسن من شعر الحسين<sup>(١)</sup> وكان الشريف الرضى سيّداً كبيراً المحذر من شجرة عظيمة عريقة النسب ، فلم يستطع مخالفة التقاليد والبرول إلى ما رل إليه ابن الحجاج من إسفاف ومعالجة لخواحي الحياة التي لا تليق بالرصى ، فقد كان أبوه نقيماً للعلويين جميعاً ، فلما مات في سنة ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م تولى الرضى منصب أبيه وجميع ما كان يتقلده ويعهد به إليه ، وإن لم يكن الشريف أكر إخوانه وكانت داره مثال الأبهة في المظهر ، وقد اتخذ داراً لطلبة العلم سماها دار العلم ، وهياً لهم فيها ما يحتاجون إليه<sup>(٢)</sup> وكان الرضى مشهوراً بأنه لا يقبل من أحد شيئاً ، وقد رفض مرة هدية من وزير<sup>(٣)</sup> ، وكان شجوراً بأنه قاص على من تحت أمره من العلويين ، وكان ينسب إلى الإفراط في معاقبة الخاني منهم ، وله في ذلك حكايات مشهورة ، منها أن امرأة علوية شكت إليه روحها ، وأنه يقامر بما يتحصل له من حرفة يعاينها ، وأن له أطفالا ، وهو ذو عيلة وحاجة ، وشهد لها من حصر بالصدق فيما ذكرت ، فاستحضر الرجل ، وأمر به فسطح ، وأمر بصره ، ثم رال بصره ، والمرأة تنتظر أن يكف ، والأمر يريد ، حتى بلغ صر به مائة حشة ، فصاحت المرأة واُيتم أولادى كيف تكون صورتنا إذا مات ؟ فكلما الشريف بكلام فط ، وقال طمّنت أُنك تشكيه إلى المعلم<sup>(٤)</sup> ؟ وكان الشريف الرضى أول عظيم من عظماء العلويين ألقى سلاح المصال وعير لباس السواد بلباس البياض على الرسم العباسى للعمال ورجال الخلافة تاركا شعار الدي كان يلبسه آناؤه ككبرياء يوارى ما كانوا شعرون به من حرر وهو يشير في بعض شعره إلى أن حدره راجع إلى شيء من

(١) ديوان الرضى طبعه سروب ٧ ١٣ ص ٢

(٢) نفس المصدر ص ٣ (٣) نفس المصدر ص ٢ ، ٣

(٤) ديوان الشريف الرضى ص ٣ و ص ٩٢٩

السكّانة والهم الذي انطوت عليه نفسه ؛ وهو يقول مثلاً<sup>(١)</sup> .

أروم انتصافي من رجال أناعد      ويمسى أعدى لي من الناس أجمع  
ويقول

إذا لم تكن نفسُ الفتى من صديقه      فلا يحدث في حلة العير مطلباً  
ويقول

وقالوا تغلّ إماما العيش بومه      تقصى ، ويمسى طارقُ الهم أجمع  
ولو كان يوماً ساكناً لخدمته      ولكيه يوم مروع مفرّج

ولم يكن يخرج من فم هذا الرجل البيل حقيقة كلمة واحدة من الكلمات التيسية التي يتلفظ بها العامة ، والتي يرى مثلها عند إبراهيم الصائى صاحب ديوان الرسائل ، وعند الوريث المهلى ، وعند الوريث ابن عماد . وإذا كان غيره من الشعراء قد استباحوا أنفسهم في لدم كل قبيح فأبى لا يحد للشريف الرضى في باب الهجاء أبوى من دمه لمعنّ أرد قبيح الوجه وهو<sup>(٢)</sup>

تعى بمطره العيون إذا بدا      وفي عهد عيائه الأسماع

أشهى إليا من عيائك مسمعا      رحل الصراغم بنهن قراع

وإذا كما يحد رحلا كالشريف الرضى قد كلف نفسه مشقة قراءة ديوان ابن الجراح واسحاب أشعاره الحالية من السجف والحقون ، ثم ألق مرثته لهذا الشاعر<sup>(٣)</sup> فإن في ذلك شرفاً لهذين الرحلين معاً على أن الرضى كان أكثر ميلاً إلى التسيى ، لأن ابن حنى صاحب الشرح لديوان المتنبي كان أساده ، وهو يقول الشعر في كل ما كان يقرض الشعراء الممسكون بذهب القدماء في ذلك العصر كالتبثة الميرور ، وعيد العمد وشم رمصان وناشء شهر الصوم ، والمهرجان والتبثة بمولد بنت أولاد ، ومدح الخلفاء والسلاطين والوراء ، ورثاء من يموت من العطاء أو من المقربين إليه ، وحسوداً ثانياً الحسين في عدا

(١) نفس المصدر ص ٥٥ ، ٦٥ ، وكان السرف لا يمد شعره إلا بالـ ، ح قال :  
لهاء الدولة له ، سكر عليه ترك الإسماعيل بن ديه (الديوان ص ٩٥٤) .  
كأنه أنه ولد لأمه وهو في الخامسة والـ من ار .

(٢) ديوان الرضى ص ٥٠٠ (٣) الديوان ص ١٦٢ ١٦

وفاته ، وهو يوم عاشوراء وهو يفتخر بأهل بيته والأشراف ، ويشكو الرمان والشيب وقد  
شكى المشيب وهو صغير ، كما جرى عرف الشعراء ، ولحسن الخط حلق الشريف مقدّم رأسه  
مرة وفاء بيبي ، فوجد شعراً أبيض ، وكان إيداك في العتريين من العمر ، فكان في  
هذا على الأقل سبب شخصي يبرر له أن يبدأ الكلام في المشيب<sup>(١)</sup>

ويعتبر الشريف الرضي في تاريخ الأدب العربي سيد أصحاب المرائي<sup>(٢)</sup> ، وهو يفعل ذلك  
متبعاً للطريقة الماثورة تماماً من غير تعرض لشخص المرائي ، وهذا عريب ومما لا يكاد يصدق  
وفي سنة ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م فقد الشريف الرضي أستاذه وصديقه ابن حنّ اللعوي  
المشهور وقد بدأ رثاءه له بالشكوى من الفناء ، وهو يقول<sup>(٣)</sup>

كأنا قدي يرمى به السيل كلما      تطاوح ما يب الرمي والأبارق  
ثم يمضي مكثرأ من تساؤله أين ؟ مثل قوله  
فأين الملوك الأقدمون تساندوا      إلى حدم أحساب كرام المعارق

وبعد هذا يذكر ما امتار به الفقيده من المواهب فيقول

من لأواني القول يبلو عراكها      ويحدها حدف السال الموارق  
إذا صاح في أعقابها اضطردت له      ثواني بالأعناق طرد الوسائق  
وسومها ملئ المتون كأثما      رائع من آل الوحيه ولاحق  
تعلل في أعقابهن وسومه      بأنقى نقاء من وسوم الأياق  
من للمعاني في الأكمة أقيت      إلى ناقر عيب المعاني وفائق  
يطوح في أنسابها بصميره      مرير القوى ولأح تلك المصايق  
تسم أعلى طودها غير عائر      وحاوّر أقصى صحبها غير رالق

(١) وروى علي هدا عن أبي فراس الأمر الشامي السامر ، وقد لوحظ أنه أحد ذلك من أبي فراس

أما أنساب أبي فراس فهي ( هلا عن كتاب ( Dvorak Abu Firas 1895, S 141 )

عذري من طوالم في عذارى      ومن رد الساب المسعار

وبوب كتب ألسه ألس      أحرر دله من الحوارى

وما رادب على المسرى سى      فما عذر السب إلى عذارى

(٢) السمه ح ٢ ص ٨ ٣ (٣) ديوان الشريف الرضي ص ٦٠ هـ



وهنا ينتهى كلام الشريف الرضى عن صفات المرثى ، أما بقية القصيدة فهو مما يصلح أن يقال فى كل رثاء

ورغم أن الشريف الرضى كان يقيم سعادة عاصمة المملكة ، وكان عالماً هادئاً ، فإنه تجاوز حياة المدن ، ومضى فى شعر العروسية الخيالى من كلام فى الحرب والصحراء والجمال وكرام الخيل

على أن الكثير من شعره ثمرة لحرته الخاصة أحس به إحساساً عميقاً ، وعبر عنه تعبيراً خاصاً به ، بحيث نستطيع أن نستشف من وراء هذه الأتعار التى تخرى على نسق واحد أنه تلميذ لاس الحجاج ومن عرر قصائد الشريف الرضى القصيدة التى ألقاها فى مجلس الخليفة القادر ، حينما جلس يحتفل بالحجيج من أهل حراسان ومطلعها<sup>(١)</sup>

لمن الحدوج تهرهن الأيتق والرك يطمو فى السراب ويعرق  
يقطعن أعراض العقيق قمشتم يحدو ركائنه العرام ومُعرق  
أنقوا أسيراً بعدهم لا يعتدى مما يحس وطالبا لا يلحق  
يهو الولوع به فيطرف طرفه ويريد حولان الدموع فيطرق

ومن أروع قصائده قوله فى النسب<sup>(٢)</sup> بأمرأة حميلة فى قافلة تسير ليلاً

طلعت والليل مشتمل سابع الأديال والأرر  
من حصاصات العيظ ، وقد عرّدت الحادى على أقر  
ورقاب القوم مائلة من تقانا شوة السهر  
فاستقاموا فى رحالهم يتبعون الصوء بالطر  
فامتربيا ، ثم قلت لهم ليس هـدا مطلع القمر

وهكذا نجد الصورى والمنتى وابن الحجاج والشريف الرضى يقفون حسنا لحسب فى القرن الرابع الهجرى ، وكل واحد منهم يشبه فى الناحية التى سع فيها قمة تشرف على كل القرون التالية للأدب العربى

(١) ديوان الشريف الرضى ص ٥٤١

(٢) نفس المصدر المقدم ص ٣٩٤







